عادل سعيد بشتاوى

الأندلسيون المواركة

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

عادل سعيد بشتاوى

الأندلسيون المواركة

الغلاف تصميم الفنان

مكرم حنين

الإهـــداء

● إلى الأندلسيين المواركة الذين حملوا راية العروبة والاسلام فسقطوا ضحايا لكارلوس الخامس وفيليب الثانى ومحاكم التفتيش وتخاذل الإخوان فى الدين والقومية .

● إلى كل الشرفاء الذين يحاولون اليوم منع كارثة مشابهة .

وأيضا :

إلى زوجتى فلولا صبرها وعونها ماتمكنت من انجاز هذه الدراسة .

المؤلف

ملاحظات على النص

نقصد بالأندلسيين « الموارِكة » العرب الذين بقوا فى قشتالة ومملكة غرناطة إثر صدور مرسوم التنصير سنة ١٥٠٢ ، والأندلسيين البلنسيين الذين نصرهم الرعاع بالقوة سنة ١٥٢١ . وكلمة « الموارِكة » تعريب لكلمة (Moriscos) القشتالية التى تعني « النصارى الجدد » أو « النصارى الصغار » . وسبب اختيار « الموارِكة » محاولة التفريق بينهم وبين الأندلسيين الذين سكنوا شبه جزيرة ايبرية قبل سقوطها جزءا خلف الآخر طوال عدة قرون . واستخدم بعض المؤرخين وصف « المتنصرين » على الأندلسيين الغرناطيين ولكن هذا الوصف لايتمشى مع واقع الأمور كما سيتبين في النص . واستخدم البعض الآخر وصف « المورسكيون » ولكن هذا الوصف يعطى الانطباع بأن الحديث يتناول شعبا لايمت إلى العرب بصلة .

ووصف القوى التى حملت السيف ضد الأندلسيين طوال سبعة قرون بأنها « أسبانية » يعنى الوقوع في مغالطة تاريخية كبيرة لأن المدلول السياسى الواضح لهذه الكلمة لم يستخدم الا فى نهاية القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فكانت الكلمة ذات مفهوم غامض شاع استخدامه بين العامة كاطار جغرافي شمل قشتالة ، كما شمل ارغون وليون وقطالونيا ونافار والبرتغال ، وورثته عن الرومان الذين أخذوه ، كما يبدو ، من الفينيقيين . أما كلمة « الأندلس » فكانت تعني في البداية كامل شبه جزيرة ايبرية ثم تقلص مفهومها مع استمرار انحسار السلطة الإسلامية ، وباتت تعرف باسم « الأندلس الصغرى » في المراحل التالية قبل أن تقتصر السلطة الاسلامية على مملكة غرناطة . أما تسمية « الأندلس – اندلوثيا » اليوم فلها مدلول جغرافى واضح يشمل المنطقة الواقعة بين مرسية شرقا وحدود أسبانيا مع البرتغال غربا ، وهي مقسمة إلى ثمانى مقاطعات رئيسية هى : المرية وغرناطة وجيان وقرطبة ومالقة وقادس واشبيلية وولبة ، وتضم وادى النهر الكبير والرقعة الجنوبية التى اطلق عليها الرومان اسم ، بيتكا (Baetica) .

وإذا صعب انتهاج التحديد المطلق على الدوام نظرا للتغييرات الكبيرة التى طرأت على شبه جزيرة ايبرية طوال قرون عديدة ، فان التحديد سيكون الغالب حيثما أمكن . وسيرد اسم « الشماليين » أو « الممالك الشمالية » أو « أهل الشمال » للدلالة على القوى النصرانية التى حاربت المسلمين . ومعظم المواضع ترد في النص بالإسم الذى شاع بين الأندلسيين ، إلا إذا اقتضى النص الإشارة إلى الإسم الأسبانى أو المحدث فيدرج عندها الاسم المحدث مع كتابته باللاتينية أحيانا . ونظرا للاختلاف الكبير فى المصادر العربية القديمة بالنسبة لأسماء الأعلام ، فإن الأسماء ستكون كما يلفظها أهلها باستثناء الشائع المألوف .

واعتمد في النص التقويم المسيحي ومايقابله فى التقويم الهجرى في الفترة الواقعة بين فتح الأندلس واستسلام غرناطة ، ثم فيما بعد فى الأماكن الملائمة.وفى الملاحق جداول باسماء الحكام المسلمين وأهم حكام الممالك الشمالية ، وكذلك بأهم الأحداث التاريخية والمواضع والأسماء المهمة ومايقابلها باللاتينية. وربما لاحظ القارىء بعض التكرار فى معلومات معينة فى الفصول المختلفة ، والسبب طبيعة النص التى تفرض استقلالية محدودة لكل فصل ضمن موضوع عام واحد ، وروعي أن ترد المعلومات تلك بصورة مختلفة وتضمينها معلومات جديدة .

ولعل من المناسب القول أخيرا أننى ، وإن حاولت تدقيق جميع المعلومات الواردة فى النص طوال خمس سنوات من إعداده ، فإن هذا لاينفي بالطبع مسؤوليتى عن جميع الأخطاء الواردة فيه .

مقدمة

(١)

منذ الفتح الذى اطلقه بنو أمية من دمشق اصطدم بهزيمة بلاط الشهداء ، وانحسر نحو الأندلس فأقام أصحابه هناك تسعة قرون بنوا خلالها مجدا وحضارة مانزال نكتشف جوانبهما إلى اليوم ، وسيظل تأثير تلك الحضارة باقيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومنذ قيام الإمارة في قرطبة ، تحتم على الأندلسيين الاعتماد على أنفسهم لرد كل القوى التى حاولت غزو الأندلس سواء جاءت من الشمال ، أو من المملكة الكارولنجية ، أو من النورمان . ولعل من الصعب التطلع بغير الأعجاب إلى السلطة التى بناها عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، بغض النظر عن الأساليب التى اتبعها ، إذ استمرت بمقدار ثلاثة أضعاف عمر الخلافة الأموية وفاقت فى استمرارها السلطة الفعلية للخلافة العباسية ، بينما سقطت مملكة غرناطة بعد ٢٣٤ سنة من اجتياح المغول لبغداد واستمر التأثير الأندلسى مهما حتى بداية القرن السابع عشر . وبقاء الامارة ، ثم الخلافة القرطبية كل تلك السنوات ، يضع جميع القلاقل والأخطار الخارجية التى تهددتها في فترات مختلفة ضمن الإطار الذى أمكن السيطرة عليه . ولكن هذا لايمنع القول بأن بعض تلك الأخطار ، ولاسيما الداخلية منها ، كاد في لحظات كثيرة أن يقوض سلطة قرطبة ويعجل في سقوط الأندلس .

وفى الأندلس اشترك المسلمون والنصارى واليهود في صنع دولة كانت أقوى دول أوروبا . فهابها الجميع واسترضاها القاصى والدانى . وإن كانت الأندلس فتحت بالسيف فإنها استمرت على المساواة والسماحة ، ونهضت بفضل جهد أصحابها الذين صنعوا الثروة الاقتصادية الهائلة بالاعتماد على الزراعة والتجارة والصناعة ، وتضافرت عبقريات أبنائها فسقت من المشرق ماكان كافيا لصنع حضارة فذة تطورت مع الزمن ، فأصبحت قرطبة وطليطلة وسرقسطة واشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية المركز الحضارى ، الذى نهل منه الجميع ، وقامت على علومه الممررة من اليونان أو المطورة في المشرق والأندلس دعائم عصر النهضة الأوروبي ، وباتت قرطبة فى أوج عظمتها « زينة الكون » فاغتسل أهلها بتسعمائة

حمام عام وتوجهوا بالشكر للخالق في ٤٠٠ مسجد مستضيئين بألاف المصابيح المصنوع بعضها من الفضة الخالصة ، وسار مسلمها ونصرانيها ويهوديها على شوارعها المرصوفة فى أمان لم يتكرر بعدها فى أية بقعة من بقاع العالم إلى يومنا هذا .

إلا أن من الصعب ارضاء الجميع حتى فى المجتمعات التى لاتميز عموما بين صاحب هذا الدين أو ذاك ، ولذا فإن موجة الفتح الأولى دفعت إلى الشمال بمجموعات من الفارين والناقمين وتوفرت لواحد من القوط الغربيين ، يدعى بلايو ، العزيمة والتصميم للوقوف وجماعة صغيرة من اتباعه في وجه محاولات القضاء عليهم ، وبنى مملكة صغيرة تقوت بالناقمين أو الفارين من الجنوب ، وتطورت بفضل وعورة المكان الذى التجأت إليه فى أقصى شمال الأندلس . وخلال القرون الثلاثة التالية طورت الممالك الشمالية نظمها الادارية والعسكرية ، وانفردت قشتالة بلغة خاصة ، وبات من المستحيل أن يتمكن الأندلسيون من استيعاب تلك المناطق الشمالية على الصورة التى استوعبوا فيها الجنوب قبل ذلك . إلا أن تلك الممالك افتقدت الوحدة الضرورية . وهي وان كانت حققت بعض الانتصارات وتمكنت من مد سلطانها نحو الجنوب مستغلة النزاعات الداخلية التي عصفت بالأندلس ، إلا أنها لم تكن تشكل خطورة حقيقية على الإمارة أو الخلافة ، كما اتضح عندما قاد الحاجب المنصور جيوشه السنة تلو الأخرى ودك معاقل الشماليين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، فاسترضاه ملوك الشمال وقدم إليه أحدهم ابنته .

ولكن انتصارات المنصور على الشماليين لم تكن لتخفي عوامل الانقسام الداخلى المتفاعلة منذ فتح الأندلس . إذ اندلع الصراع في البداية بين البربر والعرب، ثم اندلع بين العرب أنفسهم ، ثم بين العرب والمولدين وذهب بعض الحكام يستكثر من العبيد الصقالبة والزنوج حتى جاء المنصور فقضى على نفوذ العبيد والمرتزقة ، ولكنه بنى جيشه على البرابرة والمماليك وأسرى الحرب ، ونحى زعماء القبائل العربية

خوف المنافسة ، وابتعد العرب عن الجيش فى فترة خطيرة تميزت بروحها العسكرية العالية التى مالبثت ان انتقلت إلى الشمال . وكانت كل عوامل الانفجار موجودة يوم توفى المنصور ، ولكن الانفجار ذاته تأجل خلال عهدى ابنيه المظفر وعبد الرحمن شنجول ، ثم اتيحت الفرصة أخيرا لقيام المنافسة بين البربر والعبيد والمرتزقة فدبت الفتنة ، وخرب البربر قرطبة فانتقموا من الهزيمة الماحقة التى لحقت بهم بعد دخول الجيش الشامى إلى الأندلس . وفي السنوات اللاحقة اخفقت جميع محاولات بعث الحكم الأموى والإبقاء على وحدة الأندلس ، فتقسمت ، وبدأت الفترة المعروفة باسم ممالك الطوائف مع إطلاله القرن الحادى عشر .

وجاء انهيار الخلافة القرطبية في وقت حرج من تاريخ أوروبة والمشرق . حركة الاصلاح البابوية سعت في النصف الأول من القرن التاسع إلى زيادة التلاحم بين أبناء المسيحية وتدعيم سلطة البابوية ، وقويت هذه الحركة في السنوات التالية إلى أن جاء البابا يوحنا العاشر فبدأ فى الربع الأول من القرن العاشر قيادة الحملة لاخراج المسلمين من ايطاليا . وفي عهد الاسكندر الثانى تمت حركة لمركزة السلطات الكنسية الأوروبية تحت إمرة البابوية ، فراح يحث النورمان على طرد المسلمين من صقلية والجزر الأخرى في البحر الأبيض المتوسط الذى كان بحيرة اسلامية فى القرون الثلاثة السابقة ، مستغلا الضعف الذى ألم بالأندلس والمغرب العربي . ولايمكن فصل هذه التحركات الأولى عن الحروب التالية التي عرفت باسم الحروب الصليبية ، وشملت المشرق كما شملت الأندلس باعتبارها الجبهة الغربية لصراع البابوية مع الإسلام .

وهكذا بدأ الفرنسيون وغيرهم من أمم اوروبة فى التدفق على ممالك الشمال الأيبيرى بحثا عن فوائد دينية ودنيوية ، ولم يتمكن ملوك الطوائف من لجم الخطر القادم من الشمال لضعفهم وتفرقهم ، فدفعوا الجزية لملوك الشمال . ولكن الجزية فى ابعاد شر الشماليين عنهم ، بل قدمت لملوك النصرانية الأموال

التى ساعدتهم على استقدام المرتزقة وتقوية الجيش ، ووفرت الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهزيمة . وسقطت طليطلة سنة ١٠٨٥ على يدى الفونصو السادس .

وكان واضحا مع سقوط عاصمة الثغر الأوسط أن ميزان القوى مال إلى صالح الممالك الشمالية ، فدب الرعب فى الناس وتعالت بعض الأصوات تنادى بالرحيل عن الأندلس . إلا أن هؤلاء كانوا قلة لأن غالبية الناس لم تكن تعرف غير الأندلس موطنا ، ولذا اختار البعض أهون الشرين وطلبوا من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين النجدة ، وتمكن الأخير من هزيمة الفونصو السادس فى موقعة الزلاقة التى وقعت في السنة التالية من سقوط طليطلة . ولكن شعور السلطان بأن بعض ملوك الطوائف يميلون إلى الاتفاق مع الفونصو ، وأنه أحق بالأندلس من حكامها ادى إلى استيلائه على السلطة في تلك البلاد الغنية ، وتحول المجير إلى جائر يتحكم في الأندلس وأهلها ، فلا هو تركهم يقررون مصيرهم ولاهو حماهم في كل الأوقات ، إذ سقطت بلنسية بعد ثلاث سنوات من بداية عهد المرابطين في الأندلس ، ولم يتمكن من استعادة طليطلة رغم حصارها ، وأعطى الفونصو السبب لحث الفرنسيين على نصرته بتشجيع رجال الدين .

وسنة ١٠٩٥ كانت ذات تأثير كبير على تطورات التاريخ فيما بعد إذ تسبب ضغط الأتراك على الامبراطورية البيزنطية في إجبار اليكسوس كومينوس على طلب العون من البابوية رغم القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية . واستغل البابا اربانوس (اربان) الثانى الطلب لكي يعلن الحرب الصليبية على الاسلام ، دون اغفال أهمية نصرة المسيحية لأبنائها الذين يحاربون المرابطين والأندلسيين فى الغرب ، ولم يمض ٤٥ شهرا على الخطبة حتى كان الصليبيون في بيت المقدس . على الجبهة الغربية تمكن المرابطون

من وقف أى تقدم حاسم للقشتاليين ، إلا أن الدعم الفرنسى لمملكة ارغون ادى إلى احتلال سرقسطة سنة ١١١٨ وتوج الفرنسيون بذلك تدخلهم الذى بدأه شارلمان قبل أكثر من ثلاثة قرون فيما عرف باسم الثغر الكارولنجي . غير أن صاحب نصر سرقسطة لم يتمكن من الاستفادة من نصره ، فوقعت به الهزيمة في معركة قتندة . ولم يمض عقد من الزمن على تلك الحادثة حتى كان المرابطون قد انهاروا مفسحين المجال لقوة مغربية جديدة قوضت سلطانهم في العدوة ثم في الأندلس التي دخلت معاناتها مرحلة جديدة تحت حكم الأخوة في الاسلام .

وبينما انشغل الموحدون في تصفية سابقيهم المرابطين ، كانت القوات الصليبية المتوجهة إلى المشرق تساعد البرتغالى الفونصو انريكيث على احتلال لشبونة ، بينما قدم الفرنسيون المساعدة لاحتلال طرطوشة على الساحل الشرقى . أما فى وسط البلاد فتمكن الموحدون والأندلسيون من افشال محاولة الفونصو السابع احتلال قرطبة وجيان ، ومنى خليفته الفونصو الثامن بهزيمة منكرة فى وقعة الارك سنة ١١٩٥ . إلا أن الرعب الذى دب فى أوصال الممالك الشمالية واوروبة بصورة عامة ، كان عندما سقطت شلبطرة حامية ميمنة قشتالة بعد ١٦ سنة من هزيمة الارك . وهنا تولت البابوية حملة جديدة فوحدت الممالك الشمالية ، وأمرت المطارنة في أوروبة بالدعوة للجهاد ضد المسلمين ، فتجمعت قوات كبيرة فى طليطلة خرجت في العشرين من حزيران قاصدة جيش الموحدين والأندلسيين ، وتمكنت بعد ٢٦ يوما من تحقيق انتصار ساحق فى معركة العقاب . وخلال السنوات الأربع والخمسين التالية سقطت أهم المدن الأندلسية بأيدى القشتاليين والأرغونيين والبرتغاليين ، وبقيت مملكة غرناطة تتأرجح بين الاستقلال والتبعية .

سقطت الأندلس فارتحل قسم من سكانها إلى مملكة غرناطة أو بلنسبة ، وآثر آخرون اختصار المعاناة فتوجهوا إلى المغرب أو المناطق العربية الأخرى . إلا أن قسما آخر بقي حيث كان في الحالات التي سمح له بذلك وتدجنوا في الأحياء التى خصصت لهم فى أكثر من ١٠٠ مدينة ، وعاشوا مواطنين من الدرجة الثالثة فى بلاد لم يعرفوا، واجدادهم من قبلهم ، بلادا غيرها .

وإذا كان حال أولئك المدجنين متساويا في الاضطهاد ، فإن أندلسيي بلنسية وارغون عموماً كانوا أفضل حالا ، ووقعت مهمة ادارة الزراعة والصناعة على عاتقهم ولكن لصالح الكنيسة أو النبلاء . ولم تمنع أهميتهم من تعرضهم لفورات غضب متعددة كما حدث سنة ١٤٥٥ عندما اقتحم الرعاع الأحياء الأندلسية في مدينة بلنسية التى كانت تضم وضواحيها أكبر تجمع للأندلسيين باستثناء غرناطة ، آخر الممالك الإسلامية في شبه-جزيرة ايبرية .

واعتبارا من منتصف القرن الخامس عشر كانت التطورات المحلية والدولية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة، إذ أدى تمكن العثمانى محمد الفاتح من احتلال القسطنطينية إلى دفع البابوية للبحث عن وسيلة للانتقام فراحت تحث قشتالة على تجديد الحرب ضد غرناطة .

واندلعت المعارك هناك سنة ١٤٦٢ وتمكن القشتاليون ، بمعونة اوروبية ، من احتلال جبل طارق . وبعد ١٢ سنة من ذلك اعتلت ايزابيلا عرش قشتالة . وبصعود نجم تلك الملكة توفرت لقشتالة سلطة مكنتها من اثبات وجودها على الساحة الدولية فكانت ملكة قديرة ، إلا أن تعصبها كان بلا حدود . وإذا كانت ايزابيلا الملكة التى ازالت آخر سلطة اسلامية سياسية في شبه جزيرة ايبرية ، والآداة التى مكنت قشتالة من اكتشاف العالم الجديد ، فإنها أيضا كانت مسؤولة عن قيام مؤسسة اضطهاد ديني

جبارة،وهى محاكم التفتيش الأسبانية،بعد أربع سنوات من تسلمها مقاليد الحكم في تلك المملكة . وفي السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وجدت ايزابيلا ، كما وجد كثير من الساسة قبلها وبعدها ، أن السبيل الوحيد لوقف صراع النبلاء والانقسام الداخلى يكمن في شن الحرب في أسرع وقت ممكن ، ولذا استغلت ايزابيلا رفض مملكة غرناطة الانصياع لمطالبها وأعلنت الحرب على المملكة الإسلامية سنة ١٤٨١ . وخلال العقد التالى دارت حروب طاحنة مولتها البابوية واليهود بصورة كانت كافية للحصول على أفضل المدافع الإيطالية في تلك الفترة ، والإنفاق على المرتزقة الأوربيين . ولكن غرناطة ظلت صامدة رغم سياسة الأرض المحروقة التى اتبعتها جيوش فرناندو الخامس ، ورغم الحرب البشعة التى شنها زوج ايزابيلا على الغرناطيين ، إلا أن صراع الابن مع ابيه وانقلاب العم على ابن الأخ مزق تلك الوحدة الضرورية في ذلك الوقت الحرج ، وسمح لايزابيلا بتحقيق نصر عظيم مقابل معاهدة سلام ضمنت ايزابيلا فيها لأهل غرناطة مالم تضمنه حكومتهم ، ولكنها لم تعمل على استمرار الالتزام بها .

٢

فى الثانى من كانون الثانى سنة ١٤٩٢ انتهت آخر معالم السلطة السياسية الإسلامية فى شبه جزيرة ايبرية ، وبعد عشر سنوات من الصراع ارتفع الصليب الفضى فوق برج الطلائع في قصبة الحمراء ، ودقت أجراس الكنائس في سائر أوروبة احتفالا بهذه المناسبة الجليلة . وإذا كان من الصعب على غرناطة أن تستمر في صمودها إلى مالانهاية ، فإن النصر الذى حققته ايزابيلا وزوجها فرناندو لم يكن ليتوفر بتلك السهولة لولا وجود الملك الملقب بالصغير في غرناطة ، الذى اعتقد بأن ايزابيلا صادقة في وعدها

بتنفيذ بنود معاهدة التسليم ، كما صدقت بوعدها قبل ذلك عندما اطلقت سراحه بعد اسره مرتين . وحكمت عائشة على ابنها الملك الصغير قبل أن يحكم عليه أحد ، واسلم روحه ذليلا في المغرب فانتهت قصته عندما بدأت قصة اضطهاد الأندلسيين في قشتالة .

خرقت معاهدة تسليم غرناطة ولكن استمر السلام . انقض نبلاء قشتالة على أراضي الأندلسيين الغرناطيين واستمر السلام . عدّل القشتاليون بنود المعاهدة لصالحهم حيثما تمكنوا من ذلك واستمر السلام مع ذلك سبع سنوات . وخلال تلك الفترة انتظرت ايزابيلا أن يتنصر الأندلسيون أو يرحلوا . ولكن الكنيسة لم تكن تملك القدرة على تنصيرهم ، ولاكانت لدى الأندلسيين الرغبة في التنصر أو الرحيل وتعالت الأصوات في بلاط الملكة القشتالية تطالب بالحزم ضد أهل المملكة الجديدة . وفي هذه المرحلة برزت شخصية الكردينال زمنيز وهي ، كشخصية توركيمادة قبله ، ماكانت لتظهر إلا فى دولة مثل قشتالة ، وما كانت لتتفوق إلا فى خدمة ملكة متعصبة مثل ايزابيلا . وحاول زمنيز استمالة الاندلسيين بغية تنصيرهم ولكنه أخفق ، وبدأ في اتباع أساليب أخرى . ثم وقعت حادثة في حي البيازين في غرناطة قتل على أثرها اثنان من عمال زمنيز ، واندلعت الثورة الأندلسية الأولى .

الانتصارات الأولية التى حققها الثوار الأندلسيون في جبل البشرة ادت إلى تسلم فرناندو بنفسه تسيير دفة المعارك وتمكن من اخماد الثورة هناك . إلا أن الأعمال الوحشية التى ارتكبتها قوات فرناندو الخامس وضعت الأندلسيين في باقي أنحاء الجنوب امام خيار استئناف القتال ،لأنه الطريق الوحيد الذى ابقته ايزابيلا مفتوحا . وماكادت المعارك تخمد في البشرة حتى كان سكان الجبل الأحمر قد حملوا السلاح وخاضوا معارك عنيفة قتل فى احداها أحد كبار قواد فرناندو . وحين توجه الأخير إلى الجبل الأحمر وجد مقاومة صلبة في تلك المناطق الوعرة فقبل بالصلح حين عرض عليه ، وضمن فرناندو لمن يريد الجواز

• إلى العدوة الأمان . وفي شباط سنة ١٥٠٢ أصدرت ايزابيلا مرسوما يخير الأندلسيين بين التنصر والرحيل وامهلتهم حتى نهاية شهر نيسان . وخلال المهلة رحل عن غرناطة حوالى ٣٠٠٠٠٠ شخص ولكن الباقين اعتبروا منتصرين بموجب المرسوم ، وأطلق على هؤلاء اسم « النصارى الجدد » أو « الأندلسيين المواركة » .

وبين سنة ١٥٠٢ و١٥٢٥ صدرت ثلاثة مراسيم ملكية تلغى في غرضها النهائي الشخصية الأندلسية ، وتشمل الرجال والأطفال كما تشمل الأحياء والأموات ، إلا أن ذلك لم يزد الأندلسيين المواركة إلا صمودا وتمسكا بشخصيتهم ودينهم . وخلال هذه الفترة نشبت ثورة أهل المدن وقام رعاع بلنسية على الأندلسيين فنصروهم بالقوة ، إلا أنه كان تنصرا شكليا . وكانت الكنيسة تعرف ذلك كما تعرفه السلطة ، غير أن إمساك الأندلسيين بزمام عجلة الاقتصاد البلنسي منعت السلطتين من التمادى فى اضطهاد الأندلسيين ، على العكس من أهل الجنوب الذين كانوا يشكلون أقلية ناقمة على قشتالة ومستعدة لحمل السلاح ثانية إذا لزم الأمر . إلا أن القرن السادس عشر حمل متاعب جديدة للأندلسيين في كل من قشتالة وأرغون ، وبات من الواضح أن الصدام قادم لامحالة .

فالأندلس دفعت ثمن تفرق حكامها ومعاداة الواحد منهم للآخر . ودفعت ثمن تفوق الأتراك على بيزنطة ، واخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بموطىء قدم في المشرق . أما غرناطة فدفعت ثمن سقوط القسطنطينية ونهوض العثمانيين ، ووجد الأندلسيون انفسهم في بداية القرن السادس عشر يدفعون ثمن نمو البروتستانتية . كارلوس الخامس لم يكن من المتعصبين لمحاكم التفتيش ، ولكنه لم يجد غضاضة فى الاستنجاد بعمالها لحماية ممالكه الهائلة . والحل الذى وضعته محاكم التفتيش لليهود في قشتالة كان من

الممكن أن يطبق على الأندلسيين ، وينتهى إلى ابادتهم لولا الروح الثائرة التى اتسم الأندلسيون بها . وحين أمر كارلوس بتأسيس محكمة تفتيش في غرناطة سنة ١٥٢٦ ، فإنه قصد ارهابهم بينما يكرس وقته لمقارعة انصار البروتستانتية في ألمانيا وهولندا . وحين اخفقت لغة التهديد عمل الأندلسيون على تقديم مبلغ سنوى كبير له لكي يبعد عنهم شرور محكمة التفتيش في غرناطة ، ولكن هذا لم يردع عمال المحكمه عن التسبب في احراق أول ضحاياها من الأندلسيين سنة ١٥٢٩ . وعلى الرغم من الاضطهاد الذى عانى منه الأندلسيون في عهد كارلوس ، فإنه لم يكن ليقارن مع اضطهاد خليفته ، الذى لم يكن يقل تعصبا عن ايزابيلا ، وكان يعتقد أن الحل الوحيد لمعالجة مشكلة الأندلسيين الموارکة يكمن في إبادتهم . وفي بداية سنة ١٥٦٧ أصدر فيليب الثانى مرسوما جديدا استهدف حظر كل المقومات العربية والدينية والاجتماعية لدى الأندلسيين .

واندلعت الثورة الأندلسية الثانية .

مقارعة فيليب الثانى لم تكن بالأمر الهين . فهو صاحب أكبر مملكة في العالم وأقوى الجيوش التى عرفتها أوروبا في ذلك الوقت ، إلا أن الوضع بالنسبة للأندلسيين كان يائسا ، وكانوا يعرفون أن للحياة ثمنا لايمكن قبوله إذا تجاوز بعض الحدود . والثورة الأندلسية الثانية استمرت حوالى ثلاث سنوات ، وشملت اغلب مناطق الجنوب الأندلسى ، واحرز فيها الثوار الأندلسيون انتصارات عديدة كما ابدوا بطولة نادرة وصمودا عظيما ، إلا أنهم ماكانوا ليستطيعوا الاستمرار فى القتال إلى مالانهاية ضد أربعة جيوش قادها دون خوان النمسوى ، شقيق فيليب الثانى . وماحدث بعدها شيء لايريد حتى الأسبان تذكره أو الحديث عنه . إذ نظمت مذابح بالجملة ، وحوصر الأندلسيون في المغاور فاحرقت الأغصان في مداخلها فمن بقي في الداخل اختنق ، ومن خرج تلقته السيوف والرماح ، ولم ينج من تلك المجازر الأطفال والنساء ،

ومن اعتقل بعد ذلك أصبح من العبيد . ونحو نهاية سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثانى مرسوما يخول الجنود قتل الأندلسيين وسبى نسائهم ، ووعد دون خوان الجنود بدفع عشرين دوقة ذهبية لكل من يحضر رأس أندلسى فنظمت حملات صيد الرؤوس في جبال الجنوب . وعندما انتهت المعارك كان الحل النهائى للأندلسيين في نفيهم إلى قشتالة وتوزيعهم على المدن والقرى فى الشمال .

وكان من الممكن ألا تقوم بعد تلك الحوادث قائمة لأى شعب تعرض لمثل تلك الإبادة ، إلا أن الأندلسيين صمدوا وبقيت روحهم المعنوية عالية ، وظلوا في أغلبهم محافظين على تراثهم ودينهم. فالكنيسة يئست من تنصيرهم فعليا ، والسلطة يئست من استمالتهم وفق شروطها ، أو ترهيبهم . وفي بداية القرن السابع عشر سعت الحكومة إلى البحث عن انتصار سهل يغطى هزيمتها امام اعداء الكاثوليكية ، ويبعد انظار الناس عن اخفاق سياساتها العسكرية والأقتصادية ، فقررت نفي الأندلسيين الموراكة عن البلاد ، ووضع نهاية لشعب لا يريد أن يذوب فى الوسط القشتالي . وعندما شعر حتى أشد أنصار معاقبة الأندلسيين بان الحكومة عازمة بالفعل على تنفيذ قرارها ، انقلبوا ضد القرار وسعوا الى ترغيب الأندلسيين بالبقاء . ولكن الأندلسيين اشترطوا السماح لهم بممارسة دينهم الاسلامي علنا وإعطاءهم حرية مزاولة عادتهم وتقاليدهم الأندلسية ، فرفض الطلب وبدأت عملية نفي الأندلسيين التي استمرت سبع سنوات .

وابتهجت عامة قشتالة بنفي « اعداء الدين الكاثوليكي » ولكن البهجة لم تستمر فالأندلسيون لم يكونوا مجرد أقلية وانما أقلية مهمة من الناحيتين الزراعية والاقتصادية في قشتالة ، وأقلية حاسمة بالنسبة لمملكة ارغون . وكانت قشتالة «بعملية النفي» تسدد طعنة أخيرة للوجود العربي فيها ، ولكنها كانت طعنة ادمت جسد الامبراطورية اكثر مما ادمت الراحلين الأندلسيين . فهؤلاء انتقموا لنفيهم عن مساكنهم

ومساكن أجدادهم وأجداد أجدادهم وهم خارج أسبانيا ، وساهموا في توفير أحد أهم أسباب سقوط الامبراطورية الأسبانية . ولم تفتقد قشتالة الأندلسيين على الفور اذ كانت ماتزال تعيش مجد انتصارها الكاذب ، ولكن عندما حاولت حكومة دوق اوليبارس حشد طاقات الامبراطورية للتصدى للهولنديين وغيرهم من أعداء قشتالة اصطدمت باقتصاد منهار . وكتب أحد المسؤولين فيها يقول: « لم تمض الا فترة قصيرة منذ طرد الأندلسيين الموارْكة ، وكانت تلك عملية عادت بضرر بالغ على هذه الممالك وأصبحت فكرة عودتهم طيبة لو أنهم يقبلون بديننا السماوى .. » .

ماخسرته اسبانيا بنفي الأندلسيين كسبته دول المغرب والدول العربية الأخرى ، وان تحتم عليها مقاسمة مصادرها الاقتصادية مع المنفيين الأندلسيين . ولكن النفي لم يضع حدا لمعاناة جميع الأندلسيين الموارْكة ، إذ بقى فيها من الأحرار حوالي ستة بالمئة ، ولكن غالبية العبيد في قشتالة كانوا من نسل الأندلسيين الذين أسروا في مختلف مراحل المد الشمالي نحو الجنوب . وهؤلاء ، مع غيرهم ، استمروا في تقديم ضحايا محاكم التفتيش الأسبانية بعد ان نفد معين تلك المحاكم من اليهود المتنصرين . وعندما كان عمال محاكم التفتيش يعتقدون انهم قوموا الأندلسيين الموارْكة ، وأوقفوهم عن ممارسة الشعائر الدينية الاسلامية في الخفاء ، كانو يفاجأون بحالات جديدة من بينها العثور على مسجد سرى سنة ١٧٦٩ . غير أن هذه المؤسسة ، التي مارست الارهاب الديني منذ سنة ١٤٧٨ ، كسبت من الكراهية الدولية مالم تكتسبه مؤسسة أخرى ، ولم يعد في إمكانها الاستمرار بعد أن أصبح أصحاب الثورة الفرنسية سادة اسبانيا فالغيت المحاكم سنة ١٨٣٤ .

٣

يقدم تاريخ شبه جزيرة ايبرية سلسلة متصلة من التساؤلات التي ماتزال بحاجة الى اجابة . ويقدم تاريخ اسبانيا سلسلة من التناقضات التي لايمكن العثور عليها في تاريخ أى من الأمم الأوربية الأخرى . وفوق الاراضى الاسبانية ترسبت بعض اهم الحضارات في العالم من يونانية الى رومانية الى عربية ، إلا أن الحضارة العربية كانت الأهم والأشمل والأكثر ديمومة وتأثيرا على العصور الحديثة . وفي حين تمكنت معظم الدول الأوروبية من استغلال التركة الحضارية والعلمية العربية التى تطورت في الأندلس ، فإن أسبانيا لم تحسن الاستفادة من تلك التركة ، واختارت حمل السيف لِحل مشاكلها وزيادة ثرواتها فى العالمين القديم والجديد . وإذا كان التوسع يتضمن تقويض الحضارة العربية في الأندلس أو حضارتى الانكا والازتك فى العالم الجديد ، فإن ذلك لم يكن مهما بالنسبة لقشتالة . ولاينكر الأسبان أن دولتهم التى سيطرت في القرن السادس عشر على أراض لم يسيطر عليها أحد من قبلهم ، كانت نتاج الحرب التى خاضتها قشتالة ضد الأندلسيين على مدى قرون عديدة . ولكن في حين تمكن أصحاب الفتح من بناء حضارة هائلة بالاعتماد على سكان البلاد الأصليين ، فإن قشتالة لم تكن لتتمكن من السيطرة على المناطق التي سكنها الأندلسيون دون ابعاد معظمهم واتضح لفرناندو الثالث ، كما اتضح لفيليب الثاني ، أن قشتالة لايمكن أن تتحمل دينا غير الكاثوليكية ، او عنصرا غير القشتاليين .

يقول سيرفانتس : « الجشع يقهر الخوف » ولذا كانت قشتالة القرن السادس عشر آلة حرب هائلة ضمت قادة مظفرين حققوا الانتصارات في معظم المعارك التى خاضها جنودهم . ولكن الجيش لايصنع الحضارة ، والروح العسكرية لاتستطيع تطوير الثقافة والعلوم ، وهي تستمر حتى تصطدم بآلة حرب

أقوى منها فتتقوض ويتقوض معها الأساس الذى قامت عليه وتصبح دولة من الدرجة الثالثة ويحكم عليها التاريخ بما تستحقه . ويسجل تاريخ أوروبة لأسبانيا اليوم تمكنها من انهاء الوجود السياسى الإسلامى فى ذلك القسم من اوروبة ، ولكنه لايغفر لها ممارسات محاكم التفتيش ، ولاحملات صيد الرؤوس ضد الأندلسيين وابادة شعب بكامله انتهى إلى التقتيل والتهجير والحرق والاستغلال البشع والنفي .

وماذا بقي من الأندلس والأندلسيين في أسبانيا اليوم ؟

من الوجود السياسي لم يبق شىء فذلك انتهى مع ابرام معاهدة تسليم غرناطة بين ايزابيلا والملك الصغير . من الوجود الحضارى الشىء القليل : الفا مخطوطة في قصر الاسكوريال وعدد آخر في المدن الأسبانية الأخرى وبعض المكتبات في أوروبة وغيرها . من العمارة قصر الحمراء ومعظم حى البيازين والمسجد الكبير في قرطبة والمأذنة في اشبيلية وبقايا هنا وهناك . أما الأبنية التى كانت قائمة فى الأندلس فتقوضت أو أهملت ، ودخلت اساساتها وجدرانها وأعمدتها في مبان أسبانية تنتشر في كل مكان . أما المساجد القديمة فتحولت منذ أمد بعيد إلى كنائس ودخلت عليها اضافات غيرت فى أحوال كثيرة صورتها الأساسية . من العمارة العسكرية الإسلامية بقيت بضع قلاع من أصل ٤٠٠ ، ولكنها كافية لإعطاء صورة عن فن عمارة متطور حفظته أسبانيا ، لأنها خاضت معظم حروبها القديمة فوق اراضى غيرها من الدول وتجنبت الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وان لحق بكثير من ابنيتها المهمة الخراب خلال الحرب بين الفرنسيين والانجليز المتحالفين مع الأسبان ، وأيضا خلال الحرب الأهلية الحديثة .

من التأثيرات الأندلسية استبقت أسبانيا أكثر مما يود الكثيرون الاعتراف به ، وان كانت شدة التأثير تختلف من مكان لآخر . ففي الأندلس الصغرى (اندلوثيا) يطغى التأثير الأندلسي على معظم المناطق كما يطغى على الساحل الشرق من وادى نهر ابرة وحتى مدينة المرية . وهذا التأثير يختلف بالنسبة للشخصية القشتالية واللغة الأسبانية (القشتالة) من مكان لآخر كذلك . فهو قوى في الجنوب وضعيف في الشرق ويكاد يكون معدوما ، من ناحية اللغة على الأقل ، في طليطلة التى يتحدث أهلها اليوم قشتالية شبه خالصة لأن التكلم بالعربية منع فيها سنة ١٥٨٠ ، بعد أن كانوا يستخدمون العربية والقشتالية . والتأثير موجود كذلك في أساطير الفروسية وفي عشرات القصص المنسوجة على منوال قصة ليلى الأندلسية ومانويل القشتالى .

من الأندلسيين أسبان لايكاد يخلو أحدهم من دماء عربية إذا صدقنا ماورد فى كتاب السير المسمى ، « عار أسبانيا » وليس هناك سبب لرفض ذلك الادعاء . وهى ايضا في الأندلسيين الذين بقوا بعد النفي الكبير ، أو كانوا عبيدا وتحرروا عندما أصبح الفرنسيون سادة أسبانيا . ولكن الدماء الأندلسية أيضا فى كثير من سكان امريكا اللاتينية التى ارتحل إليها الأندلسيون إما نفيا أو هروبا من سلطة الملوك وارهاب عمال محاكم التفتيش .

فهرس المحتويات

الاهداء ٥
ملاحظات على النص ٦
مقدمـــة ٨

الفصـــل الاول
اسبــاب سقوط الانــدلس

١ – الاصول القوطية في شبه جزيرة ايبرية ٣١

أ – القوط الغربيون ٣٢
ب – المملكة القوطية في طليطلة ٣٤
جـ – سقوط المملكة القوطية ٣٧

٢ – تطور الممالك الشمالية ٣٨

أ – بلايـــو ٣٨
ب – بناء قوى الشمال ٤١
جـ – توطيد دعائم الممالك الشمالية ٤٤
د – التوسع الشمالي نحو الجنوب ٤٧
هـ – ممالك قشتالة وارغون والبرتغال ٥٠

٣ – تأثير العوامل الخارجية في سقوط الاندلس ٥١

أ – دور الفرانكيين في سقوط الاندلس ٥١
١ – غالة وسقوط الاندلس ٥١
٢ – شارلمان ٥٣
٣ – دور الفرنسيين في سقوط الاندلس بعد زوال الخلافة ٥٥

ب - الحروب الصليبية الغربية في الاندلس
(دور الكنيسة البابوية في سقوط الاندلس) ٥٨
١ - صعود البابوية وتطور النزاع الديني ٥٩
٢ - اربان الثاني ٦٠
٣ - انوصان الثالث ٦٣
٤ - الكنيسة وسقوط غرناطة ٦٦

٤ - العوامل الداخلية في سقوط الاندلس ٦٩

أ - الاسباب الاقتصادية ٦٩
١ - معالم الاقتصاد الاندلسي ٧١
٢ - الصناعـــة ٧٢
٣ - التجـــارة ٧٣
٤ - الاقتصاد في الممالك الشمالية ٧٥

ب - النزاعات الداخلية ٧٨

الفصـــل الثانـــى
الثورة الأندلسية الأولـــى

١ - سقوط الأندلـــس ٨٧

أ - سقوط غرناطة ٩٢
ب - توزيع الاندلسيين بعد سقوط غرناطة ١٠٢
٢ - اسباب اندلاع الثورة الاندلسية الاولى ١٠٤
أ - شروط استسلام غرناطة ١٠٤
ب - خرق معاهدة تسليم غرناطة ١٠٧
جـ - بداية اضطهاد الاندلسيين ١٠٩

٣ - الثورة الاندلسية الأولى ١١٤

أ - الثورة في البشرة ١١٦
ب - الثورة في الجبل الأحمر ١١٧

جـ – مرسوم سنة ١٥٠٢ وتنصير الأندلسيين ١١٩
د – بين التنصير والتنصر ١٢٠

٤ – قيام الامبراطورية الاسبانية ١٢٢

أ – التوسع في أوروبة ١٢٣
ب – كارلوس الخامس ١٢٤
جـ – فيليب الثاني ١٢٦

الفصل الثالث
الثورة الأندلسية الكبرى

١ – أحوال الاندلسيين بعد الثورة الأولى ١٣١
أ – ثورة أهل المدن وتنصير الاندلسيين في بلنسية ١٣٢
ب – الأندلسيون وكارلوس ١٣٤

٢ – اسباب اندلاع الثورة الاندلسية الكبرى ١٣٧

أ – الأحوال السياسية ١٣٧
ب – الأسباب الاقتصادية ١٤٤
جـ – الأسباب الاجتماعية ١٤٥
د – الأندلسيون والكنيسة ١٤٦
هـ – بداية المواجهة ١٤٧

٣ – الثورة الاندلسية الكبرى ١٥٠

أ – دون خوان النمسوى ١٥٣
ب – بداية حروب المقاومة الاندلسية ١٥٥
جـ – الاعداد للقضاء على الثورة الاندلسية ١٥٨
د – تصفية الثورة الاندلسية الكبرى ١٦٣

نتائج الثورة الاندلسية الكبرى ١٦٥
أ – نفي سكان غرناطة ١٦٧
ب – توزيع الاندلسيين بعد الثورة الكبرى ١٦٩

الفصـــل الرابـــع
نفـــي الاندلسيين المواركة

١ - وضع الاندلسيين المواركة بعد الثورة الكبرى ١٧٣

٢ - اسباب نفي الاندلسيين الموار كة ١٧٦

أ - الاسباب الاقتصادية ١٧٧

ب - الاسباب الدينية ١٧٨

جـ - الحالة العامة ١٨٠

٣ - نفي الاندلسيين الموار كة ١٨٣

أ - وجهات المنفيين ١٨٦

٤ - مصير الاندلسيين الموار كة ١٨٨

أ - الاندلسيين بعد النفي ١٩٠

٥ - تأثير نفي الأندلسيين الموار كة ١٩٣

٦ - سقوط الامبراطورية الاسبانية ١٩٨

الفصـــل الخامـــس
الاندلسيون ومحاكم التفتيش

١ - طبيعة العلاقات الدينية في شبه جزيرة ايبرية ٢٠٥

أ - تطور التعصب الديني عند القشتاليين ٢١٠

٢ - اصول محاكم التفتيش ٢١٥

أ - ممارسات محاكم التفتيش ٢١٦

٣ - اليهود ومحاكم التفتيش ٢١٩

أ - اليهود في شبه جزيرة ايبرية ٢٢٠

ب - اليهود في قشتالة ٢٢٥

جـ - الحملة القشتالية ضد اليهود ٢٢٧
د - طرد اليهود من ايبرية ٢٢٩

٤ - الاندلسيون ومحاكم التفتيش ٢٣٢

أ - الأندلسيون الموارِكة والكارلوسية ٢٣٤
ب - الاندلسيون ومحاكم التفتيش في عهد فيليب الثاني ٢٣٦
جـ - الاندلسيون ومحاكم التفتيش بعد النفي ٢٣٨
د - نهاية محاكم التفتيش ٢٣٩

الفصل السادس
التأثيرات الأندلسية في اسبانيا واوروبة

١ - الاندلس بين الاحتلال والاسترجاع ٢٤٥

أ - التركة القوطية الغربية ٢٤٧
ب - استيطان الأندلس ٢٤٨
جـ - البحث عن الذات الاسبانية ٢٥١

٢ - من الأندلس الى اسبانيا ٢٥٢

أ - التأثر الثقافى والحضارى ٢٥٥
ب - الاختلاط السكانى ٢٥٨

٣ - الحضارة الاندلسية وعصر النهضة الاوروبي ٢٦٠

أ - التركة اليونانية ٢٦٠
ب - معالم الثقافة الاندلسية ٢٦٢
١ - البدايات الاندلسية ٢٦٤
٢ - تطور الثقافة الاندلسية ٢٦٦
جـ - التأثير الاندلسي في نشأة الثقافة الاوروبية ٢٧٠
د - الاندلس وعصر النهضة الاوروبى ٢٧٤
١ - العلوم العربية والعصور الحديثة ٢٨١

٤ - اندلسيات في اسبانيا ٢٨٥
أ - العمارة الاسلامية الباقية في اسبانيا ٢٨٨
١ - القلاع العربية في اسبانيا ٢٩٠

خاتمـــــة ٢٩٥
أهم الاحداث الاندلسية والدولية ٢٩٩
حكام الأندلس ٣١١
اهم حكام الدويلات والممالك الشمالية ٣١٣
شخصيات ومواضع معربة ٣١٥
مصادر البحث ٣٢١

خرائط توضيحيـــــة
١ - مراحل انحسار السلطة العربية في الأندلس ٧٠
٢ - تاريخ سقوط اهم المدن الاندلسية ٩٠
٣ - الثورتان الاندلسيتان الاولى والكبرى ١٥١
٤ - توزع الاندلسيين المواركة قبل النفي ١٨٢
٥ - مواطن الاندلسيين المواركة بعد النفي ١٨٧

الفصل
الأول

أسباب سقوط الأندلس

١ — الأصول القوطية في شبه جزيرة أيبرية

تؤكد الآثار المكتشفة فى عدد من مناطق الدولة التى نعرفها اليوم باسم أسبانيا أن انسان ماقبل التاريخ المسجل كان يعيش في مستوطنات بالقرب من مدينتى المرية وسنتنديو وغيرهما ، قبل أن تتعاقب عليها أقوام مختلفة أستوطنتها بعد الدخول اليها من الشمال أو الشرق أو الجنوب . وفي حوالي ١١٠٠ قبل الميلاد استوطن الفينيقيون الأجزاء الشرقية والجنوبية من البلاد ، وبنوا عددا من المدن التى مايزال بعضها عامرا حتى اليوم ، مثل قادس وعذرة وولبة وطرشيش ومالقه ، وبعض الباحثين يعتقدون أن طرشيش كان الاسم الذى اطلقه الفينيقيون على المنطقة الجنوبية من البلاد المعروفة بالأندلس الصغرى (اندلوثيا) . ومع ظهور الممالك اليونانية القديمة واتساع نفوذها فى منطقة البحر الأبيض المتوسط رحلت جماعات يونانية ؛ لتستوطن بعض مناطق الساحل الشرقي ولاسيما امبرياس (امبورش) ودانية (دانه) ، وكان ذلك في الفترة بين عام ٦٣٠ و ٥٧٠ قبل الميلاد ، وربما عرفت البلاد بعدها باسم ايبرية (ابارية) . وحوالى عام ٨٥٠ قبل الميلاد أقام الفينيقيون مدينة على ساحل تونس الحالية ، عرفت باسم قرطاجة ، اتسع سلطانها فشمل اغلب ساحل الشمال الأفريقي ، وبنوا المستوطنات والمراكز التجارية على سواحل الشمال الأفريقى وجزر صقلية وسردينيا وميورقة ومنورقة والمناطق الجنوبية والشرقية من اسبانيا ، واستوطنوا عددا من المدن بينها قرطبة واشبيلية وقرطية ، التى عرفت باسم « برج قرطجنة » أيام الأندلس . واستمرت سيطرة قرطاجة على ايبرية حتى اندلعت الحروب بينها وبين الرومان إثر النزاع الذى وقع فى صقلية عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، واستمر حتى عام ١٤٩ إلى أن انتهى بزوال قرطاجة .

بدأت هذه الحروب ، التى كان لها تأثير كبير على مستقبل شبه جزيرة ايبرية ، عندما حاول التجار الرومان زيادة نشاطهم في البحر الأبيض المتوسط وكسر احتكار القرطاجيين ، إلا أن الأسطول الضخم الذى ملكه القرطاجيون حال دون الرومان وتحقيق هدفهم ، فعمد الرومان إلى بناء أسطول كبير نقل جنودهم إلى قرطاجة ، ولكن هذا الجيش هزم سنة ٢٥٥ وأضطر الرومان إلى الإنتظار ١٤ عاما آخر ، قبل أن يحطموا اسطول قرطاجة في معركة بحرية وقعت قرب صقلية . والهزيمة التى لحقت بقرطاجة كانت فادحة ولكن لم تكن نهائية فما أن حل ربيع عام ٢١٨ قبل الميلاد حتى كان جيش القائد القرطاجي هنيبعل مستعدا للانطلاق في رحلة تاريخية مشهورة بمحاذاة ساحل شبه جزيرة ايبرية الشرقى عبر جبال البيرنيه (البرت) ثم عبر نهر الرون وجبال الإلب إلى شمال إيطاليا . هذه الرحلة المضنية قضت على حوالى ثلاثة أرباع جيش هنيبعل ، ولكنه آثرها لاقتناعه بأن الرومان يسيطرون على الطرق البحرية وليس

هناك من أمل في انهاء هذه السيطرة إلا عن طريق الالتفاف حول العدو ومباغتته . وتمكن هذا القائد الفذ بالفعل من هزيمة الرومان مرتين ولكن جيشه لم يكن كافيا لمهاجمة روما ، ولم يتمكن هنيبعل من استغلال فوزه إذ جاء دور الرومان لتسديد الضربة الأخيرة ، فهاجم القائد الروماني سيبو قرطاجة وهزم هنيبعل في معركة زامه التي وقعت سنة ٢٠٢ قبل الميلاد ، وفر هنيبعل ثم مات بالسم بعد سنوات من الهزيمة . وفى عام ١٤٩ قبل الميلاد حاصر الرومان قرطاجة مدة ثلاثة أعوام ، وانتهى الحصار باقتحام قرطاجة واحراقها وفلاحة الأرض التى كانت تقوم عليها .

كان من نتائج هذه الحروب قيام الرومان باحتلال شبه جزيرة ايبرية التي استخدمها هنيبعل ، وأخوه من بعده ، مركزا مهما لمحاربة روما وتجنيد المرتزقة ، والحصول على الفضة التى كانت تستخرج بوفرة من مناجمها .

حدث هذا الاحتلال سنة ٢٢١ ، ولكن روما لم تتمكن من بسط سيطرتها على البلاد إلا بعد حروب متقطعة مع السكان الأصليين استمرت ٢٠٠ عام . وقسم الرومان شبه الجزيرة إلى خمس مقاطعات ، وعرفت تحت سيطرتهم الرخاء الاقتصادى والأهمية السياسية والفكرية ،فاعتلى عرش الامبراطورية الرومانية أربعة من الأباطرة الذين ولدوا في شبه الجزيرة التى كانت أيضا مسقط رأس عدد كبير من الفلاسفة والأدباء أمثال سينيقه ولوقان وكولوميلا . واضحت الامبراطورية الرومانية أعظم قوة على وجه الأرض ولكن الفساد عم فيها ، وبدأت فى الانحلال اعتبارا من عام٢٠٠ ميلادية فى الوقت الذى ازدادت فيه هجمات القبائل البربرية على حدودها الشمالية . وبالرغم من نجاح بعض الأباطرة ، مثل ديوكليتيان (٢٤٨ – ٣٠٥ م) في وقف انهيار الامبراطورية ، إلا أن هذا النجاح كان محدودا ومؤقتا عادت بعده الامبراطورية الى التقهقر ، ثم جاء الامبراطور قسطنطين (٣٠٧ – ٣٣٧م) فنقل عاصمة الامبراطورية الى بيزنطيوم (بيزنطة) واعاد تسميتها فكانت « قنسطنطينوبل » التي عرفها العرب باسم القسطنطينية ، وكان ذلك عام ٣٣٠م . هذا القرار أدى الى شطر الامبراطورية الرومانية فيما بعد ولم تعمر الامبراطورية الغربية إثر استكمال التقسيم ، الذى اصبح حقيقة واقعة بعد وفاة ثيوديسيوس عام ٣٩٥ ميلادية ، الا حوالى قرن واحد . اما القسم الشرقي منها فاستمر حتى عظمت قوة العرب وفتحوا معظم ممالكه ، وجاء العثمانيون من بعدهم فسددوا الضربة النهائية باحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية .

أ – القوط الغربيون :

أطلق الرومان اسم « البرابرة » على جميع الأقوام التي كانت تعيش خلف الحدود الطبيعية التي يشكلها نهرا الراين والدانوب ، وتحمل اسم القبائل الجرمانية رغم انها كانت تضم قبائل مختلفة مثل القوطيين والوندال والفرانك والانجلز والساكسون . وحاولت القبائل هذه المرة تلو الأخرى دخول أراضى الامبراطورية الرومانية بحثا عن المناخ الأفضل والفرصة المناسبة للاتجار والربح ، ولكن الفرق الرومانية كانت تصدهم المرة تلو الأخرى أيضا . وتغير هذا الموقف مع نهاية القرن الثاني للميلاد فقل جنود الامبراطورية مما اضطرها الى توظيف المرتزقة من رجال القبائل للخدمة في جيوشها ، وكان لهذا القرار

نتائج سلبية تأخر مفعولها الى نهاية القرن الرابع الميلادى . ومن المشرق زحفت قبائل آسيوية نحو وسط اوروبة الحالية بحثا عن المراعى الجديدة ، فحدث اضطراب كبير في التجمعات السكانية وسط القارة وشمالها سمحت الامبراطورية الرومانية على إثره لحوالي ٨٠،٠٠٠ شخص من قبال القوط بعبور نهر الدانوب والالتجاء الى أراضي الامبراطورية . حدث ذلك سنة ٣٧٦ ميلادية ولكن تقدم القبائل لم يتوقف ، واخفقت الامبراطورية في منع هذا التدفق السكانى لأنها اعتمدت على القبائل لحماية أقسام من حدودها . ومع الزمن اكتشفت القبائل ضبعف الامبراطورية ؛ فوراء الحاميات الضعيفة في الشمال كان الطريق مفتوحا إلى روما وهذا مافعله أحد زعماء القوط (الاريك) عام ٤١٠ ميلادية عندما قاد رجاله ونهبها . وفي عام ٤٧٦ قام زعيم قوطي آخر هو ادواسر بتنحية آخر أباطرة الامبراطورية الرومانية الغربية (رومولوس أوغسطولوس) عن الحكم ، ونصب نفسه ملكا على ايطاليا .

ولم يكن القوط أول المستفيدين من ضعف الامبراطورية الرومانية الغربية إذ هاجمت قبائل الوندال عاصمة الامبراطورية ، ونهبت كل مافيها من المال والمتاع خلال اسبوعين متعاقبين من عام ٤٥٥ ميلادية حتى باتت كلمة « فاندالزم » المشتقة من الوندال تعني اليوم التخريب المقصود للممتلكات العامة . قسم من قبائل الوندال هذه غزا شبه جزيرة ايبرية اعتبارا من بداية القرن الخامس الميلادى وهزمت القبائل الأخرى التى كانت تسكن المنطقة ، ثم جاء دور قبائل الوندال فهزمت هى الأخرى على أيدى القوط الذين عرفوا باسم القوط الغربيين ، تمييزا لهم عن القوط الشرقيين في القسم الشرقي من أوربة . هذه القبائل تعاقبت على شبه جزيرة ايبرية خلال تلك الحقبة من الزمن ولكنها لم تكن الوحيدة إذ استوطنها اللغرانيون الذين قدموا من شمال ايطاليا قديما ، ثم جاء بعدهم الأيبريون (١) ثم الكلتيون الذين قدموا من غاله في القرن السادس قبل الميلاد . ولكن هذه القبائل لم تترك تأثيرا كبيرا على تاريخ شبه الجزيرة كما حدث بالنسبة للغزوات الاستيطانية التي شنتها قبائل الفرانك والسوف (أو الصوابيين) فى الفترة بين عام ٢٦٤ و ٢٧٦ ميلادية ، وبقي أهم صراع كان له تأثيره الكبير على شبه جزيرة ايبرية هو الصراع بين قبائل الوندال والقوط . وفي البداية طُردت قبائل القوط الوندال من مواطنها الأُصلية في بولندا الحالية فالتجأت إلى سلوفاكيا ، ثم عبرت حدود نهر الراين مع قبائل أخرى ، بينها قبائل السوفي ، عام ٤٠٦ ميلادية واستقرت فى غالة فترة قصيرة عبرت بعدها جبال البيرينيه إلى شبه جزيرة ايبرية عام ٤٠٩ ، واستقرت هناك إلى أن انتقلت إلى المنطقة التى نعرفها اليوم باسم تونس عام ٤٢٩ واقامت هناك المملكة الوندالية بزعامة غزريش (٤٢٨ — ٤٧٧) . استمرت هذه المملكة حتى عام ٥٣٤ وعمرت اسطولا

---

(١) استوطن الأيبيريون جنوب شبه الجزيرة قبل الانتشار إلى وسط البلاد وشمالها . ويعتقد البعض أن أصل القبائل الايبرية من شمال افريقيا وأن سكان اقليم الباسك ، الذين اطلق عليهم العرب اسم (البشكنس -Vascones)واللغة البشقية (Vascuence-) ، انحدروا من تلك القبائل نظرا تماثل مصادر واشتقاقات بعض الكلمات في لغة سكان الباسك المعروفة لديهم باسم « البشكونس » وللاسبان باسم « اوسكيرا » وبين اللغة البربرية ، ويعزز تصور هؤلاء تماثل فصائل الدم بين الباسك والبربر . انظر الاشارة التى ترد دون سند فى :

Spain, (The Mainland), Ian Robertson Ed., Benn, London, P 5.

ضخما سيطر على البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت قوتها إلى الأوج بعد نهب روما عام ٤٥٥ ، ولكن المملكة ضعفت بعد وفاة غزريش ، وقضت عليها الامبراطورية البيزنطية في عهد الأمبراطور جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) .

بدأت حركة الاستيطان التي شملت القوط منذ رحيلهم عن موطنهم الأصلي في بولندا الحالية في حوالي منتصف القرن الثاني الميلادى ، وكانت في اتجاهين : الأول إلى المنطقة التى تقع جنوب اوكرانيا الحالية ، والثاني إلى داسيا (رومانيا) . أما قوطيو الاتجاه الأول فبسطوا سلطانهم على الأراضي التي استوطنوها حتى غزاهم التتار حوالى عام ٣٧٥ ميلادية ، فلجأوا إلى الامبراطورية الرومانية للحماية وسمح لعدد كبير منهم الاستيطان فيها . ولم يكن حظ قوطيي الاتجاه الثاني أفضل كثيرا ، إذ هزمهم التتار عام ٣٧٦ وأخرجوهم من داسيا مما أضطرهم للالتجاء في الجنوب وكانوا من القوة بحيث تمكنوا من هزيمة الرومان في معركة ادريانوبل عام ٣٧٨ . قوطيو الاتجاه الأول عرفوا باسم القوط الشرقيين وهؤلاء استطاعوا تأسيس مملكتهم التي استمرت من عام ٤٩٣ وحتى عام ٥٥٣ عندما قهروا في عهد الامبراطور البيزنطى جوستينيان الذى قوض أيضا مملكة الوندال التي كانت أولى الممالك التى أقامتها القبائل الجرمانية على اراضي الامبراطورية الرومانية .

أما القوط الغربيون فقد تنقلوا في المناطق الجنوبية من أوروبة حتى تزعمهم فاليا فأسس أول مملكة قوطية غربية في تولوز الحالية ،.التى كانت تعرف باسم تولوزه ، بعد ان اقطعهم الرومان ثلثى المنطقة التي عرفت باسم اكيتانيا (غربى فرنسا) . هذه المملكة دامت من عام ٤١٩ وحتى عام ٥٠٧ ، عندما حقق كلوفيس زعيم قبائل الفرانك ، انتصارا ساحقا عليهم في معركة فويية (٥٠٧) وقوض المملكة القوطية الغربية ثم طرد القوط من اكيتانيا ، واجبرهم على النزوح خلف البيرينية والالتجاء إلى ابناء عمومتهم من القوط الغربيين في شبه جزيرة ايبرية . (١) .

ب - المملكة القوطية في طليطلة :

حولت القبائل الجرمانية اراضي الامبراطورية الرومانية إلى أشلاء ، وساعدها في ذلك تآكل الامبراطورية من الداخل بفعل الفساد والظلم . وكانت بقايا الامبراطورية تضع السيف جانبا في الوقت الذى استعدت فيه القبائل لحمله ، فسقطت الامبراطورية في القسم الغربي منها وبقيت القبائل التي وضعت ترحالها اعتبارا من بداية القرن الخامس الميلادي وأسست العديد من الممالك . وإذا كانت

---

(١) لدراسة تأثير هذه القبائل الجرمانية التى لايعرف عن أصلها الكثير انظر :

Fisher, H.A.L., A History of Europe, Volume I, 1979, Chapter X «The Germanic Invasions», PP. 120-138. أو الترجمة العربية (انظر المراجع) .

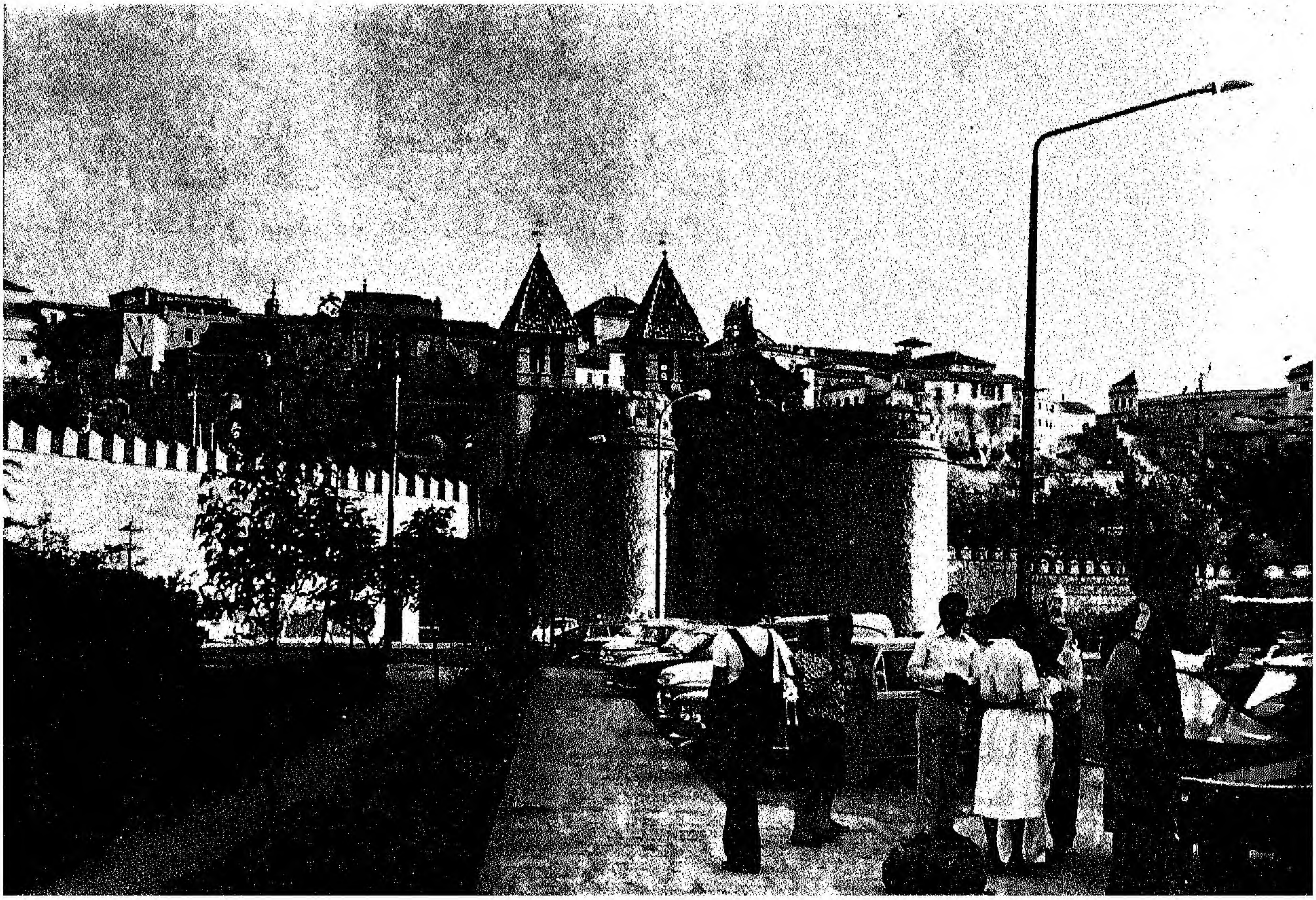

طليطلة   عاصمة القوط الغربيين قبل الفتح

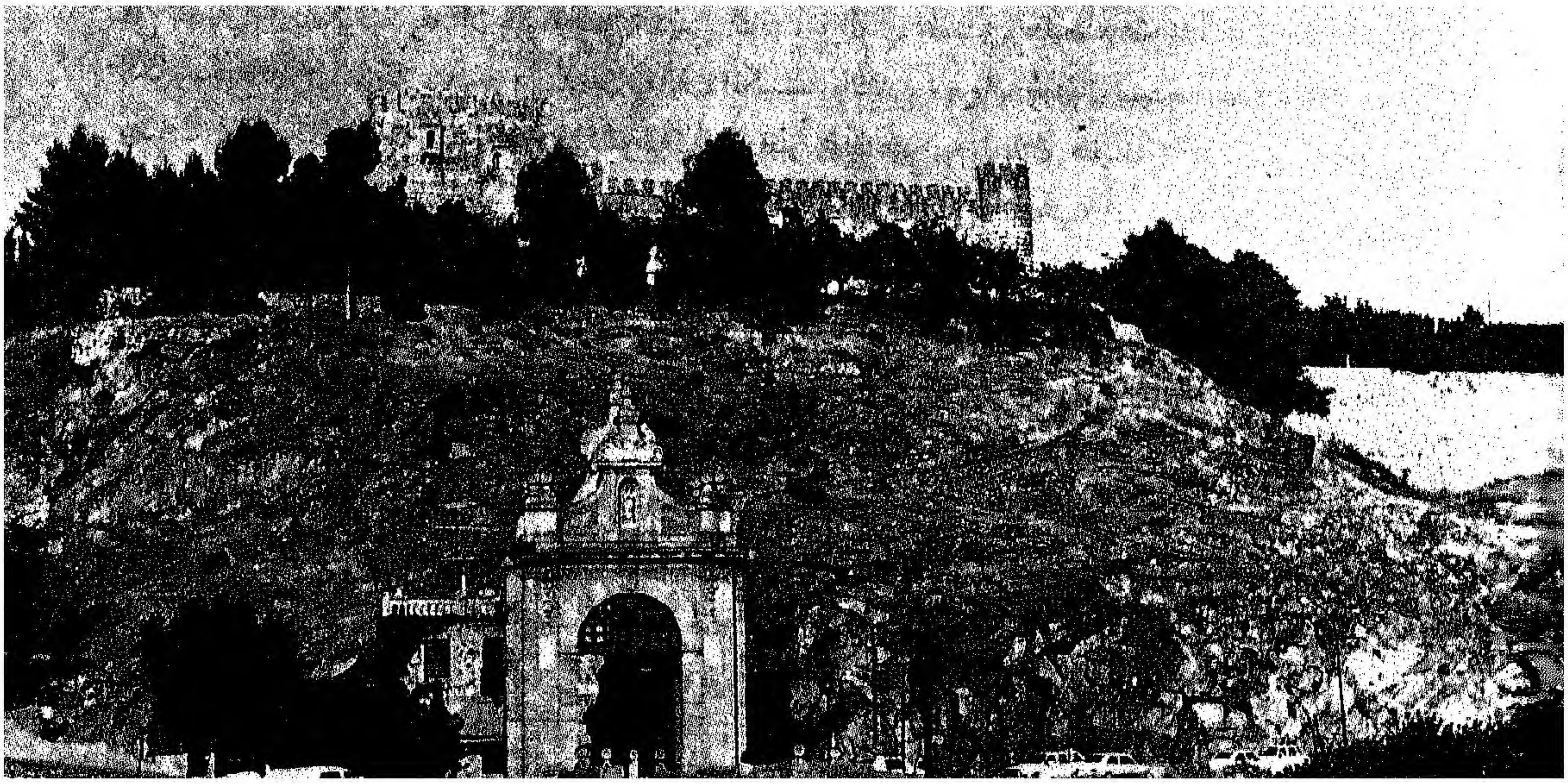

احد جسور طليطلة فوق نهر تاجة

القبائل مسؤولة عن تقويض دعائم الامبراطورية الرومانية الغربية ، فإن الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) كانت أكثر من ند لبعض الممالك التى أقامتها القبائل الجرمانية فسحقت المملكة القوطية الشرقية في ايطاليا عام ٥٥٣ ، وأحتلت جنوب شبة جزيرة ايبرية في العام الذي تلاه بعد الهزيمة التي ألحقتها بالقوط الغربيين ، وكانت قبل ذلك بتسعة عشر عاما قد دمرت مملكة الوندال في الشمال الأفريقي ، وبسطت سيطرتها البحرية على البحر الأبيض المتوسط . كان الغبار الذى اثارته القبائل الجرمانية ينجلى عن مرحلة جديدة من الاستقرار ، ويقدم الأرضية التى قامت عليها الدول الأوروبية فيما بعد . في شبه الجزيرة الأيبيرية طرد القوط الغربيون قبائل الوندال وعرفوا تحت زعامة اوريش (٤٦٦ – ٤٨٤) كيف يبنون قوتهم الجديدة ، ولكن المملكة القوطية الغربية لم تأخذ الشكل الكامل لها إلا بعد مقتل الأريش الثانى (٤٨٤ – ٥٠٧) ، في معركة فوييه أثناء قتال قبائل الفرانك . ويعتبر عام مقتله بداية المملكة القوطية الغربية التي استمرت حتى عام ٧١١ ، وانتهت بدخول قوات الفتح العربية إلى شبه جزيرة ايبريه التى عرفها الفاتحون وسكان المغرب الأقصى باسم الأندلس ، نسبة إلى قبائل الوندال التى سكنت شبه الجزيرة ، قبل أن يطردهم القوط الغربيون منها .

برز من زعماء القوط الغربيين ليوفغليد (٥٦٨ – ٥٨٦) فاتخذ من طليطلة عاصمة له ، وهاجم قوات بيزنطة في الجنوب فأجبرها على الإنسحاب من شبه الجزيرة ، ولكنها بقيت تحتفظ بسبتة الواقعة مقابل الساحل الجنوبى . وفي عام ٥٧٥ تمكن هذا الزعيم من تحطيم المملكة التى اقامها السوفيون في القسم الشمالى الغربي من شبه الجزيرة بعد قدومهم اليها عام ٤٠٩ ، وأخذت المملكة القوطية الغربية الشكل الذى كان قائما يوم الفتح . هذه الخطوات لم تنجح في ازالة مكامن الاضطراب في المملكة القوطية ، فالقوط اعتنقوا النصرانية على المذهب الأرى ولكن غالبية السكان الأصليين اعتنقوا الكاثوليكية ، وهذا أدى إلى اضطرابات وقلاقل استمرت إلى أن وافق ريكهارد الأول (٥٨٦ – ٦٠١) على اعتناق الكاثوليكية بعد أن قرر المحفل الديني الثالث ، الذي عقد في طليطلة عام ٥٨٩ ، أن تكون الكاثوليكية دين المملكة ، ونتج عن ذلك تحالف الكنيسة والنبلاء الجرمان وازدياد نفوذها بشكل عظيم . يضاف إلى مكامن القلاقل هذه أن القوط،الذين قدر عددهم يوم اعلان طليطلة العاصمة مابين ٨٠٫٠٠٠ و ١٠٠٫٠٠٠ شخص،كانوا على الأغلب من الجنود وسادة الحرب . صحيح أن قسما منهم استوطن وديان نهر دويرة وعمل في فلاحة الأرض ، إلا أن القوط بقوا عموما بعيدين عن السكان الأصليين المشكلين في غالبيتهم من الأيبيريين والكلتيين والبقايا المنحدرة من الأقوام والدول التي حكمت شبة الجزيرة بعدد اجمالى يقدر بين ثلاثة وأربعة ملايين تركزوا في المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد . وخلافا لهذه المشاكل التى كانت تقوم بين السادة الحاكمين والسكان الأصليين ، كانت هناك مشاكل من نوع آخر بين الحاكمين أنفسهم . ومن بين المساعى التي بذلت لوقف الصراع على السلطة ، الاتفاق عام ٦٣٣ على أن يتم اختيار الملك بالانتخاب.والتزم النبلاء بالقرار ردحا من الزمن ، غير أن الطبيعة القبلية للحكام غلبت عليهم فيما بعد فنشبت أزمة كان لها أثر فعال فى تسهيل فتح شبه الجزيرة وتقويض الحكم القوطي . (١)

انظر : « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور أحمد بدر ، ص١٠ ، و
Lane- Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4 th Edition), 1890, PP. 8-14.

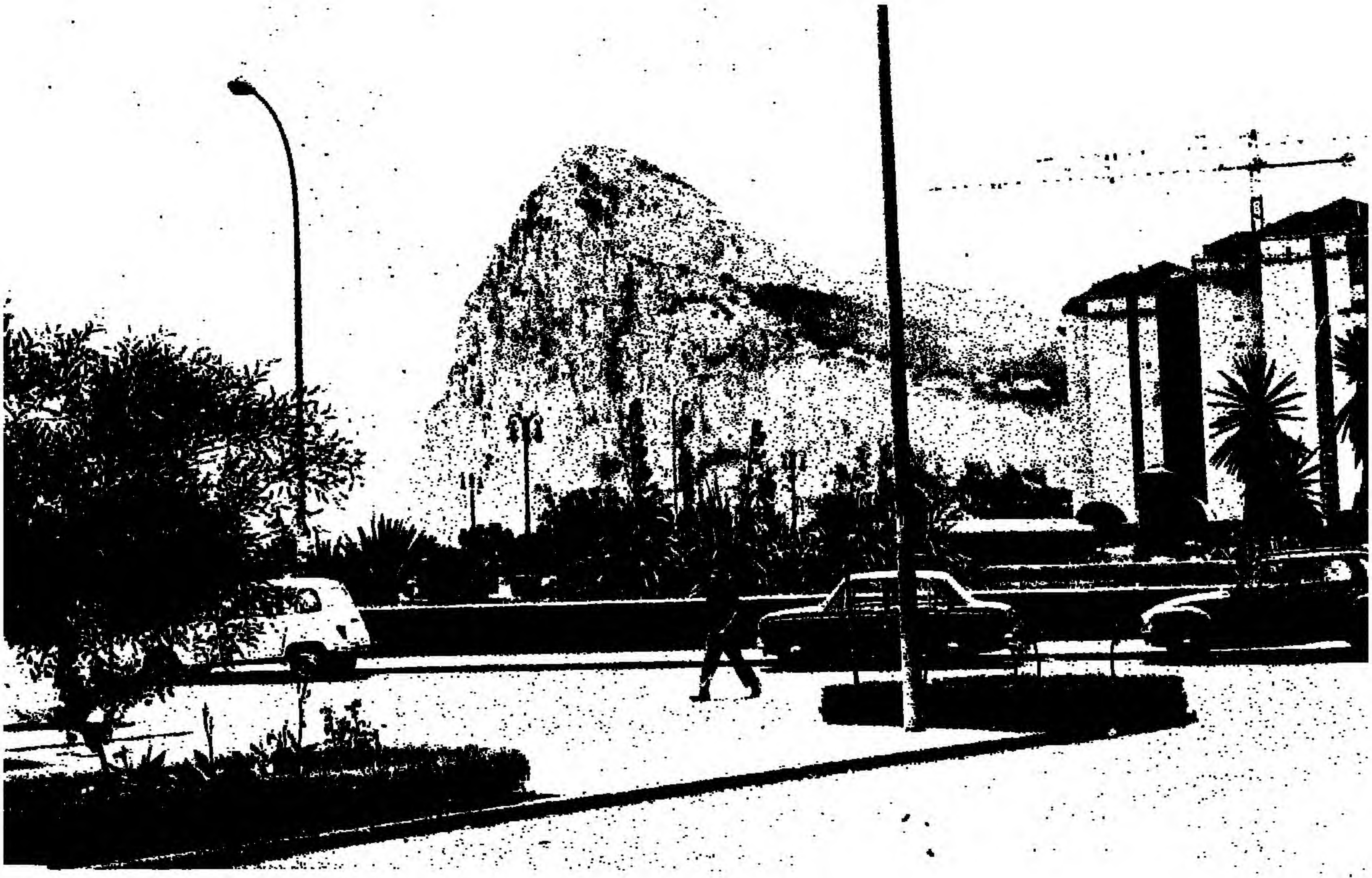

جبل طارق كما يبدو من مدينة الجزيرة الخضراء

جـ – سقوط المملكة القوطية :

بدأت هذه الأزمة عندما خلف الملك غيطشة (أو فيتسه Witiza) والده ايخيكا دون الالتزام بمبدأ الانتخاب الذى اتفق عليه ، فكان ذلك أحد أسباب نقمة النبلاء ورجال الكنيسة . وحاول غيطشة تكرار ظروف اعتلائه السلطة حين اختار ابنه اقيلة ، أو وقلة ، ليخلفه ولكن النبلاء كانوا هذه المرة على استعداد. فما أن توفى غيطشة في نهاية عام ٧٠٨ أو بداية العام الذى تلاه ، حتى قام بعضهم باعلان العصيان ضد الملك الصبي الجديد ، واستقل آخرون عن سلطة طليطلة ، في حين رأى قسم آخر منهم تجاهل وقلة واعلان دوق قرطبة ملكا على البلاد ، مما اضرم نيران الاضطرابات السياسية في المملكة القوطية . وتصدى الملك الجديد رودريك ، الذى عرفه العرب باسم لذريق ، لخصومه فأخضعهم بالسيف أو بالرشوة واستتبت له الأمور إلى أن جاءه رسول يبلغه أن جيشا نزل جنوب البلاد فحشد جنده وسار اليه متعجلا رده ودارت معركة مريرة مع جيش طارق بن زياد انتهت بهزيمة القوط وغرق أو هروب لذريق نفسه ، آخر ملوك القوط الغربيين .

هذه الهزيمة التي حلت بالقوط عام ٧١١ م (٩٢ هـ) كانت حاسمة،وخلف جنود الملك القوطي كان الطريق مفتوحا لجنود طارق البرابرة حتى أقصى الشمال دون مقاومة حقيقية من جانب نبلاء القوط ، ودون أيه مقاومة تذكر من جانب السكان المحليين ، الذين بقوا في جلهم خاضعين بالقوة لسلطة القوط رغم المحاولات التي بذلها بعض ملوك القوط لاستمالة السكان المحليين،وربما كان السبب طبيعة القوط أنفسهم والفساد الذى ورثوه مع الأرض التي اقتطعوها من جسد الأمبراطورية الرومانية ،

وعندما هزم طارق لذريق في معركة البرباط ، كان القوط أمضوا في شبه جزيرة ايبرية أكثر من ٢٥٠ سنة ، ولكنهم لم يضيفوا الكثير إلى مابنته الأمبراطورية الرومانية بل عرفت في عهدهم الانحطاط الذى عرفته مع نزوح القبائل الجرمانية البربرية الأخرى ، التى لم تكن قد تعلمت بعد كيف تستوطن أو كيف تبنى . في عهد القوطي أوريش (نُفذت محاولة) وضع أول قانون جرماني في شبه جزيرة ايبرية ولكنه كان بعيدا عن انصاف السكان الأصليين . وجرت محاولة أخرى فى حوالى عام ٦٥٤ حين وضع الملك ريكسفنت (٦٤٩ - ٦٧٢) قانونا جديدا حاول أن يطبقه على القوط والسكان المحليين من الرومان الآيبيريين (١) ،فاستفادت منه الأقلية واصبحت الأغلبية أشد بؤسا من ذى قبل . وهذا هو أحد أسباب سقوط المملكة القوطية على ايدى طارق بن زياد ، لأن القوط وحدهم رفعوا السلاح ، والقوط وحدهم هزموا بعد أن فقدوا الحماس الأول الذى ساعد على تفتيت أكبر امبراطورية على وجه الأرض . وخلال فترة قصيرة من انتصار طارق سقطت معظم الأراضى الايبيرية ، ورضخ معظم الأعيان والكنسيين للسلطة الجديدة . ولكن بعض هؤلاء فروا إلى غاله أو التجأوا إلى اقصى الشمال ، وقدّر لأحدهم تنظيم العصيان الأول .

٢ - تطور الممالك الشمالية

أ - بلايــو :

يتكون خمسا شبه الجزيرة الايبرية من هضبة مرتفعة تشطرها سلسلة من الجبال التي تشمل جبال وادى الرملة وابلة في الوسط ، وجبال غريدو وغاتة التي تعتبر استمرارا للجبالالايبيرية في الغرب وترتفع جنوب البلاد سلسلة أخرى من الجبال على امتداد طوله أكثر من ٣٥٠ ميلا وتعرف باسم جبال بيتك كورديليرو ومن أهم معالمها جبال نيفادا التى عرفها العرب باسم جبال شلير أو جبل الثلج بقمة يصل ارتفاعها إلى ١١٫٤٢٠ قدما ، وبذلك تكون أعلى قمة في أوروبة . في القسم الجنوبي من الهضبة الأسبانية هناك مجموعة أخرى من الجبال بينها جبال مورينا (الشارات) ويمتد جنوبها واد منخفض هو الوادى الكبير . وفي القسم الجنوبي من الهضبة أيضا تمر أنهر وتفرعاتها ، واهمها نهرا تاجه ووادي أنه اللذان يتدفقان باتجاه الغرب ، وتفصلهما عن بعضهما جبال أخرى بينها جبال طليطلة وجبال وادى لب . وفي أقصى الشمال تفصل اسبانيا عن فرنسا سلسلة هائلة من الجبال المعروفة باسم جبال البيرينيه (البرت ، أو البرتات) لتشكل حدودا طبيعية بين البلدين . وتنقطع هذه السلسلة ثم تستمر بسلاسل أخرى من الجبال الغربية المطلة على المحيط الأطلسي ومنها سلسلة جبال قمم أوروبة وقنتبرية . ويعرف القسم الشمالى من الهضبة باسم وادى نهر دويرة وهو يضم جزءا كبيرا من قشتالة القديمة وليون ، في

(١) منح جميع سكان مقاطعات الامبراطورية الرومانية المواطنية الرومانية في عام ٢١٣ باستثناء العبيد،وكان ذلك في عهد الأمبراطور كركلا (٢١١ - ٢١٧) .

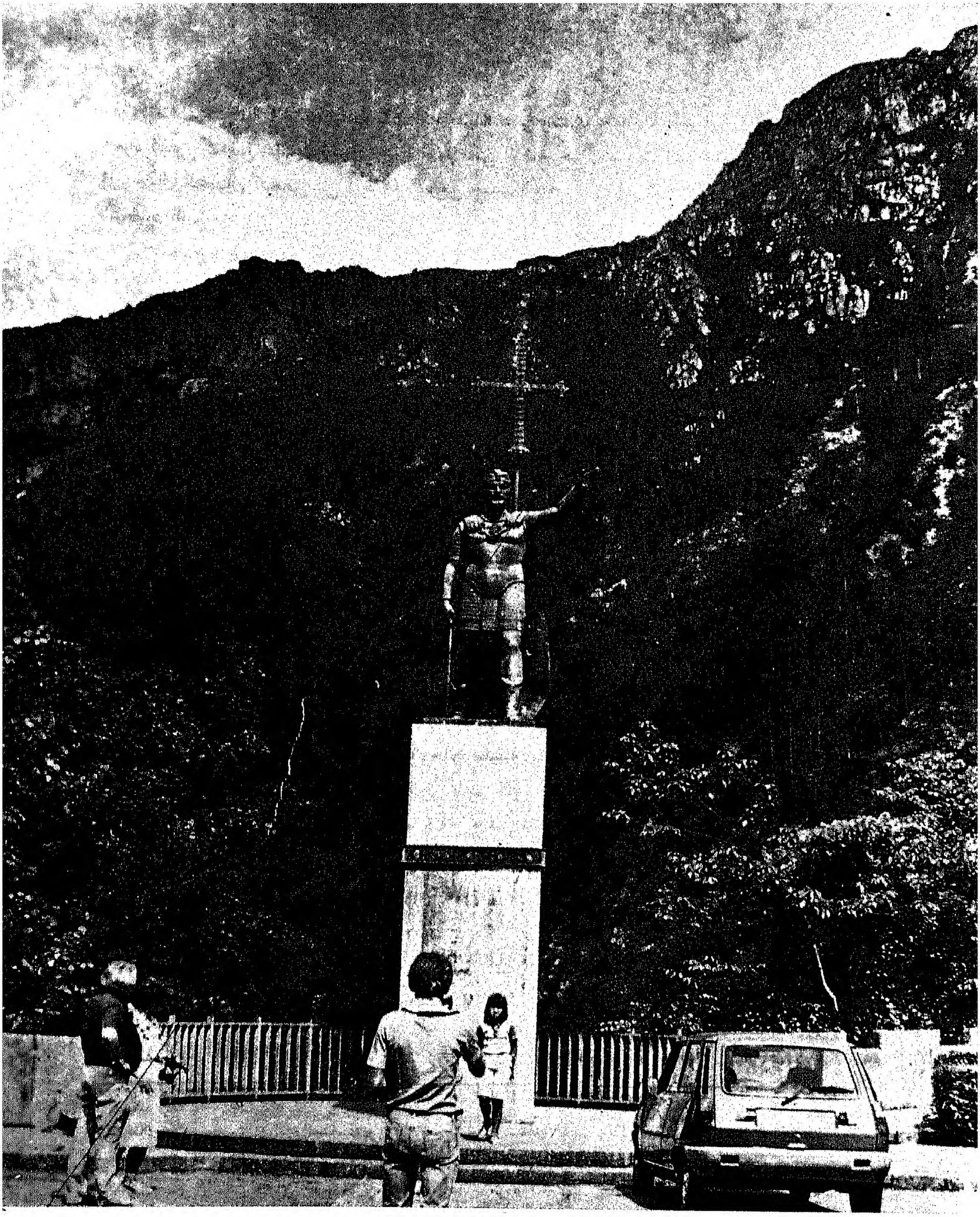

تمثال بلايو في صخرة كابدونغا

حين تُعرف الهضبة الجنوبية باسم قشتالة الجديدة دورا واستريما . ووعورة الشمال جعلته مكانا تفاداه الغزاة الذين تعاقبوا على شبه جزيرة ايبرية ، ولم يكن الوضع خلال سنوات الفتح العربي استثناء فقد لجأ إلى جبال الشمال البعض ممن آثروا الهروب من جنوب الفتح العربي الأول ، بعد أن حقق طارق بن زياد انتصاره الساحق .

كان من بين هؤلاء شخص يدعى بلايو (بلي أو بلاى)،وقصته التى وردت الينا خليط من حقيقة وخيال ومبالغة ، ولكن الظاهر أن بلايو نفي من طليطلة أيام حكم الملك غيطشة ، ولكنه عاد لينضم إلى بلاط لذريق الذى جاء بعده . ولما هزم لذريق هرب بلايو إلى اشتورش مع اخته ولكنه اعتقل على يدى حاكم مدينة جيجون الواقعة على خليج بسقاية ، وبعث به رهينة إلى قرطبة لابعاده طمعا في أخته . وتمضى الرواية لتبين أن بلايو تمكن من الهروب مرة ثانية ، وعاد إلى الجبال ليحرض الناس على العصيان وحمل السلاح ضد المسلمين دفاعا عما بقي من أرضهم وحريمهم . وتضيف الرواية ان بلايو الذى تسميه بعض الروايات الاسلامية « بملك جليقية »(1) نصب نفسه ملكا على مجموعة صغيرة من الرجال والنساء ، وتمكن من ايقاع الهزيمة بالجند الذين أرسلهم حاكم مدينة جيجون لتأديبه . التجأ بلايو هنا إلى صخرة عاتية تعرف باسم صخرة كابدونغا ، وهي في جبال قمم أوروبة ، وأخذ يشن غاراته الصغيرة على المناطق المجاورة ، مستغلا انصراف الفاتحين إلى محاولة فتح بلاد غاله أو الأرض الكبيرة ، ولكن النكسات التي أصيب بها الفاتحون في غاله – ولاسيما هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء التي وقعت سنة ٧٣٢ (١١٤) – حولت جهودهم إلى الأندلس للقضاء على مراكز العصاة . ووجه الوالي عقبة بن الحجاج الذى حكم بين عامي ٧٣٤ – ٧٤١ (١١٦– ١٢٣) حملة إلى الشمال « وافتتح جليقية وبنبلونة ، وأسكنها المسلمين ، وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة فإنه لجأ اليها ملك جليقية . وكان بها في ثلاثمائة رجل فمازالوا يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا ، وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا الا بعسل يجدونه في خروق الصخرة ، وأعيا المسلمين أمرهم فتركوهم وقالوا : « ثلاثون علجا ماعسى أن يجيء منهم ؟ (2) هؤلاء « العلوج » ، عادوا إلى توسيع سلطتهم واجتذاب الناقمين على الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبرية ، مستفيدين من مرحلة جديدة مضطربة دخلت بها الأندلس ، وانشغل جنودها بقمع الفتن التي عمت البلاد . أما بلايو هذا فقد توفى سنة ٧٣٧ (١١٩) وخلفه إبنه فافيله مدة سنتين ، ومات دون أن يترك وريثا فانتقل ملك هذه الدويلة الصغيرة إلى زوج أخته المدعوة أرمسندة .

---

(1) هناك خلاف حول تاريخ بداية عصيان بلايو والرواية المسيحية تحدده بسنة ٧١٨ (٩٨) ولكن هذه الرواية غير دقيقة لأنها كتبت في حوالي سنة ٩١١ ، أي بعد حوالي ٢٠٠ سنة من وقوعها .

انظر : « فجر الأندلس » ، د . حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣١٥ – ٣٤٣ ، وأنظر أيضا : « التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة » للدكتور عبد الرحمن على الحجي ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .

(2) انظر : « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » لابن عذارى المراكشي ، تحقيق ج . س كولان ، و اليفي بروفنسال « طبعه بيروت » الجزء الثاني ، ص ٢٩ . و « نفح الطيب » ، الجزء ٤ ، ص ٣٥١ .

ب – بناء قوى الشمال :

الدويلة التى أنشأها بلايو لم تكن في واقع الحال أكثر من خلية عصيان ، تسكن منطقة نائية وعرة تعصف بها شتاء رياح شديدة البرودة ، ولاتكاد تصلح الا لرعي الماشية القليلة التي ملكها العصاة . وهذه الخلية لم تكن الوحيدة في الشمال ، إذ كان هناك تجمع مسيحي في المناطق المحيطة بمدينة بامبلونا (بنبلونة) ، كما وجدت تجمعات أخرى فى قطالونيا العليا ووديان أعالي جبال البيرينيه . ولابد أن موقع هذه التجمعات أهلها للحصول على دعم غاله والتحاق بعض سكان الأرض الكبيرة بهم ، وبالتالي ازدياد أهميتها في إحداث المستقبل ، إلا أن نصيب التطور والنمو كان لدويلة بلايو. وزوج ابنته وكان ابن نبيل يدعى بدرو (بطرة) . ولما مات بلايو وابنه من بعده،تولى الفونصو المعروف بالأول وبـ « الكاثوليكي » (٧٣٩ – ٧٥٧ / ١٢١ – ١٤٠) قيادة جماعته من بُليدة تدعى كانغاس دى أونيس . والمعلومات المتوفرة عن هذه الحقبة من تاريخ ممالك الشمال قليلة ، ولكن يقال أن الملك الفونصو الأول أخذ على عاتقه تقليد عادات القوط الغربيين وتشييد بعض الأبنية الصغيرة على النمط القوطي القديم ، واختط النهج الذى سار عليه ملوك الشمال فى المستقبل لاستعادة ملك القوط من العرب ، واعادة طليطلة عاصمة للقوط الغربيين . ومهما يكن من أمر هذه الرواية ، الا أن بعض المؤرخين تناولوها بكثير من الجدية وأحدهم ، وهو المؤرخ الشهير بيدال (١) يصف هذه المرحلة من تاريخ شبه جزيرة ايبريه بأنها مرحلة « القوطية الجديدة » ، وأن بلايو كان الأصل الذى تفرع عنه كل ملوك ليون وقشتالة فيما بعد . (٢)

---

(١) مننديث بيدال (Menendez Pidal)

(٢) حقيقة وجود شخصية بلايو ثابتة رغم التباين الكبير في معظم المعلومات المتوفرة عنه وعن الفترة التى رفع فيها راية العصيان ضد الفاتحين المسلمين . وصموده أمام المحاولات التى بذلت لإنهاء عصيانه مؤكد أيضا في المرويات العربية التي تحدد مكان هذا الصمود في الصخرة وهي صخرة بلاى ، أو كابدونغا الموجودة في قمم أوروبة . وكابدونغا اليوم قرية صغيرة الا أن لها صيتا ذائعا فى اسبانيا ، لأنها تعتبر أول مراكز التصدي للسلطة الاسلامية،ولهذا ينظر أهل اشتوريش الشمالية إلى وطنهم على أنه روح اسبانيا . والصخرة التى يرد ذكرها في كثير من المصادر عبارة عن كهف مفتوح وسط جدار صخرى مرتفع يرقى إليه الزائر عن طريق سلم ، وفيه قبر بلايو وزوجته غديوسا ، وكذلك قبر الفونصو الأول وزوجته ارمسندة . وقبالة الصخرة كنيسة حديثة بنيت على انقاض كنيسة قديمة بناها الفونصو الأول « الكاثوليكي » . واحترقت الكنيسة سنة ١٧٧٧ ثم سنة ١٩٣٦ قبل تعميرها حديثا . أما الأهمية الدينية في المنطقة فهي لكنيسة صغيرة من غرفة واحدة موجودة داخل كهف الصخرة .

وربما كان طول الكهف حوالي عشرة أمتار وعرضه في أعمق المناطق حوالي خمسة أو ستة امتار ، ولذا لم يكن من المعقول ان تستوعب الصخرة ٣٠٠ شخص ، كما ورد في رواية ابن عذارى . أما بقية الرواية التى تذكر أن بلايو صمد مع ٣٠ من أتباعه فى الصخرة (بينهم ١٠ نساء) فيسوغها الموقع الاستراتيجي الذى تحتله الكهف ، اذ يتعذر على أى شخص الوصول إلى الكهف لانقطاع الطريق اليه بين الفجوة . وأسفل الصخرة بركة ماء كبيرة يمكن انتشال الماء منها لمن هم في الصخرة عن طريق دلو مربوط بحبل . ولكن القول أن العصاة تقوتوا بعسل وحده في خروق الصخرة بحاجة إلى مراجعة . والسبب أن كابدونغا تقع في منطقة جبلية مرتفعة فيها اشجار كثيرة ، ولكنها منطقة كثيرة البرودة وتخلو من البساتين أو الأزهار التي يمكن أن يقتات النحل عليها .

وربما كانت المنطقة في بداية القرن الثامن الميلادى غير ماهي عليه الآن ، أو أن الطقس والنباتات كانت مختلفة وإن كان ذلك مستبعدا . والأرجح أن الجنود سئموا محاصرة بلايو وجماعته في كهفهم الحصين ، وعجزت سهامهم عن الوصول اليهم ، فرجعوا من حيث أتوا إلى حيجون التي تبعد حوالي ٨٠ كيلو مترا بمحاذاة الطريق الساحلي .

وتحدد الرواية الأسبانية تاريخ عصيان بلايو بسنة ٧١٨ ، بينا تحدده المرويات العربية في عهد الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي (٧٢١ – ٧٢٦ / ١٠٣ – ١٠٧) أو عقبة بن الحجاج السلولي . أما وفاته فيذكر أنها كانت سنة ١٣٣ هجرية (٧٥١) ، ولكنها على الأرجح سنة ٧٣٧ (١١٩) على افتراض أن الفونصو الأول أصبح ملكا بعد وفاة بلايو بسنتين .

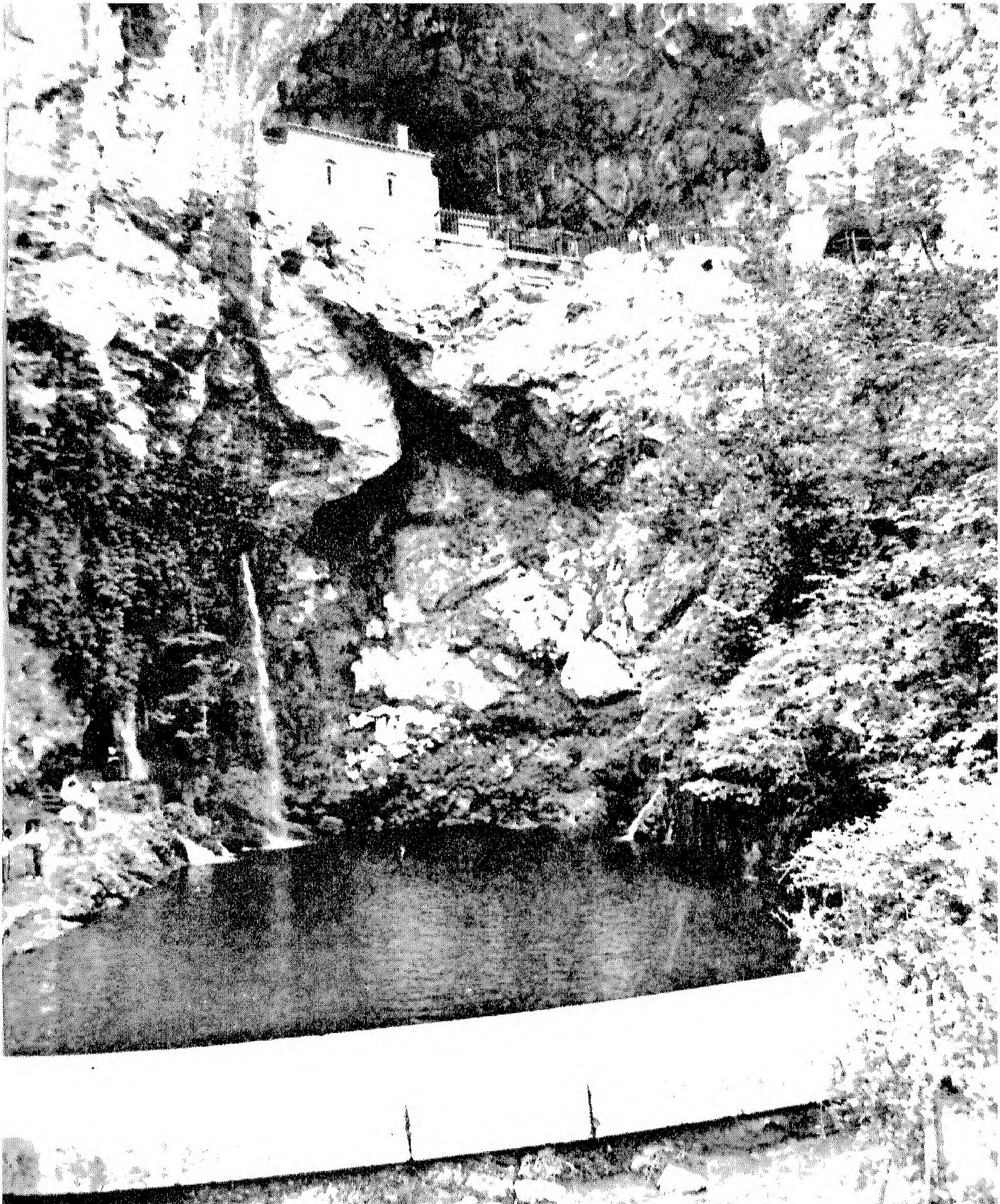

صخرة بلايو فى كابدونغا

ولكن قبل أن تتمكن خلايا العصيان هذه من التوسع ، كان لابد من توفر الشروط التي تساعد على ذلك . والفترة التي أعقبت عهد الوالي عقبة بن الحجاج السلولي اتسمت بتعاظم الصراعات الداخلية واندلاع الثورة البربرية في الشمال المغربي أولا ثم في الأندلس (١) . فقد سكنت جماعات كثيرة من البربر الذين وصلوا مع طارق بن زياد بعض المناطق الشمالية ، وكونت قوة عازلة في وجه أى تقدم حقيقي للشماليين . غير أن البربر عملوا على تصفية التجمعات العربية من الشمال،باستثناء مدينة سرقسطة،ثم جاء جيش الشام والبلديين الأندلسيين ، فقضوا على ثورة البربر ومزقوا مراكز تجمعاتهم وتبع ذلك جدب أصاب المناطق الشمالية من الأندلس فرحل قسم من البربر عائدا إلى بلده ، وانتقاع آخرون للاستيطان في مناطق جديدة فكانت هاتان الحادثتان سببا مهما في تفريغ المنطقة العازلة من السكان ، مماسمح لألفونصو الأول بالتوسع شرقا وغربا وجنوبا فأكمل احتلال منطقة اشتورش وجليقية ونزل على مدينة ليون رغم أن مقر الحكم بقي في مدينة سنت يانس(شنت يانش) التي تقع غربي مدينة جيجون .

وبينما انتقل الفونصو الأول من انتصار إلى آخر ، كانت أحوال الأندلس تسير من اضطراب الى آخر كما تشهد بذلك مرحلة عهد الولاة التي عرفت ٢٢ واليا في ٤٢ سنة فقط ، فكانت مدة حكم الولاة الواحد والعشرين الأوائل سنة ونصف السنة وسطيا . فإثر ثورة البربر نشبت الاضطرابات بين الجيش الشامي والبلديين وانشغل الأندلسيون عما يحدث في الشمال ثم جاء عبد الرحمن الداخل الأندلس فبدأت مرحلة أخرى من الاضطراب استفاد منها الشماليون لتوسيع سلطانهم . وسنوات القلق هذه مكنت الشماليين من بناء قوتهم وفي سنة ٧٥٦ (١٣٨) ، كانت قبائل الباسك (البشكنس) من القوة بحيث تمكنت من هزيمة الجيش الذى بعث به الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (٧٤٦ — ٧٥٦ / ١٢٩ — ١٣٨) لاخضاع تلك القبائل بعد استفحال أمرها . ولعل في هذا الانتصار أسوأ

---

(١) اندلعت شرارة الثورة البربرية في مدينة طنجة فهوجمت المدينة وقتل عاملها ابن المرادى المعروف بجوره في فرض الضرائب على البربر ، ثم امتدت الثورة لتشمل المغرب الأقصى فاعلن البربر الانفصال عن الخلافة الاموية وبايعوا أحد زعمائهم المعروف باسم « ميسرة » خليفة لهم ، وكان هذا سقاء في القيروان . عظمت هذه الثورة واستفحل أمرها عندما أحرز البربر انتصارا كبيرا على الجيش الذى تصدى لهم بقيادة خالد بن حبيب الفهرى في معركة مشهورة باسم موقعة « الأشراف » ، لأن خالد وقادته أثروا الموت بعد التيقن من الهزيمة ووصلت أنباء الثورة إلى مسامع الخليفة هشام بن عبد الملك في الشام فبعث إلى البربر جيشا ضم حوالى ٣٠٠٠٠ مقاتل ، جله من الشام وانضم إليه في افريقيا (تونس الحالية) جيش المنطقة ولكن الجيشين هزما على ايدى البربر في موقعة وادى سبو التي جرت سنة ٧٤٠ — ٧٤١ (١٢٣) ، وفر مشاة الجيشين إلى القيروان . ولكن قبائل البربر سدت الطريق على الفرسان فهربوا باتجاه المغرب الأقصى إلى أن دخلوا مدينة سبتة المعروفة بحصانتها ، وحاصرها البربر وكادوا يميتونهم جوعا لولا التطورات التي وقعت في الأندلس . والسبب أن بربر الأندلس سمعوا بالانتصارات التي حققها أبناء عمومتهم في الشمال الأفريقي ، فاعلنوا الثورة في المناطق الشمالية من الأندلس وأعملوا السيف في رقاب العرب ولكنهم عجزوا عن قهر سرقسطة لأن العرب كانوا أغلبية فيها . امتدت الثورة وهددت قرطبة العاصمة فأضطر الوالي عبد الملك بن قطن الفهري (٧٣٢ — ٧٣٤ / ١١٤ — ١١٦) للاستنجاد مرغما بجيش الشمال المحاصر في سبتة ، ونقله إلى الأندلس وجنوده شبه حفاة وعراة فمدهم السكان بما يحتاجون إليه ، واستعدوا لنزال البربر الى جانب جنود الوالي وسكان البلاد من العرب . قاد بلج بن بشر القشيرى الجيش الشمالي والغضب على البربر قد رفع من معنويات الجند ، وهزم البربر في موقعة وادى سليط ثم في مواقع أخرى حتى قضى عليهم ونزلت ببربر الشمال الأفريقي هزائم مشابهة قضت على الثورة إلى حين . دخول الجيش الشامي،الذى قدر عدده بنحو عشرة الأف جندى،لم ينه المشكلة في الأندلس ، إذا اختلف الجند مع الوالي فخلعوه وصلبوه فاستحث ابناؤه الناقمين على الجيش الشامي من عرب وبربر للحرب مما أدى إلى وقوع معركة قرب قرطبة أصيب فيها بلج بجرح مميت ، ولكن الجيش الشامى حقق الانتصار الأخير. واستمرت الصدامات بين الشاميين والأندلسيين حتى جاء الوالي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي (٧٤٣ — ٧٤٥ / ١٢٥ — ١٢٧) ، فوضع حدا للاضطرابات ووزع الجيش الشامى جنوب وشرقي الأندلس .

الأنتصارات التي حققها عصاة الشمال لأن الجيش الذى قاده سليمان بن شهاب رجع بعد هزيمته وقد تفرق جنده ، ولم يتمكن الوالي من تسييره للقضاء على عبد الرحمن الداخل ، مما اعطى صقر قريش الفرصة لحشد مؤيديه فكان انتصار البشكنس سببا غير مباشر في تسلم عبد الرحمن السلطة ، وتأجيل سيطرة الشماليين على الأندلس مئات السنين . ولكن هذا في حد ذاته لايمنع القول بان الاضطرابات التى واكبت دخول عبد الرحمن الأندلس أعطت الشماليين الوقت لتوطيد وجودهم الذى استمر رغم النكسات التي لحقت بهم ، كما يشهد بذلك صاحب العبر حين يقول : « عندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوى أمر الجلالقة ، واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد ، فأخرج المسلمين منها ، وملكها من أيديهم ، فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبيبة ... » (١) .

حكم الفونصو الأول دويلته،التي حملت اسم المنطقة التي قامت،عليها ١٨ سنة وطد فيها حكمه ووسع سلطانه ، ثم خلفه ابنه فرويلة المعروف بالأول (٧٥٧ – ٧٧٥ / ١٤٠ – ١٥٩) فنشط هو الآخر لبسط سيطرته على مناطق جديدة . ومن بين الأعمال التي قام بها بناء حصن اويدو (أوبيط) للدفاع عن ممر بخارس سنة ٧٥٧ (١٤٠) وهو الحصن الذي تحول إلى عاصمة ملوك اشتورش فيما بعد. واستمر فرويلة في اتباع سياسة العداء إلى أن بدأ عبد الرحمن تسيير الحملات ضده فنزلت به عدة هزائم واستعاد بعض المناطق التي تمكن من الاستيلاء عليها . وعبد الرحمن الذى اتقن سياسة تقويض العصيان من الداخل راح يطبق سياسته على اشتورش مستغلا رغبة بعض زعماء الشمال في السلم ونقمة آخرين على جور فرويلة ، وأثمرت هذه السياسة باغتيال فرويلة سنة ٧٧٥ (١٥٩) ، وحلول سنوات من الهدوء ، كان الشمال خلالها خاضعا لارادة عبد الرحمن يدفع له الجزية إضافة إلى تقديم ١٠٠ عذراء (٢) . استمر هذا الهدوء حوالى ١٥ سنة إلى أن جاء الملك برمودة فتابع سياسة الفونصو الأول وابنه ، ولكنه كان ملكا ضعيفا دون خبرة أمضى سنوات حياته منعزلا فى أحد الاديرة ، مما انزل بقوات اشتورش خسائر فادحة فعزل سنة ٧٩١ (١٧٥) وبدأت مرحلة جديدة من الصراع مع قرطبة .

ج – توطيد دعائم الممالك الشمالية :

إن استمرار دويلة الفونصو الأول ومن خلفه يعود إلى ضآلة أهميتها الحقيقية بالنسبة للمجتمع الأندلسي الذى ازداد مع الأيام نموا برغم المشاكل الكثيرة التي كانت تعترض مسيرته . كانت قوات الشمال عبارة عن مجموعة من الجند ، تغذيهم دوافع مختلفة لحمل السلاح واغتنام الفرصة وأخذ مايمكن أخذه من أرض ومال وأسرى ، ولكن لم يكن هناك جيش بالمعنى الدقيق ، ولم تكن هناك ادارة

---

(١) انظر « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» لعبد الرحمن ابن خلدون ، طبعة بيروت ، الجزء الرابع ، ص ٣٨٦ . ويرد النص هنا في نفح الطيب ، الجزء الأول ، ص٣٣٠ .

(٢) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » ص١٠٠

بليـدة كانغاس دى أونيـس

تستطيع أن تقدم الأرضية اللازمة لبناء أية دولة .وتغير هذا الوضع مع الزمن .ومن تحت النكسات التي لحقت بالشماليين في عهد حاكم قوي مثل عبد الرحمن الداخل ، كانت قوى الشمال تعود لرص الصفوف وتهديد التجمعات الأندلسية القريبة من مناطق نفوذها وبرز من ملوك الشمال في هذه المرحلة الفونصو الثاني (٧٩١ – ٨٤٢ / ١٧٥ – ٢٢٧) الملقب بالطاهر . ولابد أن ثقته بنفسه كانت كبيرة جدا أو أن انشغال أمير قرطبة بقمع الانتفاضات الداخلية ضده كان كاملا ، لأن الفونصو زحف بجنوده عبر نهر دويرة الذي يصب في المحيط الأطلسي ، وتابع سيره نحو الجنوب محتلا لشبونه (اشبونة) سنة ٧٩٨ (١٨٢) بل وإنه استطاع التمسك بها ١١ سنة قبل أن يتمكن الأندلسيون من انتزاعها منه . ولابد أيضا أن الوضع استتب لألفونصو الثاني فنقل محل اقامته الرسمي من سنت يانس،القريبة من برافيا على خليج بسقاية،الى مدينة أوبيط سنة ٨١٠ (١٩٤) . ويذكر التاريخ الأسباني لألفونصو الثاني دوره الكبير في ارساء دعائم مملكته في أوبيط ، الا أن له دوراً آخر لايقل عنه أهمية إن لم يتجاوزه . فبعد سنتين من تحول أوبيط إلى عاصمة،أصبحت مقرا للكرسي الأسقفي وجمع فيها كل ماكان يعتقد أن للقديسين علاقة به ، حتى حملت العاصمة وصف « المقدسة » (el Santo) . والاكتشاف المفاجىء لأهمية مملكة الفونصو الثاني من الناحية الدينية اكتسب بعدا جديدا سنة ٨١٣ حين ساد الاعتقاد باكتشاف جثمان القديس يعقوب ، فعمد الفونصو الثاني إلى بناء كنيسة خاصة بالجثمان نمت حولها المدينة المعروفة اليوم باسم سنتياغو (شنت ياقب / يعقوب) مع الزمن،وأصبحت محجا لنصارى شبه جزيرة ايبرية وغيرهم من نصارى أوروبة .

وفرّ الفونصو لأتباعه عاصمة وقديسا يحميهم في غزواتهم ويشد من أزرهم ، ولكن معارك الفونصو لم تكلل كلها بالنصر إذ لحقت به هزائم منكرة كثيرة ، ولكنه ترك مع ذلك مملكة كبيرة شملت مناطق اشتورش وجليقية ، وشمال الدولة التى نعرفها اليوم باسم البرتغال ، بالإضافة إلى سنتندير الواقعة على خليج بسقاية وبعض الأراضي المحيطة بمدينة برغش ، كما خلف أيضا الأسس الادارية والدينية التي قامت عليها مملكة ليون التي حمل ملك الفونصو اسمها ، رغم أنها لم تؤسس في مدينة ليون بالفعل إلا بعد ٧٢ سنة من موته . وعلى الرغم من أن العاصمة انتقلت في بداية القرن العاشر إلى ليون وعادت مرة أخرى إلى أوبيط الا أن قيمتها بقيت تاريخية على العكس من « فكرة » القديس يعقوب ، التي كانت في المراحل التالية شعلة يهتدى بنورها جنود الشمال خلال حربهم الطويلة ضد الأندلسيين ، إذ كان هذا القديس يظهر لخيال أتباعه وهو يحمل السيف ويمتطى فرسه البيضاء المنيرة ، حتى أن صيحة الحرب عند بعض الشماليين كانت اسم القديس . (١) اعتلى العرش بعد الفونصو الثانى ابنه روميرو (ردمير) ولكن لم يكن له حظ ابيه في توسيع المملكة ، اذ شغل بقمع الانتفاضات الداخلية ضده ، كما انشغل بوقف خطر آخر هدد الممالك الشمالية والأندلس على حد سواء . فبعد سنتين من تولى ردمير (٨٤٢ - ٨٥٠ / ٢٢٧ - ٢٣٦) الحكم شن النورمان (الاردمانيون أو الاردمانيون المجوس عند العرب) هجومهم الأول على الأندلس واعقبوه بهجوم ثان سنة ٨٥٩ (٢٤٥) فقام الأندلسيون والشماليون يصدون هذه الهجمات الخاطفة التي شنها النورمان من البحر . الا أن ردمير استغل حماس رعيته لصد هجوم النورمان وعمرت في زمنه قلاع كثيرة اضيفت الى قلاع سابقه بنيت على طول الضفة الغربية لنهر دويرة ، وأعطت في وقت لاحق اسمها لقشتالة التي تعني باللغة القشتالية (الأسبانية كما هي معروفة اليوم) « القلعة » . وقامت طول هذه المرحلة من تاريخ الشمال منطقة عازلة بين الشماليين والأندلسيين استخدمها هذا الطرف أو ذاك للنفاذ إلى أراضي الخصم والأغارة عليه ، كما حدث في عهد الملك اردون الأول (٨٥٠ - ٨٦٦/ ٢٣٦ - ٢٥٢) حين استغل الأخير انشغال الأمير محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦ / ٢٣٨ - ٢٧٣) باخماد بعض الفتن للهجوم على الأندلس .

---

(١) تروى الأسطورة الأسبانية ان جثمان القديس يعقوب « هبط » في مدينة البطرون (قديما اريا فلافيا) الواقعة على بعد ٢٠ كيلو مترا إلى الجنوب العربي من مدينة سانتياغو سنة ٨١٣ (١٢٦) وهو مسجي في كفن من الصخر . وتقول الأسطورة أن أسقف اريا فلافيا المعروف باسم ثيودومير (تدمير) اكتشف الكفن مهتديا بنجم قاده اليه ، حتي وصل إلى مكان في غابة كانت قائمة في الموضع الذى توجد فيه مدينة سنتياغوكومبوستيلا اليوم ، ومن هنا جاء الإسم الأخير من المدينة وهو :Compstela أى Compus Stellae .ومهما كانت حقيقة الفكرة التي قامت على اكتشاف جثمان القديس يعقوب ، إلا أنها اثارت اهتماما كبيرا في حينها واستغلها الفونصو الثاني بنجاح لتأجيج الحماس الدينى لدى رعيته فبنى كنيسة في الموضع ، ثم جاء الفونصو الثالث فعمر كاتدرائية بدل الكنيسة استغرق بناؤها ١٥ سنة وانتهت فى ٨٩٩ (٢٨٦) فقامت حولها مساكن وسوق تحولت إلى مدينة فيما بعد . وفي سنة ٩٩٧ (٣٨٧) أغار المنصور على سنتياغو ضمن حملة كبيرة لتأديب الشمال بعد استفحال الخطر ، فدمر المدينة ولكنه أبقى على قبر القديس للاعتقاد، في الرواية الأسبانية ، بان المنصور اعجب بشجاعة راهب ظل يلازم القبر بعد فرار الجميع من الكاتدرائية. ولكن السبب، على الأغلب ، احترام المنصور للمقام ولما أعيد بناء الكاتدرائية في عهد أول رئيس اساقفه لها ، ضمن هذا عظام القديس فى أساس الكاتدرائية الجديدة التى دشنت سنة ١١٢٨ (٥٥٢) . والكاتدرائية، كما هي قائمة اليوم محصلة كثير من أعمال البناء التي جرت في مراحل لاحقة وفيها ذخائر يقال أنها للقديس واثنين من تلاميذه اضافة ألى تمثال له عمل نحو سنة ١٢١١ (٦٠٨) . وأهمية هذا القديس بالنسبة للشماليين اعتباره حامي ممالك الشمال ومنجد النصارى ضد المسلمين، كما يتضح من الوصف الذى يحمله وهو ذبّاح الأندلسيين -- Matamoros ومن « معجزته » الأولى ظهوره لملك اشتورش، ردمير الأول، في معركة مع المسلمين سنة ٨٤٤ (٢٢٩) في عهد عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢ - ٨٥٢/ ٢٠٦ -- ٢٣٨) ، عرفت باسم كلافيحو (Clavijo) بموضع إلى الشمال من مدينة سرية . هذه الأعمال وغيرها مما رواه الشماليون اعطت القديس مكانة كبيرة في سائر أوروبة .

د - التوسع الشمالي نحو الجنوب :

في السنتين الأخيرتين من حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن ، بدأت في الشمال حركة غير عادية تجلت في توطين سهول نهر دويرة بسكان الشمال والوافدين من سكان الممالك الأوروبية الأخرى ، ولاسيما من مناطق ماخلف جبال البيرينيه . وتطورت هذه الحركة بعد سنوات من الصراع بين مملكة اشتورش والامارة تركز على تدعيم الخطوط الدفاعية للجبهتين ، وابقاء منطقة عازلة واسعة بينهما . الا أن اشتداد العصيان ضد قرطبة ولجوء بعض العصاة الناقمين إلى مملكة اشتورش طلبا للمعونة ضد الإمارة ، سمح للشماليين تدعيم وجودهم مستفيدين من توجيه الإمارة جهودها لاخضاع العصاه . وبعد وفاة الأمير محمد تعاظمت حركة العصيان في عهدي الأمير المنذر (٨٨٦ - ٨٨٨ / ٢٧٣ - ٢٧٥) وعبد الله بن محمد (٨٨٨ - ٩١٢ / ٢٧٥ - ٣٠٠) ، حتى أخذت شكل الحرب الأهلية . ففي عهد سلفهما أمكن إلى حد ماقمع حركة العصيان في الثغر الأعلى ، حيث كانت سرقسطة العاصمة ، وفى الثغر الأوسط حيث كانت طليطلة ، ولكن الحركة استمرت في الثغر الأدنى ماردة واتسعت لتشمل مراكز أخرى إلى أن بلغ عدد الثورات ضد الأمير عبد الله بن محمد ٣٠ ثورة منها ثورة ابن حفصون التي وصلت أوجها بين ٨٨٤ و ٨٩١ (٢٧١ - ٢٧٨) وضعفت سيطرة قرطبة حتى كادت السلطة الفعلية للأمير لاتتعدى حدود المدينة .

نشط الفونصو الثالث (٨٦٦ - ٩١٠ / ٢٥٢ - ٢٩٧) للاستفادة من تردى الأوضاع في الجنوب إلى هذا الدرك ، فقام يبنيهم قواته ويعمر المدن الحصينة مثل سمورة وسيمانقة (شنت منكش) فنقل سلطته الفعلية حتى نهر دويرة ، وواصل توسعه حتى باتت مملكة اشتورش تسيطر لحظة وفاته على حوالي خمس شبه جزيرة ايبرية . وفي عهد اردون الثاني (٩١٣ - ٩٢٣ / ٣٠١ - ٣١٢) كانت ليون عاصمة الملك وبدأ سكان المناطق الشمالية والشمالية الغربية من شبه جزيرة ايبرية في اظهار تميزهم عن باقي السكان ، وتطورت عاداتهم الخاصة ولغتهم القشتاليه اعتبارا من القرن العاشر الميلادى (الثالث للهجرة) . وأصبح الشمال مؤهلا لبدء مرحلة جديدة من تاريخه ، بعد أن تخطى مراحله الأولى بمساعدة غير مباشرة من الأندلسيين الذين انشغلوا بقتال بعضهم البعض . أما حكام الثغور المتاخمة للشمال فقد « لجأ كل منهم لملاطفة ملك اشتورش ، رغبة في نيل الحظوة لديه ولرد عاديته عنه ، كي يتفرغ هو لمحاربة جيرانه من إخوانه في الدين . وعلى ما يظهر ، لم يبق في الثغور من يقدر هذا الخطر الداهم ، الا جماعات النساك المرابطين فيها . »(١) ويذكر التاريخ في هذه المرحلة لأحمد بن معاوية قيادته جيشا من المتطوعين لاستعادة سمورة ، ولكن بعض شيوخ القبائل تخلوا عنه خوفا على مناصبهم فتراجع ، وظل صامدا يومين حتى قتله الشماليون في معركة سميت « يوم سمورة » وكان ذلك سنة ٩٠١ (رجب ٢٨٨) .

---

(١) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور بدر ، ص ٣٦٢

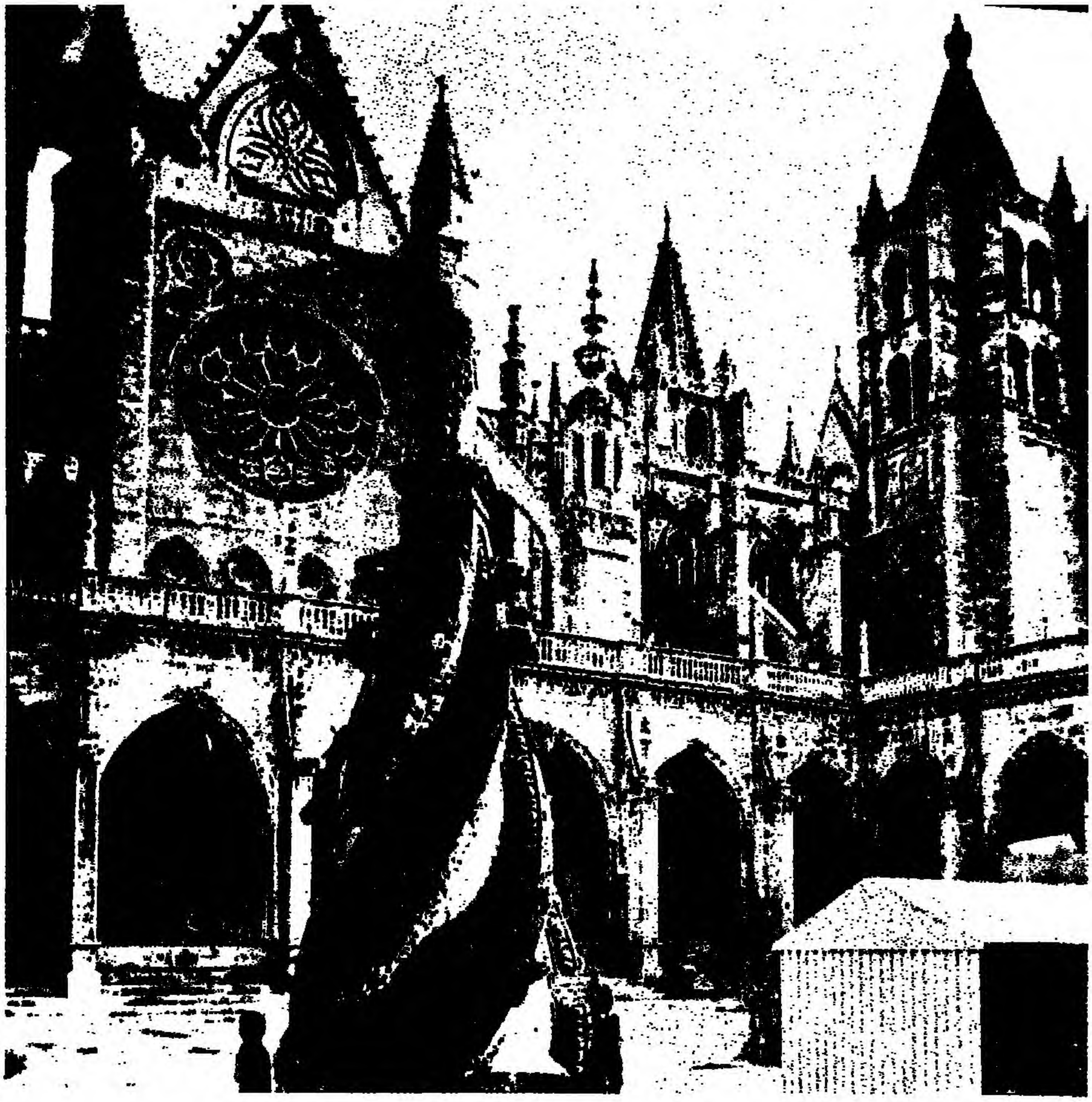

كاتدرائية ليون من البهو الداخلي

ولعل سرد هذه الوقائع يعطي الانطباع بأن انتصارات الشماليين كانت مستمرة طوال الوقت ، وأن هزائم الأندلسيين تعاقبت بلا انقطاع . فالشماليون توغلوا في مناطق الجنوب ولكن هذه الأراضي كانت جبلية وعرة في معظمها . حتى امتد الإعمار إلى وديان نهر دويرة . يضاف إلى ذلك أن قوة الشماليين كانت دائما عرضة للانحلال خلال توفر سلطة قوية في قرطبة ، وهذا ماحدث أيام الخلافة . ونحو نهاية حكم الأمير عبد الله بن محمد كانت مراكز العصيان تضمحل تدريجيا بفضل السياسة التي اتبعها وهي احداث تقلص تدريجي لسلطة العصاة ، وهذا مكن خليفته عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) وحفيد عبد الله من وضع نهاية للعصاة بما في ذلك ثورة عمر بن حفصون . حكم عبد الرحمن الثالث (٩١٢ – ٩٦١ / ٣٠٠ – ٣٥٠) فترة نصف قرن توجها باعلان الخلافة سنة ٩٢٩ (٣١٦) وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، ووصلت الأندلس في عهده إلى مرتبة لم تصلها في السابق . ومع ذلك فإن قوة مملكة ليون . وهو الإسم الذي عرفت به مملكة الفونصو الأول رغم أن ليون المدينة لم تصبح عاصمة إلا في عهد غرسيه الأول (٩١٠ – ٩١٣ / ٢٩٧ – ٣٠١) . وصلت هي الأخرى إلى مرحلة متقدمة إذ استطاع ردمير الثاني (٩٣٢ – ٩٥٠ / ٣٢٠ – ٣٣٩) هزيمة الخليفة الناصر في معركة شرسة عرفت باسم الخندق ، ووقعت قرب سيمانقه سنة ٩٣٩ (٣٢٧) فلم يستطع الناصر الفرار إلا بصعوبة ، وكان السبب الرئيسي في هذا الانتصار قدرة ردمير على جمع كلمة الشماليين ضد الجنوبيين الأندلسيين .

كانت ممالك شمالية أخرى تنمو إلى جانب ليون ، وتستعد هى الأخرى للنقضاض على قرطبة أو على الممالك الشمالية الأخرى . ويروى التاريخ الأسباني أن الملك الفونصو الثالث عهد إلى أحد قواده ، وهو دييغو بورسيلوس ، بناء حصن على ضفة نهر الرنسون (Arlanzon) في حوالي سنة ٨٨٤ (٢٧١) لوقف تقدم الأندلسيين،وبقي هذا الحصن ، الذى عرف باسم برغش ، تابعا لمملكة ليون حتى سنة ٩٢٦ (٣١٤) عندما قرر سكان المدينة انتخاب اثنين من القضاة لتسيير أمورهم . وبرز من هؤلاء القضاة من عمل على الاستقلال عن ليون ، وصد الحملات التي سيرتها المملكة الأم لتأديبهم حتى جاء فيرنان غونثاليث (فران غنصالص نونيه) في حوالي سنة ٩٥٠ (٣٣٩) ، فأعلن الاستقلال عن ليون وحمل لقب كونت قشتالة . وقد تطورت هذه الدويلة الصغيرة حتى أصبحت أكبر مملكة شمالية فيما بعد . إلى الشرق من ليون كان الباسك يبنون دولة ولكن أول من حمل منهم لقب الملك كان سانشو (شانجة) غرسيه الأول (٩٠٥ - ٩٢٦ / ٢٩٣ - ٣١٤) ، ووصلت هذه المملكة المعروفة باسم نافار (نبارة) إلى أوج قوتها إبان عهد سانشو غرسيه الثالث الملقب « بالكبير » ، وكانت تضم المنطقة الشمالية الشرقية من شبه جزيرة ايبرية التي اتسعت فيما بعد ، واصبحت تعرف باسم مملكة ارغون .

وحدة الشماليين التى مكنتهم من تحقيق الانتصار في موقعة الخندق في عهد الخليفة الناصر لدين الله تكررت في عهد خليفته الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١ - ٩٧٦ / ٣٥٠ - ٣٦٦) ، عندما تمكن سانشو (شانجه) الأول المعروف « بالسمين » (٩٥٦ - ٣٤٥/٩٦٦ - ٣٥٥) من توحيد جميع القوى الشمالية ضد الخليفة القرطبي ، ولكن سعيا وراء الدفاع وليس الهجوم؛إذ كانت الخلافة أقوى من أن تقهر ، يوم توفى الحكم الثاني ليخلفه هشام الثاني « المؤيد بالله » . وهشام الصبي كان الخليفة ولكنه لم يكن الحاكم . أما الحاكم الفعلي الذي لم يكن الخليفةفكان ابو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، أو اختصارا محمد بن أبي عامر الملقب « بالحاجب المنصور » . وفي عهد المنصور لم يعرف الشماليون طعم الانتصار،إذ سير جيشه ، الذى ضم أعدادا كبيرة من المرتزقة ، فهاجم سنة ٩٨١ (٣٧٠) قشتالة وأخضع سيمانقة وسمورة وهزم اتحاد جيوش ليون وقشتالة ونافار في الروطة (روطة اليهود) . وفقد الشماليون أى أمل في الانتصار فراح الملوك يلاطفونه وأعطاه سانشو الثاني ملك نافار المعروف باسم ابركة (٩٧٠ - ٩٩٣ / ٣٥٩ - ٣٨٥) ابنته التي خلفت له ابنه عبد الرحمن (شنجول) . وفي سنة ٩٩٧ (٣٨٧) هاجم المنصور المناطق الشمالية فاقتحمها ، ووصل الى سنتياغو (شنت ياقب) ثم أخضع بعد سنتين عاصمة نافار ، بامبلونة (بنبلونة) ، وحقق انتصارات عسكرية كبيرة أخرى إلى أن توفى سنة ١٠٠٢ (٣٩٢) خلال احدى غزواته ودفن في مدينة سالم . وخلف المنصور ابنه عبد الملك ، ولكنه توفى هو الآخر سنة ١٠٠٨ (٣٩٨) . وبموت عبد الملك دخلت الأندلس مرحلة سوداء تعثرت خلالها جميع جهود المخلصين لانقاذ البلاد ، وبدأ العهد الذى يعرف باسم عهد الطوائف ، وانفتح الباب الذى أغلقته الخلافة في وجه تقدم الممالك الشمالية .

هـ - ممالك قشتالة وارغون والبرتغال :

وصلت مملكة نافار إلى أوج عظمتها ابان حكم سانشو (شانجه) غرسيه الثالث الملقب أيضا « بالكبير » (١٠٠٠ - ١٠٣٥ / ٣٩٠ - ٤٢٦) ، ولكن هذا الملك قسم أراضي ملكه على أبنائه الأربعة فبسط فرناندو الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٥ / ٤٢٦ - ٤٥٨) سلطته على ليون وجليقية وقشتالة ، بعد أن تزوج من سانشة التى ورثت مملكة ليون ، فتمكن بذلك من توحيد تاجي ليون وقشتالة معا . كانت العاصمة حتى الآن برغش ولكنها انتقلت إلى طليطلة بعد سنتين من سقوطها في عهد الفونصو (الفنش) السادس (١٠٧٢ - ١١٠٩ / ٤٦٥ - ٥٠٢) . في هذه الأثناء كانت نافار تسير في طريق التقلص،إذ أعطى سانشو الثالث منطقة أواسط جبال البيرينيه إلى ابنه غنصالو ، ولكن الأخير اغتيل وادى احتلال منطقة الروخة الخصبة إلى عزل نافار عن الأندلس . تقلبت نافار بعد ذلك بين التبعية والاستقلال فكانت في إحدى فترات تاريخها تابعة لملك فرنسا ، ولكن فرناندو الخامس،زوج الملكة ايزابيلا وصاحب الانتصار على مملكة غرناطة ، ضم جميع اراضى نافار الى ممالكه سنة ١٥١٢ (٩١٨) .

وعادة تقسيم المملكة بين أبناء الملك التى اتبعها سانشو الثالث فى عهد ابنه فرناندو الاول ، فحصل الفونصو السادس على اشتورش وليون بينما حصل ابنه سانشو على قشتالة ، وكانت جيلقية والطرف الشمالي الغربي من المملكة من نصيب ابنه الثالث غرسيه ، ولكن الخلافات دبت بين الأخوة الثلاثة فأغتيل اثنان وانفرد الفونصو السادس بالحكم ،وتجددت المشاكل في قشتالة ابان حكمي الملكة اوراكا (١١٠٩ - ١١٢٦ / ٥٠٢ - ٥٢٠) وابنها الفونصو السابع (١١٢٦ - ١١٥٧ / ٥٢٠ - ٥٥٢) فاستمرت حتي مجيء الفونصو الثامن (١١٥٨ - ١٢١٤ /٥٥٣ - ٦١١)،وكان هذا الملك بطل هزيمة الارك التي وقعت سنة ١١٩٥ (٥٩١) وبطل انتصار معركة العقاب التي الحقت بالمسلمين هزيمة منكرة سنة ١٢١٢ (٦٠٩) بعد أن تمكن من توحيد قوات ليون ونافار وارغون .وعادت مملكتا قشتالة وليون الى الاتحاد عندما تزوج فرناندو الثالث (١٢١٧ - ١٢٥٢ /٦١٤ - ٦٥٠) ابن الفونصو التاسع ملك ليون من ابنة الفونصو الثامن،وكان فرناندو هذا وراء عملية اكتساح الجنوب التي شملت مدن قرطبة وجيان واشبيلية . واعتبارا من انتهاء حكم فرناندو الثالث ، الذى أسبغت عليه صفة القداسة سنة ١٦٧١ . وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت قشتالة ساحة حروب أهلية مستمرة الى أن اصبحت ايزابيلا (ازابل) ملكة على قشتالة سنة ١٤٧٤ (٨٧٩) .

في القسم الشمالي الشرقي من شبه جزيرة ايبرية قامت مملكة اعتمدت بصورة رئيسية علي الدعم الذى حصلت عليه من غاله ، وبدأت بمقاطعة حدودية أقامها الملك شارلمان ، وكانت تابعة لمملكة نافار أيام حكم سانشو الثالث ، الا أنها انفصلت فيما بعد وتوسعت أراضيها في عهد رامون برنجير الأول (١٠٣٥ - ١٠٧٦ / ٤٢٦ - ٤٦٨) . وجاء رامون برنجير الثالث (١٠٩٦ - ١١٣١ / ٤٨٩ - ٥٢٥) فتعاون مع الايطاليين لارساء قوة دولته التي عرفت باسم قطالونيا في منطقة البحر الأبيض المتوسط . هذه المملكة ضمت جيرونه (جرندة) وبرشلونة وطركونة ولاردة ، الا أنها قامت أساسا على برشلونة التي

انتزعها القطلانيون وحلفاؤهم من العرب سنة ٨٠١ (١٨٥) . وتوحدت قطالونيا مع ارغون سنة ١١٣٧ (٥٣١) نتيجة تزاوج تم بين الأسرتين الحاكمتين في الدولتين ، الا أن حلم القطالونيين في الاستقلال استمر حتى بعد إرتباطهم بارغون وقشتالة ، وتجدد في القرن السابع عشر ؛ ثم تحقق سنة ١٩٣١ عندما أعلنت الجمهورية في قطالونيا ، ولكن عمر الجمهورية لم يمتد طويلا ووضع الجنرال فرانكو نهاية له بعد الحرب الأهلية التي اندلعت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٩ .

ويقال عن أصول مملكة آرغون إن رعيتها كانوا من القوط الذين تراجعوا إلى جبال البيرينيه بعد الفتح ؛ ثم اغتنموا فرصة اندلاع الاضطرابات في الثغور الأندلسية فحققوا بعض التقدم الذى لم يبدأ بصورة مؤثرة إلا بعد ان احتل الملك الأرغوني الفونصو الأول المشهور « بالمحارب » (١١٠٤ - ١١٣٤ / ٤٩٧ - ٥٢٨) سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى سنة ١١١٨ (٥١٢) . أما أشهر ملوك أرغون على الاطلاق فهو خايمي الأول « الغازى » (١٢١٣ - ١٢٧٦ / ٦١٠ - ٦٧٥) الذى عرفه العرب باسم « جايمش » وكان من أعماله احتلال الجزر الشرقية وبلنسية ولقنت ، وتوسيع مملكته التي أصبحت امبراطورية كبيرة في عهد الملوك الذين خلفوه حتى كان الاتحاد الشخصي بين قشتالة وارغون ، عندما ورث فرناندو الخامس عرش ارغون وتزوج من ايزابيلا ملكة قشتالة .

أما المملكة الرئيسية الثالثة في شبه جزيرة ايبرية فكانت البرتغال ويعود تاريخ تأسيسها إلى الملك الفونصو السادس الذى قدم الجزء الشمالي من برتغال اليوم هدية زواج ابنته تيريزا من هنرى البرغندى . وانفصلت هذه الدويلة عن قشتالة وليون سنة ١٠٩٤ (٤٨٧) ، وكان الفونصو انريكيث (١١٣٩ - ١١٨٥ / ٥٣٣ - ٥٨١) أول ملوكها. واستغلت هذه المملكة ضعف الأندلس فمدت سيطرتها على الجنوب، وعرفت في عهد يوحنا الأول (١٣٨٥ - ١٤٣٣ / ٧٨٧ - ٨٣٦) الرخاء والازدهار ، فتوسعت في أفريقيا ثم امتدت ممالكها إلى أسيا وأمريكا اللاتينية بعد أن أفشلت كل الخطط التي وضعتها قشتالة لاستيعابها . وتحقق هذا الحلم القشتالي في عهد الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) ، ولكن البرتغال عادت للانفصال عن قشتالة وبقيت حتى اليوم كيانا مستقلا .

٣ - تأثير العوامل الخارجية في سقوط الأندلس

أ - دور الفرانكيين في سقوط الأندلس

آ - غالة وسقوط الأندلس :

حتم نمط فتح شمال أفريقيا النفاذ إلى ايبرية بعد الاصطدام بحاجزين طبيعيين ، أولها المحيط الأطلسي وثانيهما الصحراء الأفريقية . ولعل فتح شمال أفريقية يعتبر من أعسر عمليات الفتح الاسلامية فقد كلف الكثير من الدماء والجهد ، واستمر حوالي ٧٠ سنة قبل أن يتمكن موسى بن نصير من اتمام الفتح.

واخضاع القبائل البربرية سنة ٧٠٩ (٩٠) . كان فتح الشمال الأفريقي كمد البحر تتبع الموحة موجة أخرى إلى أن استكملت العملية ، ولم يبق سوى مدينة سبتة التي استعصت على الفاتحين بسبب موقعها الاستراتيجي اذ احتاج فتح المدينة إلى قوات بحرية ، لم تكن تتوفر في تلك المرحلة لدى الفاتحين . وتشاء الظروف أن يقدم حاكم سبتة المعروف باسم جوليان (يليان أو الليان) حلين لمسألتين صعبتين دفعة واحدة . الأول تأييده للفاتحين . والثاني تقديم السفن التي عبر عليها جنود الفتح الأوائل إلى جنوب شبه جزيرة ايبرية . وتختلف الروايات المتعلقة بهذه المرحلة من الفتح ، ولكن يبدو أن جوليان نقم على الملك القوطي لذريق بسبب تعديه على شرف ابنته فلوريندا(١) ، أو أنه كان من انصار المعارضين لسيطرة لذريق على الحكم فى طليطلة ، رغم أن سبتة كانت تابعة لبيزنطة ، ولا يربطها بنطام طليطلة سوى علاقات القرب الجغرافي والدين .

وأمام توقف الزحف العربي على شواطىء البحر الأطلسي ، وصعوبة الاستمرار نحو الجنوب بسبب الحرارة والجفاف وقلة السكان ، كان دخول الفاتحين إلى شبه الجزيرة الايبيرية بقيادة طارق بن زياد والقضاء على آخر ملوك القوط ، ومن ثم اتمام احتلال الجزء الأكبر من شبه الجزيرة . « موجية » فتح شمال أفريقيا امتدت إلى الأندلس بعد بسط السيطرة الإسلامية عليها ، وكان من الطبيعي أن تخترق الحاجز الجغرافي الذي تشكله سلسلة جبال البيرينيه (البرت أو البرتات) إلى غاله أو الأرض الكبيرة . ولابد أيضا أن سرعة احتلال شبه جزيرة ايبرية شجعت الفاتحين على عبور البيرينيه ، ومن غير المستبعد أن تكون بعض سرايا طارق بن زياد دخلت الى الارض الكبيرة ، وان كانت المعلومات المتوفرة عن ذلك قليلة . ومحاولات التوغل في غاله كثيرة فقد فتح الوالى السمح بن مالك الخولاني (٧١٩ – ٧٢١ / ١٠٠ – ١٠٢) بعض المناطق القريبة من شمال الأندلس واحتل مدينة تولوز ، ولكنه استشهد في معركة دارت قرب المدينة سنة ٧٢١ (١٠٢) وجاء بعد السمح عنبسة بن سحيم الكلبي فتوغل كثيرا واحتل مدينة قرقشونة ، ولكنه توفى سنة ٧٢٥ (١٠٧) متأثرا بجرح اصابه في معركة مع الفرنجة (الفرانكيين) . وخلال عهد الولاة استمرت عمليات التوغل في غاله بصورة متقطعة ، الى أن تسلم الوالي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ولايته الثانية سنة ٧٣٠ (١١٢) فكانت له حملات موفقة واحتل بوردو (برذيل) ومدناً أخرى ، ولكنه استشهد وهزم جيشه في معركة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ (١١٤) على يدى كارل (قارله) الذى اشتهر بصفة « المطرقة » وكان الحاكم الفعلي لغاله وهو بمنصب « عمدة البلاط » . ولهذه الموقعة أهمية كبيرة عند بعض المؤرخين الأوروبيين ، فاعتبروها نقطة انحسار الفتح العربي عن أوروبا ، والبعض بالغ في خسائر المسلمين فزعم أن القتلى عدوا ٣٧٥٫٠٠٠ . وامعان النظر في الحوادث التي وقعت بعد المعركة لاتترك للروايات الاوروبية الأرضية المنطقية . فقد توغل يوسف بن عبد الرحمن ، حاكم مدينة نربونة ، في حوض الرون واحتل مدينتي آرل وأبنيون رغم أن « المطرقة » تمكن

---

(١) رغم تناول هذه القصة بالشك ، الا أنها أصبحت جزءا من التراث الأسباني،ويد لك الدليل على مطقة تدعى ساحة الكاميرون عند بقايا رأس جسر قديم عرى طليطلة ، يقال ان ابنة جوليان كانت تستحم فيها عندما رآها لذريق فاعجبته ونال منها .

من إجلاء المسلمين عن بعض المناطق التي احتلوها في سنوات لاحقة . أما الشهرة التي يتمتع بها هذا القائد الذى كان ابنا غير شرعي لبيبين الثاني ، فترجع أصلا إلى الانتصارات المستمرة التي حققها ضد خصومه من القبائل الجرمانية ، مما مكنه من السيطرة على أغلب المنطقة المعروفة اليوم باسم فرنسا ٢٦ سنة أى حتى موته سنة ٧٤١ (١٢٣) . ووزع هذا الملك أراضي مملكته على ابنيه بيبين المشهور « بالشجاع » وكارلومان ، ولكن الأخير اعتزل في دير فاستفرد بيبين بالحكم وكان من اعماله استعادة نربونة من المسلمين سنة ٧٦١ (١٤٤) ، فخسروا بذلك آخر أهم المعاقل في غالة رغم استمرار الغزوات في أوقات لاحقة ، وترك بيبين المرحلة التالية من الصدام مع المسلمين لابنه شارلمان .

٢ – شارلمان :

جاء شارلمان الى الحكم في فترة من أهم فترات صنع تاريخ اوروبة ، تلت مرحلة عاصفة بدأت مع حركات الاستيطان الجديدة للقبائل الجرمانية والقضاء على الجناح الغربي من الامبراطورية الرومانية . قبائل الفرانك (الفرنجة) التي انحدر منها شارلمان رحلت من مناطق نهر الراين عندما تجمد سنة ٤٠٦ ميلادية واستقرت في غاله بعد أن تغلبت على القوط الغربيين في معركة فوييه التي وقعت سنة ٥٠٧ ميلادية . من هذه البداية المتواضعة نهضت قبائل الفرانك على أيدى شخصيات مثل بيبين الثاني وكارل « المطرقة » لتحتل مكانها في التاريخ ، ولتصل الأوج في عهد المملكة الكارولنجية ، التي تبدأ مع بيبين الموصوف « بالشجاع » سنة ٧٥١ (١٣٣) ، وتنتهى بموت شارلمان في ٢٨ كانون الثاني سنة ٨١٤ (١٩٨) بعد حكم استمر ٤٦ سنة .(١) أما أهم سنوات حكم شارلمان فكانت سنة ٨٠٠ (١٨٤) حين اعلنه البابا ليو الثالث امبراطورا (Romanorum gubernans imperium) في يوم عيد الميلاد اعترافا منه بفضل ملوك الفرانك على الكنيسة الرومية ، سواء في تأييدهم لروما عند اندلاع الخلاف الديني مع الكنيسة البيزنطية أو في جهودهم لحمل الكاثوليكية إلى القبائل الجرمانية الوثنية وتدعيم سلطة الكنيسة الروحية . نُصب بيبين « الشجاع » (٧٥١ – ٧٦٨ / ١٣٣ – ١٥٠) ملكا بمباركة البابا على جميع الفرانكيين في سنة حكمه الأولى ، وحين تعرضت البابوية للخطر وضع البابا روما تحت حماية عرش بيبين فكان سيف البابوية وداعيتها الكاثوليكى واستمر هذا الترتيب فيما بعد ، فكان تعميد فيدوكند زعيم قبائل السكسون على أيدى شارلمان سنة ٧٨٥ (١٦٨) ، واتسع ملك الفرانك في عهده فأصبح يضم أغلب الأراضى الأوروبية .

ومن حسن طالع أوروبة ، أو من سوء حظ العرب ، أن يستمر الصدام مع غاله فى مرحلة من صعود نجم المملكة الفرانكية ، وفي فترة اتحادها مع البابوية الرومية ضمن قوة مشتركة تصدت لأعمال الفتح العربي في الأرض الكبيرة ، وتمكنت من وقفه بفضل مدد بشرى لاينضب ، وفي منطقة تزيد في اتساعها

---

(١) قامت المملكة الكارولنجية على انقاض المملكة الموروفية التي حكمت أراضي فرنسا والمانيا حاليا منذ القرن الخامس الميلادي . ويعتقد بعض الفرنسيين أن الموروفيين ينتمون إلى مريم المجدلية التى يُزعم انها وصلت إلى مرسيليا مع تجار سوريين .

عن الأندلس . ومع ذلك فان الفاتحين الأندلسيين لم يكونوا عاجزين عن تحقيق انتصارات كثيرة على المملكة الكارولنجية حتى وهي في أوج عظمتها ، وان اخفقوا في بسط سيطرتهم الدائمة على أى من أراضيها خلف جبال البيرينيه وتكرار ماحدث في الأندلس ؛ لأن تطور تلك المملكة في ذلك الظرف كان قد تعدى وضع مملكة القوط الغربيين في شبه جزيرة ايبرية يوم فتحها . ولاشك أيضا في أن شخصا مثل شارلمان كان يفكر في بسط سيطرته على الأندلس وتخليصها من المسلمين إلا أن فرصته كانت ضعيفة جدا إلى أن قدمت له الاضطرابات الداخلية فى الأندلس الفرصة لعبور البيرينيه ،مثلماساعدت هذه الاضطرابات الداخلية على أضعاف القوى التى كان من الممكن أن يوفرها الأندلسيون لفتح غاله .

فثورة البربر في الأندلس انتهت بدخول الجيش الشامي ، ولكن الخلاف اندلع بين الجيش والبلديين من أهل الأندلس فكانت الغلبة للشاميين . ولما دخل « صقر قريش » إلى الأندلس استعان باليمانيين ضد القيسيين للوصول إلى إمارة قرطبة ولكنه انقلب على اليمانيين ، فعم استياء استغله سليمان بن يقظان العربي والى سرقسطة لرفع راية العصيان ضد أمير قرطبة ، ثم سار إلى شارلمان يدعوه للقدوم إلى الأندلس (١) . ووجد الملك الكارولنجي فرصته في اعتماد مدينة مثل سرقسطة قاعدة ينطلق منها باتجاه الجنوب فتوجه بنفسه إلى سرقسطة مرورا ببلاد البشكنس ، ولكنه فوجىء بسرقسطة مغلقة الأبواب دونه فحاصرها مدة إلى ان اضطر للعودة إلى بلاده بعد تجدد عصيان قبائل السكسون بقيادة فيدوكند . وأثناء عودته مر بعاصمة البشكنس بمبلونة (بنبلونة) سنة ٧٧٨ (١٦١) ونهبها جزاء خدماته ! فهب البشكنس للانتقام ومعهم جماعة من العرب بقيادة ابنين للوالي سليمان العربي الذى اعتقله شارلمان جزاء مااعتقده من التغرير به بعد استعصاء سرقسطة عليه . وفي الممر المعروف باسم رنشفالة في جبال البيرينيه ، انقض البشكنس والعرب على مؤخرة جيش شارلمان فقضوا عليها وخلصوا الوالي .

كانت هذه لطمة قوية لأحلام شارلمان وعظمت اهانته بسبب مقتل الكونت رولان في الكمين ، ونسجت حول الأخير أساطير سجلت في أنشودة رولان . وبقيت هذه الحادثة في عقل شارلمان وتمكن فيما بعد من النفاذ إلى الأندلس ليس عن طريق الشمال الغربي الذى اتبعه،وإنما من الجهة المعاكسة ، أى من الثغر الشمالي الشرقي الذى عرف فترة باسم ثغر الكارولنجيين فى الأندلس . وبدأت عملية التصدى للأندلسيين حين عين شارلمان ابنه لوى (لذويق) الموصوف « بالتقي » ملكا على اكتيانيا (اقيطانية) المجاورة لجبال البيرينيه لصد هجمات الأندلسيين ، واغتنام أية فرصة تتوفر للتوغل في الأراضى الأندلسية عبر أى من النقاط الواقعة على الثغر الكارولينجي الأول الذى أقامه شارلمان في غزوته

(١) ملخص هذه الرواية ان اليمانية اللدين مكنوا عبد الرحمن من تحقيق الانتصار على الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري في معركة المصارة أو المسارة (٧٥٦ / ١٣٨) واقامة الإمارة في قرطبة ، حقدوا عليه بعد قتله لابي الصباح الذي كان على رأس من بايعه من اليمانية ، وانضم قسم منهم ممثلا بالانصاريين المقيمين في الشمال الشرقي من الأندلس إلى الوالى سليمان بن يقظان العربي ، وعلى رأسهم حسين بن يحيى الانصاري . والظاهر ان سليمان تمكن من هزيمة الجيش الذى بعث به عبد الرحمن لتأديبه وأسّر قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي ، وأخذه إلى شارلمان لما ارتحل إليه طلبا للمساعدة تاركا حليفه الأنصارى في سرقسطة . ويبدو أن الأخير استيقظ ضميره او استماله عبد الرحمن فتنكر للعربي وأغلق دونه وشارلمان أبواب المدينة . وحين عاد العربي إلى سرقسطة بعد تخليصه من شارلمان دبر الانصاري اغتياله .

الشهيرة . وتحقق أول تقدم يذكر قبل وفاة عبد الرحمن بثلاث سنوات عندما تم الاستيلاء على مدينة جيرونة (1) (جرندة) ، التي تبعد حوالي ٦٣ كيلو مترا جنوب الحدود مع فرنسا ، وعمرّ فيها شارلمان كنيسة سنة ٧٨٦ (١٦٩) دلالة على نيته في استمرار احتلالها . وهذا ماحدث بالفعل إذ سير هشام الرضا (المرتضى) (٧٨٨ - ٧٩٦ / ١٧٢ - ١٨٠) جيشا إلى الشمال الشرقي بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، فحاصر جيرونة ولكنه لم يتمكن من استعادتها ، فتابع السير إلى الأرض الكبيرة وهاجم عددا من المدن بينها نربونة وكان ذلك سنة ٧٩٣ (١٧٧) ، وعاد الجيش بالغنائم الكثيرة ولكن دون ان يستفيد من انتصاره . أما أهم انتصارات لوى التقي في الأندلس فكانت احتلال برشلونة سنة ٨٠١ (١٨٥) وأتباعها باحتلال مدينة طركونة سنة ٨٠٨ (١٩٢).ثم هاجم طرطوشة بعد ثلاث سنوات ولكنه رد عنها . وتبادل الطرفان بعد ذلك امتلاك طركونة ، ولكن اتباع لوى عموما نجحوا في مد حدودهم إلى نهر ابرة ، وملكوا الثغر الواقع شمال النهر الذى يمر بسرقسطة اعتبارا من السنة التي تلت التاريخ الأخير ، فكانت تلك المنطقة المملكة التي عرفت فيما بعد باسم قطالونيا ولايزال سكان المنطقة الواقعة بين بريينيان في فرنسا وبلنسية فى أسبانيا يتحدثون لغة قريبة من لغة البروفانس وهم بذلك يتميزون عن باقي سكان البلاد .

تمتع شارلمان بأهمية جعلت من بلاطة مكانا لاذ به كثير من العصاة الأندلسيين ، وكان من بين هؤلاء عبدالله بن عبد الرحمن الذى فر إلى بلاط الملك الكارولينجي بعد خلاف على السلطة مع هشام الرضا ، وعاد بعد وفاة هشام ولكنه قتل على يدى والي مدينة ماردة . كما أن شارلمان كان الجهة التي تطلع اليها ملوك اشتورش بحثا عن العون ، وهكذا نرى أن من بين أول ماقام به الفونصو الثاني بعد احتلال لشبونة سنة ٧٩٨ (١٨٢) ارسال سفارة إلى شارلمان يزف إليه نبأ انتصاره . واستمر خطر شارلمان على الثغور الأندلسية ، واستدعى ذلك عددا من الحملات قاد الحكم الربضي (٧٩٦ - ٨٢٢/١٨٠ - ٢٠٦) احداها بنفسه سنة ٨١٢ (١٩٦) « لما كثر عبث الفرنج في الثغور » . واستمر هذا الوضع بعد موت شارلمان عندما تولى السلطة ابنه من بعده ، فحكم لوى الابن سائرا على نهج أبيه مدة ٢٦ سنة ولكن الخلافات التي دبت بين أبنائه على السلطة ادت إلى تمزيق ملكه إلى ثلاث ممالك مختلفة وتفتت مابناه شارلمان إلى الأبد .

٣ - دور الفرنسيين في سقوط الأندلس بعد زوال الخلافة :

استمر تأثير الفرنسيين على الأندلس في المراحل التالية عن طريق مد الممالك الشمالية بالعون والمرتزقة ممن جاء بدافع دينى أو بدافع الارتزاق والاستيطان . وان لم يطرأ أى تعديل كبير على الحدود الشمالية خلال عهد الخلافة ، فان المنصور غزا الشمال الشرقي سنة ٩٨٥ (٣٧٥) فاحتل برشلونة ولكن الشماليين استعادوها في السنة ذاتها . أما المناطق الفرنسية الأخرى فعرفت منذ سنة ٨٩٠ (٢٧٧)

(١) عرفت المدينة أيام الأندلسيين بجيروندة (Gerunda)ومنه جاء الاسم المُعرّب .

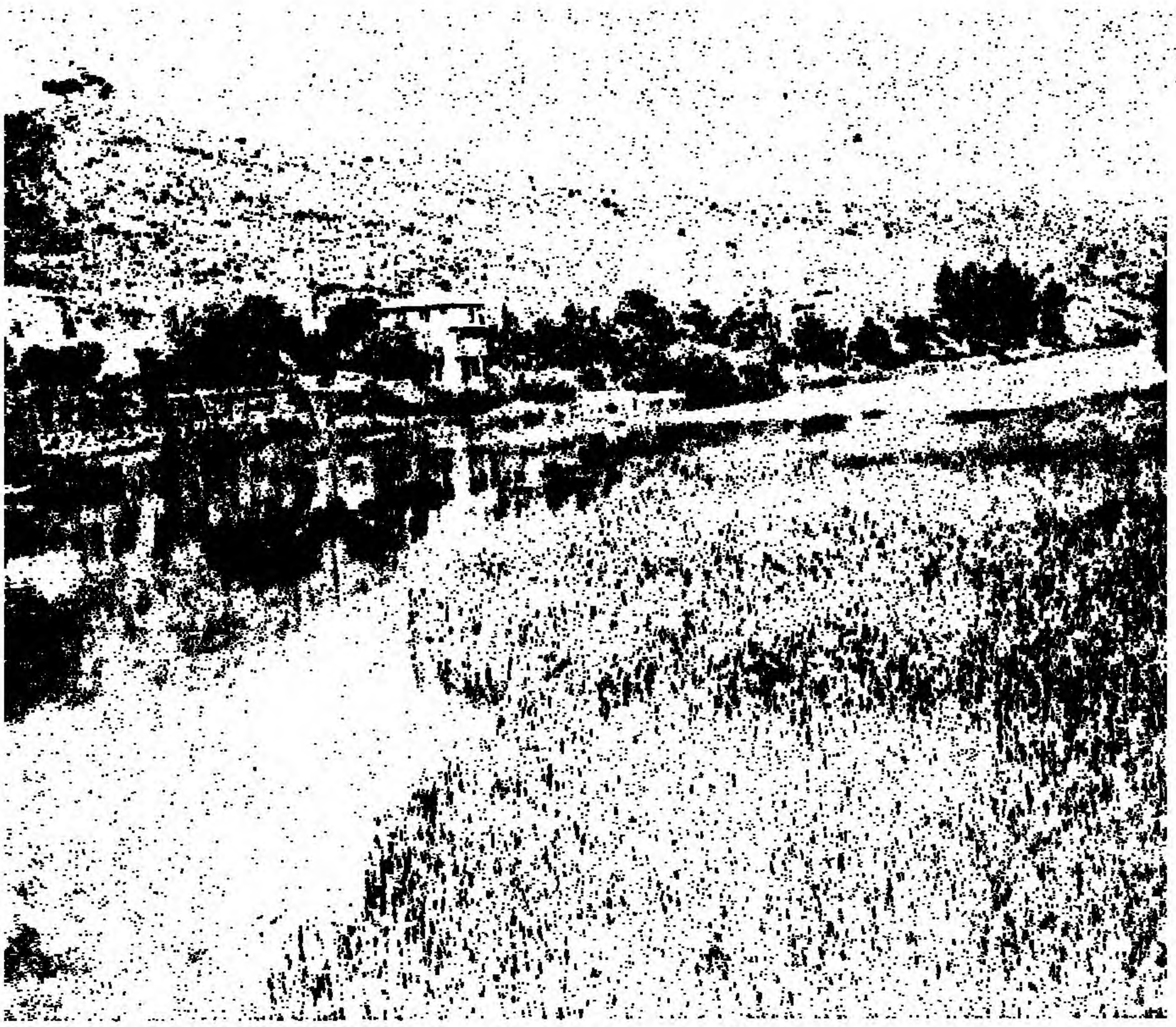

نهـر دويـرة

وجودا عربيا في اقليم بروفانس الجنوبي الشرقي عندما احتل بعض الأندلسيين موقعا منيعا عرف باسم جبل القلال ، وامُدِوا بعد ذلك بمجاهدين من الأندلس وغيرها فشملت سلطة هذه الدويلة مناطق مختلفة يقال إنها ضمت شمالي ايطاليا وسويسرا حاليا ، واستمر وجود هذا الكيان حتى سنة ٩٧٦ (٣٦٥) وجاءت المرحلة التالية من تدخل الفرنسيين في الأندلس نتيجة الحماس الدينى الذى تعاظم في الممالك المسيحية بعد هزيمة الامبراطورية البيزنطية سنة ١٠٧١ (٤٦٤) على أيدى السلجوقيين ، واعلان البابا غريغورى السابع سنة ١٠٧٤ (٤٦٦) عن نيته قيادة جيش من المتطوعين لنصرة المسيحيين في الشرق (انظر دور الكنيسة البابوية في سقوط الأندلس).ولم يكن هذا الحماس الديني بالطبع المحرك الأول لتدفق نصارى الممالك الأوروبية على الأندلس،لأن ثراء هذه الدولة الإسلامية كان معروفا لدى الجميع . ومشاركة الشماليين في غزواتهم كانت من ناحية سعيا وراء اعلاء كلمة المسيحية ؛ ولكنها كانت أيضا مصدرا للربح الذى تدره غنائم الحرب بعد الانتصار ، والسبيل لاقطاعات الأراضي واحتلال

المناصب التي تتناسب وقدر الفارس أو تسليحه . وبما أن منطقة ماخلف البيرينيه كانت الأقرب إلى الأندلس فقد كان من الطبيعى أن تقدم أكبر عدد من الأوروبيين الذين حاربوا إلى جانب ملوك الشمال ولاسيما من مقاطعات الميدى والنورماندى والبرغندى وغيرها . واستفاد ملك مثل الفونصو السادس من صلاته القريبة من « الفرنسيين » لأن ثلاثا من زوجاته كن منهم ، وكان لهم فضل كبير في تمكينه من احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) . وشجع انتصاره هذا الكثيرين على اختراق جبال البيرينيه والالتحاق بجيوش الممالك الشمالية ، الا أن هزيمته في معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦ (٤٧٩) على أيدى المرابطين والأندلسيين كانت سببا في تأجيج موجة الحماس الديني المسيحي . فبعد عشر سنوات انطلقت الحملة الصليبية الأولى نحو المشرق وأصبحت الأندلس فيما بعد ميدان الحملات الصليبية الغربية ، وتدفق عليها الفرسان والمقاتلون من المانيا وايطاليا وانجلترا وايرلندا وهولندا ، إلا أن الدور الفرنسي بقي أهم الأدوار، وترك الفرنسيون تأثيرهم على تطور التاريخ الأسبانى فيما بعد ، وعلى بعض المناطق الاسبانية مثل الثغر الشمالي الشرقي ووادى نهر ابرة (١) . وارتبط الدور الفرنسي بدور البابوية سواء في حملات المشرق أو المغرب ، كما تميز ، إثر هزيمة الزلاقة ، بكثافة لم يعرفها الشمال من قبل ، ورحب الفونصو السادس بالفرنسيين كما لم يرحب ملك من قبله بهم : واعتبرهم كثقل يوازى ثقل تدخل المرابطين في الأندلس . وفي تلك الحقبة نظر ملوك الشمال والكنيسة إلى مرحلة البعث الديني الإسلامي المتمثل بدخول المرابطين كتيار لايمكن وقفه الا ببعث ديني مسيحي مواز ، حتى وإن اختلفت نظرة ملوك اوروبة إلى ضرورة هذا البعث عن نظرة الكنيسة . وحين اخفق مطران برشلونة في الحصول على دعم الفرنسي فيليب الأول لحرب المرابطين توجه ومطارنة فرنسا إلى النبلاء ونجحوا في إنشاء القاعدة التي قامت عليها المشاركة الفرنسية الهائلة في حرب المسلمين ، حتى أن مؤرخين مثل بواسوناد (Boissonade) كتبوا يقولون أن البعثات العسكرية الفرنسية ضد الأندلس كانت أهم أسباب وقف تقدم المرابطين في الشمال خلال نصف القرن الذي اعقب الزلاقة .

وإذا اقتصر دور الفرنسيين حتى ذلك الوقت على مساعدة الشماليين لوقف زحف المرابطين ، فان دورهم التالي كان يتسم بطبيعة هجومية مؤثرة ، وكانت مشاركتهم حاسمة في سقوط سرقسطة سنة ١١١٨ (٥١٢) . فالحملة على هذه المدينة المهمة جاءت بعد اجتماع المجلس الكنسي في تولوز برئاسة البابا غيلاسيوس الثاني (١١١٨ / ٥١٢) وحضور جمهرة من المطارنة الفرنسيين والأسبان ، تقرر إثره تنظيم الحملة في السنة ذاتها ، ووعد سكان اقليم الميدى الفرنسي بمنحهم غفرانا خاصا إن هم شاركوا في الحملة . وتجمع فور الإعلان جيش ، ضم كونت تولوز وفيكونت قرقشونة وغيرهما من النبلاء ، حاصر

---

(١) من « الكيانات » التي ترك الفرنسيون تأثيرهم الكبير عليها تلك الدولة القائمة اواسط جبال البيرينيه وتعرف باسم اندورا (Andorra) وأهل هذه الدولة ، التي تعد حوالي ٣٦,٠٠٠ نسمة اليوم ، يعيشون على السياحة وتدين بالطاعة لشخصين هما رئيس الجمهورية الفرنسية واسقف سو دورغيل بموجب اتفاق ابرم سنة ١٢٧٨ (٦٧٧) . أما أصل هذه الدولة فيعود إلى أيام شارلمان الذى منحها الاستقلال سنة ٧٩٠ (١٧٧) مكافأة لسكانها على الخدمات التي قدموها لجنوده عن طريق ارشادهم عبر الجبال والوديان إلى الثغر الأندلسي . ونشيدهم الوطني اليوم مايزال يشير إلى الملك الكارولنجي اباً لهذه الدولة .

المدينة، بينما نشط غاستون الرابع البيرنى (وكانت مقاطعته تشمل أجزاء من جنوب غرب فرنسا) في نصب حوالي ٢٠ منجنيقا وعدد كبير من الأبراج المتحركة لدك المدينة بالصخور والنار . وقدم غاستون خدمة كبيرة للمهاجمين استخدم فيها الخبرة التى اكتسبها خلال حصار القدس وهي خبرة لم يكن جيش الفونصو الأول « المحارب » يتقنها . وماتعلمه غاستون الرابع أو غليوم السادس (حاكم مونتبليه) خلال مشاركتهما في الحروب الصليبية المشرقية ، قدماه بطيب خاطر للشماليين ، ولم يكونا وغيرهما أقل أهمية من دور الكنيسة التى انفقت كنوز الكاتدرائيات والكنائس لدفع مرتبات الجنود . ولكن الكنيسة لم تكن مضطرة دائما لانفاق أموالها على الحرب ، فسقوط سرقسطة لم يكن مجرد انتصار عسكرى وديني ، بل وفر للمهاجمين أسلابا هائلة ، ومغانم كثيرة ، ما كادت أخبارها تصل الى الفرنسيين حتى تدفقوا بعشرات الآلاف إلى الأندلس لنصرة اخوانهم في الدين والاستفادة من المكاسب المادية التي يقدمها مثل هذا الاستنصار . ولم ينس ألفونصو الأول الأرغوني فضل الكنيسة على نجاحه في احتلال سرقسطة ، فتعهد بالتوجه الى القدس حالما تتوفر له منافذ على البحر من بلنسية وطرطوشة ، إلا أن الكنيسة كانت ترى بأن أفضل خدمة يمكن أن يقدمها ملوك الشمال الأندلسي لنصرة المسيحية هي شن الحرب على الأندلسيين . والمساعدة الفرنسية التي لحقت بهزيمة الزلاقة تكررت بعد الهزيمة التي ألحقها الموحدون والأندلسيون بالفونصو الثامن القشتالي في معركة الارك سنة ١١٩٥ (٥٩١) ووقعة شلبطرة سنة ١٢١١ (٦٠٧) . ولما تردد الملك الفرنسي فيليب الثاني والإنجليزى ريتشارد قلب الأسد في نصرة المسيحية ، أخذت البابوية زمام المبادرة ، ونشطت لتوحيد جيوش الشمال التي انطلقت في ثلاثة أجزاء من طليطلة في العشرين من حزيران سنة ١٢١٢ (٦٠٩) . كان الجزء الأول يضم الجيش القشتالى ، والثاني جيش ارغون ، بينما ضم الجزء الثالث الجيش الفرنسي الذى قدره الفونصو الثامن بحوالي ٥٠,٠٠٠ راجل وألفي فارس مدرب ، مع حوالي عشرة آلاف فارس متطوع . ومع أن الجيش الفرنسي ساهم في سقوط قلعة شلبطرة ، فإن معظم أفراده تركوا جيوش الشمال في الثالث من تموز احتجاجا على « التساهل » الذى أبداه ملوك الشمال الأندلسي حيال الأسرى المسلمين في شلبطرة ، وإن كانت بعض الروايات الأجنبية تقول بأن الحر لعب دورا مهما في رحيلهم .

وبينما استمر الدعم الفرنسي للشماليين في حرب الأندلسيين خلال الفترة اللاحقة ، فإن هذا الدعم لم يعد مطلوبا بنفس الكثافة الأولى ، إذ تمكن الشماليون وحلفاؤهم بعد موقعة العقاب (١٢١٢ / ٦٠٩) من احتلال معظم الأراضي الأندلسية ، ولم يقترب القرن الثالث عشر من نهايته حتى كانوا قد سيطروا على الوضع واخضعوا مملكة غرناطة للجزية .

ب - الحروب الصليبية الغربية في الأندلس
(دور الكنيسة البابوية فى سقوط الأندلس)

قبل أن يحمل الملك فيليب الثاني السيف دفاعا عن الكاثوليكية في كل مكان من العالم ، لم تكن هناك دولة تستطيع الادعاء بان ماقدمته لنصرة المسيحية يفوق ماقدمته فرنسا ابتداء من « رومنة » شارلمان في أولى سنوات القرن التاسع الميلادى ، وحتى قيام الامبراطورية الأسبانية في بداية القرن السادس

عشر . وغيرة المعتنقين الجدد لأى دين تفوق في العادة غيرة صاحب الدين نفسه ، ولذا لم يكن غريبا أن يصل تدين القبائل الجرمانية بعد تنصيرها حد التعصب والتقوى المتشددة ، وبقي موضوع اثبات تدينهم مهما بعد قرون من اعتناق المسيحية على أيدى المبشرين الأوائل حتى جاء القرن الحادى عشر واقتربت فرصة اختبار ايمان القبائل الجرمانية في مرحلة من تأجج الحماس الديني ، وبداية صراع كبير بين الاسلام والمسيحية مايزال مستمرا حتى اليوم .

ومنذ البداية ، كان هناك توافق بين مرحلة سقوط الأندلس ومرحلة الحروب الصليبية . وهذا التوافق لم يكن مصادفة ، فقد كان سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) انتصارا لقشتالة ، وانتصارا لروما والمسيحية تماما كما كان سقوط القدس بايدى الصليبيين سنة ١٠٩٩ (٤٩٢) عامل تشجيع لزيادة الدعم الأوروبي لملوك الشمال الأيبيرى ، بغية تحقيق آنتصار آخر على الأندلسيين توج بانتصارات لاحقة إلى أن سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ (٨٩٧) فدقت أجراس كنائس أوروبة ابتهاجا بهذه المناسبة وأقام بابا روما صلاة شكر خاصة بها لاسيما وأن الأندلس كانت الدولة الوحيدة التي تمكن المسيحيون من استعادتها من المسلمين بعد انتشار الاسلام فيها ، بل أنها كانت الدولة الأولى التى عادت إلى المسيحية قبل استعادة المجر من الأتراك سنة ١٦٩٩ (١١١١) . ولم يكن انتزاع الأندلس من العرب حدثا كبير الأهمية لولا أن أوروبة حققت في الأندلس مالم تستطع تحقيقه فى الشرق بعد سبع حملات صليبية ، وبهذا دفعت الأندلس ثمن صمود المشرق في جو من العصبية الدينية التي لم تتأجج في أوروبة بسبب وجود المسلمين على حدودها الغربية ، وإنما للأخطار التي كانت تشهدها من الجنوب الشرقي .

١ - صعود البابوية وتطور النزاع الديني :

وراء الصراع الدينى في القرن الحادي عشر أسباب تعود إلى القرن الرابع الميلادي ، بعد انشطار الامبراطورية الرومانية الى جناحين غربي وشرقي ، قوض الجرمان غربيته ونمت في القسم الشرقي امبراطورية أخرى تغيرت مع الزمن تفكيرا ولغة وسياسة ، وهي الامبراطورية البيزنطية المرتكزة على القسطنطينية عاصمة دينها ودنياها ، وعرش عدد من الأباطرة القديرين مثل جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) الذى قوض بعض ممالك القبائل الجرمانية مثل الوندال والقوط الشرقيين ، وبسط سيطرته على قسم لابأس به من ممالك الجناح الغربي من الامبراطورية الرومانية ، وكان أهم شخصية في عالمه . ولكن الامبراطورية البيزنطية لم تتمتع دائما بشخصية مثل جوستينيان ، وبانتهاء الامبراطورية البيزنطية الوسطى حل عهد انحسار سلطة بيزنطة وتقلص ممالكها الواحدة تلو الأخرى على أيدى قوة شابة ناهضة هي القوة العربية ،ولم تفلح امبراطورية هيراكليوس (هرقل) (٦١٠ - ٦٤١) في وقف الزحف وتعاقب الفتح على دمشق (٦٣٥) والقدس (٦٣٨) ومصر (٦٤٠) . وفي سنوات لاحقة سقطت مدينة الاسكندرية (٦٤٢) وأخفق البيزنطيون في تهديدها بالأسطول البحرى الذى وجهوه اليها ، واستمر العرب في تقدمهم نحو الغرب إلى أن كان فتح الأندلس سنة ٧١١ (٩٢). وفي الشرق كانت الصورة تتكرر ، وبعد القضاء على السلطة الفارسية اتجهت جيوش الفتح نحو الهند وسمرقند وشواطىء البحر الأسود الغربية ، ووصلت

الجيوش العربية في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة (٧٠٥ – ٧١٥ / ٨٦ – ٩٦) إلى أماكن لم تصلها من قبله ولابعده وأصبحت الخلافة أقوى سلطة في العالم بعد اجتذاذ معظم الممالك التي كانت تابعة لبيزنطة . أما العاصمة نفسها فكانت محور الهجمات العربية اعتبارا من سنة ٦٧٤ (٥٥) إلا أنها بقيت صامدة ولم تسقط بأيدى المسلمين إلا بعد ٧٧٩ سنة ، انهارت بعدها بقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية ، واعتبر ذلك التاريخ نهاية القرون الوسطى .

وضمن مراحل تقلص نفوذ الامبراطورية البيزنطية ، كانت الكنيسة المسيحية تخضع لتغيرات جذرية أدت إلى فصل الكنيسة الأرثوذكسية عن الكنيسة الرومية ، وعمقت ابتعاد مسيحي الشرق عن مسيحى الغرب المستمر إلى اليوم . هذا الخلاف بين الكاثوليكية (العامة أو الشاملة) والأرثوذكسية (قوام الرأى والاستتباب على النظم القائمة) يرجع إلى بداية القرن الثالث الميلادي ، إلا أنه كان يتعمق تدريجيا وتتعمق معه الهوة بين الكنيستين إلى أن جاء البابا غريغوريوس الأول « العظيم » (٥٩٠ – ٦٤٠) ، فكان مؤسس السلطة الدنيوية للبابوية في ايطاليا ، وابتعدت الكنيسة الرومية في عهده عن الحضارة البيزنطية لتقترب من القبائل الجرمانية التى كانت تشكل القسم الأعظم من مسيحيها بعد اعتناقها للكاثوليكية ، وتجددت مناداة الكنيسة الرومية بالتفوق على الكنسية الشرقية . ومضى البابا اسطفان الثاني (٧٥٢ – ٧٥٧) خطوة أخرى في طريق الابتعاد عن الكنسية الشرقية عندما اختار اقامة علاقاته مع الفرانكيين ، ثم انتهج البابا ليو الثالث (٧٩٥ – ٨١٦) منحى اسطفان بتنصيب شارلمان الفرانكي امبراطورا حاميا لروما بعد ٤٩ سنة من انهيار سيطرة بيزنطة على ايطاليا . ولكن ماخسرته بيزنطة أمام العرب في القرنين السابع والثامن كسبته في جولة أخرى فى عهد الأسرة المقدونية (٨٦٧ – ١٠٥٦) ، وتمكنت في عهد نقفور فوكاس (٩٦٣ – ٩٦٩) ويوحنا الأول (٩٦٩ – ٩٧٦) وباسيل الثاني (٩٧٦ – ١٠٢٥) من استرداد جزيرة كريت (اقريطش) من العرب (٩٦١/ ٣٥٠) واحتلال حلب (٩٦٢ / ٣٥١) وقبرص وفلسطين وسوريا ، كما أخضع البلغار واتبعت الكنيسة الروسية ببطريرك القسطنطينية . وفي السنوات الأخيرة من عهد هذه الأسرة بدأ النظام يضعف ثانية ويتهاوى تحت ضربات النورمان والبلغار والسلجوقيين وحقق الآخرون انتصارا ساحقا على بيزنطة سنة ١٠٧١ (٤٦٣) ، وسلخوا قسما كبيرا من الجناح الأسيوى للامبراطورية .

٢ – أربان الثاني :

أمام الهزيمة التي لحقت ببيزنطة على أيدى السلجوقيين ، سعت الامبراطورية إلى الاستنجاد بالكنيسة الرومية لوقف تفككها ، واستعادة ماخسرته بعد انتصار الب ارسلان السلجوقي . غير أن ظروف تلك الفترة لم تكن تسمح بتقديم مثل هذه المساعدة ؛ لأن العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية وصلت إلى حد القطيعة ، نتيجة تنافسهما واتهام الكنيسة للأخرى بأنها خالفت شعائر المسيحية ، وأعلن بطريرك القسطنطينية ميخائيل سيرولاريوس انفصال الكنيسة الشرقية على البابوية سنة ١٠٥٤ (٤٤٦) . وكان من الممكن أن يستمر تغاضي الكنيسة الغربية عما يجرى في الشرق ، لولا أن التطورات هناك لم

تقتصر على تهديد السلجوقيين لبيزنطة . فالسلجوقيون ارتحلوا من مناطق تركستان في نهاية القرن العاشر الميلادى بحثا عن أرض جديدة ومغنم سريع ، وقادهم طغرل بك (١٠٣٧ – ١٠٦٣ / ٤٢٨ – ٤٥٥) لبناء ملك ماعرف باسم السلاجقة الكبار الذى يبدأ معه وينتهي سنة ١١٧٥ (٥٧٠) . ومابدأه طغرل بك استكمله الب ارسلان (١٠٦٣ – ١٠٧٢ / ٤٥٥ – ٤٦٤) فانتزع من الفاطميين سوريا وفلسطين قبل أن ينزل الهزيمة ببيزنطة في معركة مانتزيكرت (١٠٧١ / ٤٦٣) ، ويأسر امبراطورها رومانوس ديوجينيس.

وفي ساعات ضعف الامبراطورية البيزنطية كانت الكنيسة الكاثوليكية تحقق الانتصار تلو الآخر وأصبح البابا الحاكم المطلق للكنيسة ، ونائب السيد المسيح في الأرض .وعظمت سلطة البابوية في عهد غريغوريوس السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥ / ٤٦٥ – ٤٧٨) ، فكان في مقدوره تنحية الأساقفة والملوك « لأن الملوك يمثلون الله وبالتالي يمثلون الكنيسة» وانتهى العهد الذى اعتبر الملوك أنفسهم فيه ظل الله على الأرض . في لحظات قوة الكنيسة البابوية كان البابا غريغوريوس يحلم باليوم الذى تتمكن فيه الكنيسة من بسط سيطرتها على الأماكن المقدسة في فلسطين وانقاذ مسيحيي الشرق ،إلا أنه كان يفكر أيضا باعادة وحدة الكنيسة وهو موضوع سهل التحدث عنه وصعب تنفيذه . فلا الكنيسة الغربية كانت قادرة على الاعتراف بتفوق الكنيسة الشرقية ، ولا الكنيسة الشرقية كانت تتقبل فكرة اتحاد البرابرة الجرمان مع البابوية وهكذا ضاع الخلاف الأساسي بين الكنيستين في متاهات الاحتجاج على استخدام الايقونات أو حلاقة الذقن أو الصوم يوم السبت . غريغوريوس لم يحقق حلمه ولم يخف لنجدة المسيحيين الشرقيين ، كما أن السلجوقيين لم ينسحبوا من الأقاليم الأسيوية لبيزنطة ، بل اعلنوا قيام ماعرف باسم مملكة السلجوقيين الروم . وأمام هذا التطور بعث الامبراطور البيزنطي اليكسوس كومينوس الأول (١٠٨١ – ١١١٨ / ٤٧٤ – ٥١٢) إلى البابا اربان (اربانوس) الثانى (١٠٨٨ – ١٠٩٩ / ٤٨١ – ٤٩٢) يشكو إليه مرارة سقوط القدس وانطاكية بايدى المسلمين ، وعجزه عن الوقوف أمام زحف هذه القبائل الشرقية بسبب انشغاله بالدفاع عن امبراطوريته لوقف تقدم قبائل الباتزيناكس من الشمال والنورمان من الغرب .

تبنى أربان طلب اليكسوس الأول وسعى إلى تحقيقه لعدة أهداف : أولها أن أربان ورث البابوية بعد فترة حرجة من الصراع بين الكنيسة والملكية بدأت مع غريغوريوس السابع حين أصر على اثبات سلطة الكنيسة المطلقة على شخصية قوية مثل الملك الألماني هنريش (هنرى) الرابع . وانتهت فترة التحدى هذه بانتصار الملك فدخل روما عاصمة البابوية ، ونصب نفسه امبراطورا رومانيا مقدسا على أيدى البابا المضاد كلمنص الثالث ، وظل غريغوريوس حبيس قلعة سان انجيلو المطلة على نهر التيبر إلى أن هب النورمان لنجدته ، مما اضطر الألمان لترك المدينة فسقطت فريسة نهب النورمان ، ثم ارتحل البابا إلى المملكة النورماندية في القسم الجنوبي من ايطاليا ، ومات بعد سنة من هذه الأحداث أى في ١٠٨٥ (٤٧٨) . وجاء أربان الثاني منتهجا مبدأ المصالحة فتمكن بذلك من الحفاظ على سلطة الكنيسة البابوية وضمن استمرار الاصلاحات التي أدخلها غريغوريس . هذه الأحداث جعلت من فكرة النهوض للدفاع عن المسيحيين الشرقيين عملا مرغوبا لأنه سيصنب جهود المسيحيين الغربيين في بوتقة النضال

سويا ضد عدو مشترك . والهدف الثاني يرجع إلى اختلاف جذري بين مايريده البابا ومايريده امبراطور بيزنطة لأن اليكسوس كان يريد ، بلا شك ، معونة المسيحيين الغربيين لاستعادة أملاكه الضائعة ، والعودة من حيث أتوا مع شكره الجزيل ، ولكن شخصا مثل أربان الثاني كان يريد هدفا يشد انظار كل مسيحيي الكنيسة الكاثوليكية ، وكل مادون السيطرة على الأماكن المقدسة في فلسطين سيكون دافعا ضعيفا . هدف آخر هو توافق تأجج الحماس الدينى المسيحي مع ارتفاع كبير في عدد الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، وعودة البعض ليروى بعض المضايقات التي يسببها السلجوقيون ، ولذا فإن القيام بحملة تفتح الطريق أمام الحجاج كان مطلبا مهما في ذلك الوقت . وهناك سبب آخر يعود الى قرون سابقة عندما برز العرب كأهم قوة في العالم وانتزعوا السلطة من الغرب للمرة الأولى . ورغم سقوط الخلافة الأموية (٦٦١ - ٧٥٠ / ٤٠٧ - ١٣٢) واضمحلال سلطة الخلافة العباسية بعد سنة ٩٤٠ (٣٢٨) ، إلا أن الممالك التي قامت على انقاض الخلافة العباسية كانت قوية ، كما أن الخطر الذى اقترب من أبواب القسطنطينية جاء من القبائل الأسيوية التي اعتنقت الاسلام.، ولذا فان القسم الأعظم من تاريخ بيزنطة المسيحية تميز بالصراع مع القوى الاسلامية وأجبرت الأحداث الكنيسة الشرقية على الاعتراف بقدرة الكنيسة الغربية واقتربت فرصة اثبات هذه القدرة .

وحين ألقى أربان الثاني خطبته الشهيرة أمام المجمع الكنسي ، الذى عقد في مونت كلير سنة ١٠٩٥ (٤٨٨) كان يعلن بذلك عن دخول العالم مرحلة صراع لم يعرفه من قبل . كان مسيحيا يعلن الحرب على الاسلام ، وكان أيضا فرنسيا يخاطب الفرنسيين بصورة خاصة لأن الفرنسيين كانوا الأقرب الى الأندلس ، وبقيت مشاركتهم لممالك الشمال الأندلسي أهم من مشاركة أية دولة أخرى ، فكانت في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ العالم روح المسيحية ، والسيف الذى تضرب به في الغرب وقريبا في الشرق . في السنة التالية توجه متحمسون الى الشرق بقيادة الراهب بطرس الاميانى (نسبة الى اميان في فرنسا) ولكن هؤلاء انهاروا أمام ضربات البلغار (البلغر) والسلجوقيين وفقدت آثارهم . في هذه الفترة كان المتطوعون الفرنسيون من منطقة النورماندى واللورين الشمالية ، ومتطوعون آخرون من منطقة بروفانس الفرنسية الجنوبية بقيادة ريمون التولوزى (نسبة لتولوز - طلوزة) ، يتجهون في ثلاثة جيوش منفصلة نحو القسطنطينية ، وانضم اليهم النورمان من مملكتهم في القسم الجنوبي من ايطاليا الذى انتزعوه من بيزنطة سنة ١٠٥٩ (٤٥١) ، وكان المبعوث البابوي في هذه الحملة أسقف مدينة بوى الفرنسية . وتمكنت هذه الجيوش من هزيمة الروم السلجوقيين واستعادة انطاكية ودخول القدس سنة ١٠٩٩ (٤٩٢) بعد حصار استمر زهاء الأسابيع الخمسة ، وأسست في المناطق المحتلة ولايات مستقلة على النمط الذى كان معروفا في فرنسا ، وحققت هذه الحملة مالم تحققه أية حملة أخرى بعد ذلك .

مات أربان الثاني في السنة التي احتلت فيها القدس محققا الهدف الذى كان محور ندائه إلى الممالك المسيحية اللاتينية ذات الأصل الجرمانى البربري . ولم يغفل هذا البابا الفرنسي التأكيد على تقديم الدعم لنصارى الشمال الأندلسي في صراعهم مع العرب ، غير أن موازنة مطالب الحملة الصليبية في المشرق والحملة الصليبية في المغرب لم تكن حاسمة بعد ، أو أنها لم تكن على خطورة التهديد بسقوط القسطنطينية .

والمعروف أن فرسان فرنسا والمانيا وايطاليا وغيرها ساهموا إلى حد ما في سقوط طليطلة على يدى الفونصو السادس قبل ١٤ سنة من سقوط القدس ، وبقيت هذه المدينة الحصينة بأيدى الشماليين رغم هزيمتهم في معركة الزلاقة (١٠٨٦ /٤٧٩) بعد دخول المرابطين لقتال الشماليين مع الأندلسيين ، وضُرب الحصار على طليطلة دون التمكن من استعادتها . وسقوط طليطلة كان حافزا كبيرا لالتحاق جماعات أوروبية كثيرة بالشمال الأندلسي ، وقد لعب هؤلاء ، ولاسيما الفرنسيون منهم ، دورا حاسما في عمليات التوغل جنوب نهر تاجه اعتبارا من سنة ١٠٧٨ (٤٧٠) ، كما تجمعت لدى الشماليين قوات كثيرة وفدت من مناطق الميدى والبرغندي والنورماندى الفرنسية لقتال المسلمين ، بحثا عن فوائد دنيوية وأخرى للأخرة . وتعاظمت هذه المشاركة الأوروبية في الصراع إلى جانب الشماليين ضد الأندلسيين بعد دخول المرابطين إلى الأندلس ، فكان ملوك الشمال يحثون الأوربين على تقديم المساعدة لهم لموازنة المساعدة التى يقدمها المرابطون إلى الأندلسيين . وبالرغم من قيام عهد المرابطين في الأندلس (١٠٩١ – ١١٢٦ / ٤٨٤ – ٥٢٠) الا ان هذا الوجود لم يستطع منع سقوط بلنسية على يدى السيد القنبيطور بعد سنتين من بداية هذا العهد الجديد الذى قام على انقاض الطوائف،فبقيت خارجة عن سلطة المسلمين حوالى ثماني سنوات ، قبل استعادتها سنة ١١٠٢ (٤٩٥) . السنوات التالية كانت سنوات جزر بالنسبة للشماليين إذ هزموا في موقعة كنشرة (١٠٩٧ / ٤٩١) وفي معركة اقليش ، أو اقليج ، سنة ١١٠٨ (٥٠١) ، ولكن رد الشماليين جاء في اسقاط سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى سنة ١١١٨ (٥١٢) . كان للمساعدة التى قدمها الفرنسيون إلى ملك ارغون أهمية كبيرة في سقوط هذه المدينة الرئيسية ، واتبع هذا الانتصار الشمالي بانتصار آخر تحقق بعد سنتين أثر هزيمة أبى اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين فى موقعة قتندة . أما فترة السنوات القليلة اللاحقة فقد عايشت تغييرات جذرية سواء في الأندلس أو خارجها فقامت دولة الموحدين على انقاض المرابطين وبدأ عهدها في الأندلس (١١٤٥ – ١٢٢٣ / ٥٤٠ – ٦٢٠) في الوقت الذى ارتفعت فيه اصوات البابوية للإعداد للحملة الصليبية الثانية .

٣ – ألونصو الثالث :

السبب الظاهر للحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩ / ٥٤٢ – ٥٤٤) هو تمكن عماد الدين زنكي أمير الموصل من استعادة أوديسة ، ولكن السبب الحقيقي هو الضعف العام الذي نزل بالممالك الصليبية التي قامت في الأراضي المحتلة ، واستمرار الخلافات بين النورمان والبيزنطيين لأن النورمان ، بعد اقتطاع ايطاليا من بيزنطة ، كانوا يخشون حربا انتقامية ولذا فان رأيهم كان في الأصرار على أن «تحرير» الأراضي المقدسة لايمر الا من القسطنطينية . هذه الحملة لم تحرز الكثير الا انها تميزت بمشاركة الفلاندريين والانجليز ، وكان لهؤلاء الفضل في التوقف عند مدينة بورتو (البرتقال) واحتلالها وتقديمها إلى البرتغاليين ، ثم ساهم هؤلاء في احتلال لشبونة سنة ١١٤٧ (٥٤٢) وقدموها هدية إلى الملك البرتغالى الفونصو انريكيث . وفي الوقت نفسه نشط النورمان من قواعدهم في جنوب ايطاليا وصقلية لمهاجمة المدن الواقعة على الساحل المغربي المقابل ، وامتد الصراع بين القوات الصليبية والمسلمين إلى مناطق جديدة فكان لهذه القوات فضل كبير في سنوات لاحقة على ممالك الشمال الأندلسي ، إذ شاركت إلى

جانبها في قتال الأندلسيين ، كما أسهمت ايضا في احتلال القلعة الحصينة المعروفة باسم قصر ابي دانس سنة ١١٦٠ (٥٥٥) .

وفي سنة ١١٨٧ (٥٨٣) تعرضت الحملة الصليبية في المشرق إلى ضربة عنيفة عندما استعاد صلاح الدين الأيوبي القدس أثر معركة حطين فتنادت الممالك الأوروبية الى اعداد حملة كبيرة يشترك فيها الجميع بقيادة الامبراطور الالمانى فريدريك الأول « بربروسا » . ولكن هذا الامبراطور غرق في ثاني سنة من الحملة التي أستمرت بين ١١٨٩ و ١١٩٢ (٥٨٥ – ٥٨٨) ومات ابنه في عكا بعد سنة واحدة من غرق والده . وكان لانهيار الحملة أثر كبير في ابرام هدنة بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين ، احتفظ الصليبيون بموجبها بيافا وصور وسمح للحجاج المسيحيين بدخول القدس . في المغرب سعى البابا سيلستين الثالث إلى التوصل لهدنة بين ممالك قشتالة وليون وارغون ، والاعداد لحملة كبيرة على الأندلسيين ، ولكن هذه الحملة انتهت إلى هزيمة كبيرة في معركة الزلاقة (١١٩٥ /٥٩١) على أيدى الموحدين فتردت حالة الشماليين في مرحلة من هبوط عزيمة الصليبيين في المشرق . ونظمت حملة صليبية أخرى بعد سنتين من الزلاقة بقيادة الامبراطور هنرى الرابع بهدف القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، التي شعر النورمان ومؤيدوهم بأنها ليست راغبة في تقديم المساعدة الكافية لاحتلال المشرق ، غير أن الهدف لم يتحقق اذ مات الامبراطور فجأة واقتصرت الحملة على النزول قرب انطاكية . وفي السنة التالية بدأ عهد البابا انوصان (انوصانتس) الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦ / ٥٩٤ – ٦١٣) .

دخلت البابوية في عهد انوصان الثالث مرحلة سيطرة وقوة لم تعرف من قبل ، تميزت بتعمق الشعور الدينى في اوروبة ، وارتفاع شان البابا الذى اعتبر نفسه خليفة للقديس بطرس ونائبا للسيد المسيح ، وكان يمارس سلطته عن طريق الموفدين البابويين معتبرا الملوك مجرد حكام اقطعهم البابا ممالكهم التي يحكمونها ، فكانت انجلترا والبرتغال وصقلية مجرد توابع اقطاعية ، وامتدت يد البابا لتتدخل في الشؤون الداخلية لالمانيا وفرنسا والدنمرك ، وما أن جاءت سنة ١٢٠٤ (٦٠٠) حتى استبدلت الكنيسة الشرقية بكنيسة لاتينية .

استمرت الحملة الصليبية الرابعة ثلاث سنوات . وهي وإن بدأت – كسابقاتها – بدعوة من البابا ، الا أن هدفها اختلف هذه المرة ، إذ ساد الاعتقاد بأن الهجوم على مصر سيفتح الطريق إلى فلسطين ، باعتبار أن مصر ذلك الوقت كانت أهم البلدان الاسلامية وأقواها . ولتحقيق هذه الغاية كان علي القوات الصليبية الحصول على دعم البندقية لتقديم السفن اللازمة لنقل القوات . ولكن البندقية ــ التي بنت امبراطوريتها التجارية على الاتجار بين الشرق والغرب ، واعفتها الامبراطورية البيزنطية من الضرائب بسبب امتناعها عن تأييد النورمان الذين سلخوا جنوب ايطاليا من الامبراطورية ــ كانت هذه المرة تنظر بقلق إلى تقارب بيزنطة مع منافسة البندقية تجاريا وهي بيزا . وبدلا من حمل الصليبيين إلى مصر أو الأراضي المقدسة حملتهم إلى بيزنطة . العاصمة الامبراطورية التي استعصت على الفاتحين العرب ثم الأتراك ، والقبائل الشمالية فيما بعد سقطت سنة ١٢٠٣ (٥٩٩) بايدى الصليبيين ، ثم دخل الصليبيون

العاصمة في السنة التالية فنهبوا كل نفيس فيها ، واستكملوا عملهم باقامة الممالك اللاتينية وتأسيس الكنيسة اللاتينية.وتقوض هذا الاتحاد الديني الاجبارى فور قيامه ، غير أن الممالك اللاتينية استمرت فترة وتقوضت هي الأخرى مفسحة المجال لقيام بيزنطة مرة أخرى ، حتى كان القضاء النهائي عليها سنة ١٤٥٣ (٨٥٧) على أيدى العثمانيين .

قدمت الحملة الرابعة الدليل على أن العدو ليس من الضرورى أن يكون مسلما ، طالما أن معاداته تخدم المصالح التجارية والدينية لهذه الجهة أو تلك . وقد تصدى الألمان لمحاولات البابوية فرض هيمنتها عليهم ولكن انتصار فرنسا للكنيسة أوصل الاحتجاج الألماني إلى نقطة الصفر مرة أخرى ، وعادت البابوية لتحتل مكان الصدارة بوجود شخصية محنكة مثل انوصان الثالث . وبعد تنظيم الحملة الصليبية الرابعة سيرت حملة صليبية أخرى سنة ١٢١٢ (٦٠٩) ، عرفت باسم حملة « الصبيان » ، ونقل هؤلاء من مرسيليا إلى الاسكندرية على متن سفن البندقية ، ولكنهم انتهوا إلى البيع عبيدا هناك . ومقابل هذا الانحفاق الذريع ، كانت البابوية تعد العدة لانزال ضربة عنيفة بالأندلسيين حدثت في السنة ذاتها ، وجاءت نتيجة تطورات متلاحقة أعقبت موقعة الأرك .

أعلنت الهدنة بين الأندلسيين والشماليين سنة ١١٩٨ (٥٩٤) لفترة عشر سنوات ، شرع الفونصو الثامن بعدها بمهاجمة المناطق الأندلسية ، مما اضطر الخليفة الموحدى محمد الناصر لدين الله عبور العدوة سنة ١٢١١ (٦٠٧) والاغارة على بعض المراكز القشتالية الواقعة إلى الشمال من مدينة جيان . وعبور الخليفة الشاب أثار الشماليين فراحوا يطلبون العون من الفرنسيين وغيرهم من أهل اوروبة ، ثم تحول طلب العون إلى مناشدة للتدخل السريع ، بعد أن احتل الموحدون قلعة شلبطرة (سلبتيرا) ، وحورت الكلمة لكى تعني أن المطلوب من المسيحية انقاذ الأرض . وكان من الطبيعي أن يزيد البابا انوصان الثالث مساعيه لدى ملوك المسيحية لنجدة الشماليين ، ووقف الاقتتال والتنافس بين ممالك قشتالة وارغون ونافار ؛ استعدادا للحرب في الجنوب . وهكذا أصدر البابا أمره إلى رودريغيث خيمينيث دورادا رئيس أساقفة طليطلة لصرف الأموال على الجهاد ، لقتال المسلمين وضمان وحدة كلمة الشماليين . وانطلقت جيوش جرارة برفقة جيش فرنسي في العشرين من حزيران سنة ١٢١٢ ، وتمكنت من الحاق الهزيمة بالموحدين في معركة العقاب يوم السادس عشر من تموز ، الموافق ليوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ . ويعتذر الخليفة الناصر عن هذه الهزيمة فيقول إن الفونصو الثامن « بث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى ، ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر غوثا غوثا ورحمى رحمى ، فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق ، واقبلوا عليه اقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار ، وكان أولهم سبقا الافرنج المتوغلون في الشرق والشمال ، ثم تابعهم البرجلوني بما عنده من العدد والرجال . وكان صاحب نبرة متعلقا من الموحدين بذمام ، ومنقادا اليهم ابدا في اسمح زمام ، فسخط عليه صاحب رومة ان لم يكن لقومه معسكرا ولسواد أهل ملته مكثرا ، فلحق بتلك الجموع »(١) .

---

(١) « البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب » ، القسم الثالث ، تطوان ١٩٦٠ ، ص ٢٤١ .

عاد الخليفة الناصر إلى مراكش بعد الهزيمة فتوفى غما في السنة التالية ، ولكن بداية سقوط الأندلس ظلت حية بعد هزيمة العقاب التي اتبعت باحتلال بياسة وابدة ، والانتشار لتطويق الأندلس التي أصبحت في حكم المنطقة المفتوحة لتقدم الشماليين نحو المدن الرئيسية فيها . وبعد ٢٤ سنة من معركة العقاب سقطت قرطبة ثم سقطت بلنسية بعد سنتين من ذلك ، وسقطت اشبيلية سنة ١٢٤٨ (٦٤٦) ومرسية سنة ١٢٦٦ (٦٦٤) . وطوال هذه الفترة من الفتوحات الكبيرة ، لعبت الكنيسة دورا مهما في اذكاء المشاعر الدينية والدعوة لتخليص شبه الجزيرة الأيبيرية من الأندلسيين المسلمين ، كما حدث بالنسبة لبلنسية التي سقطت بعد خمس سنوات من الحصار ، وجاء الانتصار الكبير هذا تتويجا لجهود البابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ / ٦٢٤ - ٦٣٨) ، الذى أعطى الحصار صفة الحملة الصليبية ، وشجع المتطوعين الفرنسيين للمشاركة في القتال بقيادة مطران نربونة (اربونة) والأساطيل البحرية لكل من جنوة وبيزا . وكما قدم الفرنسيون الدعم الأكبر لمملكة ارغون في قتالها ضد الأندلسيين ، فان الفرنسيين والايطاليين والألمان والهولنديين والانجليز ساهموا الى جانب قوات قشتالة في الحرب ضد اندلسيي قرطبة واشبيلية وغيرها . وكان أول من صعد درجات المأذنة الشهيرة في اشبيلية فارس من اسكتلندا ، كما ذاع صيت مقاتلين أوروبيين الى جانب قشتالة مثل الفارس الاسود الانجليزى وغيره من الفرسان ، الذين شاركوا في حملات صليبية سابقة نقل عنها الشماليون فنون بناء القلاع ، وادخلوا الفرق الدينية للقتال الى جانب الجيوش كما حدث في المشرق . وسواء عن وعي أوغير وعي، كانت الحملة الصليبية الغربية تحقق انتصارات هائلة على العكس من الحملات الشرقية . ولذا لم يكن غريبا أن يُسبغ على فرناندو الثالث (١٢١٧ - ١٢٥٢ / ٦١٤ - ٦٥٠) لقب القديس حتى قبل أن يصدر عن البابوية اعتراف بذلك ، لأن هذا الملك القشتالي استطاع خلال عهده أن يعيد للمسيحية بعض أهم مدن ذلك العصر ، ويبسط السيطرة على مناطق إسلامية في اوروبة خلال فترة لم تحقق فيها الحملتان الصليبيتان الخامسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩ / ٦٢٥ - ٦٢٦) والسادسة (١٢٤٨ - ١٢٥٤ / ٦٤٦ - ٦٥٢) نصرا دائما ، بل ان الحملة الأخيرة انتهت الى أسر قائد الحملة الفرنسي لوي التاسع في مصر ، واستفدائه بمبلغ كبير فيما بعد .

٤ - الكنيسة وسقوط غرناطة :

حاول لوى التاسع احتلال تونس سنة ١٢٧٠ (٦٦٨) ولكنه أصيب بالطاعون وجيشه ، وانتهت بذلك الحملة الصليبية السابعة وتوقف المدد عن الصليبيين في المشرق . وما إن جاءت سنة ١٢٩١ (٦٩٠) حتى استعاد المماليك عكا ، وتخلت القوات الصليبية عن بيروت وصيدا وصور . ولكن الممالك الصليبية استمرت في قبرص حتى سنة ١٤٨٩ (٨٩٤) ، وفي جزيرة رودس حتى سنة ١٥٢٣ (٩٢٩) عندما أخرجهم الأتراك منها فارتحلوا إلى مالطة . وبانتهاء القرن الثالث عشر الميلادى أسدل الستار على الحملات الدينية المشرقية دون التمكن من الاحتفاظ بموطىء قدم واحدة . أما في الغرب فقد تمكنت الممالك الشمالية في الأندلس من قصر السيطرة الإسلامية على الجزء الجنوبي من الأندلس ، واخضعت مملكة غرناطة للجزية ، ولم يعد هناك مسوغ لوجود تلك الجيوش الجرارة ، وضعف الاهتمام بالفرق التي لعبت دورا مهما في الحروب السابقة ضد الأندلسيين ، وتفرغت الممالك الشمالية للاقتتال فيما بينها ، وهزل شأن الملوك وقد نازعهم النبلاء على السلطة .

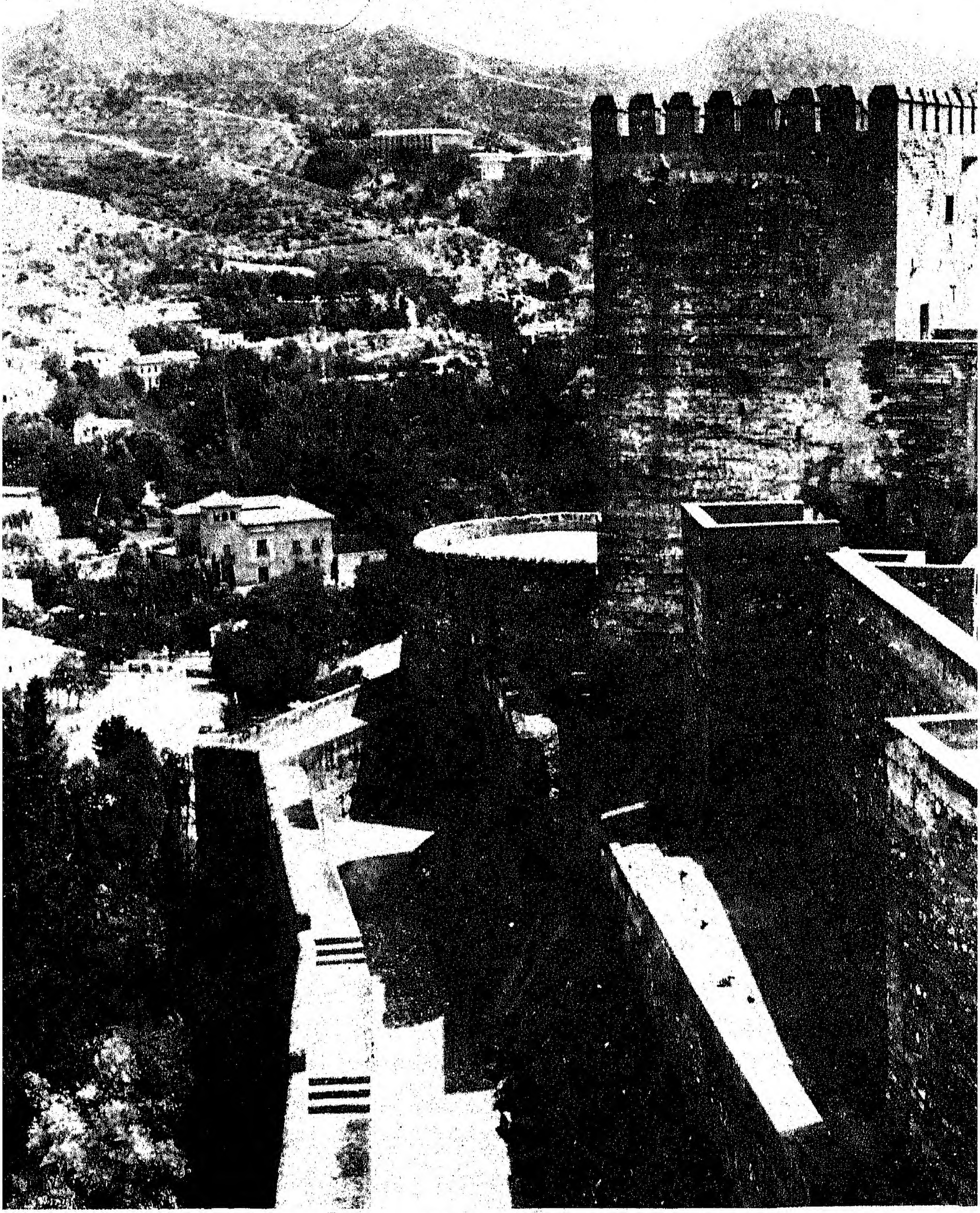

جانب من اسوار قصبة الحمراء

استمر هذا الوضع حتى اعتلت الملكة ايزابيلا (ازابل) عرش قشتالة سنة ١٤٧٤ (٨٧٩) ، فسعت إلى تثبيت حكمها عن طريق توجيه جهود الدولة ضد المملكة الاسلامية الجنوبية ، وكان في زواجها من فرناندو (فراندة) الخامس اتحادا شخصيا بين قشتالة ومملكة ارغون،التي ورثها الزوج بعد خمس سنوات من وراثة زوجته لعرش قشتالة . وباتحاد أقوى مملكتين في شبه جزيرة ايبرية ، أصبح من العسير على مملكة غرناطة الاستمرار كوجود مسلم في وسط مسيحي لايعرف إلا الحرب سبيلا إلى توحيد الكلمة والثراء .

فى المشرق أيضا كانت التطورات تتجه نحو تجدد تأجج المشاعر الدينية نتيجة انتصارات العثمانيين في اوروبة،إذ استولى السلطان محمد الثاني على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ (٨٥٧) واتبعها باخضاع ١٢ مملكة و٢٠٠ مدينة في اوروبة . كل هذا حدث في أعقاب انتهاء سلطة البابوية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وانتقال الكرسي البابوي إلى افنيون في فرنسا حتى قبل البابا غريغوريوس العاشر العودة الى روما سنة ١٣٧٧ (٧٧٩) ، واتخاذ الفاتيكان حاضرة له . ولكن هذا لم يعد للبابوية هيبتها ، فخضعت الكنيسة لموجة علمنة وسادت الهرطقة والانقسام ، حتى تعاقب على الفاتيكان البابوات المعروفين باسم باباوات عصر النهضة ، وانهمك هؤلاء في جمع الكتب أو تشجيع الفنون والآداب والعمارة مثل البابا سيكستوس الرابع (١٤٧١ – ١٤٨٤ /٨٧٦ – ٨٨٩) ، رغم أن هذا لم ينقذ الكنيسة من التقوض الذى كانت تسير نحوه .

وعندما تلقي البابا سيكستوس الرابع من الملكة ايزابيلا رسالتها التى تعرض فيها خطة لانهاء مملكة غرناطة،أبدى حماسا شديدا لعل ذلك يرفع من شأن البابوية ، وأصدر إرادة بابوية خاصة بشن حملة صليبية (كروثادا) ضد الغرناطيين في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ١٤٧٩ (٨٨٤) . وتضمنت هذه الارادة السماح لايزابيلا وزوجها فرناندو بتحصيل ضريبة الجهاد ضد المسلمين لتأمين المال اللازم للقتال رغم ان ايزابيلا حصلت على مبّالغ طائلة من الدائنين اليهود والايطاليين ؛ لتمويل الحرب التى اندلعت ضد غرناطة بعد سنتين من اصدار الارادة التى جددت في السنة ذاتها . وبعد وفاة سيكستوس جاء انوصان الثامن (١٤٨٤ – ١٤٩٢ / ٨٨٩ – ٨٩٧) فاستكمل مابدأه سلفه باحياء الإرادة البابوية الخاصة بالحملة على غرناطة سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) . وجددت الإرادة سنتي ١٤٨٧و ١٤٨٩ أملا فى تمكن ايزابيلا من القضاء على غرناطة ، ولكن الحرب طالت اكثر من المتوقع،فأصدر البابا انوصان في الأول من تشرين الأول سنة ١٤٩١ (٨٩٦) تجديدا للارادة السابقة مدة سنة تالية وأخيرة . ولم تمض ثلاثة أشهر حتى كان جيش ايزابيلا وفرناندو قد دخل غرناطة بعد استسلامها . وكتب فرناندو إلى البابا يبشره بسقوط غرناطة وانهاء آخر وجود اسلامي سياسي في شبه جزيرة ايبرية يقول : « ولدك المطيع المخلص ملك قشتالة وليون وارغون وصقلية وغرناطة .. يقبل قدميك ويديك الطاهرتين خالصتي الطهارة .. يبشرك بأن ربنا انعم علينا بنصر مبين على أندلسيي غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكي الطاهر وتم

في هذا اليوم الثاني من كانون الثاني سنة اثنتين وتسعين (واربعمائة والف) استسلام مدينة غرناطة مع الحمراء وكل القوات مع كل القلاع والحصون .. » [1] .

والدعم الذى قدمته الكنيسة لإنهاء الوجود الإسلامي في شبه جزيرة ايبرية استمر في مراحل لاحقة بعد نقل الحرب إلى الشمال الأفريقي ، وبقيت الضريبة المعروفة باسم ضريبة الجهاد (الكروثادا) مفروضة حتى باتت في القرن السادس عشر المصدر الثاني لدخل الدولة . وكما أن الكنيسة حاولت في القرن الثالث عشر التوفيق بين متطلبات انجاح الحملة الصليبية في المشرق مع الحروب الصليبية في المغرب ، فإن الكنيسة في القرن السادس عشر حاولت أيضا التوفيق بين احتياجات أسبانيا لنقل الحرب إلى المعاقل الإسلامية في الشمال الأفريقي ، وبين احتياجات التصدى لتعاظم قوة العثمانيين . وقد لعبت الكنيسة دورا مهما في إنهاء الوجود السياسي الاسلامي في شبه جزيرة ايبرية ولكنها ستلعب الآن دورها لفرض النصرانية على الأندلسيين الذين اختاروا البقاء في أراضيهم بعد سقوط غرناطة ، وعرفوا فيما بعد باسم المواركة (الموريسكيين) . أما الطريقة التي وظفت لتحقيق هذا التنصير فكانت في استخدام أساليب تعذيب طورها الجهاز المعروف باسم محاكم التفتيش . (انظر الفصل الخامس) .

٤ – العوامل الداخلية في سقوط الأندلس

أ – الأسباب الاقتصادية

وراء نهوض الممالك الشمالية في الأندلس عدة أسباب تطورت مع الزمن استجابة لمتطلبات اقتصادية وسكانية متعددة ، إلى جانب الأسباب الدينية والسياسية التى أشير اليها في مكان آخر . وبين القرنين الثامن والعاشر سجل عدد سكان الممالك المسيحية في الشمال ارتفاعا كبيرا ، سبّب بعضه تدفق المهاجرين الاوروبيين ، ونزوح أعداد من النصارى المستعربين الذين كانوا يقيمون في الجنوب ثم انسحبوا إلى الشمال لسبب أو لآخر . في البداية كان التحرك الشمالي نحو الجنوب استجابة للحاجة إلى مزيد من الأراضي لاستيعاب العدد المتزايد من السكان ، ولكنه أصبح مع الزمن سياسة مرسومة يسارع ملوك الشمال إلى تطبيقها كلما سنحت الفرصة وضعفت مقاومة الأندلسيين ، ولاسيما فى أوقات إندلاع القلاقل الداخلية أو الحروب الأهلية . وفى الحالات التى تمكن فيها ملوك الشمال من تحقيق مكاسب إضافية ، كانت هناك موجة استيطان جديدة لعب المستفيدون منها دورا مهما في إبقاء هذه الأراضي تحت سيطرة الشماليين . وبحلول سنة ٩١١ (٢٩٨) بسط ملوك اشتوريش سلطانهم على خمس ايبرية ، فحققوا مطالب السكان الذين كانوا ينظرون إلى الملوك في تلك الحقبة من الزمن على أنهم مفتاح الثراء ، لأن الحروب كانت المصدر الرئيسي للحصول على الغنائم والعبيد والأراضي . إلا أن هذا لايستثني ، بالطبع ، وجود عوامل أخرى ساهمت في الاندفاع نحو الجنوب مثل الجفاف أو المجاعة ، أو السعي لتحقيق انتصار آخر أو لفت الأنظار عن قلاقل داخلية وغيرها من الأسباب التي كمنت دائما خلف نشوب الحروب في العالم .

(1) Gaztambide, Josè Goni, The Holy See and the Reconquest of the Kingdom of Granada (1479-1492).

مراحل انحسار السلطة العربية في الأندلس

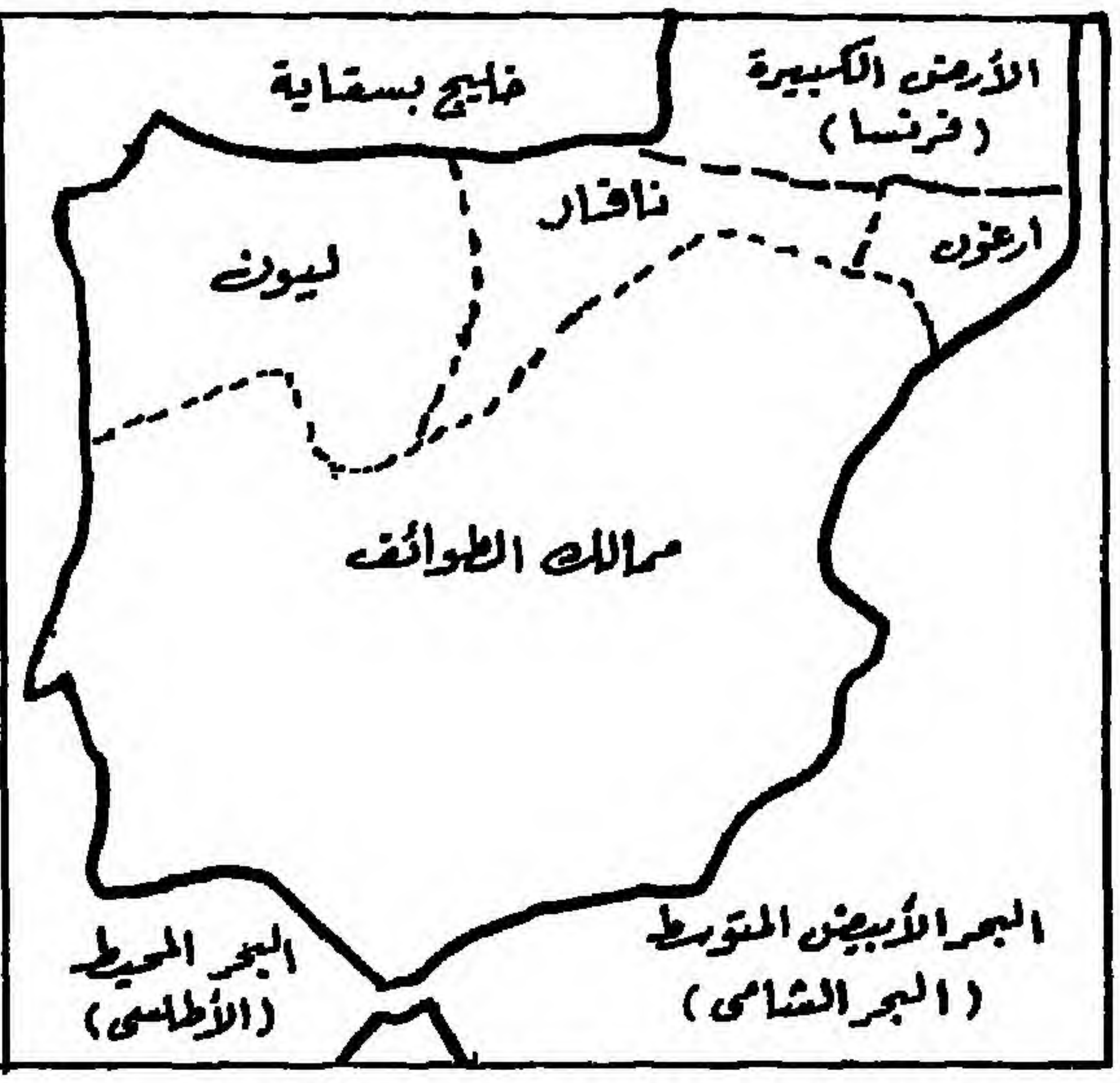

الوضع السياسي في شبه جزيرة ايبيرية كما كانت في حوالي سنة ١٠٣١ (٤٢٢)

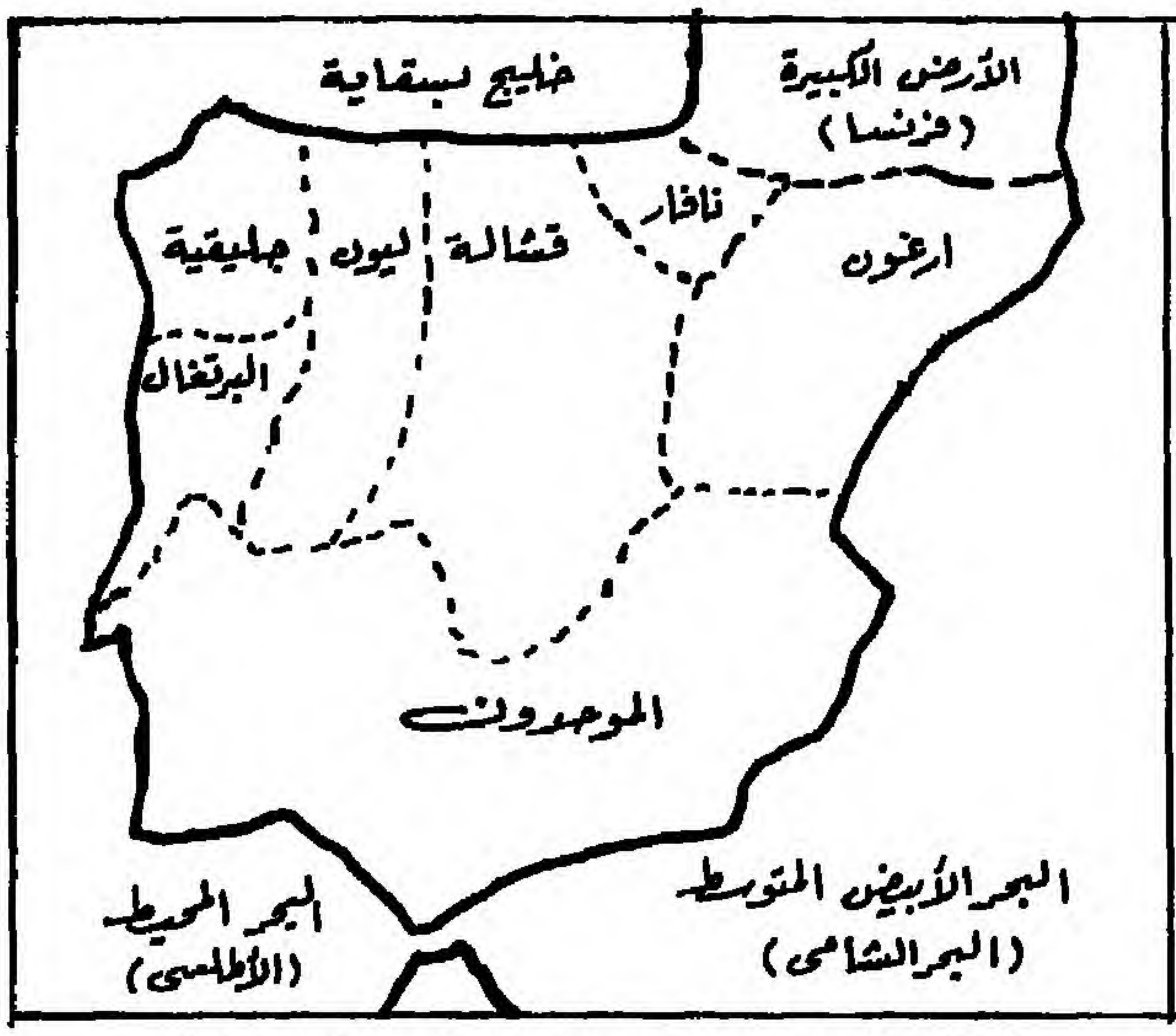

الوضع السياسي في شبه جزيرة ايبيرية سنة ١١٥٧ (٥٥١)

الوضع نحو سنة ١٢٥٢ (٦٥٠)

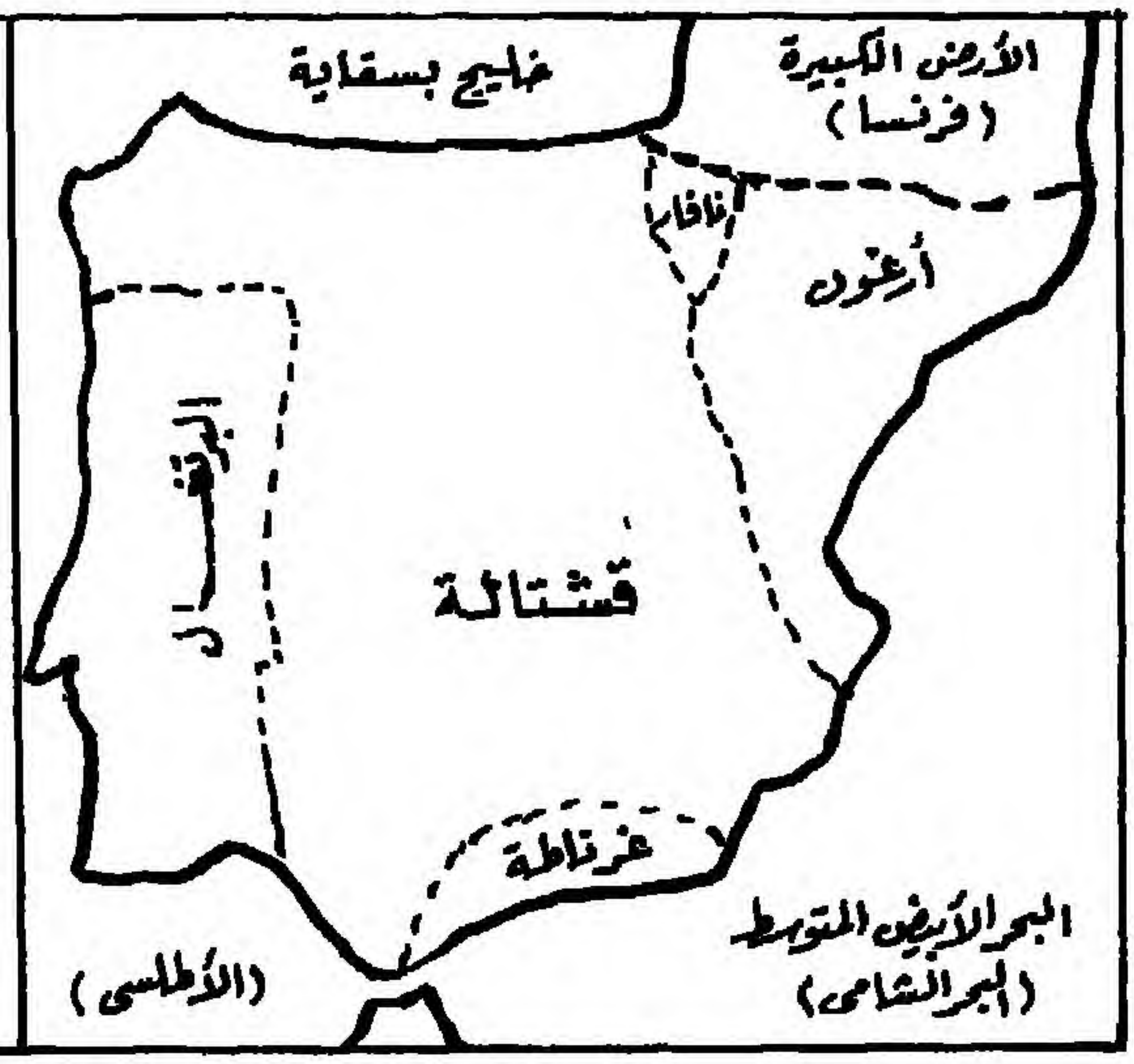

تطور التقدم الشمالي باتجاه الجنوب

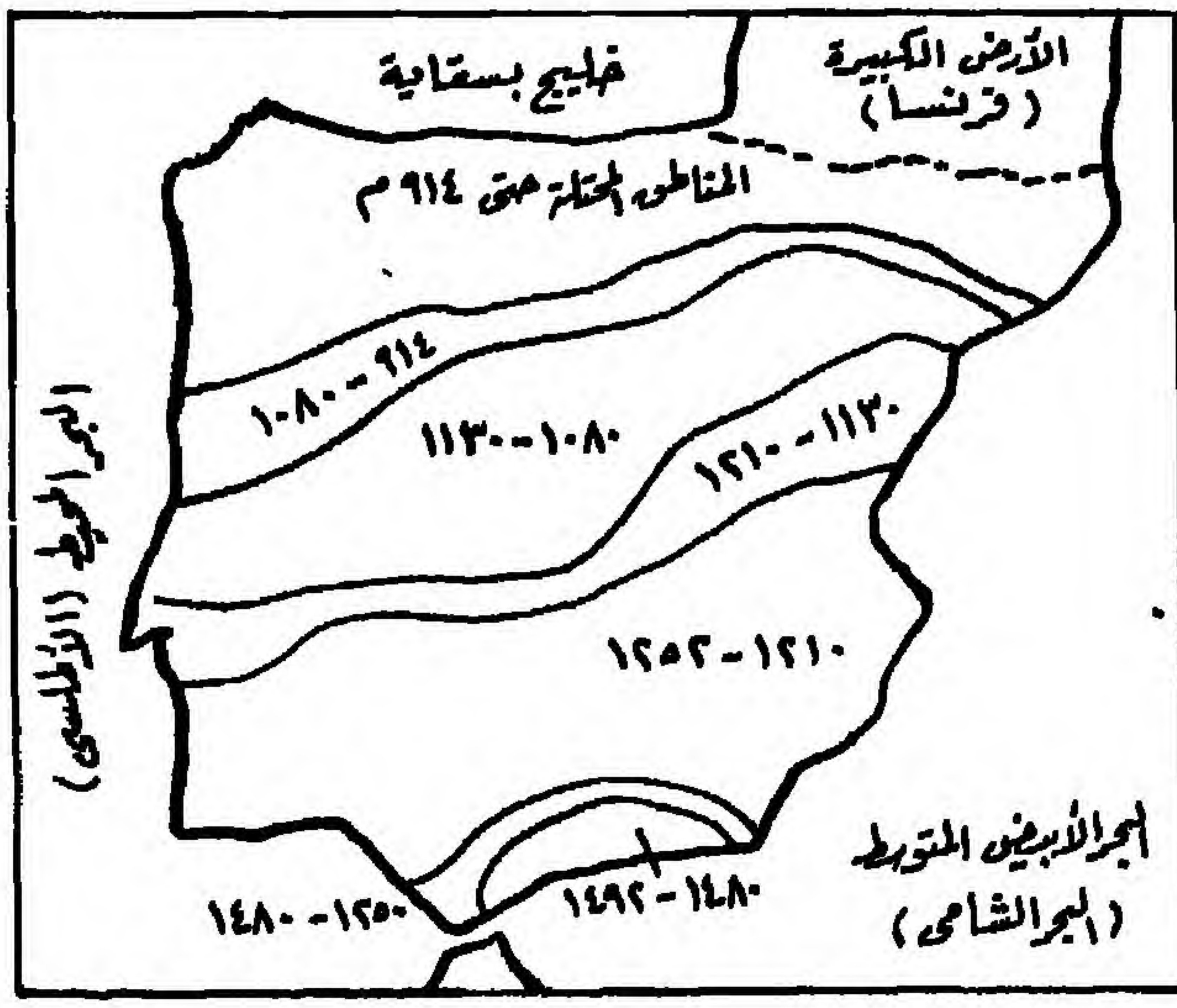

والمناطق التي ضمت الممالك الشمالية كانت عموما مناطق جبلية وعرة قليلة السهول ، تجنبها معظم الغزاة الذين دخلوا ايبرية منذ أقدم العصور ، ولذا فإن تقدم الشماليين باتجاه نهر دويره كان يوفر السهول والأراضي الخصبة ، بالإضافة إلى تقريب الحرب من تجمعات الأندلسيين في وديان النهر الكبير . ولكن كل ماتمكنت الممالك الشمالية من تحقيقه قبل سقوط الخلافة القرطبية بقي عرضة للضياع في أية لحظة ، والعمليات العسكرية التأديبية التي قام بها المنصور أظهرت ضعف الشمال وانفتاح ممالكه لتقدم جنود قرطبة ، ففقد الشماليون الأمل في الصمود أمام الأندلسيين ، وأستعطف الملوك المنصور وحكموه في خلافاتهم ومصيرهم . وبعد انهيار الخلافة وقيام ممالك الطوائف ، بات الطريق مفتوحا للتقدم نحو الجنوب فكان احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) ثم موقعة العقاب بعد ١٢٧ سنة من ذلك ، وسقوط قرطبة واشبيلية في سنوات لاحقة إلى أن استسلمت غرناطة آخر القرن الخامس عشر ،وتقوضت بذلك آخر الممالك الإسلامية في ايبرية . وتحت وطأة احتلال الأندلس ، قسما بعد قسم ، كانت دعائم الحضارة العربية تتقوض وانهارت البنى الاقتصادية واحدة تلو الأخرى ، فاستعاض عنها ملوك الشمال بنظام بدائي اعتمد على الماشية والاتجار بالصوف من ناحية ، وعلى النهب والاستغلال المباشرين من الناحية الأخرى ، فكان ذلك نهجا اتقن الشمال ممارسته في الأراضي الأندلسية المحتلة ، ثم في العالم الجديد اعتبارا من نهاية القرن الخامس عشر .

١ - معالم الاقتصاد الأندلسي .

استتباب الوضع السياسي في الأندلس إبان عهد الإمارة ، كان بمثابة الضوء الأخضر الذى أعطى إشارة بدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي . والقوى التي كانت مهدورة في النزاعات السياسية كُبحت ، بعد أن أغلق عبد الرحمن الداخل باب السلطة دون الفئات المتنازعة والشخصيات الطموحة ، وتحولت لتساهم في زيادة الإنتاج وتحقيق الرخاء الذى قام على الزراعة والتجارة والصناعة المتوفرة في ذلك الوقت . ولكن أسس قيام تلك النهضة الزراعية والتجارية وضعت عندما تقوض حكم القوط الغربيين في ايبرية ، وانتهى وجودهم الذى فرضوه عن السكان المحليين بالقوة فترة زادت على قرنين من الزمن . ولم يكن الفلاحون بمنأى عن السياسة القوطية المتبعة في ايبرية ، إذ كانوا عبيدا مستأجرين لدى النبلاء يقدمون لهم مابين ٥٠ ٪ و٨٠٪ من المحصول . ولم تكن حصة الفلاحين تكفي احيانا لبذار الموسم التالي أو لسد حاجة العاملين في الحقول ، الأمر الذى أدى إلى انخفاض الإنتاج وتضاؤل الاهتمام بالأرض فأهملتهم عندما أُهملت ، ونزلت بايبرية قبل ثلاث سنوات من الفتح العربي مجاعة ، وعصف بالسكان وباء أودى بحياة الكثيرين منهم . وأعيد توزيع الأراضي الأندلسية بعد الفتح طبقا للطريقة التي سقطت بها هذه الأراضي ، فمنها مااستبقاه السكان المحليون نتيجة صلح ، ومنها ماملكه الفاتحون بعد حرب أو بعدما فر أصحابها ، ومنها أيضا ماملك بطرق مختلفة أخرى . أما السكان المحليون الذين استمروا في العمل أو السكنى بأراضيهم ، فكانوا عموما يدفعون جزية وخراجا على أرضهم من الغلة يتراوح بين ٢٠٪ و٣٥٪ وأحيانا ٥٠٪ طبقا لنوع المحصول وفترة اثماره والكمية الفائضة من الإستهلاك والبذار .

والمعلومات القليلة المتوفرة عن تلك الفترة من تاريخ الأندلس ، تشير إلى أن القمح كان المحصول الرئيسي ، ويبدو أنه كان يفيض عن حاجة السكان في أغلب الأحايين . كما احتل الزيتون مرتبة مهمة فعُمِد إلى توسيع نطاق زراعته وتحسينه ، ولاسيما في المناطق المحيطة بمدينة جيان التي ماتزال حتي اليوم تعيش على الزيتون مصدرا رئيسيا لاقتصادها . وأدخل العرب في سنوات مابعد الفتح مزروعات جديدة إلى الأندلس شملت الحمضيات واللوز والتين والدراق والرمان والموز والزعفران والحلفاء والقطن والكتان وقصب السكر والمشمش . وحيثما وجِد عرب أوبربر في منطقة أو أخرى ، أعطى هؤلاء المكان سمات متميزة كما حدث بالنسبة للسوريين في كورة البيرة (غرناطة) والمصريين في باجه وتدمير (مرسية) والفلسطينيين في مناطق شذونه‹والأردنيين في رية ، وأهل حمص في أشبيلية ، والبربر في المناطق المرتفعة التى تلائم طبيعتهم وتتشابه مع المناطق التي قدموا منها قبل الفتح . وكان لادخال الحمير إلى الأندلس بعد جلبها من مصر مفعول هائل في « تثوير » طرق الفلاحة والحصاد وارتفاع حجم المحصول . وقد يبدو هذا غريبا اليوم ، ولكن أحد مفاهيم الرخاء في ذلك العصر ، كان توفر حمار لكل شخص يستخدمه في غاياته المختلفة .

وتطور الزراعة في الأندلس غطى الاستهلاك المحلي وقدم جزءا ، كان يصدر إلى الشمال الأفريقي ودول أوروبة ولكن هذا لايعني أن الوضع كان على هذه الصورة دائما ، إذ لعبت عوامل عديدة على اضعاف المحصول في بعض السنين وحتى على وقوع مجاعات متعددة ، كما حدث سنة ٨١٥ (١٩٩) و٩١٥ (٣٠٢) عندما « مات اكثر الخلق جهدا » ، وان استطاعت الأندلس في أوقات أخرى النهوض من محنتها ومتابعة صنع الرخاء الذى عرفت به حتى فى أوقات ضعف سلطتها السياسية . واستفاد الأندلسيون في نشاطهم الزراعي من القنوات التي بناها الرومان في القرن الأول المسيحي ، فعمدوا إلى إصلاحها وتحسينها وشق أو بناء قنوات جديدة ، واتقنوا التعامل بفنون السقاية وجلب المياه من مسافات بعيدة ، كما استخدموا النواعير ، وكانت من النوع الذى تربط إلى إطاره قلال مناسبة وهو نوع لايزال يستخدم في بعض مناطق الصعيد المصرى حتى الآن . ومع تقلص الوجود العربي إلى منطقتي غرناطة وبلنسية ، تكثفت الخبرة المتوفرة وتحولت المنطقتان إلى اثنتين من أخصب بقاع أوروبة ، وبقيتا كذلك حتى قامت السلطات القشتالية بترحيل الأندلسيين في بداية القرن السابع عشر . وتعرض النشاط الزراعي إلى نكسة كبيرة نتيجة إهمال الأسبان له فاستمر حتى هذا القرن عندما تجدد الاهتمام به ، وأصبحت أسبانيا من بين أكثر الدول انتاجا للزيتون والدراق ، بل إنها اليوم أكبر مصدر للزعفران ومركز الاتجار به في مدينة البسيط حنوب غربي بلنسية .

٢ – الصنـــاعة :

وفّر تطور زراعة القمح والقطن والكتان ، وازدياد الاعتناء بتربية الماشية المواد الأولية اللازمة لقيام صناعات خفيفة ، لقيت تشجيعا مناسبا فنمت في معظم أرجاء الأندلس مستفيدة من الخبرات التي توفرت لدى السكان المحليين في بداية عهد الفتح ، ومن الخبرة التي حملها العرب الذين استوطنوا

الأندلس في سنوات لاحقة . ومع توفر المواد الأولية والخبرة قامت صناعة المنسوجات والسكر والخزف والسجاد والجلود والعطور والمواد الكيماوية المختلفة ولاسيما الأصباغ ، وكذلك صناعة الزجاج والصناعات اليدوية الأخرى . وترد اشارات كثيرة إلى هذه الصناعات إذ أنشأ عبد الرحمن الداخل دارا خاصة للطراز ، تصنع فيها ملابس أصحاب الخدمة ، وتطورت صناعة الملابس فيما بعد لتغطى الاستهلاك المحلي مع تخصيص قسم كان يصدر إلى المغرب أو الشمال . وربما اعتبرت مدينة شقوبية من أهم مراكز صنع الملابس في الأندلس حتى سقطت بأيدى الشماليين سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) . وأحسن الأندلسيون استغلال عدد كبير من المعادن المحلية مثل الحديد والزئبق والنحاس ، فكان ذلك عاملا مهما في تطوير صناعة الأسلحة والمعدات العسكرية الأخرى التى كانت مستخدمة في ذلك الوقت . وشجع عبد الرحمن الثاني هذه الصناعة وذاع صيت طليطلة كمركز رئيسي لإنتاج السيوف والرماح وغيرها من الأسلحة . (١) ومع تقدم الصناعة في القرن التاسع الميلادي ، تمكن الأندلسيون من انتاج الزجاج المعروف بالظرّاني (الصواني) والزجاج الشفاف والورق ولمع اسم مدينة شاطبة مركزا مهما لإنتاج المادة الأخيرة ؛ مما ساهم إلى حد كبير في تطوير صناعة الكتب والورق . وظلت هذه الصناعات مستمرة على نطاق « ورشات » صغيرة يعمل فيها عدد محدود من الأشخاص ، سواء كان ذلك في ورشات صناعة الأسلحة أو المصابيح أو في معاصر الزيتون والمطاحن ، التي لاتزال انقاض بعضها باقية حتى اليوم في قرطبة رغم مرور أكثر من ألف سنة على بنائها .

أما بالنسبة للصناعات الأثقل فقد شملت السفن بصورة أساسية ؛استجابة لمتطلبات الدفاع والتجارة والتنقل وتركزت في الجنوب الأندلسي ، وعلى الساحل الشرقي منها في مدن مثل المرية ولقنت ودانية وغيرها .ويظهر أن انتاج السفن كان كبيرا إذ تذكر الروايات ان عدد السفن التي استخدمت في اخضاع سكان جزيرتي ميورقة ومنورقة سنة ٨٤٩ (٢٣٤) حوالي ٣٠٠ سفينة ، كما استخدمت أعداد كبيرة من السفن لحراسة الشواطىء الأندلسية ، ولاسيما إثر الهجمات التي شنها النورمان اعتبارا من سنة ٨٤٤ (٢٢٩) . ولاشك فى أن توفر مثل هذا الأسطول لغرضي الدفاع والتجارة ، كان سببا مهما في توفير الاستقرار النسبى المطلوب للاستمرار في تطوير البنية الصناعية الأندلسية وزيادة رخاء البلاد .

٣ – التجـــارة :

وجود الفائض الزراعي وقيام الصناعات الأندلسية المختلفة أوجدا أسس نشوء تجارة نشطة عادت على الأندلس بالرخاء الوفير ومنحتها القـوة التي مكنتها من التصدى للشماليين حتى بعد انهيار الخلافة؛ وان كان هذا الرخاء قد أجج أطماع الممالك الشمالية بما توفر للأندلسيين . ومنذ نشوء الإمارة القرطبية تكاملت القدرات الإدارية اللازمة لبدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي ، فاعتمدت في بداية الأمر

(١) يرجع صيت سيوف طليطلة الذائع إلى الزخارف الدمشقية المطبوعة عليها ، ولكن أصل هذه الصناعة ليس عربيا على مايبدو ، إذ ورد ذكر لها في القرن الأول قبل الميلاد ، وبقي صنع السيوف سرا يتناقله الابن عن الأب . ويقال ايضا إن في رمل طليطلة وماء نهر تاجه من الخواص مايميز سيوفها حتى اليوم .

الأوزان والمقاييس ذات الأصل الروماني ، وسك عبد الرحمن الداخل الدينار القرطبي فأصبح عملة مقبولة في جميع أرجاء الأندلس ، وكثير من دول أوروبة لأن من المعروف أن العملة في غاله كانت تزن نصف الدينار القرطبي ،وكانت المبادلات التجارية تتم بالدينار العربي . ولكن العملة التي سكت بأمر عبد الرحمن لم تكن العملة الأولى التي تضرب في الأندلس ، فقد سعى موسى بن نصير في بداية عهد الفتح إلى إبراز مظهر السلطة الإسلامية في ايبرية وضرب أول النقود وإن كانت صورة عن النقود المستخدمة في إيبرية قبلا ، سواء من ناحية المعدن أو الكتابة بالأحرف اللاتينية مع استبدال المعاني المسيحية بأخرى إسلامية ، وإضافة التاريخ الهجري عليها . وتطورت عملية سك العملة في عهد عبد الرحمن فأنشأ دارا خاصة بذلك في عاصمة الامارة .

ولاتتوفر أية إحصاءات تجارية موثوقة عن تلك الفترة ، ولكن المعلومات التي وصلتنا تفيد بأن الأندلسيين كانوا يصدرون المنسوجات وزيت الزيتون والأسلحة والعبيد الصقالبة إلى المغرب العربي ، ويستوردون العبيد الزنوج وبعض المنتوجات الزراعية مثل الفستق . ولكن الميزان التجاري كان لصالح الأندلس ، وكان التجار الأندلسيون يحملون إلى قرطبة وغيرها الذهب الذي كان يستخرج من ضفاف أنهار غرب أفريقيا ويحمل إلى المغرب ، فكان مصدر الذهب ذاك أهم مصادر المعدن الثمين في تلك العصور إلى أن تم اكتشاف الذهب والفضة في افريقيا والعالم الجديد في قرون لاحقة . ولعبت الأندلس أيضا دورا رئيسيا كمصدر ومستورد مع الممالك الأوروبية . فشملت الصادرات المنسوجات والملابس والمصنوعات اليدوية المتنوعة . ولاشك أن تجارة العبيد الصقالبة كانت أهم تجارة تعاملت بها الممالك الشمالية الصغيرة ، وكان هؤلاء يؤسرون من مناطق وسط أوروبة ودول البلقان حاليا ، وينقلون إلى الأندلس ومنها إلى المغرب « وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس » (١). هذه التجارة كانت مصدر رخاء كبير بالنسبة لمدن مثل بمبلونة وبرشلونة ، وعادت على الشماليين بدخل استخدم بعضه لشراء المنتوجات الأندلسية المتنوعة ، والبعض الآخر للانفاق على الجنود . فالتجارة في تلك الفترة ، كما هي اليوم ، كانت تتم دون الالتفات كثيرا إلى بعدها العسكرى ، حتى أن ملوك الشمال الايبيرى درجوا على شراء ملابسهم من الجنوب ، ولاسيما الحريرية منها ، خلال فترات اندلاع الحروب بين الجهتين .

كما لعبت الأندلس دورا رئيسيا ، كمركز لإعادة تصدير البضائع الشرقية والمغربية إلى الشمال وأوروبة ولاسيما التوابل والمكسّرات والعطور وغيرها من المواد ، وكان التجار الأندلسيون يشحنون زيت الزيتون إلى المشرق ويستوردون التوابل والأقمشة والمصنوعات اليدوية وغيرها ، مما لم يتوفر في الأندلس . والسلامة النسبية التي سادت البحر الأبيض المتوسط كانت عاملا مهما في زيادة التبادل التجارى مع الأندلس ، إذ كان البحر من مناطق النفوذ العربي اعتبارا من القرن السابع الميلادى أثر معركة ذات الصوارى ٦٥٤ (٣٣) ، ولكن الحركة التجارية كانت أنشط مع المغرب لاسيما المغربين الأوسط والأقصى .

---

(١) ابن حوقل ، محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي « صورة الأرض » بيروت ، ص ١٠٦ .

عمـلات اندلسـيـة من عصـور مختلفـة

هذا الوضع الاقتصادي الجيد وفر للأندلس رخاء كبيرا ربما فاق رخاء المشرق ، ومكن الأندلسيين من المضي قدما في تطوير الزراعة والصناعة والتعامل التجاري تحت غطاء الأمن والاستقرار . إلا أن الأمر بدأ يتغير إثر انهيار الخلافة واهتزاز الأمن في الأندلس ، رغم أن وضع الأندلسيين ظل بصورة عامة جيدا حتى بعد تراجعهم وانحسار سلطتهم تدريجيا . ثم تكررت القصة ذاتها في مملكة غرناطة كما تشهد بذلك المزارع والأقنية والصناعات التي مايزال بعضها ، أو آثار منها ، باقيا حتى اليوم .

٤ – الاقتصاد في الممالك الشمالية :

كان الشماليون يتعاملون بدينار قرطبة وديناري بيزنطة وغاله ، وكان المصدر الرئيسي للدخل هو الماشية التي يملكونها بالإضافة إلى دخل محدود من الزراعة والصناعة وتجارة العبيد . إلا أن التعامل التجاري ضمن المناطق الشمالية كان يجري بطريق المقايضة ، إلى أن أدخل هؤلاء بعض مظاهر النظام المالي من عاصمة الأندلس ، وساهم بعض من رحل إلى الشمال من المستعربين واليهود ، في ايجاد نشاط

أفضل ، سواء في مجالات الصناعات أو الزراعة . وقبل انهيار الخلافة الأندلسية كانت ممالك الشمال ضعيفة ، كما يتضح من الإغارات التي شنها عليهم المنصور ، حتى وفاته في مدينة سالم الشمالية . ومع قيام ممالك الطوائف توفر للشماليين دخل جديد سهل جاء عن طريق فرض الجزية ، وهو عمل مارسه الفونصو السادس بنجاح كبير إلى أن أخذ يتوغل في الجنوب متوجا انتصاراته باحتلال طليطلة . ثم تقدم الشماليون فيما بعد لاستيطان المناطق الواقعة في وادي نهر تاجه . وفي القرن الثالث عشر أنهت ممالك الشمال احتلال معظم اراضي الأندلس واتبعتها باحتلال غرناطة سنة ١٤٩٢ . وخلال هذه الفترة الطويلة من الزمن طرأت جملة من التغييرات على طبيعة اقتصاد البلاد : في ارغون مثلا بقيت أعداد كبيرة من العرب ، وخاصة من المزارعين الذين تابعوا فلاحة أراضيهم وانتاج المحاصيل والاستمرار في الصناعات التي اتقنوها ، فلم يكن تضرر تلك المملكة يماثل ماحلق بالمناطق التي احتلها ملوك قشتالة ، رغم أن هذا التصور لاينطبق على جميع الحالات . فالمعروف أن خايمي الأول طرد عددا كبيرا من المزارعين من أراضي مرسيه وأدى ذلك إلى خرابها ، ولكن أرغون تعرضت إلى أزمة كبيرة نجمت عن طرد الأندلسيين في بداية القرن السابع عشر . وعلى أية حال فإن اقتصاد ارغون انفصل عن قشتالة منذ القرن الثالث عشر ، حين بنت ارغون امبراطوريتها في البحر الأبيض المتوسط ، فطورت أسطولها التجاري وأقامت امبراطورية تجارية زاحمت الايطاليين ، حتى تعرضت إلى الاضمحلال في القرن الخامس عشر قبل أن تلتهمها قشتالة ، كما التهمت الأندلس ، وكما حاولت بعد ذلك التهام البرتغال .

واعتماد قشتالة على الماشية نابع من عدم تمكن قشتالة من تطوير أية صناعة حقيقية . وكل ماوجد من صناعات في الشمال كان بصورة أساسية في أيدى المستعربين النازحين من الأندلس ، أو في أيدى اليهود . ومع احتدام القتال مع الأندلس اعتبارا من القرن الثاني عشر، أضحى الاعتماد على الماشية أمرا تفرضه طبيعة الحرب . فلو حدث مثلا وأغار جيش على قلعة أو مدينة ما فإن من السهولة على الرعاة جمع ماشيتهم خلال ساعات والعودة بها إلى داخل أسوار المدينة . والمحاربون في تلك الفترات كانوا يعرفون أهمية الحرب الاقتصادية في إضعاف قوى الخصم وقدرته على الصمود ، وكانوا على الغالب يستعملون أسلوب الأرض المحروقة لتسريع سقوط المدينة ، إذ كان عامل تجويع سكان المدينة أو القلعة من أهم عوامل اسقاطها . والهجوم المباشر على الأسوار كان يسبب في العادة خسائر كبيرة في الأرواح ، وكانت معظم المدن قادرة على الصمود في وجه هجوم مباشر أو حصار قصير الأمد نسبيا ، إضافة إلى أن الجيوش المحاصرة كانت قلما تستطيع الصمود نتيجة حصار طويل الأجل ، مالم يكن المدد مضمونا بصورة دائمة . وعلى هذا فإن اسقاط مدينة معينة كان يتم في العادة على ثلاث مراحل : الأولى الإغارة على المنازل المكشوفة المحيطة بتلك المدينة ، واحراق الزرع وقطع الأشجار والماء أو تحويل الجداول الصغيرة . وتشير بعض المعلومات إلى أن ايزابيلا وفرناندو وظفا حوالي ٣٠٫٠٠٠ جندى لشن حرب اقتصادية شاملة ضد غرناطة ، احرقوا فيها الزرع والمحاصيل حتى اضطرت المدينة إلى الاستسلام . أما المرحلة التالية من الحصار فهي الاستيلاء على نقاط التحصين القريبة أو المنابر ، وقطع طرق التموين التى كانت تستخدم لنقل المؤن على البغال والحمير في العادة . واذا ما انتهت المرحلة الثانية ضرب الجيش المحاصر النطاق حول المدينة إلى أن يجوع أهلها ويضطروا للاستسلام . ولذا فإن حصار مدينة متوسطة الحجم كان يستغرق عدة سنوات في بعض الأحايين .

وسبب اعتماد الاقتصاد القشتالي على الماشية والنهب عدم توفر الخبرة اللازمة لإدارة اقتصاد معقد يقوم على دعائم مشتركة ذات أداء يعتمد قسمه على القسم الآخر . والقشتاليون توغلوا في الأندلس خلال القرن الثالث عشر فدخلوا مناطق لايعرفون كيف يديرون عجلة الزراعة والتجارة فيها ، ويعرفون الأقل من ذلك عن الصناعة . ودخول قوات الشمال المدن الأندلسية أدى على الفور إلى تقويض دعائم الصناعة والتجارة ، ولكن النبلاء الذين حصلوا على قطع من الأرض بعد احتلالها وانتزاعها من الأندلسيين كانوا يأملون في التمكن من الاحتفاظ بالمزارعين واستغلالهم . وفي الحالات التي بقي فيها عدد كاف من المزارعين الأندلسيين ، كما حدث في ارغون مثلا وبعض مناطق الأندلس ، تابعت الأرض انتعاشها ، أما في معظم الحالات الأخرى ، فإن الأرض تحولت إلى بلقع مع الزمن فباع من تمكن الأرض التي اقطعه الملك اياها ورحل إلى الشمال ثانية . ولكن هناك بالطبع من استفاد من تخريب الأرض وهؤلاء كانوا من أصحاب الماشية التي ملكها الأفراد ، ولكن سيطرت على معظمها الأنظمة الدينية وخاصة وسط البلاد . ومايزال الوسط الأندلسي حتى اليوم ، يبدو وكأنه ساحة قتال قاحلة فقيرة بالشجر والخضار فقداستخدمت تلك المنطقة للرعي ، ومن جاء من ملوك قشتالة فيما بعد دعم مبدأ تفضيل الرعي على الزراعة ، وأصدر المراسيم التي تفتح الأراضي أمام الماشية على حساب الزراعة .

على الساحل الشرقي لشبه جزيرة ايبرية أدى انهيار مدن مثل المرية وغيرها إلى مساعدة مدن شمالية مثل برشلونة على تطوير تجارتها مع اوروبة والمشرق . وهناك بعض السجلات التي تشير إلى أن ارغون كانت تتاجر مع تونس اعتبارا من القرن الثالث عشر ، عندما قررت الاتجاه إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، لتنافس البندقية وفلورنسا وجنوا إلى أن وصل التنافس مرحلة الحرب السافرة . ثم نمت برشلونة إلى أن أصبحت واحدة من أكبر ورشات صناعة السفن في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وبرشلونة كانت مركزا لتصدير بعض المنتجات الزراعية والصناعية الأندلسية ، قبل سقوط معظم مناطق الأندلس في القرن الثالث عشر ، بل أن دورها يمتد إلى فترة الخلافة القرطبية . ولأن الوجود الأندلسي فيها كان كبيراً ، فقد تمكنت برشلونة من تصدير الأسلحة والجلود والأقمشة وجميع ماتحتاج إليه السفن ، بالإضافة إلى عدد من المنتجات الزراعية من المناطق المحيطة ببلنسية مثل الزبيب والجوز ، وكذلك إعادة تصدير التوابل إلى فرنسا وانجلترا وغيرها من المناطق . وكانت تجارتها نشطة مع مصر وتلمسان وتونس ، ثم أضيف إلى هذه الأنشطة التجارية مجددا العبيد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولكن أوج الرخاء الذى عرفته أرغون كان في القرن الثالث عشر والقسم الأعظم من القرن الرابع عشر ، حينما حاولت اللحاق بركب الممالك الايطالية التي كانت أول من استفاد من « الثورة التجارية » التي قامت في آخر القرن الحادى عشر استجابة لمتطلبات الحروب الصليبية ومد خطوط التموين والنقل بين أوروبة والمشرق . وما إن جاء عام ١٣٨١ حتى نزلت بارغون مشاكل مالية معقدة اضطرت بعدها إلى التقهقر أمام تقدم الايطاليين . ومنذ اكتشاف العالم الجديد ساهمت ارغون في الاتجار مع ممالك ماوراء الأطلسى ، ولكن التجارة المباشرة كانت محصورة بقشتالة التي استوعبت ارغون فى القرن السادس عشر .

في قشتالة ظلت آثار عملية تخريب الاقتصاد الأندلسي التي رافقت اجتياح القرن الثالث عشر واضحة المعالم ، وبقيت الزراعة بدائية للغاية . ولكن بعض الصناعات الأساسية نمت في القرن الرابع عشر ، مثل صناعة الصابون والورق والجلود وغيرها من الصناعات الخفيفة ، كما تطورت صناعة السفن في مدينة سنتندير الواقعة على خليج بسقاية في الشمال وفي اشبيلية ، ولكنها كانت تعتمد على تصدير الصوف كدخل رئيسي . والسبب في تحسن نوعية الصوف القشتالي كان نجاح تهجين نوع الخراف المغربي المعروف باسم « موربنو » مع الأنواع المحلية آخر القرن الثالث عشر ، فتفوقت في حجم صادراتها من الصوف على انجلترا . وبحلول القرن الرابع عشر كانت قشتالة أهم مصدرى الصوف الجيد . وارتفاع حجم الصادرات فتح الطريق في بداية القرن الخامس عشر لبناء اسطول تجاري قشتالي ، كان يحمل الصوف والجلود إلى ايطاليا وغيرها من الدول الأوروبية ، بل حتى إلى بلنسية لصناعة الأقمشة هناك .

استمر هذا الوضع حتى نهاية القرن الخامس عشر ، عندما عمدت ايزابيلا إلى سك عملة رئيسية هى « الأكسلنتيه » (وكانت تساوي الدوقة المعتمدة في البندقية) ووحدت المقاييس والأوزان وحسنت الطرق والموانىء ، ثم حددت كمية الصوف الممكن تصديرها بثلثي الإنتاج ؛ لتشجيع صناعة المنسوجات.ولكن ايزابيلا اصرت على الاهتمام بتربية المواشى دون أية قطاعات أخرى ، وأصدرت سنة ١٤٩١ مرسوما منعت فيه اقامة الحواجز في غرناطة ؛ كي لاتعرقل الحواجز عملية رعي الماشية حتى وإن كانت لحماية القليل من الزرع في المنطقة . وكان لسياسة ايزابيلا المعادية للزراعة أثر كبير في إضعاف الاستغلال الزراعي مايزال باقيا حتى يومنا هذا ، وفضل الكثيرون توظيف الاستثمارات في الماشية بدلا من الزراعة والتجارة والصناعة . ووراء هذه السياسة خلفية نفسانية مهمة ميزت القشتاليين عن غيرهم إذ كان هؤلاء يترفعون عن القيام بالأعمال اليدوية ، ويعتبرونها تحقيرا لشأنهم.ولذا فقد ظلت الأقليات تسيطر على النشاطات الصناعية والزراعية القليلة ، وبقي القشتاليون يعتقدون أن وظيفة الآخرين فلاحة الأرض وانتاج المصنوعات ، ولكن وظيفتهم القتال وحكم شعوب الأرض الأخرى .

ب ـ النزاعات الداخلية

تردُّد الوليد بن عبد الملك الخليفة في فتح الأندلس يعكس المخاوف التي ساورته من عبور المسلمين إلى أرض لايعرف عنها الكثير ، واحتمال تعرضهم للتهلكة دون التمكن من نجدتهم في الوقت المناسب لاسيما وأن مرحلة الفتح الأولى استلزمت استخدام عدد قليل جدا من السفن لم تكن كافية لاجلائهم لو دعت الضرورة لذلك ، ولم تتوفر السفن الكافية لامدادهم لو أن طارق بن زياد لم يحرز انتصاره الحاسم على الجيش القوطي في معركة وادي لكه سنة ٧١١ (٩٢) . هذه المخاوف دعت الخلافة الأموية فى دمشق إلى التسامح في التعامل مع الفاتحين الأوائل بالنسبة لتقسيم الأراضي ، حتى ولو كان ذلك على حساب بيت المال ، وسعت إلى تشجيعهم على البقاء في الأراضي الجديدة واعتبارها ثغرا من ثغور الجهاد خلال مرحلة فتح اسلامي لم يعرفها التاريخ من قبل . والأندلس ، بحكم طريقة فتحها ، كانت تتبع والي أفريقيا (تونس) احيانا وتتبع رغبة البلديين الأندلسيين أحيانا أخرى . واستمرت الصلة قوية حينا واهية

حينا آخر ، حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٧٥٠ (١٣٢) وقامت العباسية على انقاضها وارتحل إلى الأندلس عبد الرحمن الداخل حفيد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فأسس إمارته في قرطبة وألغى الدعاء للخليفة ، مكرسا أول انفصال رئيسي لمنطقة سيطر عليها المسلمون عن الجسد الأشمل .

ومنذ قيام الإمارة تحتم على الأندلسيين الاعتماد على أنفسهم لرد كل القوى التى حاولت غزو الأندلس سواء كانت من الشمال ، أو من المملكة الكارولنجية (الفرنسية) أو من النورمان ونجحت قرطبة في ذلك إلى أن انهارت الخلافة واستدعي المرابطون بعد سقوط طليطلة على يدى الفونصو السادس سنة 1085 (٤٧٨) . ولعل من الصعب النظر بغير الاعجاب إلى السلطة التي أرسى عبد الرحمن دعائمها فى الأندلس ، إذ استمرت ثلاثة أضعاف مااستمرت عليه الخلافة الأموية،وفاقت في عمرها السلطة الفعلية للخلافة العباسية ، بينما بقيت غرناطة بعد ٢٣٤ سنة من اجتياح المغول لبغداد ، واستمر التأثير الأندلسي مهما حتى بداية القرن السابع عشر . وبقاء قرطبة تلك السنوات الكثيرة يضع كل القلاقل والأخطار الخارجية التي تهددتها في فترات مختلفة ، ضمن إطار المشاكل التي أمكن السيطرة عليها ، ولكن هذا لايمنع القول بأن بعض تلك الأخطار ، ولاسيما الداخلية منها ، كادت في لحظات كثيرة تقوض سلطة قرطبة وتعجل في سقوط الأندلس .

والأخطار الداخلية التى عصفت بالأندلس في مراحل عدة كانت نتيجة التركيب الاجتماعي الخاص بما يضمه من عرب وبربر وسكان أصليين ، فكان الصدام مع البربر في البداية إلى أن استقدم الجيش الشامي المحاصر في سبتة فتمكن بمساعدة البلديين الأندلسيين من القضاء على ثورة البربر . وماكادت هذه العاصفة تهدأ حتى اندلع صدام بين الشاميين والبلديين فكانت الغلبة للجيش الشامي . بعد هدوء العاصفة الثانية دبت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية ، وانتهت حربهما بسيطرة القيسية على مقاليد الحكم . ثم جاء عبد الرحمن فاستعان باليمانية للتغلب على القيسية والانفراد بالسلطة ، إلا أن هذا تسبب في انتفاض العصبيات كلها على حفيد هشام بن عبد الملك ، بما في ذلك اليمانية والبربر الذين كان لهم باع طويل في معظم الثورات الداخلية التي اندلعت في الأندلس . ولكن عبد الرحمن الذي تمكن بحنكته وبطشه من الوصول إلى الحكم ، استطاع بفضل هذه الصفات ذاتها المحافظة على ماحققه والقضاء على جميع مراكز العصيان في الأندلس بالإضافة إلى افشال مخططات شارلمان ودب الفوضى في صفوف الشماليين ، وإن كانت الممالك الشمالية في تلك الفترة ترسخت وبنت حجر الأساس الذي قامت عليه فيما بعد الممالك التي اجتاحت الأندلس .

وتوفى عبد الرحمن،الذى كان « مديد القامة نحيف القوام ، أعور أخشم أصهب بضفيرتين وخال في وجهه »،سنة ٧٨٨ (١٧٢) متيحا المجال أمام هشام الرضا ومن بعده الحكم الربضي ، لتوطيد الإمارة الأموية في الأندلس . إلا أن الأندلس لم تكن بعيدة عن نزاعات السلطة المعروفة في المشرق فانقلب ابنا عبد الرحمن ، سليمان وعبد الله ، على أخيهما الأوسط هشام واستمرت الفتنة سنتين كانت الغلبة بعدهما لهشام ، إلا أنهما عادا للمطالبة بالإمارة بعد وفاة هشام وتولي ابنه الحكم السلطة ، وانتهت الفتنة الثانية

بمقتل سليمان واخضاع عبد الله . وصفة « الربضي » التي اطلقت على الحكم تذكير لبطشه بالثائرين عليه في ربض قرطبة ، إذ أعمل جنده السيف بالناقمين عليه وأسروا أعدادا ، صلب منهم ٣٠٠ ثم هدم الربض وأمر بحراثة أرضه وزرعها . والثورة على إمارة قرطبة لم تكن محصورة بالعاصمة إذ نشبت ثورات في الثغور الأعلى والأوسط والأدنى استمرت سنوات عديدة وتزعمها المولدون والبربر والمستعربون في وقت قويت فيه مملكة اشتوريش الشمالية ، وباتت تحقق توسعات على حساب الأندلس وتدعم الثورات ضد قرطبة . هذه الثورات تجددت في فترات لاحقة وامتدت إلى الجنوب مهددة عاصمة الامارة ، ووصلت ذروتها في عهدى الأمير المنذر وعبد الله بن محمد ، مما اضطر العرب للتكتل دفاعا عن أنفسهم أمام عجز أمير قرطبة فانحصر سلطانه حتى كاد لايتجاوز حدود المدينة ، وتمزقت هيبة الأمير تحت ضربات أصحاب الفتن من أمثال عبد الرحمن الجليقي وعمر بن حفصون .

وثورة ابن حفصون أهم الثورات التي عرفتها الأندلس ، فقد استمرت نصف قرن تقريبا وعاصرت اربعة أمراء إلى أن تمكن عبد الرحمن من القضاء عليها ، فأعلن نفسه بعد ذلك خليفة وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله . إلا أن الشماليين في عهده كانوا وصلوا إلى قدر من القوة تمكنوا معه من هزيمته في معركة الخندق ، التي جرت عند مدينة شنت منكش سنة ٩٣٩ (٣٢٧) ونجا الناصر من القتل بجهد كبير. ولعب أمية بن اسحاق دورا في الانتصار الذي حققه ردمير الثاني الليوني ، فكان يحارب معه ويدله على مكامن الضعف ، وهذا نوع من المساعدات حصل عليها الشماليون من كثير من الأندلسيين في فترات مختلفة من تاريخ الأندلس ، وكان لها دور مهم في سقوطها . وقعة الخندق وغيرها من الحوادث كانت استثناء لعهد تمتعت خلاله الأندلس بالقوة والرخاء ، وتصدت بنجاح لكثير من المخاطر التي كانت عموما ذات طابع خارجي مثل هجمات النورمان المتعددة. إلا أن المهمة التي وقعت على عاتق خليفة قوى مثل الناصر لم تكن سهلة ، كما يتضح من قول المقرى ، فايام سرور الناصر كانت أربعة عشر يوما وهو أمر ليس بهين على خليفة حكم حوالي نصف قرن وتوفى سنة ٩٦١ (٣٥٠) .

استفاد الحكم الثاني المستنصر بالله من تجارب غيره وحصد مازرعه والده ، وحكم دولة مستقرة موحدة وشغف بالعلوم والمكتبات ، ولكنه توفى تاركا السلطة لابنه هشام المؤيد بالله وله من العمر احدى عشرة سنة ، فانفرد محمد بن ابي عامر الحاجب المنصور بالحكم ، وقضى على خصومه واخضع الشماليين فى غزوات متعددة إلى أن توفاه الله ، وأصبح الطريق مفتوحا للفتنة واخفقت جهود المخلصين في لم الشمل وجمع الكلمة ، وبدأ مايعرف باسم عصر الطوائف . وفي حين أثنى بعض المؤرخين على المنصور ، فإن البعض الآخر وجه إليه النقد واللوم واعتبره سببا لما اصاب الأندلس فيما بعد ، وبخاصة لاكثاره من المرتزقة في صفوف جيشه ، مع أن هذا المنحي لم يكن حصرا على المنصور إذ لجأ إليه عبد الرحمن الداخل حين اشترى أعددا كبيرة من المماليك ، ثم ابتاع الحكم الربضي الكثير من المماليك وصل عددهم إلى خمسة آلاف شخص منهم ثلاثة آلاف فارس . وكان الاعتماد على المرتزقة من سمات ممالك الطوائف.وكانت العلاقات بين الحكام قائمة على « التحرز والحذر وانفاق الأموال في بناء الحصون والاستكثار من المرتزقة في حال الدفاع ، إذ غدت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشكلة وأبرزها بين

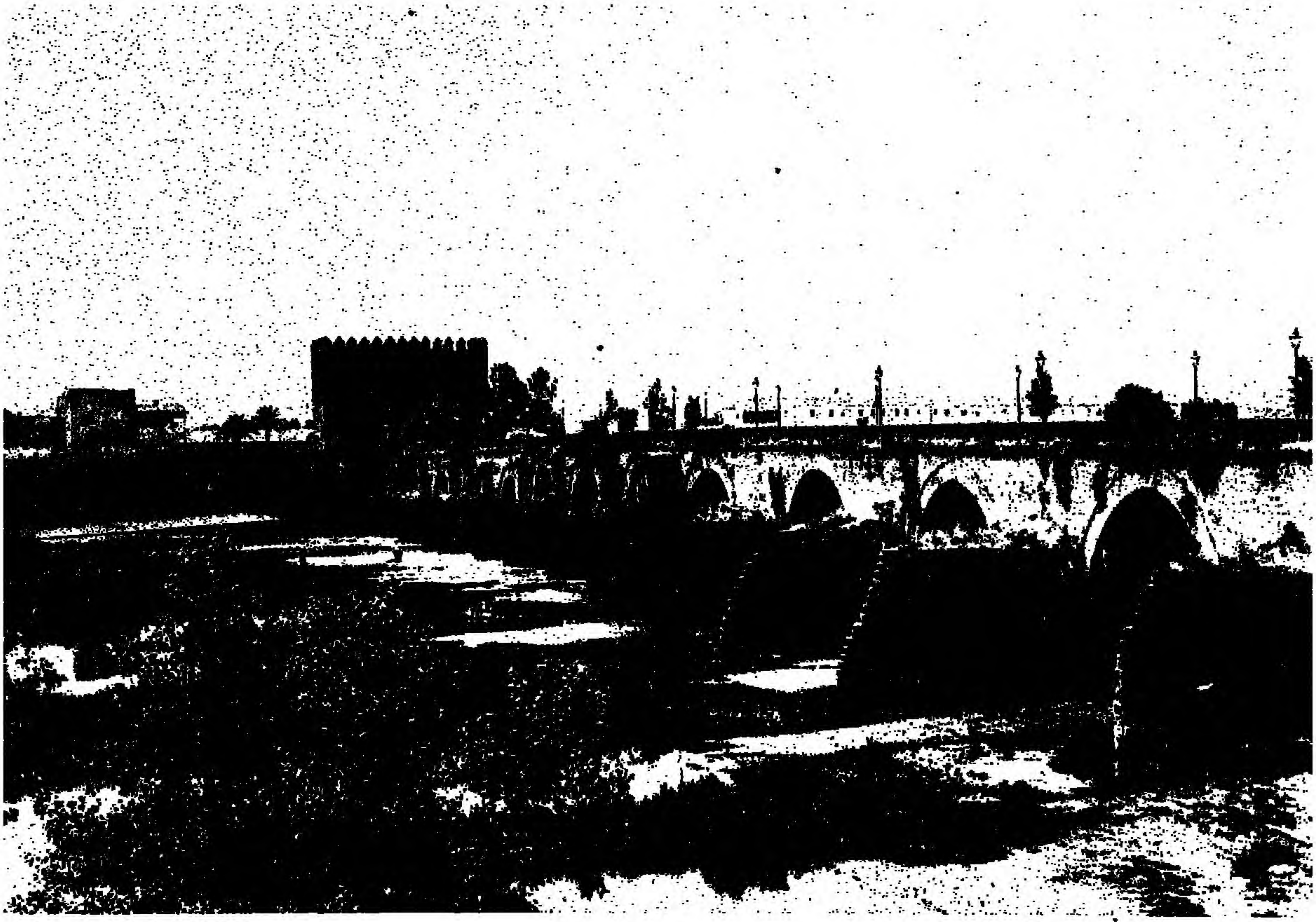

قنطـرة قرطبـــة

أولئك الأمراء ، أو أصبحت قائمة على طلب التوسع والغلبة وانقضاض القوى منهم على الضعيف في حال الهجوم » . (١)

ولم يكن التنافس الذى دب بين أمراء الطوائف من موالى العامرين والظاهرين من العرب والبرابرة الخطر الوحيد على الأندلس فقد كانت الضغوط تشتد من الجنوب عبر العدوة المغربية ، ومن الشمال حيث قويت الممالك النصرانية ، وأخذت تهدد الجنوب .وأحيانا كانت الضغوط الخارجية سببا فى تفجر الصراعات الدخلية، وكان التقاتل الداخلي احياناًعاملاً في استجلاب القوى الخارجية ، كما حدث عندما سقطت طليطلة على يدى الفونصو السادس . وسقوط عاصمة الثغر الأوسط كان نكبة عظيمة بالنسبة للأندلسيين ، وسببا في دخول تاريخ البلاد مرحلة جديدة تمثلت بمجيء المرابطين وسيطرتهم فيما بعد على مقاليد السلطة في الأندلس إثر القضاء على ملوك الطوائف . وبذلك يكون الصراع في الأندلس قد تحول إلى صراع بين السلطتين الأقوى ، وهما سلطة الجنوب المغربي وسلطة الشمال النصراني ، وتبددت القوة العازلة التي كان يشكلها الأندلسيون بين القوتين الأجنبيتين ، كما أصبح التاريخ الأندلسي مرتبطا باحداث العدوة المغربية وخاضعا في معظمه للقوى المنتصرة هناك .

(١) « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر الطوائف والمرابطين) . الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٨

سقوط طليطلة أحدث أثرا مدويا في الأندلس ، وذكر الناس بمأساة مدينة بريشتر التي اقتحمها النورمان سنة ١٠٦٤ (٤٥٦) فقتلوا وأسروا عشرات الآلاف من السكان دون التمكن من نجدتهم . ولكن إذا كان الشعور بالمرارة من حدوث النكبتين مشتركا ، فإن بعض الأصوات التي علت أثر سقوط عاصمة الثغر الأوسط تعكس احساسا جديدا بيأس مطبق إلى حد الدعوة ، لترك الأندلس والرحيل عنها إذ يقول الفقيه الزاهد ابن العسال :

يأأهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وعلى الجانب الآخر من الحث بمغادرة الأندلس ، كانت هناك دعوات أخرى للبقاء فيها حتى وإن كان ذلك يعني الرضوخ لحاكم طليطلة الجديد الذي اعتبر نفسه امبراطورا على الملتين ، أي النصرانية والإسلام ، ولكن هؤلاء لاينجون من لوم بقية الأندلسيين ممثلين بقول أحد الشعراء :

كفى حزنا بان الناس قالوا ... إلى أين التحول والمسير

انترك دورنا ونفر عنها ... وليس لنا وراء البحر دور

....

رضوا بالرق ياللـه ! ماذا ... رآه وما أشار به مشير !!(١)

وإذا كانت نكبتا بريشتر وطليطلة ، وتجزؤ السلطان في الأندلس ، واقتتال هذا الملك مع ذاك وغيرها من الأسباب ولدت شعور اليأس الداعي إلى الرحيل عن الأندلس ، فإن النكبات هذه كانت سببا في الدعوة إلى التوحد والنهوض ضد الشماليين . ومع ذلك فإن دعوة الرحيل يمكن أن تعطي الانطباع بأن البعض ، لو خير بين الشماليين والرحيل لاختار الرحيل ، ولتوقفت الأندلس عن كونها الوطن الوحيد لهؤلاء .

والحقيقة أن الأندلس ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، اختطت طريقا منفصلا عن الخلافة المشرقية وكانت في بعض الأحايين ترسم سياسة خارجية مغايرة تماما للعباسيين ، كما يتضح من علاقات قرطبة مع الامبراطورية البيزنطية ، ولكن هذا لم يكن الوضع بالنسبة للعلاقات الفكرية والاجتماعية ، إذ كانت الثقافة المشرقية منذ عهد الامارة ذات تأثير كبير على التيارات الثقافية في الأندلس ، ورحل كثير من الأدباء والعلماء إلى المشرق ، لتلقي العلم أو الاطلاع على الأمور هناك ، ومن هؤلاء من بقي في المشرق ولم يعد إلى مسقط رأسه . يضاف إلى ذلك أن الكثير من عادات الشرق في المأكل والملبس والمسكن كانت شائعة في الأندلس ، وليس أدل على ذلك من الدور الذي لعبه أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب في نقل العادات العباسية إلى بلاط قرطبة . هذا التأثير المشرقي حدد ، بالنسبة للكثيرين ، محط الولاء النهائي للأندلسيين . فقد يرضخ البعض لتطورات تجبره على قبول حكم الشماليين ولكن البعض الآخر كان يفضل الرحيل أولا إلى المناطق الأندلسية التي ماتزال تحت سيطرة اخوانه أملا في أن يشتد عودهم

(١) انظر معالجة الأدب الأندلسي لسقوط طليطلة في المرجع السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٦ .

جانب من اطلال مدينة الزهراء

فيحررون أرضه ، ثم إلى العدوة المغربية كما حدث بالنسبة لكثيرين ممن رحلوا عن اراضيهم بعد معركة العقاب .

تكلم المعتمد بن عباد أمير اشبيلية بلسان الكثيرين حين كان الخيار بين الشماليين وأهل العدوة فاختار أهل العدوة على وزن قوله الشهير « رعي البعير ولا رعي الخنازير » . حدث ذلك بعد أن احتل الفونصو السادس طليطلة ، وأخذ يتهدد الجنوب فلجأ المعتمد وغيره إلى الاستنجاد بالمرابطين وقاتلوا إلى جانبه فى معركة الزلاقة التي جرت سنة ١٠٨٦ (٤٧٩) وانتهت بهزيمة منكرة لحقت بالفونصو ، رغم أن الدعوة هذه أدت إلى اعتقال المعتمد ونفيه إلى اغمات التى كانت عاضمة المرابطين قبل انتقالهم إلى مراكش سنة ١٠٦٢ (٤٥٤) أو بعد ذلك . واختيار المعتمد هنا كان الاختيار بين سلطة المسيحيين أو سلطة المسلمين ، وقد طرح هذا الخيار أمام النصارى المعاهدين في غرناطة بعد ذلك ، فاختاروا الانقلاب على المسلمين ، واستدعوا ملك ارغون الفونصو الأول للاستيلاء على غرناطة فنظم حملة سنة ١١٢٥ (٥١٩) اخترق بها الأندلس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ولكن دون أن يوفق في إحتلال اية مدينة وعاد ومعه الآف النصارى المعاهدين إلى مملكته . أما من بقي من المعاهدين فقد نفي إلى المغرب باقتراح قاضي الجماعة (قاضي القضاة) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد .

والخلافات الداخلية التى أدت إلى تقدم الشماليين نحو الجنوب ،واستدعاء المرابطين الذين أفسحوا المجال بعد انهيارهم لقيام الموحدين ، تكررت في آخر عهد مملكة غرناطة ، فانقلب أبو عبد الله محمد المشهور « بالصغير » ضد أبيه ابو الحسن على بن سعد ، ثم انقلب أبو عبد الله الصغير ضد عمه أبو عبد الله محمد الزغل فكان ذلك طعنة أخيرة وجهت إلى آخر الممالك الإسلامية في غرناطة فاستسلمت سنة ١٤٩٢ (٨٩٧) . ومهما كانت طبيعة الدوافع التي أدت إلى سقوط الأندلس فليس هناك من شك فى أن التناحر الداخلي كان أهمها . نعرف ذلك اليوم كما عرف الأندلسيون ذلك في الماضي ، فقد كتب المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس إلى الفونصو السادس يقول : « أما تعييرك للمسلمين فيما وهي من أحوالهم فبالذنوب المركوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أى مصاب اذقناك ، كما كانت أباؤك تتجرعه فلم تذيقها من الحمام ضروب الآلام شوما تراه وتسمعه وإذا المال تتورعه » . (١)

(١) « الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية » لمؤلف مجهول ، ص ٢٠ .

الفصل
الثاني

الثورة الأندلسية الأولى

١ - سقوط الأندلس

خلال أقل من قرن من وفاة الرسول العربي ﷺ ، كان الفتح الإسلامي قد شمل جميع المناطق المهمة من العالم القديم وبدا يدق أبواب اقاصي أسيا واوروبة . في الأندلس عبر طريف بن مالك النخعي الزقاق في رمضان سنة ٩١ هجرية (٧١٠) على رأس ٥٠٠ مقاتل ليستطلع جنوب ايبرية ، وحمل من الأسلاب والمعلومات ماشجع على وضع خطة الغزو في العام التالي عندما نفذها والي طنجة طارق بن زياد الذى قاد سبعة الاف جندي جلهم من البربر ، وحقق انتصاره الساحق على القوطيين الغربيين في معركة الوادي . وكان لبربر غمارة الجبليين دور مهم في تحقيق الفوز بعد ثمانية أيام من المعارك انتهت بقتل أو فرار لذريق آخر ملوك القوط ، ثم اكمل موسى بن نصير فتح الأندلس خلال اربع سنوات في وقت كان فيه محمد بن القاسم يقتحم مدينة ديبال (قرب كراتشي حاليا) ، ويتجه فيما بعد إلى كشمير وسفوح جبال الهملايا .

وأهمية فتح الأندلس ليست في السيطرة السريعة عليها ، وانما في البقاء هناك ٧٨١ سنة انتهى بعدها الوجود العربي السياسي ، وان بقيت أعداد كبيرة من الأندلسيين اثر النزوح الكبير الذى لحق باستسلام غرناطة سنة ١٤٩٢ (٨٩٧) . في المشرق ، انهارت الخلافة الأموية سنة ٧٥٠ (١٣٢) بعد حكم استمر ٨٩ سنة ، وبدأ عهد الخلافة العباسية الذى استمر حتى سنة ١٢٥٨ (٦٥٦) عندما هاجم هولاكو بغداد ودمرها . وفي عملية انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين ، أعمل السيف في آخر بني أمية ، وكان ابو المطرف عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك من القلائل الذين تمكنوا من الفرار ووصل إلى الأندلس بعد رحلة طويلة ليؤسس سنة ٧٥٦ (١٣٨) امارة أموية حولها عبد الرحمن الناصر إلى خلافة سنة ٩٢٩ (٣١٦) ، واستمرت في صيغتها الجديدة حتى سنة ١٠٠٩ (٤٠٠) ، وإن كان البعض يفضل انهاء هذا العهد بوفاة الحكم الثاني المستنصر بالله سنة ٩٧٧ (٣٣٦) مستثنيا بذلك الدولة العامرية . (١) .

---

(١) وهي تشمل المنصور (٩٧٧ - ١٠٠٢/ ٣٦٦ - ٣٩٢) ، والمظفر بن المنصور (١٠٠٢ - ١٠٠٨ / ٣٩٣ - ٣٩٩) . وعبد الرحمن بن أبي عامر « شنجول » (١٠٠٨ - ١٠٠٩ / ٣٩٩) .

وخلال هذه الفترة الطويلة من الوجود العربي في الأندلس كانت الممالك الشمالية تنتقل من مرحلة التكوين إلى مرحلة البناء والتوسع . ولكن كل ماحققه الشماليون والخلافة قائمة كان عرضة للخسارة، وأراضيهم كانت مفتوحة لجيوش الخلافة كلما استفحل خطرهم ، كما حدث أيام محمد بن أبي عامر (المنصور) حين حرك جيشه الكبير ، الذى ضم أعدادا كبيرة من المرتزقة ، وهزم اتحادا عسكريا لممالك قشتالة وليون ونافار في روطة اليهود سنة ٩٨١ (٣٧٠) ثم شن فيما بعد حملة أخرى أخضع فيها برشلونة ، وعاود الكرة بعد ثلاث سنوات من الهجوم الأخير فاحتل ليون وسمورة وشن حملات ناجحة أخرى إلى أن توفى سنة ١٠٠٢ (٣٩٢) في مدينة سالم . وقد صب أحد مؤرخي برغش كل الغضب الشمالي على المنصور حين سجل في كتابه : « اليوم مات المنصور ودفن في الجحيم » .

وكان لابد لملوك الشمال من بناء قوتهم التي اضعفتها حملات المنصور فلجأوا لشن غارات سريعة للحصول على المال والخيول والمؤونة ، ودعم مركز جيوشهم التي كانت تسيطر على رقعة مستمرة الاتساع إلى أن انهارت الخلافة واصبح بمقدور ملوك الشمال فرض الجزية على حكام الطوائف ، وضرب بعضهم ببعض مستغلين نهج ذلك الوقت وهو : « الامارة ولو على الحجارة » . واستغل فرناندو الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٥ / ٤٢٦ - ٤٥٨) هذا الوضع ولكنه لم يحاول غزو الجنوب ؛ خشية أن يؤدي ذلك إلى اتحاد المسلمين . وحين جاء الفونصو السادس (١٠٧٢ - ١١٠٩ / ٤٦٥ - ٥٠٢) اتبع في البداية نهج سابقيه ولكنه أخذ يغالي في طلب الجزية من ملوك الطوائف إلى أن قل الذهب وبدأ غش العملة . وبحلول سنة ١٠٨٠ (٤٧٣) كان الطريق متاحا أمام الفونصو لكي يخطو خطوته التالية مستفيدا من الخلافات الداخلية التي دبت في طليطلة ، ودخل عاصمة القوط الغربيين السابقة بعد حصار استمر ست سنوات . واحتلال طليطلة كان أهم انجاز للممالك الشمالية حتى تلك السنة ، إذ كانت المدينة عاصمة الثغر الأوسط ومنها يمكن النفاذ إلى جميع مناطق الجنوب . أما بالنسبة للمسيحية فقد اعتبر احتلال طليطلة فوزا كبيرا للكنيسة ورفع من معنويات جيش قشتالة الذي استعاد المدينة بعد ٣٧٠ سنة من سقوطها بأيدى العرب . وهوجمت المدينة في فترات لاحقة ، وحوصرت أكثر من مرة ولكنها بقيت بأيدى القشتاليين ، وكانت نقطة تموين وامداد رئيسية في عمليات التوغل في الجنوب بعد ذلك .

ويذكر بعض المؤرخين أن عدد المدن والحصون التي سقطت مع طليطلة بلغ الثمانين ، إلا أن الفونصو لم يحاول استيعاب ماتملكه فعاود تجديد الضغط على ملوك الطوائف الآخرين مطالبا بمبالغ اضافية مع تسليم القلاع والحصون ، وبات من الواضح أن ملوك الطوائف غير قادرين على درء الخطر الشمالي بالاعتماد على قدراتهم الذاتية بعد ثلاثة أرباع القرن من انهيار الخلافة القرطبية ، وانحصر الخيار بجملة اسندت إلى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وهى « رعي البعير ولا رعي الخنازير » وبات الطريق ممهدا لاستدعاء أبي يعقوب يوسف ابن تاشفين سلطان المرابطين في المغرب .

وفي الثلاثين من حزيران سنة ١٠٨٦ ، عبر يوسف العدوة إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى بطليوس ، ومعه جيوش من اشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس ، والتقى بجيش الفونصو في منطقة تبعد خمسة أميال شمال شرق بطليوس ، وكانت نتيجة موقعة الزلاقة هذه انتصار العرب والحاق هزيمة مروعة بالفونصو الذى كان مشغولا قبل وصول الجيوش العربية بحصار سرقسطة . وبعد سنتين من هذه الهزيمة نزلت بالقوات الشمالية نكبة أخرى في موقعة أقليش ، وعاود يوسف ابن تاشفين الهجوم على الشمال فحاصر طليطلة والحصون المحيطة بها ولكنه لم يتمكن من فتحها . وحين عاد من غزواته إلى الجنوب بدأ عملية تصفية ملوك الطوائف بما فيهم المعتمد ابن عباد .

ومع مرور الوقت أيقن الشماليون بعقم محاولة التصدى للمرابطين ،لأن هؤلاء ادخلوا فنونا حربية لم تعرفها الأندلس من قبل مثل الجمّالة واستخدام الطبول لإصدار الأوامر والإشارات الحربية ، والهجوم العريض بالفرسان بدلا من المبارزات الفردية الشائعة ، واشتراك أعداد كبيرة من الزنوج وغيرها من العناصر التي دبت الذعر في الشمال الأندلسي والدول الأوروبية . وطوال عهد المرابطين لم يتمكن الشمال المسيحي من تحقيق أى تقدم حاسم إلى أن تغير الوضع أثر انحلال دولة المرابطين ، وتمكن الشماليون سنة ١١١٨ (٥١٢) من احتلال سرقسطة والمدن الرئيسية الأخرى التي تقع في الثغر الأعلى بمساعدة الفرنسيين والإيطاليين وغيرهم ، وتضاعفت بذلك الرقعة التى سيطر عليها الشماليون معززين مركزهم باحتلال طرطوشة سنة ١١٤٨ (٥٤٣) ، وتمكنت مملكة ارغون في السنة التالية من احتلال لاردة وافراغة وتوسيع حدودها حتى نهر ابرة . ولكن العمليات القتالية الشمالية لم تكلل كلها بالنجاح إذ حاول الفونصو السابع احتلال قرطبة بمساعدة سكانها من النصارى المستعربين فاخفق ، ولكنه توج حكمه باحتلال المرية ، فبقيت تلك العملية اوج انجازاته ، كما كان احتلال طليطلة اوج انجازات الفونصو السادس . أما باقي الصورة فكانت تراجعا جديدا أمام الموحدين .

استمر عهد المرابطين ستاً وثلاثين سنة هزل بعدها ، وقامت على انقاضه دولة الموحدين في الأندلس بين سنة ١١٤٥ و ١٢٢٣ (٥٤٠ – ٦٢٠) . بدأ الموحدون فترة سيادتهم بانهاء مابقي للمرابطين من سلطة واستعادوا مدينة المرية بعد عشر سنوات من سقوطها ، أى سنة ١١٥٧ (٥٥٢) . في الشمال جدد الفونصو الثامن (١١٥٨ – ١٢١٤ / ٥٥٣ – ٦١١) الحملات على الجنوب ، وبات يشكل خطرا كبيرا مما حمل الخليفة الموحدى أبي يوسف يعقوب المنصور على جواز العدوة إلى طريف في الثلاثين من نيسان ١١٩٥ (٢٥ جمادي الآخرة سنة ٥٩١) ومنها إلى اشبيلية ثم قرطبة فقلعة رباح التي تقع على بعد عشرة كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من المدينة الملكية وسط الأندلس . وفي الثامن عشر من تموز التقي الخليفة الموحدي مع جيش الفونصو في معركة سميت بالارك ، نسبة إلى حصن استخدمه الملك القشتالي لشن هجماته المتكررة على الأراضي الأندلسية ، فكانت هزيمة ساحقة لألفونصو الذي انسحب من المعركة جريحا ، وفر إلى طليطلة ومعه ٢٠ فارسا . أما الباقون فهربوا إلى الحصون القريبة واستسلم معظمهم .

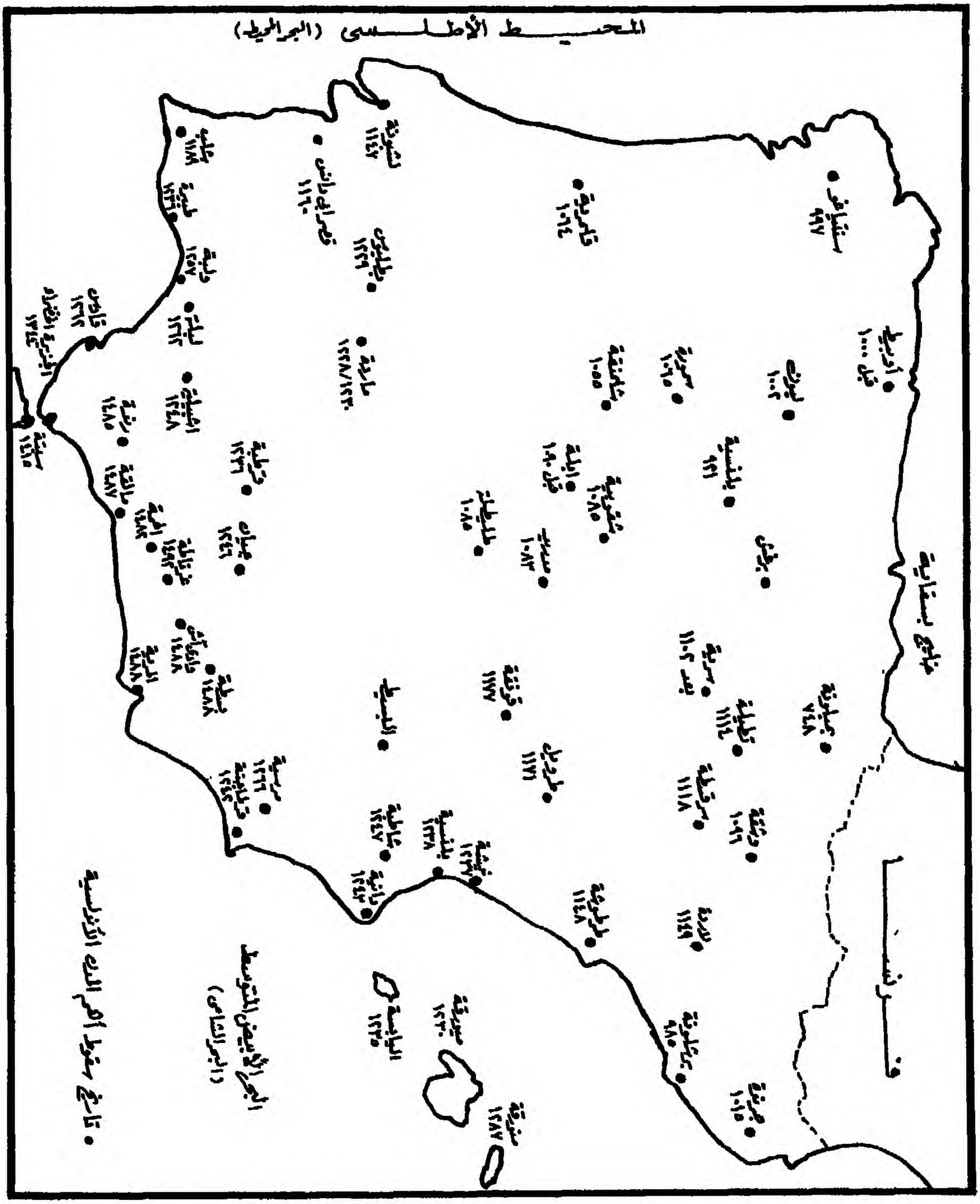
المحيط الأطلسي (البحر المحيط)

هذه النكسة على عظمها لم تلجم الفونصو الثامن طويلا ، إذ شرع اعتبارا من سنة ١٢٠٩ (٦٠٦) بمهاجمة بعض القواعد الأندلسية القريبة من منطقة سلطانه في فترة تميزت بتأجج الحماس الديني في أوروبة ، وتنادت الكنيسة لنجدة الممالك المسيحية في الشمال الأندلسي ، وأصبحت الفرصة مواتية لشن هجوم واسع النطاق على الدولة الإسلامية . وفي العشرين من حزيران ١٢١٢ (٦٠٩) انطلقت جيوش قشتالية وارغونية وفرنسية من طليطلة ومعها اوروبيون آخرون باتجاه سهل يقع جنوب غربي حصن العقاب إلى الشمال من مدينة جيان ، والتقت هذه الجيوش مع جيش الموحدين والأندلسيين في السادس عشر من تموز (١٤ صفر) ودارت معركة فاصلة انتهت إلى هزيمة الموحدين والأندلسيين وانفتح الباب على مصراعيه لاجتياح الجنوب . تلك كانت نقطة تحول رئيسية في التاريخ الأوروبي ، وقد حاول الاسبان فيما بعد تلفيق نسبهم ، لاثبات أن أحد جدودهم اشترك في معركة العقاب ، لأن ذلك كان طريقا سريعا لاحتلال المناصب العالية . أما الخليفة الموحدى محمد الناصر لدين الله فقد عاد إلى اشبيلية ثم إلى مراكش حيث توفاه الله في السنة التالية .

انهزم الموحدون في معركة العقاب ، وتوقف العون الذى قدمته المغرب إلى الأندلس ، وكان على الأندلسيين السعي لوقف الزحف الشمالي بقواهم الذاتية ، ولكن ذلك لم يكن سهلا على دولة تكفل الآخرون بحمايتها منذ سنة ١٠٨٦ (٤٧٩) ، كما لم يكن الأمر سهلا كذلك على المغرب التي دفعت بالجيش تلو الآخر لدرء خطر الشماليين حتى انهكت قواها . وطوال هذه الفترة كانت الحروب مع مسيحي اوروبة ومع الكنيسة الرومية وليس فقط مع الشماليين ، اضافة إلى ان استمرار المعارك حوّل الشمال الأندلسي إلى مجتمع مؤلف من مقاتلين أو كهنة . الفئة الأولى فيه لاتعرف سوى الحرب مصدرا للثروة ، والثانية لاتريد أن تتوقف قبل القضاء على الوجود العربي الإسلامي فى الأندلس . ورغم أن مقاومة الأندلسيين كانت خارقة إلا أن قواهم الذاتية كانت أضعف من أن تتصدى للمد الصليبي الشمالي ، وهكذا دخلت الأندلس مرحلة التصفية قبل النهائية .

حقق الفونصو الثامن الموصوف « بالنبيل » انتصاره الحاسم على الموحدين في معركة العقاب ، ولكن الفتوحات الشمالية في الجنوب كانت من نصيب فرناندو الثالث (١٢١٧ – ١٢٥٢ / ٦١٤ – ٦٥٠) الذي تمكن من احتلال قرطبة في التاسع والعشرين من حزيران سنة ١٢٣٦ (٢٣ شوال ٦٣٣) ، والحقها باحتلال جيان (١٢٤٦ / ٦٤٣) ، ثم اشبيلية (١٢٤٨ / ٦٤٦) ، وقلص بذلك السلطة الإسلامية في المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة . وخلال هذه الفترة السوداء من التاريخ الإسلامي كانت ارغون والبرتغال تتقدمان باتجاه الجنوب لترسما حدودهما الجديدة . وكما توفر لقشتالة ملك قدير مثل فرناندو الثالث ، فقد توفر لارغون ملك لايقل قدرة وهو خايمي الأول الملقب « بالغازى » (١٢١٣ – ١٢٧٦ / ٦١٠ – ٦٧٥) الذي احتل جزيرة ميورقة بمساعدة الإيطاليين سنة ١٢٢٩ (٦٢٧) ، واستكمل في السنوات الخمس التالية احتلال الجزائر الشرقية قبل أن يسجل انتصاره الكبير باحتلال مدينة بلنسية سنة ١٢٣٨ (٦٣٦) والسيطرة على مرسية في المرة الأولى بعد خمس سنوات . وما إن حلت سنة ١٢٥٣ (٦٥١) حتى انشغلت مملكة ارغون ببناء امبراطوريتها في بعض مناطق البحر الأبيض

المتوسط . أما البرتغال فقد استولت على مدينة طبيرة الجنوبية سنة ١٢٣٦ (٦٣٣) وراحت تعد نفسها لمرحلة تالية من تاريخها الذي ستفتح فيه بحار العالم .

وازاء هذ الوضع المتردي جمع الأندلسيون كل قواهم الذاتية وقاموا بانتفاضة شعبية شاملة في حزيران سنة ١٢٦٤ (٦٢٢) ، واستعادوا مناطق كثيرة بينها مدينة مرسية التي احتفظوا بها حوالي السنتين قبل أن يحتلها خايمي الأول ثانية بطلب من ابنته زوجة الفونصو العاشر ،الذي خلف والده في عرش قشتالة سنة ١٢٥٢ (٦٥٠) .

أ – سقوط غرناطة :

سقطت مدينة مرسية للمرة الثانية سنة ١٢٦٦ ، واعتبر ذلك التاريخ نهاية استكمال الممالك الشمالية المسيحية للأندلس وماتبقي في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة ايبرية كان خاضعا للجزية ، ومحصورا بشكل أساسي في مملكة غرناطة . ومع انتهاء مرحلة التوغل الكبير في الجنوب الأندلسي ، انصرفت ارغون إلى بناء امبراطوريتها في البحر الأبيض المتوسط تاركة عملية استكمال احتلال الأندلس لملوك قشتالة ، وإن كان دعم ارغون لجارتها في الحروب التي دارت في فترات لاحقة مع الأندلسيين لم يتوقف . البرتغال أيضا نهجت طريقا منفصلا عن قشتالة ، وبرزت كيانا متميزا منذ اعتراف البابا بها بمملكة مستقلة سنة ١١٧٩ ، وما إن حلت سنة ١٢٣٦ حتى كانت البرتغال قد أخذت مدينة طلبيرة الساحلية في الجنوب منهية بذلك توسعها ، وراسمة حدودها التي بقيت بصورة عامة على الحال الذي انتهت إليه تلك السنة . وفي السنوات بين ١٢٩٧ و ١٣٢٥ عمل الملك ديونيسوس الأول الملقب « بالعامل » على تطوير البنية الاقتصادية لمملكته معتمدا على توسيع نشاطات التعدين والملاحة والتجارة ، وتابع من جاء بعده نفس الطريق واستمر الصراع مع قشتالة للاحتفاظ باستقلالية البرتغال حتى سنة ١٣٨٥ ، عندما انتصر البرتغاليون على القشتاليين في المعركة المعروفة بإسم « الجبروت » . وفي عهد الملك يوحنا الأول (١٣٨٥ – ١٤٣٣) بدأت فترة توسع كبيرة نحو افريقية ، كانت فاتحتها احتلال مدينة سبتة سنة ١٤١٥ ، ثم كان للبرتغال بعد ذلك دورها المعروف في الإتجاه إلى مصادر التوابل في الشرق الأقصى ، والتوسع في العالم الجديد .

بين سقوط مرسية واستسلام غرناطة ٢٢٦ سنة ، والتساؤلات حول سبب وجود هذه الفجوة التاريخية الهائلة من « خمود » توقد الإحتلال الشمالي للأندلس كثيرة . فبعض المؤرخين يقولون ان قشتالة لم تكن تملك القوة الكافية للإستمرار في توغل منتصف القرن الثالث عشر ، إذ افتقدت الممالك الشمالية إلى الوحدة التي تمكنها من استكمال احتلال الجنوب اعتبارا من سنة ١٢٧٥ ويعتقد البعض الآخر أن السبب يكمن في الجزية التي كانت قشتالة تحصلها ، والرغبة في المحافظة على تلك المملكة الأندلسية لأنها كانت الطريق الوحيد لانتقال ذهب افريقية إلى شبه جزيرة ايبرية . وهناك من يقول إن خمود القتال في الجنوب الأندلسي يعود إلى انتهاء فترة الحماس الدينى الذى توقد خلال الحملات الصليبية ، أو أن

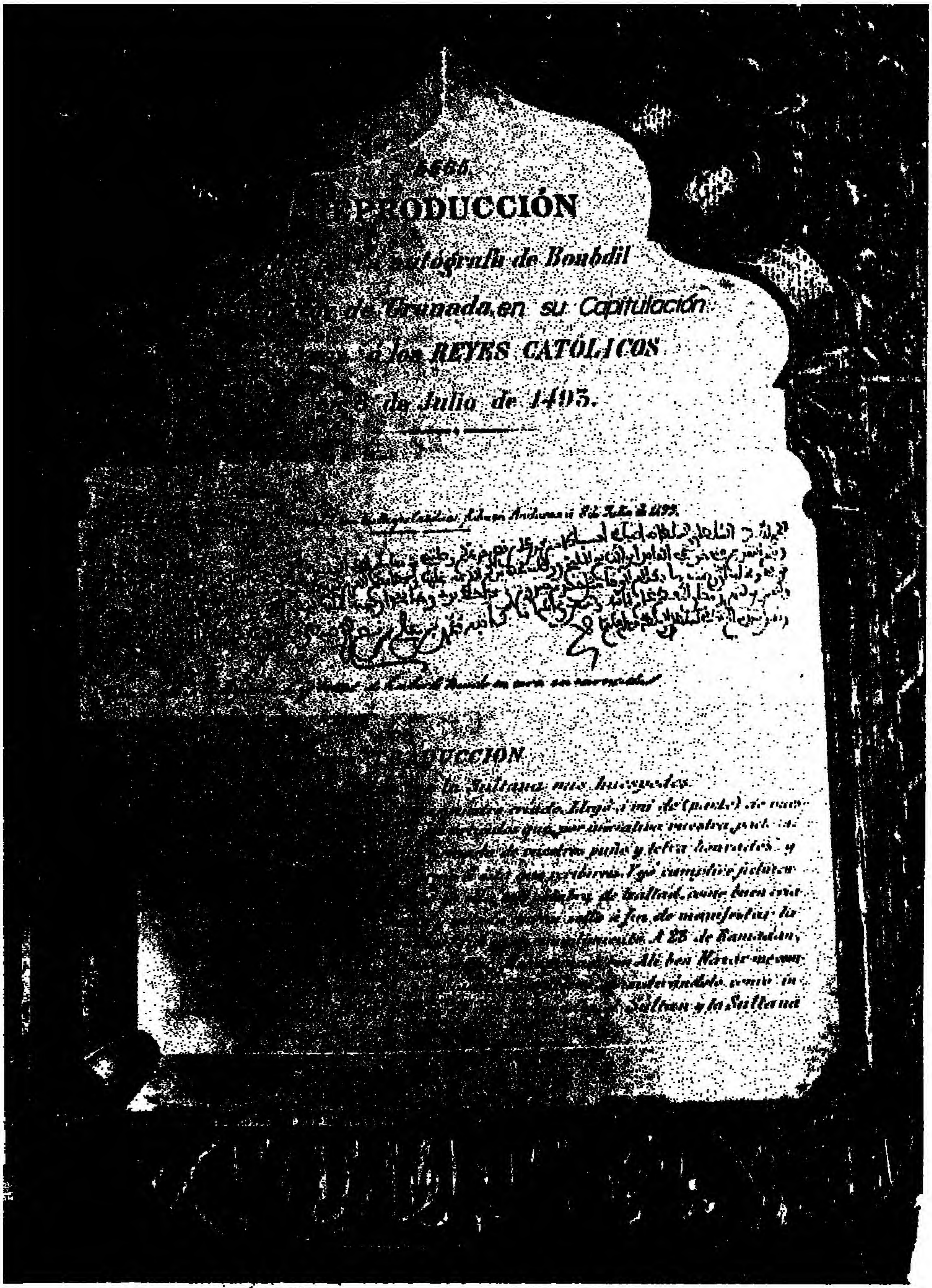

اقرار ابو عبد الله محمد بتسليم مدينة اندرس فى الثامن من آيار سنة ١٤٩٣ (المتحف الحربي ،مدريد) يلاحظ أن عنوان الوثيقة غير من جملة .. ترك المدينة .. إلى استسلام الدرش .. انظر الوثيقة ذاتها في صورة أقدم في التاريخ الأندلسي .. للدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، ص٥٥٥ .

الهجوم على غرناطة كان سيؤدي إلى العودة لدق طبول الحرب في المغرب وفتح صفحة جديدة من الحرب المنتقلة دائما عبر العدوة . وهناك بالطبع من قائل بأن غرناطة كانت تملك من القوة مايمكنها من وقف تقدم قشتالة . ولكل هذه التساؤلات نصيب من الواقعية وكثرتها ليست أمرا غريبا على حقبة تاريخية مايزال بعض المؤرخين يتساءلون معها : لماذا حدث تقدم الشماليين نحو الجنوب في أول الأمر ؟ الشق الثاني من التساؤلات يدور حول أسباب تجدد القتال مع غرناطة آخر القرن الخامس عشر . فالبعض يقول إن ذلك حدث في فترة تجددت فيها الروح الصليبية ، وخاصة منذ سقوط القسطنطينية سنة

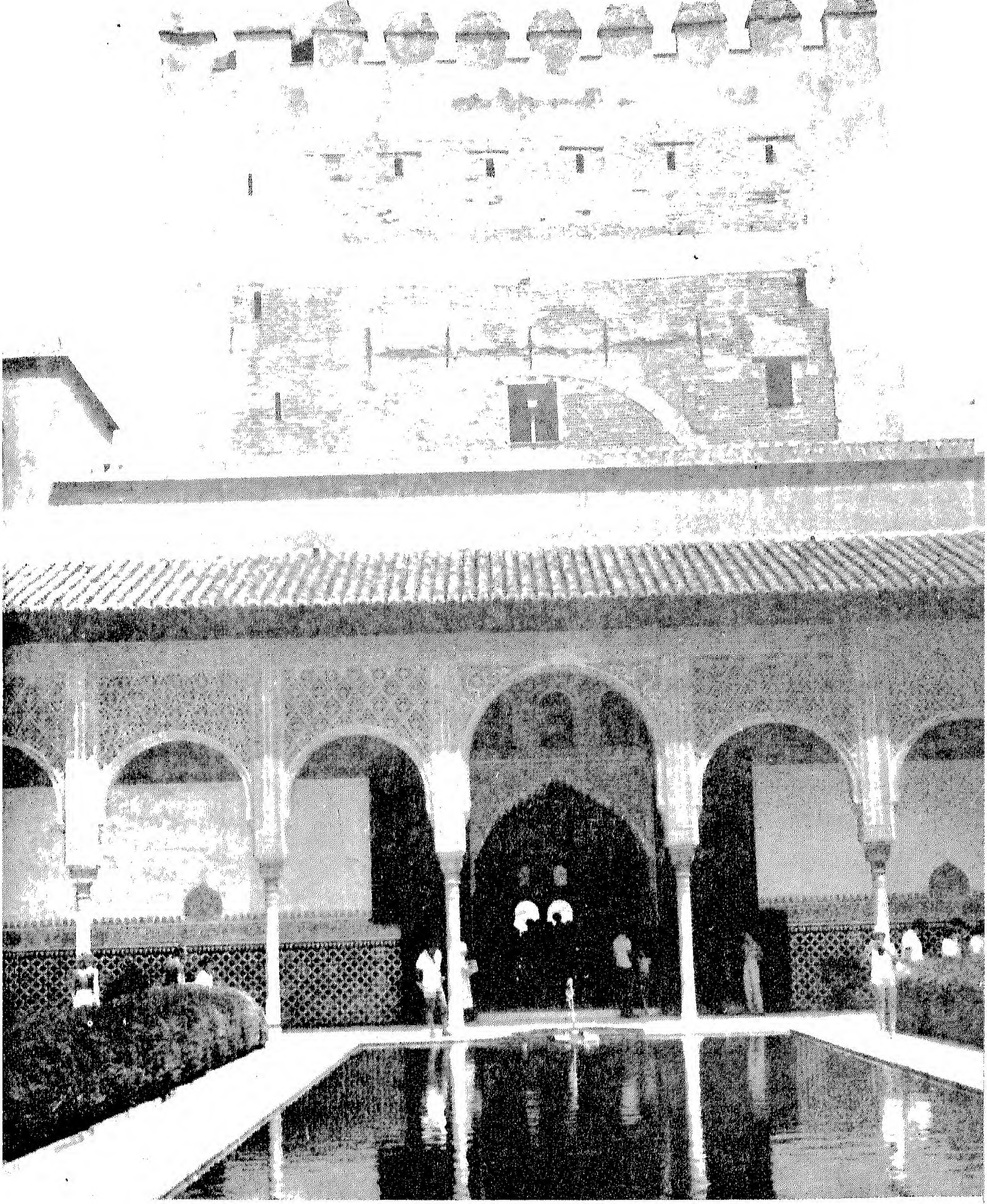

قصر الحمراء (غرناطة)

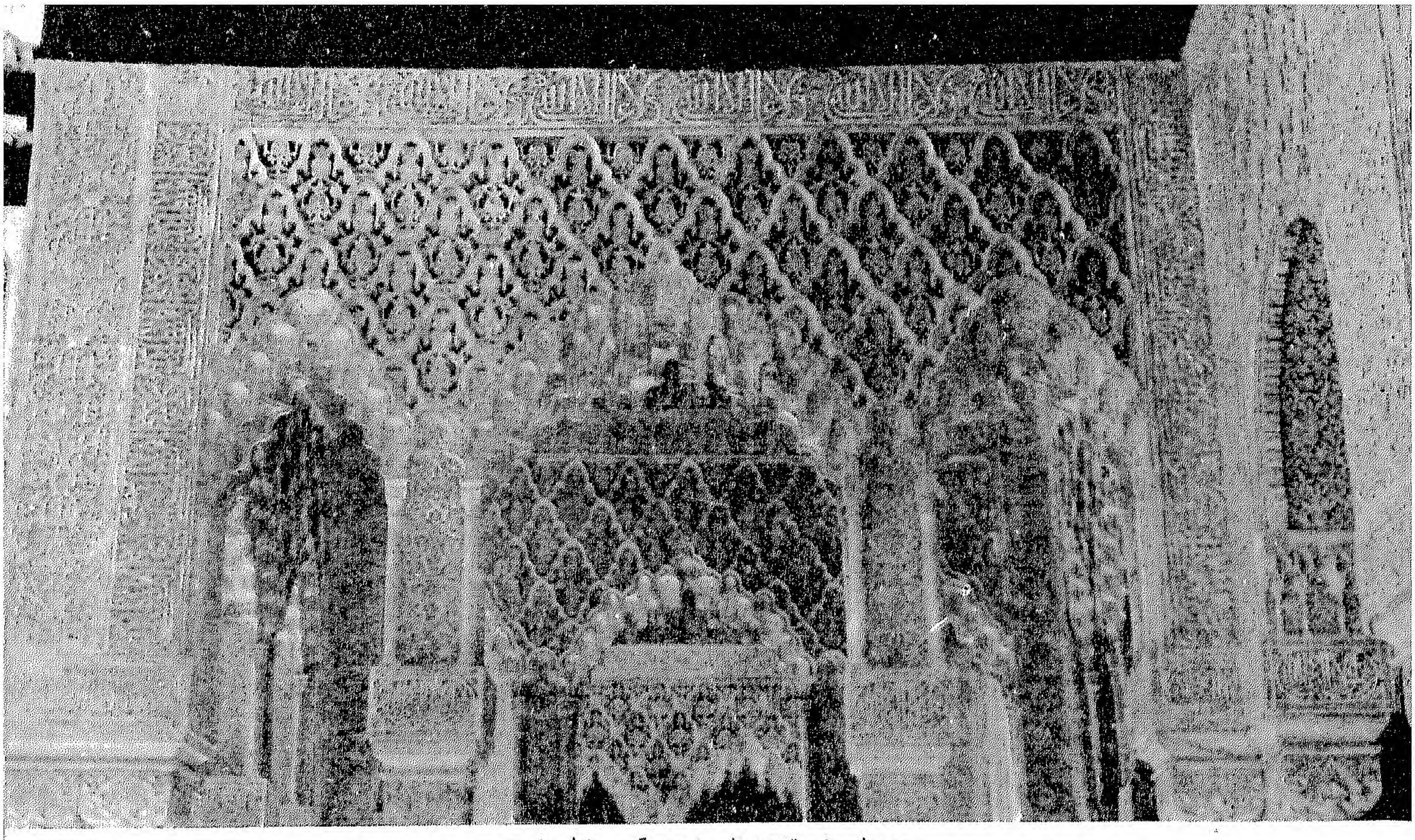

زخارف في قاعة السباع (قصر الحمراء)

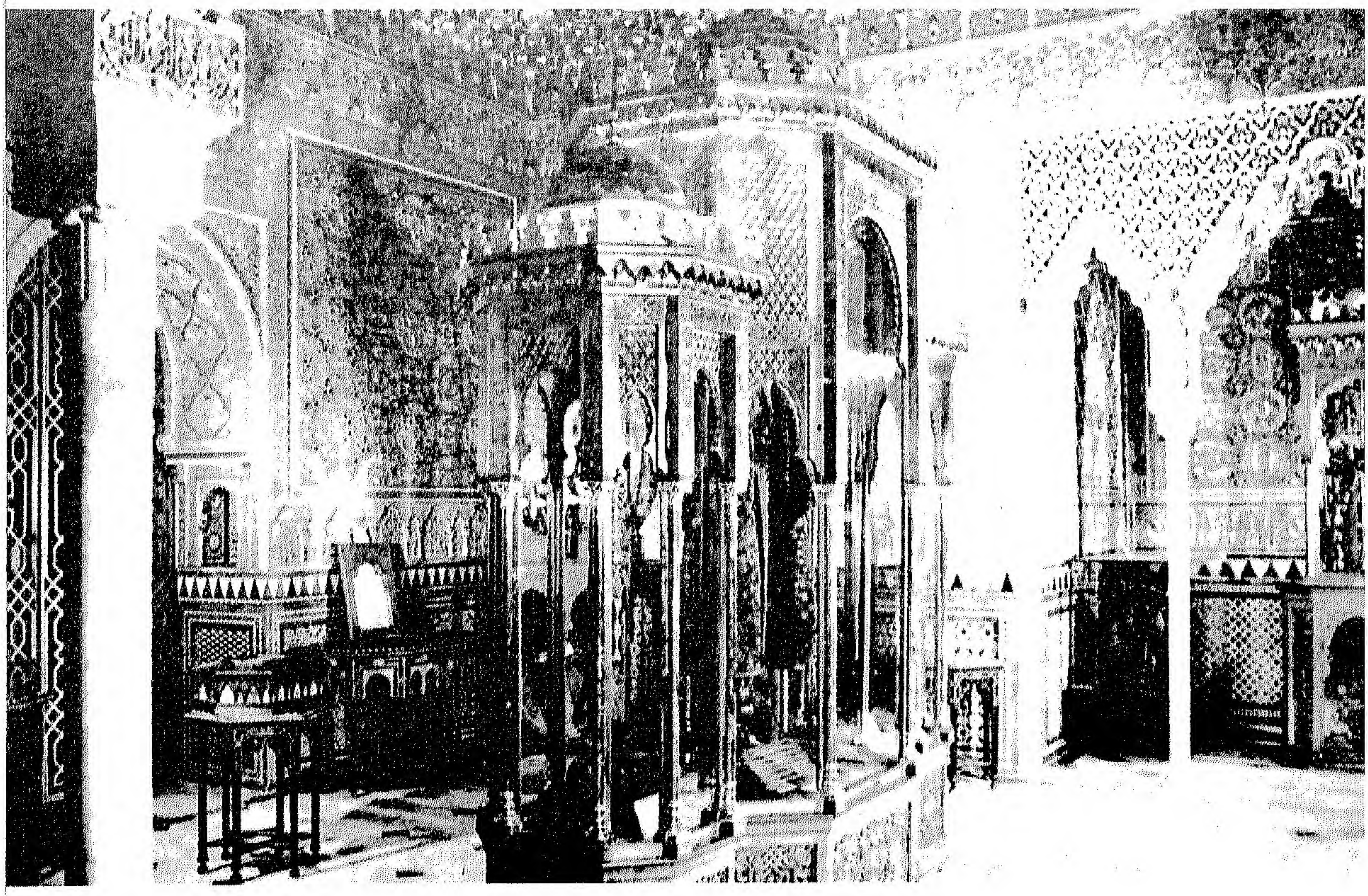

الغرفة الغرناطية في المتحف الحربي (مدريد)

جنة العريف (غرناطة)

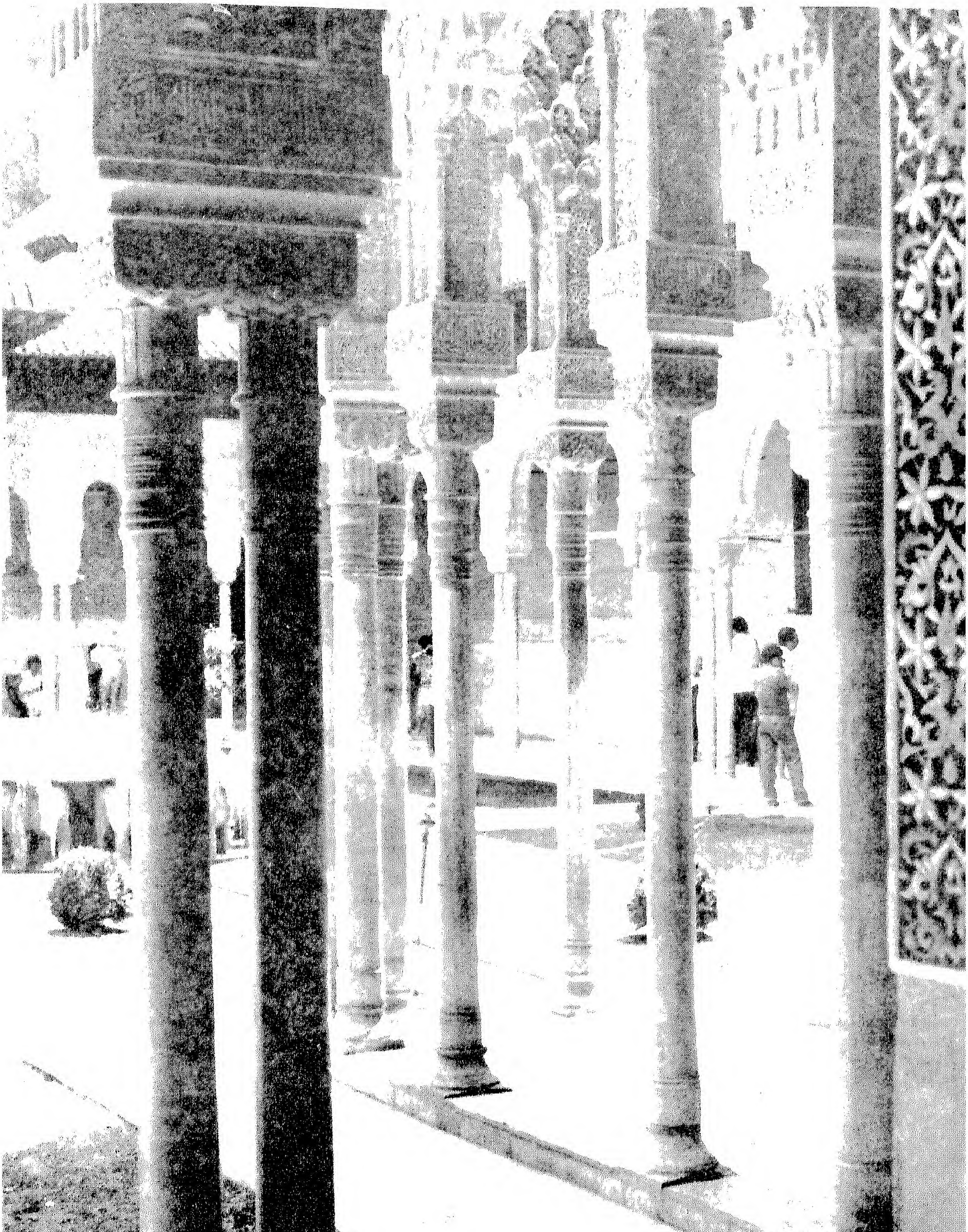

اعمدة رخامية في قاعة السباع (قصر الحمراء)

١٤٥٣، فعادت الكنيسة تحث قشتالة والممالك المسيحية الأخرى في اوروبة على التضامن لتحقيق انتصار جديد على الجبهة الصليبية الغربية ، كما كان يحدث في الماضي . والدعم الذى قدمته كنيسة روما لتحقيق الانتصار على غرناطة هائل ، وماكان ليتحقق بدونه كما رأينا خلال مناقشة دور الكنيسة في سقوط الأندلس . السبب الثاني يتناول مخاوف قشتالة وارغون البرتغال من وجود غرناطة رأس حربة يستطيع العثمانيون استخدامها للتوغل في أوروبة ، كما حدث مع امتداد الفتح العربي عبر الشمال الأفريقي إلى أوروبة ، أو على الأقل الخشية من اتفاق أهل غرناطة مع العثمانيين لنقل الحرب بين المشرق وأوروبة ، وضرب الجبهة الغربية للنفاذ إلى الممالك الأوروبية في الشمال وتُرجع أسباب أخرى واقع تجدد الحرب إلى الجو السياسي في قشتالة نفسها.فالملكة ايزابيلا اعتلت عرش قشتالة سنة ١٤٧٤ ، وورث زوجها فرناندو عرش ارغون سنة ١٤٧٩ ، وضمن اتحادهما الشخصي رص صفوف المملكتين للمرة الأولى . وفترة الإتحاد تلك اتسمت بعملية اصلاح واسعة ، كانت انعكاسا لطموح ايزابيلا في بناء مملكة قوية ،وماكانت لتكتمل دون إخراج الأندلسيين من غرناطة ، أو القضاء على وجودهم السياسي فيها . وبسط النفوذ السياسي لايزابيلا تضمن القضاء على أية معارضة حقيقية لها بين النبلاء وعلية القشتاليين . وبما أن ممالك شبه جزيرة ايبرية كانت تعود لقتال بعضها بعضا فور انتهاء المعارك مع الأندلسيين ، فإن ايزابيلا نظرت إلى تجديد الحرب مع غرناطة سبيلا إلى تحويل كل الطاقات نحو أهل غرناطة ، وهذا منهج معروف في السياسية الدولية ، ولطالما وحدت الحرب مالايمكن توحيده في السلم ، ولطالما لجأت الدول إلى شن الحرب على دول أخرى لمجرد تحويل الأنظار عن ضعف داخلي معين .

ومايهمنا هنا هو أن ايزابيلا وفرناندو استغلا اندلاع الخلاف بين أفراد الأسرة المالكة في غرناطة وحركا آلة الحرب مرة أخرى ضد الأندلسيين ، بعد أكثر من قرنين من الخمول النسبي للحرب بين الجانبين . وامتدت الحرب هذه عقدا كاملا من الزمن بين سنة ١٤٨١ و ١٤٩١ ، وبدأت بإحتلال المدن الرئيسية في مملكة غرناطة ، وضرب الحصار على السواحل باستخدام أساطيل البرتغال وارغون وايطاليا ، لمنع وصول الامدادات من الشمال الأفريقي إلى المملكة . وبنهاية العقد انحصرت الحرب في المنطقة المحيطة بمدينة غرناطة ، وضيقت القوات التي تقاتل تحت لواء قشتالة الخناق على المدينة المحاصرة بعد أن أحرقت قوة من ٣٠ ألف شخص الزرع في المنطقة وقلعت الشجر . كانت الجيوش تنزل إلى الميدان في فصلي الربيع والخريف ولم يكن ليخلو يوم من النزال بين فرسان غرناطة وبين فرسان المسيحية ، والتاريخ الأسباني يضج بأنباء هذه الجولات ولقاء الفرسان مع الفرسان . ولكن الحرب لم تكن وفق تقاليد الماضي فالمدفعية في تلك الفترة استخدمت على نطاق أوسع من البداية المتواضعة التي ظهرت في موقعة طريف سنة ١٣٤٠ (٧٤١) ، حين استخدم العرب مدفعا جلبوه من دمشق ، واعتمدوا البارود قوة للدفع لأول مرة . وهكذا لجأت ايزابيلا إلى استقدام خبراء المدفعية من المانيا وايطاليا وكانت المدفعية تقذف حممها على غرناطة وترسم نمط حروب المستقبل ، لأن استخدامها كان على نحو لم تشهده اوروبة حتى تلك الفترة (١) . ولكن القتال كان مرتفع النفقات ، إذ احتاج استجلاب المدافع إلى شق الطرق وبناء الجسور فكثر

---

(١) عرف نوع المدافع المدمرة التي استخدمت ضد غرناطة ومالقه باسم لومبارد (Lombards)وكان من أشدها تأثيرا مدفع سمي « الخوات حيمييث السبع » .

اقتراض ايزابيلا من البابا ومن الممولين الإيطاليين والألمان واليهود ، ولم تكن الحرب مع غرناطة بالسهولة التي تصورتها قبل تقرير شن الحرب ضد آخر الممالك الإسلامية .

ولعل أحد أسباب صمود مملكة غرناطة يعود إلى طبيعة نموها التاريخي منذ منتصف القرن الثالث عشر إذ حاولت غرناطة تجنب الصدام مع قشتالة بشتى الوسائل ، بما فيها دفع الجزية والتنازل عن بعض المناطق الاستراتيجية ، وحتى التعاون العسكرى مع القشتاليين ، ولكن ذلك لم يوقف التغلغل القشتالي في الجنوب . كانت هذه سياسة اتبعها الشيخ محمد (الأول) ابن الأحمر « الغالب بالله » مؤسس مملكة غرناطة (١٢٣٨ - ١٢٧٢ / ٦٣٥ - ٦٧١) ، وكثيرون ممن خلفوه في حكم آخر الممالك الإسلامية في الأندلس المقهورة ، فنجحت حينا واخفقت حينا آخر .

وفي لحظات اشتداد الضغط القشتالي لجأ حكام غرناطة إلى الاستنجاد بسلاطين المغرب كما حدث عندما قاد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب « بالمنصور » جيشا سنة ١٢٧٥ (٦٧٣) عبر به الزقاق وهزم القشتاليين قرب مدينة استجه،ثم عبر الزقاق ثلاث مرات بعدها لوقف القشتاليين عند حدود غرناطة . وفي فترات أخرى ساهمت مشيخة الغزاة المغربية في مساعدة أهل غرناطة على صد الشماليين . وكان قادة المشيخة من أقارب السلطان المريني ولكن العلاقات بين السلطتين ، الغرناطية والمغربية ، لم تكن جيدة على الدوام.ونمت في أوقات أخرى أزمة من عدم الثقة شبيهة بأزمات مماثلة سابقة بين الأندلسيين وكل من المرابطين والموحدين الأمر الذى زاد من ضعف غرناطة وفتح الطريق لتوغل الشماليين ثانية .

وفي بداية القرن الرابع عشر دخلت غرناطة وقشتالة مرحلة جديدة من الصراع ، وتمكنت قوات بحرية من قشتالة وارغون والبرتغال من إحراز انتصار حاسم على غرناطة سنة ١٣٤٠ (٧٤٠) ، ودخلت قوات مشتركة للممالك المسيحية الثلاث اراضي المملكة الإسلامية . وأمام هذا التطور المفاجىء ، توجه السلطان المريني أبي الحسن على بن أبي يعقوب على رأس جيشه المغربي،وسلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف الأول على رأس جيش غرناطة ، ونشبت بين الجبهتين معركة حاسمة في الثلاثين من تشرين الأول (السابع من جمادى الأولى) ، انتهت إلى هزيمة القوات الإسلامية.وربما فقد المرينيون في معركة طريف هذه مصحف عثمان ، وانقطع المدد المغربي عن الأندلس ، وضعف شأن السلطان في المغرب وتركت غرناطة تواجه قشتالة وحدها باستثناء معونات بسيطة فيما بعد .

ورغم هذه التطورات السلبية المتلاحقة ، إلا أن غرناطة تمكنت من الإستمرار ١٥٢ سنة بعد معركة طريف ، ونعمت بفترات طويلة من السلام والإزدهار ، وتطورت فيها العلوم والصناعات والحضارة التي تشهد عليها الآثار المتبقية حتى اليوم في عاصمة بني الأحمر ، الذين اكتسبوا صفتهم هذه بسبب شقرة شعر مؤسسها . ولأن غرناطة كانت الملاذ الأخير للنازحين من المناطق التي وقعت تحت سيطرة ممالك الشمال ممن رغبوا في البقاء في الأندلس وعدم جواز العدوة ، فقد تجمع في مملكة غرناطة على مدى

السنين أكثر من مليون أندلسي ، ورحل إليها من اشبيلية وشريش وقادس حوالي ٣٠٠،٠٠٠ شخص ومن مملكة بلنسية حوالي ٥٠،٠٠٠ شخص ، بالإضافة إلى أعداد كبيرة أخرى من المناطق التي احتلتها ممالك الشمال . وكانت القوة التى تجمعت لدى غرناطة كافية لمحاولة بعض حكام المملكة الإسلامية التصدى للشماليين ، ووقف تقديم الجزية لهم الأمر الذى أدى إلى نشوب معارك متقطعة اثبت فيها الأندلسيون قدرتهم على وقف المد الشمالي والإحتفاظ بمعظم الأراضي التي قامت عليها دولة بني الأحمر في البداية ، وان جنح كثير من ملوك غرناطة إلى دفع الجزية ثمنا لاستمرار السلام ، ووصلت في بعض الأوقات إلى ١٢،٠٠٠ قطعة ذهب .

وعندما اختارت الملكة القشتالية ايزابيلا فتح باب الحرب مع غرناطة ، كانت تتصدى لسكان ماتزال مآسي النزوح عن الأوطان ماثلة في عقولهم ، ومقاتلين يعرفون أن غرناطة ملاذهم الأخير ، بالإضافة إلى أن أهل غرناطة لم يفقدوا الأمل بأن المدد من خلف العدوة سيتوفر إذا ساءت الأمور ووصلت مرحلة خطرة مما زاد من صلابتهم التي عززتها تحصينات عسكرية كبيرة وبراعة فائقة في القتال . ولكن توفر هذه العناصر المهمة لدى سكان غرناطة قابلها توفر امكانات هائلة لايزابيلا وزوجها فرناندو ، سواء من ناحية الجيوش أو حديث الخبرات العسكرية التي عرفت في ذلك الوقت ، أو المبالغ الهائلة التي وظفت للقضاء على غرناطة . ولذا فإن العقد الأخير من حياة تلك الدولة الإسلامية كان داميا وعصيبا وحاسماً .

بدأت مرحلة توتر العلاقات بين غرناطة وقشتالة المتحدة مع ارغون في شخص فرناندو وايزابيلا عندما حاولت الملكة القشتالية فرض شروط ثقيلة على أبى الحسن علي بن سعد (١٤٦٣ – ١٤٨٢ / ٨٦٨ – ٨٨٧) ، فرفض قبول الشروط وامتنع عن دفع الجزية مبلغا سفير ايزابيلا بأن ملوك غرناطة اللذين تعودوا دفع الجزية ماتوا ، وان دار السك لاتنتج إلا السيوف هذه الأيام . ولكن ايزابيلا لم تكن بحاجة إلى سبب لإشعال الحرب مع غرناطة ، وقد حشدت جيوشها مسبقا للصدام مع المملكة . وإثر عمليات عسكرية متفرقة تمكن مركيز قادس من احتلال قلعة الحمة جنوب غربي غرناطة سنة ١٤٨٢ (٨٨٧) وأخذ الجانبان يشنان غارات متفرقة على مواضع بعضهما دون احراز أي نصر رئيسي . في هذه الأثناء دب الخلاف بين أبي الحسن وابنه وانتهى إلى استفراد الابن بالسلطة سنة ١٤٨٢ (٨٨٧) . غير أن أبا عبد الله محمد (الحادى عشر) اسر في السنة التالية جنوب شرق قرطبة،فتولى الحكم عمه أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) وبدأ مرحلة جديدة من الصراع ضد قشتالة . أطلقت ايزابيلا سراح أبي عبد الله محمد الملقب « بالملك الصغير » سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) مقابل شروط غير معروفة ؛ فعاد يطالب عمه بالسلطة الامر الذى أدى إلى إندلاع الخلاف بينهما ثم الحرب الفعلية ، مما اسفر عنه شطر غرناطة ، فعمد العم إلى ابرام اتفاق مع ايزابيلا سنة ١٤٨٩(٨٩٥) ، وغادر غرناطة إلى تلمسان في العدوة . وخلال سنوات الاقتتال الداخلي هذه تمكن فرناندو من احتلال رندة سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) ومالقة سنة ١٤٨٧ (٨٩٢) إلى أن بدأ حصار مدينة غرناطة في نيسان سنة ١٤٩٠ (٨٩٥) وبات من الواضح أن أيام آخر الممالك الإسلامية في الأندلس معدودة .ومع ذلك فإن دعوة الرحيل يمكن أن تعطي الإنطباع بأن البعض ، لو خير بين الشماليين والرحيل ، لاختار الرحيل ولتوقفت غرناطة عن كونها الوطن الوحيد لهؤلاء .

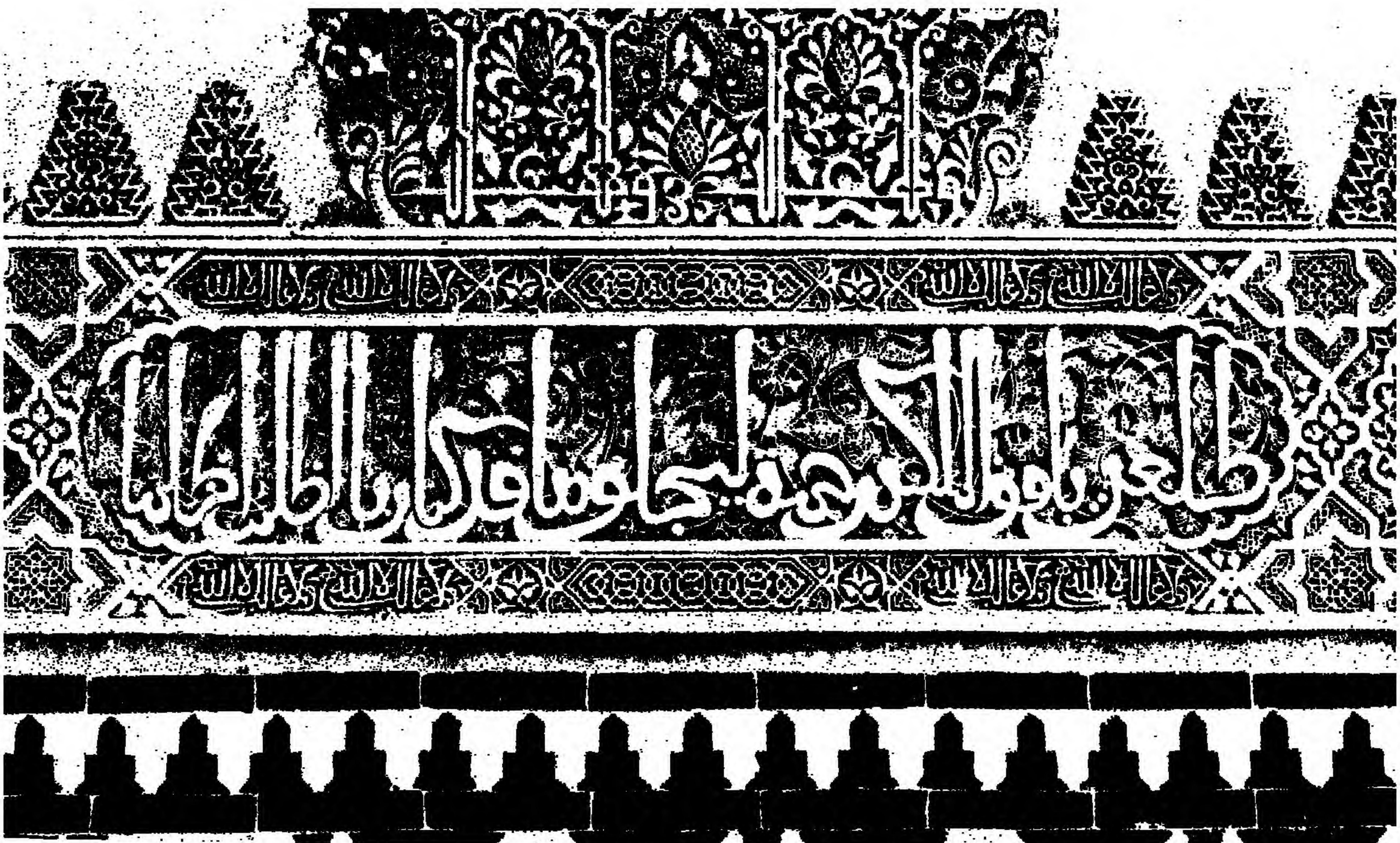

زخارف على أحد جدران الحمراء . ولعل أصل البيت :

طلعت بأفق الملك (للناس) رحمه   ليجلو ماقد كان بالظلم أظلما

والخيار الذى كان مطروحا أمام أهل غرناطة الاستمرار في القتال دون أمل بتحقيق الإنتصار ، أو الإستسلام . ولكن التطورات اللاحقة قصرت الخيارين على الأخير ، وبدأت مباحثات التسليم ثم قدم موعد التنازل عن المدينة إلى الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ (الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧) ودخلتها ايزابيلا وفرناندو بعد ذلك بستة أيام . ولم يكن خيار التسليم مقبولا لدى الجميع إذ فضل موسى بن ابي الغسان ألا تكون له أية علاقة بما قبل به الملك الصغير ، فخرج من باب البيرة ولم يسمع عنه منذ ذلك التاريخ . وينقل ارفنج عن القس انطونيو اجاييدا (١) مصير موسى فيقول : أن سرية من فرسان قشتالة التقت به على ضفة نهر شنيل : « فلما رأوه يعدو على ذلك النحو طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه . فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم ، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه من سرجه فألقاه على الأرض ، ثم انقض على الباقين . وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل دون رغبة في أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان حتى أفنى أكثر من نصفهم . غير أنه جرح في النهاية جرحا خطراً ، ثم سقط جواده من تحته قتيلا بطعنة أخرى ، فسقط على الأرض ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يناضل عن نفسه ، فلما رأى قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيرا في يد خصومه ارتد إلى ورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعه لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق . ويقول القس إن الفارس هو موسى بن إلى الغسان ، وإن بعض العرب المتنصرين في المعسكر الأسباني عرفوا جواده المقتول » .

(١) أوردها محمد عنان في « مواقف حاسمة » عن واشنطن ارفنج « احتلال غرناطة » الفصل ٩٧ . كما ترد قصة موسى في عدد من المراجع العربية وفي الجزء الثالث من مؤلف خوسيه كوندي « تاريخ السيطرة العربية في اسبانيا » . (أنظر المصادر) .

ب – توزع الأندلسيون بعد سقوط غرناطة :

قبل أن نبدأ الحديث عن عدد من بقي من الأندلسيين. تحت حكم قشتالة وارغون وأماكن تجمعاتهم ، لابد من الإشارة إلى أن جميع الأرقام التي وصلت إلينا من تلك الفترة لاتتسم بالدقة ، ولاسيما بالنسبة لاحصاءات قشتالة أو تلك الواردة من مصادر قشتالية . النقطة الثانية هي أن معظم المؤرخين في تلك الحقبة البعيدة من الزمن كانوا عمال الملوك يأتمرون بأمرهم ويظهرون أو يخفون مايريده أصحاب نعمتهم ، ولذا فليس من المستبعد أن يكون النهج في ذلك الوقت خفض عدد الأندلسيين ممن بقوا بعد سقوط غرناطة والتقليل من شأنهم ، وتجاهل معظم الحقائق المتعلقة بعددهم وامكاناتهم أو موقفهم تجاه السلطات القشتالة . هذا بالطبع خلاف الصعوبة الناتجة عن بدائية عمليات الإحصاء في تلك الفترة والانخفاض الذى كان يلحق بعدد السكان نتيجة الأوبئة وعمليات اعادة توزيع السكان بسبب الحروب والقحل وغيرها من الأسباب .

والمعروف أن الأندلسيين كانوا يشكلون الأغلبية في كل المناطق الواقعة جنوب نهري دويرة وابرة . وعندما احتل الفونصو السادس طليطلة سنة ١٠٨٥ ، بقيت أعداد غير معروفة من الأندلسيين في المدينة ، ولابد أن يكون العدد كافيا لكي يُسوغ لألفونصو الأدعاء بأنه سلطان « الملتين » أى الإسلامية والنصرانية . ومع تقدم قوات الشمال باتجاه وسط الأندلس في القرن الثالث عشر نزح مئات الآلاف من المدن والقرى باتجاه الجنوب ، أو رأى البعض منهم أن الانتقال إلى مدينة أخرى مما تبقى من الأندلس تحت سيطرة العرب ، سيكون مجرد خطوة في الطريق إلى نزوح آخر ، ولذا انتقلوا إلى العدوة المغربية فور نزوحهم الأول أمام اصرار فرناندو الثالث أو خايمي الأول على اخلاء المدن من السكان الأندلسيين ، أو بسبب المذابح التى ارتكبها جنود الشمال وأدت إلى زيادة حدة عملية اخلاء المناطق المحتلة . أما أكبر عملية نزوح جماعية وقعت في القرن الثالث عشر فكانت عندما سقطت أشبيلية والمدن القريبة منها . ويعتقد الآن أن عدد النازحين وصل إلى عدة مئات من الألوف ، رحل قسم منهم إلى العدوة المغربية ،ورحل قسم آخر إلى المناطق التي كانت ماتزال تحت سيطرة الأندلسيين . واستمرت هذه العملية في كل مكان إلى أن بدأت حرب غرناطة في القسم الأخير من القرن الخامس عشر ، حين كان عدد من سكن ممالكها أكثر من مليون شخص ، رحل قسم صغير منهم خلال الحرب إلى العدوة وسقط قسم آخر قتلى ، وأسر عدد كبير منهم استعبد أو بيع أو أهدى إلى ملوك وملكات أوروبة .

والثابت أن عددا غير معروف من الأندلسيين بقي في وديان نهر ابرة ، كما بقى عدد كبير من المزارعين في المناطق الأندلسية التي احتلتها قوات قشتالة وارغوان في القرن الثالث عشر . وعلى هذا فإن الإعتقاد يسود بأن عدد من بقي من الأندلسيين في قشتالة ، قبل سقوط مملكة غرناطة ، كان يصل إلى حوالي ٣٠٠,٠٠٠ شخص أى ١٠ بالمئة من السكان القشتاليين المقدرين بحوالي ثلاثة ملايين شخص . فى ارغون (وكانت تضم ارغون وقطلونيا وبلنسية) بقي من الأندلسيين حوالى ١٥٠,٠٠٠ شخص أو مايعادل ٣٠٪ من عدد السكان الكلي الذى لم يكن ليتجاوز حوالي نصف المليون نسمة . وفي نهاية مرحلة الاحتلال

الكبرى للأندلس (١٢١٢ - ١٢٦٦) طرد خايمي الأول الأرغوني وألفونصو العاشر القشتالي عددا كبيرا من المزارعين العرب من مرسية ، والقسم المتبقي في مملكة ارغون بعد ذلك كان بحدود ٢٠ ٪ من تعداد السكان الكلى . ولاشك في أن المسلمين ظلوا يشكلون الأغلبية في بلنسية ، على الأقل ، حتى بداية القرن التاسع عشر . حين كانوا أول المنفيين إلى العدوة . ومن الطبيعي أن يكون بعض سكان مملكة غرناطة رحل خلال الحرب ، التى استمرت قرابة عقد كامل من الزمن رغم عدم توفر أية أرقام عن عدد هؤلاء .

المجموعة الأخرى من الإحصاءات توفرت بعد التعداد العام الذى جرى في قشتالة وارغون ونافار سنة ١٤٨٢ ، وعرف بإسم احصاء قنتنيلة . بيّن هذا التعداد أن عدد الأسر في قشتالة وصل إلى مليون ونصف المليون أسرة ، أى مابين ستة ملايين وسبعة ملايين ونصف المليون شخص . ولذا فإن المبالغة كبيرة فيها خاصة إذا أضفنا إلى الرقم عدد سكان مملكة غرناطة ، أو من تبقى منهم ، وهو يتراوح بين نصف مليون وثلاثة أرباع المليون ، والمليون،طبقا للمؤرخ الذى يتعامل وهذه الأرقام . أما عدد سكان مملكة ارغون فوصل طبقا لذلك الاحصاء إلى مليون شخص ، وعدد سكان مملكة نافار إلى حوالي ١٠٠,٠٠٠ شخص . وأدق التقديرات الخاصة بعدد السكان نحو نهاية القرن الخامس عشر تشير إلى اقترابه من ٤ر٥ مليون نسمة ، دون حساب سكان غرناطة ، لاسيما وأن احصاء سنة ١٥٣٠ يقدر السكان بحوالي ٣ر٤ مليون نسمة ، بينما يضع احصاء سنة ١٥٤١ السكان بحدود ٣ر٦ مليون نسمة . ولعل أفضل تعداد عام هو الذي أمر به الملك فيليب الثاني لأغراض جباية الضرائب ، وتبين فيه أن عدد سكان قشتالة ٦ر٦ مليون نسمة ، وعدد السكان في مملكة ارغون ٤ر١ مليون نسمة منهم ٤٥٠,٠٠٠ نسمة في بلنسية و ٤٠٠,٠٠٠ في ارغون و ١٣٥,٠٠٠ نسمة في جزر ميورقة ومنورقة واليابسة ، أى أن العدد يقترب من عدد سكان قشتالة وارغون والممالك الصغيرة التابعة لها إلى ٨ر٣٥٠,٠٠٠ نسمة ؛ أى أن العدد يقترب من عدد سكان المانيا وايطاليا في تلك الفترة ، ولكنه يزيد على عدد سكان انجلترا ، ويقل كثيرا عن عدد سكان فرنسا الذي قدر بحوالي ١٦ مليون شخص ، وبذلك كانت أكبر الدول الأوربية سكانا . ومعظم احصاءات قشتالة وارغون أوضحت أن حوالي ٨٠٪ من السكان كانوا يعيشون في الريف ومابين ١٠ و١٢٪ في المدن ، وكان مابين ٣ و٥٪ من التجار ورجال الدين ، وكانت نسبة النبلاء والحكام بحدود ٢ بالمائة فقط . والاحصاءات المتوفرة قرب نهاية القرن الخامس عشر تفيد بأن عدد سكان كل من قرطبة ومرسية وميورقة ، كان يتراوح بين ١٥,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ نسمة ، ولكن عدد سكان اشبيلية وبلنسية كان أكثر من ٨٠,٠٠٠ لكل منهما ، وهذا يظهر الكارثة التي لحقت بالمدن القشتالية والأرغونية منذ احتلالها ، إذ لم تستعد معظم المدن رخاءها وعدد سكانها الذي بلغته خلال الحكم العربي . وكانت اشبيلية من بين مدن قليلة حققت زيادة فى عدد السكان بعد احتكار التجارة مع العالم الجديد فى القرن السادس عشر . والإحصاءات الخاصة بعدد الأندلسيين فى الفترة التى لحقت بثورتهم الأولى سنة ١٥٠٢ تشير الى أن عدد الأندلسيين كان بحدود ٥٠,٠٠٠ في ارغون و ١٦٠,٠٠٠ في بلنسية و ١٠,٠٠٠ في قطالونيا و ١٥,٠٠٠ في ميورقة ، وبذلك يكون مجموع الأندلسيين في مملكة ارغون حوالي ٢٣٥,٠٠٠ نسمة . أما في قشتالة فكان العدد يتراوح بين ٧٠٠,٠٠٠ ومليون نسمة ، منهم ٢٠٠,٠٠٠ ، في قشتالة . وما بين ٥٠٠,٠٠٠ و ٧٠٠,٠٠٠

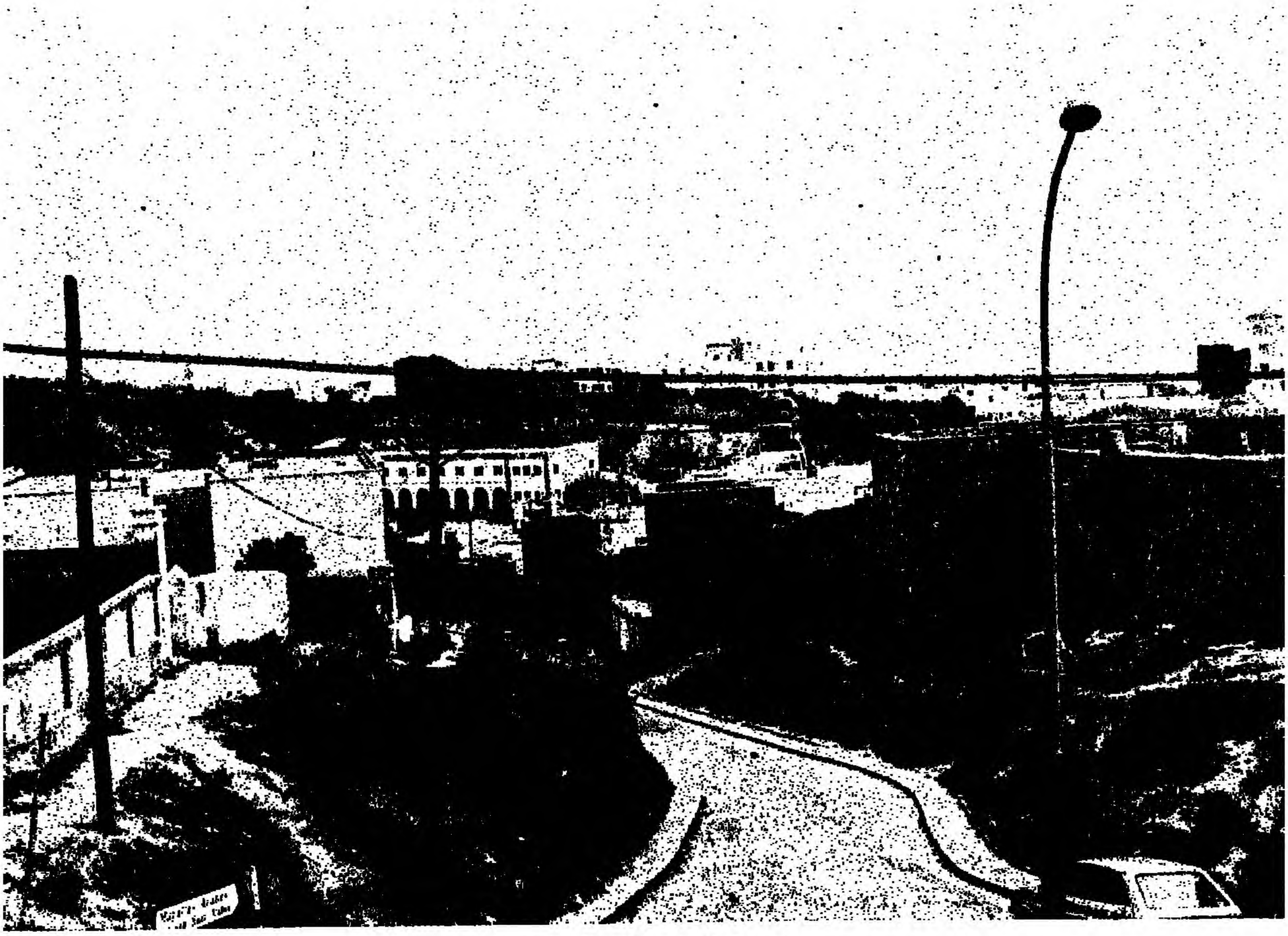

مدينـــة طريـف فـي الجنـوب

أندلسي في مملكة غرناطة : وإذا أضفنا إلى هذين العددين الأندلسيين في ارغون (بحدود ٢٣٥٫٠٠٠) وقشتالة (حوالى ٢٠٠٫٠٠٠) فإن الإجمالي يكون بين ٩٣٥٫٠٠٠ و ١٫١٣٥٫٠٠٠ شخص . ونتيجة لاخماد الثورة الأندلسية الأولى وصدور مرسوم تنصير الأندلسيين سنة ١٥٠٢ ، اختار حوالى ٣٠٫٠٠٠ أندلسي الرحيل إلى العدوة وغيرها من المناطق ، فيكون عدد الأندلسيين الموازكة (الموريسيكون) ، الذين اضطروا للبقاء في قشتالة وارغون ومملكة غرناطة مابين ٦٣٥٫٠٠٠ و ٨٣٥٫٠٠٠ شخص . وهناك بعض الاشارات إلى رحيل مجموعات من الأندلسيين إلى العدوة في العقود التي لحقت بالثورة الأندلسية الأولى ولكن لاتتوفر عن عمليات الرحيل هذه آية معلومات دقيقة . (انظر توزع الأندلسيين بعد الثورة الكبرى) .

٢ – أسباب اندلاع الثورة الأندلسية الأولى

أ – شروط استسلام غرناطة :

تفاصيل مراحل استسلام غرناطة قليلة ، ولكن اشتداد الحصار وتضييق الخناق على غرناطة ، لابد وأن يكون سببا في حمل الملك أبو عبد الله محمد الصغير على فتح باب المفاوضات . وربما كان ذلك

أحد الشروط السرية التي توصل اليها آخر ملوك غرناطة مع ايزابيلا وفرناندو خلال أسره[1] ، ولكن من الواضح أن الملك الصغير أجرى معظم مباحثاته سرا دون معرفة أغلبية أهل غرناطة . مثّل الملك الصغير وبعض من معاونيه جانب غرناطة ، بينما مثل ايزابيلا أمين سرها فرناندو دى زفرة وغونثالو القرطبي ، وكان الأخير ملما باللغة العربية عارفا بتقاليد العرب وعاداتهم . ودارت المفاوضات سرا أغلبها خلال الليل في غرناطة نفسها أو في قرية قريبة ، وانتهت إلى الاتفاق على شروط التسليم في الخامس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٩١ (٢١ محرم ٨٩٧) ، على أن تدخل قوات قشتالة المدينة بعد ٦٠ يوما . ولما تسربت أنباء المعاهدة إلى أهل غرناطة أعلنوا الثورة على الملك الصغير ، فاتفق وايزابيلا على تقديم أجل تسليم المدينة إلى الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ ، فدخلت طلائع الجيش ورفعت علم قشتالة على الحمراء وأعدت العدة لدخول ايزابيلا وفرناندو عاصمة آخر المواقع الإسلامية في ايبرية .

وفي يوم التسليم أقام فرنانـدو في مسجد حوله إلى كنيسة ، تعرف بإسم كنيسة القديس سباستيان وتقع جنوب غرناطة ، وانتظر قدوم الملك الصغير ، ومعه حاشيته وحوالي ٥٠ فارسا عبروا نهر شنيل في الطريق إلى جبل البشرة ، فتوقف الموكبان وتم الوداع واستكمل الملك الصغير رحلته إلى مكان اقامته في البشرة متوقفا في نقطة تطل على غرناطة ، حين التفت إلى مملكته السابقة لآخر مرة وبكى ، فنهرته أمه عائشة وقالت له بيتها الشهير :

ابـك مثل النساء مـلكـا مضـاعـا   لـم تـحافـظ عليـه مثـل الـرجـال

ومايزال الدليل الأسباني يصطحب السائحين إلى تل عبر الوادى المعروف « بالسعيد » ويقف عند ممر اسمه : (El Ultimo Suspiro del Moro) « المكان الذي أطلق فيه المغربي آخر حسراته » . ومن هناك انطلق أبو عبد الله محمد إلى قرية اندرش من قرى جبل البشرة ، ولكن ايزابيلا باعت ما أقطعته الملك الصغير وهو مايزال يعيش فيها ، وسلمته الثمن وكان ٨٠,٠٠٠ دوقة ، مع اشعاره بأن وجوده غير مرغوب فيه بعد الآن ، فعبر العدوة سنة ١٤٩٣ إلى مليلة ، واستقر في فاس إلى حين وفاته سنة ١٥١٨ (٩٢٤) معاملا وفق القول : « ارحموا عزيز قوم ذل » . ولسنا هنا بصدد تقييم الملك الصغير ، وفيما إذا كان عميلا متخاذلا أو غير ذلك فالمعركة مع ايزابيلا وقشتالة كانت ستطول لأجل غير معروف ، ولكن ماتوفر من معلومات عن حرب غرناطة لايترك مجالا للشك بأن الانتصار كان في النهاية لصالح ملوك الشمال . يضاف إلى ذلك أن المعارك التي بدأت سنة ١٤٨١ ، أخذت طابعا وحشيا وماكانت المدينة التي تسقط بين أيدى قوات ايزابيلا وفرنانـدو لتنجو من تقتيل أهلها وأسرهم وبيعهم عبيدا . وماحدث في مالقة يوم سقوطها سنة ١٤٨٧ يعطي فكرة عن مسلك فرناندو ، فجميع أهل المدينة انتهوا إلى السيف أو إلى الاستعباد . والمعاهدة التي ابرمها أبو عبد الله محمد مع ايزابيلا أفضل مايمكن توقعه في مثل تلك الأزمة لولا ألوها - ككثير من سابقاتها - إلى الخرق والتجاهل .

---

(١) الظاهر أن الملك الصغير أسر مرتين الأولى قرب اللسانة سنة ١٤٨٣ ، والثانية قرب لوشة سنة ١٤٨٨ وفي المصادر العربية عدة اشارات إلى اسره في المرة الأولى .

شملت معاهدة تسليم غرناطة كل مايمكن أهلها من تحقيق شروط عيش مقبولة في ظل الاحتلال ، اذ ضمنت سلامة الناس وملكيتهم والسماح لمن أراد مغادرة غرناطة إلى العدوة المغربية ، وفك أسر جميع من وقع بيد القشتاليين أثناء الحرب ، وعدم اكراه الناس على التنصر أو تكليف المسلمين بضيافة جنود قشتالة ، وعدم ابعاد أهل البلد أو زيادة الضرائب . كما كفلت الأمن للمسلمين في تجوالهم وعدم اجبارهم على حمل العلامة التى كان اليهود وأهل الدجن يحملونها (وكانت على شكل دائرة صفراء قرب الصدر) والسماح للمسلمين بممارسة دينهم . واشترطت موافقة البابا على ماجاء في المعاهدة والحصول على توقيعه الشخصي عليها ، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الشروط التي ضمنت حتى منع النصارى من التطلع الى دُور المسلمين ومعاقبة من يضحك من النصارى على عادات أهل غرناطة . كانت المعاهدة ملزمة وواضحة وشاملة ، ولكن ايزابيلا وفرناندو راحا يشجعان علية أهل غرناطة على الرحيل ، وأبعدا من أهل المدينة من استوطنها في مراحل قريبة ، وخصص للمسلمين المنطقة من غرناطة القديمة المعروفة بالبيّازين (رباض البيازين) وهي تقع في الطرف الشمالي من غرناطة بين نهر دار في الشرق ، وبين مجموعة من الأسوار ، التي تعرف اليوم بأسوار المغاربة . أما الأقسام الباقية من غرناطة فقد أسكنت بعشرات الآلاف من النصارى ممن تمكنت ايزابيلا وفرناندو من اقناعهم باستيطان آخر معاقل الأندلسيين .

وانهت ايزابيلا وفرناندو عملية احتلال غرناطةواعادت توزيع سكانها ، ورحلت إلى اشبيلية تاركة المدينة فى عهدة فرناندو دى زفره والكونت تندلة الحاكم العسكرى (العام) لغرناطة ، وهو ينتمى إلى أسرة مندوزا المشهورة،أما الثالث فهوهرناندو طلبيرة الذى عين أول رئيس لأساقفة غرناطة ، وكان قبل ذلك كاهن الاعتراف الخاص بالملكة ايزابيلا . وتعيين هؤلاء الثلاثة يعطي الانطباع بأن ايزابيلا وفرناندو اختطا في البداية طريق محاولة اقناع أهل غرناطة اعتناق النصرانية بالحسنى ، أو على الأقل ضمان أهلها رعايا مخلصين للحكم القشتالي القديم . وكان لكل من الثلاثة أسبابه الخاصة في الانتقال خطوة خطوة بحذر كبير . فالأول كان عارفا بالعربية ملما بعادات وتقاليد العرب وحضارتهم حريصا على الظهور بمظهر الصديق ، لأنه كان يعرف أن تلك الطريقة أفضل مايمكن اتباعه للحصول على تعاون أهل غرناطة . أما الثاني فكان مهتما بالحصول على الضرائب من أهل غرناطة للإنفاق على جيشه ، والثالث كان يعتقد منذ البداية أن اظهار الاهتمام بالعرب وكسب مودتهم ، يمكن أن يكونا أصوب الطرق إلى تنصيرهم ولذا درس اللغة العربية وألم بثقافة العرب وتاريخهم ، وترجم عددا من الكتب الدينية النصرانية إلى اللغة العربية .

ومفاوضات تسليم غرناطة نصت على تسليم القلاع والحصون والمدافع للسلطات المحتلة ولكن الأسلحة الفردية بقيت في حوزة الأندلسيين ، واستمروا يستخدمون لغتهم ويلبسون ملابسهم الملونة المزركشة ويمارسون عقيدتهم ضمن حدود ماسمحت المعاهدة به . وعلى العموم كانت خطوات بسط السيطرة القشتالية على سكان غرناطة الأندلسيين بطيئة ومتدرجة وحذرة ، وكانت سنوات قليلة من الهدوء الذى يسبق العاصفة .

ب - خرق معاهدة تسليم غرناطة :

كان الانتصار الذى حققه فرناندو على غرناطة قليل التكاليف نسبيا ، فهو لم يفقد من جنوده الخمسين ألفا الكثير ، وكانت الشروط التي احتوتها معاهدة التسليم كثيرة وشاملة ، ولكنها كفلت في نهاية الأمر سيطرة قشتالة على آخر الممالك الإسلامية ، ووضعت ملكي قشتالة وارغون على رأس القائمة التي ضمت في تلك الفترة عددا قليلا من الملوك والحكام،وأبرزتهما حاميين للمسيحية عموما ، والكاثوليكية بصورة خاصة ، ولذا لم يكن من الغريب أن يسبغ عليهما البابا لقب « العاهلين الكاثوليكيين » . وسقوط غرناطة جاء في فترة تميزت بتأجج نيران التعصب الكاثوليكي وساهمت الملكة ايزابيلا ، وفرناندو بعد ذلك ، في خلق مؤسسة خاصة تتولى ممارسة هذا النوع من الاضطهاد الديني ، حتى حصلت من البابا على موافقته لتأسيس محاكم التفتيش ، وكان ذلك سنة ١٤٧٨ . وحين تولى توما دى توركيمادة منصب المفتش العام ، راح يتابع مهام منصبه الجديد بتفانٍ واخلاص متناهيين ملاحقا والجيش السرى الذى وظفته محاكم التفتيش الهراطقة ، ولاسيما اليهود المنصرّين الذين عرفوا باسم المارانوس (أى الخنازير) . وفي السادس من شباط سنة ١٤٨١ ، تم احراق ستة من اليهود المنصرين في اشبيلية ممن أخضعوا لممارسات محاكم التفتيش . وماكادت السنة ذاتها تقترب من الانتهاء حتى وصل عدد من أحرق من اليهود إلى ٢٩٨ شخصا ، وكانوا مجرد دفعة أولى من الضحايا الذين سيسقطون طعما لمحاكم التفتيش ، حتى حلها في القرن التاسع عشر (أنظر الفصل الخامس) . أبرزت ايزابيلا تعلقها بالكاثوليكية وحقدها على كل أصحاب الأديان الأخرى عندما قررت إنشاء محاكم التفتيش ، ولكن الكثير من تصرفاتها عكست هذا التعلق . وعندما التهمت النيران مخيم القوات المسيحية التي كانت تحاصر غرناطة (ويقال إن السبب شمعة سقطت في خيمة ايزابيلا) أمرت ببناء مدينة كاملة سمتها « مدينة الإيمان المقدس » . وهي حين قبلت شروط تسليم غرناطة ، فانها كانت تعتقد منذ البداية أن في الامكان تنصير مسلمي غرناطة أو اخضاعهم لمصير أهل مالقة والحمة ولوشة ، وغيرها من مدن الأندلس التي سقطت خلال الحروب مع الشمال .

خرقت معاهدة تسليم غرناطة بعد سقوطها مباشرة ولكن السلام استمر ، وحاول طلبيرة الالتزام بشروط المعاهدة قدر الإمكان ، وانصرف إلى محاولة اقناع أهل غرناطة باعتناق النصرانية آمرا القساوسة بتعلم العربية لكسب ود سكان المدينة . في الوقت نفسه كان نبلاء قشتالة يبحثون عن الطرق التي تمكنهم من التهام الأراضي التي يملكها أهل غرناطة . فالأمر الذي أصدرته ايزابيلا بهذا الخصوص نص على ألا يتمكن أى قشتالى من تملك أراض تزيد قميتها على ٢٠٠,٠٠٠ دينار مرابطى ؛ ولكن القائمة التى رفعت إلى الملكة بأسماء أصحاب الأراضي الجدد كانت مزيفة . فالنبلاء انقضوا على الأراضي الغرناطية بشراهة،وكان نصيب الأسد لأسرة مندوزا (التي ينتمي إليها تندلة الحاكم العسكري) ولأسرة أخرى تعرف بإسم أصحاب قرطبة ، وهؤلاء من العسكريين الذين لعب بعضهم دورا في تحقيق أمجاد امبراطورية كارلوس الخامس ، ولأسر أخرى كثيرة،أو للشماليين الذين نقلوا إلى غرناطة لاحتلال بعض أقسامها إثر عملية تحديد سكن أهل غرناطة في البيازين . ورغم عمليات خرق المعاهدة فإن وجود تندلة وطلبيرة

ساعد على استمرار العمل بها بصورة عامة ، ولكن الضغوط التي توفرت على المجالين المحلي ولي والد كانت تدفع قشتالة إلى النكوص بها أولا بأول . فرغم قناعة شخصية مثل طلبيرة بأن أقوى أنواع بسط السيطرة هو الاقناع ـ وهذا شيء تعلمه من الاطلاع على تاريخ قرطبة وسماحة الدين الإسلامي ، وأثر ذلك على انضمام الكثيرين من سكان شبه جزيرة ايبرية إلى الأسلام ـ فإن الكثير من المتنفذين في قشتالة كانوا يرون أن بسط السيطرة الفعلية على أهل غرناطة لايمكن أن يتم دون استخدام القوة . كان هؤلاء يعرفون مدى التزام المسلمين بدينهم وعاداتهم ولغاتهم العربية ، ويعرفون أيضا أن تكوينهم الطبيعي والنفساني لايسمح لهم بالتحول إلى ضحايا ، كما حدث مع اليهود،بسهولة . كانت الأندلس والعدوة المغربية امتدادا واحدا طوال القرون الثمانية الماضية ، ولكن الصلة بين المنطقتين انقطعت فجأة ، ولم يكن هذا الوضع بطبيعي بالنسبة للأندلسيين . أضف إلى ذلك أن قشتالة كانت تخشى دائما من تجدد هجوم أهل العدوة على الساحل الجنوبي ، وأن يجدوا في أهل غرناطة المعين . ومنطقة غرناطة معروفة بوعورتها وان استطاعت جيوش ايزابيلا بسط سيطرتها علي المدينة ، فان مد النفوذ الى المناطق الجبلية لم يكن سهلا ، إذ كانت ملاذا للخارجين على القانون والناقمين على السلطة . ولو حدث وبدأ اهل مدينة غرناطة في مد سكان الجبال باالأفراد والمال والأسلحة فان الجباال ستكون البؤرة التي تهدد سلطان ايزابيلا على المملكة الجديدة . الأسباب الاضافية تناولت موقف سكان قشتالة من أهل غرناطة والأندلسيين بصورة عامة . فهؤلاء تعودوا على الانقضاض على ممتلكات الأندلسيين فور احتلال مدينة أو أخرى . وبالرغم من أن ايزابيلا جلبت عددا كبيرا من القشتاليين ووطنتهم في غرناطة ، فان الشعور العام كان شعور نقمة على الأندلسيين بسبب الرخاء النسبي الذى كانوا يتمتعون به ، وبسبب الحريات النسبية التي شملتها معاهدة التسليم . وكان القشتاليون ينظرون إلى الأندلسيين كشعب مقهور ، لايحق له الاستمتاع بأرضه أو ماله أو دينه . وما كان انتقال القشتاليين إلى الأراضي الأندلسية التي سقطت بأيدى القوات الشمالية ، سوى لاستفادة من الجهد الذي بذله الأندلسيون في تحسين أرضهم أو نمط معيشتهم حتى اذا أخفق القشتاليون في استغلال الأرض باعوها بثمن رخيص ، وانتقلوا إلى الجنوب للحصول على أرض جديدة وهكذا . ولم تكن بنود المعاهدة هي السبب الوحيد في عدم الإقدام على خرقها فور استسلام المدينة ، لأن الأراضي التي كان يشرف عليها المزارعون الأندلسيون في بلنسية ومرسية وغرناطة ، كانت من أفضل الأراضي انتاجا واستغلالا ، والقشتاليون يذكرون كيف أدى طرد المزارعين من بعض مناطق مرسية والجنوب الأندلسي في القرن الثالث عشر إلى تخريب تلك الأراضي الخصبة التي لم تعد تصلح إلا للرعي . ولذا فإن اللجوء إلى طرد أهل غرناطة .سيؤدى إلى تخريب الأرض التي يعملون فيها ، والصناعات التي يتقنونها دون توفر البديل بين القشتاليين ، وسيضع ايزابيلا وفرناندو في موقف محرج أمام باقي ملوك أوروبة . ثم إن بقاء الأندلسيين سيوفر للدولة ضرائب كثيرة هي بحاجة إليها ، بعد المبالغ الهائلة التي اقترضتها الملكة ايزابيلا لتمويل حربها مع غرناطة .

كانت هذه التساؤلات تدور في أذهان القشتاليين منذ استسلام غرناطة ، وحينما تمكن القشتاليون من « تعديل » بنود معاهدة التسليم وفق مايحلو لهم قاموا بذلك ، ولكن السلام استمر سبع سنوات . وكان سلاما قلقا انتظرت ايزابيلا وفرناندو أن يؤدي في النهاية إلى تنصير الأندلسيين ، بفضل السياسة التي

اتبعها رئيس أساقفة غرناطة طلبيرة . ولكن الأندلسيين لم يتنصروا ، ولم يكن في الأفق مايشير إلى إمكان تحولهم إلى رعايا مخلصين لايزابيلا وفرناندو . وبدأ صبر ايزابيلا وزوجها في النفاد وتعالت الأصوات تنتقد طلبيرة وتطالب باعتماد سياسة الحزم ضد الأندلسيين في طريق تنصيرهم .

ج – بداية اضطهاد الأندلسيين :

مضت سبع سنوات ثقيلة وأهل غرناطة يحاولون التأقلم مع واقع جديد فرضته سلطات الاحتلال القشتالية ، منذ أن رفعت الصليب الفضي فوق برج طلائع قصبة الحمراء في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٤٩٢ . استولى نبلاء قشتالة على قسم كبير من أراضي مملكة غرناطة واستمر السلام . تحولت المساجد إلى كنائس ومنع الأذان والوضوء علنا واستمر السلام . كان هرناندو طلبيرة رئيس أساقفة غرناطة ومن تبعه يبذلون كل جهد ممكن لإقناع الأندلسيين باعتناق النصرانية ، وقطع صلاتهم بتاريخهم وحضارتهم واستمر السلام . فصلت الأندلس عن العدوة المغربية للمرة الأولى منذ ثمانية قرون ، ودب اليأس في قلوب الأندلسيين بعد أن فقدوا الأمل في الحصول على عون أهلهم خلف الزقاق ، وأخذ القشتاليون يزاحمون اهل غرناطة على الأرض أولا ، ثم على لقمة العيش ، وأخيراً على الدين والتاريخ واللغة . وتردت الأمور من سيء إلى اسوأ ومن مضايقة إلى أخرى ، ثم اندلع الغضب دفعة واحدة ، وكان مسبب اندلاعه شخصية قشتالية حققت مجدها على المصائب التي ألحقتها بالأندلسيين ، كما حقق المفتش العام توركيمادة أمجاده على اضطهاد اليهود من قبل .

كان طلبيرة كاهن الاعتراف الخاص للملكة ايزابيلا القشتالية ، عندما ارتأت تعيينه رئيسا لأساقفة غرناطة إثر استسلامها . وحين بحثت عن بديل أشار بعض مستشاريها إلى كاهن عرف عنه تعصبه للكاثوليكية وهو فرانسيكسو دى سيسنيروس (١٤٣٦ – ١٥١٧) المعروف باسم خمينيث(١) أو زمنيز. مايتوفر عن زمنيز من معلومات يشير إلى انحداره من أسرة متواضعة ، ولكن المؤرخين القشتاليين نفخوا في ماضيه وقربوه من ماضي الملوك وعلية القوم ، ووصفه البعض بالورع والتزهد ، بينما اعتبره آخرون شخصا بسيط الطاقات متعطشا إلى السلطة خلف ردائه الكهنوتي ومظاهر التقوى والتعصب الكاثوليكي ، مما قربه من ملكته المتعصبة الأولى ايزابيلا . وحين مات مندوزا رئيس أساقفة طليطلة ؛ رشحت ايزابيلا زمنيز لشغل منصبه ، وحصلت على موافقة البابا الكسندر السادس سنة ١٤٩٥ . ومنصب رئيس أساقفة طليطلة كان يشمل منصبين آخرين لايقلان أهمية : الأول مستشار قشتالة ، والثاني كبير أساقفة المملكة ، ولذا فقد كان منصب زمنيز الجديد الثالث في الأهمية بعد ايزابيلا وفرناندو فقط . ومع توليه مهامه الجديدة انتهت فترة السماحة التي سادت في عهد مندوزا ، كما ستنتهي حريات الأندلسيين بعد قليل وما لم تستطع ايزابيلا الاقدام عليه أنيط بالكردينال زمنيز لتنفيذه بإسم الكنيسة .

---

(١) ويسميه الدكتور محمد عبدالله عنان في مقدمة « الاحاطة » ص (٨) خمنيس .

والمشكلة التي كانت تواجه ايزابيلا بالنسبة للأندلسيين في غرناطة معقدة وسهلة في آن واحد . فهي لاتريد أن تُقدم على عمل ضد أهل غرناطة فتخرق بذلك المعاهدة ، ويعيرها ملوك أوروبة بأنها الملكة التي لاتستطيع الالتزام بقسم أدته ساعة قبولها معاهدة تسليم آخر المدن الإسلامية ، كما أنها انتظرت طويلا ريثما يتمكن كاهن الاعتراف السابق طلبيرة من تنصير الأندلسيين ، ولكن دون جدوى.فهي تملك غرناطة ولكنها لاتملك ثقة أهلها ولا ولاءهم ، ولم يكن من اليسير على متعصبة مثل ايزابيلا أن تقبل وجود شعب لايدين بالكاثوليكية في الممالك التي تحكمها ، لاسيما وأن لقبها منذ سنة ١٤٩٤ أصبح الملكة الكاثوليكية . وهي أيضا حققت هدفها عندما اضطهدت اليهود أولا ، ثم أجبرتهم على النزوح من البلاد في وقت لاحق . واذا استطاعت ذلك مع اليهود ، فليس هناك مايمنع تطبيق نفس الأجراء بحق مسلمي غرناطة ، حتى ولو جاء ذلك على حساب تقويض دعائم الاقتصاد الغرناطي ، وتشريد أهل تلك المملكة . دون ايزابيلا وبممارسة سلطتها الفعلية على أهل غرناطة معاهدة الاستسلام . وهي إن خرقت المعاهدة لأسباب سياسية أو اقتصادية استحقت لوم باقي الملوك ، ولكن لو استطاعت اجبار أهل غرناطة على القيام بعمل ما ضد الدولة ، فان من الممكن ساعتها الغاء المعاهدة على أساس أن أهل غرناطة كانوا البادئين بذلك . ولو استطاعت خرق المعاهدة على أساس ديني فليس هناك من يستطيع انتقادها في أرجاء المسيحية ، لأنها ستحقق بخرق المعاهدة بموافقة كنيسة روما نصرا للنصرانية وهجوما اخيرا على « الكفار » المسلمين الذين يهددون أمن الدولة ، وسلطة الكنيسة والدين الكاثوليكي . أهمية زمنيز تأتي في هذه اللحظة ، وستقع مهمة اجبار أهل غرناطة على المعاهدة على الأعمال التي سيكون لها زمنيز كل وقته وماله ، وهكذا ارتحل الكردينال زمنيز وأقام في غرناطة اعتبارا من سنة ١٤٤٩ بأمر من ايزابيلا .

طلب زمنيز من طلبيرة « كشفا بالحساب » عن نتائج نشاطه في غرناطة ، وعن عدد المسلمين ممن تمكن طلبيرة ومعاونيه تنصيرهم . ولكن النتائج لم تكن مشجعة وراح يحث رئيس أساقفة غرناطة على ضرورة اتباع الحزم في معاملة الأندلسيين ، بهدف تسريع عملية تنصيرهم . كان طلبيرة يرى أن الهدف الأول يكمن في استمالة أهل غرناطة والتقرب منهم بإظهار احترامه لتاريخهم وحضارتهم . ترجم خلال السنوات الأخيرة عددا من الكتب الدينية إلى العربية ، ولكن محاولة ترجمة الإنجيل إلى العربية توقفت عند اصرار الكنيسة على أن ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية سيكون عملا خطيرا ، فاللغة العربية « لغة نجاسة ».حاول طلبيرة اقناع زمنيز بأن قسر أهل غرناطة على التنصر سيؤدي إلى الإنفجار ، وأيده في هذا الرأى حاكم غرناطة العسكرى تندلة ، ولكن زمنيز كان يعرف الأوامر التي جاء لتنفيذها . وأمام هذا الموقف تنحى طلبيرة عن سلطاته الحقيقية وسلم زمنيز مقاليد الأمور ، وتوقفت عملية تعريب الإنجيل بناء على اصرار كبير أساقفة قشتالة . كان زمنيز يعتقد أنه لو تمكن من تنصير مجموعة كافية من أهل غرناطة ، لقدر على اقامة فرع لمحاكم التفتيش في غرناطة ، يستطيع عمالها فيما بعد مباشرة نشاطهم فوراً وتضييق الخناق على غرناطة ، كما سبق وضيق الخناق على اليهود . ولكن دون وجود متنصرين في غرناطة لايمكن اقامة محاكم التفتيش فيها ، ولايمكن الشروع في الخطة التي تصورتها ايزابيلا وزمنيز وغيرهما من الحاقدين .

بدأ زمنيز نشاطه باستدعاء الفقهاء إلى كنيسة،كانت مسجداً،ومناظرتهم في غلبة النصرانية على الإسلام ، والفائدة التي تعود على من يتنصر ، وكيف أن الأندلسيين ماانهزموا على أيدي القشتاليين والشماليين من المسيحين إلا لأن الله كان وراء سعيهم . كانت المناظرات تستمر طوال اليوم ثم تستأنف في اليوم التالي ، وكان الفقهاء يقارعون الحجة بالحجة ويفندون رأيه جملة وتفصيلا . وطال النقاش والمناظرات ، ومل الفقهاء تلك الجلسات وقد أيقنوا أن كبير أساقفة قشتالة يمكر لمسلمي غرناطة ولن يكل أو يمل حتى يحقق غرضه . استنتج زمنيز من جهته بعد الجلسات أنه لو تمكن من اقناع هؤلاء لحمل باقي الأندلسيين على اتباع نفس السبيل ، ولكن كل جهوده باءت بالإخفاق ، وقرر عندها أن يعتمد أسلوبا مختلفا ويبدأ الاتصال بالعامة . في المرحلة التالية من نشاط زمنيز راح يستدعي بسطاء القوم ليشرح لهم أسباب تفوق النصرانية . وحين أخفق أخذ يرشيهم بالمال والحرير والملابس المزركشة ، ويعدهم بالأراضي والمنازل.ولابد أن يكون بعض البسطاء قبلوا بالتنصر ، وخاصة ضعفاء النفوس والعقيدة منهم . وركز زمنيز واتباعه أيضا على من عرف أن أحد أجداده كان نصرانيا واسلم ، وطلبوا من هؤلاء العودة للنصرانية فارتد بعضهم دون الأخذ بأحد شروط معاهدة التسليم التي نصت على«ألا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ماأراد ... ».وهكذا راح زمنيز يخرق شروط المعاهدة بإسم الدين والكاثوليكية ، والمسلمون يراقبون دون التمكن من القيام بما يوقف تلك التصرفات سوى الاحتجاج على أعماله . ويقال في هذا الخصوص أن زمنيز انفق معظم ماله على شراء الهدايا وتقديم الرشاوى إلى المسلمين ، عله ينجح في ماأخفق فيه طلبيرة من قبله .

تنبه فقهاء المسلمين وزعماؤهم للخطر المحدق بأهل غرناطة من وراء مخطط زمنيز واتباعه،فراحوا يحثون الناس على محاربة دعواه ، وعدم قبول الهدايا والرشاوي طلبا في تنصرهم ، ويحذرون من أن تنصير بعض الضعفاء من المسلمين سيؤدي إلى إدخال محاكم التفتيش إلى غرناطة ،وتكرار مافعلته مع اليهود من قبل . وامام هذه المقاومة أمر زمنيز بإحضار ثلاثة آلاف من أندلسيي غرناطة ، وجمعهم في الكنيسة التي خصصها لشن حملته ضد المسلمين ، وراح يدعوهم إلى التنصر فيغريهم تارة ويرهبهم تارة أخرى ، فتصدى له فقهاء غرناطة وسفهوا أراءه . ومنذ تلك الحادثة صب زمنيز اهتمامه على الفقهاء ودعاهم للاجتماع به على انفراد . وذات يوم طلب من كبير فقهاء غرناطة (١) مناظرته في الكنيسة الجديدة ليكتشف الفقيه بأن زمنيز كان يقصد اقناعه باصدار فتوى ترمي إلى اعتناق المسلمين للنصرانية . وحاول زمنيز تقديم المال والهدايا إلى الفقيه ، وحاول اقطاعه منصبا وملكا ولكن الفقيه صرف كل عروضه . كان زمنيز يعتقد أنه لو استطاع استمالة الفقيه لتنصر المئات على الفور وللحق بهؤلاء مئات غيرهم . وحين اعتذر الفقيه وقام ليمضي إلى البيازين أمر بالقبض عليه في الكنيسة واودعه السجن ، حيث عذب وحرم من الطعام عدة أيام . وفي نهاية فترة التعذيب والسجن خرج زمنيز على أهل غرناطة ليقول لهم أن فقيههم رأى حلما في منامه وأمره صوت من السماء بدخول النصرانية ، وأنه يحث كل

(١) ربما كان الشيخ الزهري أو الصفري .

نوافير
الحمراء

المسلمين على الاقتداء بما رأى . وفي الأسابيع التي تلت تلك الحادثة عمد زمنيز إلى اعتقال أهل غرناطة وأخضعهم لنفس التجربة ، ولكنه كلما اعتقد أنه حقق تقدما بالطريقة التي اختطها ، وجد أن من المستحيل تنصير أهالي غرناطة دون قطع ارتباطهم بتاريخهم وهكذا كانت خطوته التالية .

كان أهل غرناطة أفضل من اتقنوا كتابة المخطوطات وتجليد الكتب في كل أوروبة خلال تلك الفترة . وادخال صناعة الورق إلى الأندلس احدث ثورة كبيرة في الثقافة والكتابة بعد تخطي العقبات التي اعترضت سبيل نسخ الكتب باستخدام الرق . ومع تقدم الشماليين بإتجاه الأندلس نزح أهل المدن المحتلة حاملين كتبهم معهم ، وحمل قسم كبير من المخطوطات التي كتبت في الأندلس أو نقلت من المشرق إلى العدوة المغربية ، ولكن قسما آخر انتهى في غرناطة التي كانت الملاذ الأخير للأندلسيين بعد القرن الثالث عشر . والمخطوطات التي ماتزال محفوظة في مكتبة الاسكوريال ، تعطي فكرة عن اتقان صناعة الكتب في الأندلس ، ولكن زمنيز المسؤول عن اضطهاد الأندلسيين هو نفسه المسؤول عن احراق عشرات الآلاف من المخطوطات . فقد أمر زمنيز عماله بالطواف على أهل غرناطة وانذارهم بجلب كل ما لديهم من المخطوطات المكتوبة بالعربية وحملها إلى الساحة الرئيسية . وعندما تجمع منها الآلاف نزل زمنيز واختار نحوا من ٣٠٠ مخطوطة عالجت مسائل العلوم الطبية والكيمياء والرياضيات وغيرها من المواضيع المهمة ، ونقلها بعد ذلك إلى جامعة القلعة التي كان يعمل على بنائها في تلك الفترة (١) . أما الباقي فقد أمر بإحراقه وهكذا ارتفعت سحابة كثيفة من الدخان فوق تلال غرناطة وأهل المدينة ينظرون إلى أكوام المخطوطات وهي تحترق . وعلى الرغم من أن البعض تجاهل أوامر كبير الأساقفة واستبقى ماملكه من كتب حملها البعض سرا إلى العدوة فيما بعد ، إلا أن قسما كبيرا من تراث الأندلس احترق في ذلك اليوم المشؤوم وتطاير مع الدخان .

كان التعصب الأعمى قد أفقد زمنيز القدرة على تصور أى مسلك آخر مع أهل غرناطة سوى الطريق المملوء بالتعذيب ، وقسر المسلمين على التنصر ومحاولة سلخهم عن ماضيهم وحضارتهم . كان أيضا لايريد الاعتراف بأن سياسته في غرناطة أخفقت في تنصير المسلمين ، أو أنه لم ينجح إلا في اقناع الأندلسيين بأن الاستمرار في تحمل أحوال مثل تلك التي فرضها لايمكن أن يدوم . وعبثا حاول تندلة وطلبيرة اقناعه بالعدول عن سياسته وتحذيره من مخاطرها في تأليب مشاعر أهل غرناطة ، ووصل الأمر ذروته حين بدأ زمنيز في إحراق كل ماتقع عليه أيدي عماله من نسخ القرآن الكريم . وكان زمنيز يرسل بعض عماله إلى البيازين لتسقط أخبار أهلها،وذات يوم،بعث بثلاثة منهم إلى الحي لسبب غير معروف ، فوقع صدام بينهم وبين بعض أهل غرناطة قتل على أثرها اثنان من العمال وفر الثالث وكانت تلك نقطة التحول . (٢) .

---

(١) حمل زميز كتبا أخرى كثيرة إلى حامعة القلعة التي افتتحت سة ١٥٠٨ وكانت واحدة من أشهر جامعات أسبانيا إذ ضمت ١٠٠٠٠ طالب وجرت فيها ترجمة وطباعة الإنجيل باللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والكلدانية بين سنتي ١٥١٤و ١٥١٧ ، ولكن الجامعة نقلت إلى مدريد (مجريط) سنة ١٨٣٧ وفقدت المدينة أهميتها . والقلعة هي مسقط رأس سيرفانتس مؤلف دون كيخوتي (كيشوت) .

(٢) يقدم لين بول في كتابه (العرب في اسبانيا) سببا آخر فيقول : « انتهت المحاولة الأولى (لتنصير أهل غرناطة) إلى الإخفاق . وبعض المسلمين المتشددين أعربوا عن اشمئزازهم لأعمال التحول الجديد إلى النصرانية فالقي القبض على أولئك الساخطين وكان من بينهم امرأة أودعت السجن بهذه الذريعة فهب سكان البيازين وحملوا السلاح وخلصوها وضجت غرناطة احتجاجا واندلع قتال المتاريس » . أنظر :
Lane- Poole, Stanley, The Moors in Spain, (4th Edition), 1890, P 270.

٣ – الثورة الأندلسية الأولى

فور الإشتباك الذي أدى إلى مصرع عاملي الكردينال زمنيز ، طاف زعماء غرناطة وعلماؤها بالبيازين يحثون الناس على حمل السلاح واعلان الانتفاضة دفاعا عن وجودهم ودينهم والتصدي لممارسات زمنيز بعد استفحال خطره ومضيه في مسلكه دون رادع أو خوف من انتقاد أو عقاب . وخلال وقت قصير كانت انباء الاشتباك قد انتشرت في غرناطة ، فتجمع رجالها يتدارسون الخطوة التالية قبل أن يداهمهم رجال زمنيز أو يتوفر الوقت اللازم لوصول الجيش . والمشاورات السريعة التي جرت ذلك النهار انتهت على استقرار الرأى بتوجه فريق من أهل غرناطة إلى قصر الحمراء حيث ينزل زمنيز للقضاء عليه ومساعديه ، بينما يتعهد الباقون بجمع الرجال والسلاح وتحصين البيازين استعدادا لقتال جنود قشتالة .

في هذه الأثناء وصل عامل زمنيز إلى الحمراء وسرد على سيده تفاصيل الحادث الذي أدى إلى قيام أهل البيازين على العمال ، فطلب الكردينال حضور الكونت تندلة ومعه جنده على الفور ، وأمر رجاله باغلاق الأبواب والإستعداد لرد أهل البيازين . وحين وصل تندله وجنوده وجد أهل البيازين قد أحاطوا بالحمراء واستعدوا لاقتحام القلعة فطلب إليهم تندلة التروي والعودة إلى البيازين لبحث مظالم أهله ومطالبهم مشيرا إلى عواقب الإستمرار في محاولة قتل زمنيز . وبعد جولة أخرى من المشاورات بين زعماء أهل غرناطة ، إستقر الرأى على العودة إلى البيازين وانتظار بدء المفاوضات ومنح تندلة الفرصة التي طلبها لإصلاح الأمور ورفع الغمامة التي هبطت على سكان غرناطة مع قدوم الكردينال .

وماحدث في البيازين جاء مصدقا لتوقعات تندلة وطلبيرة ، ولكن الأثنين لم يكونا في وضع يمكنهما من التدخل أمام اصرار زمنيز على التصرف كما يحلو له ، وأمام الثقة التي منحتها ايزابيلا للكردينال. لأن التصدي له كان يعني في واقع الأمر التصدي لأوامر ايزابيلا التي أوفدت الكردينال إلى غرناطة لمساعدة طلبيرة في ظاهر الأمر، ولتولي زمام الأمور في واقعه . والتطور الأخير أعاد إلى كل من تندلة وطلبيرة الأهمية التى كانا يتمتعان بها قبل وصول زمنيز ، وقيّد تصرف الكردينال فترك لهما مهمة الوصول بالأزمة إلى حل مقبول لاسيما وأن سلوك تندلة السابق قربه من الأندلسيين ، فولوه ثقتهم واحترامهم ، وكان الوحيد القادر في ظل تلك الظروف على تهدئة خواطر أهل البيازين ووقف عملية اقتحام قصر الحمراء .

وبعد تأمين حماية الحمراء ، انطلق تندلة وطلبيرة وعدد قليل من الحراس إلى البيازين ، واخترق جموع الأندلسيين ، ورفع قبعته ورماها في الجو إلى الناس اشارة إلى أنه جاء ومن معه ينشد السلم ، فاستقبله السكان بالترحاب وعقد اجتماع ضمه وطلبيرة وعددا من زعماء البيازين ، فشرحوا له مظالمهم مؤكدين له استعدادهم للقتال حتى الرجل الأخير إن لم تنصفهم الملكة وتأمر زمنيز بالعودة إلى اشبيلية . فوعدهم تندلة بنقل وجهة نظرهم إلى الملكة ، وعرض على أهل البيازين استبقاء ابنه وزوجته في البيازين كضمان على تعهده ، وغادر غرناطة على الفور متوجها إلى مقر ايزابيلا في اشبيلية ، وسكن حي البيازين في انتظار نتائج مفاوضات تندلة مع الملكة .

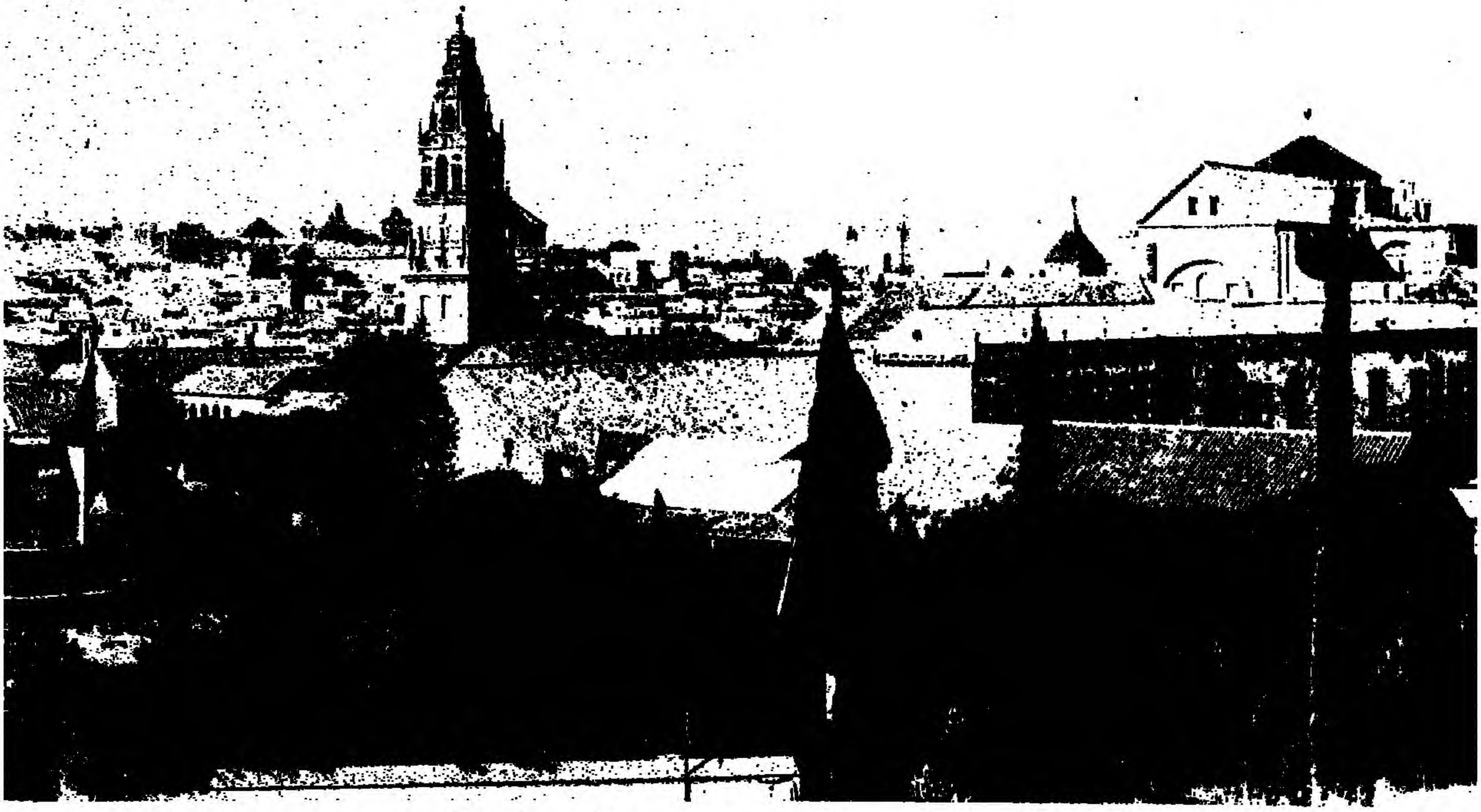

جانب من قصر الحمراء ويبدو ربض البيازين في الخلف

في القصر بأشبيلية سرد الكونت على ايزابيلا ماحدث في غرناطة وانحى باللائمة على السياسة التي اتبعها زمنيز مع أهل غرناطة ، فأرسلت تستدعي زمنيز طالبة منه شرح الأسباب التي حدت به إلى التأخر باعلامها عما وقع في البيازين . وحين وصل زمنيز إلى المدينة أبلغ ايزابيلا بأنه بعث بأحد عبيده إليها ومعه رسالة يوضح فيها ماحدث ، ولكن تبين فيما بعد أن العبد سكر في الطريق وأضاع الرسالة .. وما عدا ذلك لم يبد زمنيز أسفا ولم يطلب صفحا وابلغها بأن الملكة التي تحمل لقب « الكاثوليكية » لايمكن أن تقبل بوجود رعايا يدينون بديانة أخرى ، والا عيرتها الكنيسة وعيرّها ملوك أوروبة . وأبلغها كذلك أن الأندلسيين لايمكن أن يستمروا في البقاء في قشتالة مسلمين في وسط مسيحي ، وأن الأندلسيين ماكانوا ليقوموا عليه لولا نجاحه في تنصير الكثيرين منهم . وبالطبع لم تكن ايزابيلا بحاجة إلى اقناع بسبب تعصبها المعروف ، إضافة إلى أنها كانت تخشى أن يستفحل خطر الأندلسيين فيهددون أمن الدولة واستقرارها ، واتباع اللين مع أهل غرناطة ، بعد انتفاضتهم ، لن يحمل إلى قشتالة سوى انتفاضة أكبر وأخطر .

في تلك الجلسة المشهورة أخذت ايزابيلا وزوجها فرناندو برأي زمنيز ، فاما أن يقبل الأندلسيون بالتنصر أو يجري ترحيلهم إلى العدوة . وطيبت خاطر زمنيز وأعادت تأكيد ثقتها به ، واستبعدت مااقترحه تندلة وطلبيرة من حلول . وأمام هذا الاصرار غير تندلة رأيه ، خشية أن يؤدي استمرار استنصاره لأهل غرناطة إلى نهايته أو مصادرة أملاكه وعزله عن منصبه ، وعاد يحمل الأخبار إلى أهل البيازين .

انتهت المفاوضات على هذا الشكل ولكن النقمة لم تخمد لأنها كانت على وشك الإندلاع في شكل ثورة عارمة .

أ — الثورة في البشرة :

انتشرت انباء ماحدث في اشبيلية ، والقرار الذى اتخذته ايزابيلا فيما يتعلق بأندلسيي غرناطة ، فوجد أهل مدينة غرناطة أنفسهم في وضع كانت فيه فرص الأختيار ضئيلة جدا ، فرضخ معظم سكانها لقرار ملكة قشتالة ، بينما أثر البعض ترك المدينة والالتحاق بإخوانهم في جبال الجنوب ، وقدمت مجموعة ثالثة من سكان المدينة إلى الثائرين في الجبال مااستطاعت تقديمه من أسلحة ومال وغير ذلك . ومع تقدم الزمن والإحساس بأن ايزابيلا ماضية في تنفيذ القراز الذي خلصت إليه ، بدأ سكان الجبال في الإستعداد . وفي تشرين الثاني من سنة ١٤٩٩ اندلعت الشرارة الأولى في جبل البشرة الذي يقع إلى الجنوب من جبل الثلج ، وسرعان مااستجاب سكان المناطق الأخرى ، وكان أشدهم تحمسا الأندلسيون الذين رحلوا عن غرناطة فور استسلامها .

استفاد سكان مدن وقرى البشرة من وعورة المناطق التي يعيشون فيها ، وأخذوا يزيدون تحصين قراهم ومدنهم ، حتى باتوا في وضع يمكنهم من شن غارات محدودة على المناطق التي كان القشتاليون يسكنونها . ووصلت أنباء اندلاع الثورة إلى ايزابيلا فكلفت الكونت تندلة وغونثالو القرطبي (وكان الأخير قد مثل جانب قشتالة في مباحثات استسلام غرناطة سنة ١٤٩١) بإخماد الثورة قبل أن يستفحل أمرها . وتفاصيل ماحدث بعد ذلك قليلة،ومعظم مصادر الوقائع التالية قشتالية لايمكن الوثوق بصحتها لقربها من السلطة ، ولذا كان من الطبيعي أن تروى الوقائع بصورة تقبلها قشتالة . والظاهر أن القرطبي كان أول من تحرك لتنفيذ أمر ايزابيلا فسار بجيشه إلى البشرة حتى وصل إلى مدينة وجار (Guejar)(١) . وما كاد فرسانه يقتربون من أسوار المدينة حتى وقع قسم منهم في خنادق حفرها أهل المدينة ، ثم غطوها بالزروع والقش . وخلال الفوضى التي دبت في صفوف جيش القرطبي فتح المقاتلون أبواب المدينة وانقضوا على الجنود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، إلا أن القرطبي تمكن من التراجع في الوقت المناسب وضرب الحصار على المدينة بعد استقدام الإمدادات . استمر الحصار فترة غير معروفة انتهت باستسلام المدينة فدخلها جيش القرطبي وقتل جميع رجالها وسبى نساءها وأطفالها عن أخرهم ، ثم انتقل الجيش إلى مناطق أخرى ، إلا أن وعورة الأرض والخوف الدائم من الكمائن جعل عملية تقدم الجيش صعبة للغاية . وبنهاية السنة بات من الواضح أن جيش القرطبي وجنود تندلة غير قادرين على قمع ثورة البشرة ، وطلبا من الملك فرناندو المساعدة خوفا من أن يطول القتال فيتحرك أهل العدوة لنجدة أخوانهم في الجنوب الأندلسي .

---

(١) وربما كانت ابشر . انظر الأسماء التي ترد في « الإحاطة في أخبار غرناطة » لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الدكتور محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، الجزء الأول ، ص ١٣٢ — ١٣٩ . أنظر أيضا ملحق الأعلام والمواضع المعربة آخر الكتاب .

في آذار من سنة ١٥٠٠ تسلم فرناندو بنفسه تسيير دفة القتال ، وتوجه مع جيش كبير إلى جبل البشرة ، فاحتل عددا من القرى ثم هاجم مدينة اندرش ، ولكنه لم يتمكن من احتلالها فحاصرها زمنا طويلا دون فائدة إلى أن تمكن من اقتحامها ليلا بالحيلة وانتهى سكانها إلى مصير أهل وجار . كان فرناندو قد قضى على تجمعات الثوار الرئيسية فتمكن بذلك من التقدم بسرعة واحتلال مدن وقرى أخرى في البشرة . وحين يئس الأندلسيون الجبليون من تحقيق أي انتصار أو الوقوف أمام زحف قوات قشتالة فترة كافية لوصول الامدادات من المناطق الجنوبية الأخرى أو من العدوة ، عملوا على الاتصال بفرناندو وعرضوا عليه السلم . وافق فرناندو على طلب الأندلسيين بعد مباحثات مطولة مقابل حصوله على ٥٠،٠٠٠ دوقة ذهبية وتسليم جميع الأسلحة والحصون والمنابر التي كان الأندلسيون يسيطرون عليها قبل الثورة . وحين أخذ ماطلبه ، وزع الجنود على نقاط مختارة واستقدم عددا من القسيسين للشروع في عملية تنصير الأندلسيين في البشرة بعد قهرهم . في هذه الأثناء أبلغت ايزابيلا أهل غرناطة بأنهم خرقوا معاهدة استسلام غرناطة حين قاموا على عمال زمنيز ونظموا عصيانهم في البيازين ، وبدأت السلطات في هدم المساجد وتحويل بعضها الآخر إلى كنائس ، وشرعت الكنيسة في تنصير الأندلسيين الذين اعتبروا منذ تلك اللحظة أسرى حرب ، وأصبحوا يعرفون باسم الموراكة أو الموركسيون (Los Moriscos) التي تعني « النصارى الجدد » .

ب – الثورة في الجبل الأحمر :

أعمال القمع الوحشي التي ارتكبتها قوات فرناندو والقرطبي أثناء القضاء على ثورة الأندلسيين في جبل البشرة ارهبت سكانه واجبرتهم على القبول بمطالب فرناندو ، كما بثت الذعر في غرناطة واعجزت أهلها العرب عن الوقوف أمام الممارسات القسرية للسلطة والكنيسة . إلا أن تلك الأعمال لم ترهب الأندلسيين في الأماكن الأخرى بل كانت دافعا لحمل السلاح ، وقد ايقنوا أن مالحق بسكان البشرة وغرناطة سيلحق بهم عاجلا أو آجلا ، وإن الوقوف في وجه قشتالة هو الخيار الأخير والسبيل الوحيد الذي تركته ايزابيلا وزوجها فرناندو مفتوحا أمام باقي الأندلسيين . وماكادت نيران الثورة في البشرة تخمد حتى كان سكان الجبل الأحمر يعدون العدة لإضرام النيران من جديد ، والتصدي لجنود قشتالة من مدنهم وقراهم وقواعدهم في غربية الأندلس .

استمرت عملية اخضاع ثورة جبل البشرة حوالي العام وبقي فرناندو في غرناطة طوال هذه الفترة ليشرف على تنفيذ أوامره فيما يختص بتنصير الأندلسيين وجمع الأسلحة منهم . وحين وصلت إليه أنباء الثورة في الجبل الأحمر أسند إلى قائد عسكرى هو الونثو دى اجيلار (بلاى) مهمة اخماد الثورة للمكانة العالية التي كان الأخير يتمتع بها ؛ إذ كان الأخ الأكبر لغونثالو القرطبي ، وقد أثبت على مدى أربعين عاما صلابته ولاسيما في حرب غرناطة.ورافقه في الحملة ضد رجال الجبل الأحمر ولده الدون بدرو (بطرة) القرطبي ، وجيش كبير بقصد انهاء الثورة بأسرع وقت ممكن . وربما استخف الونثوبأندلسي الجبل الأحمر،أو توفرت لديه معلومات غير صحيحة عن مدى انتشار الثورة في تلك المنطقة التي لم تكن

تقل وعورة عن البشرة ، لأنه قاد الجيش عبر الممرات الجبلية الوعرة هناك ، ولم يكتشف أن الأندلسيين أعدوا له ولجيشه كمينا محكما إلا بعد فوات الآوان . وهكذا انهالت الصخور على الجيش فى أحد الممرات مما أدى إلى مقتل أعداد كبيرة من الجنود ، وأجهز الأندلسيون على معظم الجنود الذين تمكنوا من الفرار مرتدين من حيث اتوا .

أما الونثو نفسه فقد قتل في المعركة التي دارت عقب الانسحاب،أو لقي مصرعه على أيدى فارس اندلسي بعد مبارزة عادلة (١) .وفي تلك المعركة المشهورة قتل أيضا ، مع من قتل،فرانسيسكو راميرز ، وكان من أشهر المهندسين في جيش الملك فرناندو ، وكان له باع طويل في استخدام المدافع اثناء حرب غرناطة ؛ كما أصيب الدون بدرو بجرح بليغ ولكن الناجين من الجنود تمكنوا من اجلائه من ساحة المعركة .

وصلت أخبار مقتل الونثو إلى مسامع فرناندو فجهز جيشا كبيرا انطلق به من غرناطة إلى مدينة رندة – التي أصبحت مركز عمليات جيش قشتالة – وأقام فيها مدة يتلقط أخبار الأندلسيين الثائرين ويعد العدة لقمع الثورة . وعندما وجد فرناندو أن الفرصة باتت مواتية للتحرك ، سار بجيشه عبر الجبل الأحمر إلا أن المقاومة التي تعرض لها الجيش كانت عنيفة ، فأضطر فرناندو إلى الإنسحاب ، ثم عاود الهجوم فأضطر الأندلسيون إلى الإحتماء برؤوس الجبال بعد اشتداد الضغط عليهم . وحاصر جيش فرناندو مركزا مهما في الجبل الأحمر احتمى به الأندلسيون ثم حاول اقتحامه ، غير أن المدافعين عنه تمكنوا من الحاق خسائر فادحة بالجنود المهاجمين ، فعاد فرناندو إلى اتباع سياسة الحصار حتى يضطر المدافعون إلى الإستسلام . وطال أمد الحصار وجاع الناس فعرضوا على فرناندو السلم فقبل به بعد المفاوضات وقد أيقن ان استمرار الحرب لن يؤدي إلى نصر حاسم بسبب وعورة المنطقة واستحالة ابقاء عدد كاف من الجنود فيها لضمان استمرار السيطرة على الجبل ، ووعدهم بالأمان إن أرادوا العبور إلى العدوة . وكان الاتفاق نهاية الثورة الأندلسية الأولى ، وخاتمة حرب استمرت حوالي السنتين ودارت خلالها أكثر من عشرين معركة في مناطق مختلفة من الجنوب وكانت حقبة تاريخية كتب عنها الشيء القليل وماكتب لم يوفها حقها . (٢)

---

(١) هناك بعض الغموض في تاريخ هذه المعركة ، ولكن لابد وان تكون وقعت يوم ١٨ آذار سنة ١٥٠١ أو بعد ذلك لأن جيش الونثو (Alonzo de Aguilar) بدأ تجمعه قرب منارة (Monarda) في اليوم المذكور . وجرت المعركة في سهل قلعة اللوز . انظر : Prescott, William Hickling, History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, (paris), 1842, Part II., Chapter 7.
ولعل الفارس الاندلسي المشار اليه هو فراى بن اصطبار (Fèri de Ben Estepar)

(٢) من المؤلفين الذين تناولوا الثورة الأولى بشيء من التفصيل الأميركي وليام برسكوت ، وهو إن اشتهر بأسلوب أدبي مشوق إلا أنه لم يشتهر بدقة المعلومات . انظر المرجع أعلاه الصفحات (٤٢٥ – ٤٥٦) .

ج – مرسوم سنة ١٥٠٢ وتنصير الأندلسيين :

مرت فترة قلقة منذ استسلام أهل الجبل الأحمر ورحيل بعض سكانه إلى المغرب وغيرها من المناطق في انتظار الخطوة التالية التي ستأمر بها ايزابيلا وزوجها فرناندو . وأمام توقف العمليات العسكرية وجمع السلاح كان الطريق ممهدا لكي تضفي ايزابيلا صفة الرسمية على الرأى الذي استقرت عنده منذ اجتماعها بزمنيز قبل ثلاث سنوات . وفي شهر شباط من سنة ١٥٠٢ أصدرت ايزابيلا مرسومها الشهير الذي خير جميع الأندلسيين بين التنصر والرحيل . ونص المرسوم المذكور على أن من واجب أهل قشتالة طرد « اعداء الدين المسيحي » من مملكتي قشتالة وليون،ويتحتم على جميع الأندلسيين في المملكتين ، ممن لم يتعمدوا بعد ، الرحيل فلا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة ولأنثي عمرها يزيد على الثانية عشرة في قشتالة وليون بعد شهر نيسان من نفس السنة إلا إذا تنصروا . وسمح المرسوم المذكور لمن يرغب من الأندلسيين فى الرحيل بيع العقارات والأملاك ولكنه حظر عليهم اخراج الذهب والفضة من قشتالة وليون ووظفت السلطة جميع رجالها في مملكة غرناطة للتأكد من تنفيذ بنود المرسوم بحذافيره .

وبنهاية المدة التي حددها المرسوم رحل عن الأندلس حوالي ٣٠٠٠٠٠ شخص ، منهم من توجه إلى المغرب ، ومنهم من رحل إلى مصر أو الشام . « ثم إن النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسع مئة (١٤٤٩) ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : أن القسيس كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر ، ففعلوا ذلك . وتكلم الناس ولاجهد لهم ولاقوة . ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا . ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم ، وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان إن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت . وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا ، إلا ماكان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة . وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وماخف من مالهم دون الذخائر . (١) .

ويرد في مصادر أخرى : « وأمر الكردينال (زمنيز) الذي لايعرف الرحمة بأن تغلق المساجد وتحرق المخطوطات الكثيرة التي ضمت خلاصة عهود من الثقافة الأندلسية ، وتعرض « الكفار » التعساء للتهديد والضرب في سبيل تنصيرهم وترغيبهم بكتاب السلام والمحبة وفق الطريقة التي سبق وأقرها العاهلان

---

(١) « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » ، المقرى ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، (١٩٦٨) الجزء الرابع ، ص ٥٢٧ . كما ترد اشارات عن هذه الحقبة من تاريخ الأندلس في نهاية الأندلس وازهار الرياض ونبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، حيث يشير مؤلفه المجهول (ص ٤٥) إلى بعض معارك الثورة الأندلسية الأولى.ويقول أن عددها وصل إلى ٢٣ معركة . ولم أعثر على الإسم الحديث لبلفيق اليوم ولكن بللنقة هو (Villa Leunga) الواقع في جبال رندة (Serrania de Ronda) .

الكاثوليكيان ، كما من قبل طبقاها على اليهود الذين لم يكونوا أقل تعاسة . وكان أن رضخ أغلب الناس بعد أن وجدوا أن من السهل التنازل على دينهم بدلا من ترك بيوتهم . ولكن توقد الروح الأندلسية القديمة بقي يسطع في نفوس سكان تلال البشرة الذين صمدوا وقتا طويلا في حصنهم الثلجي ضد مضطهديهم . والمحاولة الأولى لقمع الثورة انتهت بكارثة إذ أن الونثو دى اجيلار ، الذى ذاع صيته وأعماله البطولية بعد أربعين سنة من الشهامة والشجاعة ، أرسل إلى البشرة سنة ١٥٠١ فتعرض لضربة قاصمة رهيبة على أيدى الموازكة (الأندلسيون المنصرون) فسحقوا فرسانه بصخور ضخمة رموها عليهم من علو .

....

ماكان نفع يومها لشجاعة الفرسان أو المهارة في استخدام الحصان والرمح ،
الصخرة فوق الصخرة تسقط هاوية نحو الاسفل من الكهوف المخيفة والمنحدرات ،
تهوى ، تهوى ، تسقط تتلاحق كالبرد وتموت الخيل مع الفرسان ،
مثل الماشية حين اليأس يصبح صمتا مع تطاير الصواعق المخيفة .

وانسحب الونثو نحو الحقل ومعه حفنة من الرجال ،
وهناك تحول ليثا يدفع الخطر عن نفسه حين تجاهل دعوته الى الاستسلام ،
شوهد الف عدو حوله دون ان يقترب منه احدهم ،
الى ان انطلقت السهام والرماح من بعيد لتمزق الفارس الصامد .(١)

ومع ذلك فإن رواية أخرى أقرب إلى الصحة تحكي كيف قتل اجيلار في مبارزة شريفة مع فارس أندلسي . وكان اجيلار القائد الخامس من أسرته الذي يموت في المعارك مع « الكفار » . هذا النصر المؤقت لم ينجح إلا في تصعيد الحملات الانتقامية التي نظمها المسيحيون الساخطون الآن . إذ هاجم كونت تندلة وجار (Guejar) ونسف كونت سرين (Serin) الجامع الذي احتمى فيه الأطفال والنساء وسيطر الملك فرناندو بنفسه على بوابة الممرات الجبلية وهي قلعة عنجر (Lanjaron) . أما باقي الثوار ففروا إلى المغرب ومصر وتركيا حيث ضمنت لهم مهاراتهم معاشا ، وهكذا ، أخمدت ثورة البشرة الأولى »(٢)

د - بين التنصير والتنصر :

رحل من تمكن من الأندلسيين عن غرناطة وأصبح الباقون نصارى بموجب مرسوم ايزابيلا : « فلما رأى الطاغية (فرناندو) أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الإستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في

---

(١) المقطعان من تأليف الروائي الأسكتلندي جون لوكهارت (١٧٩٤ - ١٨٥٤) ضمن عمل أسماه (أناشيد أسبانية) وهما يردان في النص .
(٢) Lane- Poole, Stanley, The Moors in Spain. (4th Edition) 1890, PP 271-272

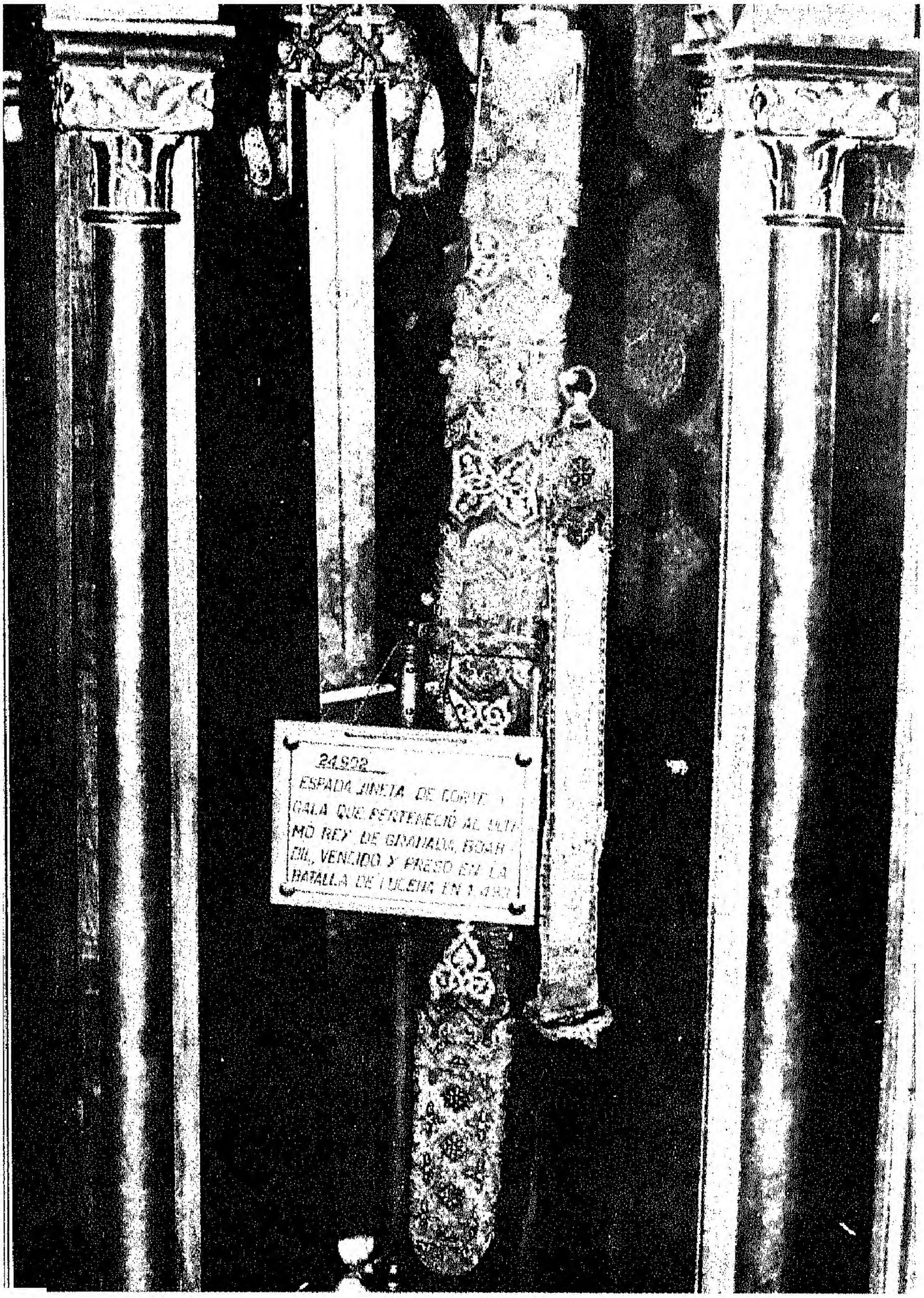

سيف آخر ملوك غرناطة بعد أسره في اللسانة سنة ١٤٨٣

نقض الشروط التي اشترط عليها المسلمون أول مرة ، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة المسلمين ، وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم المغارم الثقيلة ، وقطع عنهم الأذان في الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر واكرههم عليه ، وذلك سنة أربع وتسع مئة ، فدخلوا فيه كرها ، وصارت الأندلس كلها دار كفر . (١) .

---

(١) « أزهار الرياض في أخبار عياض » ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٢ . الجزء الأول ص ٦٨ و ٦٩ .

وهناك عدة اشارات في المصادر العربية إلى مسألة « تنصر الأندلسيين » بعد الثورة الأولى . ولاشك في أن أعدادا غير معروفة منهم تنصرت في المرحلة الأولى من وصول الكردينال زمنيز إلى غرناطة ، أو قبل ذلك على يدى طلبيرة ، أو خلال اندلاع الثورة ، ولاسيما في غرناطة نفسها ، ولكن ماحدث في الواقع لايؤيد القول بأن الأندلسيين تنصروا . والمعروف أن فرناندو احتكر عملية نقل المسلمين إلى العدوة على سفنه ، وسفن أخرى استأجرها لهذه الغاية ، لقاء عشر دوبلات من الذهب لكل فرد من المغادرين ، فمن وجد هذا المبلغ الكبير تمكن من الانتقال إلى العدوة على متن سفن فرناندو ، ولكن من لم يستطع تأمين المبلغ اضطر إلى البقاء . أضف إلى ذلك أن المهلة التي اعطيت للأندلسيين للاختيار بين التنصر أو الرحيل كانت أقل من ثلاثة أشهر ، ولذا لم يكن من السهولة تعميم مضمون المرسوم على جميع الأندلسيين لاسيما وأن الكثير منهم كانوا يعيشون في أماكن نائية لايسهل الوصول إليها . هذا طبعا إلى جانب أن المرسوم لايشير من بعيد أو قريب إلى أرغون ، رغم أنها كانت مملكة زوجها وهؤلاء لم يشاركوا في القتال ولاقاموا على السلطة تأييدا أو نجدة لاخوانهم في مملكة غرناطة .

والذي حدث ببساطة أن الأندلسيين وجدوا أنفسهم في قشتالة وليون ، يوم انتهاء المهلة المحددة . في المرسوم ،« مُنصّرين »لا « متنصرين » بصورة آلية . وكانت ايزابيلا قبل غيرها تعرف هذه الحقيقة إذ أضافت أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ منصر إلى سكان قشتالة وليون ، ولكن تنصرهم جاء بمرسوم وبقي في إطار المرسوم فقط ، وظلت محاكم التفتيش بعيدة عن غرناطة ، ولم تؤسس هناك حتى سنة ١٥٢٦ . وهناك عدة تفسيرات مطروحة لتصرف إيزابيلا وفرناندو على هذا النحو. والتفسير المقبول يستند إلى القول بأن العاهلين الكاثوليكيين لم يكونا راغبين في ترحيل جميع الأندلسيين ، مع أن القدرة على ذلك كانت متوفرة ، لئلا يسبب ذلك خراب غرناطة كما حدث في المناطق التي أجبر الأندلسيون على مغادرتها في السابق . وحتى لو شاءت ايزابيلا ترحيل جميع الأندلسيين فإنها لم تكن تملك وسائل ملء الفراغ الذي سيخلفه الأندلسيون في مملكة غرناطة . لأن قشتالة بقيت تعاني من انخفاض عدد السكان حتى تلك الفترة . وما ابتلعته قشتالة فى القرن الثالث عشر لم تكن بعد قد تمكنت من هضمه بعد أكثر من قرنين من احتلال معظم الأراضي الأندلسية ، ولم يكن ايجاد مليون قشتالي،للحلول مكان الأندلسيين،بالعمل الهين . أما وقد تخلصت ايزابيلا من الأندلسيين الممكن التخلص منهم في تلك الظروف ، فإنها أجلت عملية ترحيل معظم الأندلسيين إلى بداية القرن السابع عشر . (انظر نفي الأندلسيين الموازكة) .

٤ – قيام الأمبراطورية الأسبانية

لايفوت المؤرخون الأسبان فرصة للتأكيد دائما بأن قشتالة ظهرت على الساحة الأوروبية من خلال النضال الذي خاضته الممالك الشمالية في شبه جزيرة ايبرية ضد الاندلسيين على مدى سبعة قرون، وتحولت معه إلى آلة حرب لاتستطيع ضمان استمرار قوتها أو وحدتها ، مالم يتوفر لها التحدي والتوسع على حساب القوى الأخرى . وحين وجدت الملكة ايزابيلا أن استمرار السلام يهدد بتمزيق قشتالة ،

عمدت إلى تشغيل آلة الحرب من جديد ، واندفعت الجيوش لتصفية آخر الممالك الأندلسية ، وانتهت الحملة باستسلام غرناطة سنة ١٤٩٢ ورفع الصليب الفضي على قصبة الحمراء ، بينما كان الجنود يصيحون « قشتالة ، قشتالة » . ويعتقد بعض مؤرخي الامبراطورية الأسبانية أن سنة ١٤٩٢ كانت نقطة التحول الرئيسية في خلق الامبراطورية لأنها كانت سنة سقوط غرناطة ، وسنة التخلص من اليهود،وسنة اكتشاف العالم الجديد . ودب النشاط في صانعي الامبراطورية فاتجهوا شمالا نحو أوروبة، وجنوبا نحو المغرب ، وعبروا المحيط الأطلسي محتلين خلال نصف قرن مناطق شاسعة ، امتدت من تكساس إلى الأرجنتين وفتحت الأبواب على ذهب وفضة العالم الجديد تمويل حروب التوسع الأوروبية وبناء أكبر امبراطورية عرفها العالم حتى تلك الفترة . ولكن البداية كانت متواضعة جدا .

أ – التوسع فى أوروبة :

ماتت الملكة ايزابيلا سنة ١٥٠٤ ، وأوصت زوجها فرناندو بمتابعة الحملة الصليبية ضد « الكفار » في المغرب والابتعاد عن ساحة الصراع فى أوروبة . واستجاب فرناندو لوصية زوجته ، فكانت بعض الحملات على الشمال الأفريقي ، ولكن معظم جهوده تركزت على مقارعة الفرنسيين مستخدما ايطاليا ساحة لذلك الصراع . ففي سنة ١٤٦٣ احتل الملك الفرنسي لوى الحادي عشر أقليمي روسيلو وسردانيا وانتزعهما من المملكة الأرغونية . إلا أن فرناندو سعى منذ توليه عرش ارغون إلى استعادة المنطقتين ، بسبب قيمتهما التاريخية لأبناء شعبه إذ كانتا الوطن الأصلي للقطلانيين ، قبل أن يتوسع هؤلاء في الجنوب ويؤسسوا مملكة ارغون في القرن الثالث عشر ، ويبسطوا سيطرتهم على عدد من المناطق المهمة في البحر الأبيض المتوسط ، مثل نابولي وصقلية وأثينا وغيرها من الممالك . وحاول فرناندو عزل فرنسا خلال سنوات حصار غرناطة بعرض صداقة قشتالة وارغون على انجلترا وايطاليا وهولندا ، وابرم سنة ١٤٨٩ معاهدة مع انجلترا تم الإتفاق بموجبها على أن يشن الإنجليز الحرب على فرنسا ، بينما تتقدم جيوش فرناندو لاسترجاع روسيلو وسردانيا . ولكن المعاهدة بقيت حبرا على ورق واستعاض عنها بالإتفاق مع فرنسا على التوغل في ايطاليا مقابل استرداد الاقليمين . وهذا ماحدث قبل أن يكتشف فرناندو أن مطامع الفرنسيين في ايطاليا ستعرض مصالحه للخطر ، فلجأ إلى تشكيل حلف مع انجلترا والبابا لوقف تقدم قوات الملك الفرنسي شارل الثامن في ايطاليا ، ولكن شارل تجاهل الحلف ودخلت قواته نابولي سنة ١٤٩٥ ، ورد فرناندو على ذلك بإرسال قواته لمقاتلة الفرنسيين وحلفائهم السويسريين في السنة التالية . قاد غونثالو القرطبي الملقب « بالقبطان العظيم » جيش فرناندو وهو يتسلح بالخبرة التي كسبها خلال الحرب مع الأندلسيين في جبال الجنوب ، ولكن التسليح الخفيف لجيشه واعتماده على المشاة بدلا من الفرسان أثار سخرية أعدائه قبل أن يكتشفوا أن هذا التسليح الجديد في نوعه أثبت فعالية كبيرة ، وانتهت المعارك باندحار الفرنسيين وتخليهم عن نابولي خلال أسبوعين فقط . ولم تكن تلك المعارك بالأخيرة فقد استمرت الحملات ضد الفرنسيين وحقق القرطبي الإنتصار في كل معركة إلى أن رضخ الفرنسيون معترفين بقوة الجيش القشتالي ، وبسيادة فرناندو على نابولي سنة ١٥٠٤ . ماتت إيزابيلا في سنة صعد فيها نجم قشتالة وأرغون وأصبح في إمكان جيوش فرناندو مقارعة أى جيش أوروبي آخر . ودعم

فرناندو موقفه بحملة دبلوماسية فأرسل السفراء إلى روما ولندن وبروكسل والبندقية وفيينا ، ونال استحسان ميكافيلي على نشاطه الدبلوماسي وحنكته السياسية .

حقق فرناندو انتصارا فريدا على الفرنسيين خلال الحرب التي جرت في ايطاليا ، ولكن عملية صنع الامبراطورية جرت فى أماكن أخرى عن طريق مصاهرة بعض أهم ملوك أوروبة . كانت رغبة ايزابيلا وفرناندو في البداية تنصب على محاولة توحيد ممالك شبه جزيرة ايبرية (ارغون وقشتالة والبرتغال) عن طريق مصاهرة ملك البرتغال ، ولكن المحاولة انتهت إلى مأساة . ففي الحادثة الأولى زوج فرناندو ابنته ايزابيلا إلى الأمير البرتغالى الفونصو ولكنه قتل في حادثة عرضية . فتزوجت بعده الملك البرتغالي عمانويل ولكنها ماتت خلال الوضع . وكان لابنها ميغيل فرصة وراثة عرشي قشتالة وارغون والبرتغال لو عاش ولكنه مات هو الآخر سنة ١٥٠٠ ، وتوقفت محاولات توحيد شبة جزيرة أيبرية حتى القرن السادس عشر . زواج ايزابيلا إلى الفونصو ثم عمانويل لم يكن الوحيد ، فزوجت كاتلينا (المعروفة أيضا باسم كاثرين الأرغونية في التاريخ الإنجليزي) إلى أمير ويلز الانجليزي ولكنه مات ،فتزوجت بعده الملك هنري الثامن ، وانتهى الزواج إلى مأساة أخرى ، كما سيتبين فيما بعد . وابنه الوحيد خوان تزوج كذلك من الأميرة النمسوية مرغريتا ابنة الامبراطور مكسيمليان ، ولكن هذا الزواج أثمر طفلا مات في رحم أمه ثم مات خوان نفسه بعد ذلك .وهكذا لم يتبق سوى زواج ابنة فرناندو الكبرى خوانا من ابن الامبراطور مكسيمليان ،الأرشدوق فيليب ، وكان كارلوس ثمرة هذا الزواج ومؤسس الإمبراطورية الأسبانية . أما الأرشدوق فيليب فقد مات فجأة سنة ١٥٠٦ فجنت زوجته خوانا وعاشت مع جثته سنوات انتقلت بها من مكان لآخر إلى أن ماتت هى الأخرى .

وآخر سنوات الملك فرناندو كانت أعظم مراحل حكمه ، فقد كرس جهوده لوقف توسع الفرنسيين في أوروبة وتدعيم ممتلكات ارغون في البحر الأبيض المتوسط ، وضم مملكة نافار إلى سلطانه بعد أن تذرع بأن مملكة نافار تحاول التآمر مع الفرنسيين ضده فسير اليها جيشا بقيادة عسكري شهير آخر هو دوق البه واحتلها سنة ١٥١٢ . وقبل موت فرناندو أعد العدة لاستقبال حفيده كارلوس ملكا على البلاد وعين ابنه غير الشرعي ألونصو الأرغوني (وكان الأخير ثمرة لاحدى مغامرات فرناندو مع خليلاته) وصيا على عرش أرغون وقطالونيا وبلنسية ، بينما تم تعيين الكردينال زمنيز وصيا على عرش قشتالة . وفي الثالث والعشرين من كانون الثانى ١٥١٦ مات فرناندو مفسحا المجال لقيام الامبراطورية على يد حفيده كارلوس . ولكن تلك الفترة الانتقالية كانت مشبعة بالحروب الداخلية إذ اندلعت الثورة المعروفة بثورة أهل المدن سنة ١٥٢٠ واستمرت حتى اخمادها سنة ١٥٢٢ .

ب - كارلوس الخامس :

وصل كارلوس إلى ميناء سنتندير الواقع على خليج بسقاية في السادس عشر من تموز سنة ١٥٢٢ ومعه حوالي أربعة الآف من الجنود الألمان . كان بروز فكيه يضفي على وجهه سمات البله ، ولكن مشكلته

كارلوس الخامس (متحف برادو ، مدريد)

الكبرى فى مملكته الجديدة ، تمثلت في جهله للغة القشتالية وغربته عن رعاياه . ومع ذلك فإن كارلوس ورث من الممالك ماجعله أعظم حاكم في عصره ، وكان أول خمسة ملوك حكموا الامبراطورية الأسبانية بإسم أسرة هابسبرغ . ضمت امبراطورية كارلوس الخامس قشتالة وارغون وممالك ارغون في البحر الأبيض المتوسط (نابولي وصقلية وسردينيا) والنمسا وملحقاتها وهولندا ولوكسمبرغ وهنغاريا.وموراڤيا بالإضافة إلى ممالك أخرى شملت نصف القارة الأوروبية ، والمستعمرات الهائلة في العالم الجديد . وإذا كانت الممالك التي ورثها كارلوس على هذا الإتساع الهائل فإن المشاكل كانت ضخمة أيضا . وصعود الإمبراطورية الأسبانية توافق مع انتهاء حرب المئة عام بين انجلترا وفرنسا فكانت الأخيرة نتاج حقبة طويلة من الصراع مثل قشتالة نفسها . وفي جنوب شرقي أوروبة كان العثمانيون يحققون انتصارات هائلة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتوجوا تقدمهم باتجاه وسط أوروبة بكسر المجريين في موقعة الموهاك سنة ١٥٢٦ ، واحتلوا المجر فبقوا هناك قرابة قرن ونصف القرن . كانت الامبراطورية تلك آلة حرب آخرى مثل الامبراطورية الأسبانية وكانت المواجهة بين القوتين تزداد حدة سنة بعد سنة ، ولكن الحرب اندلعت أولا مع فرنسا .

بدأت المعارك بين جيوش كارلوس الخامس وفرانسيس الأول في ايطاليا ، كما بدأت آخر القرن السابق في نابولي بين فرناندو وشارل الثامن . واستمرت المعارك في مرحلتها الأولى من سنة ١٥٢١ وحتى ١٥٢٥ وانتهت بانتصار الأسبان وحلفائهم من المرتزقة الألمان في معركة بافيا حين أسر الملك الفرنسي . وبموجب المعاهدة التي أبرمت في مدريد خسر الفرنسيون ميلانو وجنوة ودوقية برغندي ، ولكن فرانسيس الأول نقض المعاهدة واندلعت المرحلة التالية من الحرب بين سنتي ١٥٢٦ و ١٥٢٩ واستمرت بصورة متقطعة

حتى سنة ١٥٤٤ ، عندما أبرمت معاهدة أخرى بين الجانبين قبل أن تندلع مرحلة جديدة من الحروب في الفترة بين ١٥٥٢ و١٥٥٦ . والحرب مع فرنسا لم تكن الشغل الشاغل لكارلوس الخامس إذ بدأ تدخله في الحرب الدينية في المانيا اعتبارا من سنة ١٥٣٠ مع نهوض حركة الإصلاح الديني التي قادها لوثر في ألمانيا ، ولكن تعاظم الخطر العثماني ، ولاسيما بعد حصارهم لفيينا سنة ١٥٢٩ ، اضطر كارلوس الخامس إلى البحث عن السلام طلبا للمساعدة ضد العثمانيين بموجب معاهدة نورمبرغ سنة ١٥٣٢ . استعرت الحرب الدينية بعد الإخفاق في التوصل إلى حل سنة ١٥٤٥ وبعد سنتين حقق كارلوس الخامس انتصارا على أمراء الحركة البروتستانتية ولكن النصر لم ينجح في القضاء على حركة الإصلاح الدينى إذا أبرم موريس السكسوني اتفاقا الفرنسى مع الملك الفرنسى هنرى الثاني ضد أسبانيا سنة ١٥٥٢ ثم أضطر إلى كارلوس الخامس إلى الفرار وخسرت الامبراطورية الاسبانية ممالكها في المانيا وانتصرت بذلك حركة الاصلاح الدينى . الساحة الثالثة لحروب كارلوس الخامس كانت على الساحل المغربي وحقق كارلوس انتصارا عندما أخذ تونس سنة ١٥٣٥ ولكن الحملة التي نظمها ضد الجزائر سنة ١٥٤١ انتهت إلى الإخفاق الذريع .

ج - فيليب الثاني :

كان اخفاق كارلوس الخامس على الساحة الأوروبية سببا في تنازله عن العرش الأسباني لأبنه فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ ، فتاريخ اسبانيا خلال فترة حكم كارلوس كان سلسلة لاتنتهي من الحروب التي انهكت جيوشه ، وسببت افلاس الدولة رغم تدفق الذهب والفضة من مستعمرات العالم الجديد .. ومات كارلوس بعد سنتين من اعتزاله الدنيا في دير يوست الواقع شمال شرق مدينة بلازيا ، وترك لابنه امبراطورية هائلة ومعها كل المشاكل التي بقيت معلقة دون حل . كانت الامبراطورية تشمل تونس والرأس الأخضر والفليبين وجزر الهند الغربية والمكسيك وبيرو ، بالإضافة إلى الممالك الأوروبية وباستثناء المانيا . ولكن أعداء الامبراطورية كانوا بالمرصاد ابتداء من فرنسا التي كانت العدو التقليدي ، إلى حركة الإصلاح الديني البروتستانتية ثم إلى العثمانيين والإنجليز والهولنديين فيما بعد . وكانت الحروب الجديدة بحاجة إلى الأموال ولكن الخزينة كانت فارغة ، لأن حروب كارلوس استنفدت كل مقدرات الأمبراطورية . أمام هذا الوضع عقد فيليب معاهدة سلام مع فرنسا سنة ١٥٥٩ ، وبدأت عملية إعادة بناء اقتصاد الامبراطورية بالاعتماد على فضة البيرو والمستعمرات الأسبانية الأخرى في العالم الجديد .

وكانت بضع سنوات من السلام النسبي تفجرت إثرها الاضطرابات الدينية في هولندا بعد اقتحام الكنائس هناك سنة ١٥٦٦ ، فبعث فيليب الثاني جيشا بقيادة دوق البة لقمع الثورة بمساعدة محاكم التفتيش . هذه الخطوة لم تنه الثورة ، واعتبارا من سنة ١٥٦٨ امتدت الحرب بين فيليب الكاثوليكي والبروتستانت إلى البحار واندلعت الثورة الأندلسية الثانية في الجنوب.(انظر الثورة الأندلسية الكبرى) وماتت زوجة فيليب المفضلة وابنه الذي أودعه السجن . في السنوات القليلة اللاحقة تمكن فيليب من قمع ثورة الأندلسيين في الجنوب وسحق الثورة البروتستانتيه في هولندا . وشكل تحالفا مقدسا بينه وبين البندقية بالإشتراك مع البابوية لصد العثمانيين الذين باتوا يهددون الجزائر الأسبانية . وفي السابع من

تشرين الأول سنة ١٥٧١ تمكن دون خوان النمسوي،الذي قاد الحملة ضد الأندلسيين ، من الحاق الهزيمة بالأسطول التركي بعد مقتل ثمانية آلاف من جنوده وجرح حوالى ١٥,٠٠٠ . ومع ذلك لم تكن المعركة حاسمة وتحول اهتمام فيليب إلى مستعمراته في العالم الجديد ، وإلى القضاء على الحركة البروتستانتية في هولندا لأن وقف زحف حركة الإصلاح الديني بالنسبة له أهم من محاربة المسلمين ، لاسيما وأنه كان يتصور نفسه رسولا بعثه الله لنصرة الكاثوليكية في كل مكان ، ولجمع شمل عالمه الكاثوليكي تحت حكم امبراطور واحد وسيف واحد ودين واحد .

وحروب فيليب الثاني في هولندا وغرناطة والبحر الأبيض المتوسط أدت هي الأخرى إلى إفلاس الخزينة سنة ١٥٧٥ /١٥٧٦ وضعفت قدرة الامبراطورية على الاستمرار في حروبها الدولية . ولكن سنة ١٥٨٠ كانت سنة خير بالنسبة لفيليب إذ ضم البرتغال إلى ممالكه ، وسيطر على أسطولها الضخم ، وكان ذلك نتيجة مباشرة للحملة التي نظمها الملك البرتغالي سبستيان ضد المغرب سنة ١٥٧٨ . ففي ذلك العام وقعت معركة القصر الكبير بين الغازين البرتغاليين والمغاربة فكانت هزيمة ساحقة للجيش الغازى قتل فيها الملك سبستيان ومعه عدد كبير من النبلاء ، وأسر الباقي ودمرت قوة البرتغال . مات سبستيان وخلف امبراطورية كبيرة شملت البرازيل وممالك واسعة في الشرق الأقصى ،وتوفرت الفرصة التي انتظرها فيليب لتوحيد شبه جزيرة ايبرية تحت امرته . وفي نهاية حزيران سنة ١٨٥١ أمر فيليب الثاني قائده المظفر دوق البة بدخول البرتغال وسحق المقاومة الضعيفة التي أبداها البرتغاليون . كان الأسطول البرتغالي أكبر أسطول في العالم إذ وصلت زنة سفنه إلى مابين ربع مليون و ٣٠٠,٠٠٠ طن بعد الحاق الأسطول الأسباني به ، مقابل اسطول هولندي زنة سفنه ٢٣٢,٠٠٠ طن ، واسطول انجليزى زنة سفنه ٤٢,٠٠٠ طن . هذه الفرصة الطيبة التي اتيحت لفيليب الثاني جاءت في وقت تدفقت فيه كميات كبيرة من الفضة المستخرجة من مناجم البيرو بعد استخدام الزئبق لتنقيتها ، فأصبح في مقدوره تمويل أية عمليات حربية جديدة ، وبدت الامبراطورية قوة لايمكن لأحد أن يغلبها في البر أو البحر .

في تلك الفترة كان الصدام على أشده بين أسبانيا وانجلترا ، فقد ساهم الإنجليز دائما في دعم الثورة الهولندية ، وهاجم اسطولهم السفن الأسبانية ، واستعرت المنافسة في المحيط الأطلسي . كان دون خوان النمسوي أول من عرض على فيليب الثاني غزو انجلترا ، ولكن الأخير مات سنة ١٥٧٨ دون أن يحقق حلمه وبقي على فيليب وضع خطة الهجوم والاستعداد لغزو انجلترا . وفي سنة ١٥٨٨ انطلقت ١٣٠ سفينة حربية أسبانية بإتجاه الشواطىء الإنجليزية ولكن رداءة الطقس،وبراعة القباطنة الإنجليز أدت إلى إخفاق عملية الغزو وفقد الاسطول الأسباني حوالي ثلث سفنه .

لم تكن هزيمة الأسطول الأسباني حاسمة إذ نظم فيليب غزوا آخر سنة ١٥٩٦ انتهى إلى نفس المصير ولكنها ساهمت في التقليل من هيبة أسبانيا في تلك الحقبة من الصراع الدولي ، بالإضافة إلى أنها كانت عملية باهظة النفقات كلفت الخزينة حوالي عشرة ملايين دوقة . ومنذ بداية التسعينات من ذلك القرن بدأ التصدع يظهر على اقتصاد الامبراطورية ثم أفلست الدولة سنة ١٥٩٦ . كان فيليب يحاول تقليد والده

كارلوس الخامس في كل شيء . وحاول هو الآخر بناء امبراطورية لاتغرب عنها الشمس ونجح في ذلك فترة ولكن النهاية كانت متماثلة تقريبا للوالد وابنه . فبعد افلاس الخزينة لجأ فيليب إلى الصلح مع فرنسا وقطع بعض الصلات مع هولندا ثم مات في الثالث عشر من ايلول سنة ١٥٩٨ ، فورثه ابنه فيليب الثالث وبدأت عملية تفكيك الامبراطورية . (أنظر: سقوط الامبراطورية الأسبانية) .

الفصل
الثالث

الثورة الأندلسية الكبرى

١ - أحوال الأندلسيين بعد الثورة الأولى

اعتبارا من بداية شهر آيار سنة ١٥٠٢ / ٩٠٧ كان جميع الأندلسيين في قشتالة وليون منصرين بموجب المرسوم الذي اصدرته الملكة ايزابيلا قبل ثلاثة أشهر من ذلك ، وخيرت فيه الأندلسيين بين الانضمام إلى الكنيسة أو الإرتحال إلى العدوة . وهكذا أضافت الكنيسة إلى رعيتها حوالي نصف مليون منصر بالإسم وحولت مساجدهم إلى كنائس أو أزيلت ، ومنع الأذان والصلاة ولكنهم استمروا يمارسون طقوسهم الدينية في الخفاء.وكان تطبيق المرسوم اسميا بصورة عامة لأن رجال الكنيسة كانوا يفتقدون إلى المهارة التي تمكنهم من تنصير الأندلسيين فعلا ، ولأن الأندلسيين كانوا يفتقدون الرغبة أو الحاجة للتنصر . في السنوات اللاحقة شددت الكنيسة والسلطات المدنية والعسكرية القشتالية الضغوط على الأندلسيين،فأصدر الملك فرناندو سنة ١٥٠٨ (٩١٤) مرسوما آخر يحظر على الأندلسيين استخدام اللغة العربية وارتداء الملابس التقليدية ، وممارسة أية عادات أو طقوس اسلامية أو عربية . ولكن الأندلسيين تجاهلوا المرسوم ولم تجد السلطات فائدة من متابعة تطبيقه لأن ذلك كان صعبا بسبب عناد الأندلسيين من جهة،وخوفا من أن يؤدي ذلك إلى إندلاع الإضطرابات مرة أخرى من جهة ثانية ، لاسيما في تلك المرحلة التي احتاج فيها فرناندو إلى تكريس كل جهوده لعزل الفرنسيين ، وتثبيت ممالكه الأرغونية في البحر الأبيض المتوسط .

في هذه الفترة نقل القشتاليون الحرب مع العرب إلى شواطىء المغرب ، وكان ذلك امتدادا للفكرة الأساسية التي تطورت مع تقدم قوات الممالك الشمالية في شبه جزيرة أيبرية نحو الجنوب الأندلسي ، وتصورت انتقال الحرب مع المسلمين إلى المغرب كمتابعة للحملات الصليبية في الغرب . وفي الفترة بين سنتي ١٢٥٢ و١٢٥٤ ، أي بعد إتمام إحتلال القسم الأعظم من الأندلس ، وضع الفونصو العاشر ترتيبات لغزو المغرب بموافقة الكنيسة الرومية وبركتها.ولكن التخوف من هجوم أندلسي معاكس أدى إلى تأجيل الحملة حتى سنة ١٢٦٠ ، عندما أرسل الفونصو ٣٠ سفينة هاجمت مدينة سلا في العاشر من أيلول بقصد احتلالها،ولكن الجنود قتلوا من قتلوا وسبوا عددا من سكانها ، وعادوا بالغنائم فقرر الفونصو صرف النظر عن مهاجمة السواحل المغربية ، والإهتمام بانهاء مملكة لبلة في غربية الأندلس .

وبعد استسلام غرناطة هاجم جنود ايزابيلا وفرناندو مدينة مليلة سنة ١٤٩٧ ثم وهران سنة ١٥٠٩ والهجوم على وهران كان من ترتيب الكردينال زمنيز كبير أساقفة قشتالة ، وصاحب السياسة التى دفعت

الأندلسيين إلى الثورة سنة ١٤٤٩ . والظاهر أن فرناندو شجع الكردينال على الحملة أملا بالتخلص منه بعد أن سئم تدخله في شؤون الدولة ، أو أن التشجيع كان بهدف تحقيق انتصار على أهل المغرب يضعف عزيمة الأندلسيين في غرناطة على مقاومة فرناندو وسياساته . ومهما كان السبب،فإن الهجوم على وهران انتهى بمذبحة هائلة قتل خلالها أربعة آلاف من سكان المدينة ،وسبي مابين خمسة آلاف وثمانية آلاف شخص ، ولم ينج الأطفال من القتل أو النساء من الاغتصاب . وحين دخل الكردينال زمنيز إلى المدينة سجد بين أكوام القتلى معلنا أن الانتصار ماهو في الحقيقة إلا انتصار الكنيسة . وأكمل الكردينال حملته الصليبية تلك بإقامة محكمة تفتيش في وهران سنة ١٥١٥ قبل أن يبدأ في تشكيل هذه المحاكم في مستعمرات العالم الجديد .

كان فرناندو يردد القول في السنوات الأخيرة من حياته بأن حلمه تحقيق السلام في أوروبة والإنطلاق بحملة صليبية هائلة لإحتلال مصر ، التي كانت مركز القوة الإسلامية في تلك الفترة ، ثم الاتجاه بعد قهر مصر إلى القدس لاحتلالها هي الأخرى . ولطالما حشد فرناندو جيوشه وأكثر من بناء السفن لايهام الناس بأنه يريد غزو الساحل المغربي قبل أن يعدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة ويوجه جيوشه وسفنه لمقاتلة الفرنسيين . ولكن فرناندو لم يغز مصر ولا القدس ومات سنة ١٥١٦ ، ولحق به الكردينال زمنيز بعد سنة وقد أعدا البلاد لاستقبال الملك الجديد كارلوس . ولكن الفترة الإنتقالية تلك كانت مليئة بالاضطرابات التي توجت باعلان ثورة سكان المدن في الأسبوع الأخير من آيار سنة ١٥٢٠.وكانت ثورة دامية اندلعت في قشتالة وارغون واستمرت حتى سنة ١٥٢٢ عندما قُضي عليها وفتح الباب لعودة كارلوس ملكا على البلاد .

أ – ثورة أهل المدن وتنصير الأندلسيين في بلنسية :

ولد كارلوس في غنت سنة ١٥٠٠ من خوانا (المجنونة) ، ابنة ايزابيلا وفرناندو والأرشدوق فيليب ابن الامبراطور النمسوى ماكسيمليان ، وتتلمذ على يدي أدريان الاترشتي ،فلم يكن يعرف الكثير عن قشتالة أو ارغون . ولكن جهله بممالكه في شبه جزيرة ايبرية لم يكن العامل السلبي الوحيد فقد اعتمد على حاشية كبيرة من الفلمنك جلبها معه حين وصل قشتالة سنة ١٥١٧ . وهكذا اندلعت ثورة أهل المدن عندما كان كارلوس يجمع ارثه ويتوجه البابا امبراطورا سنة ١٥٢٠ ، واشترك في هذه الثورة الشعبية النبلاء والتجار ورجال الدين والرعاع على حد سواء . وكانت النقمة عارمة على كل من له صلة بالحكم ، فنمت الثورة واتسعت نتيجة الموقف السلبي الذي أخذه ادريان الاترشتي ، وكان كارلوس عينه وصيا على البلاد أثناء غيابه لتسلم عرش الامبراطورية . بعث ادريان بحوالي ألف جندي لقمع الثورة في مدينة شقوبية في تموز سنة ١٥٢٠ ، ولكنهم هزموا فأرسل التعزيزات إليها ، ودارت حرب شوارع شرسة . ووصلت الثورة إلى أوجها إثر إحراق مدينة كمبو ، وكانت مركزا رئيسيا للتجارة والمال في قشتالة ، ثم أمتدت الثورة إلى بلد الوليد مما اضطر ادريان إلى الفرار ، وبات من العسير على كارلوس الامبراطور أن يعود إلى مملكته .

بلنسية
(بوابة حي
المواركة القديم)

وماحدث بعد ذلك يبدو غامضا ولكن نيران الثورة خمدت ، في حين بقيت غرناطة وقرطبة ومدن أخرى في المناطق الجنوبية تؤيد الملكية ، وتحث كارلوس على العودة إلى البلاد . وانقسام زعماء الثورة وخمود نيرانها أدى إلى تراجعها أمام تقدم المؤيدين لكارلوس ، وكانت طليلطة آخر المدن الثائرة التي سقطت بعد قتال عنيف قادته أرملة قائد الثورة في أحد مراحلها وهو « بديلا » . وخلال هذه الثورة تسلم

أسقف سمورة قيادة الغاضبين فاحرقوا المزارع والكنائس ونهبوا مافيها ولكنه اعتقل خلال فراره إلى فرنسا واودع السجن ، فحاول الهرب منه بعد خمس سنوات أثر قتل السجان ، ولكنه اعتقل ثانية ومات تحت التعذيب مما دفع البابا إلى فصل الامبراطور كارلوس من الكنيسة بضعة أشهر . وجاءت نهاية زعماء ثورة أهل المدن حين اعدم كارلوس ٢٥٠ منهم في بلد الوليد سنة ١٥٢٢ بعد أربعة أشهر من عودته إلى البلاد .

في نفس الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أهل المدن في قشتالة ، كان أهل مدن مملكة ارغون يشعلون نيران ثورة مشابهة ولكن لأسباب مختلفة تماما . ففي السنة التي سبقت اندلاع الثورة في بلنسية صرف الجنود الأسلحة لجماعات من سكان المدينة ، بعد أن توقعت السلطات قيام العثمانيين بهجوم عليها،وكان ذلك كافيا لاثارة الاضطراب في نفوس السكان . وفي صيف سنة ١٥١٩ ظهرت بعض حالات الاصابة بالطاعون فهرب معظم المسؤولين والجنود منها ، وشكل بعض السكان مجموعات أطلقت عليها مجموعات « جرمانية » أو « الأخوة » فتسلمت مقاليد السلطة في بلنسية وبدأت توسع نفوذها في الأرياف القريبة . كان خوان لورينك أول قائد مُنصّب لهذه المجموعات . وكان يشتغل بصناعة الملابس ولكن طموحه كان كبيرا إذ فكر في تحويل بلنسية إلى جمهورية مثل جمهورية البندقية ، ولكن سلطة الأخير لم تدم فأخذها زعيم متطرف هو بيريس ووجهها ضد النبلاء،ثم ضد الأندلسيين في مملكة بلنسية تحت شعار « اليوم تنتهي أيام النبلاء والكفار » . وهكذا تحولت ثورة بلنسية إلى حركة اصلاح اجتماعي من نوع معين . ولكن الحقد أنصب على النبلاء وأصحاب الأرض ، ثم على الأندلسيين لأن عددا كبيرا منهم كان يعمل لدى هؤلاء النبلاء وبالتالي اعتبروا معادين للثورة مثلهم مثل أثرياء المدينة ، ثم كانت عملية اقتحام المناطق التي يسكنها الأندلسيون وتنصيرهم بالقوة . ازاء هذا الموقف تردد بعض أفراد الأسر الحاكمة في متابعة تأييدهم لحركة ثوار مدينة بلنسية بسبب تطرفها،فانعزلت وتمكن الموالون لكارلوس من هزيمة قوات بيريس خارج مدينة بلنسية في تشرين الأول سنة ١٥٢١ ، وفر بيريس ولكن قبض عليه في أول السنة التالية،وانتهت ثورة المدن في ارغون كما سبق وانتهت في قشتالة .

ب – الأندلسيون وكارلوس :

أيد الأندلسيون عودة كارلوس الخامس إلى عرش قشتالة خوفا من أن تؤدي الفوضى إلى إقحامهم في النزاع وسقوطهم ضحايا لرعاع قشتالة وارغون ، أوعلى الأقل،لتجنب مصير اندلسي بلنسية رغم أنهم كانوا أغلبية فيها ، وانتظروا أن يأخذ كارلوس تأييدهم بالاعتبار عند النظر في مظالمهم . ولابد أنهم استبشروا خيرا عندما الزم الامبراطور نفسه – في خطاب تسلم العرش القشتالي أثناء الإحتفال الذي تم في سرقسطة -بعدم التدخل في الشؤون الدينية للأندلسيين الذين كانوا يعيشون في مملكة ارغون . ولأن تربية كارلوس كانت في ظروف بعيدة كل البعد على التعصب القشتالي ، فإنه لم يعر كثير اهتمام لعمل محاكم التفتيش في البداية،إلى أن بدأ يشعر بخطر تقدم الحركة البروتستانتيه في ألمانيا وهولندا ، واحتمال تأثير ذلك على الدخل الهائل الذى كان يحصل عليه من الضرائب الباهظة التي فرضها على الهولنديين . وفي الفترة مابين سنة ١٥٢٣ ، ١٥٢٥ نمت حركة اصلاح معادية لكاثوليكية روما في زوريخ ، واتسعت لتشمل المانيا

والنمسا وراح كارلوس يدعم نشاط محاكم التفتيش في هولندا للقضاء على البروتستانت ، نظرا لأن المحاكم تلك كانت تعتبر امتدادا طبيعيا لسلطة كارلوس ، كما كانت كذلك أيام ايزابيلا وفرناندو ، ثم في عهد فيليب الثاني فيما بعد . ولابد أن كارلوس كان يعيش مخاوف اتساع حركة الإصلاح الديني في ممالكه الأوروبية عندما تقدم إليه بعض زعماء غرناطة ، يطلبون منه وقف مضايقات السلطات نتيجة صدور مرسوم عام ١٥٢٥ المؤكد لمرسوم سنة ١٥٠٨ ، فأمر بتشكيل لجنة خاصة عهد برئاستها إلى رئيس أساقفة مدينة قـادس لبحث مظالم الأندلسيين ، ورفع تقرير إلى الإمبراطور عن نتائج تحقيقات اللجنة . ولكن بدلاً من أن تأمر اللجنة بانصاف سكان غرناطة ، كما توقع أهلها ، فإنها أوصت كارلوس الخامس بتأسيس محكمة للتفتيش في غرناطة في السنة التالية ، وأمر الأندلسيون بالإمتناع عن التكلم بالعربية أو ارتداء الزى الوطني أو الصلاة والوضوء ، أو حتى ختان أولادهم وصبغ الأظافر بالحناء . وأمروا كذلك بالإقبال على أكل لحم الخنزير وشرب الخمر وطهو لحم الحيوانات التي تموت ميتة طبيعية دون ذبحها ، وغير ذلك من الأمور . وهناك رواية عن أندلسي طارده الجنود في الجبال وقبضوا عليه وعذبوه لأنه فضل الماء على الخمر ورفض أكل لحم الخنزير . وفي سنة ١٥٢٩ شهدت غرناطة حدثا مروعا حين احرقت أول مجموعة أندلسية من ضحايا المحكمة (أنظر : الأندلسيون ومحاكم التفتيش) فدب الرعب وفرت أعداد كبيرة من سكان غرناطة إلى الشمال ، واختلطوا بسكان مدن قشتالة،أو انضموا إلى سكان الأحياء الأندلسية في مدن الشمال . « وكتلك » كارلوس أعمال الاضطهاد هذه حين طلب من بابا روما إصدار مرسوم كنسي يعفيه من الالتزام الذي تعهد به ساعة تنصيبه على عرش قشتالـة بعدم التدخل في شؤون المسلمين في ارغون . واستغل الأندلسيون حاجة كارلوس القصوى للأموال فعرضوا عليه مبلغا من المال لقاء صرف اهتمام المسؤولين عنهم فوافق ولكن لقاء مبلغ كبير وصل إلى ٨٠،٠٠٠ دوقة في السنة ، بالإضافة إلى تحصيل ٢٠،٠٠٠ دوقة أخـرى قدمت إلى الأمبراطور كضريبة أسماها ضريبة « الفرضة » وكانت لقاء السماح لأهل غرناطة بالتكلم بالعربية وارتداء الزي الأندلسي ٤٠ سنة . وساعدت الرشاوي التي قدمها أهل بلنسية في تخفيف بعض الضغط عنهم ، ويقال أن بعض عمال محاكم التفتيش كانوا من بين المرتشين ، وإن كان ذلك صعب الإثبات .

حملة الإرهاب الجديدة ضد الأندلسيين في قشتالة وارغون أثارت غضب أهل المغرب في وقت احتدم فيه الصراع ضد العثمانيين ، فبدأت الحملات الحربية على السواحل القشتالية والأرغونية وهوجمت مدن مالقة وبلنسية وقادس،وأضحت الجزائر القاعدة الرئيسية لعمليات الإغارة ولاسيما تحت قيادة خير الدين بربروسا (١٤٧٥ — ١٥٤٦) . ومع تزايد عمليات الإغارة هذه اتسع نطاق الغزو فشمل السواحل الإيطالية بمساعدة من ملك فرنسا فرانسيس الأول ، وكان ألد أعداء امبراطورية كارلوس الخامس ، بحيث شكل سنة ١٥٣٦ تحالفا مع الأتراك ضد عدوه في الجنوب . وأمام اتساع الأعمال العسكرية التي أدت إلى أسر الآلاف من القشتاليين والأرغونيين والصقليين والنابوليين ، بعث كارلوس أمير البحر الجنوى اندريا دوريا لمهاجمة قواعد القراصنة قرب الجزائر سنة ١٥٣٠ ، ولكن الأخير تحاشى الاشتباك مع بربروسا الذي قوى موقفه في السنوات القليلة اللاحقة بعد أخذ تونس . وفي حزيران من سنة ١٥٣٥ استكمل كارلوس العدة لمهاجمة بربروسا،فاستقدم المرتزقة الألمان وجمع الجنود من مالطة وايطاليا،وانطلق الأسطول بقيادة

كارلوس إلى تونس ، وتمكن بعد معركة عنيفة من تحطيم اسطول بربروسا ، ولكن بربروسا نفسه تمكن من الفرار والعودة إلى الجزائر . وفي سنة ١٥٤١ بعث كارلوس باسطول ضخم لمهاجمة الجزائر، ولكن الحملة انتهت إلى الإخفاق الذريع ، وتلقى كارلوس نكسة عنيفة في نفس العام عندما سقطت المجر بأيدي الأتراك . والسنوات التالية شهدت استمرار الصراع في البحر الأبيض المتوسط باشتراك الأسبان والبرتغاليين والإيطاليين ضد الهجمات في مراكز الهجمات في الجزائر وتونس وليبيا- إذ انطلقت سنة ١٥٥١ حملة من طرابلس لاحتلال مالطة ولكنها لم تحقق النجاح ، وردت الأساطيل الأسبانية والإيطالية بمحاولة سنة ١٥٦٠ (بعد سنتين من موت كارلوس الخامس) لاحتلال جزيرة جربة التونسية ، بغية استخدامها قاعدة للانقضاض على طرابلس ولكن المحاولة اخفقت ، بل وشجعت الأتراك على تشديد الضغط على السواحل الأسبانية وهددت جزيرة ميورقة سنة ١٥٦١ مما دفع الإمبراطور فيليب الثاني ، خليفة كارلوس ، إلى التفكير في اجلاء الجزيرة . ومع اشتداد قوة الأسطول التركي حشد فيليب الثاني اسطولا مشتركا مع الإيطاليين انطلق بقيادة دون خوان النمسوي واحرز انتصارا كبيرا على الأسطول التركي في معركة لبانت التي وقعت قرب الساحل اليوناني سنة ١٥٧١ . ولكن الإغارات لم تتوقف ، وانطلقت حملات جديدة من تونس سنة ١٥٧٤ باتجاه صقلية والطرق البحرية بين اسبانيا ومستعمراتها الإيطالية ، وأسر كثيرون في العمليات بينهم سرفانتس مؤلف دون كيخوتي الذي اشترك في معركة لبانت ، ولكنه أسر في طريق العودة إلى أسبانيا ، وبقي فترة أسيرا حتى استفدى . أما آخر الغزوات ضد الساحل المغربي في تلك الحقبة فوقعت سنة ١٥٧٨ عندما قتل الملك البرتغالى سباستيان الأول في معركة القصر الكبير ومعه عدد كبير من النبلاء البرتغاليين ، وكان ذلك سببا في ضم البرتغال إلى ممالك فيليب الثاني .

وفي آخر عهد فيليب الثاني كان الاهتمام بالبحر الأبيض قد ضعف وانتقل إلى العالم الجديد أو البحار في الشمال ، وانتهت بذلك الحملة الصليبية إلى أن تجددت في القرن التاسع عشر ، عندما بدأ عهد الاستعمار الحقيقي .

وخلال المعارك التي دارت في البحر الأبيض المتوسط كان الأندلسيون يدفعون الثمن تارة لنجاح الهجمات على الأساطيل الأسبانية والأرغونية والإيطالية ، وتارة لتقدم حركة الإصلاح الديني في أوروبة ، وأحيانا بسبب اخفاق حاكم أو آخر أو سياسة أو أخرى . وكان الثمن بالنسبة لكارلوس الخامس حوالي ١٠٠,٠٠٠ دوقة تسلمها لقاء السماح للأندلسيين بتكلم لغتهم وعض طرف السلطات عنهم ، ولكن تأزم الموقف في أوروبة،واشتداد الصراع الديني بين الكاثوليك بقيادة قشتالة والبابا،وبين البروتستانت وأنصارهم أدى إلى ازدياد الاعتماد على محاكم التفتيش ، سواء في هولندا أو في قشتالة وارغون ، واطلاق أيدي عمالها ضد-الأندلسيين بإعتبارهم من المُنصّرين المتهمين بالهرطقة . وهكذا بدأت في الأربعينات والخمسينات من القرن السادس عشر عمليات مصادرة أملاك الأندلسيين بدعوى أنها الطريق الوحيد لمصالحة الأندلسيين مع الكنيسة الأسبانية . وكان موقف الكنيسة في الأماكن الأخرى التي سكنها الأندلسيون لايقل حقدا.وهناك مثال حي على ذلك في موقف رجال الدين في بلنسية أثر قمع ثورة أهل المدن سنة ١٥٢١ واعدام زعمائها- . فبعد هدوء الأحوال في المدينة شكلت الكنيسة لجنة من علماء الدين لبحث

طلب تقدم به الأندلسيون البلنسيون لالغاء عملية تنصيرهم خلال هجوم الرعاع على الأحياء الأندلسية ، وقررت أن الثورة المدنية غير قانونية ولكنها رأت أن عملية التنصير مقبولة ولايمكن الغاؤها تحت أية ظروف .

ولكن رغم كل المضايقات والضغوط التي تعرض لها الأندلسيون خلال حكم كارلوس الخامس مابين ١٥١٧ و١٥٥٨ ، ورغم عمليات الاضطهاد التي مارستها الكنيسة،فإن الأحوال لم تكن لتقارن بما حمله المستقبل . فالرشوة التي كان كارلوس يحصلها من الأندلسيين كانت عاملا رئيسيا في تجاهل السلطات لوجودهم والاستمرار في استخدام لغتهم وارتداء زيهم الوطني ، ولكن فيليب الثاني كان شخصية مختلفة تماما .

٢ - أسباب اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى

أ - الأحوال السياسية :

تنازل الأمبراطور كارلوس الخامس عن العرش سنة ١٥٥٦ ، ومات بعد سنتين دون أن يتمكن من قهر الفرنسيين أو الأتراك أو البروتستانت،ولكنه خلف امبراطورية هائلة لابنه فيليب الثاني . كان كارلوس هولندي المولد ، غريب الشكل وبعيدا كل البعد عن رعاياه في قشتالة حتى أنه أمضى ١٦ سنة هناك من أصل الفترة التي حكم فيها وامتدت حوالى ٤١ سنة ، ووصل لتسلم زمام الأمور في قشتالة سنة ١٥١٧ وهو لا يعرف أصول اللغة الاسبانية . وأخفق كارلوس ، بالطبع ، في تكوين مملكة دولية واحدة يحكمها رجل واحد وتدين بالكاثوليكية ، ولكنه كان مؤسس الامبراطورية، وبقي على فيليب الثاني استكمال رحلة والده . كان فيليب ذكيا ونشيطا أمضى القسم الأخير من حياته وهو يعيش في إحدى غرف قصره الهائل في الاسكوريال كما يعيش الراهب . غير أنه لم يكن ليستطيع التمييز بين المهم والتافه . وكان يحتاج لفترة طويلة قبل أن يتخذ القرار ، وإن اتخذه فقد لايتابع تنفيذه حتى النهاية . وربما تدخل في بعض المسائل المجمدة فأجج لهيبها بدلا من أن يحلها وهذا ماحدث مع الأندلسيين في الجنوب سنة ١٥٦٨ . أما عن طباعه فقد أحسن مؤرخه كبريرة القرطبي القول حين كتب أن ابتسامة الامبراطور وخنجره قريبان جدا من بعضهما . ولم يكن هذا بغريب على امبراطور متعصب أمضى فترة حكمه في شبه جزيرة ايبرية دون أن يغادرها وكان قشتاليا وصليبيا حتى العظم ، صرف كل جهده وأموال الخزينة في مقارعة عدويه الأكبرين:الإسلام والبروتستانتية .

أعلن فيليب الثاني الحرب على البروتستانت في كل مكان عازما على تطهير الدنيا منهم ولاسيما في هولندا . ولكن المفاجأة كانت في اكتشاف خليتين للبروتستانت في بلد الوليد واشبيلية فكان الغضب والخجل من اكتشاف البروتستانت في قشتالة التي حملت لواء الكنيسة الرومية وخاضت الحرب ضد

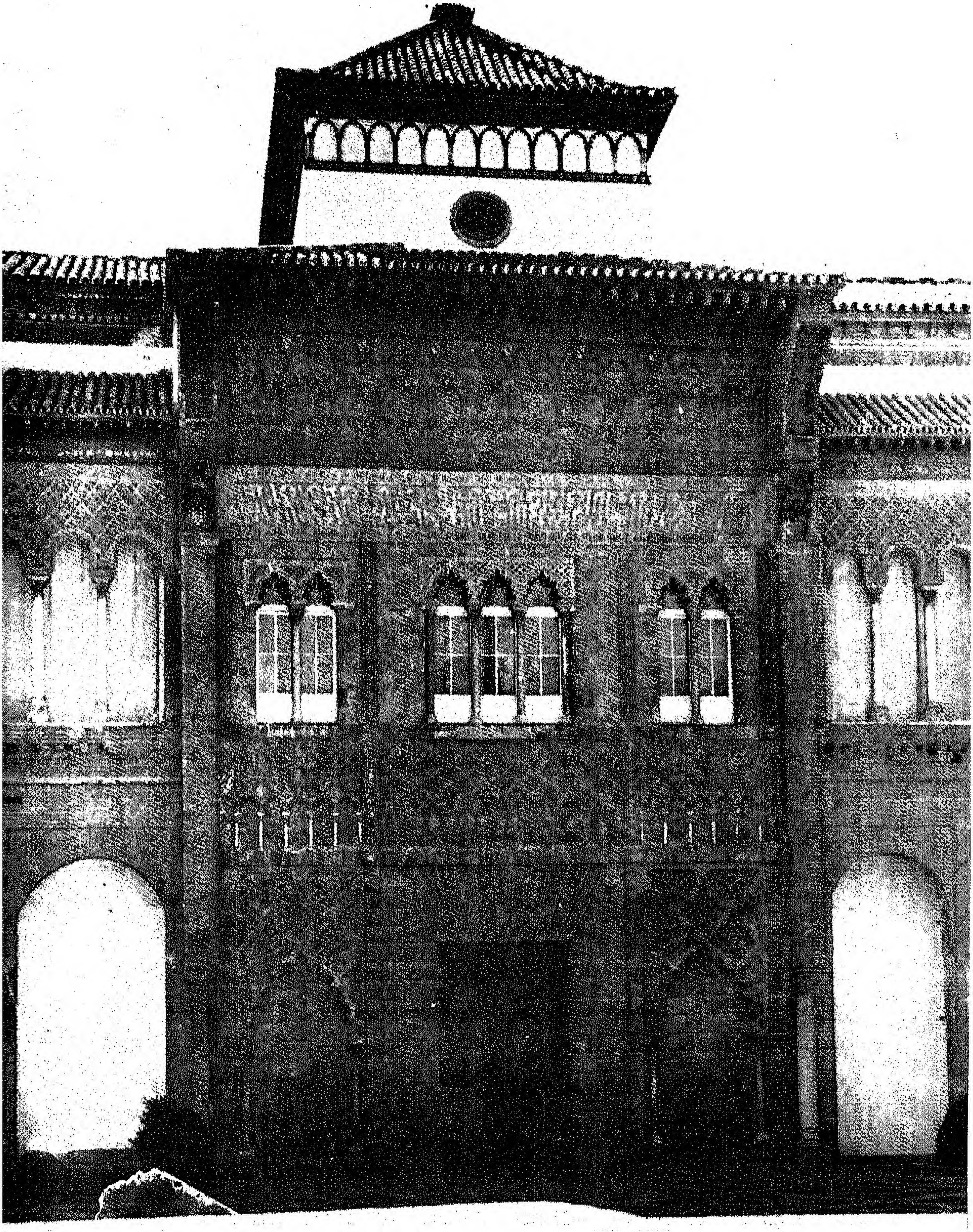

واجهة القصر في اشبيلية

جدار هو كل ما تبقى من القصر القديم في اشبيلية

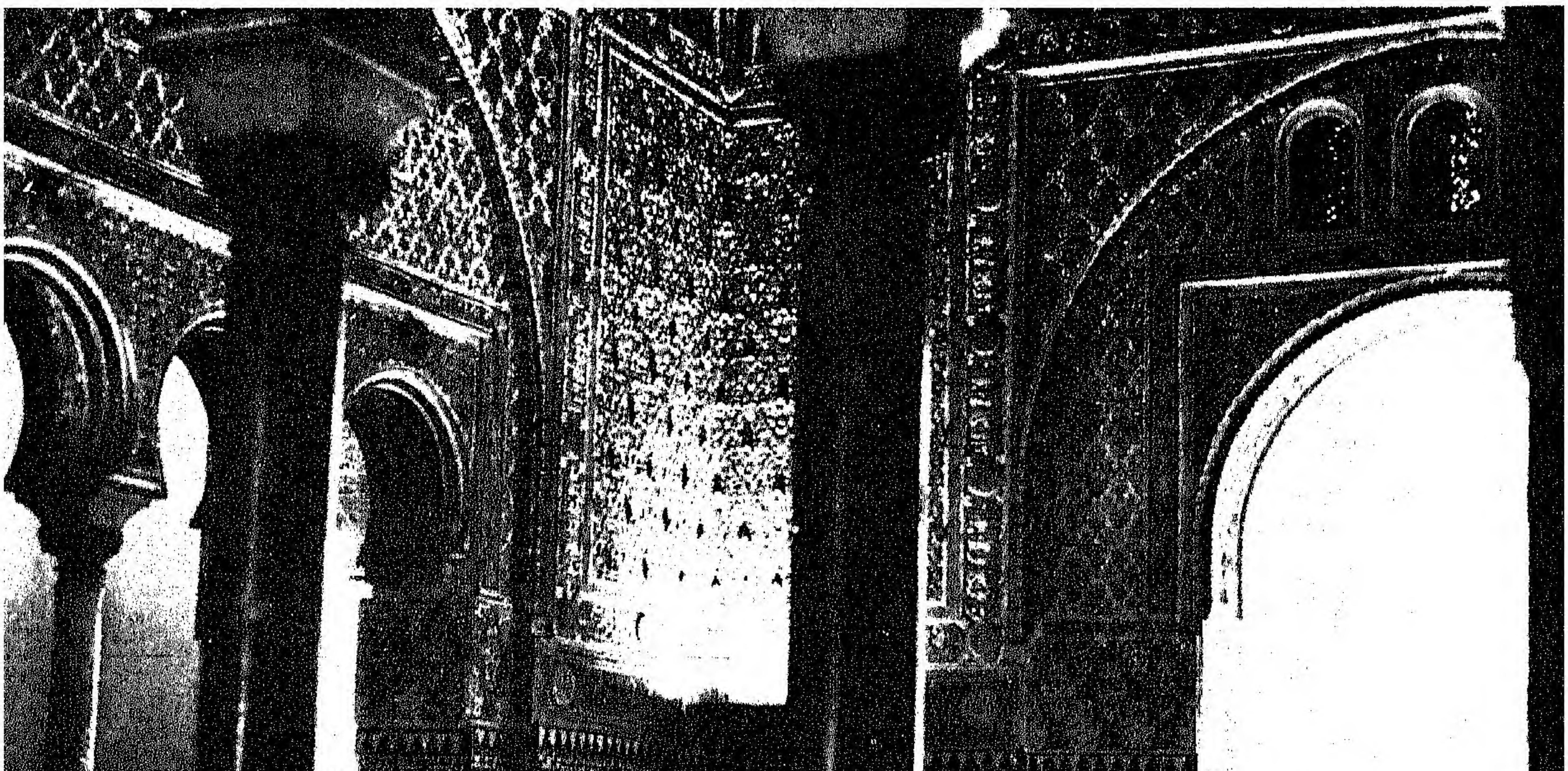

احدى قاعات قصر اشبيلية

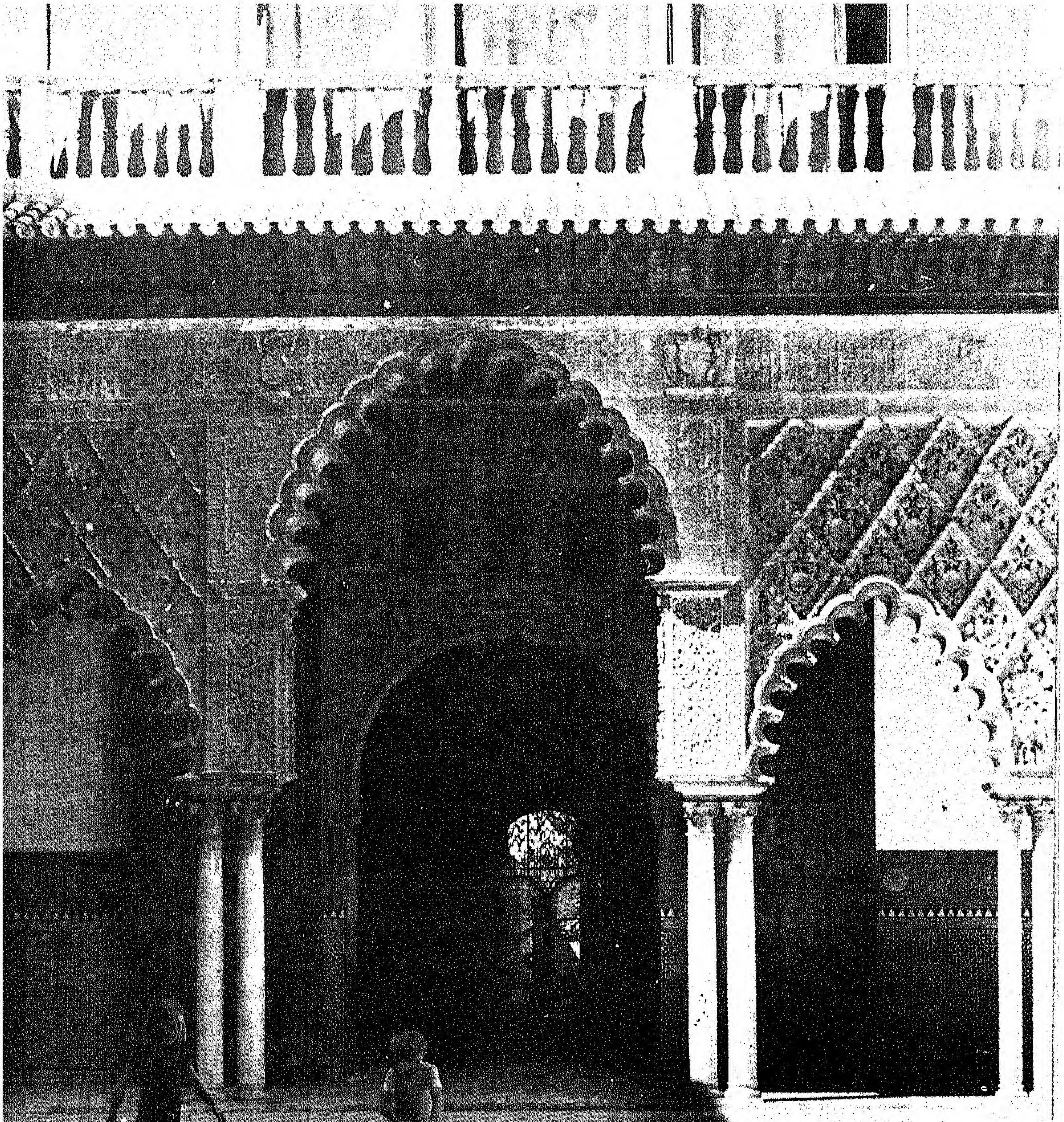

الباحة الرئيسية في مقر اشبيلية

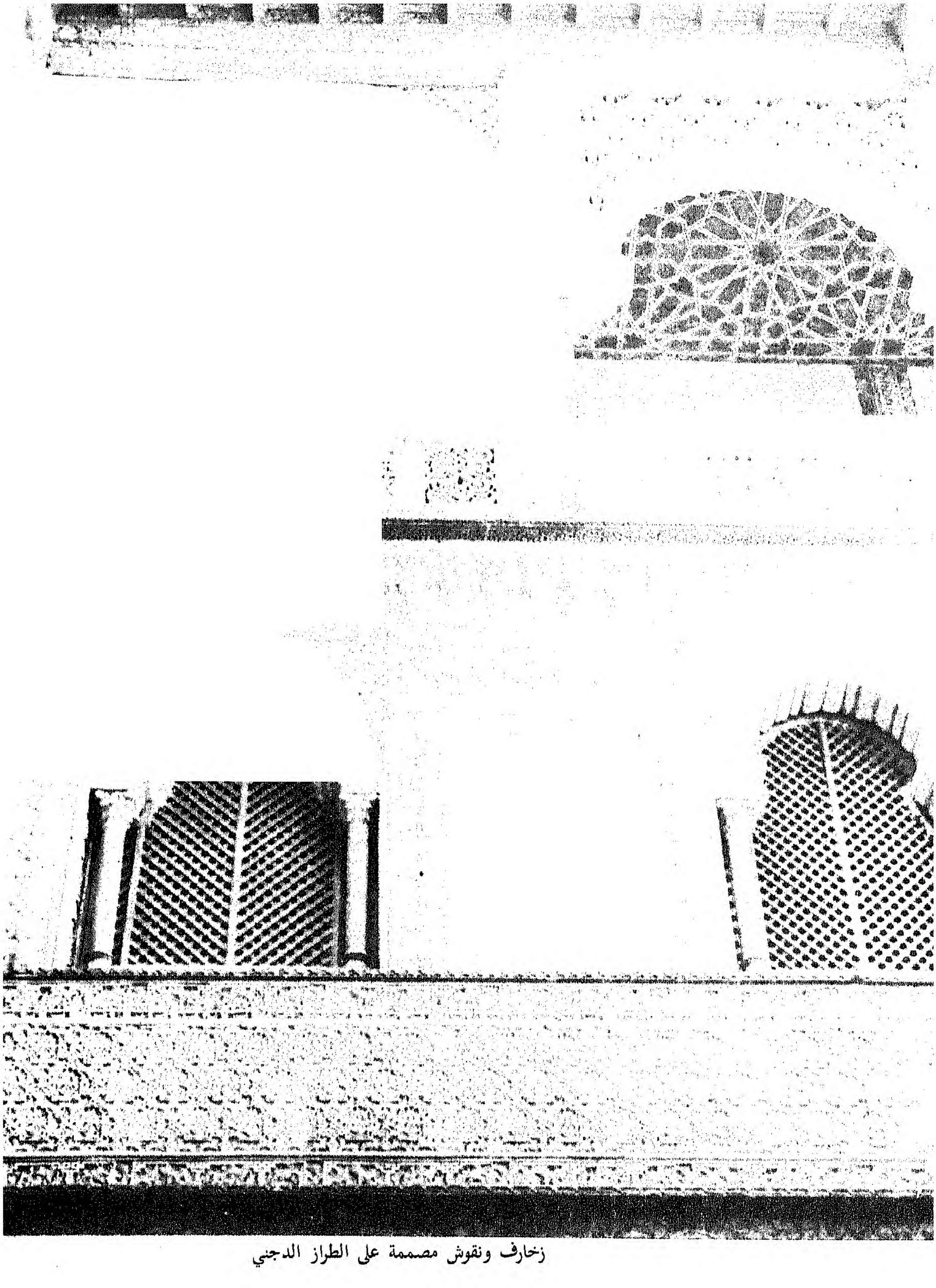

زخارف ونقوش مصممة على الطراز الدجني

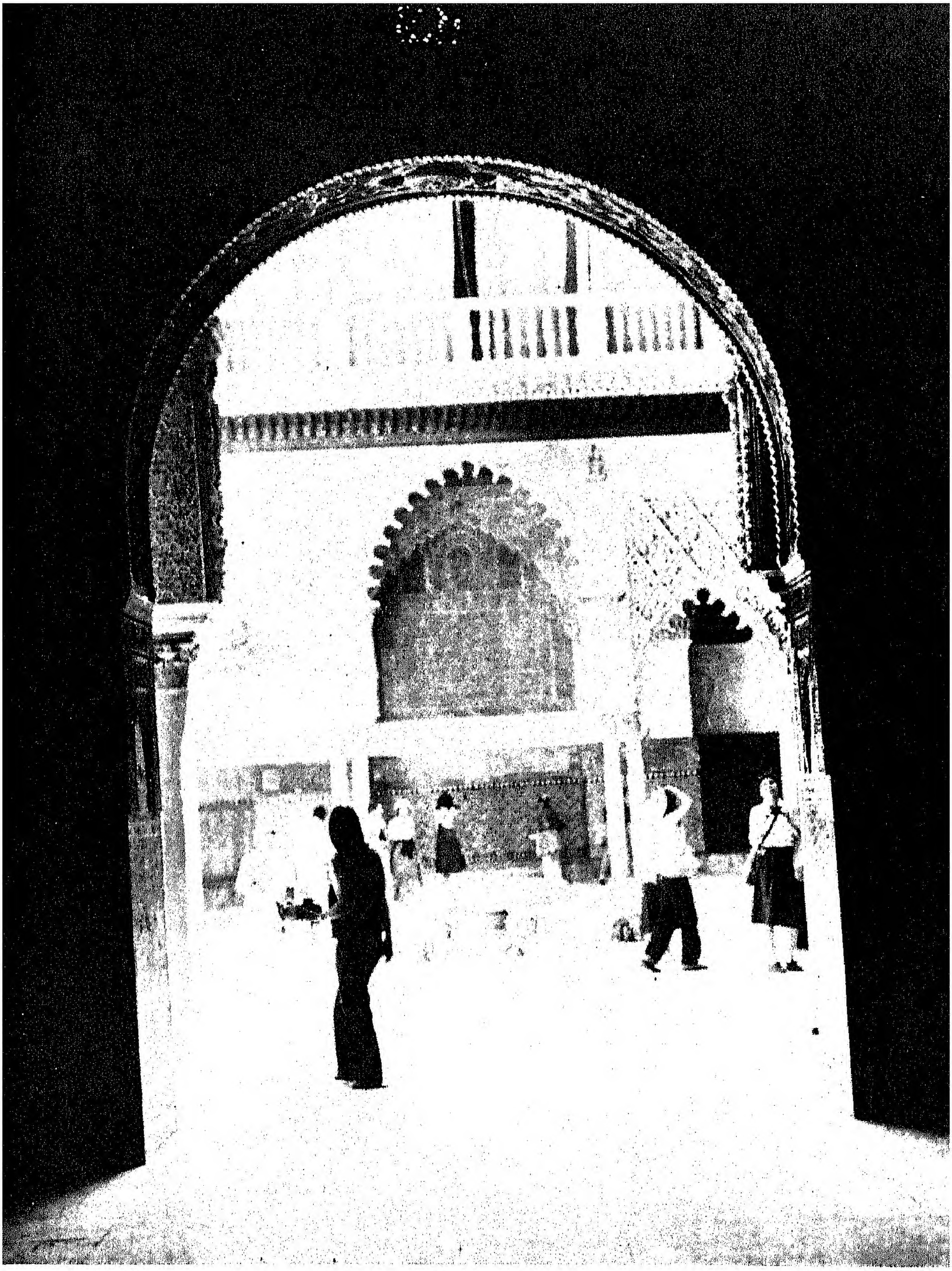

الباحة الرئيسية من احدى القاعات (القصر باشبيلية)

البروتستانت بإسم البابا وبإسم الكاثوليكية في أوروبة وكان الرد سريعا وعنيفا . وفي الثامن من تشرين الأول سنة ١٥٥٩ احتفل في بلد الوليد باحراق الهراطقة البروتستانت بحضور فيليب الثاني نفسه . والمخاوف من تغلغل البروتستانتية إلى قشتالة كانت مجرد أوهام ، فمحاكم التفتيش لم تعتقل أكثر من ٣٠٠ من الهراطقة في كل سنوات حكم فيليب الثاني داخل شبه جزيرة ايبرية . والحرب ضد الهرطقة كانت تجري وقتها في هولندا وهناك سقط عشرات الآلاف ضحايا محاكم التفتيش . ولكنها كانت حربا شاملة تبناها فيليب الثاني فلم يأتمن الكاثوليكية حتى إلى البابا ، كما اتضح عندما سير دوق البة ضد البابا سنة ١٥٦٦ على رأس جيش من ١٢,٠٠٠ جندي فأخضعه لما أراد فيليب الثاني بموافقة الكنيسة القشتالية نفسها.وحين تحركت فرنسا لدعم البابا بولص الرابع كان الوقت قد فات ، ولم يتمكن قائد الجيش الفرنسي دوق غيز من احراز أى تقدم في هجومه ضد نابولي ، فقال قولته الشهيرة : « لابد أن القدر أخذ الجنسية الأسبانية » .

في هذه الأثناء،كان الاتراك يتقدمون في كل مكان من البحر الأبيض المتوسط . وكان مستشارو فيليب الثاني يخططون للرد وهم يرون في أندلسيي غرناطة وبلنسية وغيرها من المناطق ، حلفاء للأتراك أو في صفوف الطابور الخامس على الأقل . وانقسم رأى السلطة إلى إتجاهين : الأول يقول بتجاهل الأندلسيين وغض الطرف عن أحوالهم بغية استمالتهم لصالح فيليب الثاني ، والاتجاه الآخر يقول بضرورة اتخاذ موقف حازم منهم مهما كلف ذلك . في سنوات التردد هذه حاول الأندلسيون بدء المباحثات مع محاكم التفتيش لوقف تسلطها عليهم،ولكن المحاولة انتهت إلى الإخفاق . في غرناطة كانت المضايقات التي يتعرض لها الأندلسيون بلا نهاية ، ولكنهم كانوا يأملون في التوصل إلى اتفاق جديد مع فيليب الثاني يقدمون بموجبه مبلغا من المال لقاء رفع بعض القيود عنهم ، كما حدث مع والده كارلوس الخامس . وبموجب مرسوم التنصير سنة ١٥٠٢ تحول كل الأندلسيين في قشتالة وليون إلى نصارى ولكن بالإسم فقط ثم انضم إليهم اندلسيو بلنسية بعد ثورة أهل المدينة سنة ١٥٢١ وأصبحوا هم أيضا نصارى بالإسم . كان الأندلسيون يعرفون ذلك ، وكان القائمون على السلطة يعرفون ذلك ، ولكن الجماعتين تجاهلتا هذا الوضع الذي لم يكن ليستمر طويلا ، وكان هذا واضحا منذ أن تسلم فيليب الثاني الحكم من أبيه .

تعقدت أوضاع الأندلسيين مع تعاظم الصراع على السلطة في الجنوب ، ومحاولة كل جهة احراز نفوذ أكبر على الأندلسيين . فكان الحاكم العسكرى ضد محاكم التفتيش . وكانت محاكم التفتيش ضد المجلس البلدي وكان المجلس البلدى ضد رئيس الأساقفة . وكانت المحكمة العليا في جنوب قشتالة تعتقد أن رأيها أصوب الأراء . وفي هذا الصراع كان الأندلسيون يدفعون الثمن بصورة دائمة.فاستنجدوا بفيليب الثاني كما فعل الجميع،ولكن دون تدخل حاسم في البداية . وعندما أرسل مبعوثا لحل الخلافات بين القوى المتناحرة في غرناطة على الأراضي،اشتبك المبعوث مع الجميع وتعقد الوضع ولم يتدخل فيليب الثاني (١) شغل الحاكم العسكرى أهم مركز في غرناطة . فالمنصب قديم أوجدته الملكة ايزابيلا بهدف تنظيم الدفاع ضد غزو أهل المغرب ، وبقي في أيدي أسرة مندوزا المتنفذة منذ أيام تندلة مرورا بأسلافه الذين عرفوا فيما

---

(١) أنظر : Elliot, J:H. Imperial Spain (1469-1716), London, 1963. PP228-234.

بعد بإسم مركيز مندخار ، وانتهاء بالدون إيناغو لويث دي مندوزا الذي تسلم منصبه سنة ١٥٤٣ بإسمي مركيز مندخار والكونت تندلة الرابع . واعتماده على الأندلسيين كان بهدف تحصيل الضرائب واستخدام منازلهم لضيافة جنده (وكانت هذه عادة منتشرة في تلك الأوقات ينزل فيها الجنود على السكان في حالات السلم لتخفيف نفقات السلطة)،وكان يقدم للأندلسيين بعض الحماية من محاكم التفتيش والكنيسة لأهداف تخدمه وتخدم الأندلسيين في نفس الوقت . وهكذا فإن وضع الأندلسيين ارتبط بالنفوذ الذي يتمتع به الحالم العسكري في بلاط كارلوس أو فيليب الثاني من بعده . وكان هذا النفوذ كبيرا حتى بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر . في تلك الفترة كثر أعداء مركيز مندخار فراحوا يؤيدون خصمه مركيز بلش مالقه الثاني الذي كان على رأس أسرة منافسة عرفت بإسم فخاردو . وكان الصراع على القوة بين الأسرتين على أشده في وقت ازداد فيه حال الأندلسيين سوءا .

وفي سنة ١٥٤٦ تسلم بدرو غيريرو منصب رئيس أساقفة غرناطة.وحاول هو الآخر ، كما فعل طلبيرة من قبله ، اتباع سياسة معقولة مع الأندلسيين لكسبهم إلى جانب الكنيسة،وحاول إعداد رجاله لاتباع هذه السياسة دون تحقيق نجاح يذكر . في سنة ١٥٦٥ حضر المجلس إلكنسي الذي عقد في ترنت حيث أنتقدت سياسة التسامح المتبعة مع الأندلسيين، فدعا المجلس الاقليمي إلى اجتماع تقرر فيه اتباع سياسة أشد حزما ضد الأندلسيين لاستكمال تنصيرهم . ولقي هذا الرأي استحسان دييغو دي اسبينوزا رئيس مجلس قشتالة والمفتش السابق لمحاكم التفتيش، فكان أن أوصى فيليب الثاني بالعمل على تنصير الأندلسيين ، لأن تنصرهم السابق لم يكتمل مشيرا إلى أن الوقت حان لإزالة آخر بقع الهرطقة في قشتالة . وفي السابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٥٦٦ وضعت لجنة مشتركة بنود مرسوم آخر « لاصلاح » وضع الأندلسيين ، وصدر في بداية كانون الثاني من السنة التالية .

ب – الأسباب الاقتصادية :

اعتمد الأندلسيون على الزراعة وصناعة الحرير تحت حكم سلطات قشتالة وكانوا بصورة عامة مبعدين عن شغل الوظائف الحكومية او المراتب العالية كمعظم الاقليات . وكان من بينهم التجار الصغار والعمال وأصحاب المهن الصغيرة وقد يصدف أن يكون بعضهم من الأثرياء،ولكن مستوى معيشتهم كان منخفضا بصورة عامة . والاضطهاد الذي تعرض له الاندلسيون،وخاصة في غرناطة،أدى إلى اعتماد أهل المدينة على الاتجار بالحرير وصناعة الملابس الحريرية . ولذا فإن ثروتهم الأساسية كانت إما في الحرير أو في الذهب والأحجار الكريمة التي يمكن اخفاؤها أو نقلها بسرعة فيما لو استدعت الضرورة ذلك . إضافة إلى هذه النشاطات عمل الآلاف من الأندلسيين في الموانى والنقل،ولاسيما في استخدام الحمير والبغال في عمليات نقل البضائع المختلفة .لابد ان اعداداً كبيرة منهم كانت تشتغل في مصانع صغيرة لإنتاج الورق والسكر والصابون ، وفيما بعد التبغ،ولاسيما في المعمل الذي أقيم في اشبيلية . والأندلسيون كانوا معروفين بالجد والنشاط حيثما وجدوا . فقد يصل الاندلسيون ، منفيين أو مرتحلين من غرناطة لسبب أو لآخر ، إلى منطقة ما دون أن يكون معهم الكثير ، ولكن جدّهم كان يوفر لهم الدخل . ومع الزمن كانوا يجمعون ثروة وقد يوظفون البعض من سكان المنطقة التي يقيمون فيها لمساعدتهم .

وجاء اضطراب الأوضاع في غرناطة ، وتقاتل أطراف السلطة هناك على النفوذ في وقت تعرضت فيه صناعة الحرير إلى كساد عام سببته السياسة الحكومية التي عمدت أولاً إلى منع تصدير الحرير المصنوع في غرناطة ، ثم إلى فرض ضرائب باهظة على الحرير اعتبارا من سنة ١٥٦٢ فكان أهل غرناطة المتأثرين الوحيدين تقريبا من هذه السياسية الموجهة . والالتفات الى الزراعة لتحقيق دخل أكبر يخفف من الاعتماد على صناعة الحرير المضطربة اصطدم بمشاكل جديدة.فمحاكم التفتيش كانت تصادر أراضي الأندلسيين المتهمين بالهرطقة للتكفير عن ذنوبهم . والسلطات كانت تختلق كل الأعذار الممكنة لزيادة دخل عمالها ، والحكومة كانت مشغولة في إعادة النظر في توزيع الأراضي في مملكة غرناطة ، ومصادرة ما تعتقد أنه ملك للامبراطور . يضاف إلى هذه الصعوبات ارتفاع الضرائب التي كانت تفرض على الاندلسيين واضطرارهم الى استضافة جنود الحاكم العسكرى في البيازين ، فكان ذلك عبئا اقتصاديا كبيرا علي مصادرهم المحدودة ، وكان مضايقة اجتماعية هائلة ، وخاصة لأن الجنود كانوا مجرد أعين للدولة يحملون الى قادتهم أخبار تصرفات أهل البيت الذي يتزلون فيه ويتلصصون عليهم . وفي مثل هذه الظروف كان السعى وراء زيادة دخل الأسرة الأندلسية مضنيا . فالحكومة كانت لهم بالمرصاد وتحسن مستوى أسرة ما ، كان بادرة لفرض ضرائب إضافية عليها ، ولذا فإن الدوافع النفسانية التي يجب أن تتوفر لتحسين الدخل كانت معدومة في السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى .

ج – الأسباب الاجتماعية :

عاش الأندلسيون غرباء في وطنهم يعاملون كأقلية مشبوهة التصرفات والدوافع . وكانت درجة اضطهادهم تتفاوت من منطقة غرناطة إلى قشتالة إلى بلنسية وارغون ، ولكنها كانت عامة تؤججها الكنيسة من جهة ، ويؤججها نشاط الأندلسيين الذين كانوا يوصفون بأنهم « يكثرون من الإنجاب والعمل ، ويقللون من الانفاق » . كان القشتاليون لايزالون يدفعون الضريبة المعروفة بإسم ضريبة الحرب الصليبية التي تجبيها الحكومة بناء على موافقة البابا ، ولذا فإنهم كان يجدون صعوبة في تقبل الأندلسيين بينهم في الوقت الذي يقدمون فيه المال للقضاء على اخوانهم في العدوة المغربية . في المدن المختلطة كان الأندلسيون يعيشون في أحياء خاصة بهم،ومع الزمن تقام الجدران لتحجز بين الجانبين ولكن السلطات تعود لإزالتها فتجدد الخلافات بين الأندلسيين والقشتاليين في نفس المدينة . وأحيانا يكون الأندلسيون في مناطق ليس فيها من النصرانية سوى القسيس والكنيسة فكانت رمزا للاضطهاد الذي نفر منه الأندلسيون،رغم أن الكنيسة كانت تفترض بأن الأندلسيين من النصارى . وليست هناك أية معلومات كافية عن الزيجات المختلطة بين القشتاليين والأندلسيين في القرن السادس عشر ، ولكن بعض الاشارات تعطي الإنطباع بأن هذا التزاوج كان موجودا،وإن كان قليل الحدوث . أما سوى ذلك فإن الأندلسيين كانوا يعاملون كغرباء ويقابلون بالاحتقار . كان الأندلسيون مثلا يأكلون الكثير من الخضار والفواكه،وكان القشتاليون يقبلون على اللحم المقدد وغيره كما فعل أجدادهم الذين اعتمدوا على الماشية وتجاهلوا الزراعة . هذا الاختلاف في نوع الطعام بين الجماعتين كان يثير مخاوف القشتاليين الذين لاحظوا أن الأندلسيين يعيشون حياة أطول عمرا من القشتاليين وكان أطباء تلك الفترة يستغربون هذه الحقائق ويعيدونها إلى ممارسة الأندلسيين للسحر أو غيره لإطالة أعمارهم .

ومعاملة الأندلسيين في قشتالة لم تكن أفضل من المعاملة التي يلقاها مواطنون من الدرجة الثالثة يختلفون عن السكان في كل شيء بما في ذلك الدين والتراث والتاريخ واللغة . في هذه السنوات ضعفت ثقافة الأندلسيين لأن كتبهم أحرقت ولوحق من وجدت السلطات كتبا لديه،وكانوا يكتبون اللغة القشتالية بأحرف عربية . وعرفت هذه اللغة باسم «الأعجمية » ، فكتبت بها مؤلفات كثيرة في القرن السادس عشر لم يصلنا منها شيء . ورغم الضغوط التي كان الأندلسيون يتعرضون لها على أيدي السلطات والسكان فإنهم كانوا يقبلون على تنظيم الحفلات ، ويبرعون في الغناء وصناعة الملابس المزركشة الملونة ، ويعزفون على الالات الموسيقية ، وينظمون حفلات صراع الثيران ، وبرز الكثير من الأندلسيين في هذا المجال خلال القرن السادس عشر وماتلاه . وقد ينجح الكثير من الأندلسيين في الذوبان في مدينة ما هربا من الاضطهاد مستغلين شكلهم الذي لايختلف عموما عن القشتاليين . وكان في بعض الحالات مثار قلق السلطات التي لم تكن لتجد مايميز الأندلسيين عن القشتاليين . وحيثما توفرت فرصة يمكن أن تؤدي إلى تحسن العلاقات بين القشتاليين والأندلسيين ، فإن الكنيسة تكون هناك لأذكاء الخلافات واستمرارها وهذا ماكان يحدث في أغلب الأحايين .

د – الأندلسيون والكنيسة :

كانت الكنيسة الأسبانية تنتظر من الأندلسيين التحول إلى نصارى دون أن تقدم أية مساعدة يمكن أن تحقق مثل هذه النتيجة المتصوّرة . عملية التنصير كانت قسرية منذ البداية ؛ والبعض من رجال الكنيسة الذين حاولوا استمالة الأندلسيين عن طريق كسب ثقتهم ومساعدتهم اخفقوا واضطروا إلى اخلاء الطريق لاولئك الذين كانوا يعتقدون أن القوة ، والقوة وحدها ، هي التي يمكن أن تجعل من المسلمين نصارى . وهكذا أفسح طلبيرة الطريق أمام الكردينال زمنيز في عهد ايزابيلا ، كما أفسح غيريرو الطريق أمام اسبينوزا في عهد فيليب الثاني ، فلا أفلح هذا ولا ذاك في استمالة الأندلسيين ، ولم تؤد أعمالهما إلا إلى الثورة . في غرناطة كانت الكنيسة عاجزة عن توفير كنسيين يملكون القدرة على استمالة الأندلسيين فبقيت دون رئيس للأساقفة سنوات كثيرة ، كما أن الضغوط التي كان يتعرض لها الأندلسيون أقامت حاجزا دائما من عدم الثقة بين الأندلسيين من جهة وبين السلطات الدينية والحكومية من جهة أخرى . ومنذ سنة ١٥٠٢ وحتى ١٥٢٥ صدرت ثلاثة مراسيم يؤكد الواحد منها القيود التي جاءت في المرسوم الذي سبقه ويضيف إليه بنودا جديدة ، ولكن دون جدوى . فلم تكن الحكومة قادرة على فرض تطبيق بنود المراسيم ، ولم يكن الأندلسيون على استعداد للانصياع لها . وصحيح أن المساجد تحولت إلى كنائس ومنع الأذان والصلاة ، ولكن ما كان يجري علانية باب يجرى في الخفاء واستمر الملابس الغرناطية واللغة العربية ، وكان الأندلسي معروف بإسمه المسيحي بين المسيحيين وبإسمه العربي بين الأندلسيين . كانت الكنيسة تفرض الضرائب الباهظة والغرامات المالية والسجن مددا متفاوتة على الأندلسيين الذين لايحضرون الصلاة في الكنيسة ، ولكن عدد من يحضر من الأندلسيين الصلاة كان قليلا والجميع كان يعرف أن الأندلسيين نُصروا ولم يتنصروا .

مرسوم الأول من كانون الثاني سنة ١٥٦٧ كان يختلف عن كل المراسيم السابقة ، لسبب أساسي وهو أن فيليب الثاني كان مصرا على تطبيقه بحذافيره على الأندلسيين . وكان مرسوما شريرا وشاملا إذ منع استخدام اللغة العربية منعا تاما ، وأمهل الأندلسيين ثلاث سنوات لاتقان اللغة القشتالية (الأسبانية) . ومنع الأندلسيين من استخدام الحمامات التي كانت شائعة منذ حل الأندلسيون في البلاد قبل ثمانية قرون ونصف القرن ، بسبب اعتقاد الكنيسة أن الأندلسيين كانوا يكثرون من الاستحمام لأنه كان بمثابة الوضوء . وفرض المرسوم حضور قابلة قشتالية مسيحية عند ولادة أطفال الأندلسيين واجبارهم على فتح أبوابهم ، لكي يتمكن القشتاليون وعيون الكنيسة من التفرج عما يدور داخل المنزل . كما حظر عليهم ارتداء الملابس التقليدية والوقوف باتجاه القبلة والزواج من أكثر من امرأة واحدة واستخدام الحناء وغيرها من المحظورات التي جاءت في المراسيم المشابهة السابقة . وبموجب هذا المرسوم منع الأندلسيون من الإستفادة من الكنائس كملاجىء . فالكنيسة في تلك الفترة كانت تعتبر ملجأ لمن يدخلها.وكان الملوك يحترمون حق المسيحية في تقديم هذه الحماية ، ولكن الكنيسة هذه المرة هي التي ألغت حقا كانت تتمتع به منذ أن قامت الكنائس في أوروبة ، وخرجت بذلك عن كل الأعراف المتبعة حين حرمت الأندلسيين المنصرين من حق لم تكن لتحرمه أية مجموعة أخرى . إلا أن ذلك لم يكن غريبا على الكنيسة القشتالية التي كانت تتحدث بإسم السلطة ، وتنفذ ماتريده منها ضمن مخطط عام استهدف الأندلسيين ، إذ تضمن مرسوم فيليب الثاني أن تجري جميع مراسم الزواج والولادة وفق الطرق القشتالية اعتبارا من ساعة سريان المرسوم . وبعد أن ضمن الزام الأحياء بنصوص المرسوم ، انتقل إلى الأموات فكان يتعين على الأندلسيين أن يدفنوا موتاهم وفق طرق قشتالة بما في ذلك الاعتراف السابق للوفاة .

وهكذا اضطر الأندلسيون للتغطية حتى على أمواتهم فكانوا يخفون أخبار مرضاهم لئلا يحضر الكاهن فيدفن المتوفى نصرانيا . وكانوا يذهبون بعد موت المريض إلى الكنيسة فيقولون أنه مات على حين غرة فلم يتمكن أهل البيت من استدعاء الكاهن على عجل . وإذا حصل وجرت مراسم الزواج وفق الطريقة القشتالية فإن الأندلسيين كانوا يقيمون احتفالا جديدا بعد العودة من الكنيسة لاتمام الزواج على الطريقة الإسلامية .وكانوا يستخدمون العربية في الأحياء المخصصة لهم إلا إن وجد من يمثل السلطة أو الكنيسة . ولكن بدا واضحا منذ بداية سنة ١٥٦٧ أن الأندلسيين لايمكن أن يستمروا في اخفاء كل تحركاتهم عن أعين السلطة التي شددت المراقبة ، وانتقل الجانبان خطوة أخرى نحو المواجهة بعد أن توقفت كل المفاوضات بين الأندلسيين والكنيسة لإصدار عفو عام عن الأندلسيين ورفع الرقابة عنهم . وبرهنت الكنيسة من جهتها على عزمها تطبيق المرسوم عندما عين بدرو دى ديثا رئيسا للمحكمة العليا،وبدأ الأندلسيون من ناحيتهم جمع الأسلحة .

هـ - بداية المواجهة :

منذ انتهاء الثورة الأندلسية الأولى والعلاقة بين الأندلسيين والسلطات القشتالية في ترد مستمر . الكنيسة في غرناطة انتقلت تحت قيادة غيريرو من مرحلة الإقناع غير المجدي إلى مرحلة المصادمة ، ومن

اعتقاد رئيس الأساقفة بضرورة اصلاح معاونيه قبل اصلاح الأندلسيين إلى إيمانه الجديد بأن الشدة وحدها يمكن أن تقدم الإجابة والحل لما أخفق سابقوه في تحقيقه . ومن خلال محاكم التفتيش كانت السلطة تستخدم ذراعها الإضافية هذه في مصادرة أراضي الأندلسيين حتى انحصرت ممتلكاتهم بسفوح جبال البشرة وجبال الجنوب الأخرى ، يزرعون على تلك المساحات الصغيرة مايسد حاجتهم من الغذاء الضروري ، ومايوفر لهم بعض الإنتاج الإضافي الذي كان يباع في القرى والمدن المجاورة . (١)ولكن وضع أهل غرناطة كان سيئا للغاية فضعفت صناعة الحرير وتوقف أهم دخل للسكان ، وكسد البيع في القيصرية بغرناطة (٢) نتيجة السياسات التى طبقتها السلطة بحماس . وحتى التعاطف القليل الذي حظي به الأندلسيون من الحاكم العسكري كان محل الشك ، لأن تدخله لوقف بعض ممارسات محكمة تفتيش غرناطة مدفوع بقناعته أن سلب الأندلسيين أرضهم ودخلهم لن يمكنهم من دفع الضرائب أو استضافة جنوده . وكان من العسير عليه كذلك أن يوقف تردى العلاقات بين الجنود ومستضيفيهم الأندلسيين لاسيما بعد أن اعتقلت السلطات ثلاثة اندلسيين سنة ١٥٦٥ ،وادعت انهم اعترفوا بوجود خطة لاستقدام الأتراك إلى قشتالة .

وحاول بعض مستشاري الامبراطور فيليب الثاني تجميد المرسوم منبهين إلى أن الأتراك يمكن أن يستفيدوا من تصاعد النقمة في الجنوب والشرق ، ولكنه تجاهل ما أشاروا به فهو في حرب مع الأتراك أصلا . وتقدم الحاكم العسكرى إلى امبراطوره يرجوه تأجيل تنفيذ المرسوم فترة من الزمن ، ولكن حظه لم يكن أفضل من حظ المستشارين . وأخيرا توجه وفد من الأندلسيين إلى بلاط فيليب الثاني يستعطفونه الغاء المرسوم ووضع أية شروط أخرى ، ولكن الوفد عاد إلى غرناطة وهو يجر أذيال الخيبة واليأس وبدا وكأن الأندلسيين يدفعون ثمن تقدم البروتستانتية ، وانتصارات الأتراك ، واخفاق الكنيسة ، وخلافات مراكز القوى في غرناطة . وكان عليهم أن يواجهوا سيف الدولة والكنيسة ، وتصميم فيليب الثاني على أن لاتقوم للأندلسيين قائمة بعد الآن ، ولذا فقد توقع حدوث الاضطرابات في غرناطة قريبا وكان توقعه في مكانه ، لأن فيليب الثاني لم يكن ليرغب بغير هذه النتيجة : « لو توفرت حكومة حكيمة وصادقة تحترم التعهدات التي أعطيت لدى استسلام غرناطة لتجنبت مخاطر هذه النقمة الخفية ، ولكن حكام أسبانيا لم يتصفوا لابالحكمة ولا بالصدق في تعاملهم مع الموازكة ، بل أنهم أصبحوا أكثر قسوة وخداعا مع مرور الوقت . ثم أمر « الكفار » (٣) بترك ملابسهم الوطنية المزركشة وارتداء قبعات النصارى وسراويلهم ،وأمروا بالتخلي عن الاغتسال وقبول قذارة قاهريهم ، ونبذ لغتهم وعاداتهم واحتفالاتهم وحتى نبذ أسمائهم والتحدث بالأسبانية ،والتصرف وفق الطريقة الأسبانية واعادة تسمية أنفسهم باسماء أسبانية . .ولكن

---

(١) يقول ماكسويل أن منتوجات جبل البشرة من الحرير والزيتون والفواكه والجبن كانت مشهورة فى أسواق غرناطة وفي الموانىء الأندلسية عموما أنظر ، Maxwell, Sir W. Stirling, Don Juan of Austria, Part I, PP 126-128.

(٢) كان سوق القيصرية خاص بتجارة الحرير في زمن الأندلسيين وبقي في صورته الأولى حتى احترق سنة ١٨٤٣ ثم اعيد بناؤه وفق الطراز القديم وهو يقع اليوم قبالة الكنيسة الملكية التي تحتوي على رفات ايزابيلا وزوجها فرناندو .

(٣) الأعتراض لمؤلف النص .

تمثـــال
فيلـــيب
الثـــاني

تجريد شعب بالجملة من مقوماته فاق الحد الذي يمكن أن يقبل به أى شعب ، ناهيك عن شعب انحدر أفراده من شخصيات مثل المنصور وعبد الرحمن وابن سراج . وذات يوم،نشب شجار بين الأندلسيين وبعض جباة الضرائب المحتالين ، فالتهبت المواد الهشة التي كانت مستعدة للاشتعال منذ زمن طويل ،

وقام بعض الفلاحين على الجنود المستضافين في مساكنهم فقتلوهم ، وجمع صباغ من غرناطة يدعي فراس (١) عصبة من الناقمين وفر إلى الجبال قبل آن تقرر حامية المدينة اللحاق به . وكان هناك رجل يدعي هرنأندو دي بالور من سلالة خلفاء قرطبة عالي المقام في غرناطة ، ولكن لحق به الخزي بسبب عاداته الفاسقة فاختير ملكا على الأندلس بإسم مولاى محمد بن أمية . وفي ظرف أسبوع حمل سكان جبل البشرة السلاح وبدأت ثورة الموازكة الثانية (١٦٥٨) » (٢) .

٣ - الثورة الأندلسية الكبرى

في الخامس عشر من نيسان سنة ١٥٦٨ اندلعت الشرارة الأولى للثورة في جبل البشرة على شكل اضطرابات محدودة ، ولكن جنود مركيز مندخار (الحاكم العسكرى) تمكنوا من القضاء عليها بسرعة . وكان من الواضح أن النقمة الأندلسية ، وإن وصلت الى نقطة الانفجار ، إلا ان الاستعدادات لشن حرب منظمة لم تكتمل بعد ، وبات من الضروري ان يجمع أهل البشرة الكمية الكافية من الأسلحة التي يمكن أن توفر لهم الصمود أو تحقيق نصر محدود . وخلال أشهر الصيف انتقلت أعداد من شبان مدينة غرناطة الى الجبل سرا ، وبدا التدريب على القتال والاتصال باهل العدوة للحصول على أية مساعدة ممكنة . وفي الثالث والعشرين (أو الرابع والعشرين) من كانون الأول اعتقد الثوار ان اعدادهم كانت كافية للقيام بالخطوة التالية فشنوا هجوما مباغتا على مدينة غرناطة مستغلين استعداد حاميتها للاحتفال بعيد الميلاد ، وتمكنوا بقيادة فراس بن فراس من التوغل فيها والاشتباك مع جنود مركيز مندخار . إلا أن المهاجمين لم يتمكنوا من أخذ المدينة واضطروا الى الانسحاب والعودة الى البشرة بعد ايقاع خسائر كبيرة بجنود الحامية .

كانت نيران الثورة تنتقل من قرية الى أخرى ومن مدينة إلى ثانية ، وتحول جبل البشرة والمناطق القريبة منه إلى قلعة حقيقية ضد فيليب الثاني ، وبدأت عملية إزالة جميع أشكال السلطة والكنيسة القشالية في المراكز التي اعتبرها الثوار محررة . وحيال هذا التطور اصدر فيليب الثاني أوامره الى مركيز مندخار باخماد ثورة البشرة ، فقاد الأخير جيشا من حوالي أربعة الآف جندى ، إلا أن سلاحه الرئيسي كان جرّ قادة الثورة الى المفاوضات واقناعهم بانه سيبذل كل جهده لرفع الضغوط عن الأندلسيين ، وضمان سلامة جميع من اشترك في العمليات العسكرية السابقة . وربما أقنع المركيز الكثيرين بصدق نواياه ، لاسيما وأن الثوار كانوا على اقتناع بإنهم لن يتمكنوا من صد جيوش فيليب الثاني إلى مالا نهاية ، وأن الهدف الرئيسي من ثورتهم أساسا حمل السلطة على بحث مظالمهم ورفع الظلم الذي هبط عليهم مع صدور مرسوم السنة السابقة . ولذا توقع الأندلسيون خيرا ووضعوا السلاح جانبا ، ريثما يتمكن المركيز من الاتصال بفيليب الثاني وتحقيق ما وعد به .

---

(١) أو فرج ابن فرج (Farax Aben Farax) كما يرد في الروايات الاسبانية ، ولم اعثر في المراجع التي اطلعت عليها على اسمه الكامل (او الصحيح) وربما كان من بني سراج الغرناطيين ، وكانوا من علية القوم .

(٢) Láne—Poole,. Stanley,The Moors In Sprin, (4th Edition) 1890,PP 272-274

الثورة الأندلسية الأولى

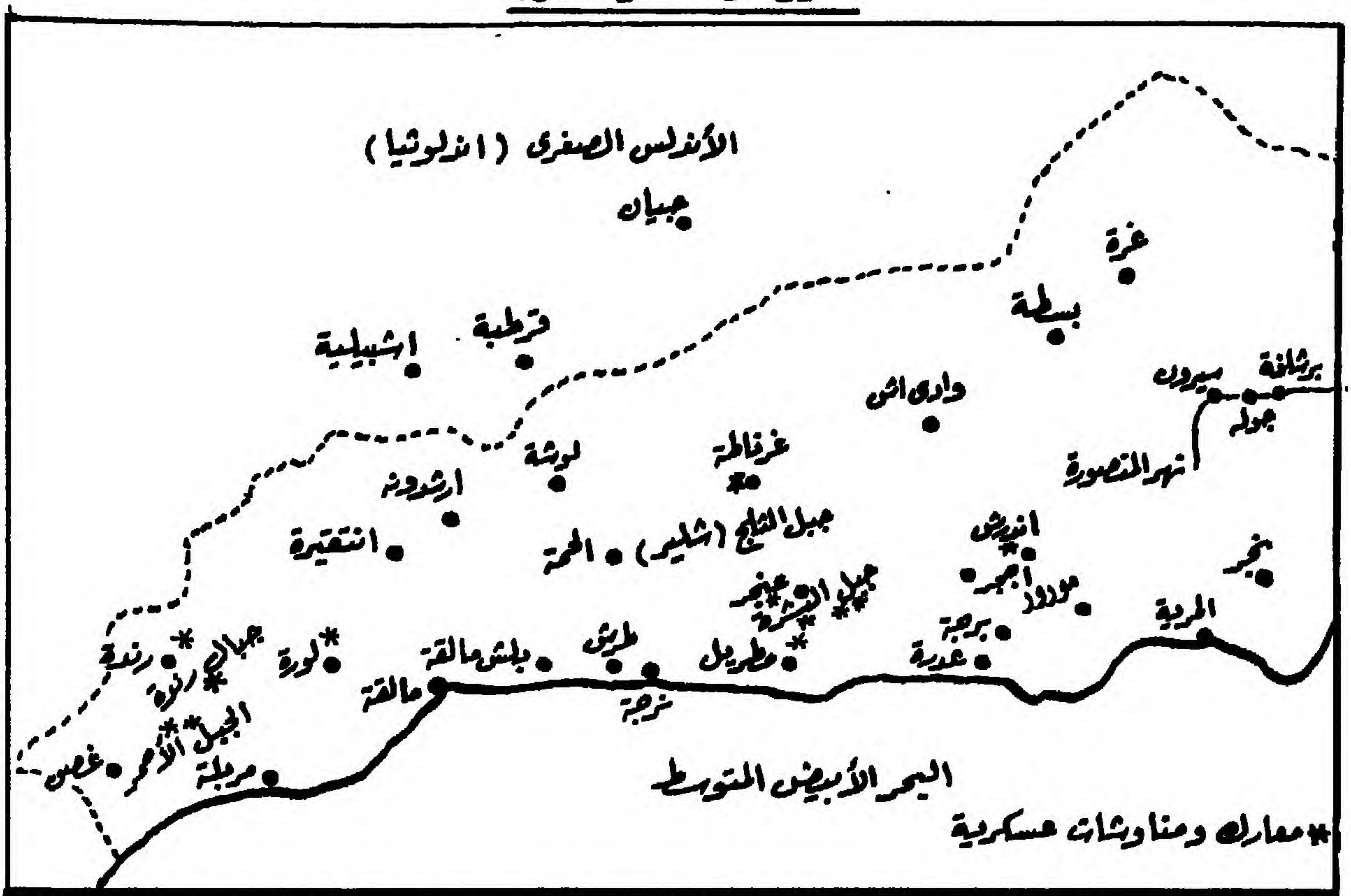

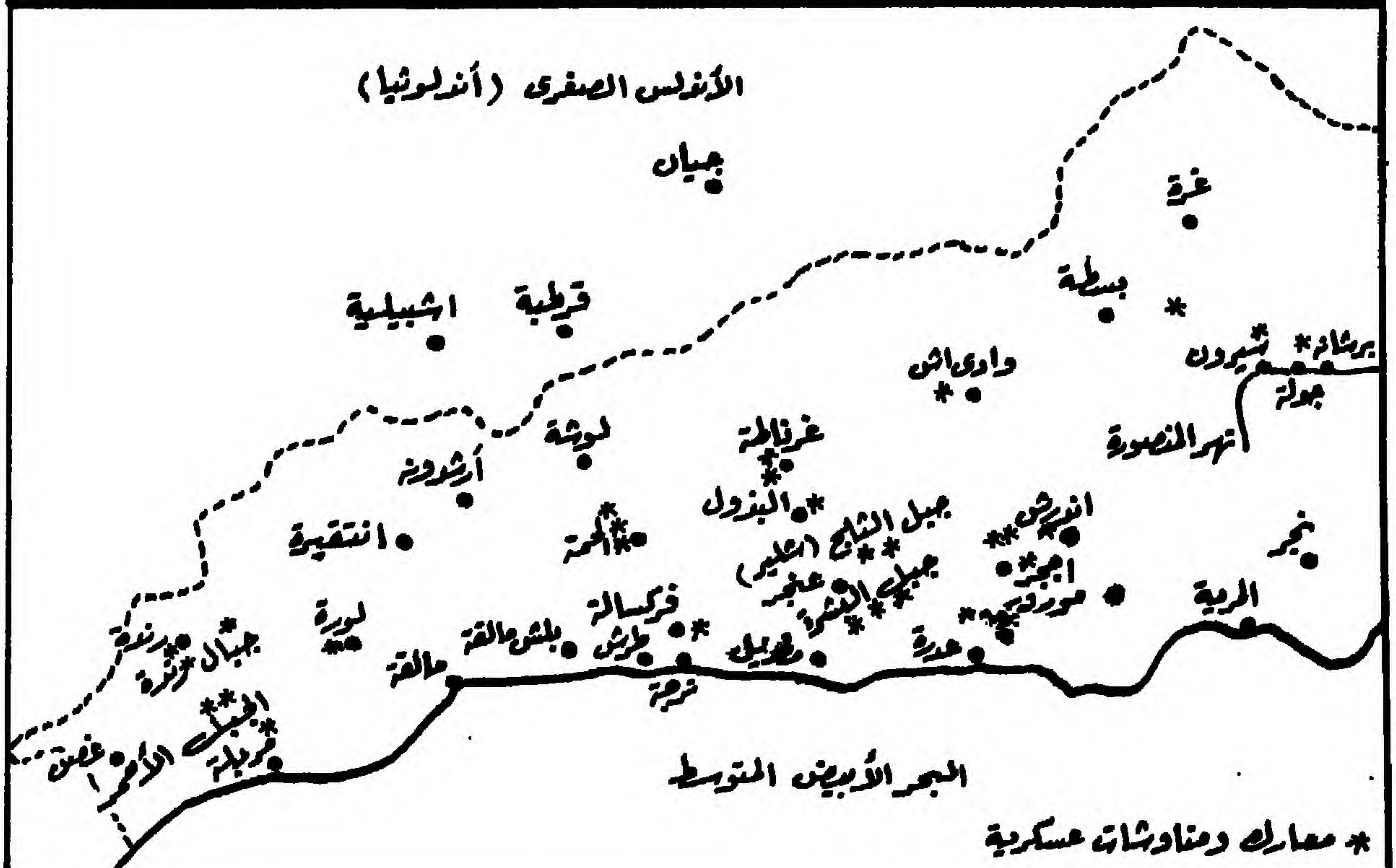

الثورة الأندلسية الكبرى

دون حوان النمسوي (قصر فيليب الثاني ، الاسكوريال)

وهناك غموض لحقيقة ما حدث بعد ذلك من تطورات ، ولكن يبدو أن فيليب الثاني استهجن وعود المركيز ، وقد كبر عليه ان يقبل التفاوض مع من اعتبرهم من المارقين ، وطلب الى المركيز العودة الى البشرة وإخماد الثورة ، ليكون منظموها عبرة لغيرهم ليس فقط في الجنوب وإنما في جميع ممالكه الأخرى . وفي هذه الاثناء وقعت مذبحة في مدينة جبيل (Jubiles) راح ضحيتها عدد غير معروف من الأندلسيين ، وتعرضت مدينة لورة (Laroles) لأعمال مشابهة ، وفقد مركيز مندخار السيطرة على جنوده فأخذ هؤلاء يمارسون أعمال القتل والسبي والنهب دون رقيب مما اقنع الأندلسيين بان الجنود يرمون الى افنائهم عن آخرهم ، فحملوا السلاح وتمكنوا خلال فترة وجيزة من بسط سيطرتهم على جبل البشرة ثانية وتفجرت الثورة من جديد . ولدى وصول أخبار اندلاع القتال الى غرناطة هاجم الجند سجن البيازين وذبحوا مئة وعشرة اندلسيين كانوا فيه : « ولما سار مندخار الى السجن مع حراسه لإخماد الاضطراب قابله

القائد بقوله : هذا غير ضروري فالسجن هادىء لأن جميع الأندلسيين أموات »(١) . وأمام هذه التطورات ، التي انتقلت بالوضع من سيء إلى أسوأ ، اعترف مركيز مندخار بعجزه عن قمع الثورة وسلم الأمر إلى فيليب الثاني ، وانتظر الجميع أوامره في وقت عظم فيه اشتعال الثورة فشملت مناطق جديدة أخرى .

أ – دون خوان النمسوى :

جاءت ثورة الأندلسيين في سنة من أسوأ سنوات حكم الامبراطور فيليب الثاني ، اذ كانت الثورة الهولندية على أشدها منذ اندلاع الاضطرابات هناك قبل سنتين ، أما الأتراك فكانوا يحققون الانتصار تلو الآخر وباتوا يهددون شواطىء ممالكه في البحر الأبيض المتوسط . وفي تلك السنة اندلعت ثورة في قطالونيا وقطعت القوات البروتستانتية الطرق البحرية الى خليج بسقاية ، ثم فقد فيليب زوجته المفضلة ومات ابنه ووريثه دون كارلوس في السجن الذي اودعه فيه والده بعد أن ظهرت عليه علائم الجنون . ثم جاءت أخيرا الثورة الأندلسية الكبرى ، فقرر أن يضع حداً نهائيا لها قبل ان يستفحل الأمر ويستغل الأتراك الموقف لمهاجمة صقلية والجزائر الشرقية وربما الجنوب الأندلسي . وكان يريد أيضا حلا سريعا يدب الذعر في قلوب الثائرين في قطالونيا وهولندا وكل من يمكن أن يفكر في القيام بثورة على الامبراطور الذى كان يعتبر نفسه اعظم رجل في العالم ، ويحكم أكبر امبراطورية عرفتها البشرية . ولأنه كان قليل الثقة بمعظم من حوله فقد ارتأى تعيين أخيه غير الشرعي دون خوان النمسوي الذي كان ثمرة علاقة جنسية بين والده كارلوس الخامس وامرأة هولندية ، وربما كان في تعيين دون خوان راحة نفسية لفيليب الثاني ولاسيما بعد ان انتشرت الشائعات بأنه هو الذي قتل ابنه . ووَقْعُ قريب له إلى هذه الدرجة المهمة يمكن أن يظهره بمظهر الحاني على أهل بيته ، ذلك لأن دون خوان لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين من العمر حين اوكلت إليه مهمة القضاء على الثورة الأندلسية .

إلا أن فيليب الثاني لم يطلق يد دون خوان لاتخاذ القرارات التي يراها مناسبة ، وترك ذلك لمجلس خاص ضم بالإضافة إلى دون خوان مركيز مندخار ، ودوق سيسه ، حفيد القائد المظفر غونثالو القرطبي الذي اشترك في حرب غرناطة ، وبدرو دي ديثا رئيس المحكمة العليا وأحد المقربين إلى الكردنال اسبينوزا رئيس مجلس قشتالة ، وأخيرا كيخادا(٢) ، وكان التابع الأمين لدون خوان الذي تولي مهمة رئاسة المجلس .

---

(١) انظر المصدر السابق ص٢٧٧ .
والمؤلف يكرر في الصفحة ذاتها مروية تؤكد أن مندخار لم يكن متورطا في المذبحة ، وأن السجناء القشتاليين في السجن ذاته هم الذين ارتكبوا المذبحة . ولكن المنطق لايقبل الرواية إذا لم ترد اشارة إلى اصابة أى من السجناء القشتاليين خلال المذبحة الا اذا :زرت لهم الأسلحة ، ثم أن السياسة القشتالية العامة لم تكن تتوافق وسجن القشتاليين مع الأندلسيين ، وخاصة في البيازين وهو معقل الأندلسيين ، ثم لو افترضنا بأن السجناء القشتاليين هم المسؤولون عن الحادث لزاد عددهم على ثلاثة أضعاف وهو رقم كبير . وقد يكون دافع الجنود في ارتكاب المذبحة الأنباء التي ترددت عن قيام الثوار بقتل بعض القساوسة والهجوم على بعض الكنائس بعد ملحمة مدينة جبيل والفظائع التي ارتكبها الجنود فيما بعد ، ويذهب البعض إلى الادعاء بأن الأندلسيين قتلوا ٩٠ قسيسا و١٥٠٠ نصراني خلال تلك الفترة .

(٢) لويس كيخادا (Luis Quixada) وكان خادم كارلوس الخامس . انظر : Plaidy, Jean. The Spanish Bridegroom, (London), P 194 و

ونصت أوامر فيليب بأن تتخذ قرارات المجلس بالإجماع . وإذا لم يتوافر ذلك فعليهم العودة إليه لاتخاذ القرار الأخير ، ثم ودع دون خوان الذي غادر مدريد إلى غرناطة في السادس من نيسان سنة ١٥٦٩ ، أي بعد حوالي أربعة أشهر من هجوم ثوار جبل البشرة على مدينة غرناطة .

وفي غرناطة أعد استقبال حافل لدون خوان ساهم فيه الأندلسيون من سكان المدينة لاسيما وإنهم كانوا يعرفون أن دون خوان يملك تقرير مستقبلهم ، وشاؤوا اعطاءه الانطباع بأن لاعلاقة لأندلسيي المدينة باندلسيي ثورة البشرة . ولكن دون خوان لم يلتفت لهؤلاء بل توقف عند بعض النساء القشتاليات اللواتي كن يرتدين ملابس الحداد على اقربائهن ممن قتلوا على أيدي الثوار ، فابدى تعاطفه ووعدهن بالانتقام السريع . وفي اليوم التالي زاره وفد من عرب المدينة يشتكون إليه جور السلطة ومضايقات الجنود المستضافين لديهم،فطلب منهم أن يرفعوا كتبا رسمية بذلك ، وأن يضمنوها فقط مايمكن لهم اثباته عن طريق الشهود . ولم يغفل دون خوان أن ينقل للوفد رغبة فيليب الثاني في معاقبة جميع المسؤولين عن القلاقل دون رحمه حتى يكونوا درسا لغيرهم،وخرج الأندلسيون من عنده وقد ايقنوا انهم لن يعاملوا إلا كأعداء ، وأن احتفالهم بمقدمه ضاع سدى ، وتركوا دون خوان وهو يفكر في الطريقة التي يمكن بواسطتها أن يبرهن للجميع أن فيليب الثاني كان محقا عندما اختاره للمهمة .

والفكرة التي تبلورت في عقل دون خوان تضمنت معاملة الثوار الأندلسيين بأقصى شدة ممكنة ، ومن ثم العمل على ترحيل الأندلسيين من أماكن تجمعاتهم في الجنوب الأندلسي ؛ لأن وجودهم بتلك الكثافة سيكون مصدر خطر على السلطة ، وقد برهنت الثورة الأندلسية الأولى على استمرار خطر الأندلسيين واستعدادهم للثورة حين يشتد الضغط عليهم . وفي أول اجتماع عقده المجلس الحربي بات من الواضح أن اتجاه غالبية أعضائه كان نحو تبني القرارات التي تلقن الأندلسيين درسا يصعب أن ينسوه فيما بعد ، وأن يكون تطبيق القرارات هذه سريعا لئلا يتاح المجال لأندلسيي ارغون لإعلان الثورة من جانبهم . وبرز مركيز مندخار في أول اجتماع عضوا وحيدا كان يعتقد أن التوصل إلى سلام مع الثوار الأندلسيين هو الطريق الوحيد لإنهاء الأزمة . وحيال تباين أراء المجلس وجه دون خوان رسالة إلى فيليب الثاني يعرض فيها ماتم بحثه ويوصي بالشدة في معاملة الثوار ، ويقارن بين هذا الرأى ومااقترحه المركيز من اتباع سبيل المصالحة وتعهده بوضع حد للثورة إذا ترك الأمر له .

كان دون خوان يعتقد أن فيليب الثاني سيأخذ برأيه ، ولذا استبق الأحداث وبدأ يعيد تنظيم الجيش ويبعث بوفوده إلى نبلاء الجنوب لمده بالرجال والسلاح والتجمع في غرناطة استعدادا لبدء عملية قمع الثورة . ولكن فيليب لم يكن من الملوك الذين يستطيعون التوصل إلى قرار سريع ، كعادته ، ولذا طال انتظار دون خوان وازداد قنوطه . وفي هذه الأثناء كان الثوار يستعدون لخوض حرب طويلة الأجل ، واستفادوا من الوقت الذي وفره لهم تردد فيليب الثاني لتنظيم قواتهم واعداد جيش قدر تعداده بحوالي أربعة الآف مقاتل . وخلال وقت قصير تمكن الثوار من بسط سيطرتهم ثانية على المراكز التي أخذها جنود مركيز مندخار في أوقات سابقة ، وانتقلوا بعدها لشن هجمات سريعة على غرار حرب العصابات،وانزلوا

بقوات السلطة الخسائر قبل أن تصل قوتهم الى الحد الذي باتوا معه يهاجمون تجمعات القشتاليين ، ودرات معارك عديدة مع الجنود قرب أسوار غرناطة نفسها وفي المناطق المحيطة بها . والنجاح الذى حققه الثوار حتى تلك المرحلة أثار الجنود والمدنيين القشتاليين فشددوا على اندلسيي غرناطة،ولكن ذلك أدى الى إثارة مشاعر النقمة ، ففرت أعداد منهم والتحقت بالثوار في الجبال القريبة ، واتسع نطاق التصدى للسلطة فشمل جميع المناطق المحيطة بمدينة غرناطة .

وحين وصلت أوامر فيليب الثاني لم تكن تختلف في جوهرها عن الاقتراحات التي رفعها اليه دون خوان ، ولكنها تضمنت شطر قيادة الجيش بين المركيز مندخار ومنافسه الأكبر مركيز بلش مالقه ، واصراره على عدم السماح لدون خوان بالاشتراك في أية عمليات قتالية بسبب حداثة سنه وقلة خبرته القتالية من جهة ، ولأن مقتل دون خوان سيقدم للأندلسيين نصرا معنويا هائلا ، يمكن أن يشجع باقي الأندلسيين في قشتالة وارغون على الانضمام الى اخوانهم في الجنوب ، وحمل السلاح ضد جنود الملك في كل مكان يقيمون فيه . وبصدور قرار فيليب الثاني أخذ مركيز مندخار دورا ثانويا واضمحلت الثقة بين أعضاء المجلس وبينه وخضعت جميع تحركاته للمراقبة ، بعد أن تضمن قرار فيليب في باطنه ما شجع أعضاء المجلس على هذا التصرف . وكان هذا حال اللجنة عندما بدأت العمليات القتالية في الجنوب .

ب – بداية حروب المقاومة الأندلسية :

تسلم مركيز بلش مالقه قيادة المنطقة الشرقية وأراد منذ البداية أن يثبت تفوق خبرته العسكرية ويقطع الطريق أمام منافسه المركيز مندخار في تحقيق أى انتصار سري فتوغل بجنوده في جبل البشرة واحتل ممر رباحة الاستراتسجي لوقف أية امدادات يمكن أن ينقلها أهالي غرناطة والمدن الأندلسية الأخرى الى الثوار . إلا أن المركيز شن حربه دون أن تتوفر لديه معلومات دقيقة عن عدد الثوار الذين طوقوا الممر من جميع الجوانب وعزلوا الجنود المسيطرين على الممر ، ودارت معارك متقطعة منيت فيهاقوات‌المركيز بخسائر اضطر معها إلى الإنسحاب . وردت قوات ابن أمية على هجوم المركيز بهجوم معاكس تركز على مدينة برجة (Berja) الواقعة الى الجنوب الشرقي من جبل الثلج (نيفادا) ، إلا أن الهجوم انكشف في اللحظة المناسبة وتمكن جنود المركيز من صد الهجمات التى شنها الثوار على المدينة بعد حصارها والحقوا بهم خسائر كبيرة . وحاول المركيز الاستفادة من النجاح الذي حققه لمتابعة الضغط على الثوار ، ولكنه فوجيء باخبار اعلان الثورة في المدن الواقعة على نهر المنصورة ، وانقطعت طرق تموينه فاضطر الى الانسحاب الى مدينة عدرة الواقعة على الساحل جنوب برجة في انتظار وصول الامدادات اليه عن طريق البحر . وأمام هذه التطورات تشجع الأندلسيون في الجبال المحيطة بمدينة الحمة وانضموا الى الثورة مما اضطر جنود فيليب الثاني الى الانسحاب من الأرياف والاحتماء باسوار المدن الرئيسية في المنطقة وتولى الجنود والمليشيات ، المشكّلة على عجل ، الدفاع عنها وصد الثوار الأندلسيين الذين باتوا يهددون عددا من أهم المدن الجنوبية مثل مالقه وبلش مالقه ومطريل (Motril) والمنكب (Almunecar) وغيرها

وبات من الواضح بعد العمليات الأخيرة أن الجنود في الجنوب غير قادرين على حسم أمر الثورة بالسرعة المطلوبة فاصدر فيليب الثاني أوامره الى القائد الأعلى ريكويسنس بالغاء الرحلة التي كان يعزم القيام بها الى ايطاليا على رأس عدة كتائب مدربة لتعزيز قوات فيليب الثاني هناك ضد أى هجوم للأتراك ، والعودة الى بلش مالقه للمساهمة في قمع ثوار جبال الحمة . واحرز ريكويسنس بعض النجاح في العمليات العسكرية الأولية التي قام بها رغم المقاومة الشديدة التي أبداها الثوار ، الا أنه اصطدم بالمدافعين عن مدينة فركسالة (Fraxiliana)(١) فضرب الحصار حولها وحاول اقتحامها عدة مرات ولكنه أخفق ومني بخسائر كبيرة بين جنوده الذين كانوا من أفضل الجنود المشتركين في قمع الثورة خبرة وصلابة . وبعد افشال محاولات ريكويسنس في احتلال فركسالة وكانت من أقوى معاقل الثوار ، حاول المدافعون فك الحصار عن المدينة فدارت معارك عنيفة كادت قوات ريكويسنس تتراجع فيها لولا مليشيات مالقة التي وصلت إلى ساحة المعركة في مرحلة حاسمة من القتال ، وقلبت الميزان رأسا على عقب.واقتحمت القوات النظامية والمليشيات المدينة .

التفاصيل القليلة التي وصلتنا عن عملية اقتحام فركساله غامضة ، وجاءت من مصادر قشتالية متحيزة ، ولكن يبدو أن مابين ألفين وثلاثة آلاف من الأندلسيين قتلوا في المعارك التي دارت قبيل الاقتحام وبعده ، في حين تمكن حوالى ألفي اندلسى من الفرار والالتحاق بمعسكر ابن امية . وقدرت خسائر القوات المهاجمة بحوالي ٦٠٠ قتيل معظمهم ، على مايبدو ، من جنود القائد ريكويسنس . والظاهر أيضا أن نساء الأندلسيين اشتركن في العمليات القتالية ، وهناك رواية نقلها برسكوت (٢) عن قيام اعداد من الأندلسيات بالانتحار بالقاء انفسهن من الشواهق أثر الهزيمة تخلصا من السبي والاغتصاب والممارسات الأخرى التي أصبحت طابع حرب الإبادة التي شنها جنود فيليب الثاني ومليشيات المدن القشتالية ضد الأندلسيين في جبال الجنوب .

كان سقوط فركسالة أهم الهزائم التى لحقت بالثوار حتى منتصف سنة ١٥٦٩ ، إلا أنها كانت دافعا لتنظيم عملية انتقامية استهدفت سيرون (Seron) ، وكانت من المدن التي بقيت مع القشتاليين في وادى نهر المنصورة . الهجوم الأول الذى شنه الثوار لاحتلال المدينة اخفق أمام المقاومة العنيفة التي أبدتها الحامية بقيادة ميرون (Mirones)،فحاصروها اعتبارا من الثامن عشر من حزيران في السنة ذاتها وقطعوا طرق تموينها . وحين وصلت أخبار حصار سيرون الى دون خوان في غرناطة ، عين قائدا باسم الونصو كربجال على رأس قوة من الجنود اسندت اليهم مهمة فك الحصار ، ولكن فيليب الثانى أسند المهمة الى مركيز بلش مالقة ووصل الأمر الى دون خوان بعد رحيل كربجال . وخلال الفترة القصيرة التى تضاربت

(١) وهي اليوم (Frigiliana) أو فرجالة التي تقع على بعد ستة أميال شمال (Narja) في الطريق بين مطريل ومالقه .

(٢) وضع المؤلف الأميركي و . هـ . برسكوت مؤلفين عن التاريخ الأسباني ، الأول عن سيرة فرناندو وايزابيلا (١٨٤٢) والثاني عن فيليب الثاني (١٨٥٩) . وهو يورد تفاصيل كثيرة عن الثورة في الكتاب الخامس من سيرة فيليب الثاني ، الفصول ؛ السادس والسابع والثامن . (انظر المراجع) .

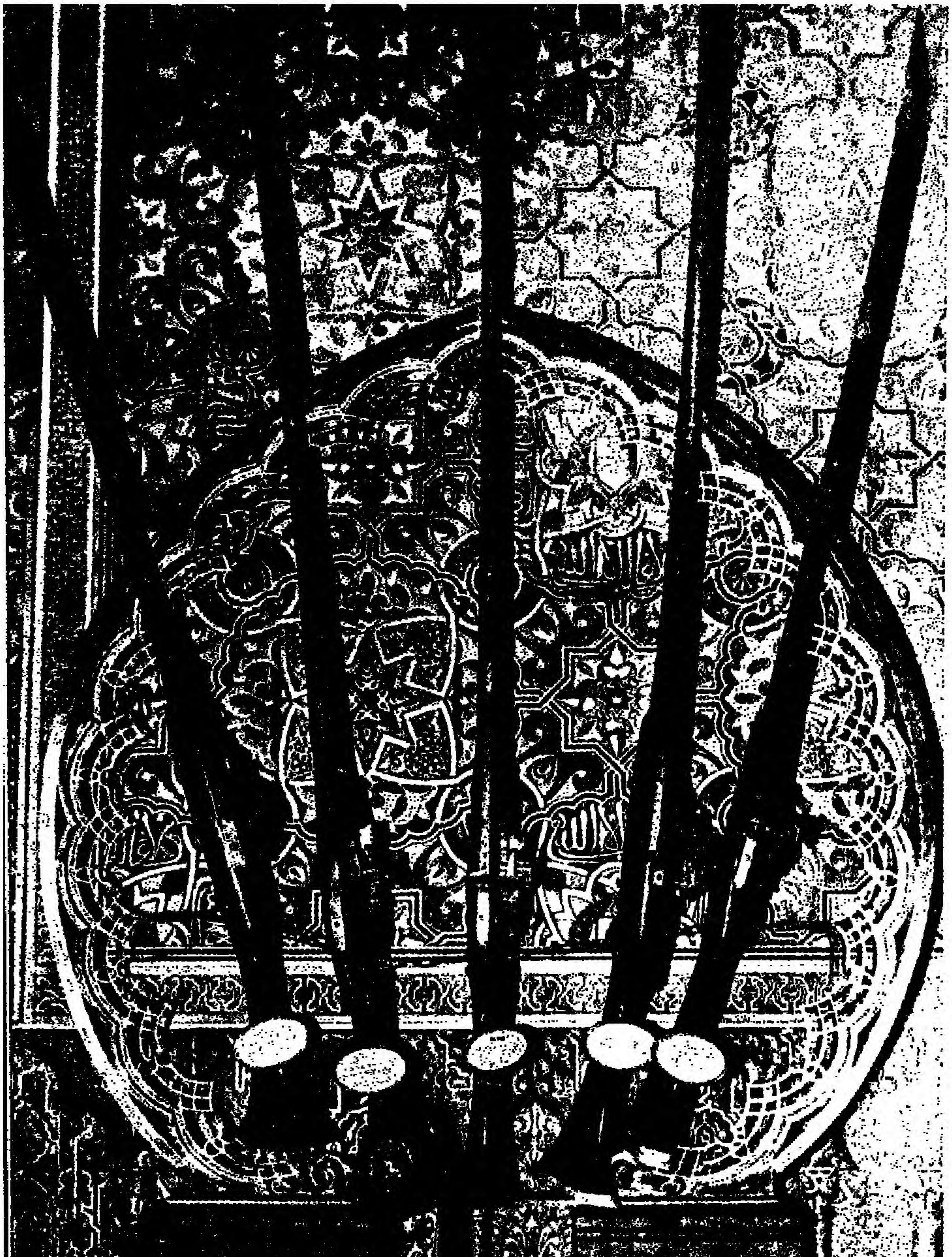

بعض البنادق التي استخدمها أهل غرناطة. (المتحف الحربي، مدريد)

فيها الأوامر، ضاق الحصار على سكان سيرون فاستسلموا للثوار الأندلسيين في الحادى عشر من تموز ولم يتمكن كريجال أو المركيز من نجدة سكانها، إما لوصولهما متأخرين، أو لأن قواتهما لم تتمكن من اختراق حاميات الأندلسيين والوصول الى المدينة في الوقت المناسب. كان استسلام المدينة نصرا كبيرا للأندلسيين ولكن أهل غرناطة دفعوا ثمن هذا الانتصار حتى قبل أن تسقط المدينة. عندما نفي معظمهم الى مدن قشتالة بموجب مرسوم خاص أصدره فيليب الثاني بناء على اقتراح دون خوان. (انظر نتائج الثورة الأندلسية الكبرى).

ج – الإعداد للقضاء على الثورة الأندلسية :

ضمن دون خوان بترحيل أهل غرناطة انقطاع أى مدد يمكن أن يحصل عليه الثوار من أكبر المدن الأندلسية ، وتوقف واحد من مصادر تعزيز الثورة بالشبان الذين كانوا يفرون من غرناطة ، حينما تسنح الفرصة، للإلتحاق، بمعاقل الثورة في الجبال . وسقوط مدينة سيرون دعم من وضع دون خوان وازاح العقبة التي كانت تقف في طريق اشتراكه بالقتال،لاسيما وان سقوط المدينة حمل اليقين الى فيليب الثانى بأنه قلل كثيرا من قوة الثوار ، واستهان بقدرتهم على تحقيق الانتصار تلو الآخر ، وتعبئة المقاتلين بسرعة كبيرة كما حدث خلال حصار سيرون الذى اشترك فيه حوالي خمسة آلاف أندلسي . والأخبار التى تناقلها القشتاليون في الجنوب عن مصير سكان سيرون[1] أخمدت جميع أصوات أولئك الذين كانوا يعتقدون بأن قرار فيليب الثاني بنفي أهل غرناطة لا يتصف بالحكمة خاصة وأن ترحيل الغالبية العظمى من الأندلسيين سيلحق الخراب بالمدينة والأرياف المحيطة بها . أما وقد سقطت سيرون الحصينة ، فإن بحث دون خوان وفيليب الثاني انصب على ايجاد كبش فداء يمتص نقمة القشتاليين على السلطة . ولكن التفتيش لم يدم طويلا ، والأراء التي تباينت بين أعضاء المجلس حول كل شيء تقريبا اجتمعت لأول مرة وتقرر تنحية مركيز مندخار عن جميع سلطاته الفعلية بسبب علاقته السابقة بالأندلسيين ، وربما كان ذلك أحد أسباب وفاة المركيز في ذات السنة .

وكان دون خوان يتصور أن تنحية مركيز مندخار تعني بالضرورة موافقة فيليب الثاني على تسليمه قيادة الجيش ، ولكن ازدياد ثقة فيليب الثاني بدون خوان لم تكن قد وصلت بعد إلى هذه النقطة،ولذا فقد أسند قيادة الجيش إلى مركيز بلش مالقه . ولما كان هذا التعيين غير مرض لدون خوان فقد بدأت الرسائل تنهال على فيليب الثاني تطلب تنحية المركيز،ثم مال ريكويسنس إلى رأى دون خوان وبدأ هو الآخر في حث فيليب الثاني على عزل المركيز عن قيادة الجيش نظرا لاخفاقه السابق في تحقيق أى نصر حاسم على الأندلسيين . وكان لابد لفيليب من الاستجابة لمطلب الاثنين.وصدر قراره بعزل المركيز بعد عجزه عن وضع أية خطط واضحة للقضاء على الثورة،واحراز أى تقدم سريع خلال الفترة القصيرة من تولية مهام منصبه الجديد . ويبدو أن دون خوان لعب دورا غامضا في إفشال خطط مركيز بلش مالقه منذ البداية رغم قلة تفاصيل هذا الدور . وكان لهذه النزاعات الفضل في إتاحة مدة إضافية أمام الثوار تمكنوا خلالها من نقل الثورة إلى جبال غريبة بقيادة الغالب شقيف عبد الله بن أبيه الذي برز كواحد من أهم قادة الثورة في جبل البشرة . وهكذا انحسرت سلطة جنود فيليب الثاني في الجنوب ، وفقدوا السيطرة على أغلب الأرياف .

حيال هذه التطورات الأخيرة ، كتب دون خوان إلى فيليب الثاني يبلغه تردى الأوضاع ويقترح خطة شاملة للقضاء على الثورة شريطة حصوله على قوات إضافية ودعم كاف . فوافق فيليب الثاني على الخطة

---

(١) الروايات المتوافرة عن مصير سكان المدينة متناقضة ، إلا أن برسكوت (انظر المرجع السابق) يقول أن جميع الذكور ممن هم فوق سن الثانية عشرة قتلوا،وأن الثوار سبوا النساء والأطفال أسوة بعادة الجنود القشتاليين .

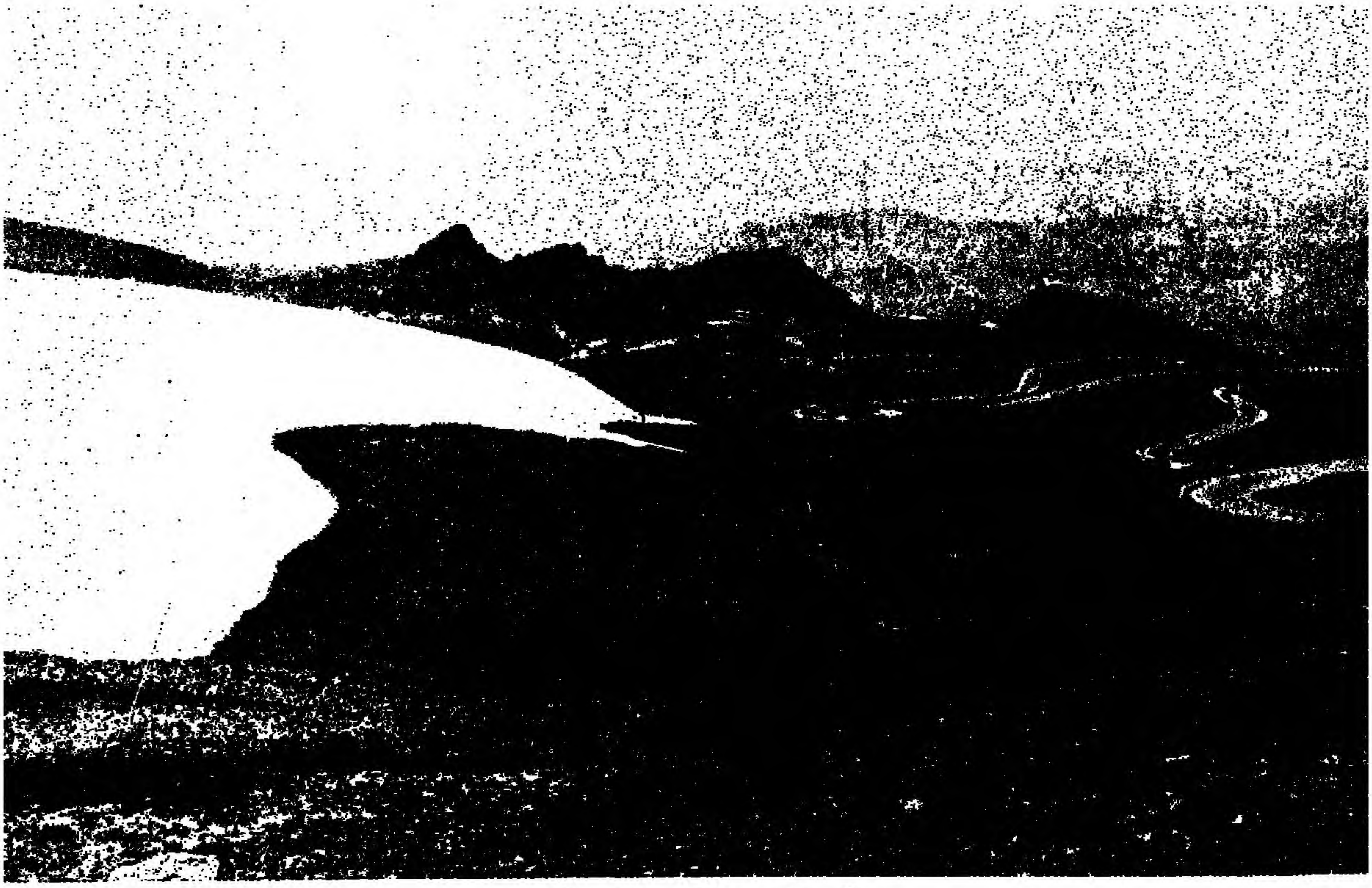

جبال شلير (الثلج) في الجنوب

وطلب من دون خوان إعادة تنظيم الجيش في انتظار وصول التعزيزات ، وعهد إليه مؤقتا بقيادة المنطقة الشرقية ، على أن يتسلم دوق سيسه تحت أشرافه قوة من الجنود لحراسة الممرات والطرق المؤدية إلى غرناطة من جبل البشرة . وأثناء عملية إعادة التنظيم اصطدم دون خوان بحامية غرناطة ووجد في ضباطها من التصرفات ماساعد على عصيان الحامية (١)،فأمر بانهاء خدمات ٣٧ ضابطا من أصل ٤٥ وأعاد السيطرة على الجنود واتخذ من غرناطة مقر قيادة عملية القضاء على الثورة . وفي هذه الأثناء تدفق الجنود وقوات ميليشيات المدن القشتالية الجنوبية على غرناطة ، وبات المسرح معدا لشن الهجوم الأخير، ووضع نهاية للثورة قبل أن يحل الشتاء بثلوجه ويمنع حركة الجنود ، الأمر الذي سيؤدي إلى تأجيل الحملة ضد الثوار حتى قدوم الربيع التالي .

وبحلول شهر أب من سنة ١٥٦٩ كانت الاستعدادات في غرناطة على قدم وساق لشن الحملات الأخيرة وانهاء الوجود الأندلسي في الجنوب . وفي انتظار أوامر فيليب الثاني لبدء الهجوم الشامل ، عمل دون خوان على إعداد قواته والمليشيات التي تجمعت لديه للمرحلة التالية من الصراع مع الأندلسيين الثائرين بشن سلسلة من العمليات العسكرية المحدودة ضد مواقع الأندلسيين ، قبل أن يأتيه أمر فيليب الثاني بالتحرك لإنهاء الثورة في جميع المراكز الواقعة إلى الشمال من غرناطة لضمان بقاء خطوط التموين

(١) كانت اعداد كبيرة من جنود الحامية تنزل عند الأندلسيين ، إلا أن هؤلاء نقلوا إلى ضيافة السكان القشتاليين في المدينة بعد ترحيل الأندلسيين ، فلم يجدوا معاملة مشابهة . فعم الاستياء وتطاولوا على القشتاليين محتجين على نوع الطعام المقدم لهم والخدمات القليلة الممنوحة لهم الأمر الذى اثار إستياء القشتاليين فشكوا الجنود إلى السلطة واوقفوا تقديم العون لجنود الحامية فاعلن الجنود العصيان .

مفتوحة مع الشمال . وبعد معارك متفرقة،تمكن دون خوان وبضعة الاف من الجنود والمليشيات من حصار مدينة غرة (Galera)الواقعة إلى الشمال الشرقي من بسطة في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٥٧٠ ، واستمر الحصار شهرا قبل أن تستسلم المدينة بعد الوعود والعهود التي قطعت لأهلها بالمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم . ويروي أحد المؤرخين (١) ماحدث بعد استسلام المدينة فيقول : إن دون خوان أمر بقتل جميع سكان المدينة،المقدر عددهم بحوالي ثلاثة آلاف،بعد اغتصاب نسائها.وكانت أعمال القتل والإغتصاب من الوحشية بحيث أرهق الجنود ، واضطروا إلى الفرار صباح اليوم التالي بعد أن وصلت مجموعات من الأندلسيين لنجدة أهل المدينة . وحاول دون خوان أن يعيد تنظيم جنوده والمليشيات إلا أنه أخفق في ذلك عدة مرات وكاد يتعرض للتهلكة خلال محاولاته تلك . (١)

وبقي دون خوان في غرة بعض الوقت في انتظار وصول الإمدادات الجديدة ، وتحسن الطقس قبل أن ينطلق في شهر فبراير باتجاه مدينة سيرون التي احتلها الثوار في شهر تموز السابق (انظر المصور ص ١٥١) ومعه حوالي ثلاثة آلاف راجل و٢٠٠ فارس وأعداد أخرى من حملة البنادق ورماة المدفعية ، وشطر الجيش إلى قسمين أسند قيادة الأول منهما إلى ريكويسنس والثاني إلى تابعه كيخادا بينما توجه هو إلى تل مشرف لمراقبة سير العمليات القتالية . حققت الاندفاعة الأولى للجيش الهدف المرجو منها وانسحب قسم من المدافعين عن المدينة إلى الجبال المجاورة . وحيال هذا التطور دخلت قوات المشاة المدينة وانهمكت في نهب محتويات المساكن دون أن تتنبه إلى إشارات النجدة التي أطلقها الأندلسيون باستخدام سحب الدخان . وخلال وقت قصير تجمع عدة آلاف من الأندلسيين بقيادة الفارس الحبقي المسؤول عن تلك المنطقة ، وانضم إليهم سكان سيرون واطبق الجميع على جنود دون خوان واضطروهم إلى الانسحاب . أما المشاة فقد أعمتهم المفاجأة فاسقطوا ماسلبوه واحتموا في مساكن المدينة،ولكن الثوار أطبقوا عليهم واحرقوا بعض المنازل التى احتموا بها . وأمام هذه الهجمة العنيفة انهزم جنود دون خوان في جميع الإتجاهات ، ولم يفلح وقادته في وقفهم ومنع هذه الهزيمة التي وقعت في السابع عشر من شباط سنة ١٥٧٠ .

وحين انجلى غبار المعركة وتوقف الأندلسيون عن مطاردة خصومهم ، اتضح أن دون خوان فقد في ذلك اليوم حوالي ٦٠٠ رجل بالإضافة إلى المشاة الذين قتلوا أو احترقوا في سيرون . وأصيب كيخادا بطلقة في كتفه اليسرى مات بعد ذلك بسببها ، كما أصابت طلقة أخرى خوذة دون خوان ولكنها لم تكن مؤثرة . وبعد يومين من الحادثة بعث دون خوان إلى فيليب الثاني يعلمه بتفاصيل الهزيمة ، ويطلب امدادات إضافية . وحين جاءه الرد بعد خمسة أيام تضمن الشكر لسلامته والعزاء لموت تابعه، والوعد

(١) انظر : Rowdon, Maurice. The Spanish Terror, (London), 1974, P 231 .

(٢) لا تتوفر معلومات عن حقيقة المخاطر التي تعرض لها دون خوان في هذه المعركة ، ولكن يرد في رسالة تلقاها من فيليب الثاني مايؤكد نجاته من خطر محدق . انظر مخطوطة مكتبة المتحف الوطني في مدريد بعنوان :
Carta del Rey a Don Juan de Austria, 24 Febrero, 1570.

بإرسال الفي جندي لمعاونته في القضاء على معاقل الثورة . ولكن فيليب الثاني كان يفكر بوسيلة أخرى للقضاء على الثورة واغتنام فرصة فريدة لزيادة نفوذه على الساحة الدولية .

في ذلك العام عرض البابا بيوس الخامس على فيليب الثاني تشكيل تحالف مقدس ضد العثمانيين الذين استفحل خطرهم في حوض البحر الأبيض المتوسط ، على أن يتولى شخص يسميه فيليب قيادة الحملة . واقترح الأخير أخاه دون خوان لشغل هذا المنصب على أن يقوم بذلك فور الانتهاء من قمع الثورة الأندلسية في الجنوب . غير أن الأخبار التي كانت ترد من مناطق الثورة لم تكن مشجعة ، والمقاومة العنيفة التي أبداها الأندلسيون يمكن أن تستمر فترة طويلة ، وقد يضطر دون خوان إلى البقاء في الجنوب مما سيضيع الفرصة الدولية السانحة . وهنا أوعز فيليب إلى أخيه فتح حوار مع الأندلسيين،وجرت مفاوضات سرية بين دون خوان والحبقي أكرم فيها الفارس الأندلسي بصورة خاصة ووعد بالكثير . كما صدرت إرادة ملكية تمنح جميع الثوار العفو الشامل إذا رضخوا للسلطة خلال ٢٠ يوما من صدور المرسوم،وإلا فإن الجزاء سيكون اعدام جميع الرجال والشبان الذين تفوق اعمارهم الرابعة عشرة .

ولايعرف على وجه التحديد مدى استجابة الأندلسيين لعرض فيليب الثاني ، إلا أن الشك كان الطابع العام ، وزاد من قناعة الثوار بعدم صدق العرض التحركات العسكرية المريبة التي شملت أغلب المناطق الواقعة إلى الشرق من جبل البشرة . ولاتعرف أيضا طبيعة تفاصيل الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين دون خوان والحبقي ، إلا أنها تضمنت ، على مايبدو ، سحب الأخير لبعض قواته من المناطق التي كان مسؤولا عن حمايتها ، ولعل هذا أحد الأسباب التي تفسر الانتصارات السريعة التي حققها دون خوان فيما بعد . إذ انسحبت قوات الحبقي من سيرون ثم من جولة (Tijola)وبرشانة (Purchena) . وعندما اقام دون خوان مقر قيادته في البذول (Padules)القريبة من اندرش (Laujar de Andarax)في الثاني من أيار سنة ١٥٧٠م،فعل ذلك وهو مطمئن إلى أن سيطرته على جميع المدن والقرى الواقعة في وادي نهر المنصورة باتت شاملة .

وزع دون خوان الجيوش في الأسابيع اللاحقة إلى فصائل انيطت بها مهمة ملاحقة الثوار في كل مكان وإحراق منازل المزارعين وحقولهم . وحول الجنود الأرض إلى خراب ، كي لا تقدم أسباب الحياة لأى مخلوق ، وكانت هذه طبيعة اجراءات المصالحة التي استخدمتها الحكومة للقضاء على الثوار . (١) وخلال هذه الفترة قاد دوق سيسه جيشا من عشرة آلاف راجل و٢٠٠ فارس وحاول القضاء على الثورة في المناطق الشمالية من جبل البشرة ، إلا أن إبن أبيه تصدى له ومنعه من تحقيق أى انتصار يذكر رغم قلة عتاد رجاله . وبعد فترة اعتمد فيها الجانبان حرب العصابات ، انسحب دوق سيسه إلى الساحل وأعاد هناك تنظيم جيشه بعد فرار أعداد كبيرة منه ، والتحق في بداية شهر آيار بمعسكر دون خوان فى البذول .

---

(١) انظر :

Carbajal, Luis del Marmol. Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos del Reyno de Granada, Sancha, (Madrid), 1797, Part II, PP 290-320,& 340-346.

وحيال الإخفاق الذريع الذي مني به دوق سيسه في تحقيق أى انتصار يذكر على ثوار البشرة ، عمد دون خوان إلى سياسته الأولى ، وطلب من الحبقي الإعداد لجولة جديدة من المباحثات ، بدأت فعلا في الثالث عشر من أيار في قرية تدعي فندون اندرش (Fondon de Andarax)بحضور الحبقي وعدد من زعماء الأندلسيين المواركة . ومنذ الدقائق الأولى لذلك الاجتماع اتضح إن مطالب الأندلسيين صعبة الاستجابة ، إذ طلب الوفد إعلان العفو العام والغاء مرسوم الأول من كانون الثاني لسنة ١٥٦٧ . ولكن هذا الموقف لم يحبط أمل دون خوان في الانتهاء من ثورة الأندلسيين بأسرع وقت ممكن لتولي منصبه الدولي الذي وعده فيليب الثاني به ، فراوغ مع الوفد وطلب إليه الحصول على موافقة الزعيم ابن أبيه بالتحدث بإسمه ، وعهد إلى أمين سره خوان دى سوتو (Juan de Soto)المساعدة على صياغة بنود الاتفاق . وفي التاسع عشر من آيار عاد الوفد إلى معسكر دون خوان وجرى توقيع الاتفاق (١) ،وانسحب الوفد باستثناء الحبقي الذي أكرم واحتفى به الجميع بما فيهم رئيس أساقفة وادى أش (Guadix)الذي أقام له مأدبة عشاء خاصة .

وأثار بقاء الحبقي في معسكر دون خوان الريبة في نفوس الأندلسيين وزعيمهم ابن ابيه ، وتحولت الريبة إلى غضب بعد أن تسربت أنباء الاتفاق الذي تضمن العفو عن الأندلسيين بعد إبعاد جميع سكان البشرة عن أماكن اقامتهم ، وتكفل الملك برعايتهم في مناطق سكناهم الجديدة . وأمام غضبة الأندلسيين ادعى ابن ابيه أن الحبقي تصرف عكس ماطلب إليه ، وشط في تقدير الصلاحيات التي مُنحت له ، لأن الاتفاق يعيد الأندلسيين إلى الموقع الذي كانوا فيه قبل الثورة ، ويلغي جميع التضحيات التي قدموها اضافة إلى أنه ينص على رحيل أهل البشرة من مساكنهم . وهنا خشي الحبقي من ارتداد معسكر دون خوان عليه فرحل مدعيا أنه سيقصد ابن أبيه ويعتقله إن لزم الأمر . ولما سمع ابن أبيه برحيل الحبقي من المعسكر بعث إليه بعض اتباعه فأحضروه من قريته في برشول (Berchules)إلى مقر قيادته في مسينه (Mecina Bombarón)حيث خنقه الأتباع ولفوا جثته بالقش ورموها في واد عميق . ولما استفقد دون خوان الحبقي بعث بفارس يدعي هرنان بال دي بلاثيوس (Hernan Valle de Palacios)إلى معسكر عبدا الله ابن ابيه يستطلع الأخبار ويعرض على الزعيم الأندلسي الصلح . وحين اجتمع إلى الزعيم أبلغه الأخير : « لأمنع رعيتي من فعل ماتشاء ، ولكن أبلغ سيدك مابقي لي كساء يستر ظهري ماسلكت سبيلهم . وإن لم يصمد أحد في البشرة فإنني صامد ، أفضل إلى أن أعيش مسلما وأموت مسلما من أن انعم بكل مايمكن أن يقدمه إلى فيليب الثاني ».(٢)وحين عاد الرسول إلى دون خوان نشط في اعداد جنوده للمعارك بتوجيههم إلى المراكز الأندلسية القريبة والإغارة على القرى والمواقع المتعزلة في جو تجددت فيه الروح الصليبية ، واشتعل فيه الحقد على الأندلسيين فكانت صرخة الحرب اسم القديس سنتياغو (شنت يعقوب) كما كانت في القرن الثالث عشر . ولم يكن تصرف جنود الامبراطور فيليب الثاني يختلف عن تصرف جنود الفونصو السادس أو فرناندو الثالث ، إذ كان هؤلاء يعودون من غاراتهم

---

(١) لم ينشر نص الإتفاق قط ولم يعثر على نسخة له ، إلا أن كربخال يورد تفاصيل كثيرة عنه . أنظر المصدر السابق ، ص ٣٥٥ – ٣٦٢
(٢) المصدر أعلاه ، ص ٤١٠ .

إلى غرناطة وهم يحملون رؤوس قتلاهم أو بعض أطرافهم . وبعد أن أيقن دون خوان أن الجنود والمليشيات باتوا مستعدين للقتال وارتفعت روحهم المعنوية إثر الانتصارات الفردية التي حققوها ضد القرى الأندلسية المنعزلة ، قرر تنظيم حملة رمزية استهدفت مدينة وجار (١) فقاد قسما من الجيش باتجاه المدينة وسلم قيادة القسم الآخر لدوق سيسه . إلا أن الأخير وصل قبل دون خوان ، وتمكن من اقتحام المدينة بعد فرار أهلها ، وحرم دون خوان مّن تحقيق انتصاره الجديد . ولكنه لم يكن بحاجة لهذا الانتصار إذ كان قائدا بلا منازع لجميع قوات فيليب الثاني ومليشيات المدن المساندة في الجنوب عندما وصله أمر الامبراطور بالتحرك .

د – تصفية الثورة الأندلسية الكبرى :

وزع دون خوان مسؤوليات قادته بحيث يتسلم هو قيادة حوالي خمسة آلاف جندي نظامي ، ويتجه بهم لتطهير المناطق الواقعة شمال غرناطة . وعهد إلى ريكويسنس قيادة جيش آخر ينطلق من غرناطة لدخول جبل البشرة من ناحيته الشمالية ، بينما يقود دوق سيسه حوالي أربعة الآف من المجندين لقمع الثورة وسط الجبال . أما دوق اركوش فقد تسلم قيادة الجيش الغربي بمهمة قمع الثورة في جبال رندة والاتجاه بعد ذلك للسيطرة على معاقل الثوار في الجبال القريبة منها . وفي بداية شهر أيلول من سنة ١٥٧٠ تحركت الجيوش الأربعة في اتجاهاتها المختلفة وبدأ الصدام مع الثوار على الفور . ولكن سرعان ما تبين الأندلسيون أن الحملة لا تستهدف فقط الثوار ، وإنما قصد فيليب الثاني أن تكون حرب إبادة لا تقوم للأندلسيين بعدها قائمة ، ولذا فإن التاريخ لم يغفر لفيليب الثاني قط المذبحة الجماعية التي ارتكبها جنده ضد الأندلسيين بين شهرى أيلول وتشرين الثاني من ذلك العام .(٢)

وتفاصيل هذه الفترة من الحرب ضد الأندلسيين قليلة لأسباب معروفة قصد منها المؤرخون الأسبان طمس حقائق المجازر التي ارتبكها الجنود في الجنوب . ولكن من المعروف أن دون خوان حمّل قادته وصيته الشهيرة قبل التحرك وهي « لا رحمة لاهوادة »(٣) وكان هذا تصرفه حين احتل مدينة وادى اش الواقعة الى الشمال الشرقي من غرناطة ، وبدأ شن الحملة ضد الأندلسيين . في البداية كانت المقاومة عنيفة،ولكن الثوار أخذوا في التقهقر تدريجيا والالتجاء الى المرتفعات . وكان جنود دون خوان في تقدمهم يحرقون كل شيء أمامهم ، كي لا يتمكن الأندلسيون من الاستفادة منه . فقل الطعام والماء وتحولت المدن والقرى الى انقاض وانشغلت مجموعات الثوار بمقاومة القوات التي خصصت لكل منها ، فانقطعت الاتصالات بينهم وتوقفت الامدادت . وبعد القضاء على الثورة المسلحة في قطاع دون خوان ، شدد

---

(١) ربما أججر (Ugijar) الواقعة شمال عدرة أو جنوب الطرف الشرقي من جبل الثلج .

(٢) انظر الوصف الذى يقدمه برسكوت في :

Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, Phillips, Sampson & Company, (Boston), 1859, BOOK V, Chapter VIII, PP 269-275.

(٣) Lane-Poole, Stanley, The Moors In Spain, (4th Edition) 1890,P 278

ضغطه على الأندلسيين فانسحبوا الى الكهوف والمغاور المرتفعة حيث كان جنوده يحيطون بالمكان ويشعلون الأغصان الخضراء امام الفتحات حتى يختنق الأندلسيون في الكهوف المحاصرة ، ومن قرر الخروج وجد سيوف الجنود في انتظاره . وبعد اتمام العمل الموكل للجنود ، كانوا ينتقلون الى منطقة جديدة ويكررون فعلهم الذي ثبتت الآن فاعليته الكبيرة .

تراجع الثوار الأندلسيون أمام هذه الهجمات المركزة من جميع المناطق بعد صدامات دامية الحقت خسائر كبيرة بالطرفين . ولا تتوفر معلومات عن حملات ريكويسنس ودوق سيسه ، ولكن من المعروف أن دوق اركوش بدأ حملته في حوالي منتصف ايلول ، وتمكن من التوغل في جبال غربية الأندلس حتى صطدم بتجمع كبير للثوار الأندلسيين قرب قلعة اللوز في الجبل الأحمر (Sierra Bermeja) ، ودارت معركة عنيفة انتهت بانتصار قوات الدوق .وفي هذه الأثناء أثارت عمليات قوات جنود دون خوان النقمة في صفوف قيادة الأندلسيين ، وقام بعضهم على مولاى محمد بن امية(٢) فخنقوه وهو نائم وتسلم القيادة بدلا منه مولاى عبد الله ابن ابيه الذى يوصف بالاخلاص حتى في المصادر القشتالية ، وبانه كان القائد الحقيقي للثورة قبل ان يتسلم قيادتها بعد مقتل ابن امية . ولكن مولاى عبد الله جاء في الوقت الذى ضعفت فيه الثورة وأخذت تترنح تحت وقع ضربات جنود دون خوان . حتى أن مولاى عبد الله حوصر في أحد الكهوف الواقعة قرب برشول الواقعة شرقي مطريل،ولكنه تمكن من الفرار غير أن سبعين أندلسيا بينهم زوجته وابنتاه بقوا في الكهف وماتوا مختنقين بالدخان .

وبحدود منتصف تشرين الأول كانت الجيوش الأربعة قد تمكنت من دحر التجمعات الرئيسية للثوار الأندلسيين . ووجد فيليب الثاني في ذلك فرصة للانتقام ، فاصدر في التاسع عشر من الشهر المذكور مرسوما خول فيه الجنود السبي والنهب ورفع أجورهم وأصبح قتل الأندلسيين واجبا قوميا . وفي الثامن والعشرين من الشهر ذاته اصدر فيليب الثاني مرسوما أخر أمر فيه بترحيل الأندلسيين من الجنوب (انظر نتائج الثورة الأندلسية الكبرى) ومصادرة جميع ممتلكات المنفيين لتغطية نفقات الحملات العسكرية ضد الأندلسيين المواركة . وخطا دون خوان خطوة مماثلة من جانبه ووعد الجنود بتقديم ٢٠ دوقة لكل من يتمكن من قتل اندلسي،فنظمت حملات ،، صيد الرؤوس ،، ولم يكن الجنود يفرقون خلالها بين الثائر والمسالم . وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني غادر دون خوان غرناطة الى مدريد حيث استقبل كالابطال الفاتحين ، وعين دوق اركوش حاكما عسكريا واسند اليه مهمة مطاردة باقي الأندلسيين في الجنوب .

وخلال الفترة التي قُدم فيها عشرات المئات من الأندلسيين الى المحكمة العليا برئاسة بدرو دى ديثا ، لم يكن الجنود يفتشون عن أى من الثوار كما كانوا يفتشون عن مولاى عبد الله ابن ابيه ، ولكن دون جلوى . وفي آذار من سنة ١٥٧١ سنحت للسلطة فرصة عظيمة عندما وشى أحد المخبرين بالمكان

---

(٢) يرد اسمه في معظم المصادر الأجنبية كابن حمية . انظر المصدر السابق ص ٢٧٧ .

الذى التجأ اليه عبد الله ، إلا أن أحد اتباعه عاجل بقتله طمعا في الصفح عنه ، وحمل الجثمان على بغل وقد شد على اطار خشبي الى غرناطة ، حيث احتفل بقطع راس الجثمان والقاء الجسم الى أطفال غرناطة الذين لهوا به ثم أحرقوه . أما الرأس فوضع في قفص وعلق على بوابة البشرة وكُتب على القفص:« هذا راس الخائن ابن ابيه . ليمتنع الجميع عن انزاله تحت عقوبة الاعدام »(١) .

٤ - نتائج الثورة الأندلسية الكبرى

نحو نهاية سنة ١٥٧٠ كان الأندلسيون في الجنوب إما محاصرين أو اسرى أو منفيين أو قتلى . ولكن الخوف الذى بثه الأندلسيون في قلب السلطة خلال ثورتهم التي استمرت ثلاث سنوات،دفع الحاكم العسكرى الجديد الى اتخاذ كل التدابير الممكنة خشية تجدد القتال ،فأمر بتشييد ٨٤ منبرا عسكريا بينها ٢٩ منبرا في جبل البشرة ووادى القرن (Lecrin) ، وشدد الحراسة على مداخل المدن وأعتقل الجنود كل من عثروا عليه من الأندلسيين في انتظار قرار فيليب الثاني لاسدال الستار على ثاني ثورة للأندلسيين خلال أقل من ٦٠ سنة . ورغم كل هذه الاحتياطات،فان الاشتباكات المتفرقة استمرت بعد شهر آيار من السنة التالية حين وضعت شروط استسلام ما تبقى من الأندلسيين في جبال الجنوب ، ثم انطفأت شعلة الثورة قبل منتصف سنة ١٥٧١ .

وخلال فصل الشتاء الأخير : « صبغت تلك الأشهر بنهر أحمر قان من الدماء . كان شعار دون خوان ،، لا رحمة ، لا هوادة ،، فذبح الرجال والنساء والأطفال بامره وأمام ناظريه ، وحولت قرى البشرة إلى مسلخ بشرى .. أما القائد الاعلى ريكويسنس فتمكن من اخماد آخر جذوات الثورة قبل الخامس من تشرين الثاني سنة ١٥٧٠ ، ورتب سلسلة منظمة من الذبح الجماعي والتدمير الشامل ، وإحراق القرى عن آخرها وخنق الناس بالدخان في الكهوف حيث لاذوا . ثم أخيرا اخضاع الموازكة ولكن على حساب أسبانيا المسيحية وسمعتها ، وعلى حساب مستقبلها ». (٢) وبانتهاء المعارك الرئيسية قدر عدد القتلى من الأندلسيين بحوالي ٢٠,٠٠٠ شخص ،ولكن العدد الأكبر من الأندلسيين انتهوا إما إلى الأسر والاستبعاد ، أو إلى النفي في قشتالة والتضييع في زوايا ممالك فيليب الثاني الشاسعة « وكانت غرناطة في هذه الفترة مسرحا للاعدامات شبه اليومية . فبعد اسر الثائرين التعساء كانوا يجبرون على الامتثال أمام محكمة ديثا ، فيصدر عليهم الحكم على الفور بالخدمة في القواديس أو الشنق ، أو بنهاية أكثر إرهابا عن طريق تقطيع أجسادهم بكمشات تحمى حتي يصبح لونها كالجمر ».(٣) .

---

(١) Mendoza. Guerra de Granada, P 329.

(٢) أنظر: Lane- Poole, Stanley. Moors In Spain, P 278.

(٣) أنظر: Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, (Boston), 1859, BOOK V, Chapter VIII, P 280.

وعندما هدأت موجة التقتيل والتعذيب عملت الحكومة على تقنين أعمال التضييق على الأندلسيين المواركة وصدر في الرابع والعشرين من شباط سنة ١٥٧١ القانون المعروف بإسم « مجموعة القوانين المحلية الخاصة بمملكة غرناطة » (Ordenanzas de Granada) وقدم لها بمايلي : « إن من غير المتوجب معاقبة المواركة الذين لم يشاركوا في العصيان ، وعلينا ألا نرغب في إيذاءهم.ولكن لن يكون بمقدورهم بعد اليوم استغلال اراضيهم ، ذلك لأن محاولة فصل الأبرياء عن المذنبين مهمة بلا نهاية . وسنعمل بالتأكيد على تعويضهم في المستقبل ، ولكن أطيانهم ستصادر في الوقت الراهن مثلهم في ذلك مثل المواركة الثائرين.»(١)،ولم يعوض أندلسيو السلام فيما بعد ، ومع ذلك نظر القشتاليون إلى القانون على أنه تضمن صفحا عن الأندلسيين لايسوغه الواقع . (٢)

وفي السادس من تشرين الأول سنة ١٥٧٢ أصدر فيليب الثاني مرسوما جديدا حرم على الأندلسيين المواركة التخاطب بالعربية أو الكتابة بها ، وحدد غقوبة المخالفة الأولى للمرسوم بالسجن مع التكبيل بالحديد مدة ٣٠ يوما ، وضعفى المدة للمخالفة الثانية،والخدمة أربع سنوات في القواديس مع ١٠٠ جلدة في حالة المخالفة الثالثة . وجاء في المرسوم أن العثور على وثيقة،أو صفحات مكتوبة بالعربية،ستعرض صاحبها للخدمة أربع سنوات في القواديس والجلد ١٠٠ جلدة . والغى المرسوم أية قيمة قانونية لاية وثيقة أو صك مكتوب بالعربية،وحدد عقوبة جميع المسؤولين عن مثل تلك الوثائق أو الصكوك بمئتي جلدة والعمل سخرة في القواديس ست سنوات . وتضمن المرسوم عددا كبيرا من الممنوعات والمحظورات إلا أن أعظم العقوبات كانت بحق الأندلسيين المواركة الذين يتركون المناطق السكنية المحددة لهم بعد نفيهم . فإذا قبض على أندلسي يتراوح سنه بين العاشرة والسابعة عشرة على بعد عشرة فراسخ من غرناطة حكم عليه بأن يكون عبدا يشتغل في القواديس بقية أيام حياته . وإن كان سنه فوق ذلك حكم عليه بالإعدام . وأجبر المرسوم الأندلسيين المواركة باعلام السلطات إن هرب أحدهم من المنطقة المحددة لسكناه . وإن تخلفت الأسرة عن ابلاغ السلطات فإن عقوبة أفرادها ، مهما كانت صلتهم بالأندلسي الفار ، السجن مدة شهر واحد والجلد . وإذا حدث وترك أحد الأندلسيين المواركة سكناه في المنفي المخصص له فإن السلطات كانت تحشد كل قواها وعيونها ، وتخصص الجوائز القيمة للامساك به ، وتطبيق العقوبات التي نص عليها المرسوم .

ولم تكن السلطات،في السنوات التي أعقبت الثورة الأندلسية الكبرى،تخشى تجمعات الأندلسيين الغرناطيين في منفاهم ، إلا أنها كانت تسعى بكل طاقاتها لمنع اختلاط الأندلسيين المنفيين بالمواركة في مملكة بلنسية أو ارغون والمناطق الأخرى على الساحل الشرقي لشبه جزيرة ايبرية ، خوفا من تشجيعهم على الثورة في تلك الممالك التي كانوا يشكلون فيها أغلبية أو أقلية كبيرة جداً . ومن الممكن التصور أن السلطات القشتالية نجحت بمعاونة القشتاليين في مناطق النفي من السيطرة على الغرناطيين المنفيين ،

---

(١) أنظر : Circourt, Count Albert de, Histoire des Arabes en Espagne,Vol. III, P 148.

(٢) أنظر : Carbajal, Luis del Marmol, Historia del Rebeliony Castigo de los Moriscos del Reyno de Granada, (Madrid), 1797, Part II, P 439.

وتحطيم معنوياتهم، وبالتالي منعهم من التفكير في القيام على فيليب الثاني مرة أخرى . وكانت أعين السلطات والقوانين المحلية والمراسيم المختلفة الخاصة بالأندلسيين المواركة كفيلة بالقضاء على أى شعب مقهور لولا أن الأندلسيين كانوا من طينة أخرى صلبتها ثمانية عقود من الاضطهاد المتواصل . ويصف برسكوت طبيعة المراسيم التي صدرت بحق الأندلسيين في تلك الفترة فيقول : « من العسير أن يعثر المرء في صفحات التاريخ على مثال أوضح للاضطهاد تعرض له شعب مقهور من ذاك المتمثل في القوانين التي صدرت في تلك الحقبة بحق المواركة . »(١)

- نفي سكان غرناطة :

اتساع رقعة الثورة واشتداد خطرها حمل فيليب الثاني على الاستجابة لطلب مشترك سابق ، تقدم به كل من دون خوان رئيس المجلس العسكري وبدرو دي ديثا رئيس المحكمة العليا لترحيل الأندلسيين من غرناطة خوفا من أن تؤدي التطورات إلى قيامهم ضد السلطة ولاسيما وأنهم كانوا يعتبرون قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أية لحظة بعد أن اختيرت المدينة مركزا لقيادة الجيوش التي انيط بها قمع الثورة . وفي الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة ١٥٦٩ ، أصدر فيليب الثاني مرسوم النفي بعد أن تجمع الجنود في المدينة تحت جنح الظلام لتنفيذ بنوده . وعندما ايقن دون خوان أن عدد الجنود كاف للسيطرة على الوضع بعث بالمنادين إلى حي البيازين فطلبوا من جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين سن العاشرة والستين التجمع في الكنائس القريبة من بيوتهم محذرين بأن المخالفين سيلقون عقابا صارما .

وقع أمر دون خوان وقع الصاعقة على الأندلسيين الغرناطيين لأن أغلبهم التزم جانب الحياد منذ البداية حتى أنهم عُرفوا مع الزمن بإسم « أندلسي السلم » . وزاد من قلق السكان الخشية من أن يكون دون خوان قد أعد لهم مصيرا مماثلا لما حدث في سجن المدينة عندما ذُبح أكثر من ١٠٠ أندلسي ، فتوجه أعيانهم إلى دون خوان للتحقق من غرض جمعهم. ولكنه طمأنهم مشيرا إلى أن الهدف احصاء عددهم، وحذرهم في الوقت ذاته من مغبة عدم الإنصياع لذلك الأمر الواضح . وبعد أن اطمأن الأندلسيون إلى قول دون خوان توجه الذكور من الفئات المحددة إلى الكنائس فدخلوها وأغلقت عليهم الأبواب تحت حراسة الجنود المخصصين لذلك . ومع اطلالة يوم الرابع والعشرين من حزيران أُمر الأندلسيون بالخروج والإصطفاف في طوابير طويلة ، وتوجهوا بعد ذلك إلى المستشفى الملكى تحت اشراف الجنود بقيادة دون خوان . لم يكن الأندلسيون على علم بما سيحدث لهم حتى تلك اللحظة، ولكن حادثة وقعت في الطريق إلى المستشفى قدمت لهم شيئا من المصير الذي ينتظرهم. إذ أن جنديا لطم شابا أندلسيا يستحثه على الإسراع فالتقط الشاب حجرا وهوى به على رأس الجندي فإندفع الجنود إلى الشاب وقطعوه بالسيوف أمام الجميع (٢) .

---

(١) انظر : Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, (Boston), 1859, Book V, P 289.

(٢) أغفل كثير من المؤرخين الأسبان الأوائل (مثل مندوزا) الإشارة إلى نفي الأندلسيين ، أو حتى التطرف إلى المعاناة التي لقيوها على أيدي القشتاليين ، وربما كان كريجال من بين قلائل تناولوا الموضوع بشيء من التفصيل والموضوعية ولعل ذلك يعود إلى قضائه بعض سنوات حياته بين العرب : أنظر المصدر السابق، الجزء الثاني ، الصفحات ٤٣٧ — ٤٤٤ .

قام دوان خوان في المستشفى يشرف على فرز الأندلسيين واستبعد منهم حوالي الألفين من العلماء والمهرة في الصناعة والزراعة والبناء ، بينما قسم الباقين إلى جماعات حدد لكل منها وجهة معينة في قشتالة الجديدة . وتوجهت بهم حراسات مشددة صبيحة الخامس والعشرين من حزيران إلى منفاهم بين أعدائهم . والتقديرات الخاصة بعدد المنفيين في هذه المرحلة شديدة التفاوت ، ولكن أحد التقارير ، التي يقال أن موظفا أعده يوم الفرز ، يضع العدد بحدود ٣٥٫٠٠٠ أندلسي . وبسبب سرعة تنفيذ مرسوم فيليب الثاني فان السلطة لم تكن على استعداد تام لتوفير الضروريات البسيطة للمنفيين من طعام وماء ، ولذا فإن المعلومات تؤكد موت أعداد كبيرة منهم حتى قبل الوصول إلى وجهتهم ، بينما تشير معلومات أخرى إلى أن الجنود قتلوا أعدادا أخرى من الأندلسيين ، وأجهز القشتاليون على عدد آخر من الأندلسيين الذين حلوا بينهم دون رغبة أو موافقة . ولم يكن مصير الأطفال في غرناطة أفضل كثيرا من مصير المنفيين ، إذ أن المرسوم نص على أن تتولى الكنيسة رعاية جميع أطفال أندلسيي غرناطة ممن هم دون سن العاشرة حتى تتوفر لهم النشأة النصرانية الصحيحة فانتزعهم الجنود من أمهاتهم ووزعوا على الكنائس فى غرناطة وأماكن أخرى . وسمح المرسوم لنساء المنفيين البقاء في المدينة لبيع ممتلكاتهن ولكن مصيرهن غامض ولا تتوفر أية معلومات عنه . وربما حدث والتحقت أعداد منهن بازواجهن وابنائهن ف المنفى ، ولكن ظروف الوضع تحتم أن يكون العدد قليلا . والأغلب أن معظم النساء بقين في غرناطة وأخذ الجنود بعضهن .

ولكن هذه لم تكن النهاية إذ أصدر فيليب الثاني مرسوما لاحقا في الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة ١٥٧٠ قضى بترحيل جميع الأندلسيين من مملكة غرناطة بلا استثناء ، ونظمت العملية وفق الخطوات التي اتبعت في عملية الترحيل الأولى بإشراف دون خوان ولكنها كانت من التعقيد بحيث اضطر دون خوان للإستعانة بجنود ريكويسنس ودوق سيسه . وفي الأول من تشرين الثاني رحلت أول مجموعة إلى الشمال واستمر ترحيل المجموعات التالية لمدة زادت على الأسبوعين ، ثم لحقت بها مجموعات أخرى في فترات تلت . وشملت مناطق النفي مراكز مختلفة في المنشا والقشتالتين القديمة والجديدة واستريمادورا وجليقية ، ولكن السلطات حرصت على ابعاد المنفيين عن مواطن الأندلسيين في بلنسية ومرسية والمناطق الأخرى التي كان يسكنها اندلسيو ارغون الذين لم يشتركوا في القتال نصرة لأهل الجنوب الأندلسي . وإضافة إلى النفي قرر فيليب الثاني مصادرة جميع ممتلكات المنفيين ، لتعويض ماأنفقه من أموال على الحملات ضد الثوار وقدرت بحوالي ١٠٠ مليون دولار بعملة اليوم .

ويروي لين – بول نهاية الثورة الأندلسية الكبرى فيقول : « كان السبي والنفي المصير الذي آل إليه من بقي حيا بعد الثورة ، ولكن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً ... أولئك الذين أسروا والثورة مشتعلة أصبحوا عبيداً ، وسيق الباقون إلى النفي تحت حراسة الجنود بينما شددت الحراسات على الممرات في التلال . . وكثير من المنفيين التعساء ماتوا في الطريق جوعا أو تعبا أو من الحر والبرد ، وتمكن آخرون من الوصول إلى أفريقيا حيث عانوا من الفاقة ولم يجدوا أرضا يحرثونها ، وبعضهم وصل فرنسا فقوبل بفتور الاستقبال رغم أن هنرى الثامن وجد فيهم أدوات مفيدة لمكائده في أسبانيا » . (١) .

---

(١) Lane-Poole, Stanley. The Moors in Spain, P 279.

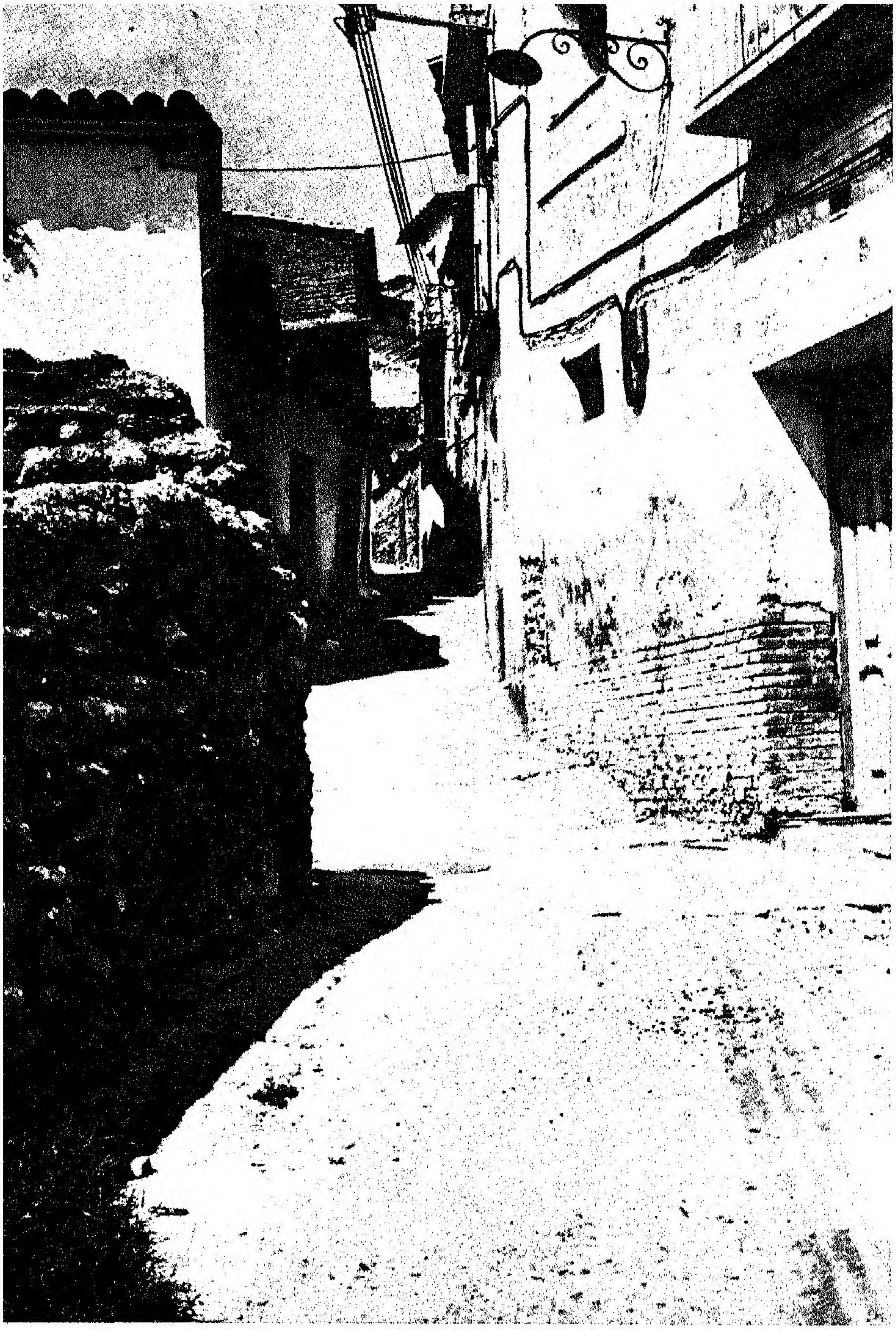

حي المواركة في مدينة قلعة أيوب

ب - توزع الأندلسيين بعذ الثورة الكبرى :

لاتتوفر أية احصاءات دقيقة لعدد السكان الأندلسيين في الجنوب قبل اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى . وهناك تقديرات تشير إلى أن عدد من بقي في مملكة غرناطة بعد الثورة الأندلسية الأولى كان

يتراوح مابين ٢٠٠,٠٠٠ و٥٠٠,٠٠٠ شخص (أنظر الفصل الثاني – توزع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة) حتى بعد رحيل حوالي ٣٠٠,٠٠٠ شخص إلى المغرب وغيرها أثر صدور مرسوم سنة ١٥٠٢ . وفي المرحلة الأولى من نفي الأندلسيين خلال الثورة الأندلسية الكبرى ، قدر عدد المرحلين إلى الشمال بحدود ٣٥,٠٠٠ شخص ، بينما قدر عدد المرحلين في المرحلة الثانية بحوالي ٥٠,٠٠٠ شخص ، وبقي في الجنوب بعد ذلك مابين ١٠,٠٠٠أو ١٥,٠٠٠ شخص بما يشمل الأندلسيين خارج مناطق القتال وقسم من النساء والأطفال الأندلسيين الذين عهد برعايتهم إلى الكنيسة ، بينما تمكن عدد غير معروف من الأندلسيين من الفرار إلى العدوة أو النزوح إلى فرنسا .

وبينما استمر عدد الأندلسيين في مملكة أرغون بنموه الطبيعي من إجمالي قدر في بداية القرن السادس عشر بحوالي ٢٣٥,٠٠٠ شخص ، فإن عدد الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في قشتالة في التاريخ ذاته قدر بحوالي ٢٠٠,٠٠٠ شخص ، وربما وصل إلى ٤٠٠,٠٠٠ شخص سنة ١٥٦٩ على أساس احتساب زيادة سنوية في عدد السكان بنسبة واحد بالمئة ليتضاعف العدد مرتين كل ٧٠ سنة . ووفقا لهذا الاحتساب الافتراضي فإن عدد الأندلسيين يمكن أن يكون تضاعف مرتين في كل مكان بحلول السبعينات من القرن السادس عشر ، علما بأن المعروف عن الأندلسيين كثرة انجابهم في فترة مابين الثورتين ولعلهم يشتركون في ذلك مع غالبية الأقليات . ولو افترضنا وجود منطقية نسبية في حساب عدد السكان على أساس الزيادة المذكورة ، فإن عدد الأندلسيين في قشتالة وصل في سنة ١٥٧٠ إلى حوالي نصف مليون شخص بعد أن أضيف إلى العدد الأساسي حوالي ٩٠,٠٠٠ منفى (بما في يذلك نساء التحقن بأزواجهن أو آبائهن أو ابنائهن بحلول نهاية شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها) ، وربما ارتفع العدد بعد ذلك أثر نفي مجموعات أخرى من الأندلسيين الجنوبيين الذين قبض عليهم فى أوقات لاحقة . وربما كان عدد المنفيين خلال الثورة الأندلسية الكبرى وإثرها يقترب من الرقم المشار إليه ، لأن من المعروف أن فيليب الثاني سمح لحوالي ٥٠,٠٠٠ قشتالي شمالي بالانتقال إلى الجنوب الأندلسي . ومع ذلك فإن هؤلاء لم يتمكنوا من سد الثغرة التي أحدثها نفي الأندلسيين لأن حالة الجنوب ، ولاسيما مدينة غرناطة نفسها ، تدهورت بعد نفيهم وساء وضعها ، رغم أنها كانت تقدم الخدمات لحوالي ٢٠٠,٠٠٠ أندلسي بعد استسلامها سنة ١٤٩٢ ، وهو عدد كبير لمدينة مثل غرناطة في وقت كان فيه عدد سكان لندن لايتجاوز ٥٠,٠٠٠ شخص .

هذه التقديرات تضع عدد السكان الأندلسيين في كل من ارغون وقشتالة ومملكة غرناطة بعد القضاء على الثورة الأندلسية الكبرى بحدود مليون شخص على الأقل (نصف مليون في ارغون ونصف مليون في قشتالة ومابين ٦٠,٠٠٠ و١٥٠,٠٠٠ في مملكة غرناطة).ولكن يتوجب أن يضاف إلى هذا العدد المقدر أعداد كبيرة من الأندلسيين الذين تحولوا إلى عبيد ، أو جرى نفيهم إلى ممالك قشتالة في العالم الجديد.(أنظر نفي الأندلسيين المواركة) .

الفصل
الرابع

نفى الأندلسيين المواركة

١ - وضع الأندلسيين المواركة بعد الثورة الكبرى

بين استسلام غرناطة وإخماد الثورة الأندلسية الكبرى ٧٨ سنة لم يتوقف فيها اضطهاد الأندلسيين يوما واحدا ابتداء من عهد ايزابيلا وفرناندو إلى عهدي كارلوس الخامس وابنه فيليب الثاني ، وشاركت السلطة الكنسية في التشديد على الأندلسيين بتشجيع شخصيات مثل توركيمادة وزمنيز واسبينوزا ، ولم يلبث القشتاليون العاديون ان شاركوا السلطتين العداء للأندلسيين لأسباب مختلفة منها قدرة الأندلسيين على الاستمرار تحت كل الظروف ، واستعدادهم للقيام ضد السلطة كلما ضاق الحصار عليهم حتى ولو كان الخصم شخصية دولية مثل فيليب الثاني . وباقتراب نهاية سنة ١٥٧٠ تمكنت قوات السلطة من اخماد الثورة الأندلسية الكبرى سوى في جبال الجنوب بعد قتل مالايقل عن ٢٠,٠٠٠ شخص ونفي حوالي ٩٠,٠٠٠ أندلسي وتحويل اعداد كبيرة إلى عبيد . ولم يبق مايدل على قيام الثورة الأندلسية الكبرى سوى رأس مولاى عبد الله بن ابيه الذي دبر انتهازى من جماعته اغتياله وأمر بتعليق رأسه على مدخل مدينة غرناطه ، حيث بقي هناك ثلاثين سنة يذكر الأندلسيين بالنهاية التي تنتظرهم إن حاولوا تحدى السلطة مرة أخرى .

ولكن فيليب الثاني حين أمر بتغريب أندلسي الجنوب فإنه بذلك أنهى مشكلة مملكة غرناطة ولكنه خلق مشكلة أخرى في المدن والقرى التي نفي اليها الاندلسيون في قشتالة . فعرف رعيته هناك على ازمة لم يسمع القشتاليون عنها الكثير ، وأثار بينهم وبين المنفيين العداوة حين اضطرهم لمقاسمة مواردهم الاقتصادية المحدودة مع اقلية كانت تعتبر مارقة على السلطة وشديدة العداء للكنيسة ومستعدة للتعاون مع أعداء قشتالة في كل الأوقات . ولم تكن المشاكل التي عانى منها الأندلسيون تلك المشاكل العادية التي تتعرض لها الاقليات في كل مكان ، اذ كانت هناك دوافع سياسية ودينية وتاريخية واقتصادية مختلفة لعبت دورها المستمر في اذكاء الريبة والعداء بينهم وبين القشتاليين ، فلم يشعر الأندلسيون بالامان بين القشتاليين ، ولم يشعر القشتاليون بالطمأنينة ان وجد الأندلسيون بينهم . وكانت الحكومة والكنيسة تعملان على بقاء العلاقات بين الفئتين على هذا النحو لكي تضمن استمرار الرقابة على الأندلسيين المواركة في كل مكان عاشوا فيه .

ولكن هذه الاختلافات الجوهرية بين القشتاليين والأندلسيين المواركة لم تكن الوحيدة التي فرقت بين الفئتين ، إذ كان من الطبيعي أن يختلف الأندلسيون عن القشتاليين في أشياء كثيرة أخرى . وكان

الأندلسيون قد تخلوا عن ملابسهم التقليدية وتسموا بأسماء نصرانية وتزاوج بعضهم من قشتاليات أو العكس ، ولكن بقي للأندلسيين مايميزهم عن غيرهم ولم يكن هذا بالمستحسن في وسط قشتالي . وبسبب تاريخهم الخاص ، أقبل القشتاليون على اللحوم ولاسيما المقددة منها وهو طعام ماتزال اسبانيا تشتهر به اليوم ، ولكن الأندلسيين ، بحكم نشاطهم الزراعي السابق ، كانوا يفضلون الأرز والخضروات والفواكه وينفرون من اللحوم المقددة الأمر الذى كان يثير احتقار القشتاليين لهم ويزيدهم عزلة وهذا الأختلاف في أنواع الطعام أوجد تفاوتا في الأعمار بين القشتاليين والأندلسيين ، ولم يكن يعرف في ذلك الوقت تأثير نوع من الطعام على عمر الانسان الأمر الذى دفع القشتاليين الى الاعتقاد بان الأندلسيين يزاولون السحر ولذا فإنهم يستأهلون سخطهم . والمعلومات المتوفرة عن تلك الحقبة من تاريخ الأندلسيين الموارِكة تشير الى حبهم للمرح والاحتفالات . وكانوا يتقنون العزف على عدد كبير من الالات الموسيقية ويهوون مصارعة الثيران[1] فأثاروا بذلك نقمة الكنيسة التي وجدتهم يفضلون قضاء الوقت في ممارسة هذه الهوايات على التعبد في الكنائس .

ولكن حالة الأندلسيين الموارِكة في السنوات التي لحقت بالثورة الكبرى لم تكن على هذه الصورة دائما . وحين حرمتهم السلطة من كتبهم كثرت الاخطاء في لغتهم العربية واضطروا مع الزمن لزيادة التخاطب بالقشتالية وعم الجهل،واستفشى المرض بينهم حين حرمتهم السلطة من المرافق العامة التي تعودوا عليها واجبرتهم على قبول القذارة التي اشتهر بها الأوروبيون في تلك الحقبة . ولم يكن وضعهم الاقتصادى بافضل من وضعهم الاجتماعي بين القشتاليين ، وكان المنفيون الجدد في عوز كبير بعد أن صادر فيليب الثاني جميع ممتلكاتهم وتحتم عليهم ان يبدأوا في بناء حياتهم من جديد وسط محيط معاد لوجودهم . ولم يكن هذا سهلا لأن السلطات المحلية منعت الاندلسيين المنفيين من مزاولة التجارة أو الاشتغال بالمهن فلم يبق أمامهم سوى العمل بفلاحة الأرض لصالح القشتاليين ، أو نقل البضائع على البغال والحمير ، أو الاشتغال بالتحميل في الموانىء وغيرها من الأعمال الوضيعة التي ابتعد القشتاليون عن أدائها واستغلوا وجود المنفيين بينهم لشغلها . ولكن هذا لم يكن حال جميع الأندلسيين الموارِكة في قشتالة ، إذ بقي كثير منهم في الجنوب الأندلسي يفلحون الأرض أو يشتغلون في الصناعات اليدوية التي كانوا يشتهرون بها . وكان بين الاندلسيين في قشتالة التجار الصغار والحرفيون وغيرهم ، وان كان الأندلسيون عموما فقراء وأميين .

وصعوبة احتفاظ الاندلسيين الموارِكة بشخصيتهم الأندلسية المستقلة في قشتالة كانت تقارن مع أندلسيي ارغون الذين تمتعوا بحرية نسبية ، نظرا لعدم اشتراكهم في الثورتين الأولى والثانية ولاتخاذهم جانب الحياد بصورة عامة . وبينما لم يكن الاندلسيون في قشتالة يتمتعون باية أهمية خاصة نظرا لقلة عددهم

---

(١) هذه المعلومات حملت بعض المؤرخين على القول بإن جماعات من الأندلسيين اختلطت بالغجر الذى وفدوا إلى أوروبة في القرن الخامس عشر من الهند هربا من السلطات ، وحملت اليهم بعض العادات الاندلسية مثل الرقص والغناء اللذين يشتهر بهما الغجر الذين يسكنون المناطق القريبة من غرناطة بما في ذلك بعض احياء البيازين اليوم . انظر الفصل المعنون ،، المنبوذون ،، في :
Ortiz, Antonio Domingues. The Golden Age of Spain, Weidenfeld & Nicolson, (London), PP 162-172.

بالمقارنة مع القشتاليين ، فإن أندلسيي ارغون كانوا يشكلون أقلية كبيرة جدا ، وكان الشق الزراعي من الإقتصاد الارغوني يقوم على اكتافهم ويساهم في رفع المستوى المعيشي في ارغون مقارنة مع قشتالة . والتأثير الكبير الذي فرضه الأندلسيون الموازكة على الاقتصاد الارغون سمح لهم بحرية أكبر في مزاولة حياتهم اليومية ، وغض طرف السلطة والكنيسة عن تصرفاتهم . حتى أن الأندلسيين في بلنسية كانوا يعرفون رسميا « بأمة النصارى الجدد من الأندلسيين في مملكة بلنسية » (١) . والسبب المهم في هذه الحرية النسبية كان يعود الى المردود الذي كان الأندلسيون يقدمونه . فالنبلاء ورجال الكنيسة كانوا يسيطرون على القسم الأعظم من الأراضي الأرغونية ، مثلهم في ذلك مثل النبلاء والكنسيين في باقي مناطق شبه جزيرة ايبرية(٢) ، ولكن النبلاء والكنسيين الذين كانوا يوظفون الأندلسيين حصلوا على مردود أعلى ، وكانت ارضهم أكثر خصوبة من غيرها . أما الاثرياء في المدن فكانوا يرون في هذا الوضع فائدة كبيرة لهم لأنهم كانوا يحصلون فائدة أكبر على الأموال التي كانوا يقرضونها للنبلاء . وبوجود هذه الحركة التجارية النشطة كانت السلطة والكنيسة في ارغون مضطرة لتجاهل كثير من نشاطات الأندلسيين الموازكة ، رغم تعارض هذه النشاطات احيانا مع ما تريده الحكومة أو الكنيسة .

وما كانت أحوال الأندلسيين لتستمر على حالها اثر نفيهم سنة ١٥٧٠ لأن مرسوم فيليب الثاني لم يحدد أية مدة . ولابد أن ضعف شأن الأندلسيين في السنوات التي لحقت بالثورة الكبرى أدى الى تخفيف الضغوط عنهم ، فأخذ قسم كبير منهم يغادر القرى والمناطق النائية التي نفي اليها ويتجمع في المدن القريبة ضمن أحياء خاصة عرفت باحياء الموازكة . واحيانا كانت السلطة تعيد توزيع الأندلسيين بعد تجمعهم ولكن ذلك لم يكن متبعا في كل حالة. وساهمت متاعب فيليب الثاني مع الفرنسيين والهولنديين والانجليز والاتراك في توجيه كل قوى ممالكه لمقارعة خصومة في الخارج ، وبالتالي في تقليص الاهتمام بالاندلسيين . هذه الاوضاع وأخرى غيرها أدت الى قيام مدن كاملة في بلنسية ومرسية والمناطق المجاورة لمملكة غرناطة ضمت أندلسيين فقط ، بالاضافة الى القسيسين وبعض المسؤولين الحكوميين . والجد الذى عرف الأندلسيون به مكن بعضهم من شراء الاراضي واستغلالها بانفسهم ، وتشغيل بعض القشتاليين أو الأرغونيين في بعض الحالات ، وظهرت طبقة صغيرة من متوسطى الدخل وبرزت بعض الأسر الغنية .

وهناك معلومات عن اشتغال بعض الأندلسيين بالتدريس ، وظهور أسماء البعض ممن اشتغلوا بالكتابة والتأليف والترجمة والاستكشاف وغيرها من الحقول التي لانملك تفصيلات دقيقة عن أصحابها . ولكن من المعروف أن كاسيودورو دى رينا (Casiodoro de Reina)الذي أعد إحدى ترجمات الإنجيل ،كان من أصل أندلسي . وكذلك القسيس فراى الونصو (الونثو) وديل (Fray Alonzo Gudiel)كان أندلسي الأب يهودي الأم ، ولم تردنا هذه الإشارة إليه لولا أنه قدم للمحاكمة مع قسيس آخر يدعى لوى

(١) La nacion de los Cristianos Nuevos de Moros del Reino de Valencia

(٢) اظهرت دراسة اعدت بامر فيليب الثاني ان قلة ضئيلة من المزارعين تملك الأرض التي تعمل عليها ، بينما كانت الغالبية العظمى تشتغل أجراء لدى النبلاء المحليين أو الاديرة الرئيسية أو الاثرياء في المدن ، وكان عليهم دفع عدة أنواع من الضرائب .

الليوني (Fray Luis de Leon)بتهمة تفضيلهما ترجمة للانجيل إلى العبرية عن الترجمة القشتالية له . واشتهر أحد الأندلسيين الغرناطيين قبل ذلك باستكشافاته وهو حسن ابن محمد الوزاز الذي كان يعرف بإسمه القشتالي يوهان ليو الأفريقي (Johannes Leo «Africanus»)الذي عاش بين عامى ١٤٩٤و ١٥٥٢ . ولابد أن كثيرين مثلهم عملوا وأبدعوا في ارغون وقشتالة ، دون أن تصلنا عنهم أو عن أعمالهم معلومات كافية . (١) .

إلا أن أيام السلم المعدودة التي مرت على الأندلسيين المواركة لم تكن لتستمر تحت وطأة الضغوط الداخلية والخارجية التي تعرضت لها قشتالة منذ أواخر القرن السادس عشر . كانت الضربة تلو الضربة تنهال على امبراطورية فيليب الثاني فيستجيب لها جسد الإمبراطورية ، وتظهر فيه الصدوع بسبب الحروب مع فرنسا وانجلترا والأتراك واعداء الامبراطورية في العالمين القديم والجديد ، وكانت العناصر تتجمع تمهد أمام القرار الأخير بنفي الأندلسيين المواركة ، وتحقيق نصر لم تتمكن الامبراطورية من انجازه في صراعاتها الخارجية قريبة العهد .

٢ – أسباب نفي الأندلسيين المواركة

انتصار قشتالة سنة ١٤٩٢ في معركتها الأخيرة ضد الوجود الإسلامي السياسي أنهى ارتباطها بالماضي وفتح الطريق أمامها لتلعب دورها المعروف في أوروبة . وفي السنة ذاتها اكتشف العالم الجديد ووفرت ممالك قشتالة هناك الموارد التي قدمت لقشتالة الفرصة لاثبات وجودها أمام أكبر قوتين في ذلك الوقت وهما فرنسا والأتراك ، قبل أن تندلع الحروب الدينية في قلب أوروبة وتتولى قشتالة حماية الكاثوليكية من حركات الإصلاح الديني المتعاظمة في المانيا وهولندا وانجلترا وغيرها من المناطق . ومع الوقت،بات فيليب الثاني يعتقد أن على مملكته قيادة جميع أمم النصرانية تحت لواء القشتالية فتصدت له فرنسا وانجلترا . إلا أن فرنسا لم تكن ندا لجيوش فيليب الثاني فخسرت المعركة تلو الأخرى ، بينا تمكنت انجلترا من الاستمرار في مقارعة قشتالة بالسر أحيانا والعلانية أحيانا أخرى ، ووجدت في الهولنديين الناقمين على ملك قشتالة حليفا قويا ولاسيما في السيطرة على البحار . إلا أن فيليب الثاني لم يكن بالرجل الذي يمكن أن تثنيه البحار عن محاولة القضاء على عدوته اللدودة اليزابيث الأولى . ولذا أعد اسطولا ضخما من ١٣٠ سفينة حربية تحمل ٢٧٫٠٠٠ رجل لاحتلال انجلترا ، وانهاء أقوى مراكز أعداء الكاثوليكية ، وسيره سنة ١٥٨٨ لتنفيذ تلك المهمة الحساسة . وهنا تجمعت عدة عوامل أدت إلى اخفاق الحملة،إذ هبت عواصف شديدة على القنال الإنجليزى ، وتمكن البحارة الإنجليز من اغراق بعض السفن في مناورات محدودة ، ولم يكن دوق مدينة شذونة بالقائد المناسب للحملة ففقد الأسطول

(١) عثرت السلطات على مخطوطة بالأعجمية سنة ١٧٩٥ في بلدة اجريدا (Agreda)فيها عدد من الفقرات بالعربية تتضمن خطبا وأناشيد نبوية وقصص عبق تعود إلى القرن السادس عشر . والمخطوطة ، التي وجدت في تجويف بأحد الجدران ، موجودة الآن في مكتبة الاسكوريال الملكية برقم ١٨٨٠ . والظاهر أن بعض المواركة اشتغلوا خلال القرن السادس عشر بنسخ المخطوطات العربية القديمة ، أو في الترجمة ولكن المعلومات عن هذه النشاطات قليلة .

(الارمادا) ثلث سفنه ، ولكنه أكمل دورته حول الجزر البريطانية وعاد إلى قشتالة . ومحاولة فيليب الثاني تنفيذ غزو مماثل بعد ثماني سنوات باءت بالإخفاق هي الأخرى ، واكتمل يأس فيليب الثاني بعد سنتين من الحملة الثانية عندما وجد نفسه مضطرا لإبرام الصلح مع فرنسا ، وربما لعبت مهانة الصلح دورها في وفاة فيليب الثاني في السنة ذاتها .

مات فيليب الثاني ولكن المشاكل التي أثارها بقيت حية ، وكان على ابنه فيليب الثالث أن يحلها . إلا أن الأخير لم يكن راغبا في الحكم فعهد إلى دوق ليرما ادارة دفة السلطات كما يشاء . غير أن متاعب قشتالة كانت أكبر من أن يحلها الدوق ، فاستمر الإفلاس والتقهقر أمام أعداء قشتالة مما اضطر الدوق إلى السعي لإبرام الصلح مع الإنجليز سنة ١٦٠٤ ، ثم مع الهولنديين سنة ١٦٠٩ واتفق على إعلان هدنة مع الهولنديين تستمر ١٢ سنة في التاسع من نيسان ، وهو تاريخ مهم لأنه توافق مع صدور مرسوم نفي الأندلسيين المواركة .

أ - الأسباب الاقتصادية :

كان اقتصاد قشتالة أول ماأظهر الصدوع الناجمة عن مغامرات فيليب الثاني العسكرية في أوروبة . وتراكم الديون دفع فيليب إلى وقف تسديدها سنة ١٥٧٥.وإعلان افلاس الخزانة . ولكن الإفلاس لم يستمر طويلا وكانت السنوات اللاحقة من الثمانينات سنوات خير على قشتالة مع تدفق الفضة المستخرجة من البيرو .

ووجود هذا الدخل المفاجىء شجع فيليب الثاني على استكمال مغامراته العسكرية التي وصلت إلى اوجها بالتحضير لغزو انجلترا ، وبلغت نفقات الحملة حوالي عشرة ملايين دوقة ذهبية . وبحلول السنوات الأولى من التسعينات ارتفعت النفقات العسكرية إلى ١٢ مليون دوقة سنويا ، ثم تابعت صعودها بعد ذلك . وأمام إرتفاع النفقات العسكرية تقلص دور فضة العالم الجديد بحيث كانت تغطي ربع المبلغ فقط ، مما أضطر الحكومة إلى زيادة الضرائب [1] والاكثار من الاقتراض من المصرفيين الألمان والإيطاليين . وفي سنة ١٥٩٦ ، بات من الواضح أن الاقتصاد القشتالي لم يعد يحتمل استمرار تلك النفقات الباهظة وتوقفت السلطة عن الوفاء بديونها مما حمل فيليب الثاني على إعلان إفلاس الخزانة مرة ثانية .

وارتفاع النفقات الحربية توافق مع حدوث تغييرات جذرية في طبيعة الاقتصاد القشتالي سببت هي الأخرى ازمات اقتصادية خانقة . والحركة التجارية التي قامت بين قشتالة وارغون، وبين المستعمرات القشتالية في العالم الجديد اعتمدت على تغطية حاجات المستعمرات من الثياب والقمح والزيت والخمور والمواد الأخرى ، التي سببت تحسن الوضع الإقتصادي في كل من قشتالة وارغون بشكل خاص ،

(١) كانت السلطات تحصل باسم الكنيسة ثلاثة أنواع من الضرائب هي ضريبة الجهاد ضد المسلمين (Cruzada) وضريبة الدعم (Subsidio)وضريبة الغفران (Excusado) وكانت حصيلة الضريبة الأولى فقط في تلك الفترة حوالي ٩١٢,٠٠٠ دوقة سنوياً .

وبعض الدول الأوروبية الأخرى بصورة عامة . ولكن مع اقتراب نهاية القرن السادس عشر تمكنت المستعمرات من تغطية جزء كبير من استهلاكها المحلي ، فساد الكساد في قشتالة وارغون لأول مرة منذ اكتشاف العالم الجديد قبل ١٠٠ عام . ومع حلول الكساد تقلص نصيب قشتالة من الصادرات إلى المستعمرات فيما وراء البحار في وقت ازداد فيه نصيب هولندا . والمعروف أن الأسطول التجاري الهولندي كان ينقل الكمية الأكبر من البضائع إلى العالم الجديد ، ولكن استمرار الصدام مع قشتالة دفع فيليب الثاني إلى منع التعامل مع السفن الهولندية سنة ١٥٨٥ ، ثم أكد المنع ثانية بعد عشر سنوات من ذلك . ووجد الهولنديون ان استمرار التمسك بمصادر العالم الجديد يحتم عليهم السعي للاتجار مباشرة مع بعض المستعمرات في أميركا ، وتمكنوا خلال مدة قصيرة من كسر احتكار قشتالة للتجارة مع العالم الجديد وإفساح المجال أيضا لزيادة تعامل انجلترا مع تلك المستعمرات .

إزاء هذه التطورات السلبية بالنسبة للاقتصاد القشتالي حاولت حكومتا فيليب الثاني وابنه من بعده تشجيع حركة تجارية أنشط في مستعمرات العالم الجديد ، ولكنهما وجدتا أن من الصعب تحقيق ذلك بسبب طبيعة التغير السكاني هناك ، إذ طرأ انخفاض حاد على عدد السكان المحليين نتيجة السياسة العنصرية التي اتبعتها قشتالة . وبينما قدر عدد السكان المحليين المكسيكيين سنة اكتشافها فى ١٥١٩ بحوالي ١١ مليون نسمة ، فإن العدد انخفض في نهاية القرن السادس عشر إلى حوالي المليونين فقط ، ولعب ذلك دورا مزدوجا في رفع كلفة منتوجات العالم الجديد وفي خفض حجم الاستهلاك . وإضافة إلى كل هذه العوامل تعرضت قشتالة في نهاية القرن المذكور لجفاف خطير ، وتبع الجفاف انتشار الطاعون في الشمال سنة ١٥٩٦ وامتداده إلى الجنوب بعد ذلك ، وحصد الوباء سنتي ١٥٩٩و ١٦٠٠ حوالي ١٥ بالمئة من السكان فدب الذعر وارتفعت الأسعار ، ونزلت بالاقتصاد ضربة عنيفة استمر تأثيرها في السنوات اللاحقة . وخلال هذه الحقبة السيئة كان عدد متزايد من القشتاليين يرى في الأندلسيين سبب الشدائد التي لحقت بهم ، وصعب على هؤلاء وجود المواركة بينهم يقاسمونهم المصادر القليلة المتوفرة . وحتى عندما تحسنت التجارة مع العالم الجديد فيما بعد ، ووصلت أوجها سنة ١٦٠٨ فإن استفادة القشتاليين كانت قليلة لأن معظم البضائع المنقولة كانت من مصادر أجنبية . واستمر البحث عن « كبش فداء » لكل متاعب قشتالة الاقتصادية فى صورة الأندلسيين الموارکة .

ب - الأسباب الدينية :

لعبت الكنيسة القشتالية دورا حاسما في حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الأندلس على مر قرون الصراع بين النصرانية والإسلام ، ولم يتوقف دورها بعد سقوط غرناطة وانتقال الحرب إلى العدوة في منتصف القرن الثالث عشر وبعده . وبما أن قشتالة كانت تنقسم إلى مجتمعين أساسيين : أحدهما عسكرى والثاني كهنوتي ، فكان من الطبيعي أن تستمر الكنيسة في دورها لنصرة العسكرية القشتالية أيام كارلوس الخامس وفيليب الثاني ومن تلاهما في حكم اسبانيا . وعندما كان فيليب الثاني يعد الحملة ضد انجلترا سنة ١٥٨٨ ويسير الجيوش ضد فرنسا والألمان والهولنديين ، كانت الكنيسة تعمل من

جهتها لتعبئة الناس لهذه الحروب التي اعتبرتها الكنيسة حروبا مقدسة ضد البروتستانت اعداء الدين الكاثوليكي ، وبالتالي أعداء البابوية والكنيسة القشتالية . إلا أن حملة الإرمادا لم تنجح ، ولم تتمكن قشتالة من دحر الفرنسيين أو تحقيق انتصار حاسم على « الهراطقة » في المانيا وهولندا ، ولذا فإن الكنيسة انهمكت في البحث عن أسباب هذه الهزائم .

ودراسة التاريخ تعطي الانطباع بأن الأمم المهزومة توجه نقمتها إلى الداخل لخلق التوازن النفساني المطلوب للتغلب على روح الهزيمة ، أو تغرق في الرذيلة وتمضي في طريق الانحلال الخلقي ، أو تلجأ إلى موجة من الورع والتعبد وتعميق الحس الديني المشوب بالمهانة القومية . وهذا ماحدث في قشتالة بعد هزائم نهاية القرن السادس عشر ، حين بدأت الكنيسة تبشر بدعوة شاملة للخلاص من الذنوب والعودة إلى الكنيسة ، وتنظر إلى الهزائم على أنها إنذار بنكبات أفدح وعقاب على ابتعاد الناس عن دينهم وخرجت الكنيسة بعد الهزائم لتقول إن أسبابها وجود عناصر في قشتالة تدعي النصرانية جهرا وتضمر الإسلام . وتقول إن طرد اليهودية من ايبرية لم يكتمل بعد ، لأن أعدادا منهم بقيت في البرتغال التي ضمها فيليب الثاني إلى ممالكه بالقوة سنة ١٥٨٠ ، وإن وجود مثل هؤلاء سبب الغضب الإلهي على قشتالة . وبارتفاع عدد المصائب التي تعرضت لها البلاد في آخر ذلك القرن ، مثل الأزمات الاقتصادية وانتشار وباء الطاعون ، كانت الكنيسة تضم إلى صفوفها مؤيدين جددا نادوا بنفي الأندلسيين الموارکة إذا أريد لقشتالة أن تحقق النصر الذي تريده لنفسها وللكنيسة .

« كيف يأمل المرء أن يهدي إلى طريق السيد المسيح شعبا عنيداً قاوم التبشير للنصرانية والاضطهاد قرنا كاملا ، ومايزال مخلصاً لقرانه كإخلاص العرب في أفريقيا ؟ الرهبان الذين انيطت بهم مهمة تعليم (الأندلسيين الموارکة) مبادىء الكاثوليكية كانوا يعرفون تمام المعرفة إن الموارکة ، وإن مارسوا طقوس النصرانية ، فإن هذه الممارسة لم تكن أكثر من مراءاة يوحيها لهم الخوف من محاكم التفتيش . فمثلا حين يكون عليهم الذهاب إلى الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف ، فإنهم كانوا يقدمون أنفسهم بطريقة عالية الانتظام ، ولكنهم لايعترفون بارتكاب أية ذنوب . ولم يعرف عنهم أنهم توجهوا إلى القساوسة يطلبون المساعدة حين يمرض أحدهم خوفا من حضور القساوسة بصفتهم الرسمية ، ولذا تستروا على مرضاهم وتعرض الجميع لموت مفاجىء كما كانت الأسرة تدعي وهي تمكر . أضف إلى ذلك أن عددهم لم ينقص منذ أن طاردهم فيليب الثاني خارج مملكة غرناطة ، بل حدث العكس وازدادوا عددا لأنهم امتنعوا عن اللحاق بالجيش أو حتى الانخراط في خدمة الكنيسة،واكثروا من انجاب الأطفال وربوهم على كره النصرانية » (١) .

---

(١) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Golden Age, George Allen & Unwin Ltd., (London), 1970, P 19.

والنص المشار اليه من وصف لرحالة فرنسي يدعى (Antoine de Brunel) زار اسبانيا سنة ١٦٥٥ وضمن مشاهداته في رسالة أسماها (Voyage d'Espagne).والنص الأصلي موجود في : Revue Hispanique, Vol. XXX, (1914), PP 119-376.

وإذا كان انتشار الطاعون دعما اضافيا لرأى الكنيسة بالعودة إلى التقوى في زمن لم يعرف الناس فيه أسباب الوباء ، فإن وجود قشتالة في وضع يجبرها على ابرام الصلح أو الهدنة مع الهولنديين والإنجليز الهراطقة كان أكبر من أن تتحمله الكنيسة . واشتدت في بداية القرن السابع عشر الحملة على كل من كانت الكنيسة تعتقد أنه السبب الخفي أو الظاهر لمصائب قشتالة . وكما توفرت شخصية مثل توركيمادة لمقارعة اليهود في قشتالة ، وشخصية مثل زمنيز لاضطهاد الأندلسيين فى مملكة غرناطة ، فقد توفرت أيضا شخصية أخرى تبنت الحملة على الأندلسيين في بلنسية تمثلت في خوان دى ريبرة (Juan de Ribera) رئيس أساقفة بلنسية الذى عاش بين سنة ١٥٣٣ و ١٦١١ ، ومات في السنة الثانية من عملية نفي الأندلسيين المواركة .

جـ – الحالة العامة :

كان حظ الأندلسيين أن تحملهم قشتالة أسباب إخفاقها على جميع الجبهات ، لأنهم كانوا في متناول اليد ، ولأنهم كانوا أقلية تتمتع بنفوذ سياسي ضئيل جدا ، ولأنهم كانوا عموما فقراء عاجزين عن مد الحكومة تلو الأخرى بالمال الذي تريده ، ولأنهم أصروا على شخصيتهم المستقلة فى وجه كل الضغوط التي استمرت أكثر من قرن من الزمن . وعندما كان الأمر يتعلق بالأندلسيين فإن التاريخ القشتالي كان يعيد نفسه ، فكانت المخاوف القومية والدينية والاجتماعية تجد متنفسها في اضطهاد الأندلسيين ، وكانت تطورات آخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، تذكر كثيرا بوضع قشتالة في آخر السبعينات من القرن السادس عشر . فمتاعب قشتالة مع الهولنديين والإنجليز لم تنته ، وأصبحت ارغون ثانية من أصعب الممالك التابعة لقشتالة ، وتوج ذلك باعلان الثورة هناك في سنتي ١٥٩١ / ١٥٩٢ ، ولم يكن هناك حل سوى تسيير الجيوش إلى ارغون وقمع الثورة في مدينة سرقسطة . وبما أن العمليات العسكرية كانت مستمرة مع الأتراك والساحل المغربي ، فقد كان من الطبيعي أن تثار بين الحين والآخر مسألة مساعدة الأندلسيين المواركة للأتراك ، أو سكان العدوة ، ضد العدو المشترك المتمثل في قشتالة .

وفي تلك الحقبة أيضا من تاريخ قشتالة كانت المضاعفات النفسانية للهزائم التي حاقت بقشتالة تفوق بإضعاف التأثير الفعلي لتلك الهزائم . ووجد القشتاليون أن الحروب التي قادتهم إلى القمة تقودهم ثانية إلى الهاوية ، وربما لم يكن بين جميع الممالك التي خضعت لقشتالة مملكة تعرضت لأزمات سياسية واقتصادية شبه مستمرة مثل قشتالة ذاتها . وبينا تحسن وضع بعض تلك الممالك إلا أن قشتالة استمرت تعاني من مشاكلها القديمة . وكان عهدا كارلوس الخامس وفيليب الثاني مليئين بالانتصارات الهائلة والهزائم الهائلة ، ولكن الأب وابنه تمكنا من المحافظة على الامبراطورية وتوسيع رقعتها كلما سنحت الفرصة . وقبل أن يتوفى فيليب الثاني أبلغ أحد رجال بلاطه بأن كل مايخشاه أن يكون ابنه فيليب الثالث محكوما لاحاكما . وهذا ماحدث عندما تسلم دوق ليرما الحكم الفعلي واشتهر بأنه أعظم لص في أسبانيا (١)،وعرفت قشتالة في عهده مهانتين رئيسيتين : الأولى عندما قرر ابرام الصلح مع انجلترا،والثانية عندما توصل إلى هدنة طويلة الأجل مع الهولنديين ، ووجد الكثيرون في هذين الإتفاقين خضوعا كاثوليكيا من حامية الكاثوليكية للبروتستانت .

(١) Kinder, Herman & Hilgemann, Werner. Atlas of World History, Vol. I, London,(1980) P 243.

كانت هذه التطورات كافية لتفقد قشتالة توازنها الذي قام على تحقيق الانتصار تلو الآخر . وكانت دافعا للتوقف والتفكير في حال قشتالة . وكانت بداية اللجوء إلى الإيمان بقدرية الأحداث وعبث الأيام كما صوره بعض أهم أدباء قشتالة . ظهرت في هذه الفترة شخصية عثمان الفراش (١)المتنقل دائما من مكان لآخر يعيش ليومه دون الحاجة لمعرفة ألم التفكير في الغد . وظهرت شخصية دون كيخوتي دي لامانشا في سنة ١٦٠٥ كما رسمها سيرفانتس (سيربانتيس) : عجوز يحارب العمالقة وطواحين الهواء وسط جو من الفروسية الخيالية والأعداء الخياليين ، وبطل في زمن لايحتاج إلى بطولة . وكانت تلك الفترة فترة تكشف الحقيقة . الحقيقة بأن قشتالة كانت فقيرة رغم الفضة التي تتدفق عليها من العالم الجديد ، ضعيفة رغم اتساع ممالكها الهائلة ؟ أول من يحس بالكوارث النازلة بها وآخر من يستمتع بالمجد الذي بحثت عنه ، أول من زرع وآخر من حصد . ومن خلال بحث قشتالة عن الحقيقة في بداية القرن السابع عشر كان يتضح للكثيرين تدني الروح المعنوية ، وبروز حاجة هائلة لتحقيق انتصار ما .

وتصور كثير من القشتاليين أن نفي الأندلسيين المواركة سيكون ذلك الانتصار الذي يعيد إليهم الشعور بالعظمة ، ويرفع من معنوياتهم الهابطة . وهكذا سعت قشتالة لتحقيق انتصار داخلي حين عجزت عن تحقيقه في الخارج وكان الرأى العام القشتالي أكثر من مهيأ لتحقيق هذا الانتصار ونفي الأندلسيين .

وخلال عملية إعداد لنفي الأندلسيين أرتفعت بعض الأصوات منبهة إلى خطورة مثل هذه الخطوة . ولكنها كانت أصواتا قليلة وكانت المشاعر متضاربة:«وقف البعض موقف إدانة لهذه القسوة المتطرفة التي كانت تبعد شعبا بأكمله عن موطنه الأصلي . ولكن آخرين امتدحوا هذا العمل (نفي الإندلسيين الموارِكة) الذي لم يظهر فقط تقوى ملكهم الكاثوليكي (فيليب الثالث)،ولكنه أيضا خلص اسبانيا من هؤلاء النصارى المزيفين الذين كان أجدادهم سادة اسبانيا لعدة قرون ، بينما استمروا في تعاملهم الخفي مع الأفارقة والأتراك والأعداء الآخرين للملكية . منتقدو مرسوم فيليب الثالث ومستشاريه كانوا يقولون أن الأسبان استمروا قرونا عديدة في السماح للأندلسيين العيش بينهم في أرض استعادوها وممارسة دينهم المحمدي .

وكانوا يقولون أيضا إن الأسبان سمحوا للأندلسيين بإستغلال الأرض والقيام بأعمال مختلفة لم يعد النصارى يعتادونها ، لأن الأسبان كانوا شغوفين بشن الحرب .. أولئك الذين تبنوا هذا الاتجاه كانوا يعتقدون أن من غير الصواب أن ينزل عقاب شامل بدولة ، خرجت منه وهى أكثر ضعفا وأقل صلاحا ، مالم يكن لمثل هذا العقاب دافع قوي . ولكن الذين حيوا مثل هذا المرسوم كانوا أكثر عددا واعتبروا القرار بطوليا كما هو صائب . وبينما كان هؤلاء يقرون بالشرور التي يمكن أن تلحق بأسبانيا نتيجة القرار ، فإنهم كانوا يرون في هذه الشرور ثمنا لايمكن مقارنته مع الأذى الذي يتهددهم ما استمر الأندلسيون الموارِكة يعيشون في المملكة . (٢) .

---

(١) الشخصية من ابداع المؤلف الأسباني Mateo Aleman(١٥٤٦ ؟ – ١٦١٠) الذي وضع رواية أسماها سيرة عثمان الفراش (Guzman de Alfarache)– مرآة للحياة الإنسانية أو«الأنذال»استقى بعض احداثها من ملاحظاته خلال مساعدة والده الذي كان جراحا في سجن اشبيلية . ولكن المؤلف ذاته كان وفيا لشخصية عثمان الفراش وأمضى قسما من حياته متسكعا،وارتحل . إلى المستعمرات القشتالية في جزر الهند الغربية بحثا عن المغامرة ومات في المكسيك .

(٢) أنظر المصدر السابق ص١٨ ، ١٩ .

توزع الأندلسيين الموركة قبل النفي

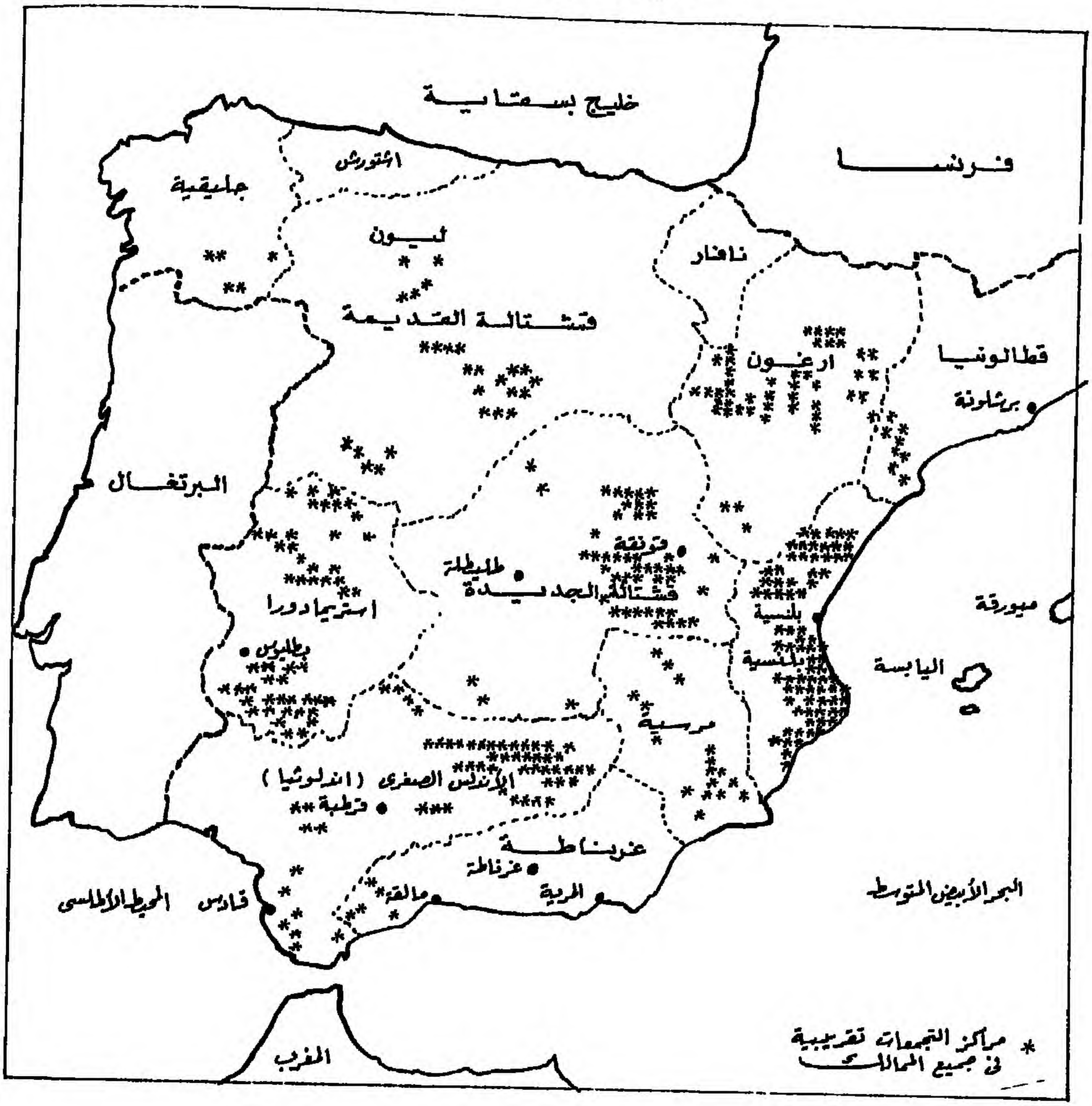

٣ – نفي الأندلسيين الموراكة

كانت حكومة دوق ليرما مترددة في كل شيء تقريبا ، باستثناء نفي الأندلسيين الموراكة من البلاد وتحقيق مطلب جماعي يمكن أن يحول الأنظار عن المفاوضات التي بدأت مع الهولنديين ، سعيا وراء هدنة تستمر ١٢ سنة ، بعد أن عجزت الحكومة عن تحقيق أى انتصار عسكرى على « الهراطقة » الهولنديين أو الإنجليز . وأخطأت حكومة فيليب الثالث في جميع حساباتها تقريبا باستثناء اختيار تاريخ صدور مرسوم نفي الأندلسيين إذ كان يوم التاسع من نيسان سنة ١٦٠٩ موعد سريان معاهدة الهدنة مع الهولنديين ولكن جميع القشتاليين يذكرونه على أنه اليوم الذي قررت فيه حكومة ليرما طرد الأندلسيين ، واسدال الستار على صراع مع المسلمين استمر منذ سنة ٧١٧ ، أو نحوها،دون أن تكلف نفسها عناء الدخول مع الأندلسيين في حرب لأن وضع الأندلسيين لم يكن يؤهلهم لأية مقاومة تذكر نتيجة أكثر من قرن من الإضطهاد والملاحقة والمراقبة الدائمة .

ولكن حتى حكومة ليرما كانت بحاجة لذريعة تستند إليها لتسويغ قرار نفي الأندلسيين ، ولذا فقد روجت السلطة أن الأندلسيين الموراكة في مملكة بلنسية تعهدوا لأهل المغرب بتوفير ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل ، إذا تمكن هؤلاء من إرسال عشرين ألف مقاتل فقط بغية احتلال المملكة . كانت الذريعة هذه تذكر بما روجته السلطة ايام فرناندو الخامس ، ثم في عهد فيليب الثاني قبيل اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى ، ولكنها كانت كافية لإقناع عامة الناس بإن المخاطر التي يمثلها الأندلسيون حقيقية ، وتحتاج إلى حل جذري . بينما عمد بعض الأدباء والمفكري القشتاليين [1] إلى التركيز على موضوع الريبة من الأندلسيين والإعداد النفساني لنفيهم،وساعد في ذلك عدم إثارة قرار الطرد لأية مناقشات في الوسط الحكومي ، وإن لم يكن ذلك مستهجنا في حكومة فاسدة يديرها دوق ليرما ويتزعمها ملك ضعيف مثل فيليب الثالث .

أما وقد وضعت الحكومة الخطوط العامة لنفي الأندلسيين فلم يكن عليها سوى الشروع بتنفيذ مرسوم النفي الذي تميز بالشمولية والصراحة . وتقرر أن تبدأ العملية بالأندلسيين الموراكة في مملكة بلنسية لأنهم كانوا يشكلون فيها تجمعا كبيرا،وخوفا من أن يتمكن هؤلاء من تعبئة قواهم ضد السلطة إذا حدث وأختارت الحكومة مجموعات أندلسية أخرى لتكون أول المنفيين . يضاف إلى ذلك أن السلطة كانت تعتمد في بلنسية على شخصية متنفذة حملت لواء الدعوة لنفي الأندلسيين قبل فترة طويلة من

---

(١) ألف المسرحي الأسباني المعروف لوبي دي فيغا مسرحية بعنوان « ملك بلامملكة » بطلها ضابط (Alferez)يدعى الونصو دي كونتريرس (Alonso de Contreras) وهي تروي مغامراته في جزر الهند الغربية والبحر الأبيض المتوسط وقشتالة . ففي سنة ١٦٠٣ أمر الضابط بجمع المقاتلين وسوقهم للإشتراك في الحرب ضد البرتغال،وتوقف في بلدة تدعي هرناش (Hornachuelos)وكان جميع سكانها من الموراكة باستثناء القسيس . وعلى عادة تلك الفترة أقام الجنود في منازل السكان وقام بعضهم في الليل يبحث عن مغنم سريع فعثروا على توابيت فتحوها فوجدوا فيها بنادق وذخيرة . ويبدو أن الونصو حصل على رشوة لقاء سكوته ولكنه اعتقل سنة ١٦٠٨ واسندت إليه تهمة محاولة قيادة الموراكه لإعلان الثورة . انظر قصة الضابط في :

Autobiografias de Saldados, Estudio Preliminar, J.M. De Cossio, Biblioteca de Autores Espanoles, Vol. XC, (1956).

صدور مرسوم النفي ، وهي شخصية خوان دي ريبرة رئيس أساقفة بلنسية ، الذي اشتهر بإسم « مضطهد الموارِكة » (١). وحالما استكملت الاجراءات على الورق ، أوفد دوق ليرما مسؤولا يدعي دون أو غسطين دي ميثيا (Don Augusin De Mexia) إلى بلنسية للإشراف على الخطوات العملية للنفي .

ولانعرف الكثير عن نوع المراسلات التي جرت بين الدوق وميثيا منذ وصوله إلى الساحل الشرقي ، ولكن الظاهر أن المسؤول فوجئ بالتجمع الهائل الذي شكله الأندلسيون هناك . فبين سنة ١٥٥٣ و ١٦٩ ازداد عدد الأندلسيين في المناطق الشرقية بنسبة ٧٠ بالمائة مقابل زيادة بين الأرغونيين قدرت بنسبة ٤٥ بالمائة فقط ، ولذا لم تكن مملكة بلنسية تحمل الطابع الأندلسي في كل شيء فقط ، ولكن الأندلسيين كانوا أغلبية فيها وكان النصارى هم الذين يعيشون في تجمعات محدودة بينهم . والظاهر كذلك إن هذه الحقيقة لم تغير من رأى الدوق إذ أصر على نفي أندلسيي بلنسية قبل الانتقال إلى الأندلسيين في باقي ممالك قشتالة وارغون وغرناطة أو الأندلس الصغرى (اندلوثيا) . وحتى تلك المرحلة كان شعور الكثير من الأرغونيين بأن مرسوم النفي لن يطبق ، أو أنه لن يطبق بحذافيره ، على الأقل وهكذا بدأ الرأى العام الأرغوني في التبدل مع الإحساس بإن حكومة ليرما عازمة على نفي جميع الأندلسيين ، وظهرت حركة معارضة قوية تزعمها رئيس الأساقفة ذاته .

وإذا كان موقف خوان دي ريبرة يدعو للدهشة ظاهرا ، فإنه ليس كذلك في باطن الأمور ، إذ أن واجباته كزعيم ديني كبير في مملكة بلنسية كانت تصطدم مع مصلحته مشرفا عاما على أملاك الكنيسة في المملكة ، يعتمد في دخله الأكبر على الجهد الذي يبذله الأندلسيون في استغلال الأراضي التابعة للكنيسة . وكان أيضا موزع الولاء بين مايريده العامة المؤيدون لنفي الأندلسيين ، ومايريده النبلاء الذين كانوا يوظفون العدد الأعظم من الأندلسيين في أراضيهم ويعتمدون عليهم للحصول على الجزء الأكبر من دخلهم . والتجربة التي عاينها الأرغونيون في مملكة غرناطة اقنعتهم بأن وجود الأندلسيين مزارعين محترفين يعني استمرار الثروة القومية التي كانت تعتمد على الزراعة . وحدث في الماضي إن أخذ القشتاليون الأراضي الأندلسية الخيرة بعد طرد الأندلسيين منها ، ولكن هؤلاء لم يتمكنوا من استغلالها فباعوها بأبخس الأثمان وعادوا من حيث أتوا ، ولذا فإن نفي الأندلسيين من بلنسية سيؤدى الى نتيجة مماثلة ، وسيخسر الجميع بسبب ذلك.ولو ترك الأمر يومها للكنسية وللنبلاء لبقى الأندلسيون حيث أقاموا،ولكن قرار نفي الأندلسيين تحول إلى موضوع سياسي شامل لم يقتصر على بلنسية أو ارغون . وحاول ريبرة اقناع ميثيا بترك أندلسيي بلنسية وارغون ونفي باقي الأندلسيين ولكن الأخير لم يكن يملك مثل هذا الخيار . واقترح عليه التوجه سوية إلى بلاط فيليب الثالث لاستسماحه استبقاء الأندلسيين في الساحل الشرقي إلى حين استكمال نفي الأندلسيين في الممالك الأخرى ، ولكن فيليب الثالث لم يكن راغبا في التدخل فى الشؤون السياسية لممالكه.واعتذر دوق ليرما عن الأخذ برأى ريبرة ، وأمر بتنفيذ عملية النفي على الفور .

---

(١) Spain, The Mainland, Been, Great Britain, P 409.

وفي شهر أيلول من سنة ١٦٠٩ وصل إلى ميناء بلنسية ٦٢ قادسا و١٤ غليونا أقلت حوالي ثمانية آلاف جندي لتنفيذ مرسوم نفي الأندلسيين ، ونودى على جميع الأندلسيين في المدينة البقاء في بيوتهم لمدة ثلاثة أيام حتى تصدر إليهم أوامر أخرى ، وحُذروا بأن المخالفين سيقتلون على الفور . وبينما التزم الأندلسيون بيوتهم كانت السلطات البلدية تجري مشاوراتها مع ميثيا وغيره من المسؤولين الذين أنيط بهم تنفيذ قرار النفي ؛ بشأن اعادة النظر في القرار أو السماح باستثناءات لوقف الخراب الفورى الذي سيلحق بالمملكة إذا نفي جميع الأندلسيين . وخلال هذه الفترة القصيرة بدأت غالبية من الأرغونيين بإعادة النظر في صواب قرار النفي الذي طالما تحمسوا له،لأن الأندلسيين لم يسهموا في رخاء الكنيسة والنبلاء فقط ، وإنما كانوا يوفرون للسكان الأرز والسكر والدقيق والمواد الغذائية الأخرى . وبعد مداولات مطولة تقرر أن يسمح لستة بالمائة فقط من الأندلسيين بالبقاء حيث كانوا ونفي الباقين . وإذا كان هذا الاستثناء أفضل مايمكن أن يحصل عليه القائمون على بلنسية ، فإنه لم يكن مقبولاً لدى معظم الأندلسيين .

نصت الاستثناءات على استبقاء الأندلسيين الذين لم يمارسوا أية عادات عربية أو إسلامية خلال السنتين الماضيتين . وسمح أيضا لجميع الأطفال ممن لم تتجاوز اعمارهم الرابعة البقاء . كما سمح لجميع الأطفال ممن هم دون السادسة من العمر البقاء إذا كان أبوهم نصرانيا مع السماح لامهم إن كانت من المواركة البقاء معهم . وإذا كان والد الأطفال ممن هم دون السادسة أندلسيا فإن عليه الرحيل مع أولاده إلا إذا كانت الأم نصرانية قديمة فيمكنها عند ذلك البقاء والاحتفاظ بأولادها ونفي الوالد الأندلسي فقط . كانت الشروط فى ظاهرها محددة ولكن الفرصة تركت لكي يستفيد العدد الأكبر منها لاسيما وأن عقوبة مخالفة هذه القواعد كانت العمل في القواديس مدة ست سنوات . وفي هذه المرحلة كانت مخاوف الأندلسيين تزداد حدة ولم يكن وجود ذلك العدد الكبير من الجنود في بلنسية يبعث على الارتياح فقد سبق وحدثت عدة مذابح راح ضحيتها أندلسيون كثر فى مناطق أخرى من قشتالة أثناء تطورات لم تكن أهم من حدث اليوم بنفي الأندلسيين . وربما لعبت هذه المخاوف وتطورات أخرى دورها المهم في انتقال الأندلسيين البلنسيين من مرحلة محاولة تقديم الرشاوي للمسؤولين للسماح لهم البقاء في المملكة إلى مرحلة القبول بالأمر الواقع والرحيل عن أرضهم . وربما كان وصول الجنود والسفن لترحيل الأندلسيين بالقوة عاملا حاسما كذلك في اقناع الأندلسيين بأن وجودهم في مثل هذا الوسط المعادي لايستأهل كل العناء المبذول . وإن تمكنوا من البقاء اليوم فإن القشتاليين قد يقررون نفيهم غدا . وربما اقتنعوا في تلك اللحظة بأن النفي أفضل من العيش في مكان لايمكن التكهن بما سيفعله سكانه النصارى بهم . ومهما كانت طبيعة الأفكار التي جالت في خواطر الأندلسيين في ذلك الوقت ، فإن من المؤكد إن قسما غير معروف العدد منهم أصر على النفي ، ونعرف ذلك من وجود عدة إشارات لأن المسؤولين انتقلوا إلى نقطة معاكسة تماما وراحوا يحاولون اقناع أندلسيي بلنسية بالبقاء. وحاول الأندلسيون استغلال هذا الانقلاب فعرضوا الموافقة على البقاء واستمرار العمل في الحقول والمزارع إذا ضمنت لهم الحكومة ممارسة عاداتهم العربية ودينهم الإسلامى دون أية مضايقات.وسعى دوق غندة (Gandia) للحصول على موافقة فيليب الثالث لهذا المطلب ، ولكن الأخير رفض ذلك ولم يعد هناك مناص من الرحيل .

تلك كانت لحظة الحقيقة التي تأجلت طويلا . ومن وجد من الأندلسيين البلنسيين فرصة لبيع مايملكه قبض مبلغا لايذكر ، ومن لم يجد تلك الفرصة خلف وراءه الشيء القليل الذي جمعه في حياته أو ورثه عن أبويه . ولابد أن الفوضى التي عمت في تلك الأيام السوداء كانت فرصة طيبة للنهب والاقتطاع وإنكار الديون ، سيق الأندلسيون بعدها إلى الميناء ونقلوا إلى الساحل المغربي . وكانت تلك بداية كارثة كبيرة وحزن عميق ولكن ماكادت صدمة الرحيل تخف تدريجيا ، حتى حل محلها شعور بالخلاص . بالإمكان بعد اليوم ارتداء الملابس التي يفضلونها . بالإمكان الاغتسال حين يشعر المرء بحاجة لذلك . بالإمكان القيام بكل ماحرموا القيام به منذ سنة ١٥٠٢ ، دون أن يكون مصيرهم السجن أو التعذيب في أقبية محاكم التفتيش . كانت لديهم الخبرة ، وإن تمكنوا من الاستمرار في قشتالة وارغون رغم كل الضغوط فبامكانهم الاستمرار في أى مكان .

وبينما كانت السفن تنقل المنفيين إلى الساحل المغربي وتعود لتنقل دفعة ثانية ، كانت السلطات تعد الترتيبات لنفي باقي الأندلسيين الموارِكة في ارغون وقطالونيا ومرسية وقشتالة وغرناطة وغيرها من الأماكن . وبعد نفي الأندلسيين من أماكن تجمعاتهم الرئيسية انتقلت السلطة لجمع الأندلسيين من التجمعات الأقل تمهيدا لنفيهم . ولكن العملية لم تكن سهلة إذ استمرت ست سنوات وكان الأندلسيون الذين سكنوا وادى شقورة (Valle de Ricote) قرب مدينة مرسية كآخر المنفيين في ارغون ، فلم تبدأ السلطات ترحيلهم إلا بعد أربع سنوات من بدء العملية ، وكان سكان الوادى آخر من حملتهم السلطة على التنصر سنة ١٥٠٥ بموجب المرسوم المعروف الذي أصدرته الملكة ايزابيلا سنة ١٥٠٢ . ولكن النفي لم يكن نصيب الجميع إذ تذكر بعض المصادر (١) إن مابين ١٥,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ أندلسي رفضوا الانصياع لقرار السلطة والتجأوا إلى الجبال ، غير أن الجنود طاردوهم فقتلوا معظم الرجال وسبوا كثيرا من النساء والأطفال ولم يُرحّل من هؤلاء إلا عدد قليل .

أ ـــ وجهات الأندلسيين المنفيين :

تضمن مخطط ترحيل الأندلسيين الموارِكة تجميعهم بادىء الأمر في ثمانية مراكز هي : بلنسية وارغون وقشتالة واندلوثيا (الأندلس الصغرى) ومرسية وبرغش وقطالونيا وغرناطة . من هذه المراكز شرعت السلطة المكلفة بعملية الترحيل في توزيع الأندلسيين على ١٢ نقطة تسفير في الشمال والجنوب والساحل الشرقي وهي : دانية ولقنت وقرطاجنة وجفية (Jávea) وساقونتة (Grao de Sagunto) ومنقوفة (Moncofa) وابن العروس (Vinaroz) والآفاق (Les Alfaques) وجميعها على الساحل الشرقي ؛ ومالقة وأشبيلية في الجنوب ؛ وسومبورت (Somport) ورنشفالة (Roncevaux) وأيرون (Irún) في الشمال .

ولما كانت معظم أعمال التسفير تجرى عن طريق البحر فقد نقل الأندلسيون في أندلوثيا إلى أشبيلية ومالقة أول الأمر ، بينما توجهت أعداد أقل تحت حراسات شديدة إلى جبل طارق وقادس وهؤلاء نقلوا من

(١) Plaidy, Jean. The Spanish Inquisition

مواطن الأندلسيين الموازكة بعد النفي

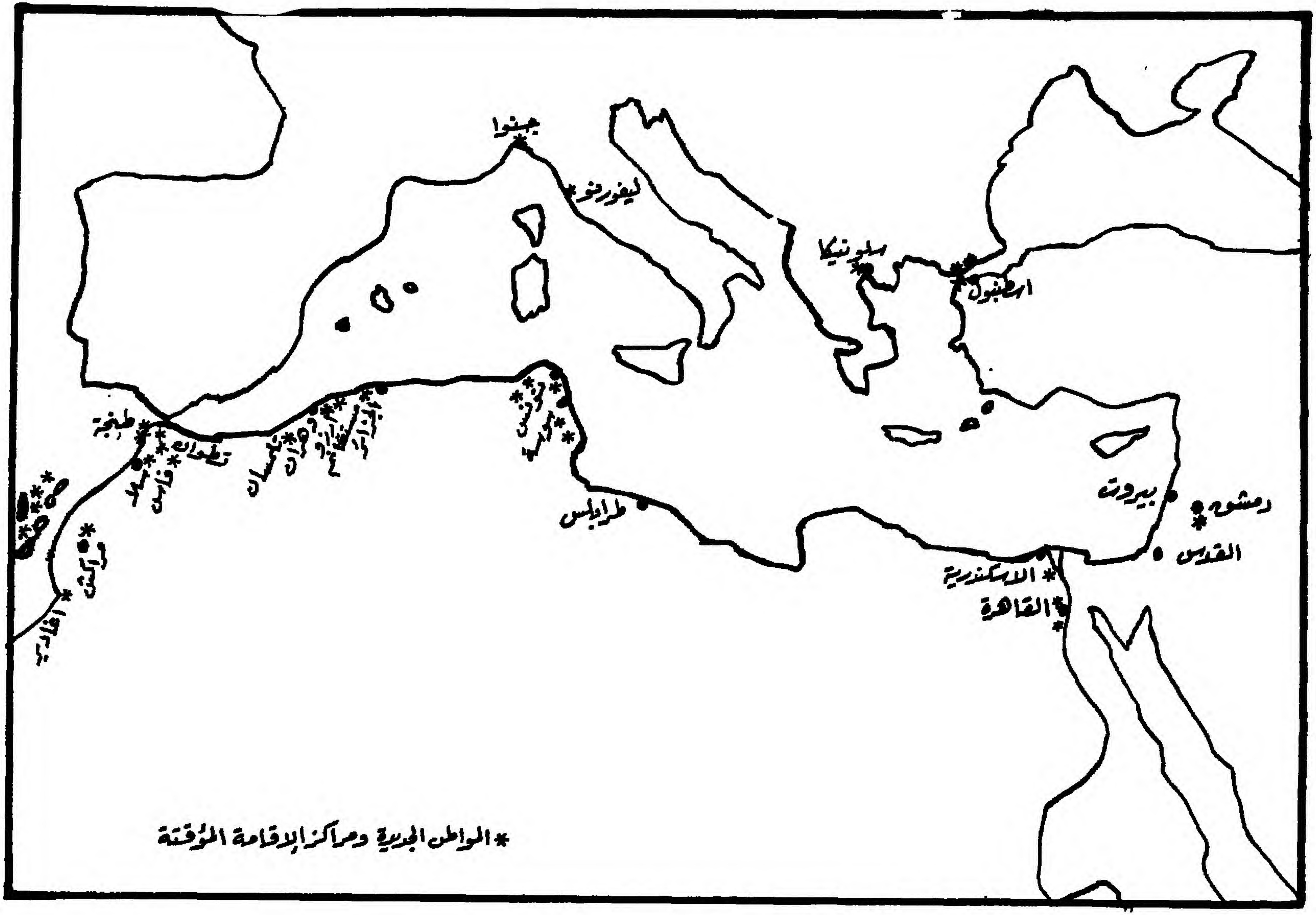

جبل طارق إلى سبتة وتطوان ، ومن قادس إلى جزر الكنارى (الجزر الخضراء) . أما أندلسيو غرناطة فنقلوا إلى المنكب ومالقة ، ولاتتوفر أية معلومات عما حل بالأندلسيين الذين توجهوا إلى المنكب . أما أندلسيو قشتالة واستريمادورا فنقل القسم الأعظم منهم إلى قرطاجنة ، بينما توجهت مجموعات أخرى إلى باب الشزري ومدينة برغش ومن هناك إلى أيرون . وفي أرغون نقل الأندلسيون على ثلاثة محاور إلى الآفاق وسومبورت وباب الشزرى ، وكانت الآفاق كذلك نقطة تجمع قسم من أندلسيي قطالونيا ، وأرسل القسم الثاني إلى برشلونة ومن هناك إلى لقهورن (أو ليفورنو Livorno) في إيطاليا ولاتتوفر أية معلومات عن سبب نقلهم إلى هناك ، أو عما حل بهم أثر وصولهم .

من أشبيلية نقل الأندلسيون المواركة الذين جمعوا هناك على ثلاثة محاور رئيسية ، فتوجه العدد الأكبر منهم إلى تونس ، وانتقلت أعداد أقل إلى طنجة وأغادير . ومن مالقة توجه القسم الأكبر إلى تونس عن طريق مرسيليا،والباقي للمغرب .

ولايعرف اتجاه الأندلسيين الذين تجمعوا في قرطاجنة إلا إنهم توجهوا على الغالب إلى تونس . ومن نقاط التسفير في لقنت وجفية ودانية وساقونتة ومنقوفة نقل الأندلسيون إلى وهران،باستثناء قسم صغير نقل من منقوفة إلى مستغانم . أما الأندلسيون في ابن العروس والآفاق فنقل قسم منهم إلى اروز في الجزائر ولاتعرف وجهة القسم الأكبر ولعلها تونس .

في أقصى الشمال انتقل الأندلسيون المنفيون من أيرون على محورين رئيسيين : الأول إلى المغرب،والثاني إلى مدينة أورتيز (Orthez)الفرنسية ، ولكن قسما من هؤلاء توجه إلى ميناء لاهافر ولايعرف ماحل بهم . اورتيز أيضا كانت نقطة تجمع الأندلسيين المرحلين من رنشفالة وسومبورت ، ومن هناك انتقل الجميع إلى تارب (Tarbes)ثم إلى أجد (Agde)ومن هناك إلى تونس . ويبدو أن بعض الأندلسيين انتقلوا من سومبورت إلى مدينة نيه (Nay) ،ولكن هؤلاء تابعوا رحيلهم إلى تارب وسلكوا طريق المنفيين الآخرين . (أنظر القسم التالي) .

٤ – مصير الأندلسيين المواركة

نفي الأندلسيين المواركة كان عملية عسيرة وطويلة لم تنته إلا سنة ١٦١٥ ، أي بعد حوالي سبع سنوات من صدور مرسوم طرد الأندلسيين ، ولكنها تمت دون أية تعقيدات كبيرة بالنسبة لقشتالة . وكان من السهل على فرادى الأندلسيين المواركة الهروب من أماكن اقامتهم المحددة إلى مناطق أخرى في قشتالة وارغون والإختفاء دون أن تتمكن السلطات من العثور عليهم ، نظرا لتماثل سحنهم مع القشتاليين واتقانهم مع مرور الزمن التخاطب بالقشتالية . يضاف إلى هؤلاء مجموعات الأندلسيين الذين ارتضوا من ناحيتهم البقاء حيث اقاموا ، وكانت أوضاعهم منطبقة على الاستثناءات التي سمحت السلطة لأصحابها

البقاء في بلنسية أو ارغون أو باقي المناطق التي عاش فيها الأندلسيون الموازكة . إلا أننا لانعرف بالضبط كم كان عدد الأندلسيين الذين سمح لهم البقاء في ممالك فيليب الثالث رغم الإشارة إلى نسبة ستة بالمئة منهم ، كما أننا لانعرف العدد الدقيق للأندلسيين الموازكة الذين نفتهم السلطة بين سنتي ١٦٠٩و ١٦١٥ رغم توفر عدد كبير من التقديرات المختلفة التي أوردها المؤرخون والرحالة الأجانب ، الذين زاروا اسبانيا في المراحل التي لحقت باستكمال النفي . فالرحالة الفرنسي انطوان دو برونل الذى زار أسبانيا سنة ١٦٥٥ يقول إن البعض قدر عدد المنفيين بعدة ملايين « ولكني لاأعتقد أن العدد بهذا الحجم . فخلافا لارغون ، حيث حول عدد مماثل من الأندلسيين (أراضي) وادي نهر ابرة إلى حديقة غناء ، لايمكن أن تضم الأجزاء الأخرى في المملكة اعدادا بهذه الصورة » (١) ،إلا أن الكاتب ذاته يقدر عدد أسر الموازكة التي سكنت بلنسية بحوالي ٧٠،٠٠٠ أسرة أو مايعادل ٥٦٠،٠٠٠ شخص (٢) . أما الرحالة الفرنسي فرانسوا بيرتو (Francois Bertaut) الذى زار أسبانيا سنة ١٦٥٩ فيقدر العدد بحوالي ٩٠٠،٠٠٠ شخص (٣) ، بينما يقدره لين بول – الذي يعتمد كثيرا على دوزى – (٤) بحوالي نصف مليون شخص (٥) . وهناك تقديرات كثيرة أخرى تحدد العدد بما يتراوح بين مليون وثلاثة ملايين شخص . ومنذ صدور كتاب « جغرافية موازكة أسبانيا » سنة ١٩٥٩ بدأ المؤرخون في اعتماد الأرقام التي أوردها استنادا إلى مصادر يصفها المؤلف بأنها لاتقبل النقض . وهو يوزع الأندلسيين على الشكل الآتي : بلنسية (١١٧،٤٦٤) ، قطالونيا (٣،٧١٦) ، ارغون (٦٠،٨١٨) ، قشتالة والمنشا واستريمادورا (٤٤،٦٢٥) ، مرسية (١٣،٥٥٢) ، الأندلس الصغرى – أندلوثيا (٢٩،٩٣٩) ، مدينة غرناطة (٢،٠٢٦) ، بإجمالي قدره ٢٧٢،١٤٠ من أصل كلي يشمل الأندلسيين الذين سمح لهم بالبقاء وهو ٣٠٠،٠٠٠ شخص (٦) . ويؤكد ج .هـ . اليوت هذه التقديرات في كتابه « أسبانيا تحت ظل الأباطرة » (٧)،وفي انتظار دراسات أخرى حول هذه الحقبة المهمة من التاريخين العربي والأسباني ، والعثور على معلومات جديدة يمكن أن تلقي مزيدا من الضوء على عملية نفي الأندلسيين الموازكة ، لابد من أخذ تقديرات الكتاب بكثير من التدقيق والمقارنة (٨) . فالإجمالي الذي يرد في الكتاب لايتجاوز ٣٠ بالمئة من العدد التقديري للأندلسيين الموازكة في نهاية الثورة الأندلسية الكبرى دون الأخذ بالحسبان الزيادة التي يمكن أن تدخل على العدد التقديري بين بداية السبعينات من القرن السادس عشر ونهاية العقد الأول من القرن السابع عشر ، أي حوالي ٤٠ سنة . علما بأن نسبة التكاثر السكاني بين الأندلسيين قدرت بين سنتي ١٥٥٣و١٦٠٩ بحوالي ٧٠ بالمائة مقارنة مع نسبة تكاثر بين النصارى القدماء قدرت بحوالي ٤٥ بالمئة فقط ، وعلى هذا يحتمل أن يكون عدد الأندلسيين قبيل بدء نفيهم حوالي مليون ونصف المليون شخص . ومن الصعب التيقن من أى تقدير

---

(١) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain The Golden Age, (London), 1970, PP 19-20.

(٢) انظر المصدر اعلاه . ص ١٩

(٣) المصدر اعلاه ص ٢٣٢ والأصل في Revue Hispanique, Vol. (1919) PP 1-319

(٤) Dozy, R.P. Histoire des Musulmans d'Espagne (4 Vol., Leyden, 1861).

(٥) Lane-Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4th Ed ition) 1890, P279.

(٦) Lapeyre, H. Geographie de l'Espagne Morisque, (Paris, 1959), PP 204-205

(٧) أنظر : Elliott, J.H. Imperial Spain (1469-1716), (London, 1963), P 302

(٨) يقول باري أن وثائق اللجنة التي أشرفت على نفي الأندلسيين غير كاملة لأنها تشير إلى أن عدد المنفيين بلغ ١٠١،٦٩٤ شخصا باستثناء الأطفال الرضع ولكن دراسة التاريخ الاقتصادي لأسبانيا تقدر الرقم بنحو ٤٠٠،٠٠٠ شخص . أنظر :
Parry, J.H. The Spanish Seaborne Empire, Hutchinson, London, 1971, P 235.

خاص بعدد الأندلسيين المواركة ، ولكن انهيار الحالة الاقتصادية في مرسية وارغون وبلنسية وغرناطة بعد نفي الأندلسيين يؤكد ضخامة عدد المنفيين ، كما يؤكد مثل هذا التصور طول الفترة التي استغرقتها عملية الترحيل والإمكانات الكبيرة التي وظفتها السلطات لتنفيذ مرسوم فيليب الثالث، والدور المهم الذي لعبه الترحيل في تقويض الامبراطورية .

أ – الأندلسيون بعد النفي :

بين سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ورحيل آخر المنفيين الأندلسيين ١٢٣ سنة ، قدر عدد الأندلسيين الذين انتقلوا خلالها إلى العدوة بحوالي ثلاثة ملايين شخص . (١) وماخسرته قشتالة بسبب تعصب حكامها وضيق أفق معظم السكان فيها ، كسبته العدوة المغربية فقامت فيها مدن جديدة وازدهرت أرياف بعد اهمال وساهم المنفيون ، طوعا أو إجبارا ، في تطوير حضارة لم تكن لتصل إلى ماوصلت إليه دون الدماء الأندلسية الجديدة التي زرقت في جسد أقطار العدوة . ومنذ استسلام مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ ارتفعت أصوات اندلسية مذعورة رأت في مغادرة الأندلس السبيل الوحيد للنجاة من سيوف النصارى . واستعظمت أصوات أخرى أن ترضى جماعات إسلامية العيش في تلك المدينة تحت إمرة ملك نصراني فحثتهم على رفض تلك المهانة والنزوح على الفور ، ووضعت بعد ذلك الكتب التي تحذر من عواقب الدجن والانصياع لما يفرضه النصارى الشماليون (٢) . ولكن خيار المعتمد بين رعي البعير أو رعي الخنازير لم يكن متاحا للجميع ، رغم أن القسم الأكبر من الأندلسيين اختاروا ، حين اضطروا ، السبيل الأول وغادروا بلدا لم يعرفوا ، ولم يعرف أجدادهم وأجداد أجدادهم غيره . أما الباقون فتدجنوا في طليطلة،وتدجنوا في طرويل (Teruel) بعد سقوطها سنة ١١٧١ ، وتدجنوا في ماردة (١٢٣٠) وقرطبة (١٢٣٦) وبلنسية (١٢٣٨) ودانية (١٢٤٣) ومرسية (١٢٤٣) وجيان (١٢٤٦) واشبيلية (١٢٤٨) ثم في غرناطة بعد استسلامها . ولكن الضغوط التي تعرض لها المدجنون قبل العقد الثاني من القرن السادس عشر اختلفت عن الضغوط بعده . فظهرت اللوثرية وانقسمت المسيحية في أوروبة فحمل القسم الأول السيف ضد الآخر واندلعت حروب دامية طويلة بإسم الدين ، واختارت قشتالة الكاثوليكية وحاربت من أجلها ومن أجل إبقاء هيمنتها على ممالكها الشاسعة . والحرب خارج قشتالة انعكست اضطهادا داخلها فطرد اليهود أولا ثم طرد الأندلسيون ، وفقدت قشتالة أحد أهم الدعائم التي قامت عليها الامبراطورية . وعندما أصر فرناندو الثالث على إفراغ قرطبة بعد سقوطها رحل قسم من سكانها إلى مناطق الأندلس الأخرى التي لم تحتل بعد ، بينما أثر القسم الآخر اختصار الطريق وعبور العدوة إلى فاس ، فأقاموا فيها وخلفوا مايذكر بفنونهم وعلمهم وعمارتهم إلى اليوم في المدينة القديمة التي كانت يوما مدينتين الأولى بإسم القرويين ، والثانية بإسم عدوة الأندلس . ومن غادر الأندلس المقهورة بعد ذلك انتقل أيضا ليساهم في عملية بناء مدن المغرب وقراها وأريافها ، إلى أن بدأت السفن القشتالية تنقل الآلاف في رحلاتها المتكررة من الموانىء القشتالية إلى مدن الساحل المغربي اعتبارا من نهاية سنة ١٦٠٩ . وهو مايرويه صاحب نفح الطيب حين يقول : « ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من

(١) (Lane- Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4th Edition), 1890, P 279

(٢) أنظر : « اسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، ومايترتب من قوبات والزواجر » ؛ أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد ٥ (مدريد ، ١٩٥٧) .

المسلمين يعبد الله خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان اخراج النصارى بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخرى بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ».[1] وتدفق المنفيين الموراكة بتلك الأعداد الكبيرة غير شيئا كثيرا من طبيعة المناطق التي نزلوا بها فنشطت التجارة في كثير من المدن المغربية ، وكثر العمران وشقت الترع وازداد الزرع في تونس ،لكي تكتسب صفتها المعروفة اليوم على الرغم من أن تونس « الخضراء » وصف روماني .

إلا أن النفي لم يكن ، بالطبع ، نهاية الصلة مع الأندلس الأسبانية ؛ إذا حاولت بعض الجماعات العودة إلى الأندلس سرا فيما بعد ؛ وربما تمكن البعض من الاختلاط بالسكان ، وربما قتل البعض وأسر البعض الآخر . وشكلت جماعات أخرى من المنفيين العارفين بأمور الملاحة مجموعات إغارة خاصة ، ومن هؤلاء قسم من الأندلسيين المنفيين الذين سكنوا شرشال (Cherchel) . وكان للمنفيين من مدينة هرناش الأندلسية [2] قاعدة بحرية في سلا ، وهي من ضواحي الرباط اليوم ، يستخدمونها للإغارة على السفن القشتالية أو المدن الواقعة قبالة الساحل المغربي ، واستمرت ذكرى الوطن السابق ماثلة في مخيلة المنفيين وأبنائهم لاسيما وأن أسبانيا استمرت في لعب دور مهم في المنطقة حتى نهاية القرن الثامن عشر .

وبينما كان الأندلسيون المنفيون يستعدون لبدء حياة جديدة في مواطنهم الجديدة كانت السلطات القشتالية ورجال الكنيسة يروجون الشائعات بأن معظم المنفيين لاقوا حتفهم حينما حلوا . وكانوا يزعمون أن أهل المغرب شقوا بطون المنفيين بحثا عن الذهب والأحجار الكريمة التي اعتقد أنهم ابتلعوها لإخفائها . ومن الثابت أن معظم الأندلسيين المنفيين لاقوا صعوبات كثيرة قبل أن تستقر بهم الأحوال ، ومن الثابت كذلك أن عددا غير معروف منهم لقي حتفه على أيدى الإخوة الطامعين بهم ، إلا أن هذه الحالات كانت عموما محدودة في بعض المناطق . واستقبل أهل المغرب المنفيين بالترحاب لأن العلاقة بين الأندلسيين وأهل العدوة بقيت جيدة طوال السنين التي اعقبت سقوط غرناطة . وإن كانت المرحلة الأولى من توطين المنفيين صعبة واضطر أهل العدوة إلى مقاسمتهم الشيء القليل الذى كانوا يملكونه ، فإن قسما كبيرا من المنفيين كانوا من أصحاب المهارات التي خسرتها قشتالة وباقي ممالك فيليب الثالث . أما عملية النفي ذاتها فقد أعادت إلى حظيرة الوطن العربي والدين الإسلامي أكثر من نصف مليون شخص بعد أن أخفقت قشتالة فى تنصيرهم أو حملهم على قبول الأمر الواقع على مدى زاد على قرن كامل من الزمن .

وإن كان النفي قد حمل الخلاص إلى الأندلسيين الموراكة ، فإن من بقي في قشتالة وغيرها انتهى في معظمه إلى التذويب على مدى القرون اللاحقة وسط محيط لم يتغير بصورة ملموسة إلا اعتبارا من نهاية

---

(١) « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، الجزء الرابع ، ص ٥٢٧ – ٥٢٨ .
(٢) وهي اليوم بلدة صغيرة تقع جنوب غربي قرطبة في الطريق القديم إلى اشبيلية .

السبعينات من القرن العشرين . ومنذ منتصف القرن الثالث عشر ادت الحروب التي خاضها الشماليون ضد الأندلسيين الى تحويل أعداد كبيرة من العرب الى عبيد ، واستمر هذا الوضع في القرون اللاحقة الى أن تجددت الحرب ضد غرناطة ، واستعبدت أعداد كثيرة من الأندلسيين كما حدث بالنسبة لقسم من سكان مالقة وغيرها . وبنهاية حرب الإفناء التي خاضها جنود فيليب الثاني خلال الثورة الأندلسية الكبرى وبعدها قدر عدد الاندلسيين الذين استعبدوا بأكثر من خمسين الف شخص ، حتى أن الرحالة الفرنسي برونل الذى زار قشتالة سنة ١٦٥٥ دهش من كثرة العبيد في الجنوب فكتب يقول : « مرة أخرى تسبب التجارة مع جزر الهند الغربية انتشار العبودية في هذا البلد . المتجول في أندلوثيا (الأندلس الصغرى) يكاد لا يرى خدما الا من العبيد ، معظمهم من الأندلسيين أو من الأندلسيين السود . ومبادىء المسيحية تنص على عتق جميع معتنقى الدين (المسيحى) ولكن هذه المبادىء غير معمول بها في أسبانيا بسبب الحاجة الملحة للعمالة ، لاسيما بعد أن أخذت الفتوحات الجديدة في افراغ المدن من المواطنين الذين رحلوا على متن السفن بحثا عن المغانم أو سعيا وراء القصص التى روت الكثير عن الثروة الهائلة التي تنتظرهم » . (١)

واذا كانت الحالة هكذا في الأندلس الصغرى فإن من المنطقي الافتراض بوجود كثير من الأندلسيين المستعبدين في باقي ممالك شبه جزيرة ايبرية أو في المستعمرات الجديدة في مناطق ماوراء البحار . ويقول ج . هـ . بارى في كتابه « الامبراطورية الأسبانية البحرية » : إن الخوف من محاكم التفتيش دفع كثيرين من الأندلسيين الموازكة واليهود ليكونوا من بين أول المهاجرين الى أميركا ، ولكن تفصيلات ذلك قليلة جدا وينقصها التوثيق(٢) .. ويضاف الى هؤلاء جماعات أندلسية رحلت الى المستعمرات الجديدة في العالم الجديد على متن السفن القشتالية أو الارغونية وغيرها بعد اداء فترة خدمتهم الاجبارية على القواديس أو الغلايين ، وخاصة بعد أن عمدت السلطة الى الاكثار من فرض عقوبات مثل هذه بحق المتهمين بجرم أو آخر لامداد الأساطيل التجارية والحربية بعمالة مجانية إثر تزايد الحركة التجارية بين الممالك القشتالية والمستعمرات في العالم الجديد ، واشتداد المنافسة بين القشتاليين من جهة والهولنديين والانجليز من جهة ثانية . ولم يكن هذا التصرف جديدا على قشتالة التي عمدت الى بعثرة الأندلسيين في بقاع الأرض عندما توفرت الفرصة سواء في عهد فيليب الثالث أو ايزابيلا ، وربما كان أحد أسباب ذلك الخبرات التى توفرت لدى الأندلسيين . واحدى الوثائق الخاصة بسقوط مالقة سنة ١٤٨٧/٨٩٢ تفيد بأن ايزابيلا امرت بارسال مئة من رجال المدينة الاندلسيين للالتحاق بالحرس البابوي في روما ، وبعثت بحوالى ٥٠ أندلسية كهدية الى ملكة نابولي ، وحوالي ٣٠ أندلسية الى ملكة البرتغال للعمل في البلاط وصيفات أو مطربات أو حائكات وغير ذلك من المهام . وليس هناك مايفترض أن حكام قشتالة أوقفوا هذه العادة في العهود اللاحقة لاسيما وأن الأندلسيين استمروا يمارسون مهاراتهم المختلفة في وقت اعتبر فيه القشتاليون الإقدام على أية اعمال يدوية مهانة غير مقبولة .

---

(١) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Golden Age, (London), 1970, P 83.

(٢) انظر : Parry, J.H. The Spanish Seaborne Empire, (London), 1971, P 95.

وكان من الممكن أن تسدل قشتالة الستار علي الأندلسيين المواركة الذين اختاروا البقاء في ممالكها أو اضطروا لذلك لسبب أو لآخر الا أن هذا لم يحدث . ومن تمكن من الافلات من السلطة الحكومية وقع بيد سلطة محاكم التفتيش ، فاستمر اضطهاد الأندلسيين المواركة حتي نهاية القرن الثامن عشر (انظر الفصل الخامس) . كما لم تساعد الأزمة شبه المستمرة بين أسبانيا والمغرب في التخفيف من القيود التي فرضت على الأندلسيين . فالحرب التي نقلها الفونصو العاشر الى العدوة في القرن الثالث عشر (انظر ص ١٣١) تصعدت بشدة في القرن الخامس عشر ، وفقدت الأساطيل المغربية سيطرتها على السواحل المغربية بينما احتل البرتغاليون سبتة وأسسوا مراكز تجارية في صافي والجديدة وأغادير ، واستمر وجود هذه المراكز مع مارافقها من ازدياد عدد الأوروبيين في المغرب،حتى نهاية القرن السادس عشر . ونحو نهاية القرن السابع عشر استطاع مولاى اسماعيل (١٦٧٢ – ١٧٢٧) طرد معظم المغامرين الأوروبيين وقلص ممالك أسبانيا حتى انحصرت في سبتة ومليلة ، وماتزال تسيطر على هذين الجيبين حتى اليوم بعد أن تخلت عن محميتها في الشمال المغربي في سابع نيسان سنة ١٩٥٦ ، وتبع ذلك إلغاء اتفاقية تدويل منطقة طنجة (٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦) . وفي العشرين من كانون الأول ١٩٧٥ انسحبت أسبانيا من مدينة العيون بعد التوصل الى اتفاق مع المغرب وموريتانيا على نقل السلطات الأسبانية على الصحراء الغربية الى حكومة البلدين العربيين ، وأنهت بذلك وجودا استمر قرونا طويلة وانحسر الآن بالجيبين .

أما تونس فقد كانت في القرن السادس عشر من أهم مراكز الصدام بين الأسبان والعثمانيين ، وخضعت للأسبان منذ الحملة التي قادها كارلوس الخامس على تونس العاصمة سنة ١٥٣٥ ، وحتى سنة ١٥٧٤ حين خضعت لسلطة العثمانيين ، ثم أصبحت سنة ١٨٨١ محمية فرنسية .

٥– تأثير نفي الأندلسيين المواركة

نفي الأندلسيون المواركة وتبددت مع مرور الوقت موجة الحماس التي طغت على تفكير القشتاليين وهم غارقون في وهم طرد بقايا المحتلين الذين سيطروا على شبه جزيرة ايبرية حوالي ثمانية قرون ، وبقي أحفادهم في معظم مناطقها ١٢٣ سنة أخرى . وكانت المناسبة ملائمة لإشادة لوبي دي فيغا وسيرفانتس وفيلاسكويز بالقرار الحكيم الذي أصدره فيليب الثالث،والتغني بأبعاده التاريخية . أما وقد انتهت نشوة ترحيل المنفيين فإن حكومة الدوق ليرما وجدت الفرصة لكي تفكر بهدوء في تأثير طرد ذلك العدد الكبير من الأندلسيين . ولم يمض وقت طويل حتى أحس الجميع بأنهم قتلوا الأوزة التي كانت تبيض لهم ذهبا ، واستفاقوا على واقع مختلف للتخدير الذى أحدثه ماكان يعتقد بأنه انتصار إضافي على الأندلسيين ، وإزالة جذرية لكل ماكانت تشتكي منه الأمة والكنيسة .

لو نفي الأندلسيون عقب الثورة الأندلسية الأولى أو الثانية لما كان له التأثير المدمر الذى أحدثه في بداية القرن السابع عشر . ولو أنه جاء بعد قرن من حدوثه، مثلا، لما تمكن من تسديد تلك الضربة القاضية إلى اقتصاد قشتالة والتسبب ، إضافة إلى عوامل أخرى ، في تحويل قشتالة من امبراطورية دولية

إلى دولة من الدرجة الثالثة . غير أن الأقدار شاءت أن يكون نفي الأندلسيين في مرحلة وسيطة من التاريخ الأسباني كانت فيه بأشد الحاجة لكل السواعد التي تعمل في أراضيها الشاسعة . والقسم الأخير من القرن السادس عشر تميز بتقلبات سكانية واقتصادية وسياسية مهمة ، إذ رحل كثير من الفلاحين إلى المدن بحثا عن اثراء سريع ، وانتقلت أعداد كبيرة إلى مستعمرات العالم الجديد بعد ورود القصص عن الثروات الخيالية الموجودة هناك ، واحتاجت جيوش فيليب الثاني وابنه إلى أعداد إضافية من الجنود لخوض الحروب في أوروبة وفي أعالي البحار . وكأن هذا لم يكن بكافٍ إذ نزلت بالبلاد سلسلة متلاحقة من الإصابة بالطاعون فقضت على حوالي ١٥ بالمئة من السكان ولاسيما خلال الموجه الكبرى في آخر سنتين من القرن السادس عشر ، ولم تكد بداية القرن السابع عشر تطل على ممالك فيليب الثالث حتى وجدت السلطة نفسها تعاني من ضائقة حادة في العمالة واضطرت إلى الإعتماد على القمح المستورد من شمال أوروبة وشرقها لسد حاجة السكان . ولم يكن الوضع في مستعمرات قشتالة فيما وراء البحار بأفضل حالا ، إذ أصاب الطاعون السكان المحليين في المكسيك اعتبارا من منتصف القرن السادس عشر فتقلص عددهم من ١١ مليونا إلى حوالي المليونين . وربما حدث الشيء ذاته في البيرو وغيرها ، وأخفقت سياسة حمل السكان المحليين في المستعمرات الجديدة على خدمة السادة بيض البشرة ، وانفتح الباب على مصراعيه لدخول العالم في مرحلة استعباد لم يعرفها من قبل (١) ، وربما لن يعرفها في المستقبل إن بقي الحكم الأخير للعقل والمنطق .

ومع رحيل الأندلسيين الموارِكة تغيرت طبيعة الأراضي في كثير من مناطق قشتالة وارغون وغرناطة وبلنسية ، وإن كانت الممالك الثلاث الأخيرة قد تحملت الصدمة الأكبر . وحتى بداية القرن السابع عشر لم تكن الأندلس قد فقدت الكثير من خصوبتها واخضرارها وخيراتها التي وصفها عدد من الكتاب والشعراء الأندلسيين في قرون سابقة (٢) رغم تأثرها المؤقت بالحروب الداخلية والأهمال الذي لحق ببعض المناطق الجنوبية إثر نفي الأندلسيين إلى الشمال بعد إخماد الثورة الأندلسية الكبرى . ومن بين الرحالة الأجانب الذين وصفوا مناطق مختلفة من أسبانيا في مطلع القرن السادس عشر ، نبيل بولندي يدعى جاك سوبيسكي (Jacques Sobieski)زار البلاد سنة ١٦١١ وكتب يقول : « وحين يصل المرء إلى

---

(١) لما اتسع نفوذ العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط ، حاولت الدول الأوروبية اقامة اتصال مباشر مع أسواق الشرق ، وكانت البرتغال من أهم الدول التي كرست جهودها لهذا الغرض وعرفت في عهد هنرى الملاح (١٣٩٤ – ١٤٦٠) نهضة ملاحية كبرى ، ثم تمكنت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من انشاء مراكز على طول الطريق البحري بين البرتغال والشرق عدت أكثر من ٢٠ في افريقيا وحدها ، واستخدمت لأغراض الحرب والتجارة بالبضائع والعبيد الذين كانوا يختطفون أو يؤسرون من الساحلين الغربي والشرقي للقارة السوداء . ولما كثر ربح تجارة العبيد ، ولاسيما بعد إصدار مراسيم خاصة باستيرادهم إلى اميركا اللاتينية سنتي ١٥١٠ و ١٥١١ ، أخذت هولندا والجلترا وفرنسا وأسبانيا تنافس البرتغال إلى أن احتكرت انجلترا هذه التجارة بموجب معاهدة باريير (Barriere) الملحقة بمعاهدة اترشت (١٧١٣) التي تقاسمت الدول الغربية فيها ممالك اسبانيا . ولكن انجلترا الغت فيما بعد الرق لتحرم المستعمرات الأميركية التي قامت عليها من الاستفادة من العبيد لتحسين وضعها الإقتصادي إضافة إلى اسباب أخرى . ويقدر البعض عدد العبيد الذين نقلوا إلى العالم الجديد حتى بداية القرن التاسع عشر بحوالى ١١ مليون شخص ويعتقد أن عددا مماثلا مات في الطريق . انظر مقدمة محاضرة الدكتور وهبي البورى « البترول والتعاون العربي الأفريقي » من منشورات منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط ، (الكويت ١٩٨٢) والمراجع القيمة المدرجة . وأنظر أيضا . Hawley, Donald. The Trucial States, (London), 1970, P 129. حيث يروي المؤلف قصة واحدة من أولى معاهدات الغاء الرق مع الساحل المتصالح .

(٢) أنظر : « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر سيادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس ص ٢٠ – ٢١ .

اندلوثيا (الأندلس الصغرى) فإن العينين تتحيران من كثرة أشجار الزيتون والبرتقال والأرز المترامية في كل مكان كالغابات . وأجمل تلك المناطق تقع حول غرناطة حيث أقام الأندلسيون طويلا وجلبوا المياه من الجبال المغطاة بالثلوج مستخدمين القنوات والانفاق لإخصاب السهول والتلال المحيطة بهم وتحويلها إلى واحدة من أجمل مارأت العين في العالم » . (١) ويقارن الرحالة بارتيلمي جولي بين حالة بلنسية قبل نفي الأندلسيين وبعده فيقول : « بلنسية جزء آخر يحمل المتعة إلى الأبصار . وقلما يهطل المطر في تلك البقاع إلا أن السكان يستخدمون مياه الينابيع المنقولة بواسطة قنوات ضيقة من الآجر لرى حدائقهم . والبقعة هذه خضراء مغطاة بالشجر والحشائش والعنب وهم يزرعون الأرز في المناطق الضحلة ، ولكن هناك أيضا أشجار النخيل والليمون والبرتقال والتوت المستخدم لتربية دود القز ونوع من القصب يستخرجون منه سائلا يصنعون منه السكر . (٢) ولكن هذه الحديقة الغناء خسرت معظم رخائها وجمالها عندما قرر الملك الراحل فيليب (الثالث) طرد الأندلسيين من مملكته ، وكان عددهم فيها (بلنسية) يفوق عددهم في أي مكان آخر .. ومن الأكيد أن مملكة بلنسية بقيت منذ تلك الحادثة في حالة خراب وبقيت قرى كثيرة سكنها الأندلسيون مهجورة ، وافتقدت الأرض من يرعاها » (٣) .

وعملية تفريغ بلنسية وارغون وغرناطة الحقت الخراب بالزراعة وقوضت أحد دعائم الاقتصاد القشتالي ولكن تأثير نفي الأندلسيين على الصناعات لم يكن أقل ضررا إذ يقول برونل : « الصناعات التي عرفت الازدهار في السابق تكاد اليوم تتعرض للدمار ، وعوضا عن أن يشتغل الأسبان بتصنيع إنتاجهم من الصوف والحرير كما تعودوا في السابق ، راحوا يصدرون المواد الخام إلى دول أجنبية مثل هولندا وفرنسا وانجلترا لتصنيعها والعودة عليهم بأسعار مرتفعة . ولما كان الغرباء يسيطرون على الجزء الأكبر من تجارة أسبانيا فإن المدن التي كانت حتى وقت قريب تكتظ بالصناع المهرة ، الذين يتاجرون ببضائعهم خوت وذهب مجدها ... فمدينة برغش التي عمرت بفضل تجارتها بالصوف القشتالي فقدت معظم سوقها ، وفقدت مدينة شقوبية التي اشتهرت بصنع الملابس الجميلة نصف سكانها وانتهت إلى عوز شديد .(٤) .

وبما أن حكومة دوق ليرما لم تكن تفكر بمن يمكن أن يسد الفراغ الذي أحدثه نفي الأندلسيين ، فإن الفرصة اتيحت للانتهازيين والرعاع الأوروبيين للإستفادة من هذا الوضع خاصة وأن المناطق الشمالية الشرقية من شبه جزيرة ايبرية عانت من قلة عدد السكان اعتبارا من نهاية القرن السادس عشر حتى أدى تدفق الفرنسيين إلى تلك المنطقة إلى طغيانهم على عدد المواطنين المحليين ، فعم الفساد واستشرى التهريب وبدا ، كما قال الرحالة الفرنسي بارتيلمي جولي (Barthelemy Joly) « كأن كل حثالة أوروبة صبت في اسبانيا »(٥) . ورغم هذا الوصف الذي يعطي صورة حية للأثر الذي أحدثه نفي الأندلسيين

---

(١) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Golden Age, (London), 1970, P 17.

(٢) المصدر أعلاه ص١٧ ، وأنظر الأصل في : Revue Hispanique, Vol. XX, (1909) PP 460- 618 .

(٣) أنظر المصدر أعلاه ، ص٢٠ - ٢١ .

(٤) المصدر أعلاه ، ص ٢٠ - ٢١

(٥) المصدر أعلاه ص ٢٢ .

في المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد ، إلا أن رحيل الأندلسيين لم يكن السبب الوحيد في تقويض الاقتصاد القشتالي ، إذ كانت الضرائب عالية جدا،واستؤنفت الحرب مع الهولنديين بعد انتهاء الهدنة، وعاد الطاعون ليحصد عشرات الآلاف ، حتى أن أشبيلية فقدت في طاعون سنة ١٦٤٩ حوالي ٦٠ ألف نسمة أو حوالي نصف عدد سكانها ، وظل عدد سكان ممالك قشتالة في القسم الأول من القرن السابع عشر أقل بكثير من عدده المقدر في عقود سابقة .

والخراب الذي ألحقه الأندلسيون بإقتصاد ممالك قشتالة بصورة غير مباشرة اكتمل بالأهمال الذي لحق بتلك الممالك فيما بعد . وكتب أحد النواب إلى حكومته المحلية يصف حال الأرياف سنة ١٦٢١ : « هجر السكان قرى كثيرة وباد بعضها وانهارت الكنائس وتقوضت المساكن ، وضاع ماورثه الأبناء عن الأباء وتخلى الناس عن الحقول فتراهم يهيمون وأزواجهم وأولادهم في الطرقات يأكلون العشب ويقتاتون بالجذور ، ويبحثون عن خلاص من كل هذه الشرور »(١).ويقدم الراهب بنيتو دى بينالوثا (Benito de Peñalosa) وصفا مشابها سنة ١٦٢٩ فيقول : « الفلاحون أفقر الجميع والطبقة التي تتعرض للسحق والدوس بالأقدام أكثر من أية طبقة أخرى ، بل ويبدو أن الجميع يتآمرون لتدمير الفلاحين وافنائهم ووصل الأمر إلى حد تحول كلمة فلاح إلى صفة سيئة ، أصبحت رديفة لكلمة العبد أو صفة الوغد أو الجلف أو الشرير أو الأسوأ من ذلك » .(٢) .

وحيثما قلب المرء في المعلومات التي وردت عن تلك الفترة التي لحقت بنفي الأندلسيين فإن شواهد تأثيرهم الكبير على تقويض الإقتصاد القشتالي موجودة في كل مكان . وربما لم يكن تأثير نفي الأندلسيين على مملكة قشتالة كبيرا بسبب قلة عددهم هناك وشغلهم الأعمال البسيطة كأى مواطنين من الدرجة الثالثة ، إلا أن الوضع في المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد كان شديد الاختلاف . ومن تأثيرات نفي الأندلسيين من قشتالة الارتفاع الحاد الذي طرأ على نقل البضائع إلا إن اقتصاد الشرق والجنوب انهار تماما ، أو كاد ، وشمل الخراب أخصب مناطق شبه جزيرة ايبرية من حوض نهر ابرة شمالا وحتى سواحل مملكة غرناطة في أقصى الجنوب . وحين أخفق النبلاء ملاك الأراضي في العثور على بديل للمنفيين أعلنوا افلاسهم ، وتوقفوا عن سداد الديون فأفلس الممولون في المدن ، فكانت الحلقة الأولى من سلسلة حلقات قوضت الاقتصاد وحجبت ضرائب عن الحكومة كانت بأشد الحاجة لها ، وعمت قشتالة مشاكل داخلية خطيرة في وقت اقتربت فيه المشاكل الخارجية في صورة الهولنديين .

فالهولنديون استغلوا فترة الهدنة التي استمرت ١٢ سنة ، ووسعوا نفوذهم في الشرق على حساب البرتغاليين ودعموا مواقعهم في كل مكان وجدوا فيه استعدادا لمرحلة مابعد انتهاء الهدنة . وعندما استؤنفت الحرب مع قشتالة كانوا أشد ضراوة من ذى قبل وأفضل استعدادا لمقارعة جنود حكومة دوق ليرما التي أخفقت في حشد قواها . وساد الاعتقاد بأن قشتالة لم تكن لتصل الى ما وصلت اليه من

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .
(٢) المصدر أعلاه ص ١٠١ - ١٠٢ .

ضعف لو أنها استمرت في حربها ضد الهولنديين ، ولم تتح لهم فرصة التقاط أنفاسهم . وأمام عجز حكومة دوق ليرما عن تقديم أية حلول للمشاكل الداخلية أو الخارجية بات من الجلي أن الحكومة استنفدت كل الوقت الذى أتيح لها فقامت مجموعة من نبلاء البلاط على الدوق بزعامة ابن ليرما ذاته وأطاحت به في الرابع من تشرين الأول سنة ١٦١٨ . ولكن الابن – دوق اسده (Uceda) – لم ينفرد بالحكم طويلا اذ مات فيليب الثالث في ٣١ آذار من سنة ١٦٢١ . وان كان الاختلاف بسيطا بين فيليب الثالث وخلفه فيليب الرابع ، فان دوق أوليباريس (Olivares) كان شخصية محنكة قادرة ، حاول حشد كل القوى لمنازلة الهولنديين وأعداء قشتالة في كل مكان غير أنه اصطدم باقتصاد منهار وقدرات مهزوزة ، واكتشفت قشتالة فجأة الجريمة التي ارتكبتها بحق الأندلسيين المنفيين فكتب كاهن الاعتراف الملكي سنة ١٦٣٣ يقول : « لم تمض الا فترة قصيرة منذ طرد الأندلسيين المواركة . وكانت تلك عملية عادت بضرر بالغ على هذه الممالك وأصبحت فكرة عودتهم فكرة طيبة لو انهم فقط يقبلون بديننا السماوى . »(١)

الا أن هذه الرغبة لم تكن ممكنة لأن قرار النفي كان من نوع القرارات التي لا يمكن الرجوع عنها فلم تتنبه قشتالة الى التأثير الحقيقي لنفي الأندلسيين الموارکة الا عندما حاولت حكومة اوليباريس حشد الطاقات بغية استئناف الحرب مع أعداء الامبراطورية في العالمين القديم والجديد . ولكن ذلك لم يكن بالمستطاع بعد أن تحولت بعض أخصب الممالك الأسبانية الى خراب مثل بلنسية التي وصف المؤرخ البلنسي ايشكولانو (Escolano) حالتها بالقول : « حديقة أسبانيا الغناء تحولت الى هضبة مقفرة بلقع » ، أو غرناطة التي كانت اشتهرت بأشجارها وخضرتها في السابق ولكنها أهملت وتخلى الأسبان عنها بعد أن اخفقت الأرض في تقديم ما يسد حاجتهم من الغذاء . والمتنقل اليوم في المناطق الشرقية والجنوبية من أسبانيا يستطيع أن يتصور الجهد الذى قدمه الأندلسيون لاعمار تلك الأراضي . فخزانات المياه التي كانت تستخدم للرى تنتشر في كل مكان ، وأحدها يقع قرب مدينة المنسا الى الجنوب الغربي من بلنسية ولا تقل مساحته عن ميل مربع ، وماتزال المياه تتدفق على حمراء غرناطة عبر قنوات بناها العرب في السابق .

كانت قشتالة تسدد طعنة أخيرة الى الوجود العربي فيها ، ولكنها كانت طعنة ادمت جسد الامبراطورية اكثر مما أدمت الراحلين الأندلسيين . فهؤلاء انتقموا لنفيهم عن مساكن لم يعرفوا غيرها وهم خارج البلاد ، وساهموا في توفير أحد أهم أسباب سقوط الامبراطورية الأسبانية . وكما ان قشتالة القرن السابع عشر لم توفر للأندلسيين الحد الادنى من الشعور الانساني ، فإن التاريخ كان كذلك قاسيا في حكمه عليها : « لم يعرف الأسبان المضللون معنى العمل الذى أقدموا عليه لأن نفي الأندلسيين حمل اليهم المتعة ... ولكنهم لم يفهموا انهم قتلوا أوزتهم الذهبية . مرت قرون وأسبانيا مركز للحضارة ومنبر للفنون والعلوم والثقافة وكل أنواع المعارف المشذبة ، ولم تكن أية دولة أوروبية أخرى قد وصلت بعد الى المكانة التي وصلت اليها تلك المملكة المصقولة التي اقامها الأندلسيون . والإشعاع الوجيز الذى رافق

---

(١) Adler, Elkan, N. Documents sur les Marranes d'Espagne et de Portugal sous Philippe IV, «Revue des Etudes Juives,» Vol. 51 (1906) P. 120.

حكم فرناندو وايزابيلا وامبراطورية كارلوس الخامس أخفق في الاحتفاظ بمثل ذلك التجلي الدائم . نفي الأندلسيون ولفترة قصيرة اشعت اسبانيا النصرانية مثل القمر بنور مستعار ثم جاء الخسوف ، ومنذ ذلك الوقت وأسبانيا ماتزال تحبو في الظلمة . الذكرى الحقيقية للأندلسيين ماتزال ماثلة في صورة الاصقاع المهجورة المشتكية من محل كلي ، حيث أنبت الأندلسيون مرة العنب والزيتون واكواز الذرة الذهبية ، وهي ماثلة في سكان أغبياء جهلة ازدهرت لديهم العلوم يوما ، وهي أخيرا ماثلة في الركود الشامل وفي انحطاط شعب هوى دون أمل في ميزان الأمم واستحق المهانة التي لحقت به »(١)

٦ – سقوط الامبراطورية الأسبانية

العصر الذهبي الأسباني (el siglo de oro) يعني شيئين مختلفين . أولهما الفترة الممتدة بين عصر كارلوس وابرام معاهدة البيرينية سنة ١٦٥٩ ، حين تمكنت قشتالة من اثبات تفوقها العسكرى على جميع جيوش اوروبة . أما الثاني فيقصد به العصر الذى برز فيه بعض أهم الكتاب والمؤلفين والفنانين الأسبان مثل سيرفانتس (١٥٤٧ – ١٦١٦) ولوبي دى فيغا (١٥٦٢ – ١٦٣٥) وفيلاسكويز (١٥٩٩ – ١٦٦٠) وموريللو (١٦١٧ – ١٦٨٢) وغيرهم ممن فرض أسلوبه الأدبي أو الفني على باقي أدباء وفناني الدول الأوروبية ولاسيما فرنسا . وخلال فترة امتدت ١٦٧ سنة عرفت أسبانيا انتصارات هائلة ونكسات هائلة. فتمكنت سنة ١٤٩٢ من احتلال غرناطة ، واكتشاف العالم الجديد ، وطرد اليهود ، واحراز انتصارات عسكرية قوضت أية مقاومة اوروبية حقيقية للسيطرة الأسبانية على القارة ، وسارت تلك الدولة الجديدة من انجاز لآخر وسيطرت في عهد كارلوس الخامس على بقاع لم يسيطر عليها أحد من قبله . ومع ذلك فان كارلوس الخامس لم يعش عهدا خاليا من النكسات ، وتورط في حروب مستمرة انهكت ميزانية الأمبراطورية وأخفق في قمع حركة الاصلاح الديني في المانيا وهولندا ، وتصومع في دير يوست ومات سنة ١٥٥٨ .

فيليب الثانى اعتلى عرش الامبراطورية التي ورثها عن ابيه كارلوس الخامس وحكم ٤٠ سنة ، وحقق هو الاخر انتصارات عظيمة ومني بهزائم عظيمة أيضا . قضى على الثورة الأندلسية الكبرى وعلى انتفاضة الهولنديين وحطم الأسطول العثماني سنة ١٥٧١ ، وحقق حلما قشتاليا قديما عندما ضم البرتغال الى ممالكه سنة ١٥٨٠ ، ولكنه كذلك كان صاحب اخفاق الارمادا في القضاء على أعدائه الانجليز والمسؤول عن انتشار البروتستانتية رغم كل العنف والامكانات التي وظفها لقمع تلك الحركة الدينية . وأمام هذه التطورات أغلق فيليب حدود قشتالة على جميع الأفكار الجديدة وشجع تبني آرائه التي طورها في قصره الهائل الذى بناه في الاسكوريال . وفي هذا المبنى الضخم المنتشر على مساحة ٤٠٠,٠٠٠ قدم مربع عاش فيليب الثاني أربعة عشر عاما من حياته التي مزج فيها الملكية مع الرهبنة ، وكان يوجه قسما كبيرا من العالم بأوامر مكتوبة على قصاصات من الورق ، ويحلم بعالم واحد يحكمه ملك واحد ويدين الكبير فيه والصغير بالكاثوليكية . ولم يتحقق حلم فيليب الثاني ولكن الذي تحقق توقعه قبل موته بأن ابنه سيكون محكوما لا حاكما .

---

(١) Lane-Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4th Edition), 1980 P. 279-270.

حمل فيليب الثالث تاج الامبراطورية ولكنه ترك الحكم لنبيل بلنسي هو الدون فرانسيسكو دي ساندوبال ى روخاس (Don Francisco de Sandoval y Rojas) الذي عرف في البداية باسم مركيز دانية ثم سنة ١٥٩٩ بإسم دوق ليرما ، وكان أول الأعوان الذين حكموا قشتالة فعليا ، بينما كرس الملوك وقتهم للتمتع بما يمكن أن يقدمه المنصب لهم . وفي غياب ملك حازم نمت حكومة ضعيفة أجهضت قوى الامبراطورية ثم جنحت للهدنة مع أعدائها ونفت الأندلسيين الموازكة لتحقيق نصر عاد على الامبراطورية بالكارثة . ولم تنجح الهدنة في حل مشاكل الامبراطورية كما لم تنجح عملية نفي الأندلسيين في الإبقاء على حكومة الدوق فقام ابنه عليه وعزله وأخذ مكانه . ولم ينجح الابن في ماأخفق فيه الوالد ، ومات فيليب الثالث سنة ١٦٢١ وترك الحكم لابنه ولما يتجاوز عمره السادسة عشرة . وكما سار فيليب الثاني على نهج ابيه كارلوس الخامس في شد عضد الامبراطورية ، فإن فيليب الرابع سار على خطأ والده وترك الحكم الفعلي لنبيل أندلسي يدعى غاسبار دى غسمان (Gaspar de Guzman) ، أو دوق أوليباريس . والخصال الجيدة التي تحلى بها الكونت لم تسعف أسبانيا التي بدأت سمات الشيخوخة تدب في أوصالها المتشعبة ، وتبددت محاولاته كحشد الطاقات المبعثرة ، وتطبيق برنامج اصلاح شامل ، واعادة رفع الأعمدة المنهارة التي قامت عليها الامبراطورية . وخلال سنوات حكم اوليباريس،التي استمرت ٢٢ عاما،استؤنفت الحرب ضد الهولنديين وتورطت أسبانيا في أغلب الحروب الأوروبية وبدأت الأمور تنتقل من سيء إلى أسوأ اعتبارا من سنة ١٦٢٨ . ولكن سنة الكارثة كانت ١٦٤٠ .

ومنذ سنة ١٦٢٨ اشتبك الأسبان والفرنسيون في ايطاليا على منطقة مانيشوا ، واستمرت الحرب أربع سنوات ثم اندلعت على الحدود بين البلدين سنة ١٦٣٥ .

وبعد أربع سنوات تقدم الفرنسيون بموافقة سكان قطالونيا واحتلوا تلك المملكة الشمالية الشرقية ، وأعلن انفصالها رسميا عن أسبانيا سنة ١٦٤٠ . ومنذ بداية السنة تلك تمكن الهولنديون من هزيمة الأسطول الأسباني الذي حاول استعادة البرازيل ، وأعلنت البرتغال انفصالها عن أسبانيا ونصبت يوحنا الرابع ملكا جديدا . حدث ذلك في وقت كانت فيه الجيوش الهولندية والإنجليزية والألمانية تحرز الانتصار تلو الآخر وتضيق الخناق على الامبراطورية . وحين حاول دوق أوليباريس دفع جيش بقيادة مركيز بلش لتأديب القطلانيين ، تصدى له الفرنسيون وأنصارهم في قطالونيا وأوقعوا به الهزيمة بعد ٢٦ يوما من بداية السنة التالية . ويكتب أوليباريس انطباعه عن أحداث سنة ١٦٤٠ فيقول : « هذه السنة دون ادنى شك أسوأ سنة خبرتها هذه المملكة » . واستمر حكم أوليباريس ثلاث سنوات أخرى تقوض خلالها النظامان الاقتصادي والسياسي واضطر إلى الإستقالة ، ومات سنة ١٦٤٥ وهو على حافة الجنون . أما فيليب الرابع فحاول في البداية ادارة الحكم مباشرة ولكن السلطة تسربت من بين يديه فتملكها الدون لويس دى هارو ابن اخت اوليباريس ، وخيل للجميع وقتها أن اسبانيا تعرف الماضي ولكنها تجهل أى شيء عن الحاضر أو المستقبل .

وفي لحظات اليأس الشامل كان هناك بصيص من نور ، إذ قررت قطالونيا العودة إلى التاج الأسباني سنة ١٦٥٢ ، واتفقت أسبانيا وفرنسا على انهاء الحرب بينهما بموجب صلح البيرينيه سنة ١٦٥٩ ، وكان توقيع المعاهدة اعترافا ضمنيا بهبوط نفوذ أسبانيا وصعود نجم فرنسا . أما البرتغال فاختارت الاستقلال النهائي وتمكنت من استعادة البرازيل من الهولنديين ، وهزمت بمساعدة الإنجليز والفرنسيين سنة ١٦٦٣، جيشين أسبانيين أرسلا لاخضاع البلاد ، ثم هزمت جيشا ثالثا بعد سنتين ، وفقدت أسبانيا الأمل باستعادة البرتغال واعترفت بها دولة مستقلة سنة ١٦٦٨ بعد ثلاث سنوات من موت فيليب الرابع واعتلاء كارلوس الثاني سدة الحكم ، كما سبق وان اعترفت باستقلال هولندا قبل ٢٠ سنة من ذلك التاريخ .

ولكن حظ أسبانيا في تلك الفترة لم يكن أفضل من السابق ؛ إذ كان كارلوس الثاني ابلها ضعيفا ومريضا وانتظر الجميع موته بين يوم وآخر ، إلا إنه خدع الجميع فلم يمت إلا سنة ١٦٩٩ . وفي انتظار وفاة كارلوس الثاني أبرمت القوى الأوروبية الرئيسية في تلك الحقبة معاهدتين لتقاسم ممالك الامبراطورية ولكن كارلوس أفشل جميع المعاهدات عندما أوصى بكل ممالكه لفيليب انجو، حفيد الملك الفرنسي لوي الرابع عشر . ولما كان الإختيار غير مرض لجميع الدول،باستثناء فرنسا،فقد أُعلنت الحرب المعروفة بإسم حرب الخلافة الأسبانية سنة ١٧٠١ ولم تنته إلا بعد ١٢ سنة . تلك كانت أول حرب دولية بين قوات الحلفاء المثلين ببريطانيا وهولندا والنمسا وبروسيا وهانوفر، والبرتغال،وبين فرنسا وبعض حلفائها،وكانت ساحات الحروب أسبانيا وايطاليا والمانيا .وهولندا وبحر الشمال والمحيطات . أما الغنيمة فلمْ تكن تقل مساحة أو أهمية،إذ أن أسبانيا،على ضعفها،كانت تضم،خلافها،معظم مناطق أميركا اللاتينية باستثناء البرازيل ، وشملت الفيليبين وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبنما وميلانو ونابولي وصقلية وسردينيا والجزائر الشرقية وغيرها . وفي السنوات الأخيرة ضعفت قوة فرنسا فعرضت الصلح،ولكن الحلفاء غالوا في مطالبهم ولم تتوقف المعارك إلا بعد تغير السلطة في بريطانيا وإبرام صلح اترشت سنة ١٧١٣ .

وبموجب الاتفاق حصل فيليب انجو على أسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد ، وأخذت النمسا ممالك أسبانيا في أوروبة،باستثناء صقلية،التى كانت من نصيب مملكة سافوى . وكان نصيب بريطانيا جبل طارق (احتل سنة ١٧٠٤) ومنورقة ونيوفاوندلاند ونوفا سكوشيا ، واحتكار تجارة العبيد . كانت تلك الخطوة التي غيرت خريطة العالم وقلبت موازين القوى وافسحت المجال أمام بداية عهد الاستعمار فيما بعد . وفي السنوات اللاحقة بدأت بريطانيا تحقق توسعها على حساب هولندا وتمهد الطريق لبناء امبراطوريتها المعروفة ، بينما انحصرت أهمية اسبانيا في حيز ضيق،واتيح المجال أمام القوى الأعظم وهي فرنسا وبريطانيا والنمسا لتلعب دورها إلى أن تغيرت الموازين ثانية عقب الحرب العالمية الثانية .

وبين الحربين مرت فترة طويلة على أسبانيا تحت ظل حكم الأسرة الفرنسية وارتبط مصيرها بمصير فرنسا إلى أن كانت سنة ١٧٨٩ عندما اندلعت الثورة الفرنسية ، وكان من الطبيعي أن يصطدم الملك الأسباني كارلوس الرابع (١٧٨٨ – ١٨٠٨) مع السلطة المدنية في فرنسا بعد أن أخفق في انقاذ لوي السادس عشر من مقصلة الثورة . وبوجود نابليون دخلت اسبانيا تدريجيا في مخططات فرنسا وشنت الحرب على

بريطانيا ولكنها لم توفق ، وتمكن البريطانيون من تحطيم الأسطولين الفرنسي والأسباني في معركة طرف الغار سنة ١٨٠٥ . أثارت هذه الهزيمة الأسبان فقاموا على الملك فأضطر وحاشيته إلى الفرار والالتجاء إلى فرنسا . ورد نابليون على الثورة فعين شقيقه جوزيف ملكا على أسبانيا فجاوبه الأسبان بإعلان مايسمى بحرب الاستقلال الأسبانية التي استمرت فترة طويلة . وشاركت القوات البريطانية في القتال إلى جانب الثوار الذين أبدوا، في معارك كثيرة، بأسا شديدا وصمودا عنيدا يذكر بصمود الأندلسيين المواركة خلال الثورة الأندلسية الكبرى . وفي تموز من سنة ١٨٠٨ استسلم حوالي ٢٣٫٠٠٠ جندي فرنسي للثوار وفر جوزيف من أسبانيا ، ولكن سرعان ماتراجع الثوار بعد أن تدخل نابليون بجيش عد ٣٠٠٫٠٠٠ جندي واحتل مدريد . وفي سنة ١٨١٢ استغل الأسبان وحلفاؤهم انشغال نابليون بالهجوم على روسيا وحرروا العاصمة .

وخلال هذه السنوات خسرت اسبانيا مستعمراتها في العالم الجديد واحدة تلو الأخرى، ثم فقدت آخر مستعمراتها هناك نتيجة الحرب الأسبانية — الأميركية التي اندلعت سنة ١٨٩٨ . وبعد ثلاث سنوات نُصّب الفونصو الثالث عشر ملكا على أسبانيا ، إلا أن هذا الملك، الذي ينتمي إلى أسرة بوربون الفرنسية ، لم يتمكن من السيطرة على الوضع طويلا، في فترة ابتليت فيها اسبانيا بأنظمة عسكرية ديكتاتورية أهمها الحكومة التي شكلها الجنرال بريمو دي ريبرة سنة ١٩٢٣ . وأمام الاخفاق في الإطاحة بالحكومة العسكرية أعلنت جمهوريات في برشلونة واشبيلية وغيرها ، واضطر الملك إلى الاستقالة سنة ١٩٣٠ بعد أن تقلص تأييد الجماهير للملكية . وفى هذه الفترة العاصفة من تاريخ اسبانيا الحديثة أعلنت قطالونيا نفسها جمهورية مستقلة عن الحكومة المركزية في مدريد ، وتعاظم النداء بتطبيق الحكم الذاتي في اقليمي الباسك وجليقية ، وأدت سياسات داخلية مجحفة إلى اندلاع الاضطرابات ، والاضرابات العمالية التي وصلت أوجها بعد اعتقال ابن الديكتاتور السابق ريبرة ورئيس حزب الكتائب اليميني ، واغتيال كالبو سوتيلو زعيم المؤيدين لعودة الملكية .

وفي السابع عشر من تموز سنة ١٩٣٦ أعلن الجنرال فرانسيسكو فرانكو عصيان حاميته في المغرب في حركة تزامنت مع مثيلات لها في أشبيلية وبمبلونة ، وكان ذلك مقدمة لاندلاع الحرب الأهلية التي استمرت حتى نهاية آذار سنة ١٩٣٩ عندما انهارت مقاومة المدنيين ضد العسكريين ، واتبع ذلك بأعمال انتقامية بشعة . وفي ظل الجنرال فرانكو حكمت أسبانيا بيدين حديديتين ومال، إلى اعادة الملكية فاختار حفيد الفونصو الثالث عشر وليا للعهد، وعندما مات فرانكو سنة ١٩٧٥ ، أصبح خوان كارلوس ملكا على أسبانيا وإنفتحت أبواب الديمقراطية وإختار الاسبان آخر سنة ١٩٨٢ أول حكومة اشتراكية بعد أن تقلصت قوة اليمين .

الفصل
الخامس

الأندلسيون ومحاكم التفتيش

١ – طبيعة العلاقات الدينية في شبة جزيرة ايبرية

كانت الغالبية العظمى من سكان شبه جزيرة ايبرية تدين بالمسيحية الكاثوليكية مع وجود أقلية مهمة من اليهود ، عندما بدأ فتح الأندلس سنة ٧١١ (٩٢) . وكان القوط الغربيون أقلية حاكمة مستبدة بعيدة عن السكان المحليين ، ولذا فان كثيرا من السكان رحبوا بالفاتحين الجدد ، وقدم بعضهم المساعدة للخلاص من لذريق ونبلائه ، مما أتاح للعرب استكمال احتلال شبه الجزيرة خلال سنوات قليلة ، والشروع في بناء مجتمع جديد على أسس السماحة الدينية التي طبقت بنجاح كبير . ومعظم مؤرخى الفترة الأولى من فتح الأندلس يعترفون بأن العرب امتنعوا عن استخدام القسر أو الضغط أو حتى الدعاية الظاهرة لاستمالة سكان شبه الجزيرة الى الاسلام . وكان التعامل بين الفاتحين وأهل البلاد قائما على اتفاقات مختلفة وان انحصرت جوهريا في أمرين وهما:« أن يدفع هؤلاء جزية على رؤوسهم وخراجا على أراضيهم كان فى الأغلب جزءا من غلة الارض ، يعادل الثلث حينا والربع حينا آخر حسب طيب الأرض وغلتها »(١) واختلفت الجزية في قيمتها إلا أنها حددت عموما بمبلغ ٤٨ درهما للميسورين و٢٤ درهما لذوى الدخل المتوسط و١٢ درهما للصناع ، مالم يحل دون دفع الجزية المرض أو غير ذلك .

واعتمد تطور العلاقات بين الفئات التي سكنت شبه الجزيرة في الفترات السابقة على مجموعة كبيرة من الشروط ، بعضها كان نتيجة حتمية للوضع الذى كان قائما قبل الفتح ، وبعضها الآخر جاء نتيجة تفاعل الفاتحين ، أو الغالبين مع المغلوبين سكان الجزيرة . فالقسم الأول كان مؤلفا بصورة أساسية من العرب والبربر ، بينما شمل القسم الثاني النصارى (العجم) وعرفوا ايضا باسم المعاهدين (المعاهدة) أو اهل الذمة او المستعربين (Mozarabes) . كما شمل المسالمة (الأسالمة) وحمل أبناؤهم صفة المولدين بالاضافة الى اليهود والصقالبة أبناء الدول الافرنجية الذين تعهدت الدولة برعايتهم ، واكثر الحكم الربضي من جمعهم ، وان كان الاسم ينطبق عموما على أهل تلك الدول الذين يباعون عبيدا بعد أسرهم . وكان من الطبيعي أن يُقْدِم جنود الفتح ، ومن جاء بعدهم ، على التزاوج من النساء المحليات اللواتى توفرّن آنذاك ، الأمر الذى ساهم في تسريع عملية امتزاج العنصرين ونشوء أجيال جديدة نتيجة هذا التخالط . وبما أن دخول الاسلام كان يعنى الانعتاق من العبودية ، أو التقرب من السلطة الحاكمة،أو الخلاص من دفع الجزية فمما لاشك فيه أن أعدادا كبيرة أعلنت اسلامها لهذه الاسباب إضافة الى

---

(١) « تاريخ افتتاح الاندلس » ابن القوطية ، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، (بيروت ، ١٩٥٧) ص ٢١١ ، وانظر كذلك : « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور أحمد بدر ، ص٤١ .

الاقتناع بجدوى دخول الدين الاسلامي(١) . ولكن هذا لم يكن عائقا أمام تمتع النصارى الذين اختاروا البقاء على دينهم بحريتهم في العبادة والارتقاء الى مراتب مهمة في النظام السياسي الجديد: « وكانت مراكزهم في طليطلة واشبيلية وقرطبة وماردة ، وتعتبر طليطلة مركزهم الأساسي ، لأنها مقر مطران (رئيس أساقفة) الكنيسة الأسبانية ، وكان تعيينه وتعيين أساقفة المراكز الثلاثة الأخرى يخضع لتصديق الأمير أو الخليفة »(٢) . كما أن بعضهم كان مقدما في عهد الولاة الا ان عبد الرحمن الداخل عين لأول مرة قمصاً (Comes) عاما لهولاء النصارى اهل الذمة يقيم الى جواره في قرطبة ويستشيره في أمور كثيرة : وشغل هذا المنصب ارطباش (Ardabas) الذى كان من حزب وقلة (Aquila) الذى ساعد المسلمين في فتح الأندلس(٣)

وفي ظل طابع التسامح العام اتيح للجميع المشاركة في بناء مجتمع جديد وحضارة فريدة عادت على الجميع بالخير ، ولكن هذا لم يمنع قيام حركات محدودة في البداية عادت السلطة ودين السلطة . اذ ظهرت في قرطبة بين سنتي ٨٥٠ – ٨٥٩ (٢٣٥ – ٢٤٥) طائفة تحدى افرادها النظام القائم وطلبوا الشهادة استنصارا للدين المسيحي . ولكنها كانت حركة صغيرة عارضتها الكنيسة عموما على أساس أن المغالاة فيها ستعود بالضرر على جميع المسيحيين . وانتهت الحركة الى التبدد بسبب السياسة الحكيمة التي انتهجها محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ – ٨٨٦ / ٢٣٨ – ٢٧٣) وكان من نتائجها اعتناق الغالبية العظمى من سكان قرطبة المسيحيين للاسلام(٤) . ويمكن القول عموما أن غالبية سكان المناطق الواقعة جنوب نهري . ابرة ودويرة كانت من المسلمين حتى سقوط الخلافة القرطبية وبداية تقدم الشماليين باتجاه الجنوب .

وبينما لم تكن الممالك النصرانية الشمالية تشكل أى خطر حقيقي على الخلافة ، فان المولدين والمستعربين لعبوا دورا مهما في إثارة الاضطرابات ، التي تميز بعضها بخطورته الشديدة ومساهمته في تقليص نفوذ قرطبة حتى لم تكن سلطتها تتجاوز احيانا عاصمة الإمارة . ومن الفئتين،كان المولدون الجهة الأخطر ، وجاء تفجر حركتهم هذه بعد هدوء استمر اكثر من قرن . ويشرح الدكتور احمد بدر سبب ذلك بقوله : « إن الجيل الهادىء هو الجيل الأول ، أى ذلك الجيل الذى كان قوطيا من ناحية ا لمجتمع الذى كان يعيش فيه والقوانين الناظمة لحياته ومسيحيا من ناحية عقيدته الدينية ثم دخل الدين الاسلامي . وبذلك لم يغير دينه فقط ، بل استبدل القانون القوطي بالقانون الإسلامي، وهو أمر حقق له فوائد كثيرة ومنافع جلى ، فمن الطبيعى والحالة هذه ان يكون هادئا . أما بالنسبة للأجيال التالية فقد

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) المصدر اعلاه ، ص ١١٠ .

(٣) « تاريخ الأدب الاندلسي » (عصر سيادة قرطبة) للدكتور احسان عباس (بيروت ، ١٩٦٩) ص ١٣ .

(٤) أولى بعض المؤرخين أهمية كبيرة لهذه الحركة فتناولها دوزى في أكثر من جزء وخصص لها لين بول فصلا كاملا . انظر :
Lane-Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4th Edition), 1980, PP 78-95-

اصبحت هذه المنافع جزءا من حياتها وبرزت لها مساوىء جديدة أدت الى ثورتها » (١)،ومهما يكن من خطورة هذه الحركات ، فان التصدى لها أثبت فاعليته ولم تتقوض الخلافة الا بعد الفتنة البربرية التي لحقت بسقوط الدولة العامرية التي حكمت أيام الخليفة المستضعف هشام المؤيد(٢)،وقيام ممالك الطوائف .

فى ظل ملوك الطوائف ضعف شأن الأندلسيين وتقلصت قدرتهم القتالية،وأفسحت الخلافات الداخلية المجال أمام الفونصو السادس لاحتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) . وبالرغم من هذا الانتصار العظيم الذى حققه الفونصو فانه لم يتحول على الفور الى انتصار مسيحي على الاسلام ، ولم يحول مسجد طليطلة الكبير الى كنيسة الا بعد شهرين من استسلامهـا بتشجيع رئيس الاساقفة برنارد وزوجة الفونصو الفرنسية كونستانس . وفي يوم إخلاء المسجد من المصلين دخل الجنود إلى المسجد . « وليس فيه الا الشيخ الاستاذ المغامي آخر من صدر عنه ، واعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه ، وقد اطاف به مردة عفاريته ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه احد التلامذة يقرأ ، فكلما قالوا له عجل ، أشار هو الى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ماطاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه واحد ».(٣) وتغيير المسجد لم يمنع الفونصو من اعلان نفسه « امبراطورا على الملتين » أى:النصرانية والاسلام ، كما اعلن الملك الفونصو العاشر نفسه سنة ١٢٥٢ (٦٥٠) ملكا على الملل الثلاث : النصرانية والاسلام واليهودية ، رغم بطشه بالمسلمين واليهود ، ومحاولة بسط نفوذه على العدوة المغربية .

وسيرة السيد القنبيطور (El Cid Campeador) تقدم مثالا فريدا للعلاقات بين الاسلام والمسيحية في تلك الفترة من تاريخ الأندلس . فهذا الفارس،الذى يعتبره الأسبان بطلا قوميا،تربى في بلاط بني هود أصحاب سرقسطة(٤) واستعانوا به في صد زحف المرابطين وأعمال عسكرية أخرى . ولكنه اشتهر في التاريخ الأسباني كبطل قاوم المرابطين ، واحتل مدينة بلنسية سنة ١٠٩٤ (٤٨٧) واعلنها ملكا خالصا له الى ان استعادها المرابطون من زوجته فيما بعد . وهناك قصة منثورة عن سيرة القنبيطور وقصيدة طويلة كتبت نحو سنة ١٢٠٧ ولكن العملين لايشيران بوجه الخصوص الى أى عداء للاسلام كدين . وفي القصيدة يصوره الشاعر وقد وقف على سور بلنسية يراقب تقدم المرابطين ويقول لبناته وزوجته أنهن سيعاين اليوم كيف يكسب المرءقوته في تلك البقاع ، ولا يقول أن حربه لنصرة المسيحية ضد الاسلام . وكان استغراب الأسبان لارتزاق بطلهم من اصحاب سرقسطة يعادل استغراب اليونان عندما اكتشفوا ان طروادة فى آسيا وليس في مكان ما من بلادهم .

---

(١) انظر : « دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها » للدكتور احمد بدر ، ص ١٢٦ .
(٢) انظر القصة باختصار في : « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر سيادة قرطبة) ، ص ١٣٣ – ١٤٤ .
(٣) « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » أبو الحسن على بن بسام الشنتريني ، الجزء الرابع ، ص ١٣١ – ١٣٢ .
(٤) « تاريخ الأدب الأندلسى » (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور احسان عباس ، (بيروت ، ١٩٧١) ، ص ٢٣ والمراجع .

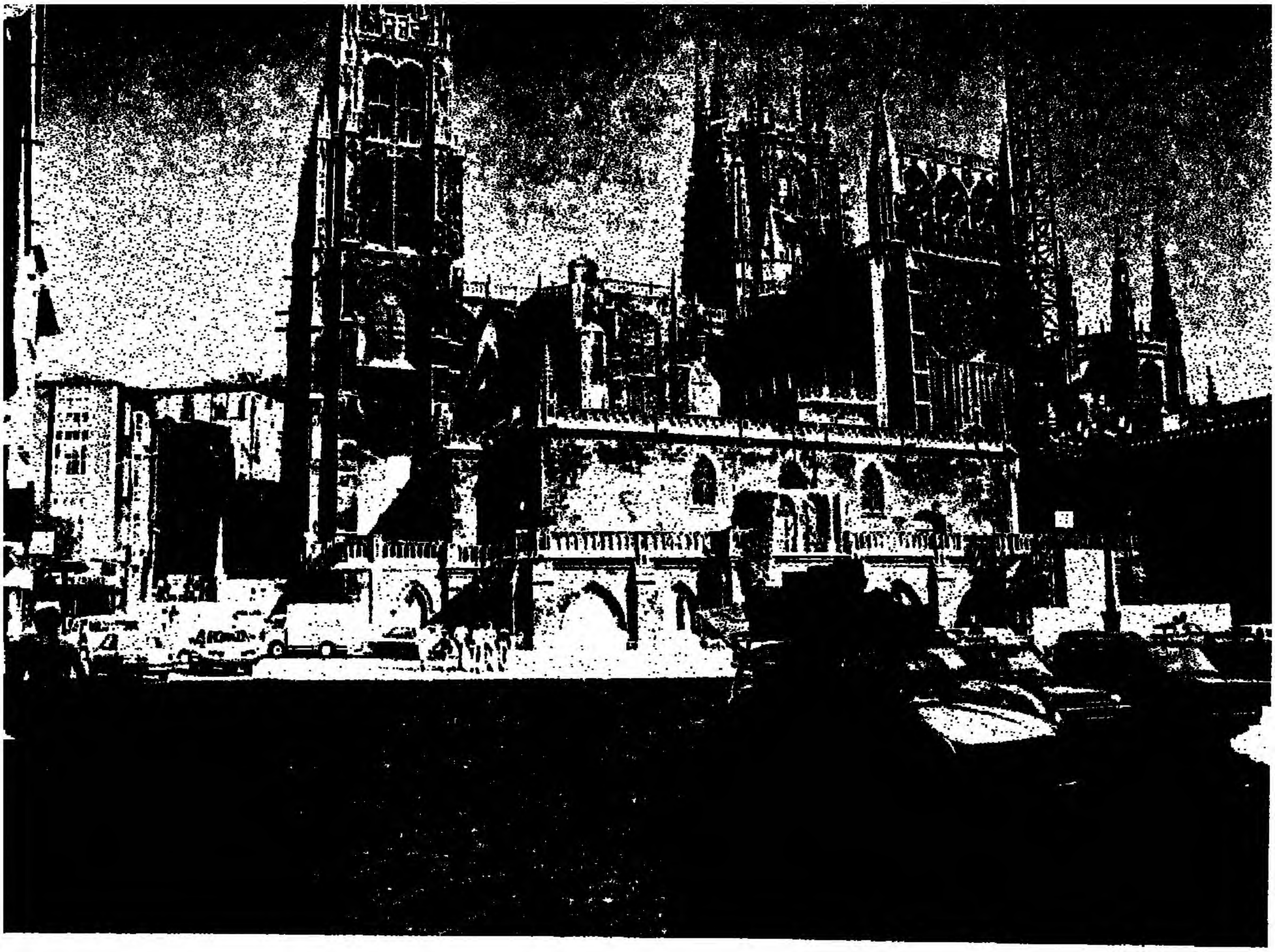

كاتدرائية برغش وفيها تحت بلاطة رخامية كبيرة قبر السيد القنبيطور وزوجته شمانة .

إلا أن العلاقة بين الاسلام والمسيحية تبدلت بصورة جذرية اعتبارا من السنة التالية لسقوط بلنسبة في المرة الأولى.إذ أخذ الأتراك يشددون ضغطهم على القسطنطينية ، وما ان حل يوم السادس والعشرين من تشرين الثاني (١٠٩٥ / ٤٨٨)·حتى كان البابا اربان الثاني يعلن في كليرمونت بداية الحروب الصليبية في المشرق دون ان يغفل الاشارة الى أهمية مساعدة نصارى الشمال الأندلسي في حروبهم ضد الاندلسيين والمرابطين . وفي مقابل هذا البعث المسيحي كانت الأحوال في الأندلس تسير من سيئ إلى أسوأ فضاق الناس ذرعا بالمرابطين ، لانهم مكنوا الفقهاء من الناس·وتشبه المرابطون بالاندلسيين : «في الأخذ باسباب التحضر ... وجنح بعضهم الى الاستبداد ... وبذلك تضعضعت القاعدة التي قامت عليها الدولة ، وهي البعث الديني والجهاد ... ولم يكد الموحدون يظهرون حتى كان القضاة والمغامرون في الأندلس ، قد اعلنوا استقلالهم ، كل في بلده وناحيته »[1].وكما ورث الموحدون المرابطون في المغرب ، فانهم حلوا محل المرابطين في الأندلس كذلك ، وحملوا راية العودة بالمسلمين الى القرآن والسنة والتشدد في التعامل مع الناس .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦

وإذا كانت طبيعة حكم المرابطين أدت الى تنفير الأندلسيين منهم ، فان الوضع انقلب رأسا على عقب بالنسبة لكثيرين من النصارى المعاهدين ، ولذا نجدهم يستدعون الفونصو الأول « المحارب » (الفنش بن ردمير) سنة ١١٢٥ (٥١٩) بعد خمس سنوات من احتلاله لمدينة سرقسطة . وحاول الفونصو احتلال غرناطة،بعد حصارها،ولكنه اخفق،ومع ذلك استمر في غزوته الواسعة الى أن عاد الى الشمال بعد رحلته التي استمرت حوالي السنة وأخذ معه حوالي ١٠،٠٠٠ من المعاهدين وأسرهم.أما باقي المعاهدين،الذين ثبت اشتراكهم في استدعاء الفونصو،فتم تغريبهم الى المغرب في السنة التالية بفتوى من قاضي الجماعة (القضاة) ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد.(١) ومما لاشك فيه أن ازدياد قوة الشمال وتصاعد الضغوط في الجنوب سببا،الى حد ما،فصل تردد الكثيرين من النصارى المعاهدين باختيارهم الانتماء الى الشمال ، كما سببا ضغوطا أخرى وارتحال كثير من المستعربين واليهود الى المناطق التي اصبحت خاضعة لممالك الشمال . وبالرغم من أن سيطرة الموحدين على الأندلس اعتبارا من سنة ١١٤٥ (٥٤٠) ربما سرّعت في انتقال الولاء ، فان هذا الاتجاه بدأ اثر انهيار الخلافة واستمر في عهد المرابطين لاسيما وان الروح الصليبية تفجرت في اوروبة منذ سقوط القدس سنة ١٠٩٩ (٤٩٢) واستمرت في توقدها حوالي قرن ونصف القرن بعد ذلك التاريخ . (انظر الفصل الأول : دور الكنيسة البابوية في سقوط الأندلس) .

وبينما عمد الشماليون الى زيادة الاستعانة بالفرنسيين بعد هزيمة الزلاقة ١٠٨٦ (٤٧٩) ، فان البرتغاليين استفادوا من الصليبيين الانجليز والهولنديين والالمان المتجهين الى المشرق في احتلال عدد من المدن الرئيسية مثل لشبونة ١١٤٧ (٥٤٢) وقصر الفتح (قصر أبي دانس) سنة ١١٦٠ (٥٥٥) وشلب ١١٨٩ (٥٨٥) . واحتلال المدينة الأخيرة يعطي الانطباع بان استعانة البرتغاليين بالصليبيين لم تكن تعني بالضرورة خوض الحرب مع المسلمين على الأسس ذاتها إذ أن المهاجمين قطعوا الماء عن المدينة فطلب أهلها الصلح . ولكن الصليبيين رغبوا بقتل أهل المدينة في حين تدخل سانشو الأول ملك البرتغال وأقنعهم بالسماح لأهلها بالخروج ، بعد أن يتركوا كل شئ فيها .(٢)ولكن لم يكن بامكان الممالك المسيحية في الأندلس الاستمرار في اتباع نمط قتالي يختلف عن النمط الذي برز مع الحروب الصليبية لو افترضنا أنهم رغبوا بذلك حقاً . وفي سنة ١١٨٧ (٥٨٣) هزم صلاح الدين الأيوبي الصليبيين في معركة حطين واستعاد القدس فعملت البابوية بزعامة سيلستين الثالث (١١٩١ — ١١٩٨) على التركيز على تحقيق نصر في الأندلس . وكان لهذا البابا دور مهم في مصالحة ملوك الشمال والإعداد لشن الحرب على الموحدين .

وأمام ازدياد تدخل البابوية في الحرب ضد الأندلسيين والموحدين ، لم يعد في مقدور ملوك الشمال اتباع أى أسلوب آخر غير الذي تريده روما . الا أن البابا سيلستين الثالث والفونصو الثامن-الذي قاد

---

(١) انظر قصة الاستدعاء في « الاحاطة في اخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، (القاهرة ، ١٩٧٣) الجزء الأول ، ص ١١٤ — ١٢٠ . وكذلك في « الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية » (مجهول) ، ص ٦٥ — ٧١ .

(٢) انظر « التاريخ الأندلسي » للدكتور عبد الرحمن على الحجى ، ١٩٧٦ ، ص ٤٦٢ — ٤٦٣ والمراجع المدرجة .

الجيش الموحد للشماليين والصليبيين-قللا كثيرا من قوة الموحدين بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ، وكانت نتيجة وقعة الأرك يوم الثامن عشر من تموز سنة ١١٩٥ (الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ) هزيمة ساحقة لحقت بالشماليين . وهذه الهزيمة التى جاءت بعد حوالي ثماني سنوات من استعادة القدس أثارت الذعر في أوروبة ، وانتشرت مخاوف تقول إن الخليفة الموحدى يعد جيشا قوامه ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل لاكتساح اوروبة . وهكذا بدأت اوروبة تعد العدة للهجوم وخاصة بعد سقوط قلعة شلبطرة على يدى خليفة المنصور ابنه الناصر لدين الله . ولم يكن حماس البابا انوصان الثالث للقضاء على المسلمين بأقل من حماس سلفه . وتنقل المنشد جيفودون (Gevaudon) من مكان لآخر يحث المسيحيين على المشاركة في القتال ، وخاصة لأن ساحة المعركة أقرب اليهم من القدس ، ولكنها لاتقل أهمية .

وفي السادس عشر من تموز سنة ١٢١٢ ،الخامس عشر (أو الرابع عشر) من صفر سنة ٦٠٩ هـ حقق الشماليون وحلفاؤهم انتصارا ساحقا على الخليفة الموحدى الناصر لدين الله ، وتابعوا زحفهم فاحتلوا مدنا أخرى بينها بياسة وأبدة . وخلال فترة لحقت بخروج جيوش الشمال من طليطلة وقعت حادثتان تشيران الى تردد ملوك الشمال في البطش بالمسلمين إن اعلنوا استسلامهم . الحادثة الأولى وقعت يوم الأول من تموز بعد سقوط قلعة رباح (Calatrava) وقبل ملوك الشمال فيها شروطا أغضبت الفرنسيين(١). والثانية خلال حصار مدينة أبدة عندما وافق الفونصو الثامن وبدورو (بطرة) الثاني وسانشو السابع على قبول فدية عرضها أهل المدينة لقاء سلامتهم ، إلاأن القساوسة ، ومن بينهم أسقف طليطلة ومطران نربونة ، عارضوه باسم البابا ، وأصروا على استسلام المدينة دون قيد أو شرط .(٢) وما تبع ذلك يعطي صورة جلية لنمط الحرب التي شنها الشماليون على الأندلسيين فيما بعد ، اذ يقول صاحب « المعجب » إن الفونصو الثامن بعد الزلاقة : «... قصد مدينتي بياسة وابدة ، فأما بياسة فوجدها او اكثرها خالية ، فحرق ديارها وخرب مسجدها الأعظم ، ونزل على ابدة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة واهل بياسة وأهل البلد نفسه ، فأقام عليها ثلاثة عشر يوما ، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم ، وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والأطفال بما ملأوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة ».(٣)

أ – تطور التعصب الديني عند القشتاليين :

لعب العنصر الديني دورا بارزا في استمرار الحرب بين الشماليين والأندلسيين ، ولكنه لم يكن العنصر الحاسم في البداية ، لأن اهتمام ملوك الشمال بالحصول على الاراضي والاسلاب كان اهم من نشر النصرانية . ولم يكن ذلك غريبا على فترة نظرت فيها الرعية الى الملك على أنه مفتاح الرخاء ، والى الحروب

---

(١) يقول المراكشي في المعجب (ص ٤٠١) :«وخرج الادفنش (الفونصو الثامن) – لعنه الله – من مدينة طليطلة في جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رباح ... فسلمها اليه المسلمون الذين بها بعد ان امنهم على انفسهم ، فرجع عن الادفنش – لعنه الله – بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : انما جئت بنا لتفتح بنا البلاد ، وتمنعنا من قتال المسلمين مالنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه».

(٢) Bleye,P. Agundo.Manual de historia de España,tom I,P 647.

(٣) انظر « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » لمحيى الدين عبد الواحد بن علي المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ، (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ٤٠٢ – ٤٠٣ .

سبيلا رئيسيا لجمع الثروة وسط وضع اقتصادى شمالي كان يقوم على الرعي وبعض الزراعة والتجارة . وانهيار الخلافة قوض تلك الوحدة الاندلسية التي تصدت للشماليين ثلاثة قرون تقريبا ، وافسحت المجال لقيام ملوك الطوائف الذين ملكوا من الصفات العظيمة مافاق قوتهم الحقيقية باضعاف كثيرة،وصدق فيهم قول الشاعر :

مما يزهـــدني في ارض انـــــدلس   أسماء معتمـــــد فيها ومعـــــتضد

القـاب مملكـــة في غير موضعهـــا   كالهر يحكي انتفاخـــا صورة الأسد[١]

ولم يجد معظم ملوك الطوائف غضاضة في دفع الجزية لملوك الشمال ، لحماية أو دفع شر ، حتى أصبح الشمال القشتالي في عهد الطوائف واحدا من أهم المراكز المالية في أوروبة اضافة الى ايطاليا وفلاندرز . ولكن ذلك لم يكن كافيا،اذ ساهمت النزاعات الأندلسة الداخلية ومساعدة اليهود[٢] على سقوط طليطلة التي كانت فيما بعد المركز الحربي الرئيسي الذى انطلقت منه جيوش الشمال والقوات الاوروبية لاحتلال الأندلس . وطوال الفترة التي كان فيها الخصمان يتمتعان بالقوة وترد فيها احتمالات شن هجمات مضادة ، فان سلوك الشماليين كان عموما يتسم بالحذر . وهذا يتضح من تصرف الفونصو السادس الذى وعد المسلمين بالمحافظة على أموالهم والامتناع عن مصادرتها حين يغادرون المدينة لسبب أو لآخر ، وعدم التدخل في الشؤون الدينية للمسلمين أو لليهود .

ونظرا لسيطرة الفونصو على مدينة رئيسية تضم عددا كبيرا من المسلمين ، فقد أعلن نفسه « امبراطورا على الملتين » ولكن مسعاه لتبني المسلمين انهار عندما لم يحفظ للمسلمين عهده بالمحافظة على حرمة المساجد في المدينة .

وفي عهد الفونصو السابع (١١٢٦ – ١١٥٧ / ٥٢٠ – ٥٥٢) تعمد الجنود قتل جميع الأئمة في منطقة مدينة شريش.واحراق المساجد والكتب الدينية . ولكن هذه الأمثلة القليلة كانت مجرد البداية لأن هزيمة الموحدين والأندلسيين في معركة العقاب (١٢١٢) أظهرت المسلمين في حالة ضعف عسكرى خطيرة ولم يعد الخوف من انتقام لاحق يشكل أية عقبة حيال المذابح الرهيبة التي ارتكبها الشماليون ضد الأندلسيين ، وصعدت الروح الصليبية من حملة البطش بالمسلمين في الأندلس . وفي المراحل التالية من تاريخ قشتالة لم يتغير الوضع كثيرا فالفونصو العاشر (١٢٥٢ – ١٢٨٤ / ٦٥٠ – ٦٨١)،مثلا ، أعلن نفسه ملكا على الملل النصرانية والاسلامية واليهودية ، وكان عارفا بعلوم العرب وحضارتهم وسماحتهم الدينية ولكن هذا لم يمنعه من البطش بالمسلمين وطردهم من مدينة لبلة وغيرها ، وحتى نقل الحرب الى المغرب .

---

(١) ينسب البعض الأبيات للشاعر أبي الحسن بن رشيق القيرواني وتنسب عند آخرين لغيره . انظر « وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابى بكر بن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، (بيروت ، ١٩٦٨) ، الجزء الرابع ، ص ٤٢٨ ، وكذلك مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثانى ، ص ٧٥٢ .

(٢)جاء في الدليل المسمى « اسبانيا » ...،، ومحاولة (العرب)-مصادرة ثروة اليهود دفعهم الى الاستنجاد بقوة النصرانية المتعاظمة ، ودخل الفونصو السادس طليطلة بمساعدة السيد (القنبيطور) منتصرا سنة ١٠٨٥ ،،. انظر : Spain, The Mainland, Benn, P 272.

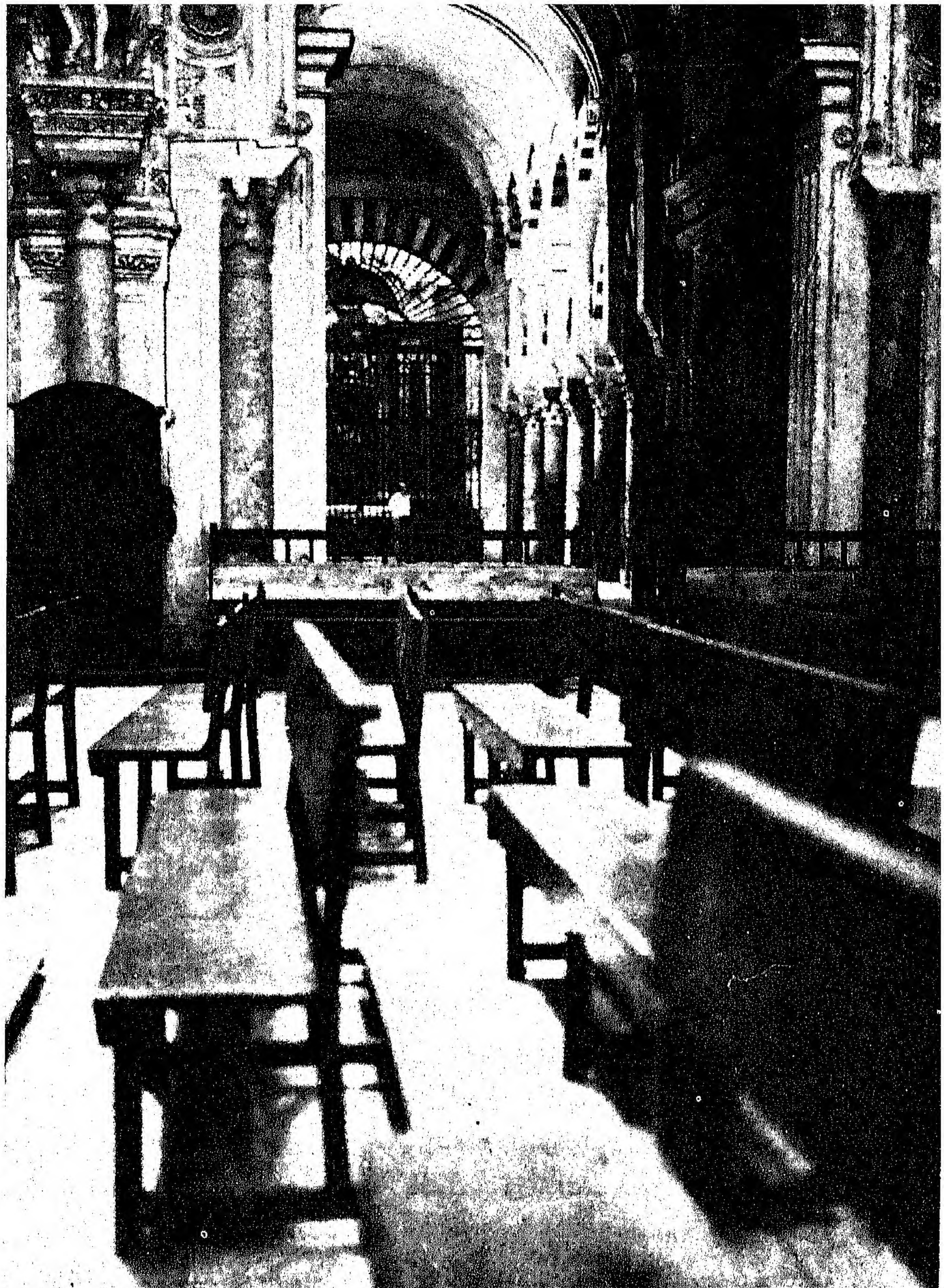

الكنيسة داخل المسجد الكبير في قرطبة

وتصرف غيره من ملوك شبه جزيرة ايبرية لم يكن كثير الاختلاف في تلك الفترة ، إذ أن خايمي الأول الارغوني (١٢١٣ - ١٢٧٦ / ٦١٠ - ٦٧٥) نكل بالمسلمين في الساحل الشرقي وطرد الكثيرين منهم ، ودفعته روحه الصليبية الى التوجه الى المشرق سنة ١٢٦٩ لخوض الحرب هناك الى جانب الصليبيين .

وبين انتهاء مرحلة الاستيلاء على القسم الأعظم من الأندلس في القرن الثالث عشر ، وبداية الحرب ضد غرناطة سنة ١٤٨١ ، انشغلت ممالك شبه جزيرة ايبرية بمتابعة شؤونها الخاصة أو حروبها الداخلية المستمرة ، وهبطت الروح القتالية مع تردى وضع مملكة غرناطة بين الاستقلال والخضوع ، وكانت لها علاقة تجارية مع قشتالة وارغون ، كما كان للأخيرة علاقات مماثلة مع دول المغرب . ولذا أثارت بعض محاولات القشتاليين الهجوم على غرناطة استياء عاما في تلك المملكة ، كما حدث عندما تجاهل مارتين يانيث (Martin Yañez) اتفاق الصلح مع غرناطة وهاجمها سنة ١٣٩٤ ، ولايبدو أن الكثيرين أسفوا لهزيمته وقتله اثر تلك المحاولة . غير أن الوضع تغير اعتبارا من سنة ١٤٥٣ عندما تجددت الروح الصليبية في اوروبة وبدأ بابوات رومة في العمل للانتقام .

ففى التاسع والعشرين من آيار في ذلك العام، تمكن العثماني محمد (الثاني) الفاتح من احتلال القسطنطينية ، بعد ان نقل السفن والمدفعية على الواح من الخشب المزيت فوق التلال ، وانزلها في خليج القرن الذهبى ؛ لتفادى السلسلة الحديدية الضخمة[١] التي نصبها البيزنطيون على مدخل الخليج لمنع دخول السفن الى المدينة المحاصرة . وقصفت المدفعية المحمولة على السفن أسوار المدينة ودخلتها القوات العثمانية واضعة بذلك نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية . وفى ذلك اليوم، الذى يعتبره البعض نهاية القرون الوسطى ، اعمل العثمانيون السيف في البيزنطيين وحولت كنيسة أيا صوفيا الشهيرة الى مسجد ووجدت عاصمة الكنيسة الشرقية نفسها تحت رحمة العثمانيين المسلمين . وربما لم يكن سقوط المدينة يعني الكثير بالنسبة للكنيسة الرومية (الغربية) لأن الكنيستين انفصلتا عن بعضهما رسميا قبل سقوط القسطنطينية باربعة قرون (١٠٥٤) ، إلا أن نهوض العثمانيين على هذه الصورة بعد الهزيمة الماحقة التى الحقها بهم تيمورلنك سنة ١٤٠٢ ، دب الرعب في الشمال، وسرت خشية رهيبة فيما بعد من أن يتابع العثمانيون امتدادهم نحو اوروبة فيستولوا على ايطاليا كما استولوا على اليونان .

هذه المخاوف كانت تتعاظم مع تعاظم قوة العثمانيين ، وكان من الطبيعي أن تعمل بابوية روما على حث اوروبة على قتال العثمانيين ، كما كانت تحثهم على شن الحرب الأخيرة ضد غرناطة وحماية الجناح الغربي للعالم المسيحي ، ولاسيما بعد ان بدأ العثمانيون في السيطرة على البحر الابيض المتوسط ومد نفوذهم الى مناطق الشمال الأفريقى . وكان احتمال استخدام غرناطة جسرا لعبور العثمانيين الى اوروبة والتوغل فيها غربا ، بالاضافة الى توغلهم من ناحية الشرق ، قائما عندما اعلنت ايزابيلا وزوجها فرناندو الحرب ضد آخر ممالك الاسلام في شبه جزيرة ايبرية . وخلال تلك الحرب التي استمرت اكثر من عقد كامل من الزمن ، استعانت ايزابيلا بقوات اوروبية كثيرة لحرب الغرناطيين . فساهم الايطاليون في دك

---

(١) مازال السلسلة محفوظة في متحف اسطنبول الحربي الذى يحتوى على عدد من الآثار القيمة الأخرى ، مثل سيف صلاح الدين الايوبى وراية الصحابى ايوب .

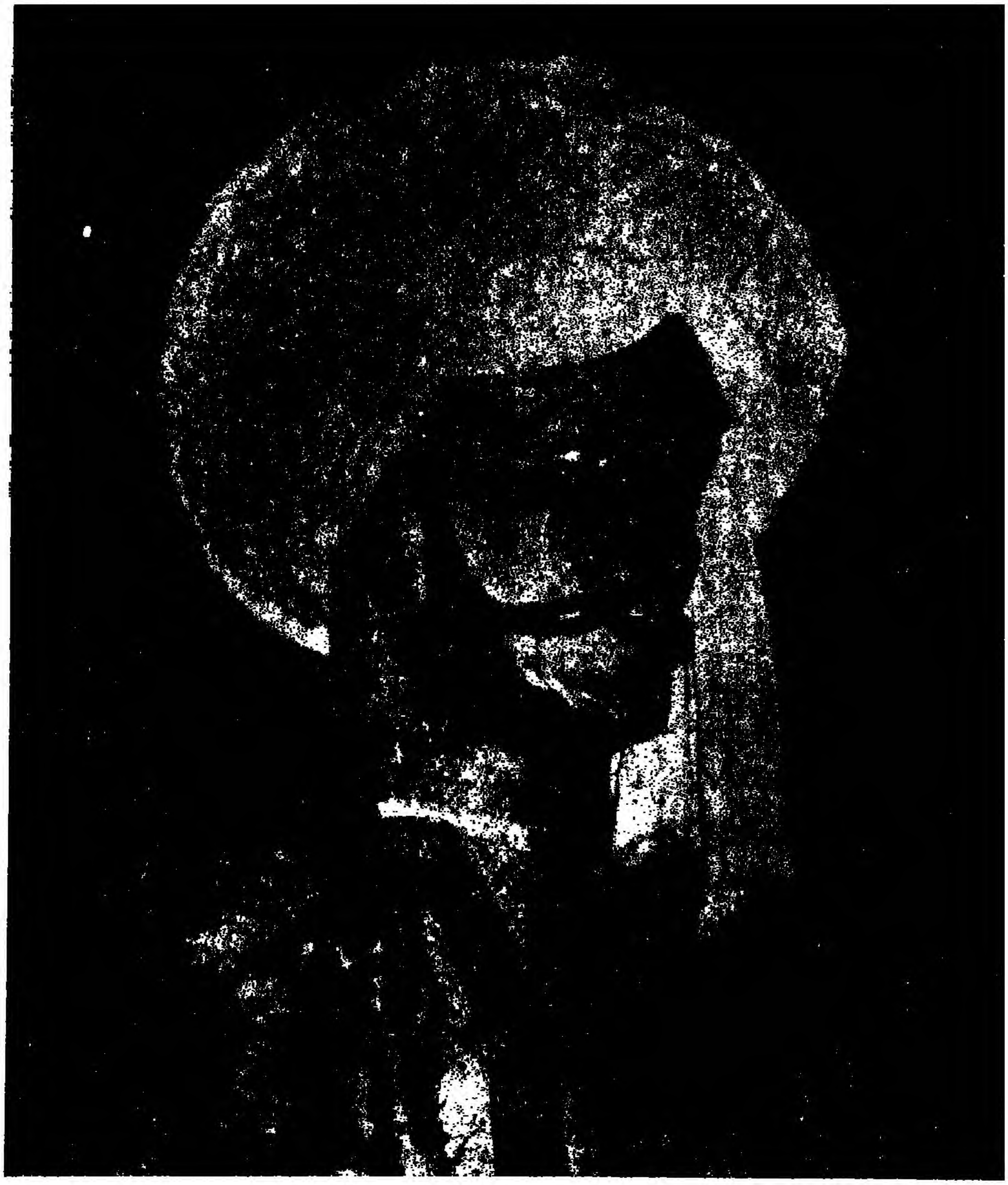

محمد الثاني (المتحف الحربي ، اسطنبول)

مدينة غرناطة ، كما ساهم نبالة السير إدوارد ودفيل (Edward Woodville) الانجليزى باحتلال مدينة لوشة سنة ١٤٨٨ ، ولم ينقطع دعم الكنيسة الرومية لايزابيلا حتى لحظة استسلام غرناطة .

والكنيسة الرومية التي وفرت الدعم المادى والمعنوى لقشتالة ، وفرت أيضا غفرانها الفورى لكل مايمكن أن تفعله قواتها خلال الحملة للقضاء على غرناطة ، فلم تعد هناك أهمية تذكر لأى اتفاق يمكن أن تضطر ايزابيلا لابرامه مع سكان تلك المملكة الإسلامية . وهذا ما حدث خلال حصار مدينة مالقة الذى استمر ثلاثة أشهر من سنة ١٤٨٧ واستسلم المدافعون عنها بعد أن وعدهم فرناندو الخامس بحرية العبادة والسماح لهم بادارة امورهم الداخلية وغير ذلك . ولكن ماان وضع المدافعون السلاح جانبا حتى انقض عليهم جنوده فقتلوا منهم الكثير وبيع ثلثهم عبيداً واحرق كثيرون احياء بعد ان اخضعهم عمال محاكم التفتيش للعذاب . وفي القسم الأخير من القرن الخامس عشر كان التقتيل الجماعي والنفي الشامل وتجاهل الوعود اساليب شائعة في وسط متعصب تحكمه ملكة متعصبة وتسوده الروح الصليبية العالية . وكان هذا عموما حال العلاقات الدينية في شبه جزيرة ايبرية عندما سقطت غرناطة .

٢ - أصول محاكم التفتيش

إحراق الناس بسبب معتقداتهم الدينية بدأ في اوروبا منذ سنة ١٠٧٥ ، ولكنه لم يأخذ طابعا منظما الا في عهد البابا انوصان الثالث الذى أمر الكنيسة باضطهاد الهراطقة ، ووضع بذلك الدعامة الأولى التي قامت عليها محاكم التفتيش فيما بعد ، وكان أنشاؤها تطبيقا للحركة الاصلاحية البابوية التي قادها البابا غريغورى التاسع . وقد أشرنا في مكان سابق الى المساعدة الحاسمة التي قدمتها الكنيسة الرومية الى الملكة القشتالية ايزابيلا لقتال غرناطة ، ولذا فقد كان من الطبيعي ان يطالب البابا خادمته ملكة قشتالة بتأسيس محكمة للتفتيش هناك تأتمر بأمره . ولكن ايزابيلا كانت ترغب في محكمة تفتيش قشتالية تأتمر بأمرها وليس بأمر البابا الذى كان يقبع على مسافة شهر من السفر المتواصل عن اشبيلية . ولم يجد البابا سيكستوس الرابع مفرا في النهاية من الموافقة على طلب ايزابيلا باقامة محكمة تفتيش قشتالية في شهر تشرين الثاني سنة ١٤٧٨ (٨٨٣) . وأصدرت ايزابيلا بعد سنتين من ذلك مرسومها الشهير مطالبة رعاياها بتقديم كل المساعدات الممكنة لتسهيل مهمة عمال محاكم التفتيش .

ولم تكن محاكم التفتيش القشتالية دولة ضمن دولة ، بل كانت ذراعا للسلطة تمتد باسم الدين إلى مراكز القوى المناوئة للحكومة فتضرب رؤوسها وأفرادها وتصادر الممتلكات والأراضي لصالح الدولة ، او تسجن أولئك الذين ينتقدون السلطة. وربما وصل الأمر الى حد تقديمهم ، بعد التحقيق والتعذيب ، الى السلطات المدنية لتقضي الأخيرة باحراقهم ، أو مصادرة أموالهم وحرمانهم من الحقوق المدنية . هذا الوضع يفترض أن تكون معتقدات الملوك وعمال محاكم التفتيش أكثر اهمية من معتقدات الكنيسة ، ولكن عمليات التعذيب والسجن والاحراق كانت تتم باسم الكاثوليكية . وكانت مخيلة القائمين على التحقيق تتفتق عن أساليب للتعذيب لم يعرفها العالم من قبل . وكانت اوضاع سجناء محاكم التفتيش تنتقل من سيء الى أسوأ حتى بات مجرد ذكر اسم محاكم التفتيش يبعث على التعوذ بالله و الاستنجاد بالملائكة .
ورغم كل ممارسات محاكم التفتيش داخل قشتالة وخارجها ، فان عمال المحاكم تلك لم يتمكنوا من تحقيق الهدف الذى وظفوا لأجله ، وهو العمل على اعلاء الكاثوليكية في كل مكان والقضاء على جميع المذاهب الدينية الأخرى . ولكن الكثيرين يعتقدون أن وجود منظمة مثل محاكم التفتيش ساهمت الى حد كبير في انتشار الكاثوليكية في مناطق العالم الجديد واحتفاظها بالكثير من مناطق نفوذها السابقة . وهكذا فان قشتالة كانت تستخدم الدين لنشر نفوذها السياسي ، ولكنها كانت في الوقت نفسه أداة جبارة لنشر الكاثوليكية مما أدى في النهاية الى التضحية بقشتالة السياسية دفاعا عن الكاثوليكية التي بقيت،في حين تبددت امبراطورية قشتالة التي لم يعرف العالم امبراطورية باتساعها.

والتعصب الديني لم يكن السبب الوحيد في انشاء محاكم التفتيش ،إذ أن حرب غرناطة استنفدت اموال السلطة ، وترتب على ايزابيلا توفير المبالغ اللازمة لدفع مرتبات الجنود واجور الخبراء الأجانب الذين استدعوا الى قشتالة لادارة المدافع وشق الطرقات وبناء الجسور . ويبدو انها وجدت في محاكم التفتيش الوسيلة السهلة للحصول على مبالغ كبيرة من الأموال المصادرة التى وقع اصحابها ضحايا محاكم

التفتيش . وكان انشاء تلك المحاكم مدعاة للأسف،فايزابيلا كانت ملكة قديرة الا أنها وقعت ضحية تعصبها ، وارتبط اسمها بمحاكم التفتيش وبالجرائم التي ارتكبها عمال محاكم التفتيش في قشتالة والعدوة المغربية ، ثم فيما بعد في المانيا وهولندا والعالم الجديد ، وكانت لعنة لم يتخلص العالم منها حتى القرن الماضي . وفكرة الاضطهاد الديني في قشتالة لم تكن وليدة القرن الخامس عشر ، لأن محكمة تفتيش بابوية اقيمت في قشتالية في بداية القرن الثالث عشر ، وكان معظم عمالها من الكهنة الدومنيك الذين انهمكوا في محاولة مقاومة الهرطقة في قشتالة لاسيما في المناطق الجديدة التي تمكن مسيحيو الشمال والاوروبيون من احتلالها في الاندلس. الا ان المقاومة كانت شاملة لاستمرار عمل محكمة التفتيش تلك ،وارتأت السلطات الملكية والمدنية،على حد سواء،اعتماد سياسة اكثر اعتدالا بالنسبة لاهل الأديان الاخرى . ولما كان الهدف المعلن من عمل أية محكمة تفتيش هو القضاء على الهرطقة بين المتنصرين الجدد مهما كانت دياناتهم السابقة ، فان وجود محاكم التفتيش القشتالية لم يكن لازما لولا تنصّر أعداد كبيرة من اليهود في الفترة بين سنة ١٣٩١ و ١٤١٦ بفعل الاضطهاد والضغط . ولذا فان ضحايا محاكم التفتيش الاسبانية كانوا من اليهود المتنصرين بعد مباركة البابا سيكستوس الرابع لخطوة اقامتها.ولمانفد مدد الضحايا من المتنصرين اليهود انتقل عمال المحاكم الى الأندلسيين بعد استسلام غرناطة سنة ١٤٩٢؛ثم جاء دور البروتستانت فيما بعد .

أ – ممارسات محاكم التفتيش :

كان عمال محاكم التفتيش يكتفون في العادة بشهادة شخصين ضد رجل أو امرأة اتهم بممارسة الهرطقة ، قبل الشروع بتنفيذ المهمة الموكلة الى العمال . كان هؤلاء ينطلقون الى منزل المتهم او المتهمة في ظلمة الليل ثم يقرعون الباب ، ويطلب المُعرِّفون من أهله السماح لهم بدخول البيت والاجتماع إلى الشخص المطلوب . فان اجتمعوا اليه طلبوا منه ارتداء ملابسه والانطلاق معهم بهدوء . وان احتج المتهم أو رفض فتح الباب ، دخلوا المنزل عنوة وكمموا فاه بواسطة ألة خاصة تشبه الإجاصة ، ويمكن توسيعها أو تضييقها بواسطة مفاتيح خاصة ، مما يضمن للمعرفين صمت المتهم حتى ولو حاول الصياح باعلى صوته المخنوق . كانت نشاطات محاكم التفتيش في بدايتها ، ولذا فان الاعتقال الصامت كان على جانب كبير من الأهمية لئلا يثير ذلك خوف الجيران أو حتى الاستنصار للمتهم وتخليصه من المعرفين . ومن اعتقل بهذه الطريقة نقل الى قصر محكمة التفتيش في المدينة المعنية وبدات مرحلة جديدة من حياته ، يمكن ان تستمر سنوات عديدة . وقلما كان أهل المعتقل يتمكنون من زيارة المتهم خلال فترة التحقيق ، ثم تطور الأمر فيما بعد حتى اصبح اهل المتهم او المتهمة اول من ينكر معرفتهم به . ولم يكن غير الصمت اجابة على سؤال الجيران والأقارب عن مصيره ، وقد لايشاهد اهل المتهم قريبهم الا وهو مربوط الى منصة الإحراق بعد الانتهاء من التحقيق معه .

في « البيت المقدس »أو سجن محكمة التفتيش ، كان المحققون يبذلون كل المحاولات الممكنة لدب الرعب في قلب المتهم مما يضمن اعترافه السريع . وكان جو السجن كافيا لاعطاء هذا الانطباع الأول

فالغرفة مظلمة تذكر بالموت ومصدر الضوء الوحيد كان من شمعة على طاولة تحلق حولها عدد من عمال المحكمة . واذا مثل المتهم امام المحققين ، قرأ موظف عليه لائحة الاتهام والمحققون يراقبون بصمت عبر عينين تطلان من ثقبي غطاء الرأس . في البداية،كان المحقق الأكبر،الذى يجلس الى كرسي منفصل قبالة الطاولة،يتصنع الاهتمام باوراق بين يديه ولكنه يضع الأوراق جانبا بعد فترة ، ويبدأ الموظف في سؤال المتهم عن اسمه وعنوانه وعمله واصدقائه ، والتفاصيل المطلوبة الأخرى،وتنهمر على المتهم بعد ذلك الأسئلة من المحققين . كان المحققون فى العادة يلجأون الى استغلال جميع التأثيرات النفسانية المتوفرة . فطبيعة الأسئلة تتغير من محقق لأخر،والبعض يستخدم لهجة قاسية بينما يستخدم آخر الرقة في توجيه الأسئلة ، ويطرحون على المتهم أسماء بعض أصدقائه ومعارفه لايهامه بان احدهم،او اكثر،اعترفوا بمزاولة المتهم للهرطقة والالحاد . واحيانا كان المتهم يوضع في زنزانة مع سجين آخر ، يكون في الحقيقة جاسوسا لعمال محكمة التفتيش ويحاول الأخير استدراج المتهم الى الاعتراف . واذا اخفقت هذه المحاولات الأولية في الحصول على اعتراف المتهم بالجرائم المسندة اليه،أحضر الى قاعة التحقيق ثانية وأمطر بوابل من الأسئلة ، لعل ذلك يساهم في اضطرابه ووقوعه في المغالطات أو حتى اعترافه . واذا استمر المتهم في انكار التهم أعد عمال المحكمة العدة للمرحلة التالية وهي التجول مع المتهم في غرفة التعذيب . وان انكر ايضا جُرد من ثيابه استعداداً للتعذيب،ثم عرضت عليه أدوات التعذيب وطرق عملها . فاذا استمر المتهم في الانكار فان تعذيبه الفعلي هو المرحلة الخامسة والأخيرة من مراحل التحقيق .

والتعذيب ممارسة رافقت ظهور محاكم التفتيش في أسبانيا ، ولكن توركيمادة كان أول من حث على انتهاجه وسيلة أساسية للحصول على الاعتراف الذى يريده عمال المحكمة . ويعود « فن » التعذيب الذى انتهجته محاكم التفتيش الى نيقولاس ايميرك الذى شغل منصب المحقق الأكبر في مملكة ارغون . ويقال ان قوانين التعذيب،التي وضعها ايميرك،كانت من الاتقان بحيث لم يزد عليها توركيمادة الا القليل . والذى اختطه توركيمادة كان موافقته على تعذيب المتهم اذا كانت الهرطقة نصف مثبتة ، وان بقي ذلك الاصرار الدائم على بذل كل المحاولات لمنع ايذاء المتهم وإسالة الدماء منه « لأن على النصراني الا يعمل على اسالة دم النصراني الآخر » حتى ولو كان متهما بجريمة مثل الهرطقة . والامتناع عن إسالة الدماء لم يكن دائما افضل الخيارات المطروحة أمام المتهم . والوسائل التي كانت تتبع أسفرت في كثير من الأحايين ، وان لم يكن في معظمها ، عن موت المتهم اختناقا او ارهاقا او حتى من الخوف . أما إذا حدث ومات المتهم فان على المحقق الذى تسبب في تلك الوفاة المسارعة على الفور للحصول على ابراء ذمته من المحقق الأقرب،وكان هذا كافيا في العادة على تشجيع المحققين للانتقال بسرعة اكبر الى المرحلة الخامسة من التحقيق .

ومنذ الألف الرابعة قبل الميلاد والانسان يبرع فى اختراع آلات التعذيب لاجبار الآخرين على الاعتراف بشيء ما،أو قبول شيء ما،او الارتداد عن معتقد او فكرة . بعض الأفكار كانت غريبة والبعض الاخر أشد غرابة،من الفراعنة الذين اتقنوا فن التعذيب بالناقوس(١) ، الى الأشوريين الذين اعتملوا

(١) وكان ناقوسا من النحاس بحجم الانسان ينزل على المتهم من الأعلى ثم يقرع بشدة فيسيل الدم من اذني المتهم ويفقد سمعه مع التكرار .

الخازوق،او التعرف على براءة أو ذنب متهم ماعن طريق القائه في الماء.فاذا طفا كان بريئا والا كان غير ذلك[١] . وكما ان الوطن اعتبر مسؤولا عن الكثير من الجرائم ، فان الدين كان يستخدم من جانب المحققين الأسبان لممارسة بعض ابشع انواع التعذيب التي عرفها الانسان . ووسائل التعذيب التقليدية في تلك الفترة كانت تضم المخلعة والرافعة والتعذيب بالماء .

أما المخلعة فكانت أداة تعذيب واسعة الانتشار في معظم أنحاء اوروبه تشد المتهم من ساقيه الى طرف، بينما جذعه مثبت الى الطرف الأخر ، ويزاد الضغوط إلى أن تنفصل عظام المعذب . وبالرغم من قسوة التعذيب بهذه الألة،التي مازال متاحف الشمع في أوروبة حافلة بنماذج منها ، الا أن الألة المفضلة لدى محاكم التفتيش كانت الرافعة . كان المتهم يوقف وقد ربطت يداه الى ظهره والحبل معلق حول بكرة مثبتة في السقف . ولدى الانتهاء من هذه العملية الأولى يبدأ التعذيب برفع المتهم ببطء نحو الأعلى بحيث تتحمل يداه المربوطتان ثقل جسمه ثم ينزل ويرفع ثانية الى أن يعترف . ولو كان المتهم عنيدا ، او لم يكن لديه ما يعترف به ، فانه يرفع بسرعة وينزل بسرعة الى ان تتفكك مفاصله . واحيانا كانت الأثقال تربط الى قدميه خلال رفعه أو يبقى معلقا فترة طويلة الى أن يغمى عليه .

والتعذيب بالماء كان يجرى بعد ربط المتهم الى سلم وهو مدلى الرأس . وكان الرأس يحكم بسوار معدني وتربط اليدان والقدمان باحكام شديد الى حافتي السلم . ومتى انتهت هذه العملية كان المفتشون يضعون قماشة على فمه ويسدون المنخرين بقطعتين خاصتين من الخشب،ويبدأون بصب الماء من الجرار في فمه مما يضطر المتهم الى ابتلاع الماء والقماش . وكان الايذاء الحقيقي ينجم عن تحرك المتهم يمنة ويسرة للإفلات ، فتتشقق قدماه ويداه ويعتصر رأسه.واذا اغمى عليه،سحبوا القماش من بلعومه وانتظروا الى أن يستعيد وعيه للقيام بالعملية من جديد .

هذه هي ألات التعذيب الرئيسية ، ولكن تطور « فن » التحقيق كان يفسح المجال دائما لآلات جديدة ووسائل تعذيب جديدة . الكرسي الأسباني كان واحدا من آلات التعذيب المعروفة.وكان المتهم يربط اليه وتدهن قدماه بالسمن وتوضعان تحت نار حامية الى أن تقليا . والفلق كان أسلوبا واسع الانتشار في الحالات العادية،ولكن هناك روايات عن قلع الأظافر او ربط الأصابع الى ان ينفر الدم من تحت الأظافر . من الآلات الأخرى تمثال المومياءوهو صندوق يشبه كفن المومياء المصرية وتثبت المسامير المدببة على جانبيه،وكان المتهم يوضع فيه ويغلق الباب عليه . كانت هناك أيضا أكياس خاصة يوضع المتهم فيها الى ان يقارب على الاختناق . وهناك روايات عن ممارسات محاكم التفتيش شملت دفن الناس أحياء،ويقال ان مثل هذه الحالات كانت تقع فى هولندا أثناء الحملة الرهيبة التي قامت بها محاكم التفتيش هناك اثر انتشار البروتستانتية . وهناك حالات ذكر انها اكتشفت في أصقاع العالم الجديد حيث كانت أسر بكامل أفرادها تحجز حية خلف الجدران مما يؤدى الى موت الضحايا اختناقا او عطشا ، وروايات

---

(١) اذا كان هذا غريبا فان تصرف الانجليز كان اشد غرابة اذ تعودوا في الماضي على رمي المتهم في الماء فاذا غرق اعتبر بريئا والا فانه يكون مذنبا وينال العقاب الذى يستحقه .

أخرى تحدثت عن تمزيق اللحم بالكماشات الحامية وصب الرصاص في الجروح . ولعل أبشع ممارسات التعذيب على الاطلاق كانت تتم بواسطة الصحن الساخن والفئران . كانت الضحية تربط باحكام الى الأرض ثم يوضع صحن كبير فوق البطن وبه بضعة فئران . وكانت النار تسلط تدريجيا على الصحن فتحاول الفئران الاحتماء من الحرارة فلاتجد الا بطن الضحية تبقر فيه الى ان يموت . والوسيلة هذه ليست جديدة فبعض القبائل الأفريقية كانت تمارسها باستخدام النمل وباتباع الأسلوب نفسه . وربما كانت هناك أساليب أخرى لم يصلنا عنها شيء ، وربما كانت بعض الممارسات التي اشرنا اليها مختلقة أو نالها عنصر المبالغة وخاصة تلك التي وردتنا من كتاب يعتنقون البروتستانتية ، الا أن جرائم محاكم التفتيش أكثر من مثبتة .

والتعذيب أيا كان شكله أو وسائله استهدف الحصول على الأعتراف بالهرطقة تمهيدا لانزال العقاب الذي تراه المحاكم مناسبا.وكان هذا يتدرج من الاحراق الى مصادرة الممتلكات والأموال ، او اجبار المذنب على ارتداء ثوب العار لعدد محدد من السنين . وبالرغم من ان الهدف من عمليات التعذيب وانزال العقوبة كان تطهير الناس من الهرطقة،الا أن هناك قصصا ، لايمكن دائما اثبات وقوعها ، تحدثت عن عمليات تعذيب استهدفت نساء لمجرد أنهن جميلات قادرات بجمالهن على اغواء الرجال.وقد يصل الحد أحيانا الى تعذيب متهم ما لأشياء ليست على جانب كبير من الأهمية ، كما حدث بالنسبة لامرأة لم تكن قادرة على تناول لحم الخنزير لأسباب صحية ولكنها عذبت اعتقادا بانها تمتنع عن ذلك لأنها من أصل أندلسى او يهودى . واذا كان الاحياء عرضة للسقوط بين أيدى عمال محاكم التفتيش ، فان الأموات لم يكونوا بمنأى عنهم . ولو حدث واكتشفت المحاكم ان المتوفى المدفون كان يمارس « هرطقة » من أى نوع ، فأنها كانت تأمر احد أقربائه بنبش القبر واخراج الجثة ووضعها في كيس قبل احراقها في الاحتفالات الدينية الى جانب الضحايا الآخرين . ولو شعر شخص ما بأن عمال التفتيش ينظرون اليه نظرة مختلفة فقد يكون هذا كافيا لدفعه للفرار حتى وان لم يكن مذنبا . ولكن الفارين لم يكونوا لينجوا من ملاحقة عمال محاكم التفتيش ، لأن تلك المحاكم كانت تتمتع بحرية العمل في جميع انحاء شبه جزيرة ايبرية . ومن تمكن من مغادرة البلاد فان تمثالا شخصيا له كان يحرق في الاحتفالات .

ان الشهرة التي اكتسبتها محاكم التفتيش لم تكن أساسا بسبب ملاحقة اليهود المتنصرين أو الأندلسيين الموراكة ، وانما بسبب بطشها بالبروتستانت ، ولاسيما في المانيا وهولندا حيث بقرت بطون الحوامل أو دُفِنَّ احياء . وان كانت محاكم التفتيش الآن جزءا من ماضى اوروبة ، الا انها لاتذكر اليوم في اوروبة دون شعور مابالخوف أو الحقد ، ولعله الخوف من احتمال قيامها ثانية بصورة أو بأخرى .

٣ - اليهود ومحاكم التفتيش

حظر الرومان على اليهود دخول القدس بعد الثورة الفاشلة التي نظمها باركخبة بين سنتي ١٣٢ و ١٣٥ ميلادية ، والتي انتهت بدخول ادريان الروماني ، حاكم سوريا ، المدينة التي كانت تحمل اسم ايليا كابيتولينا . ومع

صدور قرار المنع انتهى الوجود السياسي لليهود،ونزحت مجموعات كثيرة منهم الى بقاع شتى في العالم. بعضهم رحلوا إلى بابل فأيسروا وأصبحوا من كبار ملاك الأراضي إلى أن استفحل خطرهم في عهد الساسانيين فاضطهدوا. ومن بابل رحل قسم منهم الى ما يعرف اليوم باسم ايران وافغانستان والهند وارمينيا ثم الى منطقة القوقاز. واضطهاد اليهود في المشرق انتهى بعد أن اتسعت الممالك العربية،ومشكلتهم في اوروبة انتهت قبل ذلك بقرون عندما أمر الامبراطور الروماني كركلا سنة ٢١٢ ميلادية بمنح المواطنية لجميع السكان الأحرار في الامبراطورية،وسكن اليهود بعدها مناطق البلقان وتركيا وشمال افريقيا وايطاليا. ومع ذلك فان الانعزالية التى اتسم بها اليهود ألبت الجميع عليهم وبدأت رحلة جديدة من اضطهادهم في السنوات الأخيرة من عمر الامبراطورية الرومانية الغربية فمنحهم الامبراطور قسطنطين (٣٢٤ — ٣٣٧) مواطنية من الدرجة الثانية، واكد الامبراطوران ثيوديسيوس وجوستينيان (٤١٧ و٤٢٣) قرار سابقهما،وأتبعت الحكومات المسيحية الأسلوب ذاته فيما بعد.

أ — اليهود في شبه جزيرة ايبرية:

استوطن اليهود المدن الرئيسية في شبه الجزيرة مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن ولكن تاثيرهم على الحياة العامة في الجزيرة لم يكن مهما. وفي المرحلة الأولى من حكم القوط الغربيين لشبه الجزيرة لم يكن اليهود يعنون الكثير بالنسبة للقوط الذين كانوا يدينون بالمسيحية على المذهب الآرى ـ مثلهم في ذلك مثل الكثير من القبائل الجرمانية ـ وهو مذهب لايعتقد بألوهية السيد المسيح ولايعترف للقساوسة بحق الوساطة بين الله والمؤمنين مما وضع السلطة والكنيسة على طرفي نقيض. إلا أن حكام القوط الغربيين قبلوا بالكاثوليكية مذهب غالبية السكان المحليين اثر اجتماع المجلس الثالث في طليطلة سنة ٥٨٩ وأصبحت الكاثوليكيه الدين الرسمي للمملكة القوطية. وهنا تحولت النقمة السابقة بين القوط ورجال الكنيسة الى اليهود: « وبوحي من هؤلاء القساوسة الذين اصبحوا يوجهون سياسة الدولة، سن ملوك القوط قوانين قاسية ضد اليهود، فقد أعلن مجمع طليطلة عن اكتشاف مؤامرة حاكها اليهود الأسبان مع بني جلدتهم في شمال أفريقيا، غايتها ادخال العرب الى اسبانيا ... (و) استغلت هذه التهمة كمبرر لفرض عقوبات على اليهود بغية تنصيرهم والقضاء على اليهودية. » (١). واستمر اضطهاد اليهود حتى عرف الملك ايجيكا بلقب « مضطهد اليهود ».

ومجيء العرب الى شبه جزيرة ايبرية كان تخليصا لليهود من محنتهم تحت ظل حكم القوط فوقفوا الى جانب الفاتحين « فاستخدمهم الجيش الفاتح كحاميات للمدن التي يحتلها(٢) كي يحتفظ بكتلته أثناء توجهه لفتح الأماكن الأخرى، لذلك عاملهم العرب الفاتحون برفق كبير. ورغم انتشارهم في جميع المدن، الا ان منطقة غرناطة أو كورة البيرة كانت تعج بهم حتى شاع تعبير « غرناطة اليهود »(٣) على

---

(١) « دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها » للدكتور احمد بدر، ص ٩ — ١٠.
(٢) « الاحاطة في أخبار غرناطة » تحقيق محمد عبد الله عنان، (القاهرة، ١٩٧٣)، الجزء الأول، ص ١٠٧.
(٣) الروض المعطار، ص ٢٣.

اليهودي المستعرب ابن ميمون . حي اليهود ، قرطبة .

كل الألسن في ذلك الزمن.»(١).ويتحدث لين – بول عن تعاون اليهود مع الفاتحين فيقول : « .. ثم ان الحاكم والحامية (بعد مهاجمة قرطبة عند أول الفتح) احتموا بالدير حيث مكثوا محاصرين مدة ثلاثة أشهر . وعندما استسلموا بعد ذلك ، تركت قرطبة بحراسة اليهود الذين اثبتوا دعمهم القوى للعرب في الحملة وتمتعوا بعد ذلك كله باحترام كبير على أيدى الفاتحين . وقربهم الفاتحون ولم يضطهدوهم – الا بعد وقت طويل – كما كان قساوسة القوط يضطهدونهم ... وبفضل تعاون اليهود وذعر الأسبان كان فتح طارق يستمر بسرعة كبيرة.»(٢) وفي عهدى الامارة والخلافة القرطبية ارتقى اليهود الى مراتب عالية وكثر نسلهم وازداد ثراؤهم ، وكان من بينهم العلماء والمترجمون والصناع مثل الصباغين والنجارين والحدادين والفخارين والدباغين وغيرهم .

وكما أن زوال الخلافة غير الشيء الكثير من طبيعة النظام الذى كان قائما في الأندلس فان انهيار الخلافة وبروز ملوك الطوائف بدل الكثير من العلاقات التي كانت قائمة بين مختلف اصحاب الأديان في الجزيرة . وهذا التبدل المقرون بانعدام الأمن والطمأنينة دفع جماعات من اليهود للرحيل الى الشمال ، ولابد ان ازدياد الثروة في ممالك الشمال النصرانية كان عاملا مساعدا . وحين تمكن الفونصو السادس من احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ استقبله اليهود بالترحاب وكافأهم على ذلك بمنحهم سلطات حكم ذاتية محدودة جدا . وعظمت في عهد ملوك قشتالة ثروة اليهود وكثرت مبانيهم وكنسهم كما يتضح من بعض الكنس التي ماتزال قائمة حتى اليوم في طليطلة . وتحسن علاقة اليهود مع القشتاليين قابله تردى للعلاقة بين اليهود والمسلمين ولاسيما بعد ان وضع اليهود انفسهم في صف القشتاليين،وان لم يكن بصورة مباشرة . واثر احتلال طليطلة اوفد الفونصو رسولا يهوديا الى المعتمد صاحب اشبيلية يتهدده ويطلب حصونا معينة : « فغضب المعتمد وضرب رأس الرسول (ابن مشعل أو ابن شاليب) بمحبرة كانت أمامه ، فانزل دماغه في حلقه ، وامر به فصلب منكوسا بقرطبة ».(٣) ومع ذلك فان تعاون اليهود مع القشتاليين لم يكن السبب الوحيد فى تردى العلاقات بين العرب واليهود.اذ ان بعض الأعمال التي انيطت باليهود في بعض ممالك الطوائف كانت سببا في اثارة النقمة ضدهم : « ولعل أشد مظهر اثار نقمة الشعر يومئذ هو تسلط اليهود في دولة غرناطة على الناس وقيامهم بحكم الجماعات الاسلامية وجمع الضرائب وهذا هو الذى دفع بابن الجد (الشاعر) الى ان يقول :

تحكمت اليهود على الفروج ... وتاهت بالبغال وبالسروج

... (بينما يقول شاعر اخر هو ابو حفص الزكومي) :

كنا نطالب لليهود بجزية ... وارى اليهود بجزية طلبونا »(٤)

---

(١) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » ، ص١١٠

(٢) انظر : Lane-Poole ,Stanley.The Moors In Spain, (4th Edition), 1890, p 24.

(٣) « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور احسان عباس ، (بيروت ، ١٩٧١) ، ص ٢٦ . انظر أيضا « التاريخ الأندلسي » للدكتور عبد الرحمن على الحجي ، ١٩٧٦ ، ص ٣٩٣ .

(٤) المصدر (رقم ٣) ، ص ١٤٦ – ١٤٧ .

و نتيجة للقيام بمثل هذه الأعمال واشتهار بعض اليهود بالترف في وقت الضيق فقد تعاظمت النقمة ضد اليهود الى ان طالب زاهد مثل ابي اسحاق الالبيرى،ايام وزارة اليهودى ابن النغريلة في غرناطة، باعادة الأمور الطبيعية الى نصابها وافتى بقتل اليهودى في قصيدة ساعدت على الثورة في تلك المملكة :

ألا قل لصنهاجة اجمعين ... بدور الندى وأسود العرين
لقد زل سيدكم زلة ... تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ... ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلين

....

واني احتللت بغرناطة ... فكنت اراهم بها عابثين
وقد قسموها واعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها ... وهم يخضمون وهم يقضمون

....

ورخم قردهم داره ... وأجرى اليها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فانا الى ربنا راجعون

....

فبادر الى ذبحه قربة ... وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه ... فقد كنزوا كل علق ثمين
ولا تحسبن قتلهم غدرة ... بل الغدر في تركهم يعبثون(١)

وبالرغم من أن يهوديا مثل ابن النغريلة كان ينفذ مايأمره الملك به ولم يكن كل ما يقوم به من اختياره ، فان طبيعة الاعمال التي تعود بعض اليهود القيام بها عادت عليهم بالنقمة سواء في الأندلس المسلمة أو في ممالك الشمال فيما بعد . ذلك لأن أهم الأشغال التي اتصلت بيهود الأندلس وقشتالة تضمنت اقراض المال بفائدة كبيرة او جبي الأموال لصالح الحكام العرب او النصارى،ولم يكن مثل هذا العمل يقرب صاحبه من عامة الناس . وقد يرد هنا وهناك ذكر لجماعات من اليهود كانت تسير خلف عسكر القشتاليين لشراء مغانم الجيش(٢) ولكن تكدس الثروة لديهم جاء نتيجة المرابافة.وكانت تلك عملية متقنة شديدة التنظيم رأسها فائدة كانت تصل احيانا الى مابين ٢٠ و ٣٣ بالمئة وربما زادت عن ذلك. وساد الاعتقاد بان ذهب افريقيا كان ينقل الى الاندلس فيدفعه ملوك الطوائف جزية ثم يدخل خزينة اليهود الذين كانوا في ذلك الوقت اكبر ممولين لجيوش قشتالة . واستمر اليهود في لعب هذا الدور فكانوا

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) يقول ابن عميرة في « بغية الملتمس » (ص ٤٦) وهو يروى قصة معركة الارك « وكان معه (الفونصو الثامن) جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لشراء اسرى المسلمين واسلابهم واعدوا اموالا ، فهزمهم الله تعالى » .

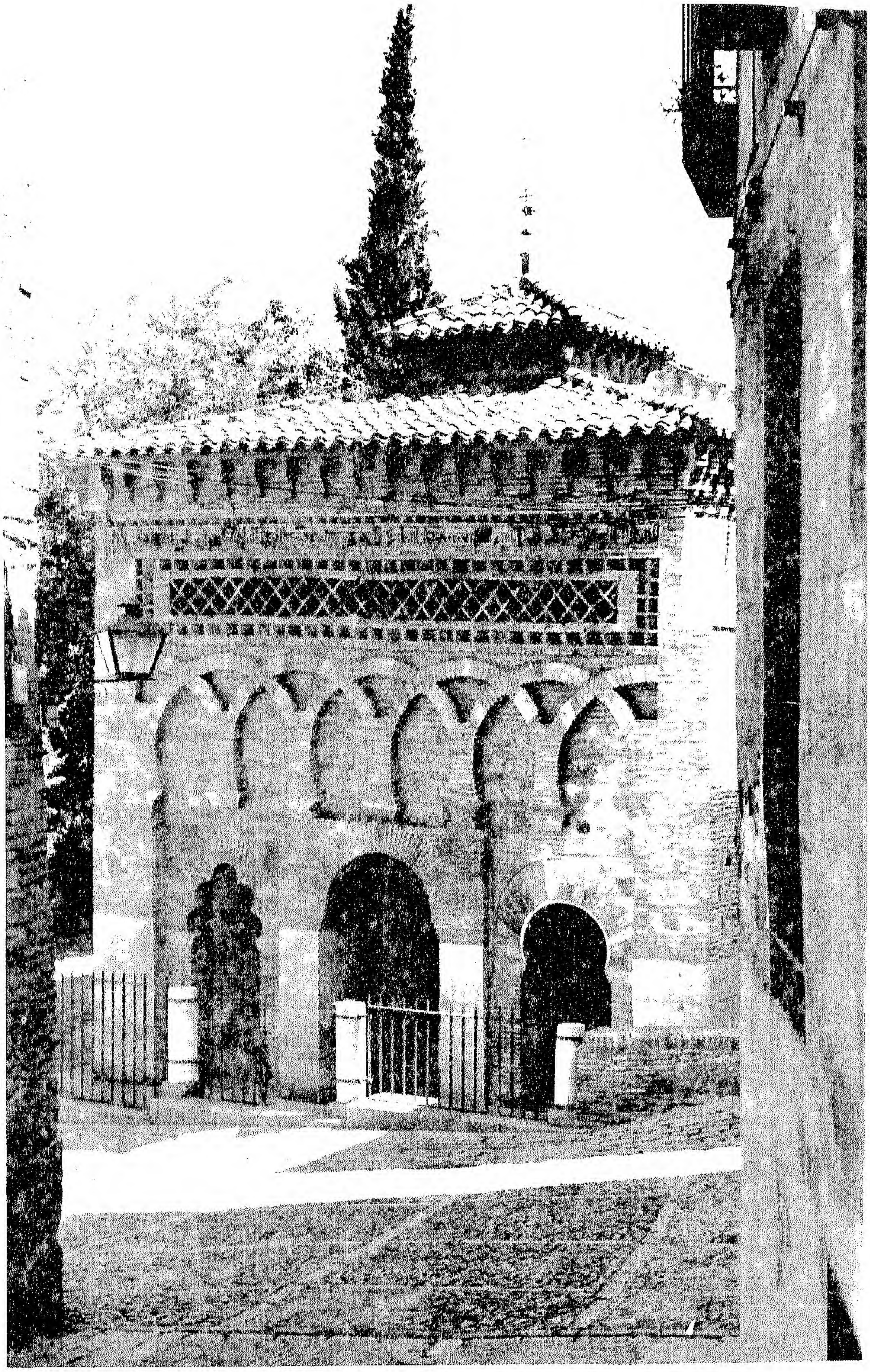

أحـــــد مسـاجـــد طليطلــــــة وقــــد حول إلى كنـيسـة

من اكبر دائني خايمي الأول الأرغوني حتى قرر سنة ١٢٥٤ الغاء ديونهم . وقدم اليهود كذلك مبالغ طائلة لتمويل حرب ايزابيلا ضد غرناطة وان كانت هذه الملكة القشتالية أول من اقام جهازا منظما استهدف اليهود في بداية الأمر ، ثم الأندلسيين بعد ذلك .

ورغم انتشار موجة استياء عامة في بعض الفترات من تاريخ الأندلس ضد اليهود بسبب تصرفاتهم ، فان من الصعب الانكار ان اليهود عرفوا تحت ظل الدولة العربية في الأندلس واحدة من أفضل الفترات التي مرت عليهم في تاريخهم الطويل . وكانت المعاملة الخاصة التي لقيها اليهود من العرب دافعا مشجعا على ازدهارهم الفكرى والحضارى . وهناك قائمة طويلة من العلماء والمفكرين اليهود الذين تفاعلوا مع المحيط العربي فاستفادوا وافادوا وكان لبعضهم الفضل في تطوير نواح متعددة من الفكر الأندلسي.واشتهر منهم منحم بن الفوال الطبيب والفيلسوف ، ومروان بن جناح وهو من أهل العناية بصناعة المنطق ومثله في ذلك ابن جبيرول ، وابن بكلارش الطبيب ، وابو الفضل حسداى الذى برع في علم العدد والهندسة والنجوم والموسيقى والمنطق وغيرهم .(١) « وحيثما كانت السيوف العربية تقتحم كنت ترى دائما اليهود وراءهم ، وبينما كان العرب يقاتلون كان اليهود يتاجرون ، وعندما انتهى القتال اشترك اليهودى والعربي والفارسي في تحصيل العلم والفلسفة والفنون والعلوم فكان ذلك ماميز العرب ورفع شأنهم في العصور الوسطى ».(٢) .

ب – اليهود في قشتالة :

لعب عاملان رئيسيان في تأجيج نيران السخط على اليهود في اوروبة ولم يكن لليهود أى دور مباشر في تأجيجها ؛ اولهما الحروب الصليبية والثاني انتشار الطاعون . فالحروب الصليبية تضمنت نقل مئات الألوف من الصليبيين الى المشرق وشحن العتاد والمؤونة والامدادات البشرية والعسكرية من اوروبة الى المشرق وبالعكس،وهذه العمليات كانت بداية ،، ثورة ،، تجارية ضخمة استفاد منها الكثيرون بما في ذلك اليهود الذين كانوا يتنقلون مع الجيوش الصليبيةفي مجموعات كثيرة للاستفادة من الحرب في جمع الثروة السريعة . ولكن منذ بداية القرن الثالث عشر اخذ بابوات روما في تحذير الجيوش الصليبية من السماح لليهود بمرافقتها لأن ذلك يتعارض مع الروح الصليبية ذاتها ، بالاضافة الى ان وجود الاغراء المالي المتمثل بما يدفعه اليهود لشراء الأسلاب واستغلال الحرب للتجارة ، يوجه اهتمام الجيوش الى مصالح دنيوية بعيدة عن المثل الروحي الذى انطلقوا الى المشرق لتحقيقه . ولكن ابعاد اليهود عن الحركة التجارية التي قدمتها الحروب الصليبية لم يكن مرضيا لهم،فعمدوا الى التوسط واقحام انفسهم في الشؤون السياسة لعل ذلك يقدم لهم السبيل لمتابعة تجارتهم . ولكن تلك المحاولات فجرت النقمة ضدهم وافسحت المجال لضربهم في كل اوروبة تقريبا . وفي سنة ١٢٥٤ عاد الملك الفرنسي لوي التاسع (القديس) من حملته على مصر ، التي انتهت باسره في معركة المنصورة ، فطرد جماعات من اليهود والغى ديونهم . ولم يكن الحال في المانيا افضل اذ ان فريدريك الثانى عمد الى اضطهاد اليهود واعتبرهم عبيدا قبل ١٨ سنة من خطوة نظيره الفرنسي ، ومن خلفه سار على النهج نفسه واستمر طرد اليهود من فرنسا حتى شمل الطرد في سنة ١٣٩٤ جميع انحاء فرنسا باستثناء مجموعات في مقاطعات بروفانس ودوفينيه وأبينيون . وانتقلت العدوى ضد

---

(١) « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور احسان عباس ، ص ٦٢

(٢) Lane-Poole,Stanley.The Moors In Spain, P 24

اليهود من المانيا وفرنسا الى انجلترا فتجددت موجة الكره التي اندلعت سنة ١٢٠٩ . وبدأ اليهود نزوحا جديدا الى ليتوانيا وبعد ذلك الى جنوة ومناطق مملكة نابولي وتركيا والشمال الأفريقي ومصر وبعضهم رحل الى فلسطين .

المرحلة الثانية من ملاحقة اليهود رافقت انتشار الطاعون في اوروبة وارتبط اسمهم به بسبب الاعتقاد بان اليهود كانوا ينقلون العدوى . والطاعون الذى انتشر في القرن الرابع عشر لم يكن الأول من نوعه اذ سبق وانتشر الوباء في اوروبة اعتبارا من سنة ٥٤٢ ميلادية واودى بحياة عدد كبير من السكان . ولكن موجة الطاعون التي اجتاحت اوروبة بين سنتي ١٣٤٧ و ١٣٥٤،عن طريق بعض البحارة الجنويين،ادت الى موت حوالي ٢٥ مليون شخص في اوروبة ، او مايعادل نصف السكان . وانتشر الوباء بعد ذلك في أماكن أخرى من افريقيا وآسيا حتى قدر عدد ضحاياه بحوالي ٦٠ مليون شخص وهو رقم يعادل ثلث سكان الكرة الارضية في تلك الحقبة ، ولايعرف حتى الان اى سبب أودى بحياة مثل هذا العدد الهائل من الناس . ولما كان انتشار الوباء سريعا بتأثير مدمر فقد كان من الطبيعي ان يدب الذعر في نفوس الناس ويدفع بعضهم الى البحث عن كبش فداء متيسر . وشاع مع الوقت ان شرب كميات كبيرة من الكحول المقطر ، التي طورت في ايطاليا بحدود سنة ١١٠٠ ، تكسب الانسان مناعة فأقبل الأوروبيون على الكحول المقطر ، ولكنها ، بالطبع ، لم تكسبهم المناعة وانما ساعدتهم على نسيان الخطر . وظلت هذه عادة متبعة حتى اليوم بعد ان اصبح الطاعون شيئا من الماضي . ولكن تناول الكحول لم يكن مُتنفس الجميع فوقعت مذابح كثيرة استهدفت اليهود في انجلترا والمناطق الشمالية من فرنسا والمانيا حيث شملت المذابح ٣٥٠ مجمعا لليهود ، وكانت المذابح سريعة بسرعة الوباء الذى كان يقضي على ضحيته بعد ظهور الأعراض الأولى خلال فترة أقصاها ثلاثة أيام . وفي فترات لاحقة كان العداء لليهود يتجدد كلما انتشر الطاعون .

ورغم كل تلك المذابح التي شملت معظم دول اوروبة فان اليهود في قشتالة كانوا عموما يتمتعون بوضع أفضل من وضع أبناء دينهم في الأماكن الأخرى ، حتى عندما دخل تاريخ اليهود مرحلة خطيرة بعد منتصف القرن الرابع عشر . ولابد ان اليهود في قشتالة كانوا يشكلون ثقلا لابأس به كي يعلن الفونصو العاشر نفسه ملكا على الملل الثلاث : النصرانية والاسلام واليهودية . ووظف هذا الملك يهوديا لجبي الجزية من غرناطة هو سولومون ابن زادوك الذى شغل أيضا منصب كبير الجباة للملك فرناندو الثالث . واتبع عدد من ملوك قشتالة فيما بعد النهج نفسه فعين بدرو (بطرة) الرابع صموئيل هلفي (Samuel Halvi) رئيسا للجباة أيضا . ولعب الممولون اليهود واليهود المنصرون دورا مهما في توفير الأموال التي احتاجت اليها الملكة ايزابيلا للقضاء على غرناطة[1] رغم ان اضطهادهم في قشتالة كان بدأ قبل اكثر من قرن من استسلام غرناطة . ورغم العداء الذى ناصبته الكنيسة القشتالية والقشتاليون عامة

---

(١) قدم الممولون الايطاليون والفلامنك مبالغ طائلة لتمويل الحرب ولكن مشاركة الممولين اليهود واليهود المنصرين لم تكن بسيطة وبرز منهم في تلك الحقبة الممول الملكي اليهودى ابراهام سنيور (Abraham Senior)،، روتشيلد ذاك العصر .

لليهود بعد ذلك،فان الملك تلو الآخر لم يكن يجد غضاضة في الاستلاف من الممولين اليهود ، حتى أن أحدهم،وهو خوان البارث منديثابال (Juan Álvarez Mendizábal)،كان مسؤولا عن مصادرة جميع ممتلكات الأديرة الأسبانية سنة ١٨٣٦ استيفاء لديونه .(١) وجدد هذا التصرف استياء الأسبان من اليهود ولكن لم يكن بمقدورهم الرد على الإهانة اذ ان اليهود طردوا من قشتالة قبل ذلك بحوالي ثلاثة قرون ونصف القرن ،وانقضت على بداية النقمة ضدهم ٤٤٦ سنة .

ج - الحملة القشتالية ضد اليهود:

اشتغال اليهود بالمال كان النقمة والنعمة في آن واحد . فالتنقل المستمر والقلق الدائم وغموض المستقبل عوامل أدت مع غيرها الى احتفاظ اليهودى بماله على شكل سيولة فورية بعد ان استبعد استثمارها في العقارات أو الزراعة أو الصناعة لان هذا النوع من الاستثمار يحتاج الى استقرار لم يكن متوفرا من الناحيتين السياسية والنفسانية . وبما ان المال كان السلعة الرئيسية التي تعامل بها اليهود الممولون ، فقد كان من الطبيعي ان يتقنوا تشغيلها وتنميتها وفق اساليب لم تكن دائما تقليدية أو مرغوبة لدى الجمهور الاكبر من الناس . ومع صعوبة تحصيل الضرائب في فترة لم تكن الاحصاءات قد تطورت فيها ، ولم يكن التنظيم الاداري قد وصل الى درجة مقبولة ، وجد الملك الأوروبي تلو الآخر انه بحاجة الى تمويل سريع للانفاق على الحروب الداخلية او الخارجية وكان المال اليهودي متوفرا للملك الذى يريده . وليس هناك من شك في ان لجوء بعض الملوك الى الغاء الديون اليهودية لم يكن دائما بدافع من الورع الديني المسيحي خلال الحروب الصليبية ، وربما استغلت فترة تأجج المشاعر الدينية عندئذ لالغاء ديون لم تكن الدولة قادرة على تسديدها كما حدث في فرنسا . اما في ارغون فان قيام خايمي الاول بالخطوة نفسها وفي السنة ذاتها (١٢٥٤) يعكس ذلك التماثل بين الارغونيين والفرنسيين،والاختلاف بين الفرنسيين والارغونيين من جهة وبين القشتاليين من جهة اخرى . فالفرنسيون لم يعتادوا على الاعتدال في التعامل مع غيرهم كما اعتاد القشتاليون الذين اكتسبوا الجانب الأعظم من اعتدالهم من العرب لانهم كانوا يعيشون معهم في دولة واحدة . اما ارغون فكانت دائما على ارتباط مع فرنسا لغة وسكانا وانماط عيش ومايزال تباينهم عن اسبانيا القشتالية مستمراً حتى اليوم . وهذا التباين انعكس على تعامل القشتاليين مع غيرهم من الشعوب كما انعكس على تعاملهم مع اليهود حتى الجزء الأخير من القرن الرابع عشر على الأقل ، اذ أن القشتاليين اعتمدوا على بعض تراجمتهم اليهود لنقل كتب كثيرة من العربية الى القشتالية (الأسبانية) في مدرسة طليطلة الشهيرة . ونظرا للخدمات التي قدموها للسلطة فقد اعتبرهم الفونصو العاشر تابعين له مباشرة .

هذا الوضع تغير مع انتشار الطاعون رغم ان وضع اليهود لم يتأثر في قشتالة خلال موجة انتشاره الرئيسية بين سنتي ١٣٤٧ و ١٣٥٤ ، وساهمت حاجة ملوك قشتالة لليهود والسماحة التي اكتسبها

(١) Spain,The Mainland,Benn, P532.

القشتاليون من الأندلسيين في حمايتهم عندما كان يهود اوروبة يتعرضون للمذبحة تلو الأخرى . ولكن الطاعون لم يختف بعد الموجة الرئيسية ، وكان الذعر الذى يتقدم موجة انتشاره رهيبا فتقوض الامن وانعدم الاستقرار وبدأ الناس يبحثون عن ضحية . ولاشك في ان عدوى الانتقام من اليهود في المانيا وانجلترا وفرنسا زحفت مع الطاعون الى قشتالة . ولاشك ايضا في أن تجمع اليهود في أحياء خاصة كان عاملا على انتشار الطاعون بينهم اكثر من غيرهم،وبالتالي في اقتناع البعض بوجود علاقة بين اليهود وانتشاره . غير أن الثابت هو أن ذعر السكان وتقوض الأمن كانا سببين رئيسيين في الحملة ضد اليهود اعتبارا من سنة ١٣٩٠ .

في تلك السنة تولى فيرانت مارتينيث (Ferrant Martinez) منصب رئيس أبرشية اشبيلية ، وأخذ يحث الناس على هدم الكنس في المدينة وتشجيع الفلاحين على طرد اليهود من قراهم . وما ان حل شهر حزيران من تلك السنة حتى كان السكان قد اقتحموا الأحياء اليهودية في اشبيلية وقتلوا مئات من سكانها . وامتدت الحملة الى اليهود في طليطلة وقرطبة وغيرها من مدن قشتالة وارغون وعملت السلطات المدنية على اصدار قوانين جديدة تحرم على اليهود تولى المناصب الحكومية والتعامل بالربا وحصر سكناهم في احياء تعينها السلطات وبدأت الضغوط لتنصيرهم . وبين سنتي ١٣٩١ و ١٤١٦ تخلى عشرات الألوف من اليهود عن دينهم واعتنقوا النصرانية ، بينما آثر البعض الرحيل عن البلاد او الانتقال الى اماكن اكثر أمنا في شبه جزيرة ايبرية . وبحلول منتصف القرن الخامس عشر كان يهود شبه الجزيرة يعيشون حالة تتفاوت بين الذعر والترقب ولم ينقذ المتنصرين منهم نصرانيتهم اذ جاء في قانون اصدره قضاة طليطلة سنة ١٤٤٩ : « نعلن ان المدعوين باليهود المتنصرين (Conversos) نسل اجدادهم اليهود المنحرفين هم بحكم القانون شائنون مذلون لايصلحون لشغل اى منصب حكومي ولا هم اهل له او مناسبون لرتبة ضمن مدينة طليطلة او الأرض الواقعة تحت سلطتها ، او صالحون للعمل كتاب عدل او محلفين او ان يكون لهم اية سلطة على النصارى الصادقين أبناء الكنيسة الكاثوليكية الطاهرة »(١) ولم يكن في القرار جديد سوى محاربة المتنصرين اليهود باسم الكاثوليكية وليس باسم المرابارة او الطاعون بعد ان ساد اقتناع بين القشتاليين بان تنصر اليهود لم يكن صادقا وانما كان هربا من اضطهاد او سعيا وراء استفادة . وكان اتجاه محاربة اليهودية من أجل الكاثوليكية الاتجاه الذى ساد في اخر القرن الخامس عشر .

في تلك الفترة اعتلت ايزابيلا عرش قشتالة وتمكنت من اقناع البابا سيكستوس الرابع بانشاء محكمة تفتيش قشتالية لملاحقة الهراطقة في تشرين الثاني من سنة ١٤٧٨ ، واصدرت الملكة بعد سنتين مرسوما تطلب فيه من جميع السكان تقديم كل المساعدة الممكنة لعمال محاكم التفتيش،وكان ذلك ايذانا بقيام مؤسسة ارهابية دينية استمرت حتى القرن التاسع عشر ولعبت ذلك الدور المزدوج في اعلاء الكاثوليكية وتقويض سمعة قشتالة في كل مكان . ورغم وجود اشارات كثيرة الى اضطهاد محاكم التفتيش لليهود فان الهدف من قيام المحاكم لم يكن محاربة اليهود وانما أولئك الذين تنصروا منهم ولم تكن الكنيسة واثقة من نصرانيتهم ، والمحافظة على نقاء الكاثوليكية من جميع الشوائب . وربما لعبت البابوية دورا كبيرا في اقناع

(١) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Middle Ages, (London, 1970), P 37.

ايزابيلا بانها اكثر من مقربة الى الكنيسة الرومية واعتبرتها خادمة البابوية في قشتالة وتستحق بالتالي لقب « العاهلة الكاثوليكية » وهذا ادى تباعا الى خوض معركة البابوية ضد الهرطقة اليهودية ومن ثم ضد أخر المماليك الإسلامية في غرناطة لأن الحربين بدأتا في سنة واحدة واستمرتا الى ان حققت قشتالة الانتصار في كلتيهما سنة ١٤٩٢ .

واستعدادات ايزابيلا للحرب ضد غرناطة لم تكن اقل من استعداداتها لبدء الحملة ضد الهراطقة وكان الصدام السريع المباشر طريقة الحرب القشتالية ضد الخصمين . ومنذ أن اصدرت ايزابيلا مرسوم مساعدة عمال محاكم التفتيش في تشرين الأول من سنة ١٤٨٠ ، بدأ عمال المحكمة في الاعداد لاعلان ولادة المحاكم بصورة لاتخلو من الدرامية القوية ، واختاروا اشبيلية مسرحا لظهورهم لاسيما وانها كانت تضم تجمعا كبيرا من اليهود واليهود المتنصرين،وذات يوم فوجيء سكان المدينة بتظاهرة كبيرة سار في مقدمتها قس دومينيكي حمل صليبا كبيرا تبعه عدد من قساوسة مدرسته وهم حفاة الأقدام يرتدون اثوابا خشنة وخلفهم عمال المحاكم باثوابهم البيضاء والسوداء وجمهرة من رجال الدين الأخرين والمعرّفين . واتجهت المسيرة،بعد اختراق شوارع اشبيلية،الى دير القديس بولص الذى اتخذ مقرا لمحكمة تفتيش المدينة. تلك المسيرة نجحت في ترك الانطباع المطلوب واوقعت الأفئدة ودبت الرعب في النفوس.وكان رد الفعل فوريا اذ فرت جماعات من اليهود واليهود المتنصرين من المدينة ، والتجأ البعض الى دوق مدينة شذونة وغيره من النبلاء مما اثار ريبة عمال المحكمة وعزز اقتناعهم بان اليهود المتنصرين ماكانوا ليفروا لولا وجود مايحملهم على الفرار . اما اليهود المتنصرون الأخرون فبقوا في المدينة وهم يرفضون تصديق مايحدث ، وتحرك بعضهم لمحاولة القيام بعمل ما لالغاء المحكمة ووقف نشاطها.وكان من بين هؤلاء ثرى يهودى متنصر يدعى دييغو دى سوزان يقال انه كان يملك عشرة ملايين دينار مرابطي .

بعث دى سوزان الى جماعة من الأثرياء والمتنفذين في المدينة يطلب اليهم الاجتماع في منزله لبحث الأمر ووضع الخطة الكفيلة بطرد هؤلاء الدخلاء ، ولكن ابنة له افشت سر الاجتماع لعشيق نصرانى في لحظة ضعف فنقله الى عمال المحكمة الذين اعتقلوا الجميع ونقلوهم الى الدير . وفي السادس من شباط سنة ١٤٨١ وجدت المحكمة ان ستة من المؤتمرين مذنبين اقروا بجرمهم محاربة محكمة التفتيش ، واجبروا على ارتداء ثوب العار الأصفر ونقلوا الى حقول تبالدا القريبة من اشبيلية حيث احرقوا وكان دى سوزان اولهم . وبنهاية السنة المذكورة ارتفع عدد اليهود المتنصرين الذين امر باحراقهم الى ٢٩٨ شخصا مع مصادرة جميع اموالهم وعقاراتهم.وكانت تلك مجرد البداية وفي مدينة اشبيلية وحدها .

د ــ طرد اليهود من ايبرية :

تعاظم مخاوف السلطة والكنيسة والقشتاليين من احتمال قيام المتنصرين الجدد بتقويض دعائم السلطتين المدنية والكنسية من الداخل سبّب زيادة الدعم الذى قدمته ايزابيلا وزوجها فرناندو لمحاكم التفتيش التي كانت تنتقل من مرحلة قوة الى اخرى،وان ظل عملها محصورا بالمتنصرين اليهود لان

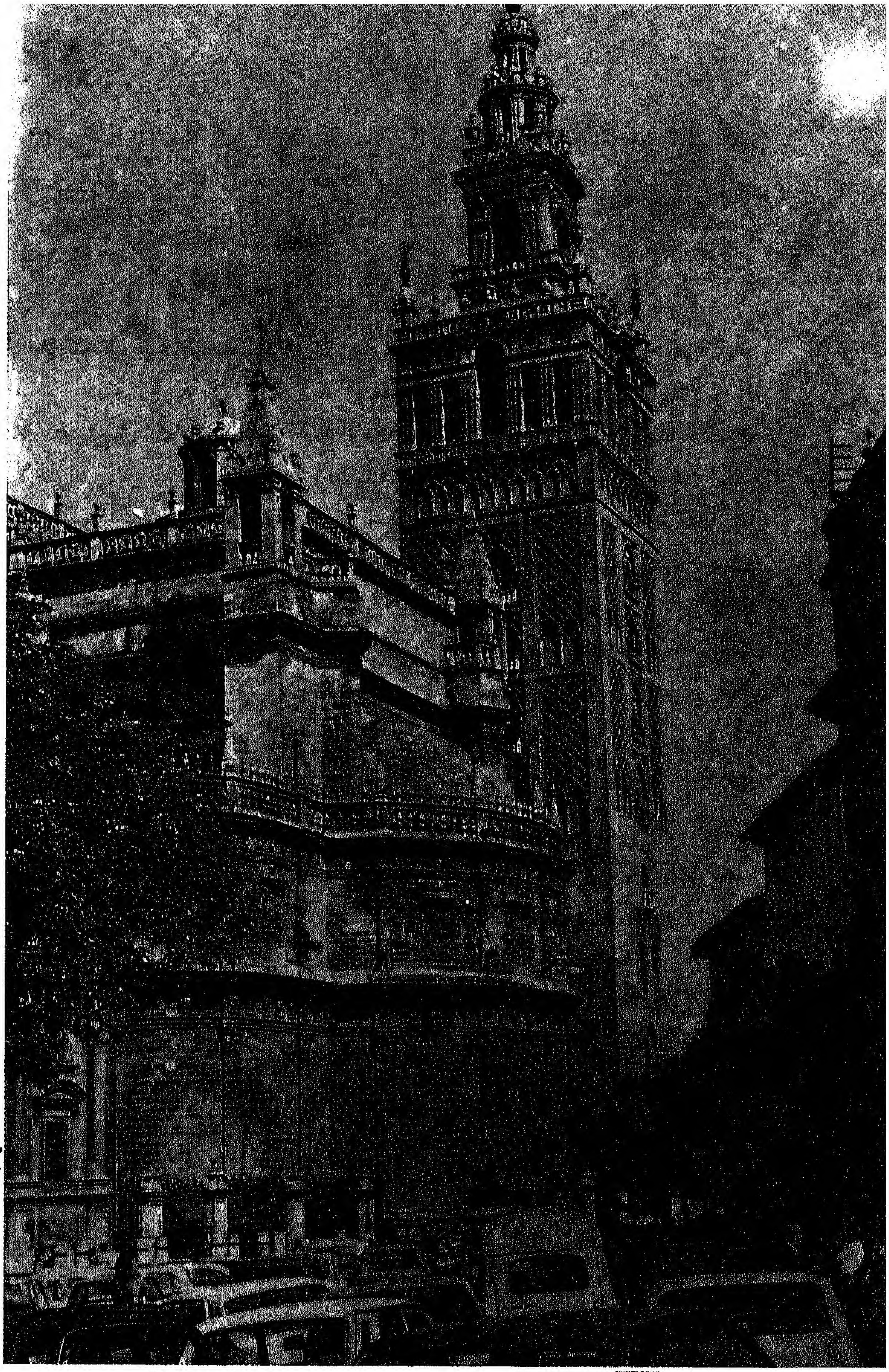

المأذنـــــة
الشهيـــرة
في اشبيلـــة

اليهودية ، مثل الاسلام ، كانت ماتزال تتمتع بوجود قانوني ، ولم تكن الحملة ضد جميع الأديان الأخرى او مذاهب النصرانية ، باستثناء الكاثوليكية ، قد بدأت بعد . ورغم ان محاكم التفتيش وجدت في محيط تلك الساحة ما يقدم لها زخم الاستمرار ، فان سلطتها الحقيقية وتأثيرها المرعب لم يكتملا الا بعد ان

عينت ايزابيلا توماس دى توركيمادة (Tomas de Torquemada) في منصب المفتش العام (Inquisidor General) سنة ١٤٨٣. واذا صدقنا قول هرناندو ديل بلغار،(Hernando del pulgar) كاتب ايزابيلا،بان توركيمادة كان ينحدر من اصل يهودى فقد تكون هناك حقيقة في قول البعض الأخر بان هذا المفتش العام بطش بالمتنصرين اليهود لكي ينفي صلته الماضية بهم . وايا كان الصواب فان توركيمادة باشر عمله بجدية كبيرة ، وحماس منقطع النظير واخذ وعماله يحولون الى المحاكم المدنية الفوج تلو الاخر من الهراطقة اليهود وتأمر تلك المحاكم بحرقهم أحياء او مصادرة اموالهم او اجبارهم على ارتداء ثوب العار (Sanbenito) وبجملة أخرى من العقوبات . وبنهاية فترة السنوات الخمس عشرة التي احتل توركيمادة فيها منصبه ، قدر عدد اليهود المتنصرين الذين احرقوا احياء بين ٨٫٨٠٠ و١٠٫٠٠٠ شخص ، بينما قدر عدد الذين تلقوا عقوبات اخف بحوالي ٩٦٫٥٠٠ شخص . وحملة توركيمادة لم تقتصر على من كان يعتقد انهم من الهراطقة،اذ ان قناعته بوجود صلة قوية بين استمرار الهرطقة واليهودية كانت تزداد مع كل حالة تقدم الى محاكم التفتيش . ولذا بدأ حملة عامة ضد اليهودية كدين وحضارة،واحرق سنة ١٤٩٠ أعدادا كبيرة من كتبهم كمقدمة لعملية احراق ضخمة جرت في مدينة شلمنقة . ويقال ان عدد المخطوطات اليهودية التي احترقت يومها تعدت ستة الآف مخطوطة كانت جل ماقدمه الفكر اليهودى ابان حكم الأندلسيين . وحين وجد توركيمادة ان كل هذه الأعمال لاتكفي،اخذ يحث ايزابيلا على طرد جميع اليهود من قشتالة مالم يتنصروا . ولكنها لم تستجب لطلبه الا بعد استسلام غرناطة لانها كانت بحاجة الى الاموال التي قدمها مولون يهود مثل ابراهام سنيور لحرب المسلمين في غرناطة ، ولم تكن واثقة من ان البابا انوصان الثامن سيجدد الارادة البابوية الخاصة بتحصيل الضرائب لتمويل الحرب . ولكن بعد استسلام غرناطة في الثاني من اول اشهر سنة ١٤٩٢ قررت ايزابيلا الإقدام على الخطوة الأخيرة لانهاء مشكلة اليهود بعد انهاء اخر ممالك الاسلام في شبه جزيرة ايبرية ، واصدرت في الثلاثين من آذار من السنة ذاتها مرسوما يقضى بطرد جميع اليهود الذين اختارون البقاء على دينهم خلال مدة اقصاها أربعة اشهر .

ومع أن ترحيل اليهود لم يستكمل الا بعد فترة طويلة من انتهاء المهلة المحددة في المرسوم ، فان كثيرا من اليهود اختاروا التنصر وقدم بعض هؤلاء مع غير هم من اليهود المتنصرين القدامى قسما لابأس به من ضحايا محاكم التفتيش.لأن وفاة توركيمادة سنة ١٤٩٨ لم تخفف من حدة الحملة ضد الهراطقة فاستمرت في عهد خليفته ديغو دى ديثا (Diego de Deza / ١٤٤٣ - ١٥٢٣) الذى كان مسؤولا عن احراق حوالي ٢٫٥٠٠ شخص وانزال عقوبات مختلفة بحق حوالى ٣٥٫٠٠٠ شخص آخر ومصادرة أموال الكثيرين وممتلكاتهم خلال فترة توليه هذا المنصب . واضاف ديثا الكثير الى ماورثه عن معلمه توركيمادة ولكنه بقى صغيرا بالمقارنة،ورغم انه كان من بين اول القشتاليين الذين حاولوا عزل البلاد عن الافكار الجديدة في الدول الأخرى،وعمل على اقناع ايزابيلا سنة ١٥٠٢ بمنع طباعة الكتب او استيرادها الا بموجب ترخيص خاص بعد أن كان استيراد الكتب يخضع لضريبة سميت« القبول » (Alcavala) تساوى عشرة بالمئة من قيمة الكتب . وفي عهده ايضا استصدر القانون الخاص باعدام أى يهودى مطرود يعود الى قشتالة باسم جديد .

ولم يكن في مقدور الممالك الأخرى في شبه جزيرة ايبرية الاستمرار في انتهاج سياسات دينية مخالفة لقشتالة. فاصر فرناندو الخامس على اقامة محكمة للتفتيش في برشلونة رغم المعارضة الشديدة التي وصلت اوجها باغتيال المفتش العام بدرو دو اربويس ، واضطرت البرتغال الى الاستجابة لضغط قشتالة بطرد اليهود فامرت بذلك سنة ١٤٩٦ . وهناك تضارب في عدد اليهود الذين تركوا قشتالة في آخر القرن الخامس عشر وبداية القرن الذى اعقبه. وبعض التقديرات تضعه بين ١٢٠,٠٠٠ و ١٥٠,٠٠٠ شخص ، بالاضافة الى يهود آخرين فروا من ارغون بعد تأسيس محكمة التفتيش هناك سنة ١٤٨٧ ، ويهود متنصرين اختاروا الرحيل مع اليهود الآخرين وانطلقوا في عدة محاور الى دول الشمال الأفريقي وايطاليا وليتوانيا وغيرها من المناطق .

واستمر اليهود المتنصرين في تقديم ضحايا الى محاكم التفتيش ، ولكن الاهتمام الأكبر انصب على الأندلسيين فشارك ديثا في اضطهادهم ثم افسح المجال سنة ١٥٠٧ لخليفته زمنيز لتولي منصب المفتش العام . وكما اشتهر توركيمادة بانه مضطهد اليهود فان الأخير اشتهر بوصفه مضطهد الأندلسيين رغم أن تحركه لضرب الأندلسيين بدأ قبل ثماني سنوات من شغل منصب المفتش العام في وقت نشطت فيه هذه المؤسسة الدينية لمساعدة قشتالة على بناء الامبراطورية .

٤ – الأندلسيون ومحاكم التفتيش

طرد اليهود من قشتالة وضع نهاية لمشكلة يهودية افرزتها موجة الاضطهاد الديني التي تولدت خلال سعي البابوية المحافظة على نقاء الكاثوليكية . وهذا الدافع الروحي الذى كمن وراء مرسوم الطرد الذى اصدرته ايزابيلا سنة ١٤٩٢ ، لم يستطع طمس معالم دوافع اقتصادية واجتماعية أخرى تمثلت في اعفاء الخزانة الملكية من اعباء تسديد قسم كبير من الديون التي قدمها الممولون اليهود لقهر غرناطة ، ومن تأمين دخل اضافي جاء عن طريق الأموال والعقارات التي صادرتها الدولة من ضحايا محاكم التفتيش لاسيما وأن عددا منهم كان يتمتع بثروات طائلة صبت في الخزانة في وقت ضيق سببه طول الحرب مع مملكة غرناطة .

وعندما رفعت السلطة الملكية حمايتها عن اليهود واليهود المتنصرين ، فانها بذلك ازالت اية عوائق تقف في طريق عمل محاكم التفتيش التي كانت اكثر من مستعدة لاثبات قدرتها على تصحيح « الاعوجاج » وقد تسلحت بعمال متحمسين لاعلاء راية الكاثوليكية مهما كان الثمن ، وبتأييد الذين احتفلوا بالقضاء على اخر الممالك الإسلامية ، وجددوا احتفالهم بالتخلص من اليهود . وفي جميع هذه الحالات كان امام اليهود حلان : التنصر مع مايمكن ان يرافق ذلك من التعرض لجلسات عمال محاكم التفتيش في اية لحظة ، او الرحيل والبداية من جديد في وسط مختلف . اما المقاومة فلم تكن واردة على الاطلاق لأن عدد اليهود لم يكن يسمح بنجاح اية مقاومة ، ولان تجمعهم في الأحياء المخصصة لهم جعل حصارهم والقضاء عليهم عملية سهلة نسبيا .

ولو توفرت ظروف مشابهة انطبقت على الأندلسيين في قشتالة فلربما آل مصيرهم الى ماانتهى اليه مصير اليهود منذ السنة الأولى لاستسلام غرناطة . ولكن اهل غرناطة كانوا يعدون اكثر من مليون نسمة في المملكة وحدها.وكانت اسلحتهم الفردية ماتزال بحوزتهم ، وكانت روح الثورة ماتزال تعتمل في صدورهم يوم رفع الصليب الفضي فوق برج الطلائع على قصبة الحمراء.وكانوا مايزالون على تنظيمهم القتالي السابق ، ولم يكن معظمهم بحاجة الى سبب قوى لاعلان العصيان المدني على ايزابيلا وزوجها فرناندو الخامس . اضافة الى ذلك كان الغرناطيون يملكون معاهدة التسليم مع ايزابيلا ببنودها السبعة والستين(١) ، ولم تكن ايزابيلا لترضى،في ساعة صعودها بين ملوك اوروبة،بان تتهم بخرق معاهدة التسليم ولما يجف حبر توقيعها بعد . الا أن تعصبها غلب عليها بعد تردد ، واجج هذا التعصب اخفاق جميع المحاولات التي بذلها هرناندو طلبيرة،رئيس اساقفة غرناطة،وغيرو لاستمالة الأندلسيين وتنصيرهم ، وبات من الواضح ان الصدام مع الأندلسيين لابد وواقع إن آجلا او عاجلا . واختارت ايزابيلا الصدام العاجل عندما امرت الكردينال زمنيز بالتوجه الى غرناطة واطلقت يديه في حرية التصرف لتنصير المسلمين الأندلسيين . وامام اصرار زمنيز « على تطهير ارواح هؤلاء الكفار رغبوا ام لم يرغبوا »(٢) وقع الصدام الذى سعت اليه ايزابيلا ، واندلعت الثورة الأندلسية الأولى في تشرين الثاني من سنة ١٤٩٩ .

وخلال سنتين من المعارك بات من الواضح ان الحل الذى ارتأته ايزابيلا لليهود لايمكن في تلك الأحوال تطبيقه على الأندلسيين ، ولكنها قدمت لهم الخيار الذى قدمته لليهود قبل عشر سنوات عندما اصدرت في شباط عام ١٥٠٢ المرسوم الذى وضع الاندلسيين امام حلي الهجرة او التنصر . الا ان شروط الترحيل وقصر المدة التي حددها المرسوم مهلة اخيرة (وهي اقل من ثلاثة اشهر) كان يعني ان اكثر من نصف مليون اندلسي اصبحوا منصرين بموجب المرسوم دون استشارة او سؤال،وربما كان هذا

---

(١) يذكر صاحب « نفح الطيب » ان الشروط عدت ٦٧ ، بينما يشير محمد عبد الله عنان الى انها ٥٦ كما وردت في النص القشتالي (انظر : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥٠ – ٢٥٢) . ويجمل المقرى الشروط بقوله :،،...تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وابقاء الناس في اماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ،... واقامة شريعتهم على ماكانت ولايحكم احد عليهم الا بشريعتهم ، وان تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لايدخل النصارى دار مسلم ولايغصبوا احدا ، وأن لايولى على المسلمين الا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل ، وان يفتك جميع من اسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصا اعيانا نص عليهم ، ومن هرب من اسارى المسلمين ودخل غرناطة لاسبيل عليه لمالكه ولاسواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن اراد الجواز للعدوة لايمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لايلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء ، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لايقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وان من تنصر من المسلمين يوقف اياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين واخر من النصارى ، فان ابى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما اراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا ايام الحرب ، ولايؤخذ منه ماسلب من النصارى ايام العداوة ، ولايكلف المسلم بضيافة اجناد النصارى ولايسفر لجهة من الجهات ، ولايزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولايطلع نصراني للسور ، ولايتطلع على دور المسلمين ، ولايدخل مسجدا من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله ، ولايجعل علامة كما يجعل اليهود واهل الدجن (+) ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ، وامثال هذا مما تركنا ذكره،من «نفح الطيب »، الجزء الرابع ، ص ٥٢٥ – ٥٢٦ ، وهو يرد أيضا في « نبذة العصر » ، ص٤١ ، وفي الجزء الأول من « ازهار الرياض » ص٦٧

(+) وكانت دائرة صفراء يحملها اليهود على صدورهم تميزهم . وكانت كذلك المحاكم تجبر من تتهمهم محاكم التفتيش بالهرطقة الخفيفة بارتداء ثوب أصفر طول النهار ' اطلق عليه اسم « ثوب العار » مدة معينة قد تصل الى سنوات طبقا للجرم المسند للمتهم .

(٢) Lane-Poole, Stanley. The Moors in Spain, P 270.

ماارادت ايزابيلا القيام به فعلا . فهي اجبرت حوالي ٣٠٠,٠٠٠ أندلسي على الرحيل خلال المهلة ، ومهدت السبيل لمحاكم التفتيش كي تقوم بما عجزت عنه الجيوش من خلال ارهاب الأندلسيين المنصرين (الموارِكة) عندما ازالت عن الأندلسيين اسلامهم طبقا للرسوم ، وجعلتهم تابعين للكنيسة ولو من الناحية النظرية . ومع ذلك وقفت جذوات الثورة الأولى، التي لم تخمد بعد، حاجزا أمام دخول محاكم التفتيش إلى غرناطة . وماتت ايزابيلا بعد سنتين من اصدار مرسومها المذكور دون أن تتحقق رغبتها كاملة في القضاء على كل من لايقبل بالكاثوليكية، أو طرده من قشتالة ذليلا، ولإثبات بان لقب « العاهلة الكاثوليكية » الذي منحه لها البابا اسبغ عليها عن استحقاق كامل . ولكن موت ايزابيلا لم يمت العصبية القشتالية ، وكل ماحدث حتى ذلك الوقت هو اخفاق السلطة والكنيسة في تطبيق الحل اليهودي على الأندلسيين ، لأن مشكلة الأندلسيين بدأت عندما كانت المشكلة اليهودية تنتمي إلى الماضي .

أ – الأندلسيون الموارِكة والكارلوسية :

وفاة ايزابيلا اطلقت يد فرناندو الخامس لتحقيق طموحاته في اوروبة واغفال وصية زوجته بمتابعة الحرب ضد « الكفار » في المغرب ، بينما انشغل حفيده كارلوس الخامس ببناء امبراطوريته الضخمة بالاعتماد على جيوشه الجرارة ، ودون الاهتمام كثيرا بنشاط محاكم التفتيش لأنه نشأ في بيئة غير قشتالية ولم يكن يهمه امر سيادة الكاثوليكية طالما ان سيادته على ممالكه المتعددة كاملة وشاملة . الا ان الكنيسة القشتالية ومحاكم التفتيش تابعتا نشاطهما بغض النظر عن المصالح السياسية التي وجهت نشاط فرناندو او كارلوس الخامس ، ولم يكن أي من الاثنين يشك في أن الكنيسة تسير يدا بيد مع السلطة ولا تشكل دولة ضمن دولة ، ولذا فان ماتقوم به سيخدم الملكية في نهاية المطاف .

وكما أن ايزابيلا وضعت كل ثقتها في توركيمادة لتخليصها من المشكلة اليهودية ، فانها اسندت الى الكردينال زمنيز مهمة انهاء المشكلة الأندلسية ، واضطرت الى تأجيل خططها الخاصة بوضع نهاية سريعة لتلك المشكلة نتيجة الثورة الأندلسية الأولى . وفي الفترة الواقعة بين وفاة توركيمادة سنة ١٤٩٨ وتسلم زمنيز منصب المفتش العام لمحاكم التفتيش سنة ١٥٠٧ ، مرت تسع سنوات شغل خلالها المنصب المهم هذا المتعصب دى ديثا فأكمل مابدأه بتصفية اخر جيوب « الهرطقة » اليهودية ، واغلق ابواب قشتالة على أية افكار جديدة . وتوفر له بعد كل هذا الوقت لتصفية حساباته القديمة مع هرناندو طلبيرة اول رئيس اساقفة في غرناطة لاختلافه معه في كيفية معالجة المسألة الأندلسية ، واتهمه بممارسة الطقوس اليهودية . وثبت فيما بعد بطلان الاتهام ولكن طلبيرة دفع ثمن « تساهلة » مع الأندلسيين ولم يتمتع بعد ذلك بحريته الكاملة . ووقوع دى ديثا بين توركيمادة وزمنيز طمس قيمته التاريخية وجعله ظلا لسلفه ومعلمه ، الا أن زمنيز اثبت حتى قبل تسلم منصب المفتش العام بانه اكثر من متحمس للكاثوليكية. ولذا كانت هذه الشخصية الثانية في الأهمية بعد البابا ذاته ، وانتقلت محاكم التفتيش في عهده الى قمة جديدة. اذ قسم البلاد الى عشر مقاطعات شكل في كل منها محكمة ، ووضع على رأسها مفتشا من

اختياره . وتعاظم طموحه فراح يفكر في احتلال الأراضي المقدسة في المشرق والاستيلاء على البرتغال ، وبسط نفوذ قشتالة والكاثوليكية في كل مكان . ودعم قوله بالفعل حين اشرف على تنظيم حملة سنة ١٥٠٩ استهدفت مدينة وهران الجزائرية فذبح من أهلها مابين خمسة آلاف وثمانية آلاف شخص ، واتبع زمنيز ذلك باقامة اول محكمة تفتيش هناك سنة ١٥١٥ فكانت أول محكمة من نوعها على ارض اسلامية . ومع ذلك فان الخطر الذى عمل زمنيز وغيره لرده لم يأت من المغرب ولا من الأندلسيين المواركة بل من نصارى آخرين مثله . فقبل ثمانية أيام من وفاة زمنيز،سنة ١٥١٧،علق مارتن لوثر اطروحاته الدينية على بوابة كنيسة القلعة في مدينة فيتنبرغ الألمانية فكان ذلك ايذانا ببداية أعظم حركة تحد للكاثوليكية، واندلاع الصراع الديني في اوروبة .

وكان من الطبيعي اتهام لوثر بالهرطقة لمطالبته ادخال الاصلاح الى الكنيسة ، ولكنه دافع عن آرائه بحماس في محفل فورمز الذى عقد سنة ١٥٢١ برئاسة كارلوس الخامس بعد أن اعطاه كارلوس الأمان . وكانت تلك خطوة ندم عليها كارلوس الخامس فيما بعد ، غير أن حركة الاصلاح كانت إنتشرت وأخذت تهدد سلطة الامبراطور في المانيا وهولندا وحيال انتشار حركة الأصلاح اوعز كارلوس الى محاكم التفتيش للعمل على سحق الهراطقة في هولندا ، ويقال ان كارلوس ومحاكم تفتيشه كانا مسؤولين عن قتل ما بين ٥٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ هولندى عندما قرر التصومع في دير يوست سنة ١٥٥٦ قبل سنتين من وفاته . وفي ظروف انتشار الحركة البروتستانتية (الاحتجاج او التذمر) برز موضوع مضايقة السلطة للأندلسيين ، وأشارت اللجنة المشكلة لبحث تلك المضايقات بتحويل اهتمام الكنيسة إلى غرناطة على الفور ، وحظي الاقتراح على موافقة كارلوس واسست اول محكمة للتفتيش في المدينة سنة ١٥٢٦ .

كان قدر اندلسيي غرناطة أن يعيشوا في تلك الأيام ارهاب عمال محاكم التفتيش بما في ذلك طرق أبواب النيام في الفجر وسوق المتهمين الى زنازن التحقيق والخضوع للتعذيب . وكانت لوائح الممنوعات ترد تباعا بعضها يشدد على ماجاء في لوائح سابقة ، وبعضها الآخر يحتوى على الجديد والغريب : حظر الختان ، حظر الوقوف تجاه القبلة ، حظر الاستحمام والاغتسال ، حظر طي الايدى بالحناء ، حظر ذبح الماشية على الطريقة الاسلامية ، حظر التكلم بالعربية ، حظر ارتداء الملابس العربية ، عدم التواني عن اكل لحم الميتة من الحيوانات ، وغيرها من غرائب المحظورات . ولما وجدت محكمة تفتيش غرناطة أن هناك فرصة لمخالفة هذه اللوائح ، عمدت الى اثبات تهديدها بالفعل ونقلت الريح الى خياشيم الأندلسيين في أحد أيام.شهر آيار سنة ١٥٢٩ رائحة جسدى اثنين من أهلهم حُرقا مع مجموعة من ضحايا محكمة التفتيش في أول احتفال ديني شهدته المدينة .(١)

---

(١) ادرج وليم هاريس روول (Willian Harris Rule) في المجلد الأول من كتابه « تاريخ محاكم التفتيش » (History of the Inquisition) لائحة بضحايا الاحتفال المشار اليه تضمنت : منافق ملحد ، مزور جوازات مرور باسم محاكم التفتيش ، ثلاثة رجال تزوجوا من اكثر من امرأة واحدة ، ثلاث ساحرت ، ٣٣ يهوديا متنصرا ، ٢٢ يهودية متنصرة ، أندلسيين مسلمين ، سبعة تماثيل شخصية ليهود متنصرين تمكنوا من الفرار ، عشرة تماثيل شخصية ليهوديات متنصرات فررن من محاكم التفتيش ، تمثال شخصي لأندلسي مسلم فر من وجه عمال محاكم التفتيش .

حيال هذه التطورات الأخيرة لجأ الأندلسيون الى كارلوس الخامس يتعهدون له بالطاعة ، ويعدونه بدفع مبلغ ٤٠٠٠٠ ,١٠٠ دوقة ذهبية في السنة لقاء رفع بعض الضغوط عنهم وابعاد عمال محاكم التفتيش عن التدخل بشؤون الأندلسيين . ووافق كارلوس على العرض لعدة أسباب منها : محاولته تهدئة الأحوال في الجنوب في وقت اندلعت فيه الاضطرابات في المانيا وهولندا وبدأت تهدد سلطته على ممالكه هناك،ولذا كان بحاجة لتوجيه كل اهتمامه واهتمام محاكم التفتيش للقضاء على « المراطقة » شمال اوروبة . ثم ان قيام محاكم التفتيش بما يفترض أن تقوم به كان يعني احراق جميع الأندلسيين لأن الكنيسة كانت تعرف بان تنصرهم شكلي لاقيمة له بالنسبة لهم . ومع ذلك كانت محكمة تفتيش غرناطة بحاجة لاثبات وجودها والبرهنة على أن الأندلسيين ليسوا خارج نطاق سلطتها . ولكن الحذر كان الطابع العام لتصرفاتها في تلك الفترة لأن الأندلسيين في الجنوب كانوا مايزالون يشكلون الأقلية الوحيدة التي تميزت بشخصية واضحة ، وبالقدرة على الثورة ثانية اذا تطلب الأمر . يضاف الى ذلك أن معظم المزارعين الأندلسيين كانوا يعملون لحساب النبلاء أو الكنيسة،وكان من مصلحة الطرفين تجنب دفع الوضع الى درجة يصعب معه احتمال الأندلسيين لأبعاده . هذه الأسباب ادت الى استمرار سلام نسبي مدة ٤٠ سنة تغير الوضع اثرها . وخلال هذه الفترة تمكن كارلوس الخامس من تحقيق الانتصار على البروتستانت وانصارهم في معركة مهلبرغ(Mühlberg) سنة ١٥٤٧ ، ولكنه اضطر الى فرار مهين سنة ١٥٥٢،واندلعت الحرب في العام ذاته مع فرنسا التي ايدت أمراء البروتستانت مقابل الحصول على ثلاث من المناطق الألمانية المحاذية لفرنسا . واستمرت هذه الحرب خمس سنوات دون ان يتمكن كارلوس الخامس من استعادتها فيئس ودخل الدير ومات سنة ١٥٥٨ .

ب – الأندلسيون ومحاكم التفتيش في عهد فيليب الثاني:

ورث فيليب الثاني عن ابيه امبراطورية شاسعة ، وورث عن ايزابيلا تعصبها الكاثوليكي ، وعن توركيمادة تقشفه الشديد ووجد في شخص اسبينوزا اداة طيعة وكنسيا متعصبا لايقل في حماسه عن المعلم الأول توركيمادة . وهذا الملك الذى اخذ على عاتقه استكمال حرب ابيه ضد البروتستانت ، اصيب بلطمة قوية حين اكتشف عمال محاكم التفتيش خليتين للبروتستانت في اشبيلية وبلد الوليد في اول سنتي حكمه . ولذا فان حملته للقضاء على البروتستانتية تحولت الى نوع من الدفاع عن النفس ، ثم الى حملة مسعورة شنها ضد البروتستانت الهولنديين بواسطة قائده دوق البة وعمال محاكم التفتيش . وذكر ان دوق البة تبجح لدى استدعائه إلى قشتالة سنة ١٥٧٣ بأنه سبب وفاة ١٨٫١٠٠ هولندى واجبر ٦٠ ألف شخص على الفرار من البلاد .

استمرت هذه الحملة ضد جميع البروتستانت حتى موته وتابعها من خلفه خارج حدود قشتالة . الا ان الحرب التي شنها فيليب الثاني في جنوب قشتالة كانت مع الاندلسيين واستمرت ثلاث سنوات انتهت بنفي الغرناطيين الى مناطق مختلفة من البلاد ، واعلان حرب ابادة شاملة ضد كل اندلسي لايمتثل للسطلة او الكنيسة (انظر الفصل الثالث) . وبينما اسند فيليب الثاني الى دون خوان النمسوى قيادة

جيوش ابادة الثوار الأندلسيين ، فانه اوكل الى المفتش العام اسبينوزا مهمة تسليط عماله على الأندلسيين المواركة ، والبطش بكل من يشك بامره . وهكذا اصدر اسبينوزا أوامره الى محاكم التفتيش بضرورة متابعة اقل الشبهات وأوهى الوشايات بالأندلسيين . واصدر المفتش العام ارشادات خاصة بالأندلسيين،اذ كان يكفي ان يتقدم شاهد واحد لاتهام اندلسي لكي يصار الى تعذيبه او معاقبته بالعمل ثلاث سنوات في السفن،في حين كان اتهام شاهد واحد لشخص غير اندلسي لايكفي . واذا حدث ولم يعترف الأندلسيون لعمال المحاكم بالجرم المسند اليهم فان اقل العقوبات التي كانت تطبق بحقهم هي الجلد او دفع الغرامات المالية الكبيرة .

ولاتتوفر أية احصاءات موثقة عن عدد الاندلسيين الذين اخضعوا لممارسات عمال التفتيش في تلك الحقبة من تاريخهم،الا أنه من المعروف أن الأندلسيين كانوا يشكلون قسما كبيرا من ضحايا محاكم التفتيش ، وكانوا اكثر الاقليات اضطهاداً سواء من جانب السلطات المدنية أو الكنسية ومحاكم التفتيش . وهناك وثيقة عن سنة ١٥٩٤ تشير الى ان عمال محاكم الفتيش إعتقلوا ٩٦ اندلسيا اخضعوا للتعذيب،الا ان ٥٣ منهم لم يعترفوا باى من التهم التى وجهت اليهم ، بينما صدرت احكام مختلفة على الباقين،لابد وان يكون من بينها الحرق . وعثر في طليطلة على وثيقة أخرى تبين أن عدد الذين اخضعوا للتعذيب في زنازن محكمة التفتيش هناك في الفترة الواقعة بين سنتي ١٥٧٥ و ١٦١٠ بلغ ٤١١ شخصا منهم ١٧٤ شخصا اتهمتهم المحكمة بممارسة الشعائر اليهودية ، و٤٧ شخصا اتهموا بممارسة البروتستانتية،الا ان عدد الأندلسيين المواركة كان ١٩٠ شخصا وهي نسبة لا تقل عن النصف كثيرا ، وربما كانت نسبة يمكن تطبيقها على جميع ضحايا محاكم التفتيش في تلك الفترة .

والرغبة المحمومة في اجتذاذ كل ما كانت قشتالة تعتقد انه هرطقة مهما كان نوعها لم تكن مقصورة على فيليب الثاني او محاكم التفتيش.اذ لم يكن في امكان محاكم التفتيش ان تستمر فى عملها اكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن دون تعاون القشتاليين ورضائهم ؛ لان العلاقة بين القشتاليين وكنيستهم كانت ، وماتزال الى اليوم ، علاقة متينة جدا . ولايقل فضل الكنيسة في اعلاء اسم اسبانيا عن فضل زعمائها،ولذا كان قشتالي القرن السادس عشر جنديا او كهنوتيا او تابعا لهذا او ذاك،حتى ان عدد الأديرة قدر بحوالي ١٨,٠٠٠ دير للرهبان والراهبات ، وربما وصل عدد الكهنوتيين في ذلك العصر الى ٢٠٠,٠٠٠ شخص بين حوالي ثمانية ملايين نسمة . وهذا العدد الضخم من رجال الدين ، والعلاقة الحميمة بين القشتالي وكنيسته ، أهلا الكنيسة لكي تحدد لرعيتها مايتوجب ان يرغبوه ، وما يتوجب عليهم ان ينبذوه مثل : « كل الأشخاص الذين يحملون معتقدات الهرطقة والشك والخطأ ... بسيدنا المسيح (عليه السلام) ودينا الكاثوليكي الحنيف ... وخاصة أولئك الذين مايزالون على ارتباط بقوانين موسى او اتباع محمد (ﷺ) او لوثر،او من يتحدثون عنهم بخير، وأيضاً جميع أولئك الذين قرأوا ، او بين أيديهم ، كتبا الفقها الكتاب الهراطقة المدرجة اسماؤهم في قائمة الكتب الممنوعة التي عممها المكتب المقدس (أى محاكم التفتيش) » .(١)

---

(١) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Middle Ages, (London, 1970), P124.

إحدى وثائق محاكم التفتيش وهي تتضمن مايزعم أنه اعترافات مسلم معتقل .

ج - الأندلسيون المواركة ومحاكم التفتيش بعد النفي :

اصرت حكومة فيليب الثالث على نفي الأندلسيين لتحقيق مكسب سياسي يغطي مهانة ابرام هدنة مع الهولنديين « المراطقة » والاستجابة لمطلب جماهيري قشتالي تطور مع الحاجة لأى انتصار يرفع من المعنويات الهابطة ، ويتوج بحثا طويلا عن كبش فداء لتردى حالة الامبراطورية . أما الكنيسة القشتالية فأيدت قرار النفي لأنها يأست بعد ١٠٧ سنوات من المحاولة المستمرة فى كسب غالبية الأندلسيين المواركة في صف الكاثوليكية والتخلي عن دينهم ودين أجدادهم . ولم يعد بامكان محاكم التفتيش متابعة « الهرطقة » الأندلسية الموركية لأن ذلك كان يعني سوق كل الأندلسيين الى زنازن محاكم التفتيش وكان ذلك مستحيلا . ونفي مئات الألوف من الأندلسيين المواركة لم يضع حدا « للمشكلة » الأندلسية في قشتالة، اذ بقيت هناك اعداد كبيرة جدا ؛ وكان الأندلسيون والافارقة يشكلون السواد الأعظم من العبيد في شبه جزيرة ايبرية بعد قرون من الاستعباد ، وحروب كثيرة خصصها الملوك لأسر المزيد من الأندلسيين

واجبارهم على النهوض باعباء خدمة مجتمع كرس نفسه للحرب والعبادة . اما حروب قشتالة فأوجدت المسوغ لاستبقاء العبيد عبيدا حتى ولو تنصروا ، واوقعت الكنيسة في تناقض واضح مع مبادئها وكأن ذلك لم يكن مهما طالما ان الطاعون والهجرة الى المستعمرات الجديدة في اميركا فرضا على قشتالة الاحتفاظ باكبر قدر من العبيد وابقائهم كذلك!.

وتنقصنا الوثائق عن عدد الاندلسيين المواركة الذين تعرضوا لممارسات محاكم التفتيش بعد عملية النفي التي انتهت سنة ١٦١٥ ، ولكن اشارة هنا ورقما هناك يوحي بان المواركة كانوا اهم ضحايا المحاكم حتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . واحدى وثائق سنة ١٧٢٨ تبين ان ٧٣ اندلسيا احرقوا في احتفالين دينيين جرى الأول منهما في شهر آيار واحرق فيه ٤٥ أندلسيا الى جانب عدد آخر من المتهمين بالهرطقة ، وكان الثاني في شهر تشرين الاول حين تعرض ٢٨ أندلسيا للحرق أحياء. وفي الحالتين صدرت احكام اقل على الأندلسيين الآخرين ولكن لاتتوفر تفاصيل عن ذلك . وعندما اعتقدت محاكم التفتيش انها باتت تسيطر على الوضع بعد ان الجمت الأندلسيين المواركة ، فوجىء عمال محاكم التفتيش بالعثور على منزل سنة ١٧٦٩ كان بعض الأندلسيين يستخدمونه كمسجد للصلاة ، ولكن لاتتوفر أية معلومات عما حدث للأندلسيين الذين اعتقلتهم المحاكم اثر ذلك . واعتبارا من السنة التالية لم تعد الوثائق القليلة التي عثر عليها تحتوى على ضحايا أندلسيين موراكة إما لان فيض الضحايا الأندلسيين نضب تماما ، وإما لأن التفاصيل الخاصة بضحايا محاكم التفتيش لم تتوفر بكاملها . والوثيقة المعروفة باسم ليا (Lea) من ارشيف مدينة بلنسية تشمل الفترة الواقعة بين سنة ١٧٨٠ و ١٨٢٠ وهي ، كما يبدو ، تؤكد هذه الحقيقة .

د – نهاية محاكم التفتيش :

سارت محاكم التفتيش يدا بيد مع السلطة لبناء أسبانيا ، وكان من الطبيعي ان تنهار بانهيار اسبانيا . في بداية القرن التاسع عشر لم تكن لأسبانيا ممالكها الشاسعة في العالم الجديد ولم يكن لها موطىء قدم في الدول الأوروبية التي خضعت لسيطرتها فترة طويلة . كان همها الآن الحفاظ على كيانها ولكن حتى هذا لم يتوفر اذ بدأ الأسبان سنة ١٨٠٨ مايعرف عندهم باسم حرب الاستقلال ضد فرنسا بمساعدة الانجليز . وفي نهاية هذه الفترة كان هم عمال محاكم التفتيش النجاة بانفسهم وليس ملاحقة الهراطقة،ومع ذلك فقد تابعت المحاكم زحفها نحو النهاية واثبتت انها ماتزال تتمتع ببعض حياة . وفي سنة ١٨٠٨ كان عدد القضايا التي حقق فيها عمال المحاكم ٦٧ قضية ، وانخفض العدد في السنة التالية الى ٢٢،بينما شهدت سنة ١٨١٢ قضية واحدة . وفي سنة ١٨٢٦ حقق المفتشون مع مدرس اسباني شاب وانتهى التحقيق باحالته الى المحكمة المدنية التي امرت بحرقه حيا فكان آخر الضحايا المعروفين لمحاكم التفتيش .

كانت محاكم التفتيش تلفظ أخر أنفاسها في عالم تغير كثيرا عما كان عليه يوم قررت ايزابيلا انشاء محاكم التفتيش ، وفي فترة اصبحت السيادة فيها لفرنسا التي لعبت دورين متناقضين فيما يتعلق بقشتالة

فكانت في البداية اكبر سند لها في حربها الطويلة ضد الأندلسيين ، ثم اصبحت اعتبارا من نهاية القرن الخامس عشر ألد اعداء جارتها الجنوبية . وعندما كان الفرنسيون سادة أسبانيا عارضوا استمرار محاكم التفتيش وجاء أخر وصف لأعمال المحاكم منهم . اذ روى بعضهم انهم دخلوا قصر محكمة التفتيش في مدريد وصحبهم اهله في جولة سريعة ولكن الفرنسيين ساورهم الشك عندما لم يجدوا زنازن محكمة التفتيش التي سمعوا عنها الكثير . وخلال بحث الفرنسيين عن الزنازن سمعوا اصواتا واهية تنبعث من جوف الأرض ، فأمروا بنزع البلاط فاذا بالزنازن وغرف التحقيق في القبو . والرواية الفرنسية تقول ان الزوار عثروا على بعض الضحايا أحياء في الزنازن وكانوا يأكلون من لحم الضحايا الذين ماتوا قبل حين . وفي الرواية الفرنسية وصف دقيق لبعض ادوات التعذيب التي كانت مستخدمة ومن بينها تمثال العذراء الحديدية وهو عبارة عن جسد مجوف تربط اليه الضحية وتنطبق عليها ذراعان حديديتان مغطتان بالخناجر والمسامير وحيال تجدد الحملة على ممارسات محاكم التفتيش اضطرت أسبانيا إلى الغائها سنة ١٨٣٤ بعد ٣٥٦ عاما من تأسيسها .

والغيت محاكم التفتيش الا ان تركتها ماتزال قائمة . وفي صعودها وهبوطها كانت محاكم التفتيش سبيل نصرة الكاثوليكية على كل المذاهب المسيحية الأخرى التي مات اصحابها في سبيلها واستمرت الى اليوم ولكنها بقيت مذاهب الأقلية بالمقارنة مع الكاثوليكية(١) . أما وقد حملت قشتالة سيف البابوية واشرعته في كل مكان فقد كان عليها ان تستمر في حمل ذلك السيف الى ان هوت تحت ثقله . ومع ذلك فان قشتالة هي التي وفرت للكنيسة الرومية كل اتباعها في العالم الجديد . وحين فرضت عليهم نظاما واحدا مذهبا مسيحيا واحدا ، فانها بذلك أبعدت معظم دول اميركا اللاتينية عن المصير الذي آلت إليه دول كثيرة في عصر الاستعمار . وجنبت تلك الشعوب الحروب الدينية التي اجتاحت اوروبة وصنعت تاريخها الحديث واودت بحياة الملايين .

ولكن المحاكم كانت أيضا السبب في ذبح عشرات الألوف واحراق أعداد كبيرة من الضحايا في المانيا وهولندا ومناطق العالم الجديد ، ولم تنج منها الجزائر وقشتالة وغيرها من المناطق . وكما ان ايزابيلا وكارلوس الخامس وفيليب الثاني والثالث وغيرهم كانوا مسؤولين عن تدمير او نفي شعب اندلسي بكامله ، فان محاكم التفتيش كانت مسؤولة عن البطش بآلاف منهم ماتوا حرقا او عذبوا لأن دينهم كان يختلف عن دين عمال محاكم التفتيش . وربما كان أخطر ماحققته محاكم التفتيش هو تربية أجيال متتابعة على التعصب المقيت ، وعلى اعلاء شأن الكاثوليكية مهما كان الثمن ، والنظر الى كل الأديان والمذاهب الأخرى على أنها « هرطقة » يتوجب القضاء عليها وعلى اصحابها .(٢) ورغم كل هذا السواد تبقى بارقة أمل ؛ إذ يرد في

---

(١) يعد اتباع اللوثرية اليوم ٤٢ مليون نسمة ، ويعد اتباع الكنيسة الانجليكية (الانجليزية) ٥٠ مليون نسمة ، بينما يصل عدد اتباع الكنيسة الشرقية الى ١٣٣ مليون شخص . اما اتباع الكاثوليكية الرومية فيقدرون بحوالي ٨٠٣ ملايين شخص . انظر عدد مجلة التايم ، حزيران (٧) ، ١٩٨٢ ، ص ١٤ .

(٢) رفض القشتاليون اية مقابر تضم رفاتا غير رفات القشتاليين ، ولكن سمح للانجليز باقامة اول مقبرة بروتستانتية في مالقة سنة ١٨٣٠ بعد ان قاتل الانجليز الى جانب الاسبان ضد الفرنسيين . اما في الأزمان السابقة فكان المتوفون من اهل المذاهب الأخرى يدفنون تحت الرمال في المناطق التي يغمرها البحر عند المد ، الا ان ذلك أتوقف بعد ان اشتكى الصيادون من ان دفن هؤلاء عند البحر يلحق النجاسة بإقدامهم . انظر :
Spain, The Mainland, Benn, p 471.

مدخل كاتدرائية طليطلة التي كانت أصلاً جامعاً حوّله الفونصو السادس إلى كنيسة .

كتاب « الجزيرة العربية » ان اسبانياً يدعى بدية (M . Badhia) توجه الى مكة لأداء فريضة الحج سنة ١٨٠٧ ، اى بعد ٣٢٩ سنة من قيام محاكم التفتيش القشتالية .(١)

إن قراءة التاريخين الأندلسي والقشتالي ، بل وقراءة تاريخ كل الشعوب الأخرى ، تظهر أن العرب وحدهم كانوا قادرين على انشاء تلك الدولة التي تضم اتباع الديانات السماوية الثلاث . اثبتوا ذلك في الأندلس ، واثبتوه في مملكة غرناطة ، وظلوا اوفياء لهذا المبدأ حتى اليوم . اما تاريخ الأديان والعلاقات الدينية عند غيرهم فما هو في واقع الأمر الا تاريخ الحروب والاضطهاد .

(١) بدأ هذا الأسباني حجه في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٠٦ تحت اسم مستعار هو (على بك) ، وسجل مشاهداته خلال الحج ، وبذلك يكون ثاني اوروبي يزور الاراضي المقدسة بعد جوزيف بتس الذى اسلم بعد ان اسره الجزائريون اخر القرن السابع عشر .
انظر : Arabia, (London), 1825, P 220.

الفصل
السادس

التأثيرات الأندلسية في إسبانيا وأوروبة

١ - الأندلس بين الاحتلال والاسترجاع

بين بداية الفتح العربي للأندلس واستسلام غرناطة ٧٨١ سنة مسيحية (٨٠٥ هجرية) انتقلت السلطة خلالها من الأندلسيين الى مسيحيي الشمال على مراحل متعددة بدأت منذ السنوات الأولى للفتح ، ووجدت ارضيتها الصلبة في عهدى الامارة والخلافة ، وحققت أول نصر حقيقي لها يوم احتلال طليطلة قبل ان تصل الذروة بعد موقعة العقاب سنة ١٢١٢ . والفترة التي اعقبت تلك الهزيمة المروعة كانت عصر اكتساح الجزء الأكبر من الأندلس حتى اذا حلت سنة ١٢٦٦ كانت السلطة السياسية الإسلامية انحصرت في مملكة غرناطة وتقوضت تلك السلطة عندما استسلمت مدينة غرناطة أول سنة ١٤٩٢ . ولكن سقوط غرناطة لم يحمل نهاية الوجود الأندلسي باشكال أخرى اذ بقي الملايين منهم في المناطق الجنوبية والشرقية من شبه جزيرة ايبرية الى ان قرر فيليب الثالث نفيهم سنة ١٦٠٩ ، باستثناء الأعداد التي سمح لها بالبقاء وأولئك الأندلسيين الذين استعبدتهم الممالك الايبرية المسيحية وامتزجوا فيما بعد بالسكان وطمست شخصيتهم الى الأبد الا فيما ندر.(١)

وخلال فترة القرون الثمانية تلك تغير التركيب السكاني والسياسي والديني لشبه جزيرة ايبرية من النصرانية الى الاسلام اولا ، ثم من الاسلام الى النصرانية مع وجود الفارق الكبير بين عوامل التغير في الحالتين والوسائل التي اتبعها العرب المسلمون والنصارى القشتاليون والاوروبيون لاقناع السكان بدخول الاسلام ، او لاجبارهم على التنصر سواء شمل ذلك المسلمين أو اليهود . وفي هذا التغير كانت الأندلس هي الدولة الرئيسية الوحيدة التي خضعت لسلطان الاسلام تلك الفترة الطويلة من الزمن وعادت الى حظيرة النصرانية بعد حروب استمرت متقطعة اكثر من سبعة قرون . والنظر الى التاريخ الأندلسي لايسوغ لبعض المؤرخين القول بان مسيحيي الشمال الأيبرى خاضوا حربا على مدى سبعة قرون لاستعادة الأندلس من أيدى المسلمين فكانت حرب « الاستعادة » أو « الاسترجاع » هَمّ ملوك الشمال الى أن تمكنوا من هدفهم في نهاية المطاف ، وبذلك انجزت ايزابيلا مابدأه بلايو (بلاى) في بداية القرن الثامن الميلادى .

---

(١) تسكن بعض القرى القريبة من مدينة اشترقة جماعات تقول ان اصلها من قبائل بربرية جاءت الأندلس مع جيش طارق بن زياد وسكنت تلك الاصقاع منذ ذلك الوقت . وتحتفظ هذه الجماعات الى اليوم بمميزات تختلف عن سكان تلك المناطق من الاسبان سواء من ناحية الزى او الكلام او العادات وهي تصر على تميزها وترفض الاختلاط باسبان الشمال . ويعتقد ان اجداد تلك الجماعات كانوا يسيطرون على حركة النقل بواسطة البغال في المناطق الشمالية الغربية من اسبانيا ، ومن الممكن اليوم المرور على قوافل صغيرة تحمل البضائع في المناطق الوعرة هناك

وفي كتب التاريخ اشارات كثيرة الى ان ملوك الشمال سعوا لاستعادة الأندلس من المسلمين[1] ، الا أن فكرة « حرب الاسترجاع » ، وليدة الحركة الرومانسية التي سيطرت على المثقفين الأسبان في نهاية القرن التاسع عشر في مسعاهم لحمل الأمة الاسبانية على النهوض من كبوتها الطويلة ، وتذكيرهم بماض فسروه بالطريقة التي وجدوها مناسبة لزرق الحماس في النفوس الاسبانية الهابطة نتيجة تقاسم القوى الرئيسية في تلك الفترة خيرات العالم وقهرها لأسبانيا . والاسس الواهية التي استند اليها أصحاب تلك المدرسة تحطمت خلال سنتين وبرز مكانها تفسير جديد تبناه عدد من المؤرخين[2] المشهورين ينفي فكرة « الاسترجاع » ويستند الى القول ان المسلمين والنصارى واليهود كانوا يشكلون مجتمعا اسبانيا واحدا ربطته وحدة الدم واللغة ، ولم يلعب التعصب الديني دوره المعروف إلا بعد أن أدخلته عناصر غير « اسبانية » الى شبه الجزيرة اثر سقوط طليطلة سواء جاءت العناصر الجديدة من أفريقيا أو من فرنسا . أم فكرة « استرجاع » الاندلس فكانت رغبة شمالية لاستعادة ملك القوط الغربيين من الاندلسيين .

وهذا التفسير مقبول اليوم لدى كثير من المؤرخين المحدثين بعد أن نمت الحاجة لاعادة النظر في كتابات اوكامبو (Ocampo/١٥٤٣) وماريانا (Mariana/١٦٠١) وكوندى (Condê/١٨١٠) وكانت المصادر الرئيسية لدراسة التاريخ الاسباني / الأندلسي . ولاشك في أن اعمال دوزي ساهمت الى حد كبير في إعادة النظر الى طبيعة الوجود الاندلسي في ايبرية[3] ولعب مؤرخون انجليز مثل لين بول (Lane-Poole) وتريند (J.B.Trend) وواتس (H.E.Watts) دورا في عملية اعادة النظر هذه، مؤكدين على أن العلاقات التي سادت بين الأندلسيين والشماليين لم تكن على الصورة التي قدمها بعض المؤرخين الاسبان الأوائل . وأن ملوك الشمال غالبا ماكانوا يفتقدون الحماس لشن مايعرف باسم حرب « الاسترجاع » . كما توفر للدارسين الأجانب كتاب « نفح الطيب » للمقرى الذى ترجمه دون باسكال دى غيبانغوس في مجلدين ونشر في لندن سنة ١٨٤٣ تحت اسم « تاريخ الممالك الإسلامية (المحمدية) في أسبانيا» فكشف كثيرا من الحقائق التي لم تتوفر قبل ذلك . (انظر المراجع)

وربما تمكن هذا الدارس او ذاك من تأكيد نقطة ودحض أخرى ، أو صياغة هذه النظرية او تلك بالاعتماد على المعلومات والأمثلة المستقاة من المراجع المتوفرة عن التاريخين الأندلسي والأسباني . والسبب ان الوجود العربي الاسلامي في شبه جزيرة ايبرية استمر ثمانية قرون وكانت علاقات الجنوب والشمال وعلاقات الطرفين الداخلية على درجة كبيرة من التنوع والتغيراللذين .فرضتهما مؤثرات كثيرة بعضها كان محليا صرفا والآخر نجم عن مسببات خارجية ، او ظروف دولية أملت هي الاخرى شروطها على

---

(١) « مذكرات الامير عبد الله » عبد الله بن بلقين ، تحقيق بروفنسال ،.ص ٧٣ .

(٢) وهم ممن اتصلوا بمعهد التعليم الحر (Institucion libre de Enseñanza) مثل مننديث بيدال (Menendez Pidal) وسانشو البورنوز (Sancho Albornoz) واميركو كاسترو (Americo Castro) وألتميرا (Altamira) وغيرهم .

(٣) كتب دوزى في مقدمة كتابه « تاريخ مسلمي اسبانيا » :،، فالموضوع الذى اخترته جديد وما ذلك الا لان الكتب التي تعالجه لافائدة منها البتة ... لانها اعتمدت على كتاب كوندى واعنى بهذا انه عمل رجل لم يكن تحت تصرفه الا مواد قليلة . وهو لجهله باللغة العربية لم يكن قادرا على فهم ماتلكوه ، كما انه كان يفتقر الى روح النقد التاريخي كلية ،،. (انظر المراجع) .

الأوضاع والعلاقات في ايبرية واندمجت معها لتكون منظورا تاريخيا جديدا . وبما ان كثيرا من المؤلفات العربية فقدت ، واختفت معظم الوثائق الرسمية العربية ، فان من الطبيعي ان تتخلل التاريخ الأندلسي فجوات ربما امكن في المستقبل ملؤها . وبما ان تجدد الاهتمام بتاريخ ايبرية مايزال مستمرا منذ الخمسينات من هذا القرن ، فان المصادر الجديدة المتوفرة يمكن ان تقدم اجابات كثيرة لبعض أهم الاسئلة الخاصة بالتاريخ الأندلسي . أما الأن فهناك استفسارات تحتاج الى اجابات مقنعة وشاملة . لماذا بدأت حركة « الاسترجاع » ؟ وهل كان التقدم الشمالي احتلالا ام استرجاعا ؟ وهل عاد « استرجاع » الأندلس على اسبانيا بالخير او الفائدة ؟ الى جانب اسئلة اخرى تقدم المصادر الحالية جزءا من اجاباتها ، بينما تحتاج الجوانب الأخرى الى تقييم جديد .

أ – الحركة القوطية الغربية .

ليس هناك أساس يدعم التصور بأن الأسبان خاضوا حرب تحرير شعبية ضد الأندلسيين على مدى ثمانية قرون نظرا للثغرات الزمنية الكبيرة التي تفصل الحدث عن حدث آخر . فبين الانتصار الغامض الذى حققه بلايو سنة ٧١٨ (٩٩) ، أو بعدها(١) ، وبين استسلام طليطلة ٣٦٧ سنة ، وبين سقوط طليطلة وسقوط سرقسطة ٣٣ سنة ، وبين سرقسطة وموقعة العقاب ٩٤ سنة ، ومضت ٢٤ سنة قبل ان يتمكن فرناندو الثالث من احتلال قرطبة و١٢ سنة قبل سقوط اشبيلية و١٨ سنة قبل التمكن من اسقاط مرسية ثانية . أما استسلام غرناطة فكان بعد سقوط مرسية بسنوات بلغت ٢٢٦ ولم يبدأ القشتاليون بطرد الأندلسيين إلابعد ١١٧ سنة من سقوط آخر الممالك الاسلامية . وخلال الثغرات الزمنية هذه كان الجانبان يعيشان فترات هدنة او صلح تابعا فيها العمل لتطوير البلاد والتركيز على النشاطات الحياتية المختلفة وتحصيل العلم وغيرها من النشاطات .

وليس هناك أساس مقنع بان الشماليين سعوا منذ السنوات الأولى للفتح الى اعداد أنفسهم لاستعادة ملك القوط الغربيين الذى قوضه طارق بن زياد وموسى بن نصير وغيرهم من الفاتحين لان لذريق كان آخر ملوك القوط الغربيين ، كما تذكر الروايات الأجنبية . أما تاريخ القوطي بلايو فغامض ومعظم الاشارات الخاصة به ترد في الروايات العربية (انظر ص ٤١) . والقصة الاسبانية الخاصة ببلايو مكتوبة بعد حوالي ٢٠٠ سنة من حدوثها ، ولابد ان يكون سياقها خضع لتصورات غير تلك التي عرفها الواقع ، وجاءت في فترة حاول فيه الشمال صنع قضية لمملكة بلا قضية،إحتمت من جيوش الفاتحين بمكانها النائي وفقر سكانها وشح ارضها وبرودة الاصقاع التي قامت عليها في مساحة طولها ٤٠ ميلا وعرضها ٣٠ .

وعندما كان فرناندو الثالث يتقدم لاحتلال الأراضي الأندلسية ، فانه تقدم في اراض سكنتها غالبية مسلمة ، ولدت وأجدادها فيها وامتزجت منذ أول سنوات الفتح مع السكان الأصليين ، الذين لم تكن لهم صلة او علاقة بالقوط الغربيين . لاسيما وأن القوط كانوا من سادة الحرب فعاشوا بعيدين عن

(١) هناك عدة تاريخ مفتوحة لهذا الحادث منها سنة ٧٣٣ (٩٥) انظر ص ٤١ .

السكان وتبددوا دون ان يقدم لهم السكان الأصليون العون ضد الفاتحين المسلمين ، لانهم اضطهدوا الغالبية وعاملوها معاملة العبيد او الغرباء فى وطنهم الذى اقتحمته قبائل الجرمانية في بداية القرن السادس الميلادي . واذا كان القوط الغربيون حكموا اسبانيا ثلاثة قرون ، فان فرناندو الثالث كان يتوغل في أراضي حكمها العرب اكثر من خمسة قرون . وكانت عربية الادارة والثقافة والتاريخ واللغة والسكان بصورة عامة . يضاف الى ذلك أن المقولة بان ملوك الشمال حاولوا عن وعي اعادة مظاهر القوطية الغربية الى الأراضي الأندلسية التي احتلوها لاتستند الى أى أساس واضح ، لأن ملوك القرن العاشر والحادى عشر كانوا يتحدثون لغة مختلفة ، واكتسبوا عادات مختلفة عن عادات القوط . وحتى الرغبة في اعادة كرسي الملك الى طليطلة (عاصمة القوط الغربيين السابقة) لم تستمر طويلا ، اذا فضل ملوك قشتالة مدينة بلد الوليد وبرغش واشبيلية ومدريد . وربما كانت الكاثوليكية هي المذهب الذي بقي سائدا في الشمال واستمر في اسبانيا الى اليوم .

وكما أن الأندلسيين نظروا الى تطوير خيرات البلاد على أساس انه الطريق الى الرخاء ، فإن ملوك الشمال وجدوا في الثروة الأندلسية دافعا مستمر التأثير لحملاتهم ضد الجنوب ومحاولة الحصول على اكبر مبلغ ممكن عن طريق ابتزاز ملوك الطوائف والممالك الضعيفة بعدهم . وحين اخفقوا في الحصول على المال عن طريق الابتزاز أو التهديد لجأوا الى القوة ، وكان ذلك اسلوباً اتقنه القشتاليون في الأندلس ، كما أتقنه الأسبان فيما بعد في العالم الجديد.واستمرت آلة الحرب القشتالية في التحرك بلا توقف تقريبا الى ان اصطدمت بالقوى الفرنسية والهولندية والانجليزية اعتبارا من القرن السادس عشر . وخلال تطور قشتالة من مستعمرة شمالية صغيرة الى اكبر قوة عرفها العالم في القرن السادس عشر ، كان السلاح العامل الأهم في ذلك التطور ولم تكن قشتالة بحاجة الى الاستناد على حقوقها القوطية الغربية أو أية حقوق أخرى باستثناء القوة .

ب – استيطان الأندلس :

تحرك الشماليون فى البداية لاستيطان السهول القريبة من ممالكهم ، واعمار مدن مثل ليون وبلازيا واكشومة (Osma) ثم انفتح الطريق ايام حكم الطوائف ، فامتدت حركة الاستيطان لتشمل المنطقة الواقعة شمال نهر دويرة (بالنسبة لقشتالة) ونهر ابرة (بالنسبة لقطالونيا وارغون) . وحين سقطت طليطلة عمل الفونصو السادس على ترغيب قسم من سكانها المسلمين واليهود البقاء فيها وجلب اليها سكانا شماليين لضمان استمرار السيطرة عليها ، فكانت تلك سياسة حكيمة اذ بقيت المدينة بأيدى الشماليين رغم مهاجمتها فيما بعد . وضعف ممالك الطوائف أدى الى انتقال حركة الاستيطان الى المناطق الواقعة شمال نهر تاجة فسكنت مجموعات من القشتاليين والنافاريين والارغونيين والمهاجرين الفرنسيين ، مدنا مثل شلمنقة وشقوبية وإبلة وأعمرتها : وبما أن ملوك الشمال كانوا مقتنعين بان بقاء السكان المسلمين في الأراضي المحتلة حديثا لن يضمن لهم بقاءها في أيديهم ، فقد عملوا على طرد سكانها الأصليين ضمن مخطط منظم طبقه الملك تلو الآخر . وكانت تلك سياسة انتهجها الفونصو

بدقة فكان يقدم لأى مهاجر جديد المسكن والأرض ويعفيه من دفع الضرائب على أية أملاك له في أية منطقة أخرى من البلاد ، ويوفر حماية خاصة له،اذ لم يكن من المستطاع القبض على المتهمين بارتكاب جريمة ما اذا كانت الجريمة ارتكبت في منطقة سبق للمستوطن الجديد الاقامة فيها . وساهمت الكنيسة في عملية التوطين فما ان يتجمع بعض السكان المستوطنين في قرية او مدينة ما ، حتى توفد الكنيسة القساوسة وتنفق الأموال لبناء الكنائس ، أو تعمل ببساطة على تحويل المسجد الرئيسي في المدينة المحتلة الى كنيسة ، وهذا نهج طبقته الكنيسة في كل مكان من الأندلس المحتلة .

إن أحد الأسباب التي ادت الى وجود تلك الفجوات الزمنية الكبيرة بين التقدم الشمالي والآخر هو الافتقاد الى المستوطنين الضروريين للسيطرة الدائمة على المناطق المحتلة . وهذا لايعني، بالطبع، ان عملية اخلاء بعض المناطق الأندلسية لم تكن بمبادرة من السكان العرب نتيجة الضغط العسكرى او الأسباب الأقتصادية والاجتماعية المختلفة ، إلا أن تفريغ الجنوب كانت سياسة منظمة . واضطر الاندلسيون مع الزمن الى التراجع تدريجيا نحو ممالكهم المنحسرة ، بينما اختارت قلة الدجن والبقاء تحت سيطرة الشماليين في حالات معينة . وخلال عملية استيطان الأندلس لعب الفرنسيون دورا حاسما يماثل الدور العسكرى الذى لعبوه اعتبارا من القرن الحادى عشر ، ومايزال التأثير الفرنسي على حركة الاستيطان ماثلا فى وديان نهر ابرة والشرق الايبيرى . وكان في ذلك الوقت ضروريا لحركة استيطان الجنوب نظرا لأن عدد سكان الممالك الشمالية في ايبرية لم يكن يتيح الفرصة بفائضه للسيطرة على المناطق المحتلة .

والمشكلة الاستيطانية التي واجهت ملوك الشمال في القرن الحادى عشر ، وصلت الى ذروتها في القرن الثالث عشر عندما اجتاحت جيوش الشمال وسط الأندلس دافعة أمامها حوالي مليونين الى ثلاثة ملايين أندلسي . فكانت تلك من اكبر عمليات الاجلاء التي عرفها العالم في ذلك الحين ، لاسيما وأنها استهدفت اجلاء السكان عن عدد من أهم مراكز تجمع الأندلسيين في قرطبة واشبيلية وجيان وبلنسية وابدة وبياسة ومرسية وغيرها من المدن . وحين مات فرناندو الثالث (١٢٥٢) ، كان باستطاعة المسيحية القول ان هذا الملك أخذ من الأراضي الأندلسية مالم يستطع اى ملك قبله او بعده أخذه . اذ لم يتبق بعد وفاته سوى الجزء القصي من جنوب الأندلس مثل غرناطة ولبلة وغيرها من الممالك الصغيرة التي اخضعت كلها لدفع الجزية . هذا التوغل حمل بعض المؤرخين على النظر الى فترة حكمه على أنها كانت مرحلة « استرجاع » الأندلس ، ولقبه الناس بالقديس قبل ان تسبغ عليه الكنيسة البابوية هذا اللقب بحوالي ٤٠٠ سنة .

ووعي فرناندو وغيره أنهم جاؤا الأندلس محتلين كان وراء الاصرار على اخلاء المدن الأندلسية من سكانها كما حدث بالنسبة لقرطبة وأشبيلية وجيان ، أو أسر اكبر عدد ممكن لتشغيلهم في الشمال وسد الثغرة التي احدثها رحيل قسم من الشماليين الى المستوطنات الجديدة . والمشكلة الأولى التي اعترضت فرناندو الثالث جاءت اثر سقوط قرطبة . فعاصمة الخلافة القرطبية كانت تضم يوما مايتراوح بين نصف مليون ومليون نسمة ، ولكن انتقال الثقل الى اشبيلية قلص عدد سكانها فبلغوا يوم سقوطها حوالي

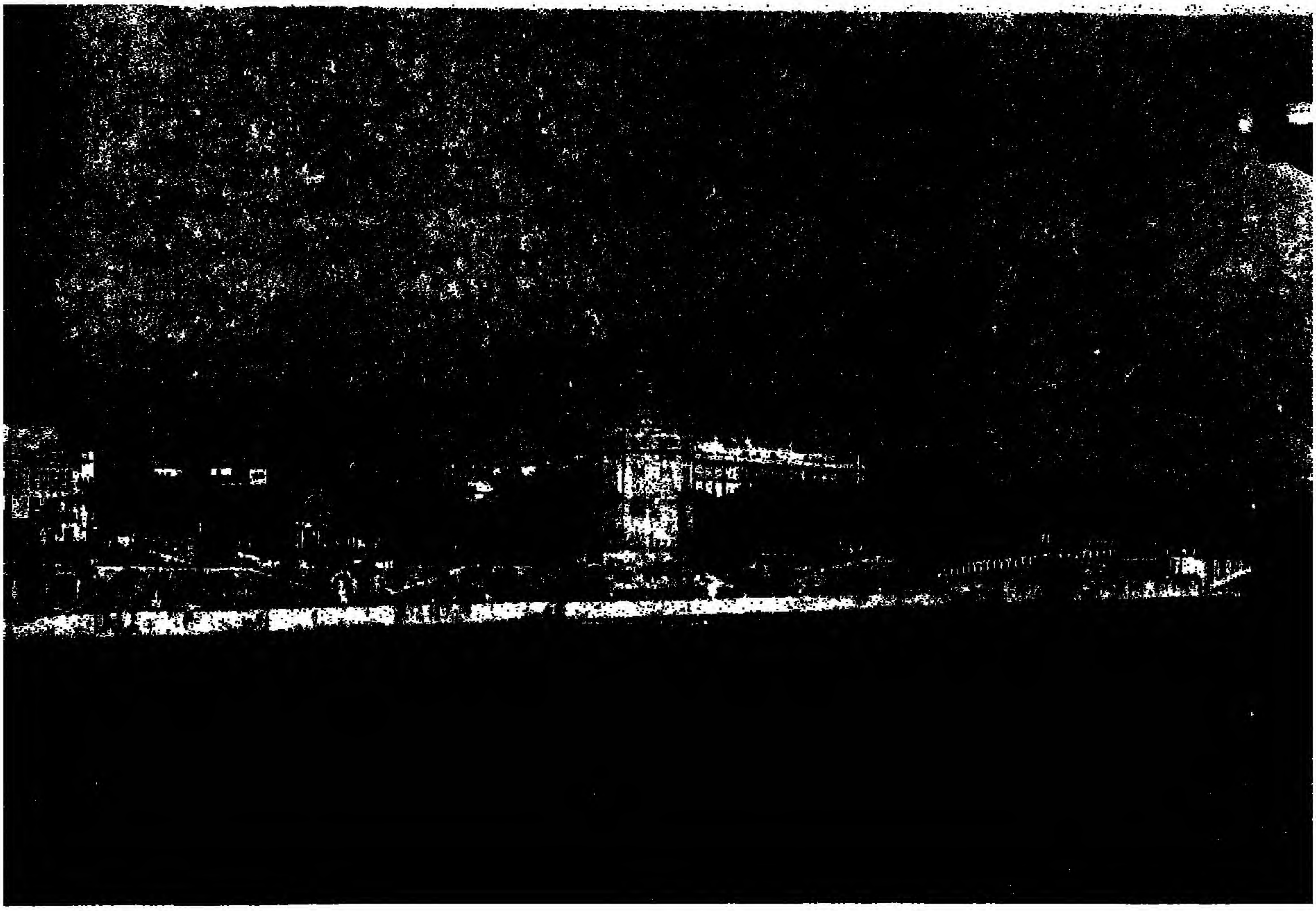

برج أشبيلية

۰۰۰ر۵۰ رغم ان حجمها لم يكن يقل عن ذلك يوم كانت سيدة مدن الأندلس واوروبة . وحاول فرناندو ارضاء الجميع يوم تملكها فشكل لجنة ملكية للاشراف على توزيع المدينة على جيشه وأنصاره ، الا أن اللجنة لم تفرغ من عملها الا بعد عدة سنوات . ومع ذلك فان استيطانها الجديد لم يوفر للمدينة رخاءها السابق فبقيت تعاني من الاهمال حتى القرن الحالي . وحين استسلمت أشبيلية واجهت فرناندو مشكلة اكبر لان عدد سكان هذه المدينة كان حينها حوالي ۰۰۰ر۳۰۰ نسمة . وخلال مباحثات التسليم عرض سكانها استبقاء ثلثيها فرفض فرناندو العرض ، ثم قدموا له النصف فرفض أيضا وأخرجهم جميعا.اذ نقلت ثمانية قوادس (وكانت سفن تسير بالشراع والمجاديف) وخمس سفن شراعية أعدادا منهم الى سبتة لقاء أجر غير معروف ، ورحل قسم الى مدينة شريش وآخر الى غرناطة ، واختار قسم الرحيل الى تونس ومصر . وما ان بدأت قوافل أهل اشبيلية في الرحيل حتى شكل فرناندو الثالث لجنة ترأسها اسقف شقوبية عملت على تقسيم اشبيلية وضواحيها سنة كاملة . ولكن الفترة لم تكن كافية فشكلت من بعده لجنة أخرى مارست مهمتها ثماني سنوات (۱۲۵۵ – ۱۲٦۳) . والسجلات المحفوظة في أشبيلية تعطي صورة عن عملية التوزيع التي شملت مهاجرين من ليون وجليقية وطليطلة وفرنسا وجنوا والمانيا وغيرها من المناطق . وكان النصيب الأكبر لحوالي ٤۳ أميرا وعدد من القساوسة والنبلاء قدمت اليهم أراضي تحيط بالمدينة . بينما حصل حوالي ۲۰۰ فارس على قطع أصغر من الأراضي ، وأعطي الأقل للمشاة ، وحظيت بلدية المدينة بأطيان كثيرة ، ووزع الباقي على جميع المحاربين والمهاجرين المتبقين .

ج – البحث عن الذات الأسبانية :

بعض الأمثلة التي يقدمها تاريخ قشتالة تظهر الغربةَ التي شعر بها الشماليون وهم يتقدمون في أراض لم يعرفوها ولا عرفها أباؤهم وأجدادهم من قبلهم ، ولم يترك تاريخم وصفا لها في صفحاته الغامضة عن الحقبة الأولى من صعود ممالك الشمال في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . أما سكان المناطق المقهورة فكانوا يختلفون عن الشماليين في كل شيء ، ولذا كان تقدم الشماليين عموما في ارض اجنبية لايمتون اليها باية صلة ، ولايرتبطون بها الا بدافع الحصول على الارض وكسب الأسلاب . وتصرف بعض ملوك الشمال عكس وعيهم للغربة في المناطق الأندلسية المحتلة ، فسعى الفونصو العاشر في القرن الثالث عشر الى تغيير جميع أسماء المدن والقرى الموجودة في الأندلس لمحو كل مايمكن أن يذكر ببقاء الأندلسيين في تلك المناطق طوال خمسة قرون ونصف القرن ، وأمر بان تسمى المدن بأسماء ملوك الشمال أو قادتهم أو باسماء الشخصيات التي حصلت على الارض بعد استلابها . ولكن المحاولة باءت بالاخفاق واستبقيت الأسماء الأندلسية مع وجود استثناءات استخدم فيها القشتاليون أسماء المدن التي عرفت بها خلال حكم الرومان .

والقرن الثالث عشر كان قرن طمس السمات الأندلسية فنبشت قبور الأندلسيين ، وأحرقت كتبهم الدينية في اكبر عملية تخريب لحضارة متفوقة مثل الحضارة الأندلسية دون توفير أى بديل حقيقي لها . وكأن مصيبة الأندلس لم تكن كافية على الأمة العربية في تلك السنوات السوداء ، اذ تقدم هولاكو على بغداد سنة ١٢٥٨ فقوض تلك العاصمة،التي كانت تعد مليون نفس ، وقتل سكانها وأهدر حضارتها وثقافتها . ولكن هولاكو ذهب وجيشه وعادت بغداد الى أصحابها . أما أشبيلية وقرطبة فبقيتا بأيدى القشتاليين ، وكانت عملية اعادة اسكانهما وغيرهما سياسة- فعالة،اذ لم تسقط أية مدينة رئيسية بعد ذلك . ومن خَلف فرناندو الثالث لم يغير سياسة الطرد وإعادة التوطين.فقد احتل ابنه الفونصو العاشر (العالم) لبلة سنة ١٢٦٢ وطرد جميع سكانها الأندلسيين ، ثم احتل قادس في السنة ذاتها وجاءها بسكان جدد من مقاطعة سنتندير المطلة على خليج بسقاية . وسياسة القرن الثالث عشر وماقبله لم تتغير في القرن الخامس عشر اذ اتبعت ايزابيلا وفرناندو سياسة تفريغ الأندلس الجنوبية من سكانها حيثما توفرت لها فرصة ، ودفعت الملكة القشتالية بحوالي ٥٠٠٠٠ مستوطن شمالي الى مدينة غرناطة وكانت تلك مجرد الدفعة الأولى (انظر الفصل الرابع).

ومما لاشك فيه أن غزو الجنوب في القرن الثالث عشر لم يتوافق مع بدء عملية تخريب حضارية هائلة فقط ، ولكنه جاء مع تدمير شعب بأسره انتهى الى التشريد والقتل والنفي والاستعباد . وكانت المهمة القومية التي تنتظر ملوك قشتالة هي محاولة ربط ماورثوه عن آبائهم من مناطق في كل رسمي مقبول ولكن ذلك لم يكن سهلا ، والاسماء التي عرفت بها اسبانيا في الماضي تظهر هلهلة واضحة وافتقادا الى ايجاد الشخصية الأسبانية . واللقب الرسمي الذى عرف به الفونصو العاشر كان،ملك قشتالة وليون وطليطلة وجليقية واشبيلية وجيان وبطليوس ، فكانت هذه الممالك مجموعة من القطع التي يربطها خيط واه من

الوحدة ، وهذا أمر طبيعي في مملكة عامة كانت ماتزال تبحث عن مواطنية ومواطنين بعد سنوات كثيرة من توفير الأرض لهم . ولم تكن هذه الوحدة متوفرة فيما بعد اذ عرف فرناندو الخامس في آخر القرن الخامس عشر بلقب ملك قشتالة وليون وارغون وصقلية وغرناطة . أما ملوك أسرة هابسبرغ (كارلوس الخامس ومن خلفه حتى وصول اسرة بوربون الى السلطة سنة ١٧٠٠) فعرفوا بلقب ملوك قشتالة وارغون ونافار وصقلية وغرناطة . وبنهاية القرن السابع عشر أخذ الملوك يطلقون على أنفسهم لقب:الملك الكاثوليكي على الاسبانات والصقليتين والقدس وجزر الهند الغربية . ولم تعرف أسبانيا باسمها الحالي الا بعد أن فقدت معظم ممالكها في العالمين القديم والجديد . وطوال تلك الفترة من التاريخ الأسباني كان لاسم « اسبانيا » مفهوم غامض يصعب التعبير عنه،واستخدمه العامة لكي يعني شبه جزيرة ايبرية وأحيانا بما يشمل القشتالتين القديمة والجديدة ، وارغون ونافار والبرتغال . مع العلم بأن الأرغوني مثلا كان يعتبر اجنبيا في قشتالة حتى بعد ان كان ذلك الاتحاد الشخصي بين فرناندو وايزابيلا في اخر القرن الخامس عشر . والتركيب الخاص الذى قامت عليه أسبانيا في تاريخها الطويل هو الذى ولد ذلك الأختلاف القائم اليوم في هذه الدولة التي تشكل ٨٥ بالمئة من مساحة شبه الجزيرة الأيبيرية ، وهو ما يميز القطلانيين والجليقيين والنافاريين والأندلسيين عن غيرهم من السكان . اما الوحدة الحقيقة التي جمعت كل سكان شبه جزيرة ايبرية ، فهي وحدة الكاثوليكية والتعصب الكاثوليكي ، ولذا كانت محاكم التفتيش الجهاز الوحيد الذى لم يعرف الحدود .

٢ – من الأندلس الى أسبانيا

الرحلة من الأندلس الى أسبانيا استغرقت ثمانية قرون تقريبا ، ومضى قرن تاسع قبل ان تتخلص قشتالة من معظم الأندلسيين الموازكة ، ومايزال في اسبانيا من التأثيرات الأندلسية اكثر مما يود الأسبان الاعتراف به . هذا الانتقال لم يكن معقدا ولابسيطا اذ سقطت الأندلس قطعة بعد قطعة،ولهث اهل الشمال في اندفاعهم نحو الجنوب لتحقيق جملة من الأهداف ، ليس اهمها استعادة ملك القوط الغربيين لان الاهتمام باعادة بناء الحضارة القوطية الجرمانية المتواضعة لم يكن دائما . ولم يكن أهم دوافع التقدم الدين ، لان احتلال الأراضى الأندلسية لم يتبع بالتنصير الاجبارى،ولم يلغ ملوك الشمال الاديان الأخرى فبقي الاسلام واليهودية دينين ، اعترفت السلطة النصرانية بوجودهما الشرعي حتى اخر القرن الخامس عشر . ولم يكن من بين الأهداف الرئيسية تخليص النصارى من قبضة الأندلسيين العرب لأن الجنوب تسكنه غالبية مسلمة ، ولانشر الحضارة القشتالية لأنها كانت حضارة بدائية لايمكن ان تقارن بالحضارة الأندلسية المتقدمة على كل حضارات اوروبة . وكيفما قلبت الأسباب التي دفعت ملوك الشمال لاحتلال الجنوب ، فان العامل الاقتصادى يبقى متفوقاً على غيره . ولو ان ملوك الطوائف كانوا بفقر ملوك الشمال ، أمر أن الأراضى الأندلسية كانت بوعورة الاراضي التي قامت عليها الممالك المسيحية الأولى ، فلربما كان تاريخ الأندلس غير ماهو عليه الآن .

في الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والعاشر ، بات من الواضح أن فرصة بقاء الأندلس مملكة اسلامية ضعيفة للغاية ؛ لان ممالك الشمال طورت قدرات عسكرية ودينية وادارية ؛ لايمكن ازالتها الا بازالة قواعدها البشرية . ولو ان حملات المنصور المظفرة على الشمال استهدفت خلخلة تلك القواعد ، فلربما تأجلت عملية اجتياح الجنوب مئات السنين حتى بدون تدخل المرابطين والموحدين والمرينيين فيما بعد . ولكن ذلك لم يكن ممكنا . وما استبعده ملوك الأندلسيين المسلمين طبقه ملوك الشمال بصورة تقبل ان يطلق عليه مايوصف اليوم « بحرب الابادة ». والذى اكتشفه ملوك الشمال ، هو ان السيف يمكن ان يدر على الخزانة أضعاف ما يمكن أن يقدمه العمل المضني في الحقول او التجارة والصناعة . ولذا حملوا السيف وابتزوا ملوك الجنوب الأندلسى حتى قل الذهب فأخذوا مصدر الثروة ذاتها ووزعوا الاراضي على المحاربين عندما شح الذهب والفضة . ولم يكن تقدم الشماليين في البداية نتيجة قلة الحروب ، اذ كانت الغزوات ضد الشمال جهادا سنويا[1] ، وخاض المسلمون في ارض الأندلس اكثر من ٢٠ معركة رئيسية ولابد ان يكون عدد المعارك الجانبية والمناوشات العسكرية بعشرات المئات . وفي الفترات التالية من تاريخ الأندلس كانت الحروب ضد الشماليين استنزافا لقوى الشمال المغربي ،وبما استشهد الملايين فى الحروب الأندلسية دفاعا عن العروبة والاسلام . ولكن المدد الأوروبي تفوق في القرن الثالث عشر على مدد العدوة وسقط المشرق نهب الانقسام والفرقة وجيوش هولاكو وغيره من الغزاة. وما من فائدة ترجى في الأشارة الى المساعدة الهائلة التي قدمها عرب الاندلس وبربرها ، لكي يحقق نصارى الشمال انتصاراتهم الساحقة ، سواء عن طريق التفريق او الروح الانهزامية،أو عن طريق مشاركة الشماليين الفعلية فى حرب باقي الأندلسيين . ويوم سقطت غرناطة تطلع الاوروبيون الى قشتالة تطلعهم الى المملكة التي حققت للمسيحية مالم تحققه كل الحملات الصليبية ، ودقت اجراس الكنائس في كل مكان عندما ارتفع الصليب على قصبة الحمراء بعد قرنين من ازالته من فوق اسوار عكا اثر انتصار المماليك على آخر ممالك الصليبيين في المشرق .

واذا كانت اوروبة اليوم وليدة حروبها الطويلة وصراعها الديني الدامي ، فان اسبانيا وليدة الحروب التي خاضها القشتاليون مع الأندلسيين وأهل المغرب . وخلال تلك الحروب صنعت قشتالة الأطر الادارية والاجتماعية والسياسية ، وتطورت الشخصية الأسبانية التي تمكنت في القرن السادس عشر من بسط سيطرتها على مساحات شاسعة من العالمين القديم والجديد ، وتركت تأثيرها بصورة أو بأخرى على شعوب كثيرة من كوبا الى الفليبين . وربما كانت السمات الخاصة التى تمتعت بها الشخصية الأسبانية هي التي مكنتها من أن تحقق في العالم الجديد مالم تستطع أية دولة أوروبية أخرى تحقيقه بما في ذلك افناء الملايين ، والقضاء على حضارة الازتك والمايا وغيرهم في أميركا اللاتينية . والصفات الخاصة التي ميزت القشتالي عن غيره من سكان اوروبة كانت الصفات التي اعاقت اسبانيا عن اللحاق بالتطور اللاحق

(١) اشتكى الشاعر عبد الله بن الشمر من كثرة الغزوات والصيد مع الامير عبد الرحمن بن الحكم فقال :

ليت شعرى امن حديدة خلقنا ... ام خلقنا من صخرة صماء
كل عام لي الصيف نحن غزاة ... والغرانيق غزونا في الشتاء

انظر : « تاريخ الادب الأندلسي » (عصر سيادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس،ص ٣٨٩ .

المسجد الكبير في قرطبة

الذي عرفته جاراتها ، وكانت مرونة الهولنديين والفرنسيين والإنجليز عاملا مهما في تغير مراكز القوى لصالحهم في وجه الشخصية الأسبانية المتصلبة . وقد يتمكن جيش قشتالة من تحقيق الانتصار تلو الآخر على فرنسا ولكن القشتاليين لم يتمتعوا باحترام الفرنسيين لهم . وكان القشتالي بالنسبة للفرنسيين فارسا رث الثياب ينادي بالسيطرة على العالم . وقد وصف أحد الفرنسيين الأسبان في القرن السادس عشر بالقول : « واذهانهم – أى الأسبان – مملوءة بأحلام العظمة ، وهم يفضلون البؤس أو خدمة أحد النبلاء على الأشتغال في بعض الحرف أو الصناعات » (١) . وربما لخص سيرفانتس شخصية أبناء بلده حين قال على لسان دون كيخوتي : « ان صدق الانسان يكمن في احلامه » ويكرر فكرة مثيلة فيقول : « ليس هناك وحش أبغض من التعقل » .

والأسبان الذين تمكنوا من رفع سلطتهم على انقاض الممالك الاسلامية في الأندلس ، اخفقوا في تقديم حضارة بديلة اذ نقل العرب الى شبه الجزيرة جندا وحضارة ولم ينقل الشماليون الا الجند الذين قوضوا البنى الحضارية الأندلسية ، أو استعاضوا عنها باشكال ممسوخة ليس فيها رونق الأصل ولا ديمومة البناء . وانتقال السلطة من الجنوب الى الشمال ادى بالضرورة الى تغيير ملامح الأندلس العربية ، اذ لم

---

(1) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Golden Age, P 23.

يكن من الممكن مقاتلة العرب والسماح لحضارتهم بالبقاء ، او حتى الاعتراف بتلك الحضارة . ولكن التأثير كان أعمق من ان يزيله الجند . وان لم تستطع الحضارة الأندلسية ان تهيمن على القشتاليين ، كما هيمنت على المرابطين والموحدين ، فانها تركت تأثيرات واضحة حتى اليوم .

أ – التأثر الثقافي والحضاري :

فتح العرب شبه جزيرة ايبرية ، وسرعان ما استوعبت ثقافتهم الحضارة اللاتينية هناك ، فحلت اللغة العربية تدريجيا محل اللاتينية (اللطينة) ، وسادت الفلسفة والآداب العربية وهجرت أعداد متزايدة من الكاثوليك المسيحية الى الاسلام ، ولم ينج الباقون من تأثير الفكر الاسلامي على الديانة النصرانية (١) بينما اندفع اهل البلاد يقلدون العادات والتقاليد العربية بوعي أو بدونه . وكان من الطبيعي ان ينتج عن اختلاط العرب بأهل البلاد تأثير ثنائي فتحدث بعض أهل البلاد العربية ، وكان كثير من العرب يتقنون اللاتينية واللهجات المحلية التي شملت القشتالية والبلنسية والارغونية والبشقية (البشكنسية) . الا ان اكتمال نمو الشخصية الأندلسية وشيوع التعليم أدى الى زيادة الاعتماد على العربية ، وساهم في ذلك اتخاذ بعض الأمراء اجراءات ادت الى سيادة العربية مثل قرار هشام الأول باعتماد اللغة العربية لغة التدريس في المعاهد النصرانية واليهودية .(٢)

وكان من الطبيعي ان يستمر اضمحلال الحضارة الأيبيرية مع استمرار ضعف المؤسسات التي كان من الممكن أن تضمن لها الاستمرار ، بينما ترسخت الحضارة العربية في البلاد مع استمرار صقلها وردفها بالتأثيرات المشرقية المختلفة . ولعبت تأثيرات أخرى في تقليص النفوذ الذى تمتع به نصارى الأندلس في الجنوب خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، حين ادت بعض المضايقات التي تعرض لها هؤلاء الى ربط مصيرهم بملوك الشمال مما أدى الى انسحاب اعداد كبيرة منهم ، وتغريب أعداد أخرى الى فاس ومكناس وغيرها من المناطق المغربية . وكان اشتداد الضغوط في الجنوب وتعاظم قوة الشمال سببين في رحيل أعداد اضافية من المعاهدين مما ادى الى اكتساب الشمال لخبرات كان يفتقدها ، وسيادة العنصر الأندلسي في الجنوب . وفي الحالات التي طور فيها الشمال بعض المهارات الحرفية او العمرانية فان السبب ، على الغالب ، يعود الى المهاجرين النصارى او اليهود الذين نزحوا الى الشمال لسبب او لآخر . وحين بدأت أسبانيا في ترسيخ شخصيتها على الأراضي الأندلسية التي احتلتها فان التأثيرين الفرنسي والأندلسي بقيا الطابع العام ، وإن غلب احدهما على الآخر طبقا لكل منطقة من أسبانيا .

---

(١) انظر : « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور أحمد بدر ، ص ٢٠٠ .

(٢) انظر : « دولة الاسلام في الأندلس » محمد عبد الله عنان (القاهرة ، ١٩٦٩) .
الجزء الاول ، ص ٢٢٩ .

وبما أن الحضارة العربية والعادات المشرقية كانت المتفوقة في الأندلس ، كان من الطبيعي أن تؤخذ تلك العادات على انها العادات المتفوقة التي تميز الذوق الرفيع عن غيره . ولذا قلد ملوك الشمال الأندلسيين في المأكل والملبس والثياب والتسليح ، وتداولوا العملة القرطبية الى جانب العملات الرئيسية في تلك الفترة ، واستمتعوا بالشعر والمرويات العربية . واستمر هذا التأثير الى مراحل متقدمة من تاريخ قشتالة بعد أن سقطت معظم الأراضي الأندلسية بايدى ملوكها . والمعروف أن ملوك الشمال كانوا يستوردون الملابس المزركشة من الجنوب بعد ان ظلت ملابس البلاط الملكي عدة قرون . وكان الملك القشتالي إنريكو الرابع (١٤٥٤ - ١٤٧٤) يرتدى الملابس الأندلسية ويحتفظ بحرس ملكي أندلسي في بلاطه . كما أن الملك الارغوني الفونصو الخامس (١٤١٦ - ١٤٥٨) اعتاد ان يصطحب معه في رحلاته الى أيطاليا المغنيين والراقصين الأندلسيين . أما الثقافة الأندلسية فلعبت دورا مهما في حياة قشتالة اذ لجأ ملوك مثل الفونصو الثالث (٨٦٦ - ٩١٠) الى مربيين قرطبيين لتربية أبنائهم ، بينما كانت شخصيات مثل شخصية السيد مغرمة بالسير العربية [1] . وفي فترات لاحقة اشتهر الملك الفونصو العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤) باقباله على العلوم العربية ، وكان وراء الحث على ترجمة الأعمال العربية في طليطلة بكثافة . وحتى شخصية متعصبة مثل الكردينال زمنيز رأت فى الثقافة العربية أهمية عظمى اذ أمر باحراق الكتب الدينية في نهاية القرن الخامس عشر ، ألا انه استبقى أعدادا كبيرة من كتب الطب والعلوم الأخرى .

ونتيجة التأثر بالعادات الاسلامية والأندلسية لجأ كثير من النصارى الى تقليد تلك العادات ، فكانوا يختنون أولادهم ويتخذون الجوارى[2] . وكان لبعض الملوك ، مثل الفونصو السادس ، عدة زوجات وظلت عادة اتخاذ العشيقات شائعة في وقت كانت فيه محاكم التفتيش توصي باحراق الرجال الذين يتزوجون اكثر من امرأة واحدة[3] . وفى زمن الامبراطورية لم يختلف النمط الاجتماعي عن ذلك الذى كان سائدا في قرون سابقة ، فاستمرت النساء في التزام بيوتهن باستثناء الذهاب الى الكنيسة أيام الآحاد خلافا لنساء اوروبة . وبصورة عامة كان معظم منازل الأسبان تخلو من قاعات الطعام الذى كان يقدم على طاولات صغيرة في قاعات الجلوس ، وكان الرجال فقط يجلسون الى الموائد على مقاعد منخفضة . أما النساء والاطفال فكانوا يتحلقون حول المائدة وهم جالسون على الأرض او مستندون الى الارائك . وكان من الطبيعي أن يكون العادات العربية ز أو التي ادخلت عليها تغيرات طفيفة ، قوية التأثير في الجنوب والشرق حيث بقيت أعداد كبيرة من الأندلسيين المواركة حتى بداية القرن السابع عشر . واقتراب أسبانيا من باقي الدول الأوروبية في القرون التي لحقت بسقوط غرناطة لم يضعف من التأثر بالعادات العربية القديمة . وخلال القرن السادس عشر انتشرت عادة ارتداء الحجاب بين القشتاليات ، وشاع استعماله الى الحد الذى اضطر فيليب الثاني معه الى تخويل مجلس قشتالة صلاحية التحقيق في الأمر بغية منع انتشاره . وفي

---

(١) « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور احسان عباس ، ص ٢٣ .

(٢) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور أحمد بدر ، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر سابقا ص ٢٠٧

القيصرية أو سوق الحرير القديم في غرناطة .

سنة ١٥٩٠ أمر فيليب الثاني بمنع التحجب تحت طائلة عقوبات معينة ، ولكن دون جدوى . وفي سنة ١٦٣٩ أصدر فيليب الرابع مرسوما يحظر وضع الحجاب تحت طائلة عقوبات أشد ولكن دون تحقيق أى نجاح ، وأنشغل الكتاب بوضع اطروحات كثيرة سعيا وراء ازالة هذا التأثير الأندلسي .(١)

(١) من هذه الاطروحات واحدة سميت « الحجاب : قديمه وجديده على وجوه النساء، حشمته وخطره » . انظر :
Defourneaux, Marcelin. Daily Life in Spain In The Golden Age, P 159.

ب – الاختلاط السكاني :

افتخر بعض القوط بأصلهم القوطي ، والعرب بأصلهم واعتبروا انفسهم أعلى مقاما من غيرهم من سكان شبه الجزيرة ، ولكن الجميع تعايشوا وتزاوجوا وكانوا ، رغم وجود بعض الاختلافات ، يشكلون مجتمعا واحدا . ونظرا لطبيعة تكوين الفاتحين ، كان من الطبيعي ان يلجأوا الى نساء شبه الجزيرة فكن امهات أجيال جديدة من العامة والحكام على حد سواء . والمعروف ان عبد العزيز بن موسى بن نصير اتخذ من أيلة ، ارملة لذريق ، زوجة عرفت باسم ام عاصم . وتزوجت حفيدة الملك القوطي غيطشة في الشام من عيسى بن مزاحم وعرفت باسمها: سارة القوطية بنت المند . وكان عبد الرحمن الداخل نفسه من أم جارية بربرية تدعى راح ، الا ان سائر امراء قرطبة كانوا ابناء جاريات كما يدل على ذلك استعراض اسمائهن . فهشام الرضا من ام ولد تدعى جمال ، وكذلك ام الحكم الربضى (زخرف) وعبد الرحمن الاوسط (حلاوة) ومحمد بن عبد الرحمن (بهير) والامير المنذر (ايل أو اثل) والامير عبد الله بن محمد (بهار او عشار) . ويذكر ان الخليفة الناصر لدين الله كان حفيد بشكنسية تدعى در، ومثلها زوجة الحكم المستنصر بالله . واتخذ المنصور زوجة بشكنسية سميت عبدة وهي ابنة سانشو (شانجة) الثاني ملك نافار (نبارة) وولدت له عبد الرحمن المعروف ايضا باسم شنجول . وما انطبق على حكام الجنوب في عموميته هذه انطبق على الشمال في بعض الحالات . اذ أن من المعروف ان الفونسو السادس اتخذ من كنة المعتمد بن عباد (زائدة أو سيدة) زوجة أو خليلة ولدت له ابنه الوحيد سانشو (شانجة) الذى قتل وهو يحارب الاندلسيين في معركة اقليش . وهذا النوع من العلاقات الاجتماعية كان مقبولا في فترة كثرت فيها الجوارى ، حتى ليقال أن عدد اولاد وبنات عبد الرحمن الثاني وصل الى ٢٠٠ ، وكان للأمير محمد ١٠٠ ولد ذكر في فترة عرفت سيادة العنصر الأندلسي وشيوع الاسلام في معظم المناطق الواقعة الى الجنوب من نهرى دويرة وابرة (بما في ذلك المناطق المحيطة بسرقسطة) .

واذا كان اتجاه البعض في فترات سيادة الأندلس « دفع الأموال الطائلة لكي يلفق له النسابون نسبا عربيا »(١) ، فان النحو في فترة سيادة قشتالة كان العكس، وجاء هذا الانكار بعد تطورين مهمين ارتبط احدهما بالآخر . الأول كان ترسيخ سلطة محاكم التفتيش ، والثاني صعود البروتستانتية في النصف الأول من القرن السادس عشر وبروز اسبانيا أهم حامية للكاثولوليكية في أوروبة والعالم الجديد . وحيال ارتفاع عدد المتنصرين أو المنصرين الجدد ، شعرت الكنيسة بان من الضرورى المحافظة على حقوق المسيحيين القدامى وتفضيلهم في المناصب الحساسة والجيش وغير ذلك من المؤسسات . فنشأ ما يعرف باسم « نقاء الدم » وكان مبدأ طبقته الكنيسة ومحاكم التفتيش في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السابع عشر . وبظهور هذا المبدأ احتل موضوع اثبات النسب أهمية كبيرة ولاسيما بالنسبة للأشخاص الذين وضعتهم محاكم التفتيش تحت المراقبة . وتحول المبدأ الى عدد من القوانين التي

---

(١) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور احمد بدر ، ص ١٠٩ .

صدر أولها بعد مرسوم الملكة ايزابيلا الخاص بتنصير الأندلسيين الموراكة سنة ١٥٠٢ . وفي سنة ١٥٣٠ أمرت محاكم التفتيش جميع عمالها المعنيين بفتح ملف خاص بكل من يتعامل مع المحاكم فيما يتعلق بميولهم الدينية .

وكان من نتائج صدور قوانين نقاء الدم إثارة القلق بين الناس ، وجنوح بعضهم الى استغلاله للانتقام عن طريق الوشاية . وتحرك عدد من النسابين ووضعوا كتب الانساب التي عرفت باسم الكتب الخضراء وكان من أشهرها كتاب اسمه « عار اسبانيا » (Tizon de España) ألف في القرن السادس عشر واحتوى على أشجار أسر اسبانية كثيرة ، مؤكدا أن أثبات نقاء الدم أمر صعب لأن غالبية أهم الأسر الأسبانية تنحدر من اصول لاتخلو من دماء غير قشتالية . وكان لهذه الكتب صدى.واسع فأقبل الجمهور على قراءتها وأعيد طبع الكتاب المشار اليه عدة مرات ، وحقق نجاحا كبيرا . وبرغم المعارضة التي لقيها مبدأ نقاء الدم،الا أن محاكم التفتيش استمرت في انتهاجه حتى سنة ١٦٥٥ ، وكان المتهمون الذين يدلون بمعلومات خاطئة عن أصولهم القديمة يعاقبون بالغرامات او العمل الاجبارى في القواديس .(١) وكان من الطبيعي ان تتوقف هذه الممارسات فيما بعد ، الا ان الالتزام بها خلال تلك الفترة الطويلة من الزمن،ساهم في طمس جانب كبير من انتماءات القشتاليين الأندلسية . ولابد ان عددا كبيرا من الأندلسيين المعنيين لجأوا الى اتلاف وثائق كثيرة خاصة باصولهم كان من الممكن ، لولا اتلافها ، أن تلقي الضوء على جوانب من طبيعة التركيب السكاني في تلك الفترة التي تميزت باهميتها لأنها كانت مرحلة حاسمة في طمس آخر المعالم الأندلسية في أسبانيا . ولكن ماصعب اثباته في كتب النسابة سهل الاحتفاظ به في الوجوه . ووجدت محاكم التفتيش صعوبة كبيرة في التمييز بين الأندلسي والقشتالي إن تجنب الأندلسي الختان ، واتقن اللغة القشتالية . وتكررت تلك الصعوبة حين كان جنود الملك فيليب الثالث يفتشون عن الأندلسيين الموراكة لنفيهم في مطلع القرن السابع عشر. ويومها سددت السلطة الأسبانية الطعنة الأخيرة إلى أية آمال علقت باحتمال التوصل إلى مصالحة من نوع ما تضمن لما تبقى من الأندلسيين الموراكة البقاء في ديارهم ، التي لم يعرفوا غيرها على مر العصور . وحققت انتصاراً أخيراً أضافته لانتصارات سابقة استهدفت سيادة العصبية ، وطمس كل المعالم الأندلسية بالقوة والأرهاب .

---

(١) انظر : Defourneaux,Marcelin.Daily Life In Spain in The Golden Age, pp 36-39.

٣ - الحضارة الأندلسية وعصر النهضة الأوروبي

ا - التركة اليونانية:

ترغب أوروبة اليوم في النظر الى حضارتها على أنها استمرار للحضارة اليونانية القديمة[١] وتتداخل الفلسفة والمسرح والتاريخ والعلوم والميثولوجيا اليونانية القديمة مع الحضارة الاوروبية ، مثلما اختلطت الحضارة اليونانية مع الثقافات الشرقية وأديان وفلسفة المشرق والمؤثرات المحلية والخبرات المطورة ، لكي تقدم للعالم تلك الحضارة العالمية الفذة . وحين كتب شكسبير مسرحياته الشهيرة بين آخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر فانه كان يغترف من التركة المسرحية الهائلة التي خلفها اسكليز (٥٢٥ - ٤٥٦ ق . م .) وسوفوكليز (٤٩٧ - ٤٠٦) ويوروبيديز (٤٨٠ - ٤٠٦) وارسطفانيز (٤٤٥ - ٣٨٥) . وعندما جلس ادوارد جيبون ليكتب تاريخ انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الثامن عشر ، فانه كان يعي التأثير الذي تركه هيرودوتس مؤسس الدراسات التاريخية قبل ٢٢ قرنا . أما الفلسفة اليونانية فتركت تأثيرات خالدة على معظم الفلاسفة في العالم بعد ترسيخها بفضل سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩)،الذى يعتبر مؤسس الفلسفة الإنسانية ، وأفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧) مؤسس اكاديمية أثينا (٣٨٧)،وارسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢) مؤسس مدرسة أثينا وواضع مبادىء العلم والتفكير التحليلي .

وخلال ذلك القرن الذهبي من تاريخ الفلسفة العالمية كان اهتمام الثلاثة الكبار يشمل بعض أصغر الأشياء وأعظمها من تشريح السمك الى محاولة سبر أغوار الروح البشرية . فكان سقراط سمينا قبيح المنظر ولكنه تعود ان يستوقف المارة ليسألهم عن آرائهم في الحب والحياة والعدل ، وشرب السم بشجاعة وهو يتحدث إلى اصدقائه عن تجاربه بعد ان اتهمه محتلو اثينا الاسبارطيون بتضليل االشباب وجاء أفلاطون ليظهر اختلاف آرائه عن معلمه ، واخفق عندما حاول ان يطبق مفاهيمه على الواقع ، ولكنه كتب « الجمهورية » ووضع في مؤلفه تصوراته لدولته المثالية . أما ارسطوطاليس فكان مستعدا لتأليف كتاب عن أى شيء . وأخطأ عندما اعتقد أن الماعز تستنشق الهواء من أذنيها ، ولكنه أصاب في كثير من الأراء التي تفتق عنها عقله العظيم ، وظل اهم الفلاسفة الذين تأثر بهم العرب والأوروبيون اعتبارا من القرن الثامن الميلادى . وان كان من الصعب الفصل بين الفلسفة وارسطوطاليس ، فان من السهولة الاعتقاد بان اعمال هذا الفيلسوف،وغيره من عباقرة اليونان القديمة،ماكانت لتحدث تأثيرها المعروف لولا الجهد الذى بذله ارسطو في تعليم الإسكندر المقدوني .

وعندما جمع الاسكندر (٣٣٦ - ٣٢٣) جيشه المؤلف من ٣٠،٠٠٠ راجل وخمسة الآف فارس لشن حربه الانتقامية ضد الفرس بعد سنتين من تسلمه السلطة من أبيه المغتال ، فانه لم يكن يشن حربا

(١) انظر مقدمة « تاريخ اوروبة » لفيشر .

عادية . وقد تعلم الاسكندر القسوة حين بطش باصحاب الثورات التي اندلعت ضده في أثينا وغيرها إلا أنه قاد جيشا ضم الجنود كما ضم الفلاسفة والعلماء والمهندسين . وتحولت حملته من قهر الفرس الى السيطرة على العالم القديم والوصول الى اطراف الارض المعمورة في الجنوب والشرق . وخلف جيش الاسكندر اقيمت ٧٠ مدينة كانت مراكز للحاميات اليونانية في البداية ومراكز نشر الحضارة اليونانية فيما بعد . واستمر التجار والفنانون والمعماريون والمرتزقة اليونان في نقل حضارتهم الى المواطن الجديدة وهم يرتحلون من مكان لآخر . ومن لم يخش سيف الاسكندر رغبه لبعض تصرفاته. فلم يجد أعظم الفاتحين الاوائل مثلا غضاضة في اعتبار قرني كبش الإله آمون للتقرب من الكهنة الفراعنة ، فنال بذلك صفته المعروفة بذى القرنين . وظل صيته ذائعا بعد موته بالحمى ولما يتخطى الثالثة والثلاثين، وتمكن في سنوات سلطته الثلاث عشرة من تحقيق مالم يتحقق لأحد من قبله . وانتهت بموته حقبة تاريخية كاملة انهارت معها امبراطوريته وبقيت الحضارة اليونانية .

في مصر التي كانت من نصيب بطليموس عرفت الحضارة اليونانية امتدادها الطبيعي فجمعت في الاسكندرية اكبر مكتبة عرفها العالم حتى ذلك الوقت اذ ضمت ١٠٠,٠٠٠ مخطوطة ، واصبحت المدينة الساحلية تلك مركز الحضارة في العالم القديم وان ظلت اليونان محتفظة ببعض بريقها الأصلي ومالت فيها العلوم الى التخصص والعملية التي استفاد منها الاوروبيون في القرن السادس عشر . واذا كانت اوروبة ذلك العصر لاتريد ان تصدق ان الارض كروية ، فان هذا الرفض لم يكن جديدا لان معاصرى فيثاغورس نفسه رفضوا تصديق « زعم » الرياضي والفيلسوف اليوناني الذى وضع وتلامذته كثيرا من قواعد الهندسة التي ماتزال شائعة اليوم . ومثل ذلك اعلان الساموسي ارستارخوس (٣٢٠ – ٢٥٠) بان الارض تدور حول محورها وتدور حول الشمس في مسار محدد . ومن عباقرة اليونان ارخميدس (٢٨٠ – ٢١٢) الذى اكتشف في حمامه ان الجسم الموضوع في الماء يطرد كمية تماثله في الحجم من الماء، الى جانب اكتشافاته المهمة في الرياضيات والفيزياء . وعمل معاصره اراتوستينيس (٢٨٠ – ٢٠٠) على قياس قطر الأرض في وقت شملت فيه الاهتمامات كل النواحي . إذ أنشأ أبقراط اول مستشفى ، وملاحظته المستمرة لتطور عوارض المرض هي الاساس في الطب اليوم، ومحور عمل الاطباء الذين لايزالون يؤدون « قسم أبقراط » قبل ممارسة مهنتهم . ولم يكن أبقراط وحيدا في نشاطه فقال ايروفيلوس الطبيب ان الدماغ مركز الجهاز العصبي ، بينما اهتم ايراسيستراتوس بدراسة الدورة الدموية وكان التشريح وسيلة تعليم رئيسية في القرن الثالث قبل الميلاد . ولم يكن التقدم في علم الفلك أقل من غيره ، فالمعروف أن ابارخوس (١٩٠ – ١٢٠) وضع مصنفا في مواقع النجوم ومواقيت الكسوف، وربط التنجيم مصير الانسان بالنجوم .

ولكن هذه النهضة لم تستمر ، وخَلَفَ الرومان اليونان في ممالكهم ولكن ليس في حبهم وتشوقهم للمعرفة الفلسفية والروحية . كانت روما قرية صغيرة عندما كان أرسطوطاليس يلقن الاسكندر ان الفكرة نبضة الحية وانها أعظم من الانسان نفسه ، ولكن فتوحات الاسكندر كانت أهم بالنسبة للرومان من أفكار معلمه . ومع ذلك فان الرومان تميزوا بعملية هائلة . كانوا أقل من اليونان خلقا وابداعا في

الفنون ولكنهم كانوا يسيطرون على أفضل جيوش العالم . هذه القدرة القتالية الضخمة احتاجت إلى الطرق المستقيمة لسرعة الوصول ، واحتاجت الى الجسور والمعابر لانتقال العربات والجنود فبنى المهندسون الرومان،أو اليونان الأسرى،بعض أفضل الطرق والجسور التي لايزال بعضها قائما مستخدما حتى اليوم . واتسم الرومان بقدرة تنظيمية هائلة مكنتهم من السيطرة على امبراطورية مترامية الأطراف في جميع الاتجاهات.وطوروا الزراعة والتجارة والصناعة بالاعتماد على ملايين العبيد من الشعوب المقهورة . ولم تمت أسس الفلسفة ، الا أن الرومان اغرموا بالبلاغة والخطابة ووضعوا بعض أفضل القوانين التي توارثتها عنهم أقوام كثيرة بعدهم . وفى عهد الأباطرة الرومان وعلية قومهم كان الاهتمام ببناء القصور والفيلات اهم من انشغال اليونان ببناء المعابد . وكان الشكل الواقعي لصاحب التمثال أهم للنحاتين الرومان من الكمال الذى اتصفت به التماثيل اليونانية . ولكن ظل المعلم اليوناني افضل المعلمين ، وكان الخباز اليوناني يساوي عند الرومان مئات العبيد .

ولكن الروح العسكرية الرومانية هبطت مع الزمن وكثر فساد الأباطرة وتقاوت على روما القبائل البربرية فاجتاحت الامبراطورية الرومانية الغربية . أما القسم الشرقي من الامبراطورية فانتقل الى القسطنطينية وذابت الرومانية في الحضارة اليونانية الأشمل فنطقت باليونانية ، وعادت الى الاهتمام بعلوم اليونان القديمة وقوانينها.ولكنها انشغلت بالدين وانتصرت للارثوذكسية على كاثوليكية روما ، وانشقت الكنيستان دون عودة . وطوال تلك القرون الطويلة كان تأثر سكان الجزيرة العربية بالحضارة اليونانية والرومانية اعمق مما هو معتقد اليوم . وكانوا يحملون عقيدة قوية مكنتهم من الاندفاع من الصحراء وتقويض الامبراطورية الفارسية ومن ثم تقليص ممالك الامبراطورية البيزنطية . وتهيأت الظروف لقيام حضارة عربية هائلة كانت الجسر المطور الذى عبر عليه عصر النهضة الأوروبي .

ب – معالم الثقافة الأندلسية :

استفادت النهضة العلمية العربية في العصر العباسي الأول من علوم الشعوب الأخرى ، كما سبق واستفادت الحضارة اليونانية مما توفر لها من المصادر غير اليونانية . وفي الحالتين لم يستمر اقتصار الأخذ عن الشعوب الأخرى على النقل . فتمكنت الحضارة اليونانية،ومن بعدها العربية،من استيعاب علوم وحضارات غيرهم وهضمها جيدا قبل تطويرها ، وبناء العلوم والمهارات الاضافية التي تفرضها تيارات محلية صرفة . وكما أن من المستحيل أن تنشأ الحضارات العريقة من العدم ، فان من غير الممكن أيضا أن تنشأ الحضارات دون توفر الأسس الضرورية مثل الاستقرار السياسي النسبي،والثروة الكافية والحماس القومي ، وتلك الرغبة الخفية في سبر أغوار الكون ومحاولة الإجابة على ملايين الأسئلة التي جالت في عقول البشر منذ أقدم الأزمنة . وفي الحالتين أيضا كانت الحاجة للعلوم استجابة لمطالب أمتين طموحتين فاض نفوذهما عن الحدود الوطنية الى مختلف أصقاع العالم القديم ، وانحسرت العسكرية،وانصب التركيز على البحث عن حقيقة الذات البشرية .

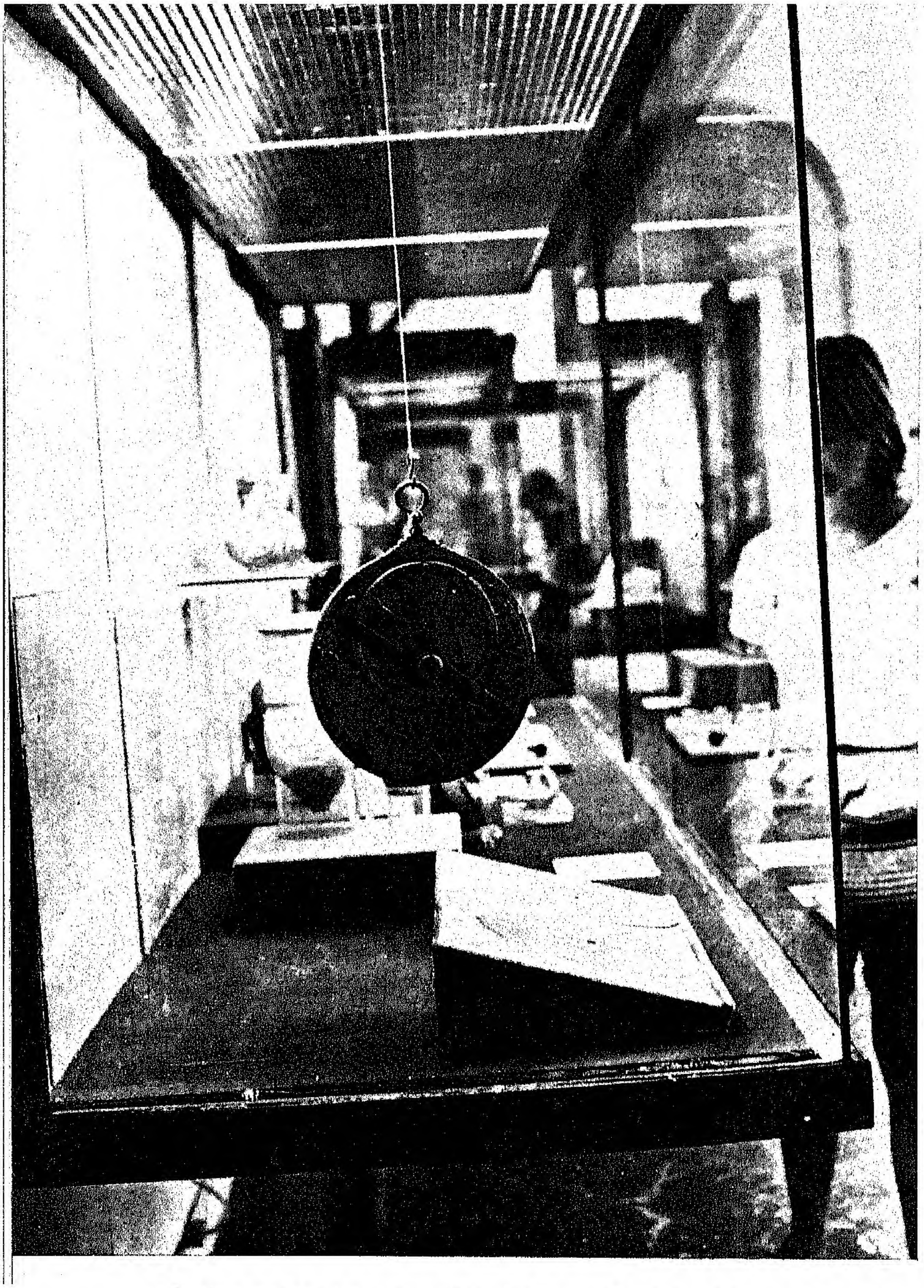

أحد أقدم الاسطرلابات التي عثر عليها في اسبانيا (المتحف الوطني ، مدريد)

وخلال القرنين الثامن والتاسع (الثاني والثالث الهجريين) تطورت العلوم في بغداد ودمشق ، ونشطت حركة الترجمة والنقل من اليونانية واللاتينية والسريانية والفارسية والهندية والنبطية . وأدى اختلاط العرب بغيرهم من شعوب الأراضي المفتوحة الجديدة الى السعي للحفاظ على الدين السليم واللغة الصحيحة، فصنفت المعاجم ووضعت المؤلفات في اللغة والفقه والتفسير والحديث والكلام والتصوف والفلسفة والتاريخ والجغرافية والطب والفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية والغناء والموسيقى وغيرها من العلوم . وشملت حركة النقل والترجمة بعض أعظم المؤلفات التي وضعها اليونان وغيرهم من العلماء البارزين في

الحضارات الأخرى.فكان هناك كتاب « السند هند » للفزارى ، ونقل سرجيوس بن البا « الفلاحة الرومية والغذاء » لابقراط و« الترياق » لجالينس ، كما نقل ابن وحشية « الفلاحة النبطية ».وفى سنوات لاحقة ترجم ابن البطريق « المقولات » لأرسطو (طاليس) و« طيماوس » لافلاطون . ونقل حنين بن سحق « رسالة في كتب جالينس » ويحيى بن عدى « النفس » لارسطو ، وقسطا بن لوقا البعلبكي « المرايا المحرقة » و « الفلاحة اليونانية » . ومن المؤلفات العربية التى وضعت : « أساس البلاغة » للزمخشرى ، و« وكتاب النحو » للخليل بن أحمد وسيبويه ، و « الجامع الصحيح » للبخارى ، و « رسائل فلسفية » للكندى ، و « أراء أهل المدينة الفاضلة » لابى نصر الفارابى ، و « الاشارات والتنبيهات » لابن سينا ، و« تاريخ الأمم والملوك » لابن جرير الطبرى ، و « كتاب الجدرى والحصبة » لابي بكر الرازى ، و « الجبر والمقابلة » لمحمد بن موسى الخوارزمي ، و« كتاب الموسيقى الكبير » لابي نصر الفارابي وغيرها من آلاف الكتب التي كانت ثمرة تطور العلوم المشرقية وأساس بناء الثقافة الأندلسية من بداياتها البسيطة .

والاهتمام بالمؤلفات والترجمة أفسح الطريق للاهتمام بانشاء المكتبات ، وكان الخلفاء والأمراء يفاخرون بعدد الكتب التي جمعوها من كل مصدر . ويرز الخليفة المأمون حاكما أولع بجمع المخطوطات حتى أنه اتفق مع البيزنطي ميخائيل الثالث على أن يتنازل له عن احدى مكتبات القسطنطينية كاحد شروط الصلح.ونقل منها ، كما يقول البعض ، ماعجز ١٠٠ جمل عن حمله . وكان من بين الكتب مؤلف لبطليموس عُرف باسم « المجسطى » حظى بمكانة خاصة بين الأعداد الهائلة التي ضمتها خزائن بيت الحكمة الذى أنشأه المأمون سنة ٨٣٢ (٢١٧). ولكن جمع الكتب والعناية بالتعريب والتوبيب والنسخ والتزويق بالألوان لم يبق حصرا على بغداد . فانتشرت المكتبات في جميع أنحاء البلاد ، وكان عدد المخطوطات في مكتبة القاهرة يساوى عددها في مكتبة الاسكندرية القديمة،وضمت ٦٥٠٠ مؤلف في الطب والفلك وحدهما كانت تعار ، مع غيرها ، للطلاب والدارسين. وكان لابد وأن تعمل الأندلس المتعطشة الى المعرفة على السعي للاستفادة من النهضة العلمية المشرقية بعد ان توفرت لها شروط التطور الثقافي والحضارى،فقلدت في البداية ، ثم تطورت قبل ان تظهر فيها المعالم الأندلسية المتميزة .

١ – البدايات الأندلسية :

لم يكن من المستطاع تطوير أية ثقافة محلية في الأندلس ، نظرا لضيق أفق الثقافة الأيبيرية والاضطرابات التي سادت فترة الولاة التي استمرت من سنة ٧١٤ الى ٧٥٦ (٩٥ – ١٣٨) . ومع ذلك كانت هناك حاجة لبعض العلوم الدينية والفلكية ، بالاضافة الى الحاجة للتعليم . والمساجد لم تكن يوما لتقتصر على أداء فروض الصلاة فهي في العالم الاسلامي مكان الالتقاء والدراسة والتشاور . ومن بين أوائل الأعمال التي قام بها موسى بن نصير بعد عبوره العدوة الى الأندلس بناء مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء ، وانتشرت المساجد فيما بعد في البيرة وقرطبة وسرقسطة . هذه المساجد كانت المدارس الاولى

التي عرفتها الأندلس « فان لم يكن المسجد ، فبيت الاستاذ نفسه »[1]، وفيها غطيت احتياجات السكان من العلوم الدينية البسيطة والحساب . وعلم الفلك (الهيئة) لم يكن استثناء فكانت ضرورة له لتحديد اتجاه القبلة وتعيين مواقيت الصلاة . ونظرا لوجود المسلمين في وسط نصراني كانت هناك حاجة لتقوية الشعور الديني ، وتلقين الناس مبادىء الدين ولاسيما بعد أن دخل الاسلام كثير من النصارى .

ولكن المتوفر في الأندلس خلال الفترة الأولى من الفتح لم يكن كافيا . إذ أن اختلاط العرب بأهل الجزيرة أوجد ضرورة للمحافظة على العربية فكان ذلك أساس التركيز على علوم اللغة في الأندلس، كما كان أحد أهم أسباب جمع اللغة وتصنيف المعاجم ووضع قواعد اللغة وأوزان الشعر في المشرق . إلا أن تطور هذه العلوم وغيرها ماكان ليتم دون وجود الظروف الاقتصادية والسياسية الملائمة وهي ظروف لم تتوفر الا بعد إعلان الإمارة في قرطبة . وتمكن عبد الرحمن الداخل بفضل حنكته وبطشه من اغلاق الأبواب السياسية في وجوه الجميع، وضعفت الروح العسكرية بين العرب بعد ازدياد الاعتماد على العسكريين الأجانب ، وانصرف الناس الى تكوين الثروة التي قامت على الزراعة ، شأنها في ذلك شأن جميع مصادر الثروة في تلك الفترة ، ثم اتسعت لتشمل التجارة والصناعة . وتوفر الثروة والاستقرار النسبي المطلوب كانا عاملين أساسيين لنشوء ثقافة كان لابد لها من الاعتماد على المشرق ، وبدأت بالبسيط العملي قبل أن تتشعب .

وتعددت طرق انتقال الثقافة المشرقية الى الأندلس، فكانت تتم عن طريق الأندلسيين المتوجهين الى المشرق للحج أو غير ذلك من الأمور . او عن طريق وفود كانت ترسل الى المشرق لغرض الاطلاع على العلوم هنالك والعودة بالكتب ، كما حدث بالنسبة لوفد بعث به عبد الرحمن الثاني (او الحكم الربضي) وعاد بمجموعة من المؤلفات بينها كتاب « السند هند » الذى اعتمد الأرقام الهندية . كما ارتحل الى الأندلس عدد كبير من العلماء والمؤلفين وساهموا في الحركة الثقافية هناك ، قبل أن يوفر الازدهار في الامارة القرطبية الثروة للانفاق على طلاب العلم الذين غادروا الأندلس الى المشرق طلبا للعلم والثقافة ، وروح المنافسة العلمية التي اسهمت فى تطور الثقافة الأندلسية . وتواكب مع هذا الاتجاه اهتمام الحكام بالعلوم، وسخاؤهم في انشاء المكتبات والمدارس ، فشاع العلم وشمل الذكور والاناث وعمت معاهد التعليم كل الاراضي الأندلسية .

ولعبت عوامل أخرى في اغناء الثقافة الأندلسية خلال مراحلها التالية . إذ أن اضمحلال سلطة الخلافة العباسية وتسلم الأتراك زمام الأمور ادى الى انتقال كثير من العلماء الى الأندلس ، والابتعاد عن سادة بغداد الجدد الذين كانوا دخيلين على ثقافة لايفهمونها ، وعلوم لاتهمهم في كثير أو قليل . وكان في استطاعة أمراء قرطبة اكرام هؤلاء بعد أن قدر دخلهم السنوى بحوالي الف الف دينار . وتوفر هذه الثروة مكن بعض الأمراء من شراء جوارى كن يتميزن بفنهن وفكرهن مثل جاريتى عبد الرحمن الثاني، علم

---

[1] « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر سيادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس ، ص ٣٨ .

المدينة وقلم التي وصفت بانها « اديبة راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الأدب ».وفي عهد هذا الامير ارتحل الى قرطبة ابو الحسن على بن نافع المعروف باسم « زرياب ».فنقل معه العادات العباسية فى المأكل والمشرب والملبس ففرض ذوقه ، كما تفرض المطاعم الشهيرة ودور الأزياء العالمية اليوم أذواقها ، وانتشرت اولويات تقديم الطعام من الأندلس الى بلاطات ملوك وأمراء اوروبة فكانت مقياس الذوق الرفيع عندهم ، الامر الذى اكسب زرياب شهرة أوروبية كبيرة في زمنه،ثم فيما بعد .

٢ - تطور الثقافة الأندلسية :

امتد عهدا الامارة والخلافة في قرطبة حوالي قرنين ونصف القرن ، وانتقلت الحضارة الأندلسية خلال هذه الفترة من مرحلة الاستجابة للمتطلبات الانية الى مرحلة شديدة التعقيد ، استوعب فيها الأندلسيون العلوم التي انتقلت اليهم من المشرق ، ثم شرعوا في اضافة الكثير من جهدهم الخاص لتطوير تلك العلوم . وأظهروا إتجاها يكاد يكون منفصلا عن التيارات الثقافية المشرقية في أوجه كثيرة ، وخاصة في الفترات اللاحقة من نضج الثقافة الأندلسية . ونشطت هذه الحركة في وقت كثر فيه الخير وتوفرت وسائل الانتقال البحرى مع المشرق فنهلت الكثير من العراق وغيره ،واستقبلت العلماء والمثقفين الذين هربوا من جور ، او قدموا سعيا وراء التقدير أو طمعا في الثروة . وكان من الأمراء والخلفاء من حمل ثقافة عالية فألف أو جمع العلماء والأدباء حوله على عادة المشرقيين ، وأنشأ المكتبات الكبيرة التي وصلت إلى ٧٠ مكتبة أهمها مكتبة الحكم الثاني التي ضمت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد ، يزعم (١)البعض أنه قرأها جميعا . ولكن كانت هناك مكتبات صغيرة في القرى لإفادة من يشاء .

وكانت معظم المكتبات تضم ركنا خصص للتعريب أو النسخ . وساهم في تسهيل عملية النسخ تطور صناعة الورق في عهد هارون الرشيد (٢)وانتقالها إلى الاندلس .فكانت دورا لصنع الورق في طليطلة وقرطبة وشاطبة وبرع أهلها في اعداد الورق النظيف وزخرفة وجوه الكتب وتمويهها بماء الذهب والفضة ، وظلت طرق اعداد المجلدات الأندلسية السائدة في اوروبة عموما،وفي فرنسا خصوصا،حتى نهاية القرن الثالث عشر ، حين بدأت تظهر شيئا من الاختلاف.وفي سنوات التقدم العلمي هذه أصبحت الأندلس محل حضارة متقدمة فقصدها طلاب العلم من المشرق والمغرب للتتلمذ على أيدى بعض أشهر علماء ذلك العصر وحكمائه وأطبائه بعد أن ظهرت قرطبة قوة من أقوى دول الارض في تلك الحقبة من الزمن . فتسابقت وفود أمم أوروبة الى قرطبة ملتمسة العون،مادة يد الصداقة عندما جمعت القوة العسكرية الكبيرة والحضارة المتفوقة .

---

(١) وأقول « يزعم » لأنه لو تطلبت قراءة المجلد خمس ساعات في المتوسط لاحتاج إلى ٢٢٨ سنة ، ولكن الغرض من المبالغة هنا مفهوم .

(٢) الظاهر ان الصينيين عرفوا الورق في حوالي ١٠٠ قبل الميلاد ، ولكن العرب كانوا اول من ادخله الى اوروبة عن طريق الأندلس ، وكان الاوروبيون قبل ذلك يستخدمون الرق . ولعل شاطبة كانت اول مكان في اوروبة يصنع فيه الورق .

تمثال الحكم الثاني في قرطبة

وخلال تلك الفترة من نهضة العلوم في الأندلس ظهرت المؤلفات المختلفة في الطب والفلك والتاريخ المحلي والعربي ، وبدأت ممارسة الطب على الأسس التي وضعها اليونان ، وشاع التشريح وصناعة الآلات وبرز في عهد الامارة عدد كبير من الأطباء والأدباء والمؤرخين . ومن هؤلاء عبد الملك بن حبيب (المتوفى سنة ٨٥٢ أو ٨٥٣ (٢٣٨ / ٢٣٩) الذى لقبه البعض من معاصريه « بعالم الأندلس »[1] ، ووضع

---

(١) انظر « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور احمد بدر، ص ١٨٧.

١٠٥٠ كتابا أشهرها كتاب « التاريخ » المحفوظ في اكسفورد ويعتبر واحدا من أقدم ماوضعه العرب في التواريخ العامة ، فهو يبدأ من نشوء الخلق ومابقي من الوقت الى أن تقوم الساعة . كما اشتهر مسلم الليثي بدراسة الفلك (علم الهيئة) على الأسس التي وضعها علماء اليونان القدمى « من اهتمام بشكل الأرض ، واختلاف المناخ من بقعة الى أخرى في الأرض مع مارافق ذلك ، من التنبؤ بمصير الناس وأرزاقهم من حركات النجوم . أي أن علم الفلك كان لايزال مختلطا بالتنجيم ».(١) واشتهر من الأطباء أحمد بن اياس (حمدين بن أبا) الذى وضع عقاقير شافية وصل عددها الى ١٠٠ عقير نباتي ، ووضع مؤلفات كثيرة يشرح فيها بعض العمليات الجراحية المعقدة ، ومنها مااختص بالرحم مما يؤكد انه بنى قسما من خبرته على عمليات التشريح . وفي ذلك العصر المزدهر برز واحد من أشهر العباقرة وهو عباس بن فرناس المتوفى سنة ٨٨٧ (٢٧٤) وكان عارفا بكثير من علوم زمانه . وحدث ان أهدى أحد التجار كتاب « العروض » للخليل الفراهيدى الى عبد الرحمن الثاني فوجده أهل بلاطه عسير الفهم فاطلع عليه ابن فرناس وفسره . وصنع الميقاتة عزى اليه ،وكذلك صناعة الزجاج من السليكا،عماد صناعة العدسات اليوم . ويقال إنه مثل في منزله شكل السماء حتى ليخيل للناظر انه يرى النجوم والبروق والرعود . ومن المحتمل أن يكون هذا العبقرى فكر فى الطيران ولكن مسألة سقوطه،لأنه نسي تركيب الذيل،تجني على عبقريته التي لايمكن أن تقارن الا بشخصية من وزن ليوناردو دافنشي .

وكان من الطبيعي أن تساهم أعمال العلماء والأطباء والمفكرين في تثبيت عوامل التميز التي ظهرت في الأندلس ، وبدأت تظهر من خلالها استقلالية معينة عن منبع الثقافة الأندلسية في المشرق عموما ، وفى العراق على وجه الخصوص . ويقول الدكتور احسان عباس في تلك : « ومن الطبيعي بعد هذه النهضة العلمية التي استغرقت في تطورها قرنين من الزمان على وجه التقريب الا تبقى الأندلس عالة على الكتاب المشرقي والثقافة المشرقية ، وان هي لم تقطع صلتها بهما على مر الزمن ، فانها في الفترة الواقعة بين عبد الرحمن الناصر وآخر الدولة العامرية وجدت ذاتها ، والتفتت لماضيها واهتمت بحاضرها ، وأدركها شيء يشبه الشعور القومي ، ودفعها الحكم المستنصر في هذا السبيل دفعة قوية ، فاذا المكتبة الأندلسية تزخر بالمؤلفات عن الأندلس باقلام أهلها ، وهكذا وجدت الأندلس رجلها وتاريخها وعلمها وأدبها ، فتحدثت عنه وخلدته » .(٢)

ولكن مجد قرطبة لم يدم فانهارت الخلافة ، وقامت على أنقاضها ممالك الطوائف ، وكانت نكسة عنيفة لوحدة الأندلس وقوتها . ومع ذلك فان بروز الممالك المتعددة سبب تنافس حكامها لاجتذاب الشعراء والأدباء والفلاسفة والعلماء . وظهر في هذه الفترة ابن حيان (٩٨٧ – ١٠٧٦ / ٣٧٧ – ٤٦٩) ، وابن زيدون (١٠٠٣ – ١٠٧١ / ٣٩٤ – ٤٦٣) ، وابن وهبون ، وابن اللبانة ، وابن عمار ، والجغرافي العذرى ، وابن حزم . واشتهر في طليطلة كثيرون مثل صاعد الأندلسي الطليطلي صاحب كتاب « طبقات الأمم »،وكان لولد الزرقيال باع طويل في العلوم الفلكية اعتمد فيها على ملاحظاته وخبرته

(١) أنظر : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٢) « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر سيادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس ، ص ٧٩ .

الطويلة في المضمار ، وأبو عامر بن الأمير المقتدر بن هود الذى برع في العلوم الرياضية والمنطق والعلم الطبيعي والالهي ، وابن البغونش الطبيب وغيرهم . وعرف الكرماني في سرقسطة عالما في العدد والهندسة واليه يعود فضل ادخال رسائل اخوان الصفا الى الأندلس مع ما ادخله آخرون مع مؤلفات مشهورة مثل « القانون » لابن سيناء،وديوان المتنبي،ومقامات الحريرى ورسائل البديع الهمذاني والخوارزمي و« رسالة الغفران » و « اهل المدينة الفاضلة » للفارابي وبعض كتب الغزالي . وفي عاصمة الثغر الأعلى عرف كذلك عبد الله بن احمد السرقسطي المتبحر في علوم العدد والهندسة . واهتم الفيلسوف ابن باجة ، الذى درس في اشبيلية ومات مسموما في فاس ، بسعادة النفس البشرية وكمالها ، ويعد من أهم الشارحين لكتب ارسطوطاليس قبل ابن رشد . وأظهر ابن السيد البطليوسي معرفة واسعة بكتابات ارسطوطاليس وزينون وأفلاطون ، ويعتبر البعض كتابه « الحدائق » اول محاولة للتوفيق بين الشريعة الاسلامية والفكر اليوناني . ولاشك أيضا في أن ذلك العهد استفاد من تركة الخلافة من الكتب فاستمر الاهتمام البالغ بها وكثر تصنيفها وجمعها-ويقال أن محمد بن يحيى الغافقي (ابن الموصل) جمع من المجلدات مالم يجتمع لاحد منذ الحكم الثاني .

وفي عهدى المرابطين والموحدين استمر النشاط العلمي والأدبي بعد بداية صعبة ، وتمكنت الحضارة الأندلسية من جر الحكام الجدد الى نطاقها،إلا أن الثقل الثقافى انتقل على مراحل الى العدوة ، وان كان كثير من المشتغلين بهذا الحقل من أصل أندلسي . من اعلام هذه الفترة من التاريخ ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ (ابن باجة) عالم الرياضات والفلك والفلسفة ، وابن بسام الشنتريني صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وعلى بن عبد الرحمن الخزرجي الطليطلي الطبيب ، وابو الحسين محمد بن احمد بن جبير صاحب « رحلة ابن جبير »،وابو عبد الله محمد بن الآبار ، وعبد الواحد المراكشي مؤلف « المعجب في تلخيص اخبار المغرب »،وابن عذارى صاحب « البيان المغرب »،وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي صاحب « حي بن يقظان »،وأبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد (ابن رشد) ، والمتصوف محيي الدين ابن عربي المولود في مرسية (١١٦٥ / ٥٦٠) والمتوفى في دمشق حيث يعتبر من الأولياء الصالحين .

الى جانب هؤلاء عرفت مدن الاندلس المختلفة الاطباء وعلماء النبات والزراعة باعداد كبيرة ، ورحل كثيرون منهم الى غرناطة بعد انحسار السلطة العربية عن معظم الاراضي الاندلسية في القرن الثالث عشر،وهؤلاء كانوا المعلمين الذين اخرجوا للعالم من تلك المملكة الاسلامية شخصيات مثل ابن البيطار وابن الرومية وابن الجياب وابن خاتمة وابن الخطيب . وفي اخر الممالك الاسلامية تلك ازدهرت المباني والصناعات والزراعة فكانت تقدم بعض افخر انواع الورق والفخار المذهب والاصباغ والجلود المدبوغة والحرير المقصب والحلي والاسلحة والزجاج الملون وغير ذلك . اما العلماء والادباء الذين هاجروا الى المغرب او مصر او الشام بعد سقوط ديارهم بايدى الشماليين،فكان لهم فضل كبير على تطور الثقافة والعلوم في اوطانهم الجديدة ، وربما وجد بعضهم الطريق الى بغداد التي فقدت مجلداتها على يدى هولاكو (١٢٥٨)،فاعادوا اليها بعض ماأخذه اجدادهم من عاصمة الخلافة العباسية السابقة .

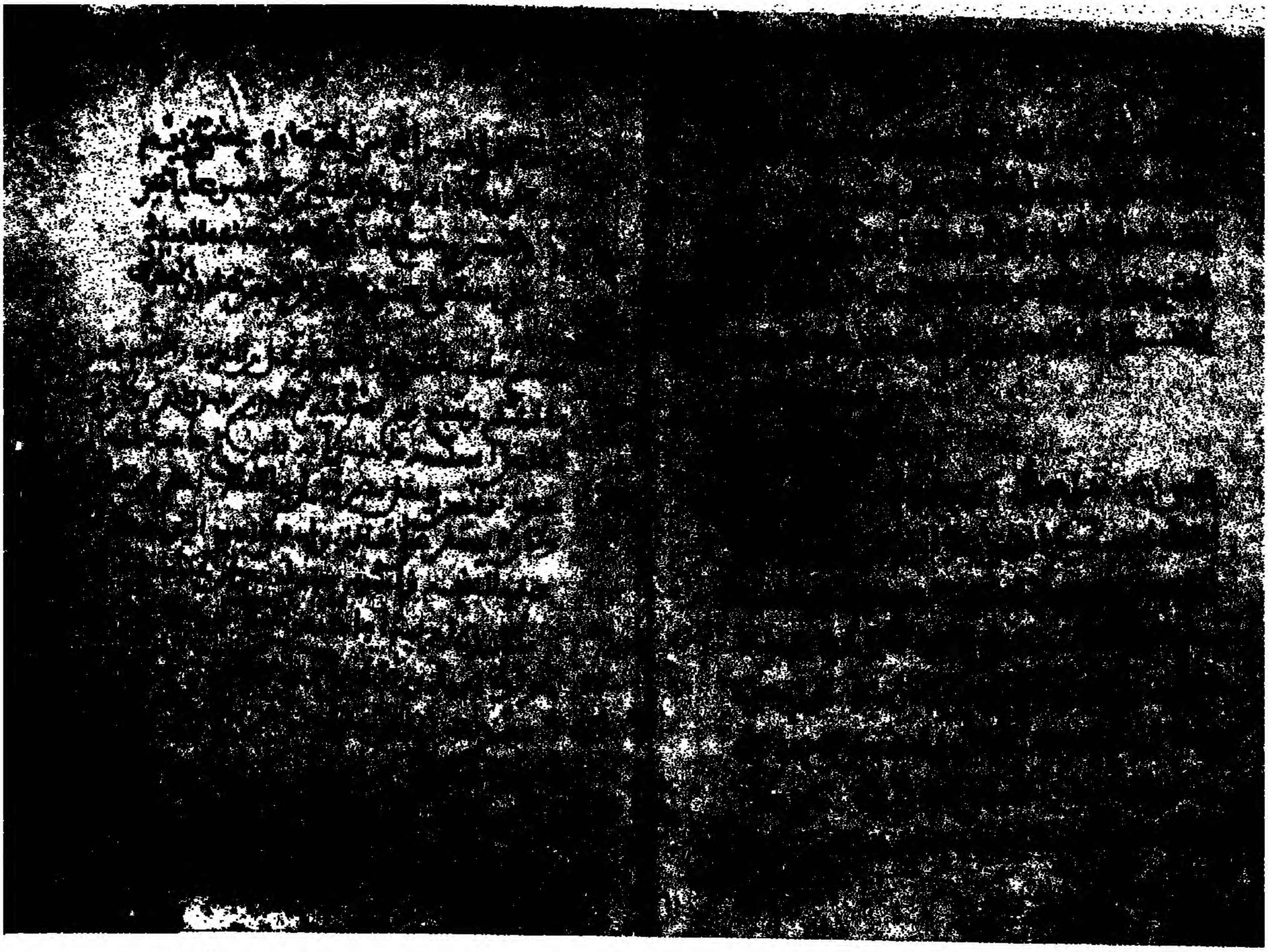

مخطوطة « لباب المحصل » بخط العلامة ابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ (١٤٠٦).المخطوطة رقم ١٦١٤ ، الأسكوريال.

ج – التأثير الاندلسي في نشأة الثقافة الاوروبية :

تعقيد العلوم اليونانية وتنوعها فرضا مرور فترة طويلة قبل أن يتمكن العلماء العرب من هضمها وإستيعابها قبل تقديمها بصورتها الأولى ، أو بشكل الخ ..مطور احتوى على شروحات مفصلة ، او اضافات نتجت عن مراقبة جديدة او تحليل لبعض جوانب تلك العلوم . وادرج شمس الدين محمد بن ساعد الانصارى في « ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد » ٦٠ علما اشتغل به العرب اما ترجمة عن اليونان والرومان والفرس والهنود والأنباط وغيرهم ، واما تطويراً لعلوم جديدة تطلبتها عوامل الحاجة لثبت اللغة وشرح الدين وتطوير الزراعة والصناعة ووضع أسس التعامل بين الناس ، وغير ذلك من العلوم والنشاطات الفكرية التى وجدت دفعة قوية من خلال حث الاسلام على طلب العلم ، والسيادة العربية التي نهضت على سلطان بغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة . ولم يكن الاشتغال بالعلوم مجرد الجسر الذى انتقلت عليه حضارة اليونان الى اوروبة في القرون اللاحقة . فالمترجمون العرب والسريان وغيرهم حفظوا الكثير من اعمال العلماء والفلاسفة والاطباء اليونان من ضياع شبه حتمي ، غير ان ما عرفوه وماطوروه وابتدعوه كان كافيا لقيام حضارة علمية عربية هائلة اتصفت بتميزها الخاص فلم تكن نهاية العلوم ولاشكلها الأخير ، وهذا ينطبق على علوم اليونان كما ينطبق على علوم وحضارات غيرهم .

ومن بين اكثر من ٣٠٠ مدرسة عربية كانت القاهرة تضم ٨٩ منها،وبغداد ٤٠،ودمشق ١٣٣،والقدس ٤٤ ، بالاضافة الى مدارس كثيـرة في الموصل والقيروان وقرطبة واشبيلية وغرناطة وسبتة وسمرقند وبلخ وغيرها من المدن الاسلامية .ومـن اشهر هذه الدور بيت الحكمة الذى بناه المأمون سنة ٨٣٢ (٢١٧) وكانت له صفات كثيرة من جامعات اليوم ، وجامعة القرويين المبنية سنة ٨٥٩ (٢٤٥) ، والازهر المبني بين عامي ٩٦٩ و ٩٧٣ (٣٥٨ - ٣٦٢) . وكما ان كثيرا من غير العرب ساهموا في خلق النهضة العلمية العربية ، فان ابواب العلم لم تكن موصدة دون العرب فنهل منه الجميع ، وكان الاساس الذى بنى عليه الملوك والامراء في اوروبة ثقافتهم خلال تلك الفترة من التخبط التي اعقبت اجتياح القبائل الجرمانية البربرية لاوروبة،وحتى قيام المملكة الكارولنجية .

وفي عصر شارلمان بدأت بوادر حضارة اوروبية محدودة نتيجة للاستقرار السياسي الذى وفره شارلمان ، وتجمع فى بلاطه معلمون استدعاهم من انجلترا وايبرية ولومباردى وايطاليا ليشكلوا المركز الذى شاء شارلمان أن يكون نبع ثقافة تعم كل ممالكه الضخمة . وتتبُع خطوات شارلمان تظهر تأثره بما كان يجرى في الاندلس عند حدود ممالكـه الجنوبية على غير عادة ملوك القبائل الجرمانية . وحاول هذا الملك غزو الشمال الاندلسي والسيطرة على سرقسطة سنة ٧٧٨ (١٦١) ولكنه اخفق وانزلت قبائل البشكنس وبعض العرب بمؤخرة جيشه هزيمة ساحقة عند باب شزروا (الشزرى) قتل فيها رولان (انظر ص ٥٤) . وان كانت حملة شارلمان العسكرية انتهت الى هذا الاخفاق الذريع ، فان معاينته لما كان يجرى في الاندلس عن كثب اكسبته الكثير في النواحي التعليمية والثقافية . وجد مثلا ان المساجد الاندلسية كانت المدرسة ودار العبادة في آن واحد،فاصدر امره الشهير بفتح المدارس في الاديرة بعد ١١ سنة من عودته من الاندلس ، وكان لهذا القرار تأثير عميق على تطور الثقافة الاوروبية فيما بعد . وهو سمع بتكريم عبد الرحمن الداخل وهشام الرضا للعلماء والادباء ، فجمع في بلاطه ابرز مثقفي عصره من مختلف الممالك النصرانية لاثراء مدرسة القصر التي انشأها سنة ٧٨١ لتكون النموذج الذى قامت عليه المدارس والكنائس والكاتدرائيات في جميع انحاء مملكته فكانت تلك الهيئات الدينية مؤسسات تعليمية تشجع العلوم وتنمي دراسة الرياضيات والهندسة والفلك والموسيقى . ولعل اهمية عمل شارلمان كمنت في انه حول العلوم من دراسات تهم الفنانين (Artes mechanicae) الى دراسات صالحة للاحرار (Artes liberales) جمعت القواعد اللغوية والخطابة والفلك وغيرها من العلوم . ولكن بما ان تلك النهضة قامت اساسا على وجود ملك مسيطر مثل شارلمان (اصبح امبراطورا سنة ٨٠٠) ، فان وفاته سنة ٨١٤ تسببت في خمول تلك الحركة وتقويض الكثير من اسسها بعْد ان تقوضت المملكة الكارولنجية .

وموت الحركة العلمية الفرنسية بموت شارلمان أرجأ أي تطور يذكر هناك حتى القرن الثاني عشر ، الا أن توجيهه للمؤسسات الدينية بضرورة تكريس جزء من جهود الكهنوتيين لمتابعة العلوم الحياتية استمر من بعده دون ان يحدث الاثر المطلوب . وفي هذه الاثناء كان التطور من نصيب ايطاليا،وكانت العوامل تتفاعل لخلق النهضة الأولى فيها من دون سائر الممالك الاوروبية . والاهتمام الايطالي بالعلوم تواكب مع الحركة الاصلاحية التي قادها غريغوريوس الخامس (٩٩٦ - ٩٩٧)،ورمت الى مركزة الادارة الكنيسة

تحت لواء البابوية ، وتطهير اخلاق الناس بعد تطهير قلوبهم . واستمرت هذه الحركة في عهد سيلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣) الذى انشأ الكثير من المدارس في ايطاليا وفرنسا وشجع العلوم واجتذب العلماء اليه . ولم يكن هذا التصرف غريبا على البابا سيلفستر الثاني الذى درس في مدارس قرطبة عندما كان راهباً باسم جلبرت وطبق ماتعلمه في عاصمة الخلافة القرطبية المحتضرة على مؤسسات علمية اراد لها الا تقل شأوا عن مؤسسات الاندلس . وبما ان الحركة الاصلاحية الكنسية تضمنت لم شمل الممالك المسيحية واعلاء شأنها ، فانه كان من الطبيعي ان تأخذ في بعض مظاهرها ابعاد اى نفوذ اسلامي عن ايطاليا اولا ثم عن باقي الدول الواقعة في اوروبة فيما بعد . والمعروف ان العرب كانوا يسيطرون على مناطق كثيرة من السواحل الايطالية الغربية واحتلوا روما سنة ٨٤٦ (٢٣١) .الا ان البابا يوحنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨) عمل على إجلائهم عن ايطاليا ، وأكمل الاسكندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣) عمل سابقه فحث النورمان على إجلائهم عن صقلية ، وكانت مركزا حضاريا عريبا مهما حتى باتت كلمتا « الطبيب الصقلي » تعنيان أفضل مايمكن أن يرتقي اليه طبيب من علم . أما أئمة روما الذين جاءوا بعد الاسكندر الثاني فعملوا على توسيع ساحة الحرب مع الاسلام ، وبدأت الحروب الصليبية آخر القرن الحادي عشر .

وفي المشرق أقام الصليبيون غرباء الموطن والحضارة وسط أمة تفرقت . وهدف السيطرة على بيت المقدس تحول مع الزمن الى مجرد السعي لخدمة التوسع التجارى ، الذى سعت لتحقيقه ممالك بيزا (بيشة) والبندقية وجنوة . وفي المشرق أيضا استذوق الصليبيون حضارة لم يعرفوها ، وأنماط عيش لم يتعودوا عليها . وطوال تلك الفترة التي استمرت حتى سنة ١٢٩١ (٦٩٠) عندما استعيدت عكا ، لم يخطر ببال الصليبيين أن في المشرق علم يستطيعون الاستفادة منه ، أو حضارة يمكن أن تحسن من حياة الجهل التي عاشتها اوروبة :« ... (ومع) أن الصليبيين اللاتين احتلوا القسطنطينية واثينا وكورنيث وطيبة فانهم لم يجلبوا معهم مخطوطة يونانية واحدة . ولم يكن يخطر ببال أى من الصليبيين ... بأن هناك شيئا يمكن أن يتعلمه الانسان من الأدب اليوناني القديم . وكانت تلك فرصة رائعة لكي يعرف الغرب ماتبقى من عظمة الشعر والفكر الهيليني ، ولكن تلك الفرصة ضاعت . وصحيح أن بعضا من شعاع ذلك النور العظيم اخترق اوروبة في القرن الثالث عشر ، الا أنه لم يأت من اليونان وانما جاء عن طريق التأمل المفيد الذى وفره العرب في اسبانيا » (١) .

وكما أن تقوض امبراطورية شارلمان لم يقوض جميع الأسس التعليمية التى أوجدها ، فإن الحملات الصليبية لم تكن هي الأخرى دون أى تأثير . والحروب الصليبية خلقت حركة تجارية نشطة كانت سببا رئيسيا فى « الثورة » التجارية التي عرفها العالم آنذاك ، واستفادت منها مدن السواحل الإيطالية والفرنسية الجنوبية بصورة كبيرة . وتوفر تلك الثروة مع المصادر التي أمكن الحصول عليها من الأندلس أو من القسطنطينية فيما بعد ، مهد لنشوء حركة علمية تركزت في ايطاليا واعتمدت أساسا على مدارس الكاتدرائيات ، وعلى موضوع الفلسفة اللاهوتية تحديدا . خارج نطاق التعليم الكنسي هذا اشتهرت

---

(١) انظر : Fisher,H.A.L., A History of Europe, Part I, PP 285-286 أو الترجمة العربية للكتاب .

إبن رشد الفيلسوف

جمعيات علمية في بولونيا،إلا أن أهم المؤسسات العلمية في تلك الفترة كانت جامعة ساليرنو في جنوب ايطاليا . وتقول اسطورة خاصة بهذه الجامعة أن أربعة أساتذة وهم:عربي ويوناني ولاتيني وعبرى ، شكلوا مدرسة للطب في الجامعة قبل القرن العاشر ، وظلت مادة الطب مادة رئيسية في الجامعة التي ذاع صيتها في القرن الحادى عشر ، ودرس فيها اطباء مشهورون قدم بعضهم من تونس أو المغرب ، وكانت تضم طلابا توافدوا اليها من جميع أنحاء اوروبة . واعتمدت الدراسة في كلية الطب على كتابات ابقراط وجالينس،وكانت تُقدم بشرح مستفيض لآراء ارسطوطاليس،ويختلط فيها العلاج مع التنجيم ، والحقائق الثابتة مع التصورات . ومع ذلك فان جامعة ساليرنو كانت أول مؤسسة علمية في أوروبة خارج الأندلس ، وظلت تتمتع بصيت ذائع الى ان انحدرت في القرن الرابع عشر .

واذا ذكرت السكولاستية (Scholasticus) في القرنين الحادى عشر والثاني عشر ، فانها كانت تشير عموما الى علمية ولاهوتية القرون الوسطى ، وتتضمن الدراسة الديالكتيكية للمفاهيم في وقت كان الديكالتيك فيه يعتمد على مقولة نعم ، أو ، لا ، بتطوير من بطرس ابيلارد (١٠٧٩ – ١١٤٢) . وكانت القضية الرئيسية التي شغلت الفلسفة النصرانية في ذلك الوقت تتعلق بنشأة الكون وماوراء الطبيعة اعتمادا على افكار ارسطوطاليس ، كما شرحها ابن رشد وغيره من فلاسفة العرب واليهود . ومع تطور تلك المفاهيم في عهد السكولاستية المحدثة ، ازداد الاعتماد على اعمال ارسطوطاليس وشروحها فكانت أساس نظم الفكر في الفترة الجديدة التي لايمكن انكار تأثيرها على صانعي الفكر الاوروبي في عصر النهضة، بعد ان توفرت للدارسين ترجمات كثيرة عن العربية ، أو الأصول اليونانية لبعض المؤلفات الفلسفية الشهيرة . وان عرفت ايطاليا بداية نهضة علمية وفلسفية قبل غيرها من دول اوروبة ، الا أن تلك البداية كانت بسيطة ، وتطورها لم يكن بنضج تطور علوم الأندلس أو فلسفتها . وهذا ماأكدته الدراسات التي تناولت المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الابسكوريال لتعرض « لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ومبلغ ماوصلت اليه من الازدهار والتقدم . فقد ظفر الباحث في هذه الوثائق مثلا بمخطوطات عربية ترجع الى سنة ١٠٠٩ م كتبت على ورق من الكتان مما يشهد لعرب الأندلس بفضل السبق والبراعة في هذه الصناعة ، وكذا بطائفة من المخطوطات التاريخية تدل بأن العرب كانوا أول من استعمل الديناميت في الحرب ، وغير ذلك مما يلقي أكبر الضياء على حقائق لبثت تحتضر قرونا في ظلمات الاسكوريال » .(١)

د – الأندلس وعصر النهضة الأوروبي :

ملكت الأندلس حضارة هائلة ، وكانت مركزا علميا نهل منه كثيرون من نصارى الأندلس ، ونقلوا الى الشمال المسيحي ماتعلموه في الجنوب بعد رحيلهم إلى الشمال نتيجة مجموعة مختلفة من الأسباب.

(١) « مواقف حاسمة » محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٢ ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ . وانظر ايضا موجزه عن الاسكوريال في المرجع ذاته،ص ٢٥٩ – ٢٦٨ .

ولابد أن الشماليين استفادوا كذلك من ثقافة وعلوم بعض الأندلسيين الذين أسروا في المعارك الكثيرة ، أو اختاروا البقاء في مواطنهم بعد سيطرة ملوك الشمال عليها . وبسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) توفر لالفونصو السادس مدينة عظيمة ومركزا مهما للعلوم والثقافة الأندلسية . وعرفت طليطلة عددا كبيرا من المشتغلين بالفلسفة والعلوم منهم أبو الوليد بن الوقشي الضالع باللغة والفقه والهندسة والمنطق ، وابو جعفر ابن منيح وكان عالما في الهندسة والنجوم والطب ، والقويدس الذى اشتغل بالعدد والهندسة ، وابن وافد اللخمي الطبيب المشهور الذى الف كتابا في الادوية جمع فيه بين كتابي ديوسقوريدس وجالينس .

وعاش في هذه المدينة كذلك ابو اسحاق ابراهيم بن يحيى التجيبي (ولد الزرقيال) الذى يعتبره البعض من أعظم علماء الفلك عند العرب ، الى جانب ابي عبد الله محمد سنان الحراني (البثاني) الملقب بـ : « بطليموس العرب » . وحاصر المسلمون طليطلة ، التي ماتزال تحتفظ بطابع القلعة ، ولكنها ظلت بأيدى الشماليين ، وكانت مركز شن الحملات على الأندلسيين ، وعاصمة الشمال الثقافية والسياسية فترة من الزمن . وفي طليطلة تطورت مدرسة للترجمة والنقل عملت على ترجمة المجلدات العربية واليونانية والعبرية الى اللاتينية ، وكانت بذلك من أهم المدارس التي وفرت لأوروبة مراجع فلسفية وعلمية قيمة .

واستمر الاهتمام بالترجمة بعد أن توفرت للشماليين مصادر جديدة من المعرفة إثر سقوط قرطبة وجيان واشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية الرئيسية . وكان من بين ملوك الشمال من اهتم بالعلوم العربية مثل الفونصو العاشر « العالم » الذى اتصل بالعلماء العرب وشجع الترجمة من العربية على نطاق واسع . واستمر اهتمام القشتاليين بعلوم العرب فيما بعد ، فحرصوا على جمع المجلدات العلمية حتى عندما سعت قشتالة لطمس جميع معالم الشخصية الأندلسية الإسلامية . وفي مكتبة قصر الاسكوريال، الذى بناه فيليب الثاني بين عامي ١٥٦٣ و ١٥٨٤، توجد اليوم اكثر من ٢,٠٠٠ مخطوطة عربية قيمة وهي دون شك جزء يسير مما توفر من المخطوطات العربية التي ماتزال بحاجة الى الدراسة والنشر . ولم تقتصر استفادة الشماليين على الفكر والابداع العربي ، إذ أنهم استفادوا أيضا من المؤسسات العلمية التي كانت قائمة في الأندلس وهو شئ يظهر من استعراض نشأة الجامعات الأوروبية وتطور الجمعيات العلمية فيها بعد ان توفرت المصادر ، وتوفر الاساتذة والطلاب .

ونمت المؤسسات العلمية الاوروبية في القرن الثاني عشر على صورة هيئات تضم المدرسين والطلاب على حد سواء . وكانت الدرجات العلمية هي التي استمر استخدامها حتى اليوم مثل البكالوريا والليسانس والماجستير والدكتوراه ، وكان التدريس باللاتينية قبل أن تتطور اللهجات المحلية . والبعض من هذه الهيئات كان تابعا للسلطات الدينية مثل جامعة باريس ، ولكن جامعات مثل بولونيا (ايطاليا) كانت تحت اشراف الطلاب انفسهم . وفي المرحلة التي سبقت نهاية القرن الثالث عشر وصل عدد الجامعات الأوروبية الى ١٦ جامعة ، وكانت شبه جزيرة ايبرية تضم ستا منها هي: جامعة بلازيا المنشأة سنة ١٢٠٨ ، وشلمنقة (قبل ١٢٢٠)، وبلنسية (١٢٤٣)، وبلد الوليد (١٢٥٠)، ولشبونة واشبيلية (١٢٥٦) . وفي فترات لاحقة أقيمت جامعات أخرى في لاردة ووشقة وابلة والقلعة وسرقسطة . وبعض

مخطوطة « السلوانات في مسامرة الخلفاء والسادات » أو (سلوان المطاع في عدوان الأطباع) للعربي الصقلي (محمد بن علي بن محمد بن ظفر) المتوفى سنة (١١٦٩) ٥٦٥ المخطوطة ، رقم ٥٢٨ ، مكتبة الاسكوريال .

هذه الجامعات قام نتيجة هجرة طلاب وأساتذة من جامعات أخرى ، كما حدث بالنسبة لجامعة بلازيا واكسفورد (١١٦٧) اللتين استفادتا من خبرات جامعة باريس (حوالي ١١٥٠)،التي استفادت بدورها من خبرات ايبرية . وبعضها تميز بالتخصص مثل جامعة ساليرنو أو جامعة مونتبلييه (١٢٨٩) التي

اشتهرت بالقانون والطب وقامت على اكتاف العلماء والمدرسين الأندلسيين من مسلمين ويهود اثر نزوحهم من الأندلس،واعتبر البابا الاسكندر الرابع سنة ١٢٥٥ جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وشلمنقة أهم جامعات ذلك العصر .

ولكن على الرغم من توفر كل تلك المصادر العلمية للقشتاليين ، فانهم لم يستفيدوا منها بقدر مااستفادة الأمم الأوروبية الأخرى . ولعل أهم سببين في ذلك الروح العسكرية التي ظلت تسيطر على قشتالة وأسبانيا فيما بعد ، والتعصب الديني الذى لم يتح للعلوم تلك الحرية الضرورية لنموها وتطورها ، ولم يسمح للشخصية القشتالية احتلال المكان الذى كان من الممكن أن تشغله في عصر النهضة الأوروبي . واذا وجد ملوك مثل الفونصو العاشر،الذى اهتم بالعلوم والثقافة العربية ، وتاريخ قشتالة وايبرية والموشحات وغيرها،فان ملوكا آخرين استهجنوا أن يميل مثل هؤلاء الملوك الى احترام التراث الاندلسي في الوقت الذى كانوا يسعون فيه للقضاء على الاندلسيين . ومن المعروف أن صلة الفونصو العاشر بالعلماء العرب أثارت نقمة الكثيرين عليه ومن بينهم ابنه شانسو (شانجة) الذى قام على ابيه سنة ١٢٨٢ (٦٨١) لهذا السبب وأسباب أخرى،مما حمل السلطان المريني المنصور للجواز الى العدوة لمساعدة الاب طبقا لرواية ابن خلدون ، أو الابن طبقا لرواية ابن الخطيب . ومن الأسباب الأخرى التي أبطأت حركة التقدم العلمي في قشتالة،مقارنة مع غيرها من الدول الأوروبية مثل ايطاليا أو فرنسا ، دخولها في صراعات داخلية استمرت بصورة أو بأخرى منذ عهد الفونصو العاشر وحتى تسلم ايزابيلا للسلطة سنة ١٤٧٤ . ذلك لأن اسبانيا لم تعرف عصرها الذهبي الا في القسم الثاني من القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر على ايدى سيرفانتس ودى فيغا وفالسكويز وغيرهم .

وخلال مرحلة الاضطراب السياسي القشتالي كانت الدول الأوروبية الأخرى تنتقل من مرحلة تطور علمي وأدبي الى أخرى . وبعد السكولاستية الاولى جاءت السكولاتية المحدثة التي وجدت رمزها الشعرى في الملحمة الدينية التي ألفها دانتي اليجيرى (١٢٦٥ — ١٣٢١) بعنوان « الكوميديا الالهية ».والثابت أنه تأثر فيها بـ « رسالة غفران » المعرى التي دخلت الأندلس ، وكانت من بين الكتب والرسائل التي دون ابن عبد الغفور ثبتا لها في كتابه« أحكام صنعة الكلام ». ولكن لدانتي فضل تطويع اللغة الايطالية وهو يعتبر أب الأدب الايطالي . وكان من الطبيعي أن يسلك الجدل الفلسفي في ايطاليا الدرب الذى سلكته الاتجاهات الفلسفية العربية والأندلسية قبل ذلك بقيادة ابن رشد وابن باجة والفارابي والغزالي وابن سينا وغيرهم ، اذ برز توما الاكويني (١٢٢٥ — ١٢٧٤) فحاول أن يقيم صلة عقلانية بين العقل والدين ولكنه ، على أهميته ، لم يقدم الاجابة النهائية . وفي المراحل اللاحقة اصطدم السكولاستيون العلمانيون بالروحيين ، وبرزت حركة تصوف قوية كرد فعل على السكولاستية ، ثم تطورت حركة الأفلاطونية الجديدة التي تأثر اصحابها بكتابات افلاطون التي وصلتهم من خلال كتابات ابن سينا وابن رشد ، واشتهر من هؤلاء القديسة كاترين (١٣٤٧ — ١٣٨٠) . ولعل أبرز فلاسفة ايطاليا في النصف الأول من القرن الخامس عشر كان نيقولا الكوزى (١٤٠١ — ١٤٦٤) الذى تناول بالبحث والتعليق كل التيارات الفكرية المتصارعة في ذلك الزمن،وضمنها في كتابه « الجهل المتفتح » الذى صدر سنة ١٤٤٠ ، وخلص فيه الى القول بأن الكون لامركز له ، وهو غير قابل للفهم عن طريق التفكير العقلاني

الفونصو العاشر (العالم) وإلى اليمين

تمثال سيرفانتس (مدخل المكتبة الوطنية،مدريد)

به . وفي السنة التي نشر فيها الكوزى كتابه أنشئت في فلورنسا الأكاديمية الأفلاطونية على نهج الحركة الأفلاطونية الجديدة التي كانت تقول بان التطور الفكرى للعقل البشرى يتوجب أن يكون بلا عوائق ، وأن الانسان قادر على تقريب ذاته من المثالية بواسطة دراسة الآداب الكلاسيكية . والجديد في الأكاديمية أنها قامت على اكتاف مفكرين رحلوا الى تلك المدينة الايطالية من بيزنطة مثل مانويل كريسولوراس وبيزاريون ، وعلموا باليونانية منذ بداية القرن الخامس عشر . ولكن توفر العديد من أعمال المفكرين اليونان بلغتهم الأصلية لم يلغ قيمة الشروحات التي أضافها المفكرون العرب على تلك النصوص ، أو الأعمال التي أضافوها إلى التركة اليونانية الهائلة .

وفي القرن الخامس عشر كانت الفرصة حانت لتطور العلوم التطبيقية وتحسين الاختراعات القديمة وإضافة الجديد اليها ضمن اتجاه عام للاستفادة العملية من العلوم التي توفرت آنذاك .وفي ذلك القرن وصل عدد الجامعات الأوروبية الى اكثر من ٨٠ جامعة ، وعمت الدراسات الانسانية،وسادت روح الاكتشاف ومراقبة الطبيعة ، لتحل محل المفهوم الارسطوطاليسي للكون ، وساعدت الاختراعات الحديثة على اقناع المنكرين بحقائق كانت معروفة قبلهم بقرون عديدة . فالبرهنة العلمية على أن الأرض ليست مركز الكون احتاجت الى عدة عناصر لم تتوفر كلها دفعة واحدة . كانت هناك حاجة لمنظّر فلكي

عبقرى مثل أرستارخوس قال في القرن الثالث قبل الميلاد أن الأرض تدور حول الشمس . وكانت هناك حاجة لفلكيين عرب حفظوا تلك النظرية،ولفلكي حديث مثل نيقولاس كوبرنيكوس أعاد تأكيد النظرية الأولى سنة ١٥٤٣ بالاعتماد على ملاحظاته وحساباته . ومع ذلك فان رفض تلك النظرية استمر حتى ١٦٠٩ ، عندما توفر لجاليليو التلسكوب . رأي الأخير أن للمشترى أربعة أقمار تدور حول أكبر الكواكب السيارة هذا ، فنسف بذلك الادعاء بأن الارض هي الكوكب الذي تدور حولها جميع الكواكب والنجوم . وقد لاتكون لمثل هذا الاكتشاف فائدة عملية في فترة مثل تلك ، إلا أن نظرية أخرى ، هي كروية الأرض ، فتحت أبوابا تجارية وتوسّعية وعسكرية لم تكن تخطر على بال،وان احتاجت الأخرى الى عدة عناصر كسابقتها . ارستارخوس واراتوستينيس قالا قبل الميلاد ان الارض كروية،وكرر الفلكيون العرب أفكارا مشابهة دون التعمق فيها ، ولكن اثبات ذلك تطلب تطوير السفن وابتداع أجهزة الملاحة التي مكنت السفن من الابحار في أعالي البحار ، بدلا من البقاء على مقربة من الشواطئ . وتطلب ذلك أيضا مغامرا مثل كولومبس،وأذنا صاغية مثل أذن ايزابيلا القشتالية التي وافقت على رحلة كولومبس البحرية ليس لهدف علمي ، وانما لاكتشاف مصادر التوابل في الشرق عن طريق الدوران حول الأرض بالابحار غربا والالتفاف نحو الهند . وظل هذا المكتشف حتى وفاته يعتقد بانه اكتشف الجزائر الواقعة الى الغرب من الهند .

والفرصة التي توفرت لكل من أسبانيا والبرتغال لم تتوفر لأية أمة أخرى من الأمم التي نشطت لبناء الأساطيل والسيطرة على البحار في العالم ، وهما استفادتا من التركة الهائلة التي ورثتاها من الأندلسيين ، وتطورت منذ المحاولات الأولى لترسيخ سلطة الامارة القرطبية . فحاجة الأندلسيين لدرء مخاطر القراصنة النورمان ، والاستجابة للمتطلبات التجارية التي تعاظمت مع نمو الحركة التجارية الأندلسية ، وضرورة تطوير الأساطيل البحرية لحماية الجزر الشرقية أو نقل التجار والحجاج والطلاب الى المشرق ، كل هذه الأمور،وغيرها،أدت الى التركيز على الحركة الملاحية واعطائها أولوية خاصة ، تمثلت في بناء السفن الكثيرة والانفاق على الاساطيل ، كما يتبين من اشارات كثيرة في التاريخ الأندلسي . ويقول صاحب « البيان المغرب » أن المجوس (النورمان) لما حاولوا الاغارة على مدن ساحل الأندلس الغربي « وجدوا البحر محروسا ، ومراكب المسلمين معدة ، تجرى من حائط افرنجة الى حائط جليقية في الغرب الأقصى »(١) ويقول صاحب « المقتبس » أن عبد الرحمن الأوسط سير سنة ٨٤٨ (٢٣٤) » أسطولا من ثلاثة مئة مركب الى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة ، لنقضهم العهد واضرارهم بمن يمر اليهم من مراكب المسلمين ».(٢) ويقول صاحب « الاحاطة » ان الحكم الثاني توجه الى مدينة المرية في رجب من سنة ٣٥٣ (٩٦٤) ، « وأشرف على أمورها ، ونظر الى اسطولها وجدده ، وعدته يومئذ ثلاثمائة قطعة . »(٣) وحظيت تلك المدينة بأهمية كبيرة اذ كانت مقر إمارة البحر التي استحدثت في عصر الخلافة ، وبقي منصب « أمير البحر » أعلى مراتب قادة البحرية في الأساطيل الأوروبية كما يؤكد ذلك الاسم المحرّف (Admiral) ، أو (Amiral) .

---

(١) انظر : « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، ابن عذارى المراكشي . تحقيق كولان وبروفنسال ، بيروت ، الجزء الثاني ، ص ٩٦

(٢) انظر : « المقتبس في أخبار بلد الأندلس » ابن حيان ، الجزء الثاني ، ص ٢ - ٣ .

(٣) انظر : « الاحاطة في أخبار غرناطة » الجزء الأول ، ص ٤٨٧ .

أما وقد استغل البرتغاليون والأسبان التركة البحرية الأندلسية وعملوا على تحسينها باستمرار ، فانهم تمكنوا من فتح العالم الجديد . بينما دفع سعي البرتغاليين للوصول الى مصدر التوابل في الشرق عددا من المتحمسين الى ركوب الأهوال للدوران حول رأس الرجاء الصالح مثل بارتولميو دياث (١٤٨٧)،وفاسكو دى غاماءالذى تمكن من العثور على الطريق الى الهند (١٤٩٨) بثلاث سفن و ١٥٠ بحارا بفضل المساعدة القيمة التي قدمها اليه شهاب الدين أحمد بن ماجد « أسد البحر العربي » المدفون اليوم في منطقة الندود برأس الخيمة في دولة الامارات العربية المتحدة . وفي الخليج أيضا عرف البرتغاليون الشراع المحدب المستخدم من فترة سبقت القرن العاشر الميلادى ، وكان ذلك اكتشافا مثيرا اذ كانت السفن تتمكن بفضله من استغلال أضعف التيارات الهوائية للابحار بدلا من انتظار المد قبل الشروع بالرحلة ، وادى هذا بالتالي الى تنشيط الحركة التجارية ، وزيادة الثروة عن طريق سرقة الأفارقة أفرادا وخيرات ، واستعباد أهلها المسلمين والوثنيين .(١)

ومن الاختراعات المهمة التي نقلها العرب الى أوروبة البارود المستخدم في الأسلحة النارية للدفع . واستخدم البارود لهذا الغرض في مرته الأولى خلال وقعة طريفة (١٣٤٠ / ٧٤١) بين المرينيين بقيادة سلطانهم ابى الحسن على بن أبى يعقوب ومعه سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف (الأول) ، وبين القشتاليين وحلفائهم . وانتشر استخدام البارود على نطاق واسع خلال حرب المئة عام بين الانجليز والفرنسيين (١٣٣٩ - ١٤٥٣) في مدافع قديمة طورها الايطاليون والفرنسيون فيما بعد. وكان من غرائب الصدف أن فرناندو « الكاثوليكى » استخدام مدافعا ترمي كرات فولاذية خلال حصاره لمدينة رندة سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) فجاء استقدام العرب لآلات قاذفة (الانفاط) من دمشق وبالا عليهم . أما الاستقدامات الأخرى غير العسكرية فشملت الساعات . وقصة الساعة التي أهداها هارون الرشيد الى شارلمان مشهورة . وطالما وفر العرب المبدأ الذى صنعت بموجبه الساعات ، فقد كان من الممكن تطويرها في وقت لاحق ، واستطاع بيتر هنلاين سنة ١٥٠٠ صناعة ساعة الجيب التى عرفت باسم « بيضة نورمبرغ » .

ولعل أهم الاختراعات المطورة في القرن الخامس عشر كان الطباعة . والطباعة لن تكن اختراعا أوروبيا اذ عرف اليابانيون الطباعة بالقوالب حوالي سنة ٧٠٠ ميلادية ، وعرف الكوريون الطباعة بالأحرف المتحركة حوالي سنة ١٤٠٠،وكان يوهان غوتنبرغ نفسه يمارس الطباعة بواسطة القوالب الخشبية المحفورة، وهي حرفة معروفة منذ القرن الثالث عشر . ووجد هذا الألماني ان صناعة الأحرف المنفصلة من المعدن تمكنه من استخدام الحرف لطباعة كلمات أخرى ، وهكذا تمكن نحو سنة ١٤٥٥ من طباعة ٤٢، سطرا

---

(١) أقام العرب محطات تجارية في شرق افريقيا ووسطها وشمالها منذ القرن السابع الميلادى ، ونشروا الاسلام في تلك المناطق . وبين القرنين الحادى عشر والسادس عشر قامت ممالك اسلامية مهمة في تلك المناطق منها قانم (حول بحيرة تشاد) ، وبورنو (بين تشاد والنيجر) ، وواداي (تشاد) ودارفور وكردفان . ووصلت مملكة مالي الى اوج سلطتها ابان حكم كونغو موسى (١٣١٢ - ١٣٣٧) ، بينما علا شأن مملكة جوا (مالي) تحت حكم اسكيا محمد ثم اتسعت المملكة بين (١٤٩٣ - ١٥٢٨) . واستغل البرتغاليون ذهب مملكة مونوموتاما (زمبابوى) بعد احتلالها في القرن السادس عشر . انظر الحاشية سابقاً ص ١٧٩ .

من الانجيل . هذا الابتكار فتح افاقا جديدة من الاتصالات الانسانية.فالكتب قبل ذلك كانت تنسخ في معظمها،بواسطة الرهبان في الأديرة . وكان النسخ يحتاج الى وقت طويل،اضافة الى أن الكنيسة كانت تنسخ الكتب التي ترضى عنها . وبتوفر الطباعة أمكن انتاج الكتب بالجملة وبأسعار معقولة ، وبات من الممكن اعتماد اللغات المحلية التي بدأت تستخدم للأغراض التعليمية والتأليف . ولكن الطباعة ماكانت لتصبح حقيقة واقعة لولا توفر الورق الذى أدخله العرب الى اوروبة محسنا،وطوروه في اوقات لاحقة من خلال استمرار تصنيعه في عدد من مدن الأندلس . ولعل اتقان صناعة الورق هو الذى مكن من انشاء أول مطبعة في شبه جزيرة ايبرية بعد ١٩ سنة من طباعة الانجيل الأول ، وكان مقر المطبعة مدينة بلنسية التي ضمت اكبر تجمع للأندلسيين في ذلك الوقت، باستثناء غرناطة .

ا – العلوم العربية والعصور الحديثة :

يحاول البعض اليوم الايحاء بخلو العلوم الحديثة من أية صلة بالحضارة الاسلامية باعتبار أن ماقدمه علماء العرب كان مجرد سرد لجانب من تاريخ تطور العلوم التي يعرفها العالم اليوم . وقول البعض بان أصول الحضارة الغربية تنبع من اليونان مكابرة هدفها حرمان فلاسفة العرب وعلمائهم من فضلهم الكبير ليس فقط في حفظ الكثير من أعمال اليونانيين القدماء ، وانما في تطوير تلك العلوم واضافة الكثير من العلوم الجديدة اليها . وعندما انهمك ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ – ١٥١٩) في تطوير علم الميكانيك ، فانه لم يكن يشتغل في علم جديد لانه علم عرفه اليونان ووقف العرب على أسرار ذلك العلم الذى كان يعرف باسم علم « الحيل »،لأنه في بدايته لم يكن اكثر من حيل،كما يتضح من « التقليعات » التي انتشرت في اوروبة في القرن السادس عشر ومابعده عندما كان العمال يكدون سنوات لصنع قرية مصغرة من الدمى والنوافير والأجراس لمجرد تسلية الأثرياء . واذا كان هنلاين مطور الساعات الصغيرة،فان من المعروف ان العرب اخترعوا رقاص الساعة الذى سموه « الدقاق » لأنه كان يدق مرة في الثانية أو ٨٦٫٤٠٠ دقة في اليوم . وكما أن من الصعب صناعة الساعة دون الرقاص ، فان من الصعب كذلك تطوير الرياضيات دون الارقام الهندية التي ادخلها الأندلسيون الى اوروبة ومازال تعرف حتى اليوم باسم الارقام العربية . أما في الفترات السابقة فكانت الأرقام الرومانية هي المستعملة.وكان مجرد ضرب رقمين برقمين آخرين يستلزم جهدا كبيرا حتى أدخل العرب الصفر الذى مايزال يعرف باسمه العربي (Cipher) . ومثل هذه الكلمة السمت (Zenith) والجبر والكحول والقرنية وغيرها العشرات من الكلمات التي لم يكن علماء الغرب يعرفون أى معنى لها في اللاتينية أو في لغاتهم المحلية .

ولكن التأثير العربي على الحضارة الاوروبية لم يقتصر على العلوم وانما تناول مختلف أوجه الحياة في اوروبة من الثياب الى الطعام الى الفروسية وسائر الشؤون الأخرى ، التي تسعى الشعوب الاقل حضارة لتقليد الشعوب الأسمى حضارة منها . كان الطب مثلا عند العرب لايفترق عن الغذاء كما لم يكن يفترق عن النظافة . وطورت شخصيات مثل ثيوفراستوس (١٤٩٣ – ١٥٤١) المفاهيم الطبية في اوروبة دون ان تتطور بمفاهيم النظافة عند الأوروبيين . فالطاعون كان مرضا يصيب الجرذان أساسا،ولكنه يصيب

الانسان ان عقصته قملة عقصت قبله الجرذ . وظل الحلاقون في اوروبة يمارسون الجراحة الى جانب عملهم الاصلي دون العناية باسس النظافة، بل إن تخصص الأطباء الجراحين كان ، في ظروف انعدام النظافة ، يضر اكثر مما ينفع(١) . ونجد أن حقد القشتاليين على الأندلسيين لم يقتصر على افنائهم وانما شمل كذلك تدمير منافعهم العامة مثل الحمامات .

والتاريخ يكاد يؤكد أن النهضة العلمية لايمكن أن تتوفر دون نهضة شاملة تتناول الوضع السياسي كما تتناول الوضع الاجتماعي والحالة الاقتصادية . وحين انهارت اليونان سياسيا واقتصاديا خمدت فلسفتها وعلمها وحضارتها ، أو استمرت بصيصا ايام مجد الامبراطورية البيزنطية حتى نهض العرب وبنوا حضارتهم التي انتقلت الى الأندلس ومنها الى اوروبة . وحين نهضت ر ـة كان الوطن العربي في سباته العميق تحت وطأة تخلفه الناجم عن الموجات الاستعمارية التي تعاقبت عليه . ونحو نهاية القرن الماضي تجدد الاهتمام بالتراث العربي ، وشرع عدد من المفكرين العرب في الاستفادة من المخطوطات القيمة الموجودة في مكتبات أسبانيا وبريطانيا والمانيا وهولندا وفرنسا وغيرها من دول اوروبة ، وبدأت معالم المساهمة العربية في تطور العلوم الانسانية في الاتضاح بصورة أكثر جلاء وعمقا ، وان كانت هذه المعالم منقوصة بسبب ضياع معظم المؤلفات التي وضعها الباحثون والعلماء العرب . وحتى المكتبة الملكية المشهورة في الاسكوريال لاتضم اليوم سوى عدد بسيط من الأعمال التي توفرت في الأندلس . ونزعة الكردينال زمنيز سنة ١٤٩٩ الى احراق معظم الكتب في غرناطة(١) لم تكن الكارثة الوحيدة،إذ شب حريق في المكتبة المذكورة سنة ١٦٧١-بعد ان تسربت النيران اليها من الكنيسة-وأودى الحريق بعدد غير معروف من المخطوطات التي جمعت منذ القرن الحادى عشر،او غنمها الاسبان من السفن المغربية وغير ذلك من المصادر . وفي عام ١٨٠٨ نهب الفرنسيون،بقيادة لاهوسيه،مبنى الاسكوريال ولا يعرف حجم التلف الذى أصاب المخطوطات .

وتبقي المكتبة الملكية رغم كل هذا محجا للراغبين في الاطلاع على كنوز الفكر الأندلسي،وفيها من المراجع ما يتناول معظم الشؤون وان كان تاريخ المحتويات من المخطوطات العربية لم يكتب حتى الآن . ومن بين المخطوطات العربية في المكتبة أرجوزة ابن سينا (المخطوطة رقم ٨٣١) وفيها ٦٠ ورقة ، ومقالة في سر صناعة الطب للرازى (٨٣٣) الأوراق ١٢٧ — ١٣٩ ، والجامع في الطب (٨٣٩) لضياء الدين أبي محمد الأندلسي المالقي (ابن البيطار) فيها ٢٣٨ ورقة مكتوبة سنة ١٥٥٩ ، والجراحة (٨٧٦) للقرطبي

---

(١) تروى المصادر الغربية أن الطبيب المنغارى اجناز سوملفايس (١٨١٨ — ١٨٦٥) اكتشف وجود علاقة بين موت الأمهات الحاملات بالحمى السريرية وقذارة أيدى الجراحين الذين كانوا يتوجهون من طاولات التشريح الى الامهات للاشراف على ولادتهن . وخاض الطبيب حربا طويلة الى ان تمكن من اجبار الأطباء على غسل أيديهم سنة ١٨٤٧ واختفى الوباء بعد ذلك . الا أن الأطباء نظموا حملة حتى الغت السلطات القرار وعاد الوباء الى الظهور . انظر : Asimov,Isaac. A Choice of Catastrophes, (1981), P 246.

(١) قدر عدد المخطوطات المحروقة بما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ . أنظر مقدمة الاحاطة ، ص ٨ . في حين قدرها كوندى بثمانين الف مخطوطة ، وتذهب مصادر اخرى الى تقديرها بمليون أو اكثر .

صفحتان من مخطوطة « الجراحة » للقرطبي أبي القاسم الزهراوى المتوفي سنة ٤٠٠ (١٠٠٩) وفيها عدد كبير من صور الآلات الجراحية (المخطوطة رقم ٨٧٦ مكتبة ، الاسكوريال) .

البهو الرئيسي في مكتبة الأسكوريال

ابى القاسم الزهراوى وفيها ٥١ ورقة ، وكتاب منافع الحيوان (٨٩٨) لابن دريهم الموصلي وهي تحتوى على ٢٥٠ لوحة بالألون مع خلفية من الذهب وفيها ١٥٤ ورقة مبتورة البداية ، والجمهرة في البيزرة (٩٠٣) لعيسى بن على بن حسن الأسدى وفيها ٣٠٤ ورقات ، وكتاب الهيئة لجابر بن أفلح الأشبيلي (٩٣٠) وهو تلخيص لمجسطي بطليموس وفيها ١٥٠ ورقة ، وكتاب مجهولات قسي الكرة للقاضي الجهني يوصف بأنه أول كتاب في حساب المثلثات الكروية الف في الغرب وفيه ٢٢ ورقة ، والجزء الثاني من كتاب المسالك والممالك (١٦٣٥) للبكرى (١٠٤ ورقات) ، وقطعة من الاحاطة (١٦٧٣) لابن الخطيب (٥٠٠ ورقة) ، والجزء العاشر من العقد الفريد (١٧١٠) لابن عبد ربه (٨٢ ورقة) ، وتهافت الفلاسفة (٦٣١) لابي حامد الغزالي ، وكتاب الكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة (٦٣٢) لابن رشد ، وكنز الأسرار ولواحق الأفكار (١٨٦٣) لمحمد بن سعيد الصنهاجي ، وغيرها .

٤ - أندلسيات في أسبانيا

استفاق الأسبان من غفوتهم الطويلة ليجدوا أنفسهم في القرن العشرين وقد سبقتهم كل الدول الأوروبية التي سيطروا عليها فيما مضى ، أو دبوا الرعب في قلوب حكامها السابقين فخمدت مقاومتهم للهيمنة الأسبانية أو ضحوا بأخلص المقربين اليهم لكي يكفوا شر ملوك أسبانيا عنهم ، كما فعلت اليزابيث الأولى لما قدمت السير ولتر رالي كبش فداء رخيص . والروح العسكرية التي سيطرت على القشتاليين اكثر من ثمانية قرون في الماضي عادت لتفرض وجودها في اسبانيا الحديثة ، ومازال ترسباتها باقية حتى اليوم رغم الاطلالة الديمقراطية هناك . واستعراض تاريخ شبه جزيرة ايبرية منذ القرن الثامن الميلادى يعكس ذلك التناقض الذى رفع الجزيرة من قعر التأخر الى قمة التقدم ، ثم هوى بها الى حضيض التخلف مرة أخرى ، قبل ان تبدأ في الحبو الثقافي والعلمي نحو القرن الحالي . وهو يعكس أيضا حقيقة أليمة وهي أن سعي الشماليين لاحتلال الجنوب لم يقوض حضارة هائلة وانما أعاد البلاد عدة قرون الى الخلف ، فلم يكن حال ايبرية في القرن الثالث عشر أفضل من حالها أيام القوط الغربيين .

وعندما اقتنع الأسبان بان الجيوش يمكن ان تحقق الانتصارات ولكنها لاتستطيع ان تبني حضارة من اى نوع ، كان الوقت قد فات على محاولة استعادة المجد الذى عرفته ايبرية ايام حكم العرب . وكان من المحزن مثلا أن ايبرية التي عرفت في قرطبة مكتبة جمعت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد في القرن العاشر الميلادي ، افتقدت الى مكتبة عامة واحدة فى عاصمة اسبانيا بعد ثمانية قرون من ذلك . وكان من المحزن أن ايبرية التي كانت عاصمة العلوم أصبحت بعد عدة قرون مكانا يحارب العلوم ويتهم أصحابها بالهرطقة . وكان من المحزن كذلك أن ايبرية التي اثبتت عملية تعايش اصحاب الديانات الثلاث خلال ثمانية قرون، تحولت تحت حكم القشتاليين الى محرقة تعصب لشواء الأندلسيين المسلمين واليهود . وقد تمكن القشتاليون بالفعل من السيطرة على الأندلس ، ولكنهم اخفقوا في الاستفادة مما حققته الأندلس ، ومضوا يقوضون دعائم الحضارة التي قامت هناك ليكتشفوا ، وأيضا بعد فوات الأوان ، أنهم قوضوا دعائم قشتالة .

واليوم بعد اكثر من سبعة قرون على احتلال القسم الأكبر من الأندلس ، لم تتمكن أجزاء كبيرة من أسبانيا من استعادة الازدهار الذى عرفته أيام الأندلس . وقرطبة التي كانت تضم حوالي مليون نسمة عندما كانت عاصمة الخلافة القرطبية لاتضم اليوم بجميع ضواحيها ثلث ذلك العدد ، وهذا ينطبق على غرناطة والمرية وماردة وابلة وغيرها من المدن التي عانت من الإهمال طوال مئات السنين . ومع ذلك فان أسبانيا اضطرت منذ القرن الماضي للاهتمام بتراثها الاندلسي بعد ان مجد واشنطن ارفنج وغيره الآثار القليلة التي بقيت للأندلسيين في أسبانيا . والتعصب الذى أظهره بعض المثقفين الأسبان للقشتالية السابقة افسح المجال في بداية القرن العشرين لمفهوم أسباني جديد لصراع قشتالة ضد الأندلسيين . وخلف الانحطاط الذى عرفته أسبانيا في القرن الماضي جاءت بوادر نهضة جديدة ظل البعض معها يردد أن الأندلسيين كانوا « مغتصبين غزاة » ولكن البعض الآخر رأى في الحضارة الأندلسية حضارة ايبرية اسبانية لايمكن فصلها عن المعالم الحضارية التي عرفتها شبه الجزيرة منذ القديم .

ومع هذا التغير في النظرة الى الأندلس العربية بات بعض الأسبان يتطلع الى الحضارة العربية الأندلسية بكثير من الفخر والاعتزاز ، إذ يرد في الدليل السياحي الرسمي الخاص بقرطبة : « وكانت قرطبة خلال العصور الوسطى ، اى بين القرنين الثامن والحادى عشر ، عاصمة أسبانيا الاسلامية وبلاط خلفاء العرب . وكانت أيضا مركزا مرموقا للحضارة والعلوم والفنون. عاشت الديانات الاسلامية والمسيحية واليهودية في فؤادها سوية ، وامتدت سلطتها حتى شملت مناطق الشمال الأفريقي من خليج قابس وحتى غينيا ، وحياها الراهب روسفيتا (Hroswitha) من المانيا فوصفها بأنها « زينة العالم » . وقرطبة مدينة الروح. ومساهمتها في الحضارة الأوروبية ترتكز على شارحين مثل ابن ميمون وابن رشد وابن حزم . أما التركة اليونانية فمرت الى اوروبة من خلال قرطبة » .

وما يرد في الدليل ليس مجرد دعاية لجذب السائحين . فقرطبة اليوم تعي ماضيها الأندلسي بصورة كافية لاعادة ترميم المسجد الكبير الذى يعتبر من أهم المعالم الأثرية في اسبانيا اليوم ، ولنصب التماثيل في ساحات قرطبة لابن رشد والحكم الثاني وابن زيدون وولادة وعبد الله الغافقي وحتى لابن ميمون اليهودى . وهذا الاهتمام لايقتصر على قرطبة فهو أيضاً في غرناطة حيث يطل قصر الحمراء على الكنيسة التي تضم رفات ايزابيلا وزوجها فرناندو الخامس . وفي اشبيلية حيث القصر والمأذنة الشهيرة . ومن خلال هذا الاهتمام،ذى الطابع السياحي عموما،نشأت حركة قوية للتفتيش عن الذات التاريخية الأسبانية ، وبات الكثيرون يعترفون بالدور الجليل الذى لعبه الأندلسيون على مدى قرون عديدة .

وتأخر المراجعة التاريخية في أسبانيا يعود الى مجموعة كبيرة من الأسباب السياسية والاجتماعية والدينية . وكان الجنرال الراحل فرانكو يردد القول : « في أسبانيا اما أن تكون كاثوليكيا أو أن لاتكون أى شيء » . وربما كان شعور مثل هذا هو االذى جعل أسبانيا فريدة بين باقي الدول الأوروبية بعدم وجود مسجد واحد فيها الى ان جاءت الثمانينات من هذا القرن ، وسمح ببناء مسجد صغير في مدينة مربلة (ماربيا) الواقعة على الساحل الجنوبي . وفي قرطبة نشأت جمعية اسلامية تمكنت سنة ١٩٨١ من الحصول على موافقة السلطات بتعمير مبنى كان يعرف باسم مسجد القاضي أبي العثمان قبل ان يحوله النصارى الى كنيسة باسم القديسة كلارا بعد سقوط المدينة بيدى فرناندو الثالث سنة ١٢٣٦ . وهذا قرار يعكس،دون ريب،جانبا من الانفتاح الذى اظهرته أسبانيا منذ حلول الديمقراطية(١) . ولايخفى أيضا أن موجات السائحين التي تتدفق على أسبانيا كل عام ساهمت هي الأخرى في الانفتاح لاسيما وان اسبانيا تحتل الصدارة بين جميع الدول السياحية الأخرى ، ويصل عدد زوارها سنويا الى اكثر من ٤٠ مليون شخص . وهذا الانفتاح المترافق مع نوع من السماحة الدينية،هو الذى دفع بعض أعضاء البرلمان إلى محاولة سن تشريع يخول جميع اليهود الذين هاجروا من أسبانيا العودة اليها بكامل حقوق المواطنية . ولكن هذه المحاولة قد لاتكون أكثر من بادرة على حسن النية بعد قرون من الاضطهاد القاسي الذى عانى منه الأندلسيون كما عانى منه اليهود . ولكن السماحة الدينية الجديدة ليست مقصورة على أسبانيا فهناك

---

(١) احتفل بتدشينه رسميا في ايلول (١٩٨٢) بحضور ممثلين عن دول اسلامية كثيرة .

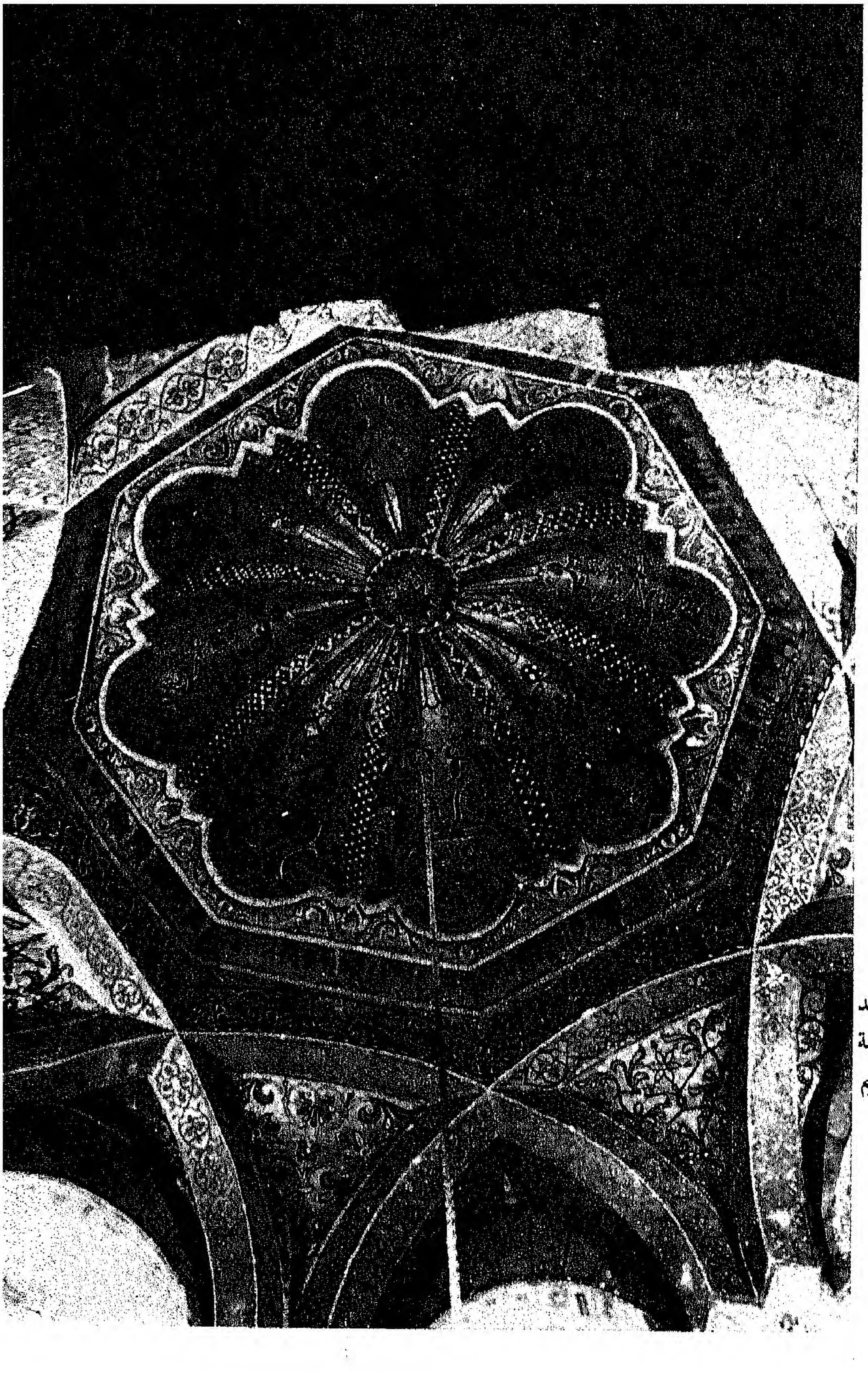

قبة المسجد الكبير في قرطبة وهي تحت الترميم

اتجاهات مشابهة في البرتغال التي سمحت سنة ١٩٧٩ بانشاء أول مسجد فيها ، ثم اتبعت ذلك باقامة مركز اسلامي في العاصمة لشبونة .

واذا كان التاريخ الأسباني وضع الأندلس في موضعها غير الملائم ، فان الكتاب الأسبان لم ينظروا عموما الى التراث الأندلسي بعدوانية ظاهرة . ولاتزال قصص الفروسية القديمة موضعا محببا في أسبانيا الحديثة،وهناك الكثير من المدن الأسبانية التي تنظم سنويا احتفالات شعبية يتصارع فيها فريقان احدهما أسباني والآخر أندلسي ، لإعادة ذكرى أيام الفروسية الماضية . وإذا لم يتوفر الزى الأندلسي فإن الخصوم يرتدون الزى التركي بعد أن فقد البعض القدرة على التمييز ، ونظروا إلى الأندلسيين والأتراك من وجهة النظر الدينية المحضة . وهناك الكثير من المناسبات الأخرى التي ترتبط بالأندلسيين بصورة أو بأخرى ، ذلك لأن الأسبان،وأن تمكنوا من التخلص من الأندلسيين بشتى الوسائل ، إلا أنهم لم يتخلصوا من الروح الأندلسية التي ماتزال ماثلة فى تاريخهم ولغتهم ومبانيهم وأحيانا في قلوبهم ، ونقلها الأسبان الغزاة معهم إلى مستعمراتهم فى العالم الجديد مثل المكسيك وفنزويلا وبيرو وغيرها، وحفظها أهل تلك المستعمرات إلى اليوم . بل وربما استبقت بعض دول أمريكا اللاتينية ، مثل المكسيك وفنزويلا ، تأثيرات أندلسية فاقت في ديمومتها التأثيرات المشابهة في أسبانيا ذاتها . ولعل سبب ذلك أن الهجرات الى تلك الدول انطلقت من الأندلس الصغرى فحملت معها سمات أندلسية دائمة قلدها المهاجرون في الأصقاع الجديدة فكانت السائدة في شكل المنازل والكثير من العادات التي لاتوجد قوية في أسبانيا اليوم الا في الجنوب أو المناطق الشرقية من البلاد .

أ – العمارة الإسلامية الباقية في أسبانيا :

عرفت أسبانيا في تاريخها الطويل معظم الحضارات الرئيسية القديمة مثل اليونانية والرومانية والعربية ، وترك اصحاب تلك الحضارات بصماتهم الواضحة على حضارة أسبانيا اليوم مثلما تركوا تأثيراتهم على العمارة المنتشرة في أنحاء تلك البلاد . وتكاد أسبانيا تشكل قارة بحالها ففيها بعض أعلى جبال اوروبة وبعض أكبر وديان القارة وهي تضم عددا كبيرامن الأنهار وبعض جف المناطق المعروفة في اوروبة . وتتميز أسبانيا ، والقسم الاوروبي من تركيا الى حد ما ، بانها كانت ملتقى الحضارتين المسيحية والاسلامية ، ولذا فإن الحضارتين تركتا مجموعة كبيرة من الابنية التي لايمكن العثور عليها في أى دولة اوروبية أخرى حاليا . وتجمّع هذه الأبنية يعكس السلطة السياسة والدينية التي تركزت في مناطق دون أخرى . ولذا نجد أن العمارة المسيحية شائعة في الشمال بينما نجد أن العمارة الاسلامية شائعة في الجنوب . وجميع المحاولات التي بذلت لادخال هذه التأثيرات على تلك لاتحمل أيا من علائم النجاح كما يتضح من غربة الكاتدرائية المبنية داخل حرم المسجد الكبير في قرطبة ، أو برودة قصر كارلوس الخامس وسط دفء حمراء غرناطة .

والعمارة المسيحية في أسبانيا متعددة الأنواع والأحجام. بعضها قوطي أو رومانسكي فرضه الذوق الفرنسي على الأسبان ، وآخر من طراز عصر النهضة والباروك الذى استورده الأسبان الشماليون من ايطاليا أو بناه في أسبانيا بعض المهندسين الأسبان الذين تدربوا هناك . والعمارة الأسبانية فريدة بين دول أوروبة لوجود نمطين خليطين من فنون العمارة . أولهما الفن المعروف باسم عمارة المستعربين ، الذي ادخله المعاهدون ممن تركوا ديارهم بين المسلمين والتحقوا بالشمال النصراني لسبب أو لآخر ، والثاني

يعرف باسم الفن المعمارى المدجن وهو يجمع عدداً من الأشكال المعمارية المختلفة التي عرفتها أسبانيا مع تقدم الغزو الشمالي والسيطرة على ديار الأندلسيين . وهناك عدد كبير من الكنائس المبنية على الطراز المستعربي في ليون وقشتالة وقطالونيا وغيرها من المواضع في الشمال والشرق من ايبرية . ومعظمها يحتوي على الكثير من التفاصيل المعمارية الموجودة في الجامع الكبير في قرطبة ، وهو أمر طبيعي لأن الجامع كان أهم مباني عاصمة الامارة والخلافة القرطبية ولذا لجأ المهندسون والمعماريون المستعربون إلى تقليده في الشمال الذي رحلوا اليه . أما العمارة الدجنية فهي أكثر أنواع العمارة شيوعاً ولاسيما في الأندلس الصغرى (أندلوثيا) وفي مناطق الساحل الشرقي . ولكنه واضح التأثير في مناطق أخرى ولاسيما طليطلة التي تعتبر أشمل مدن أسبانيا للعمارة الدجنية ، لأن فيها عددا كبيرا من الأبنية المشادة على هذا الطراز الإسلامي على الرغم من أن المدينة كانت أول مدينة مهمة تسقط بأيدى الشماليين .

والعمارة الاسلامية الموجودة في أسبانيا اليوم تحمل تأثيرات شامية ومصرية ومغربية مختلفة . والمسجد الكبير في قرطبة يجمع أشكال العمارة الشامية والقيروانية وهي تتجلى في خطوط الأعمدة الرخامية المزدوجة التي كانت ترفع السقف الخشبي المزين للمسجد على قناطر محدبة (على شكل حدوة الحصان)، وتختلط فيها الحجارة البيضاء مع الآجر الأحمر . وفي المسجد قناطر من طراز أخر قرب المحراب وهي من النوع المتداخل المقسمة أقواسه الى خمسة أنصاف دوائر ، تتواكب عليها مساحات بنقوش وأخرى بلا نقوش . ومن المباني المماثلة في أسبانيا اليوم الجامع الأميرى في سرقسطة وهو المسمى بجامع الجعفرية . كما أن كنيسة اللوز الموجودة في طليطلة ، والتي كانت مسجدا في الأصل ، تحتوى على بعض مظاهر مسجد قرطبة الكبير . ومن آثار المباني الخاصة التي تعود الى عصر الامارة والخلافة القرطبية قصر الزهراء الواقع غرب المدينة ، وقد بينت الحفريات الأخيرة وجود نقوش وتزيينات لاتقل اتقانا عن تلك الموجودة في المسجد الكبير وان كانت كلها بحالة بائسة وتحتاج الى عمليات ترميم واسعة النطاق ، أو إعادة بناء في معظم حالها .

وتعكس الأثار الموجودة في أسبانيا اليوم من عهد ملوك الطوائف اهتمام أصحاب تلك الممالك باقامة الاستحكامات وبناء الأسوار لحماية ممالكهم الصغيرة . وقد بادت معظم مبانيهم المدنية ، ولكن التحصينات التي شيدوها باقية في كثير من الأسوار التي تحيط بقرطبة وأشبيلية ومالقه وجيان والمرية وغيرها ، وهي عموما تحتوى على كميات من الحصو وهو مايميزها عن غيرها من الأسوار الباقية في أسبانيا اليوم . ومن عهدى المرابطين والموحدين بقيت مأذنة جامع أشبيلية المعروفة باسم « الجيرالدا »والبرج الذهبي الذى بني سنة ١٢٢٠ ، وهو يحتوى على ١٢ ضلعا وكان أهم أبراج القصبة في أشبيلية . والقسم العلوى من البرج،مع النوافذ والشرفات السفلى،ليس من صنع أندلسي اذ بني سنة ١٧٦٠ . أما أهم معالم العمارة الاسلامية المغربية فهي التي توجد في قصر الحمراء ويبقى القصر اليوم أحد أهم الأمكنة في أسبانيا .

أما العمارة الدجنية فكانت نتيجة بقاء تلك الأعداد الكثيرة من البنائين والمزينين العرب في المناطق التي احتلها الشماليون . ولكن العمارة الدجنية ليست خالصة اذ دخلت عليها أنماط معمارية أخرى فرضتها أذواق الحكام والنبلاء ورجال الكنيسة في قشتالة . فكنيسة القديس خوان في طليطلة مبنية على الطراز الدجني ولكن فيها سمات معمارية من عصر النهضة في فلورنسا . وهناك سمات معمارية فرنسية دخلت على فن العمارة الدجنية في بعض الأبنية القائمة اليوم في أسبانيا ، وخاصة في كنيسة بيت ميزا والكنيسين في طليطلة التي تحتوي أيضا على تسع كنائس أخرى مبنية على الطراز الدجني الذى لايمكن تفريقه عن فن العمارة الاسلامية . والسمات المعمارية الأجنبية التى دخلت على بعض الأبنية ذات الطراز الدجني تنعدم في الجنوب حيث العمارة الدجنية خالصة،ولكن السمات القوطية والقشتالية دخلت أيضا على أبنية أخرى ذات قيمة أقل . وقد هجر الملوك قصورهم ليعيشوا في الأبنية المبنية على الطراز الدجني وكان الفن شائعا لديهم فادخلوه على قبورهم . ولم يجد حتى أشد المتعصبين القشتاليين الذين حملوا راية اضطهاد الأندلسيين غضاضة في الاستفاده من فنونهم ومهاراتهم . وللكردينال زمنيز رأى معروف في ذلك اذ يقول وهو يتحدث عن الأندلسيين : « أنهم يفتقدون الى ديننا ولكننا نفتقد الى فنونهم » والتأثير الأندلسي على العمارة واضح في المفردات العربية المستخدمة بكثرة في اللغة الأسبانية .

ومن العمارة التي ماتزال باقية اليوم قنطرة قرطبة فوق نهر الوادى الكبير . وأصل القنطرة روماني ولكن يذكر أن الوالي السمح بن مالك الخولاني،الذى استشهد في غاله،أعاد تعميرها بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ٧٢٠ (١٠١) ، ثم رممت فيما بعد عدة مرات وهي تطل اليوم على بعض المطاحن المبنية في عهدى الولاية والإمارة . ويذكر كذلك أن المنصور جدد قنطرة قرطبة وأقام قنطرة استجة على نهر شنيل . ويعود الى الخليفة الموحدى أبي يعقوب يوسف فضل الأمر ببناء الجامع الكبير في أشبيلية اعتبارا من سنة ١١٧٢ (٥٦٧) وبعض التحصينات المهمة فيها . كما أمر قبل سنة من وفاته (١١٨٤ / ٥٨٠) أحمد بن باسة،شيخ عرفاء الأندلس،ببناء المأذنة (الجيرالدا) واتمها من بعده العريف على الغمارى سنة ١١٩٨ / ٥٩٤) بأمر أبي يوسف يعقوب (المنصور) . وكاتدرائية أشبيلية بنيت في مكان الجامع الكبير واستخدمت بعض مواد بناء الجامع في تشييد قصر أشبيلية .

١ – القلاع العربية في أسبانيا :

يقال أن عدد القلاع التي بناها الأندلسيون بلغت ٤٠٠ قلعة لم يتبق منها اليوم سوى بضع قلاع ولكنها ، على قلتها ، تقدم فكرة وافية عن فن العمارة العسكرية وتفوقها على العمارة الأفرنجية . ومن أشهر القلاع القائمة اليوم تلك الموجودة في غرناطة والمرية ومالقة والمنكب والمدور والوادى (قرب أشبيلية) . وفي معظم المدن الرئيسية الجنوبية أسوار وتحصينات وبوابات من مختلف العهود الأندلسية مثل أسوار قصبة الحمراء في غرناطة وأسوار الطرف الجنوبي من قرطبة وبوابات طليطلة والمدينة الملكية وبلنسية وغيرها . ومعظم القلاع التي يراها السائح اليوم مشادة في القرنين الرابع عشر . وقلما تخلو منطقة مهمة، أو مفترق طريق رئيسي في أسبانيا من قلعة أو بقايا قلعة قديمة ، ولذا يسهل الاعتقاد بوجود ذلك العدد الكبير من القلاع لاسيما وأن قشتالة ذاتها تعني بالأسبانية « القلعة » .

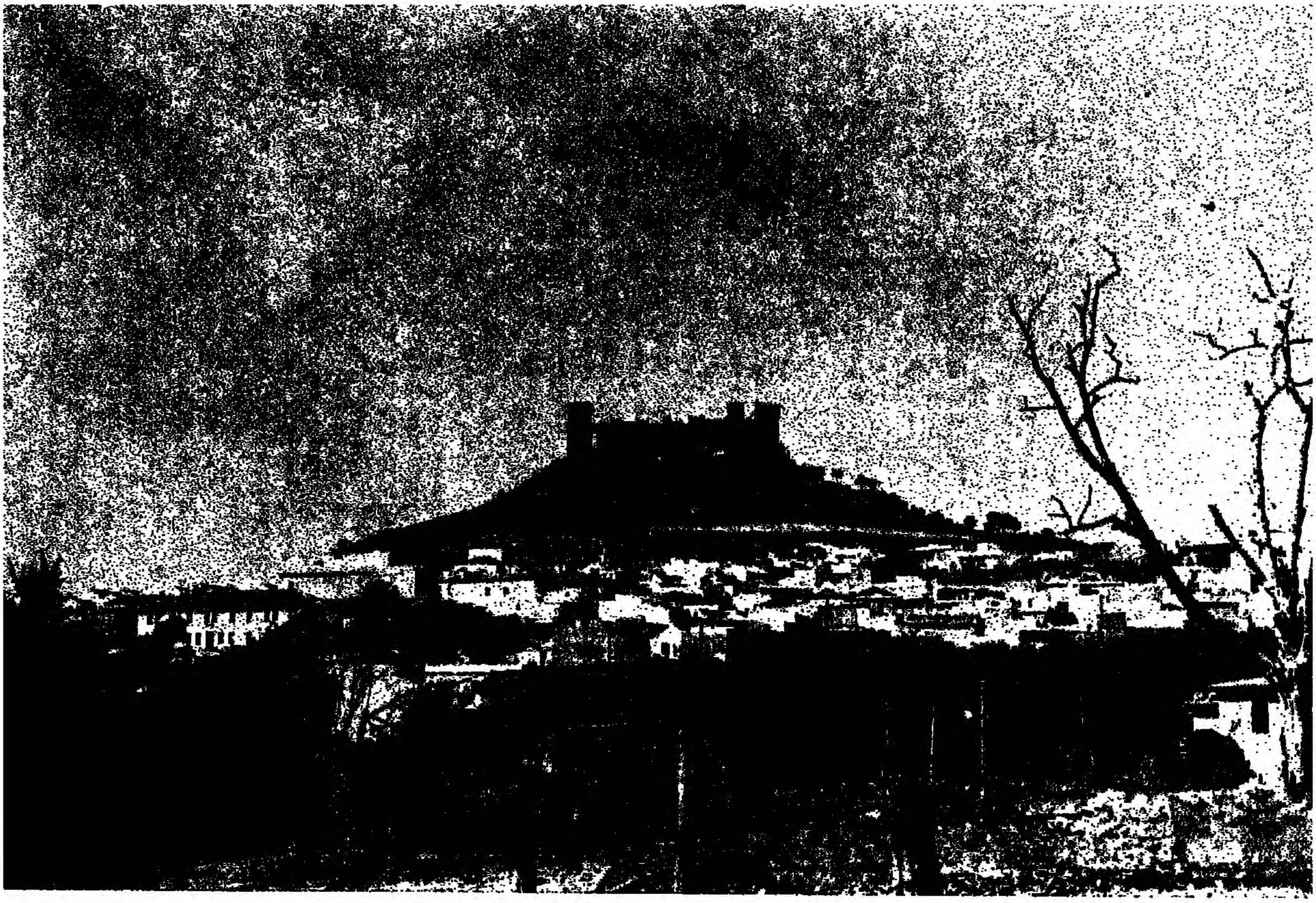

قلعة المدور قرب قرطبة

وأعمال الحفريات في قصر الحمراء كشفت حتى الآن عن معظم المعالم المتبقية للأبراج والأسوار التي كانت تحيط بالقصر في السابق . ويعتقد الآن أن ٣٠ برجاً رئيسيا كانت تحيط بالقصر أيام بني الأحمر . ولكن الأسبان هدموا بعض الأبراج ، ودمر زلزال ضرب المدينة بعضها الآخر ، وأزال كارلوس الخامس جزءا من القصر ليبني قصرا على طراز ابنية عصر النهضة . وكأن هذا لم يكن كافيا اذ وقع انفجار ضخم خارج القصر سنة ١٥٩١ أدى الى الحاق بعض الأضرار به ، ثم حاول الفرنسيون نسف القصر عند انسحابهم من المدينة سنة ١٨١٢ ، ولكنهم لم يقوضوا الا أجزاء منه . وبقي قصر الحمراء والقصبة مهملين فترة طويلة الى أن جدد المؤلف الأميركي واشنطن ارفنج الاهتمام به سنة ١٨٢٩ ، وبدأت أعمال الصيانة الجدية بالقصر اعتبارا من سنة ١٨٦٢ .

ومن القلاع القليلة التي ماتزال تحتفظ بمعظم شكلها القديم تلك المعروفة باسم « المدّور » (Almodóvar del Rio) وتحتل موقعا استراتيجيا فوق جبل يبعد عن قرطبة مسافة ٣٢ كيلومترا على الطريق القديم بين عاصمة الخلافة وأشبيلية . وتعتبر القلعة أفضل نموذج للعمارة العسكرية الأندلسية المشادة على الصخر ، وهي تطل على رقعة شاسعة من الأراضي ، وتربض في المنحدر الشمالي منها بلدة تحمل الاسم ذاته . والمدور قلعة حصينة أدخلت عليها تحسينات قليلة ولكن صيانتها كانت ممتازة

أحـد الأبـراج الداخليـة في قلعـة الـوادي

وخاصة منذ أن حولها الملك بدرو القاسي الى مستودع للغنائم التي كسبها من العرب والقشتاليين الآخرين على حد سواء . وتسكن القلعة اليوم أسرة أسبانية ثرية بنت على طرفها الجنوبي مسبحا . ويتوجب ترتيب زيارتها مسبقا مع مصلحة السياحة في قرطبة .

وقلعة الوادى أو قلعة « وادى عر (Guadaira) » مثال جيد آخر على قلاع الداخل،إلا أنها مبنية من التراب والحصو ، ولذا أصابها تلف كبير وتسعى السلطات البلدية إلى إعادة ترميم القلعة الواقعة على بعد ١٦ كيلومترا الى الجنوب الشرقي من إشبيلية ، لاستخدامها مركزا للاحتفالات الشعبية في المستقبل . والقلعة اليوم تجثم فوق مرتفع يطل على مدينة بنفس الاسم ، وتلتف بمساكنها حول أبراج القلعة وأسوارها وتتداخل مع القلعة في بعض أزقتها . ويبدو أن المدينة ذات أصل فينيقي عرفت باسم عنبة ، ثم جاء العرب فعمروا القلعة وبقيت بين أيديهم إلى أن أخذها فرناندو الثالث سنة ١٢٤٦ . وفي مراحل لاحقة أهدى ألفونصو الحادى عشر القلعة الى امرأة تدعى ليونورا دى قسمان واستخدمت فيما بعد سجنا . ويمكن اليوم مشاهدة مستودعات الغلال والآبار في القلعة إلا ان عوامل الجو والإهمال فتتت أسوارها الداخلية وأبراجها .

وتوجد كذلك بعض القلاع والحصون المهمة الأخرى في الأندلس الصغرى منها قلعة المقلة (أو مقلة غرناطة Moclin) التي تقع على أربعة كيلومترات فى الطريق المتفرع عند الكليومتر ٣٠ من الطريق الذى يصل غرناطة بقرطبة . وسلوك الطريق الرئيسي هذا يقودنا عند الكليو متر ٥١ الى مدينة القلعة الملكية التي تطل عليها قلعة معروفة باسم « الموت La Mota) تربض فوق مرتفع صخرى،وهي قلعة حصينة استخدمت صخور المرتفع أسواراً لها .

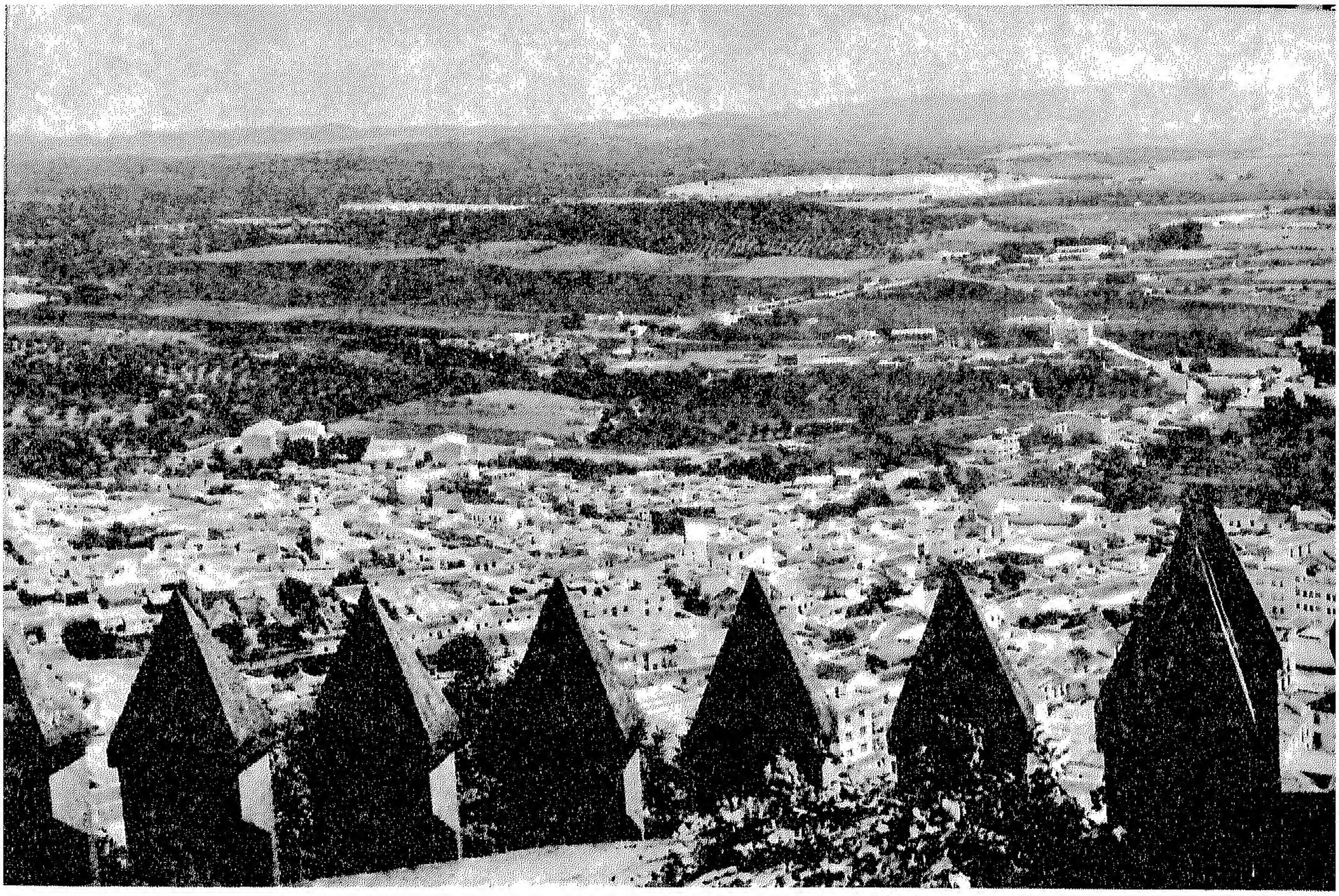

مدنية المدوّر كما تبدو من القلعة

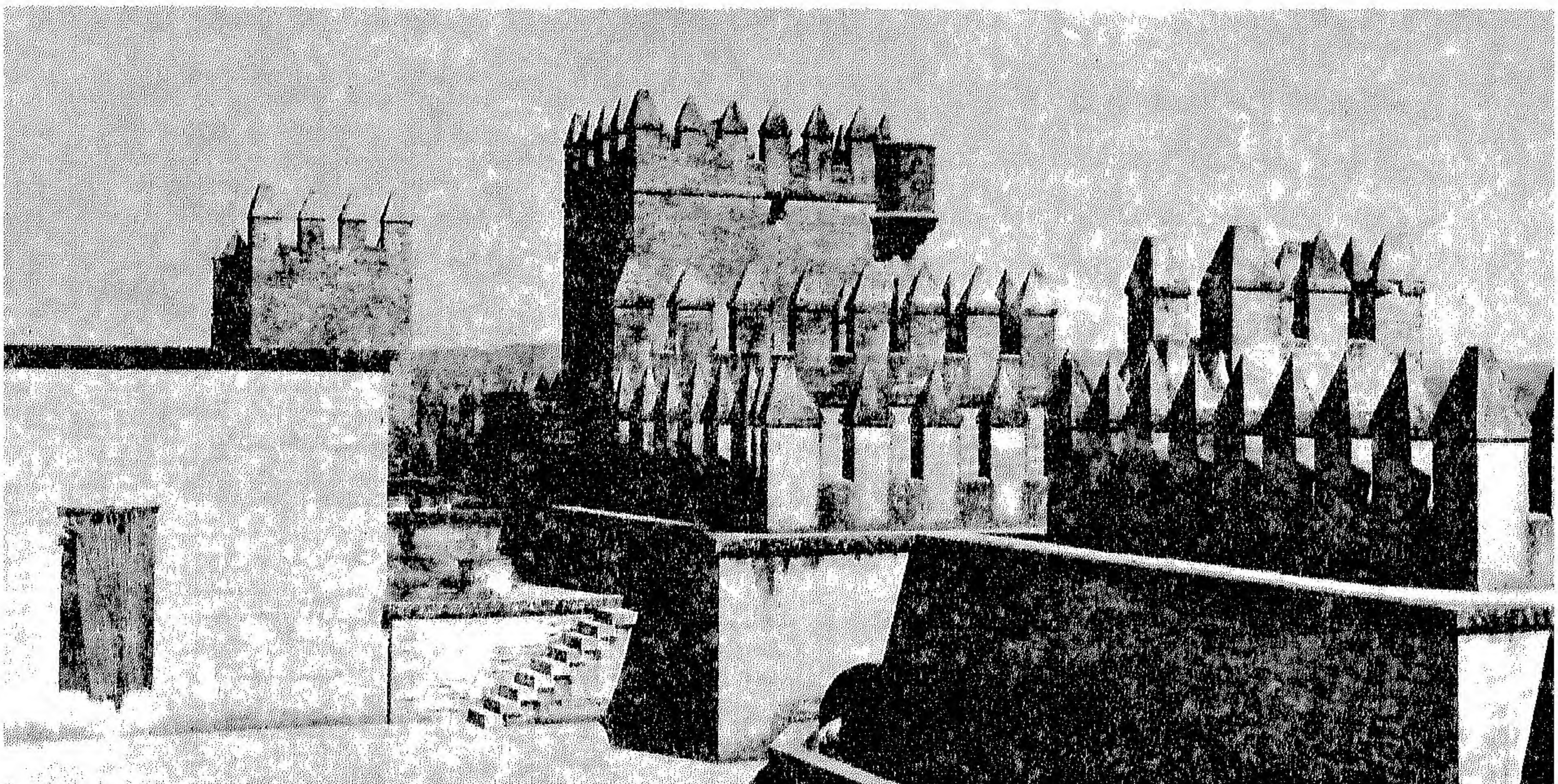

جانب من احد الأسوار الداخلية من قلعة المدوّر

مدينـة بنـي رزين بابنيتهـا التي مـاتـزال تحمـل الطابـع الأندلسـي .

وتعتبر قلعة المرية من أشهر قلاع الساحل الجنوبي في أسبانيا ، وقد عمرها عبد الرحمن الثالث وجرى فيما بعد توسيعها . وضخامة القلعة تعكس الأهمية التي اتسمت بها المدينة التي كانت مقر إمارة البحر وأنشط ميناء استخدم الى جانب دانية وقرطجنة ولقنت وبونة لنقل البضائع وصناعة السفن السفرية والحراريق وانطلاق الأساطيل للدفاع أو الغزو . وتعرضت القلعة لخراب لحق بها اثر زلزال سنة ١٥٢٢ وتهدم بعض أقسامها ولكن رممت فيما بعد ومازال أعمال الترميم مستمرة . وفي القلعة أشجار وزهور تذكر بقلعة المنكب المطلة على المدينة ، والأخيرة تستخدم لأغراض الاحتفالات الشعبية وعروض الرقص والمسرحيات وماشابه . وعرفت قلعة مالقة مجدا عظيما في الماضي ولكن الزمن والأهمال نالا من تلك القلعة الحصينة ، وجرت أعمال ترميم فيها ولكن القسم الممتد نحو أعلى التل مايزال يشتكي الإهمال . وفي طريف بقايا قلعة عربية قديمة ، ولكن أهم مافيها الأسوار التي بقيت في حالة جيدة وأهمها الواقعة عند مدخل المدينة من ناحية مالقة . وغالبا مايشاهد رسامون أجانب ينقلون صور أسوار المدينة التي تحمل اسمها نسبة الى طريف ابن مالك النخعي . ومدينة السهلة (أو بني رزين Albarracín) شرق طرويل تكاد تكون قلعة بحالها نظرا لوعورة الوصول اليها عبر وادى الفياض (Rio Guadalaviar) ولكن ماتبقى من أسوار القلعة قليل ويصعب الوصول إليه . ومن القلاع التي كانت مهمة على الساحل الشرقي قلعة طبرنة (Tabernas) على بعد ٤٠ كيلومتراً شمال المرية في الطريق الى لقنت . وكانت القلعة أهم قلاع المنطقة الى جانب المرية ولكنها اليوم أطلال .

خاتمة

عسير التفكير في الأندلسيين ومصيرهم دون الاحساس بنوع من الرهبة لسببين رئيسيين : أولهما أن ضياع الأندلسيين كان شاملا وكأنهم لم يعمروا شبه الجزيرة الايبيرية ولافتحوا أجزاء شاسعة من فرنسا ، ولا كانوا أعظم شعوب الأرض ذات يوم . وثانيهما أن ماحدث للأندلسيين يمكن أن يتكرر ثانية ليس في مكان ما من أطراف الوطن العربي وإنما في وسطه ومركزه .

وكما بدأت الأندلس ثغرا من ثغور الجهاد فانها انتهت ثغرا قصيا . وبعد تسعة قرون من الانجازات الهائلة والهزائم الهائلة انضم الأندلسيون الى شعوب بائدة أخرى مثل الفراعنة قبلهم،والأزتك والانكا من بعدهم، ويخلفهم العرب والعثمانيون والفرنسيون عندما خذلوا أنفسهم بادىء ذى بدء . وربما لم يكن للفراعنة حظ كبير في الاستمرار شعبا وسط عالم تغيرت معالمه ودخل المرحلة الأخيرة من تكوينه . ولم يكن للأزتك والأنكا نصيب في البقاء وقد غزاهم أسبان ارفع منهم حضارة وأشد فتكا ، ولكن الحديث عن الأندلسيين يتناول شعبا كاملا كان أرفع شعوب الأرض حضارة وأقدرها على الأستمرار وسط كل الظروف السلبية التي فرضوا بعضها على أنفسهم أو قدمها احتلال الاخوة في الاسلام ، أو جاءت نتيجة تدفق أمم أوروبية من الورعين المجاهدين أو المرتزقة الذين أعمت ثروة الأندلس أبصارهم ، وحول الجشع خوفهم الى قوة .

ورب قائل أن تناحر الأندلسيين ونزعة حكامهم للاحتفاظ بملكهم ، بغض النظر عن السبل ، هو السبب في سقوط الأندلس وتبدد شعبها ؛ وقائل أن الاندلس قامت كيانا غريبا عن محيطه فكانت جزيرة وسط بحر لم يكن يحتمل دينا غير النصرانية أو شعبا غير الأوربيين ؛ وقائل أن انفصال الأندلس عن بقية الوطن العربي حمل اليها بذور الفناء ، أو أن تلك الدولة ماكانت لتستمر قوية بعد أن ضعف الوطن العربي وتناهشته الشعوبية والمؤامرات وتكالب اعداؤه عليه من كل جانب . وربما زعم آخرون أن الأندلسيين أخفقوا لأنهم كانوا مستعمرين ، وكان عليهم الجلاء عندما توفر للشمال النصراني العزم على طردهم ، أو أن الوجود الاسلامي في شبه جزيرة ايبرية كان تجربة نمت وتقوت واستمرت وأنجزت ، ثم هبطت وخارت قواها عندما تخلت عن الأسس التي قامت عليها .

ولكن لماذا استمرت السيطرة الاسلامية على تركيا والقسطنطينية وزالت عن الأندلس ؟ لماذا يكون الجرمان أهل البلاد الأصليين وهم لم يمكثوا في الأندلس ثلث عمر سيرة الأندلسيين في شبه الجزيرة ؟ ولماذا يكون لسكان قمم قنتبرية مالم يسمح به لأهل وديان الجنوب ؟ وهي مجرد أسئلة لن تعيد الأندلس ولن تلم شمل أهلها، ولكنها تساهم في رسم صورة المأساة التي لم يعرف الوطن العربي مأساة بحجمها من قبل ، وقد لايعرف مأساة مشابهة لو تنبه المخلصون اليوم . واختلاف الأسئلة والاجابات لاينفي حقيقة واضحة وهي أن الأندلس العربية الاسلامية تقوضت كما سبق وتقوضت كل الممالك والامبراطوريات التي عرفها العالم منذ أقدم العصور . فلم يكن هناك مخطط للفتح العربي،ولم يكن هناك مخطط مسبق لانحساره عن الأندلس أو بلاد فارس وغيرها من المناطق والأمم التي خضعت في فترة من تاريخها للسلطة العربية الإسلامية . وإذا كانت الأجابة عن سبب صعود دون غيره صعبة ، فان العثور على أجابة عن سبب هبوطه أكثر صعوبة . غير أن بعض الشعوب تضع السيف جانبا في مرحلة من مراحل تطورها لتبني الحضارة ، وحين يتوقف زخم الاندفاعة الأولى يحدث التوقف ثم الانحسار فيكثر الفساد وتسترخي الأجسام والهمم ، ويستشرى الضعف وتزداد بساتين النارنج وهي عند ابن خلدون احدى سمات الهبوط . وحين تفتقد الحضارة الى الوقود الذى تحتاج اليه لمتابعة نموها فانها تنقلب على ذاتها وتلتهم نفسها قطعة قطعة ، وتعطي أعداءها فرصة النمو وابتلاع ماتبقي منها . ويتعجل هذه النهاية انفراد الحكام بالسلطة واضطهادهم لشعوبهم فيفقدوا مقومات الاستمرار وينغمسوا في الرذيلة والتفسخ .

هذه قصة الأندلس،مليئة بأخبار الانتصارات والهزائم ، سوداء وبيضاء . أما سيرة الأندلسيين الموازكة فهي سوداء قاتمة منذ استسلام غرناطة وحتى القرن الثامن عشر . ولكنها ليست قصة استكانة وضعف بل قصة مقاومة استمرت عشرات السنين وتصدت لاعتى قوى الأرض في القرن السادس عشر ، وبطش بهم أهل قشتالة شر بطشة فاستبعدوهم واذلوهم وأحرقوهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من اذابة الجميع وحمل الموازكة السلاح مرتين ليدافعوا عن وجودهم ومواطنيتهم ودينهم وعروبتهم . وحين أخفق القشتاليون في قهرهم تماما لجأوا الى نفيهم فكان فى ذلك سقوط الامبراطورية الأسبانية .

وفي مدينة قلعة أيوب اليوم حي يقال له حي الموازكة (Morería) لايشعر بعض أهل المدينة برغبة في ارشادك اليه . وحين تصل الى الحي فانك ستجد مجموعة كبيرة من المساكن المبنية في الكهوف كانت بعض المناطق التي عاش فيها الأندلسيون الموازكة . وهذا الحي، اضافة لأحياء مشابهة كثيرة ، يقدم فكرة صغيرة عن نوع الحياة التي عاشها الموازكة في ارضهم واجدادهم ، ولكن صورة الاضطهاد الحقيقة غامضة شوهتها السنين وأقلام المؤرخين المأجورة ، وبقيت تفاصيل قليلة تشهد بقسوتها . ولكن العنف لايولد إلا العنف ، واذا قل عدد النصارى في المغرب العربي ، أو انعدم وجودهم فيه ، فإن الأجابة على هذه الظاهرة موجودة في أسبانيا ، حيث لم تبق السلطات القشتالية المتعاقبة على مسلم .

وأيا كانت النظرة الى التاريخ الأندلسي الموركي فان الخسارة ماثلة فيها . فهناك فقد الوطن العربي دولة تكاد تكون ، لاتساعها وانهارها وخيراتها ، معادلة لنصف أراضي الفتح العربي . وفقد أرضا ربما تحتم

فقدانها لكي يحفظ المشرق وحدته . أما أوقع الخسائر فكان تضييع شعب بكامله :« ليس هناك فناء أكمل من فناء الإسبان (الأندلسيين) الموازكة . اين هم الأن ؟ أسألوا سواحل المغرب وصحاريها . اختفت البقية المتبقية من تلك الامبراطورية العظيمة يوما بين سكان أفريقيا وتوقفت عن كونها أمة.ولم تترك مجرد اسم واضح خلفها ، رغم أنها كانت أمة واضحة المقومات طوال ثمانية قرون . الوطن الذى تبناهم واحتلوه فترة طويلة من الزمن يرفض أن يعترف بهم إلا غزاة مغتصبين . وبضعة آثار باقية اليوم هي كل ماخلفوه ليشهد على قوتهم وسلطانهم ، تماما كما الصخرة العاتية في الداخل البعيد تشهد بحجم الطوفان الضخم المحيط بها . وهذه هي الحمراء ! نصب اسلامي وسط أرض مسيحية ، قصر شرقي بين واجهة قوطية من الغرب ، لحظة رشيقة لشعب شجاع ذكي غزا وحكم وتطور ومضى » (١)

ولم يكن حظ الأندلسيين الموازكة فى بلاد المنفى أفضل فى بعض الحالات من حظهم فى وطنهم المطرودين منه.ونترك وصف ذلك للمقرى : « ... فتسلط عليهم الأعراب ومن لايخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المعرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم اكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة (وقيجة) الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا ،وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الأن بهذا الحال ، ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ماوصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين »(٢) .

---

(١) انظر : Irving, Washington. Treasures of the Alhambra, Barcelona, 1979.

(٢) « نفح الطيب »،الجزء الرابع،ص ٥٢٨ .

أهم الأحداث الأندلسية والدولية

م	هـ	الأحـــــــــــــــداث
٧١٠	٩١	موسى بن نصير يبعث بسرية استكشاف من ٤٠٠ راجل و١٠٠ فارس بقيادة طريف بن مالك (ملوك) النخعي في أربعة مراكب ونزوله في جزيرة بلومة التي عرفت فيما بعد باسمه طريف أو بالاسم الأسباني « طريفة » في اقصى جنوب ايبرية .
٧١١	٩٢	نيسان / ٥ رجب . طارق بن زياد والى طنجة يعبر الزقاق من سبتة الى الطرف الايبيرى على رأس سبعة آلاف مقاتل جلهم من البربر . طريف يلحقه بخمسة آلاف جندى فيما بعد .
٧١١	٩٢	١٩ تموز / الأحد ٢٨ رمضان . التقاء طارق مع جيش القوط الغربيين بقيادة رودريغو (لذريق) ونشوب معركة وادى برباط (بكة أو لكة) التى أسفرت عن انتصار طارق بعد قتال استمر ثمانية أيام (حتى ٥ شوال) وقتل (روديك) أو غرق .
٧١١	٩٢	بداية عهد فتح الأندلس الذى يستمر أربع سنوات حتى ٧١٤ / ٩٥ .
٧١١	٩٢	نيسان / شوال . مغيث الرومي يفتح قرطبة التي أصبحت العاصمة بعد نقلها من أشبيلية في عهد الوالي أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير .
٧١٢	٩٣	حزيران / رمضان . موسى بن نصير (٦٤٠ - ٧١٦ / ١٩ - ٩٧) يعبر الزقاق (العدوة) على رأس ١٨,٠٠٠ مقاتل لاستكمال فتح الأندلس .
٧١٤	٩٥	بداية عهد الولاة الذى استمر ٤٢ سنة (حتى ٧٥٦ / ١٣٨) وحكم فيه ٢٢ واليا .
٧٣٢	١١٤	تشرين الأول / الثاني (رمضان) . موقعة بلاط الشهداء التي انتهت بهزيمة المسلمين واستشهاد عبد الرحمن الغافقي الوالي بعد ١٠ أيام من المعارك
٧٥٠	١٣٢	سقوط الدولة الأموية في الشام .
٧٥١	١٣٣	بيبين الثالث ابن شارل المعروف « بالمطرقة » يسترد مدينة نربونة من المسلمين .

٧٥٥	١٣٨	١٤ آب / ١ ربيع الأول أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية وحفيد هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين ينزل في مدينة المنكب جنوب الأندلس .
٧٥٦	١٣٨	١٥ أيار / ١٠ ذى الحجة . نشوب معركة المصارة (المسارة) التي انتهت بانتصار عبد الرحمن (الداخل وصقر قريش) على الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (جده عقبة بن نافع) والصميل بن حاتم ودخوله قرطبة .
٧٨٦	١٧٠	بداية بناء المسجد الكبير في قرطبة وهو اليوم من أهم الأثار في أسبانيا .
٨٤٤	٢٢٩	أب / أوائل ذى الحجة . هجوم النورمان (الأردمانيون / المجوس) الأول على الأندلس .
٨٤٨	٢٣٤	استخدام ٣٠٠ مركب لفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة واستكماله سنة ٩٠٣ / ٢٩٠ .
٨٥٠	٢٣٥	مملكة اشتورش الشمالية تبدأ في النمو رغم العلميات العسكرية الاسلامية .
٧٨٨	١٧٢	٣٠ أيلول / ٢٥ ربيع الأخر . وفاة عبد الرحمن المولود في الشام سنة ٧٣١ / ١١٣ من جارية بربرية اسمها راح تنتمي لقبيلة نفرة .
٨٥٩	٢٤٥	هجوم النورمان الثاني على الأندلس في ٦٢ مركبا .
٨٨٤	٢٧١	بدء عملية توطين سهول نهر دويرة بنصارى الممالك الشمالية والأوروبيين .
٩١١	٢٩٨	مملكة اشتورش تسيطر على حوالي خمس مساحة شبه جزيرة ايبرية .
٩١٢	٢٩٩	الممالك الشمالية تستكمل توطين بعض المدن وتحتل المناطق الواقعة شمال نهر دويرة وتغلق الطريق الرئيسي بين سرقسطة واشترقه .
٩١٥	٣٠٢	وقوع مجاعة خطيرة فى الأندلس لحقتها مجاعة عظيمة في قرطبة سنة ٩٦٤ / ٣٥٣ .
٩٣٩	٣٢٧	وقعة الخندق عند مدينة شنت منكش (شلمنتقة) وهزيمة الناصر لدين الله .
٩٨١	٣٧٠	أبو عامر محمد بن محمد بن عبد الله (المعافرى / المنصور والحاجب المنصور) وقد تمكن من السلطة بعد وفاة الحكم الثاني المستنصر بالله سنة ٩٧٦ / ٣٦٦ ، يغزو قشتالة ويسحق القوات المتحدة لممالك ليون وقشتالة ونافار (نبارة) في المعركة التي جرت قرب روطة اليهود .
٩٨٢	٣٧٢	يأس الممالك الشمالية من تحقيق أى انتصار على المنصور يسفر عن رضوخ ملوكها للسيطرة الاسلامية ويقدم ملك نافار (شانجة الثاني) ابنته الى المنصور وهى « عبدة » التي حملت له ابنه شنجول (١٠٠٩ / ٣٩٩) .

٩٩٧	٣٨٧	المنصور يدمر مدينة شنت يعقوب (ياقب) أو« سنتياغو » شمال غرب ايبرية .
٩٩٩	٣٨٩	المنصور يحتل مدينة بمبلونة (بنبلونة) عاصمة الباسك (البشكنس) .
١٠٠٠	٣٩٠	المنصور يهزم قوات شانجه غرسيه قرب قلعة السنسور جنوب غرب مدينة سرية .
١٠٠٢	٣٩٢	وفاة المنصور في مدينة سالم وتسلم ابنه (المظفر) السلطة (١٠٠٢ — ١٠٠٩ / ٣٩٢ — ٣٩٩هـ.
١٠٠٩	٤٠٠	بداية عهد الطوائف الذى استمر حتى إستلام المرابطين سنة ١٠٩١ / ٤٨٤ .
١٠١٣	٤٠٣	وقوع الفتنة البربرية وتخريب قرطبة .
١٠٥٩	٥٤١	النورمان يسلخون الجنوب الايطالي عن الامبراطورية البيزنطية .
١٠٦٤	٤٥٦	النورمان يحتلون مدينة بربشتر الشمالية مما أدى الى وقوع مابين ٤٠٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ قتلى أو أسرى أويصف ابن حيان الذى عاصر تلك الفترة الخطب بانه : « أعظم من أن يوصف أو يتقصى ». استعادة المدينة سنة ١٠٦٥ / جمادى الأولى ٤٥٧ .
١٦٠٤	٤٥٦	فرناندو الأول يحتل مدينة قلمرية ويطرد جميع المسلمين من المناطق الواقعة شمال نهر دويرة .
١٠٦٦	٤٥٨	ولِيَام الفاتح النورماني يهزم الانجليز في موقعة هيستنجز . (١٤ اكتوبر)
١٠٧١	٤٦٣	السجلوقيون يهزمون بيزنطة في معركة مانتريكرت ويعرضون الكنيسة الشرقية للخطر .
١٠٧٥	٤٦٧	الكنيسة الكاثوليكية تقدم على احراق اول الضحايا بسبب اختلاف معتقداتهم الدينية .
١٠٨٠	٤٧٣	الفونصو السادس يوجه جهوده لاحتلال طليطلة بعد نشوب الأزمة الداخلية فيها .
١٠٨١	٤٧٤	بداية حصار طليطلة عاصمة الثغر الأوسط واخفاق ملوك الطوائف في نجدتها .
١٠٨٥	٤٧٨	٢٥ ايار/ محرم . استسلام طليطلة لألفونصو السادس واخفاق الهجمات التي شنت عليها فيما بعد لاسترجاعها .
١٠٨٦	٤٧٩	٣٠ حزيران/ منتصف ربيع الأول . عبور سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس استجابة لطلب بعض الملوك الطوائف ، ولاسيما المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، بعد استفحال خطر الفونصو السادس ومغالاته في طلب الجزية وتسليم الحصون والقلاع .

١٠٨٦	٤٧٩	٢٣ تشرين الأول/ الجمعة ١٢ رجب . نشوب معركة الزلاقة التي استمرت يوما واحدا ، وانتهت بهزيمة الفونصو السادس وتسمية يوسف بن تاشفين « أمير المؤمنين » .
١٠٩١	٤٨٤	بداية عهد المرابطين بعد تصفية ملوك الطوائف بما فيهم المعتمد بن عباد الذى نفى إلى اغمات وتوفى فيها ، وانتهاء عهدهم سنة ١١٢٦ /٥٢٠ .
١٠٩٤	٤٨٧	١٦ حزيران / الخميس منسلخ جمادى الأولى . السيد القنبيطور (رودريغو دياث دى بيبار) يحتل مدينة بلنسبة بعد حصار استمر ٢٠ شهرا الى حين استعادتها سنة ١١٠٢ / ٤٩٥ بعد أن احرقتها شمانة زوجة السيد .
١٠٩٥	٤٨٨	الامبراطور البيزنطي اليكسوس كومينوس يبعث الى البابا اربانوس (اربان) الثاني يطلب منه العون ضد الأتراك .
١٠٩٥	٤٨٨	٢٦ تشرين الثاني . اربان الثاني يلقي خطبته الشهيرة في كليرمونت معلنا بداية الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (الأندلس) .
١٠٩٦	٤٨٩	الحملة الصليبية الأولى تبدأ بتسيير حوالي نصف مليون فلاح فرنسي يرجع منهم ٢٥ ألفا فقط ، ثم بحملة عسكرية قادها النبلاء .
١٠٩٧	٤٩١	هزيمة الشماليين في معركة كنشرة .
١٠٩٩	٤٩٢	١٥ تموز . سقوط القدس بايدى الصليبيين بعد حصار استمر خمسة أسابيع .
١١٠٨	٥٠١	٢٩ أيار / ١٦ شوال . المرابطون يحققون انتصارا جديدا في معركة أقليش (اقليج) قرب طليطلة .
١١١٦	٥٠٩	المرابطون يستردون الجزائر الشرقية بعد سنة من قيام برشلونة وجنوة وبيزا (بيشة) باحتلالها .
١١١٨	٥١٢	١٩ كانون الأول / الأربعاء ٤ رمضان . ألفونصو الأول « المحارب (اذفونش ابن ردمير ملك ارغون) يحتل سرقسطة بعد حصارها سبعة أو تسعة أشهر .
١١٢٠	٥١٤	أخر حزيران /الخميس ٢٤ ربيع الأول هزيمة أبي إسحاق إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين ، أخي الأمير المرابطي على بن يوسف في معركة قتندة (قرب سرقسطة)
١١٢٥	٥١٩	٧ كانون الثاني . ألفونصو الأول يتجه إلى غرناطة لاحتلالها بناء على طلب النصارى المعاهدين .
١١٢٨	٥٢٣	البرتغال تعلن استقلالها عن قشتالة وتبني مملكتها فيما بعد على حساب قشتالة والأندلس .
١١٣٤	٥٢٨	رمضان . هزيمة الفونصو الأول الأرغوني في وقيعة افراغه قرب لاردة .
١١٤٤	٥٣٨	قيام ١٤ مملكة في الأندلس بعد انهيار دولة المرابطين .

١١٤٥	٥٤٠	بداية عهد الموحدين الذى انتهي سنة ١٣٢٣ / ٦٢٠ .
١١٤٧	٥٤٢	الفونصو انريكيث البرتغالي يستولى على لشبونة (اشبونة) بمساعدة قوات صليبية من الانجليز والهولنديين والألمان في طريقها الى المشرق .
١١٤٧	٥٤٢	الحملة الصليبية الثانية تبدأ بتوجه الالماني كونراد الثالث والفرنسي لوى السابع الى المشرق دون تحقيق نتائج . وتستمر حتى سنة ١١٤٩ / ٥٤٤ .
١١٤٨	٥٤٣	الخميس ١٦ شوال . سقوط مدينة طرطوشة على يد رامون برنجير الرابع وحلفائه من فرسان الهيكل بعد حصار استمر ٤٠ يوما .
١١٥١	٥٤٦	الفونصو السابع يهاجم قرطبة وجيان دون تحقيق أى انتصار .
١١٥٧	٥٥٢	الموحدون يستعيدون المرية من الشماليين بعد استسلام حاميتها .
١١٦٠	٥٥٥	البرتغالي الفونصو انريكيث يستولي على قصر الفتح (قصر ابي دانس) بمساعدة القوات الصليبية المتجهة الى المشرق .
١١٧٢	٥٦٧	رجب . الشماليون يحتلون لاردة الواقعة في اقصى الشمال الشرقي .
١١٧٩	٥٧٥	البابا يعترف بالبرتغال بمملكة مستقلة عن قشتالة .
١١٨٧	٥٨٣	صلاح الدين الايوبي يهزم الصليبيين فى معركة حطين ويستعيد القدس .
١١٨٩	٥٨٥	شن الحملة الصليبية الثالثة وغرق فريدريك الاول (بربروسا) .الحملة تستمر ثلاث سنوات حتى ١١٩٢ / ٥٨٨ .
١١٩٢	٥٨٨	البابا سيلستين الثالث يرسل ابن اخته الكردينال غيورغو لحث الشماليين على القتال ويعقد الصلح بين قشتالة وارغون، والسلام مع ليون . بناء الأرك .
١١٩٥	٥٩١	الخميس ٢٥ جمادى الآخرة. الخليفة الموحدى أبي يوسف يعقوب المنصور يعبر الى طريف فقلعة رباح بعد استفحال خطر الفونصو الثامن .
١١٩٥	٥٩١	١٨ تموز / الأربعاء ٩ شعبان . هزيمة الفونصو الثامن القشتالي في موقعة الأرك (الأركة) بعد يوم واحد من القتال .
١٢٠٤	٦٠٠	القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ومقر الكنيسة الشرقية التي استعصت على العرب بعد حصارها سنة ٦٧٣ (٥٣) و٧١٧ / ٧١٨ (٩٨ / ٩٩) تسقط بايدى الصليبيين الغربيين بتحريض النورمان والبندقية .
١٢١٠	٦٠٦	١٦ شباط . البابا انوصان الثالث يأمر رودريغو خيمنيث دى رادا ، رئيس أساقفة طليطلة الجديد ، بحثّ الفونصو الثامن على قتال الموحدين ..

١٢١١	٦٠٧	أول أيلول / أول السنة . الذعر يدب في ممالك المسيحية بعد سقوط قلعة شلبطرة بيد محمد الناصر لدين الله لكونها حامية الجناح اليميني للمملكة القشتالية .
١٢١٢	٦٠٩	٢٠ حزيران . قوات قشتالية وأرغونية وفرنسية والمانية تخرج من طليطلة استعدادا للقاء الموحدين والأندلسيين .
١٢١٢	٦٠٩	الحملة الصليبية التي عرفت باسم حملة الصبيان تنتهي برجوع صبي فرنسي واحد (من أصل٠٠٠ر٣٠٠) و ٢٠٠ الماني (من أصل ٠٠٠ر٢٠) .
١٢١٢	٦٠٩	١٦ تموز / ١٤ / ١٥ صفر . القوات الشمالية – الأوروبية المتحدة تحقق انتصارا ساحقا على الموحدين والأندلسيين في معركة العقاب بعد قتال استمر يوما واحدا في سهل يقع جنوب غرب حصن العقاب ، واتباع هذا النصر باحتلال بياسة وأبدة .
١٢٢٣	٦٢٠	قيام دولة بني الأحمر في غرناطة واستمرارها حتى سنة ١٤٩٢ / ٨٩٧ .
١٢٢٨	٦٢٥	الحملة الصليبية الخامسة تستمر سنة واحدة ويحتل خلالها فريدريك الثاني القدس وبيت لحم والناصرة بموجب معاهدة مع السلطان الكامل .
١٢٣٠	٦٢٧	أول كانون الأول / الاثنين ١٤ صفر . الأرغوني خايمي الأول « الغازى » (جايمش بن بطرة بن جايمش) يحتل جزيرة ميورقة بمساعدة الايطاليين والفرنسيين . العاصمة سبق واحتلت في ٣١ كانون الأول سنة ١٢٢٩ (٦٢٦) .
١٢٣٠	٦٢٧	احتلال مدينة ماردة الواقعة شرق بطليوس .
١٢٣١	٦٢٨	الاعتراف بسيادة خايمي الأول على جزيرة منورقة ودفع الجزية له .
١٢٣٥	٦٣٢	غيلين ، رئيس أساقفة طركونة ، والامير البرتغالي بدرو يحتلان اليابسة .
١٢٣٦	٦٣٣	٢٩ جزيران / الأحد ٢٣ شوال . فرناندو الثالث (فراندة / هراندة) بن الفنش (الفنشة) الذى لقب فيما بعد بالقديس ، يحتل مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القرطبية البائدة ويطرد معظم سكانها .
١٢٣٦	٦٣٣	القوات البرتغالية تحتل مدينة طبيرة في أقصى الجنوب ، وتستكمل بذلك عملية السيطرة على جميع المناطق التي تتشكل منها البرتغال اليوم .
١٢٣٧	٦٣٤	الخميس ٢٠ ذى الحجة . موقعة انيشة (انيجة) تسفر عن سقوط حصن انيجة على يد خايمي الأول ويشدد الحصار على بلنسية .
١٢٣٨	٦٣٦	٢٨ أيلول / الثلاثاء ١٧ صفر . بلنسية ، كبرى قواعد شرقية الاندلس ، تسقط على يد خايمي الأول بعد حرب استمرت خمس سنوات (منذ

١٢٣٣ / ٦٣١) وأسبغ عليها البابا غريغورى التاسع صفة الحرب الصليبية ، وساهم فيها مطران مدينة نربونة (أربونة) الفرنسي وقوات جنوة البرية والبحرية .

١٢٤٣	٦٤١	سقوط مدينة دانية جنوب شرق بلنسية على يد خايمي الأول .
١٢٤٣	٦٤١	٥تموز . خايمي الأول يحتل مدينة مرسية للمرة الأولى .
١٢٤٦	٦٤٣	فرناندو الثالث يحتل مدينة جيان شرق قرطبة .
١٢٤٧	٦٤٤	فرناندو الثالث يحتل مدينة شاطبة ويطرد سكانها .
١٢٤٨	٦٤٦	الحملة الصليبية السادسة تؤدى الى أسر لوى التاسع في المنصورة (مصر) سنة ١٢٤٩ / ٦٤٧ ومعه جميع أفراد جيشه .
١٢٤٨	٦٤٦	أشبيلية تسقط بايدى جنود فرناندو الثالث بعد حصار استمر سنة ونصف السنة ، ويطردون غالبية سكانها في ٢٣ تشرين الثاني (الاثنين ٥ شعبان .
١٢٥٣	٦٥١	مملكة أرغون تستكمل احتلال نصيبها من الأراضي الأندلسية وتحول انظارها إلى البحر الأبيض المتوسط (البحر الشامي) لبناء امبراطوريتها .
١٢٥٤	٦٥٢	خايمي الأول يلغي جميع الديون التي قدمها اليهود لمملكة ارغون ضمن موجة من السخط على اليهود .
١٢٥٤	٦٥٢	ملك فرنسا لوى التاسع يعود الى بلاده من الحروب الصليبية فى المشرق ويطرد اليهود من معظم أنحاء فرنسا .
١٢٥٨	٦٥٦	انهيار الخلافة العباسية اثر هجوم هولاكو على بغداد ومقتل المعتصم أخر خلفاء العباسيين .
١٢٦٠	٦٥٨	١٠ أيلول . الفونصو العاشر ينقل الحرب الى المغرب ويهاجم مدينة شالة (سلا) وهي ضاحية من الرباط اليوم .
١٢٦٢	٦٦٠	الفونصو العاشر يقتحم مدينة لبله الجنوبية ويطرد سكانها .
١٢٦٤	٦٦٢	حزيران . المسلمون ينظمون انتفاضة شاملة في الجنوب ويستردون مرسية .
١٢٦٦	٦٦٤	٣١ كانون الثانى . خايمي الأول يأخذ مرسية صلحا لابنته زوجة الفونصو العاشر .
١٢٧٠	٦٦٨	الحملة الصليبية السابعة تنتهي باصابة الملك الفرنسي ومعظم أفراد جيشه بالطاعون وموتهم في تونس .
١٢٧٥	٦٧٤	طرد أعداد كبيرة من أندلسيي مرسية مما الحق خرابا كبيرا بالمنطقة .
١٢٧٥	٦٧٤	السلطان المريني المنصور يحقق انتصارا على جيش قشتالة في ١٥ ربيع الأول .

١٢٨٧	٦٨٦	سقوط جزيرة منورقة بأيدى جنود ارغون .
١٢٩١	٦٩٠	المماليك يستردون عكا ويلحق بذلك تخلى الصليبيين عن بيروت وصور وصيدا وانتهاء مرحلة الحروب الصليبية ضد المشرق بشكلها القديم .
١٢٩٩	٦٩٩	قيام الدولة العثمانية واستمرارها حتى سنة ١٩٢٠ .
١٣٤٠	٧٤١	٣٠ تشرين الأول / ٧ جمادى الأولى . انهزام المسلمين فى وقعة طريف التي عرفت لأول مرة في أورروبة استخدام نوع من المدافع عرفت بالانفاط .
١٣٤٢	٧٤٣	حصار مدينة الجزيرة الخضراء في حملة اشتركت فيها قوات اوروبية كثيرة ، اذ حاصرها القطلانيون وأهل جنوة من البحر، وهاجمها فيليب الثالث النافارى وايرل دربي وسالزبورى الانجليزيان من البر، وقدم بابا روما المال لتمويل العمليات القتالية ، ودكت أسوار المدينة أول أنواع المدفعية التي عرفت في اوروبة .
١٣٤٤	٧٤٥	٢٥ آذار . استسلام الجزيرة الخضراء وبقاء جبل طارق بأيدى قوات المرينيين .
١٣٤٧	٧٤٨	تشرين الأول . سفينة تابعة لجنوة تعود من ميناء كافا في شبه جزيرة القرم وهي تقل بحارة اصيبوا بالطاعون (الموت الأسود) المنتشر من الشرق . الطاعون الذى انتقل الى أوروبة واستمر ثماني سنوات (١٣٥٤ / ٧٥٥) يسبب وفاة حوالي ٦٠ مليون شخص منهم ٢٥ مليونا في اوروبة ، وقد التصق انتشاره باليهود مما أدى الى وقوع الكثير من المذابح (١٣٤٨ – ١٣٥١) .
١٣٤٩	٧٥٠	الفونصو الحادى عشر يحاصر جبل طارق ولكنه يصاب وجنوده بالطاعون ويموت في السنة التالية .
١٣٧٤	٧٧٦	غرناطة تستولي على جبل طارق وتضمه لمملكتها .
١٣٨٥	٧٨٧	انتصار البرتغال على قشتالة في معركة الجبروت .
١٤٠٢	٨٠٤	٢٠ تموز . تيمورلنك ينزل بالعثمانيين هزيمة ساحقة ويأسر السلطان بيازيد .
١٤١٥	٨١٨	البرتغاليون يحتلون مدينة سبتة في الطرف المغربي .
١٤٥٣	٨٥٧	٢٩ آيار . محمد الثاني المعروف بالفاتح يحتل القسطنطينية .
١٤٦٢	٨٦٧	تجدد القتال بين قشتالة وغرناطة بعد سلم، وسقوط جبل طارق .
١٤٧٤	٨٧٩	ايزابيلا تعتلي عرش قشتالة .
١٤٧٤	٨٧٩	البابا سيكستوس الرابع يحث ايزابيلا على انشاء محكمة تفتيش بابوية لقمع الهرطقة والمحافظة على نقاء الكاثوليكية .
١٤٧٨	٨٨٣	سيسكستوس الرابع يوافق على انشاء محكمة تفتيش قشتالية .

١٤٧٩	٨٨٤	فرناندو الخامس ، زوج ايزابيلا ، يرث عرش مملكة ارغون .
١٤٨٠	٨٨٥	ايزابيلا تصدر مرسوما يدعو سكان قشتالة وليون لمساعدة محاكم التفتيش .
١٤٨١	٨٨٦	اندلاع الحرب بين غرناطة وقشتالة بعد أن رفض أبو الحسن على بن سعد (الغالب بالله) دفع الجزية وتسليم بعض المراكز العسكرية، وهاجم مدينة الزهراء واستردها .
١٤٨١	٨٨٦	٦ شباط . الاحتفال باحراق أول مجموعة من ضحايا محاكم التفتيش ليصل العدد في نهاية السنة الى ٢٩٨ شخصا .
١٤٨٢	٨٨٧	محرم . فرناندو يستولي على مدينة الحمة (الحامة) غربي غرناطة .
١٤٨٣	٨٨٨	فرناندو يحتل مدينة الزهراء بعد حوالي سنتين من استعادتها .
١٤٨٥	٨٩٠	فرناندو يحتل مدينة رندة .
١٤٨٧	٨٩٢	فرناندو يحتل مدينة مالقة بعد حصارها واستخدام المدافع لدك أسوارها وينتهي اهلها الى القتل أو السبي .
١٤٨٧	٨٩٢	تأسيس محكمة تفتيش في مملكة ارغون (برشلونة) رغم المعارضة القوية .
١٤٨٨	٨٩٣	فرناندو يشدد الحملة ضد غرناطة ويبدأ نشاطا عسكريا جديدا احتل فيه مدن بسطة والمرية ووادى آش .
١٤٩٠	٨٩٥	نيسان . بداية حصار مدينة غرناطة بعد احراق مرج غرناطة والحقول .
١٤٩٠	٨٩٥	المفتش الأكبر توركيمادة يبدأ الحملة ضد اليهود بأحراق كتبهم .
١٤٩١	٨٩٧	٢٥ تشرين الثاني / ٢١ محرم . توقيع معاهدة تسليم غرناطة .
١٤٩٢	٨٩٧	٢ كانون الثاني / ٢ ربيع الأول . استسلام مدينة غرناطة .
١٤٩٢	٨٩٧	٣٠ آذار . ايزابيلا تصدر مرسوما بطرد اليهود الذين يختارون البقاء على دينهم خلال أربعة أشهر .
١٤٩٢	٨٩٧	٣ آب . الجنوى كريستوفر كولومبوس يغادر قشتالة في رحلته الأولي ويكتشف (١٢ تشرين الأول) سان سلفادور حاليا ، ثم يقوم باربع رحلات خلال السنوات العشر التالية .
١٤٩٦	٩٠١	طرد اليهود من البرتغال اثر ضغوط من قشتالة .
١٤٩٧	٩٠٢	قوات قشتالة تنقل الحرب الى الساحل المغربي وتهاجم مدينة مليلة .
١٤٩٨	٩٠٣	وفاة المفتش العام توركيمادة المسؤول عن احراق ١٠ر٠٠٠ شخص .
١٤٩٩	٩٠٤	تشرين الثاني . اندلاع الثورة الأندلسية الأولى .
١٥٠٠	٩٠٥	آذار . فرناندو الخامس يتسلم بنفسه إدارة دفة قتال الثوار ويتوجه بجيش كبير الى جبل البشرة .

١٥٠١ اندلاع الثورة في الجبل الأحمر وارسال القائد الونشو دى اجيلار لإخمادها إلا أن يتعرض لكمين ويقتل القائد مع جنود كثيرين .

١٥٠٢ شباط . الملكة ايزابيلا تصدر مرسوما يقضي بتخيير الأندلسيين بين الرحيل أو التنصر .

١٥٠٢ نيسان . عدد الأندلسيين الذين غادروا غرناطة يصل الى ٣٠٠ر٠٠٠ شخص .

١٥٠٤ وفاة ايزابيلا .

١٥٠٧ الكردينال زمنيز ، مضطهد الأندلسيين ، يصبح مفتشا عاما لمحاكم التفتيش .

١٥٠٨ فرناندو الخامس يصدر مرسوماً هدفه التضييق على الأندلسيين .

١٥٠٩ زمنيز يقود هجوما على وهران يسفر عن مقتل الآلاف .

١٥١٥ زمنيز يأمر بتشكيل محكمة تفتيش في وهران .

١٥١٦ ٢٣ كانون الثاني . موت فرناندو .

١٥١٧ كارلوس الخامس يصبح ملكا على قشتالة وارغون .

١٥١٧ ٣١ تشرين الأول . مارتن لوثر يعلق اطروحاته الدينية على كنيسة في مدينة ويتنبرغ معلنا بداية حركة الاصلاح الديني (البروتستانتية) .

١٥٢١ الرعاع في بلنسية يجبرون الأندلسيين على التنصر في أعقاب اندلاع ثورة المدن .

١٥٢٥ صدور مرسوم جديد يؤكد القيود التي نصّ عليها مرسوم ١٥٠٨ .

١٥٢٦ تأسيس محكمة للتفتيش في غرناطة .

١٥٢٩ آيار . احراق أول مجموعة من الأندلسيين المتهمين بالهرطقة .

١٥٥٦ كارلوس الخامس يتنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني ويموت بعد سنتين .

١٥٥٩ اكتشاف خليتين للبروتستانت في قشتالة واحراق الهراطقة في بلد الوليدواشبيلية .

١٥٦٧ الأول من كانون الثاني . فيليب الثاني يصدر مرسوما يحظر على الأندلسيين التكلم بالعربية أو مزاولة أية عادات اسلامية .

١٥٦٨ ١٥ نيسان . اندلاع الشرارة الأولى للثورة الأندلسية الكبرى .

١٥٦٨ ٢٣ (٢٤) كانون الأول . الثوار الأندلسيون يشنون هجوما مباغتا على غرناطة ويوقعون خسائر كبيرة بحاميتها .

١٥٦٩ ٦ نيسان . دون خوان النمسوى يغادر مدريد الى غرناطة لتولي مهمة قمع الثورة الأندلسية الكبرى التي عمت الجنوب .

١٥٦٩ ١٨ حزيران . الثوار الأندلسيون يحاصرون مدينة سيرون في وادي نهر المصنورة ويتمكنون فيما بعد من احتلالها .

١٥٦٩ ٢٣ حزيران . فيليب الثاني يصدر مرسوما بنفي أهل غرناطة الى الشمال .

١٥٧٠ بداية أيلول . أربعة جيوش تنطلق لابادة الثوار وتتمكن بحلول منتصف تشرين الأول من دحر التجمعات الرئيسية في معاقل الثورة .

١٥٧٠ ١٩ تشرين الأول . فيليب الثاني يصدر مرسوما يخول فيه الجنود قتل الأندلسيين وسبي نسائهم .

١٥٧٠ ٢٨ تشرين الأول . فيليب الثاني يصدر مرسوما بنفى جميع الأندلسيين من الجنوب .

١٥٧١ آذار . قطع رأس مولاى عبد الله بعد أن قتله أحد أتباعه

١٥٧١ قبل انتصاف السنة التمكن اخيرا من اطفاء أخر جذوات الثورة الأندلسية الكبرى واتباع ذلك بأعمال انتقامية بشعة .

١٥٧١ ٧ تشرين الأول . دون خوان النمسوى يتمكن من هزيمة الاسطول العثمانى فى ليبانت .

١٥٧٢ ٦ تشرين الأول . فيليب الثاني يصدر مرسوما خاصا بمنع استخدام اللغة العربية .

١٥٨٨ ٢١ تموز . البحارة الانجليز يهاجمون الأرمادا وتؤدى العواصف الى اخفاق مهمة الأسطول القشتالى في كسر انجلترا .

١٥٩٤ محاكم التفتيش الأسبانية تعتقل ٩٦ أندلسيا .

١٥٩٦ الحكومة القشتالية تعلن افلاسها للمرة الثانية خلال ٢١ سنة .

١٦٠٩ بدء سريان معاهدة الهدنة بين الهولنديين والأسبان .

١٦٠٩ ٩ نيسان . صدور مرسوم نفي الأندلسيين (المواركة) من أسبانيا .

١٦٠٩ أيلول . وصول ثمانية آلاف جندى اسباني على متن السفن لترحيل الأندلسيين ابتداء من اندلسيي بلنسية .

١٦١٠ وثيقة من طليطلة تشير الى أن عدد المعتقلين الأندلسيين من جانب محاكم التفتيش بلغ منذ سنة ١٥٧٥ حوالي ١٩٠ أندلسيا .

١٧٢٨ آيار . احراق ٤٥ أندلسيا بعد اتهامهم بالهرطقة .

١٧٢٨ تشرين الأول . احراق دفعة أخرى عددها ٢٨ أندلسيا .

١٧٦٩ العثور على مسجد كان بعض الاندلسيين يستخدمونه للصلاة سرا .

١٧٨٠ وثائق محاكم التفتيش لاتتضمن في هذه السنة أية أسماء أندلسية .

١٨٣٤ الغاء محاكم التفتيش بسبب معارضة الفرنسيين .

حكام الأندلس

أ - الولاة : ٩٥ هـ - ١٣٨ هـ فترة تعاقب عليها ٢٢ واليا وهم :

	(هجرية)	(ميلادية)
١ - عبد العزيز بن موسى بن نصير	ذى الحجة ٩٥ - رجب ٩٧	٧١٤ - ٧١٦ اغتيل
٢ - ايوب بن حبيب اللخمي	رجب ٩٧ - ذى الحجة ٩٧	٧١٦ - -
٣ - الحر بن عبد الرحمن الثقفي	ذى الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠	٧١٦ - ٧١٩
٤ - السمح بن مالك الخولاني	رمضان ١٠٠ - ذى الحجة ١٠٢	٧١٩ - ٧٢١ استشهد في غاله
٥ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	ذى الحجة ١٠٢ - صفر ١٠٣	٧٢١ - -
٦ - عنبسة بن سحيم الكلبي	صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧	٧٢١ - ٧٢٥ استشهد في غاله
٧ - عذره بن عبد الله الفهري	شعبان ١٠٧ - شوال ١٠٧	٧٢٥ - -
٨ - يحيى بن سلمة الكلبي	شوال ١٠٧ - ربيع الاول ١١٠	٧٢٦ - ٧٢٨
٩ - حذيفة بن الاحوص القيسي	ربيع الاول ١١٠ - شعبان ١١٠	٧٢٨ - -
١٠ - عثمان بن ابي نسعة الخثعمي	شعبان ١١٠ - محرم ١١١	٧٢٨ - ٧٢٩
١١ - الهيثم بن عبيد الكلابي	محرم ١١١ - ذى القعدة ١١١	٧٢٩ - ٧٣٠
١٢ - محمد بن عبد الله الاشجعي	ذى القعدة ١١١ - صفر ١١٢	٧٣٠ - -
١٣ - عبد الرحمن الغافقي (٢)	صفر ١١٢ - رمضان ١١٤	٧٣٠ - ٧٣٢ استشهد في غاله
١٤ - عبد الملك بن قطن الفهري	رمضان ١١٤ - شوال ١١٦	٧٣٢ - ٧٣٤
١٥ - عقبة بن الحجاج السلولي	شوال ١١٦ - صفر ١٢٣	٧٣٤ - ٧٤١ استشهد في غاله
١٦ - عبد الملك بن قطن الفهري	صفر ١٢٣ - ذى القعدة ١٢٣	٧٤١ - -
١٧ - بلج بن بشر القشيري	ذى القعدة ١٢٣ - شوال ١٢٤	٧٤١ - ٧٤٢
١٨ - ثعلبة بن سلامة العاملي	شوال ١٢٤ - رجب ١٢٥	٧٤٢ - ٧٤٣
١٩ - ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	رجب ١٢٥ - رجب ١٢٧	٧٤٣ - ٧٤٥
٢٠ - ثوابة بن سلامة الجذامي	رجب ١٢٧ - آخر ١٢٨	٧٤٥ - ٧٤٦
٢١ - عبد الرحمن بن كثير اللخمي	اول ١٢٩ ربيع الثاني ١٢٩	٧٤٦ - -
٢٢ - يوسف بن عبد الرحمن الفهري	ربيع الثاني ١٢٩ - ذى الحجة ١٣٨	٧٤٦ - ٧٥٦

ب - الأمــراء والخلفــاء (٧٥٦ - ١٠١٣ / ١٣٨ - ٤٠٣)

١ - عبد الرحمن الأول (الداخل)	١٣٨ - ١٧٢	٧٥٦ - ٧٨٨
٢ - هشام الأول (المرتضى) (الرضا)	١٧٢ - ١٨٠	٧٨٨ - ٧٩٦
٣ - الحكم الربضي (الأول)	١٨٠ - ٢٠٦	٧٩٦ - ٨٢٢
٤ - عبد الرحمن الأوسط (الثاني)	٢٠٦ - ٢٣٨	٨٢٢ - ٨٥٢
٥ - محمد بن عبد الرحمن	٢٣٨ - ٢٧٣	٨٥٢ - ٨٨٦
٦ - المنذر بن محمد	٢٧٣ - ٢٧٥	٨٨٦ - ٨٨٨
٧ - عبد الله بن محمد	٢٧٥ - ٣٠٠	٨٨٨ - ٩١٢

٨ - عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله حفيد الأمير عبد الله . وفي عهده اعلنت الخلافة سنة (٩٢٩ / ٣١٦)

	٣٠٠ - ٣٥٠	٩١٢ - ٩٦١

٩ – الحكم الثاني (المستنصر بالله)	٣٥٠ - ٣٦٦	٩٦١ - ٩٧٦
١٠ – هشام الثاني (المؤيد بالله)	٣٦٦ - ٤٠٣؟	٩٧٦ - ١٠١٣
ج – عهد الطوائف	٤٠٠ - ٤٨٤	١٠٠٩ - ١٠٩١
د – عهد المرابطين	٤٨٤ - ٥٢٠	١٠٩١ - ١١٢٦
هـ – عهد الموحدين	٥٤٠ - ٦٢٠	١١٤٥ - ١٢٢٣

و – مملكة غرناطة التي بدأت عام ٦٢٠ (١٢٢٣) وانتهت باستسلام غرناطة عام (١٤٩٢) . وأهم ملوكها :

محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر	٦٣٥-٦٧١		١٢٣٨ - ١٢٧٧
أبو الحسن علي بن سعد (الغالب بالله)	٨٦٨ - ٨٨٧		١٤٦٣ - ١٤٨٢
أبو عبد الله محمد (الحادي عشر)	٨٨٧ - ٨٨٨	(الملك الصغير)	١٤٨٢ - ١٤٨٣
أبو عبد الله محمد (الثاني عشر)	٨٨٨ - ٨٩٢	(الزغل)	١٤٨٣ - ١٤٨٧
أبو عبد الله محمد (الحادي عشر)	٨٩٢ - ٨٩٧	(المرة الثانية)	١٤٨٧ - ١٤٩٢

أهم حكام الدويلات والممالك الشمالية

اشتوريش وليون : بلايو (بلاى) (Pelayo) وكان نبيلا قوطيا فر بعد الفتح وحكم مجموعة صغيرة من الأتباع . جاء بعده أبنه فافيلة (Fafila) ولكن لم يخلف عقباً وتزوجت أخته أرمسندة من الفونصو (Al fonso) ابن زعيم شمالى آخر هو بطرة (Pedro) فكان مؤسس أول دويلة شمالية حقيقية وهو :

الفونصو الأول (اذفنش) «الكاثوليكي»	١٢١ – ١٤٠	٧٣٩ – ٧٥٧	Alfonso I
فرويلة الأول	١٤٠ – ١٥٩	٧٥٧ – ٧٧٥	Fruela I
الفونصو الثاني (اذفنش الثاني)	١٧٥ – ٢٢٧	٧٩١ – ٨٤٢	Alfonso II
ردمير الأول	٢٢٧ – ٢٣٦	٨٤٢ – ٨٥٠	Ramiro I
اردون الأول	٢٣٦ – ٢٥٢	٨٥٠ – ٨٦٦	Ordono I
الفونصو الثالث (اذفنش الثالث)	٢٥٢ – ٢٩٧	٨٦٦ – ٩١٠	Alfonso III
غرسية الأول	٢٩٧ – ٣٠١	٩١٠ – ٩١٤	Garcia I
اردون الثاني	٣٠١ – ٣١٢	٩١٣ – ٩٢٣	Ordono II
ردمير الثاني	٣٢٠ – ٣٣٩	٩٣٢ – ٩٥٠	Ramiro II
ردمير الثالث	٣٥٥ – ٣٧٥	٩٦٦ – ٩٨٥	Ramiro III
الفونصو الخامس	٣٨٩ – ٤١٨	٩٩٩– ١٠٢٧	Alfonso V

نافار :احدى مملكتين لليون ثانيتهما قشتالة ، ولكن مركز الثقل انتقل الى نافار (نبارة) وكان من أهم ملوكها :

سانشو غرسية (شانجة غرسية) الأول	٢٩٣ – ٣٥٩	٩٠٥ – ٩٢٦	

غرسية سانشو (الأول) الذى حكم تحت وصاية أمه المسماة ، طوطة وربما كانت عمة الخليفة عبد الرحمن الناصر

في الأمومة :	٣١٤ – ٣٥٩	٩٢٦ – ٩٧٠	Garcia Sanchez I
سانشو (شانجة) غرسيه الثاني« ابركة »	٣٥٩ – ٣٨٥	٩٧٠ – ٩٩٣	Sancho Garces II
سانشو غرسية (الثالث ، الكبير)	٣٩٠ – ٤٤٦	١٠٠٠ – ١٠٣٥	Sancho Garces III

اشتدت المنافسة بين ممالك الشمال فى السنوات الأخيرة من حكم سانشوغرسية الكبير ، ولكن الحل جاء بعد أن قسم سانشو المملكة على أبنائه الأربعة كما جرت عليه العادة في تلك الفترة من الزمن . بسط ابنه الأكبر فرناندو الأول (فردلند Fernando I) سيطرته على ليون وجليقية وقشتالة ، وحصل ردمير على أرغون ، غنصالو Gonzalo على اواسط البرت . ولكن الأخير اغتيل في حين ادى انتزاع منطقة الروخه الخصبة الواقعة الى شمال نهر أبرة جنوب غربي بامبلونة (بنبلونة) الى عزل مملكة نافار ، وانحصر تأثيرها على الأندلس بطرق غير مباشرة وكان ذلك سنة ٤٤٦ (١٠٥٤م). فرناندو الأول هو الأخر قسم مملكته على أولاده الثلاثة فأخذ الفونصو السادس (الفنش) اشتوريش وليون ، وحصل سانشو (شانجة) على قشتالة ، بينما كانت جليقية والقسم الأعلى ، مما عرف باسم

البرتغال فيما بعد،من نصيب اصغر الأبناء غرسية . واغتيال الأخوين فيما بعد أدى الى انفراد ألفونصو السادس بحكم كل ارجاء المملكة . وستتبدل صفات الملوك فيما بعد الا أن الأهمية بقيت لمملكتي قشتالة وارغون وهكذا تكون فترة حكم الملكين الرئيسيين السابقيين :

قشتالة

فرناند الأول (فردلند)	٤٢٦ - ٤٥٨	١٠٣٥ - ١٠٦٥	Fernando I
الفونصو السادس (الفنش)	٤٦٥ - ٥٠٢	١٠٧٢ - ١١٠٩	Alfonso VI
الفونصو السابع (الفونش بن رمند البرجوني)	٥٢٠ - ٥٥٢	١١٢٦ - ١١٥٧	Alfonso Raimundez Vii
الفونصو الثامن « النبيل »	٥٥٣ - ٦١١	١١٥٨ - ١٢١٤	Alfonso VIII
فرناندو الثالث (فراندة الثالث)	٦١٤ - ٦٥٠	١٢١٧ - ١٢٥٢	Fernando III
الفونصو العاشر (الفونش) «العالم»	٦٥٠ - ٦٨١	١٢٥٢ - ١٢٨٤	Alfonso X
الفونصو الحادى عشر	٧١٢ - ٧٥١	١٣١٢ - ١٣٥٠	Alfonso XI
ايزابيلا (ازابل)	٨٧٩ - ٩١٠	١٤٧٤ - ١٥٠٤	Isabella

أرغون

سانشو ردمير (شانجة بن ردمير)	- ٤٨٧	- ١٠٩٤	Sancho Ramirez
الفونصو الأول (المحارب)	٤٩٧ - ٥٢٨	١١٠٤ - ١١٣٤	Alfonso I
رامون برنجير (رمند بن بلنقير - الرابع)	٥٢٥ - ٥٥٨	١١٣١ - ١١٦٢	Ramon Berenguer IV
الفونصو الثاني (الفونش الثاني)	٥٥٨ - ٥٩٢	١١٦٢ - ١١٩٦	Alfonso II
بدرو (بطرة) الثاني « الكاثوليكي »	٥٩٣ - ٦١٠	١١٩٦ - ١٢١٣	Pedro II
خايمي (جايمش) الأول « الغازى »	٦١٠ - ٦٧٥	١٢١٣ - ١٢٧٦	Jaime I
فرناند الخامس (الثاني)	٨٨٤ - ٩٢٢	١٤٧٩ - ١٥١٦	Fernando V

البرتغال :انفصلت البرتغال عن قشتالة سنة ١٠٩٤ (٤٨٧) واستقلت سنة ١١٢٨ (٥٢٢) ومن أهم ملوكها :

الفونصو انريكيث (الفونش ابن الريق)	٥٣٣ - ٥٨١	١١٣٩ - ١١٨٥	Alfonso Enriquez
سانشو الأول (شانجة)	٥٨١ - ٦٠٨	١١٨٥ - ١٢١١	Sancho I
الفونصو الثاني (الفونش)	٦٠٨ - ٦٢٠	١٢١١ - ١٢٢٣	Alfonso II

أسبانيا

كارلوس الخامس (الامبراطور)	٩٢٥ - ٩٦٣	١٥١٩ - ١٥٥٦	Garlos V
فيليب الثاني	٩٦٣ - ١٠٠٦	١٥٥٦ - ١٥٩٨	Felipe II
فيليب الثالث	١٠٠٦ - ١٠٣٠	١٥٩٨ - ١٦٢١	Felipe III

دليل الأعلام والمواضع

اذفونش ابن رمند	Alfonso VII (Leon)
الفونصو الثامن	Alfonso VIII
الفونصو العاشر ، « العالم »	Alfonso X (el Sabio)
الفونصو ابن الريق (الرنق)	Alfonso Enriquez
الفونصو بن رمند	Alfonso Raimundez
الغرب ، مدينة في البرتغال	Algarve
الجزيرة الخضراء ، مدينة	Algeciras
الحمة (الحامة) قرب غرناطة	Alhama
همدان ، مدينة	Alhendin
الخندق ، مدينة	Alhondiga
لقنت ، مدينة على الساحل الشرقي	Alicante
الأعجمية ، لغة المواركة	Aljamido
جبل المعدن	Almaden,Sierra de
المنصورة ، مدينة	Almanzora,Cuevas de
المعرض ، وادى	Almaraz
المنارة ، مدينة	Almenara de Adaja
المرية ، مدينة ومرفأ	Almeria
المدور ، نهر ووادى	Almodovar del Rio
جبل البشرة (البشرات)	Alpujarras,las
البة ، منطقة	Alva
البار هانش (البر هانس)	Alvar Hanez
أماية	Amaya
امبرياس ، امبورش	Ampurias
الأندلس ، الأندلس الصغرى (أندلوثيا)	Andalucia
اندرش ، مدينة في الجنوب	Andarax
اندورا ، دولة فى البيرينيه	Andorra
وقلة ابن غيطشة	Aquila
اقيطانه ، اكيتانيا	Aquitania
ارغون ، اراغون ، مملكة	Aragon
الرجوز ، الرنجوز ، منتجع	Aranjuez
اركش ، اركوش	Arcos de la Frontera
ارطباش ، ارطباس	Ardabas
فحص الرنسول	Arinsol
بنو سراج (من اعيان غرناطة) .	Abencerrage
ابن امية ، زعيم اندلسي	Abèn Hummeya
عدرة ، مدينة	Adra
ادريان الاترشتي	Adrian Utrecht
حسن الوزاز (مكتشف)	Africanus,Johannes Leo
ألونثو دى اجيلار (بلاى)	Aguilar,Alonzo Y
اجيلار ، مدينة	Aguilar de la Frontera
غونثالو القرطبي	Aguilar,Gonzalo Gernandez Y
« القبطان العظيم »	(Gonzalo de Cordoba)
الحنش ، قلعة	Alange
الارك ، معركة	Alarcos
القرية ، بلدة	Alegria
البسيط ، مدينة	Albacete
البيازين (حى في غرناطة)	Albaicin
بنو رزين ، مدينة (السهلة)	Albarracin
البركة (في مرسية)	Alberca
البحيرة	Albufera
قصر ابن دانس (الفتح) .	Alcacer de Sal
القيصرية ، سوق الحرير بغرناطة	Alcaiceria
القلعة .	Alcala
قلعة الوادى (وادى آر)	Alacala de Guaduira
قلعة يحصب ،	Alcala la Real
الكرسي ، مدينة	Alcaraz
جزيرة شقر (قرب بلنسية)	Alcira
ليط ، حصن .	Aledo
ماتيو المان (مؤلف)	Aleman,Mateo
الفارس (رتبة عسكرية اسبانية)	Alferez
الفونصو ، الأدفنش ، الفنش ، اذفونش الخ	Alfonso
الفونصو ١ الكاثوليكي	Alfonso I (Asturias)
اذفونش بن ردمير	Alfonso I (Aragon
الفونصو « الطاهر »	Alfonso II (Asturias)
الفونصو الثاني	Alfonso II(Aragon)
الفونصو السادس الليوني	Alfonso VI (Leon)

Arjona	ارجونة ، لرجونة ، مدينة
Arlanzon	الرنسون ، نهر ووادى
Asepuva	شيبة ، جبل
Asma	اسمة ، مدينة
Asperi	اشبرة ، ممر في البرينيه
Astorga	اشترقة ، مدينة في الشمال
Asturias	اشتورش ، استرياس ، اشتوريش
Atienza	اليتشة ، مدينة
Audencia	المحكمة العليا
Avenpace	ابن باجة
Averros	ابن رشد (الفيلسوف)
Avignon	ابنيون (افنيون)
Avila	ابلة ، مدينة
Axarquia	الشرقية ، مدينة
Badajoz	بطليوس ، مدينة
Badalona	بطلونة ، مدينة
Baeza	بياسة ، مدينة
Baliunech	بنيونش ، بليونش ، مدينة
Barbastro	بربشتر ، مدينة
Barbate	برباط ، نهر في الجنوب
Barbitania	بربطانية ، بربطانة
Barcelona	برشلونة ، مدينة
Basque	باسك ، اقليم
Baza	بسطة ، مدينة
Beas	بيش ، مدينة
Beja	باجة ، مدينة
Belalcazar	غافق ، مدينة
Berchules	برشلول ، مدينة
Berja	برجة ، مدينة
Biscay	بسقاية ، بسكاي ، خليج
Boabdil	الامير عبد الله الصغير
Babastro	ببشتر ، جبل
Boissonade	بواسوناد ، مؤرخ قديم
Bombezar	وادى قيس
Bordeaux	بوردو ، برذيل ، برذويل ، بردال
Burgos	برغش ، برقش ، مدينة
Cabra	قبرة ، مدينة
Cadiz	قادس ، مدينة
Calahorra	قلهرة ، مدينة
Calatanzor	قلعة النسور ، مدينة وقلعة
Calatrava la Vieja	قلعة رباح
Calpe	كالبي ، الاسم االقديم لجبل طارق
Campeador,El Cid	السيد القنبيطور
(Rodrigo Diaz de Vivar)	الكنبيطور اغ
Cantabrica	قنتبرية ، سلسلة جبال شمالية
Capitan General	الحاكم العسكرى (العام)
Carcasona	قرقشونة
Carlosv	كارلوس الخامس ، الامبراطور شارلكان
Carmona	قرمونة
Cartagena	قرطاجنة ، قرطجنة
Carteia	قرطية ، برج قرطجنة (خرائب)
Carvajal	كربجال ، فارس
Castile,la Nueva	قشتالة الجديدة
Castile,le Vieja	قشتالة القديمة
Catalonia	قطالونيا ، مملكة
Cerdana	شرطانية
Ceuta	سبتة
Charlemagne	شارلمان ، قارلة
Cherchel	شرشال
Chinchilla	جنجالة
Cid,el (انظر Campeador)	
Cintra	شنترة
Cisereus	الشزرى ، شزروا ، شيزرو ، ممر
Cisneros,Francisco Jimenez de	سيسنيروس
(Ximenes)	الكردينال خمينيث أو زمنيز
Ciudad Real	المدينة الملكية
Ciudad Rodrigo	السبطاط ، مدينة لذريق
Clavijo	كلابيخو ، وقعة
Coimbra	قلمرية ، قلنبيرة ، مدينة برتغالية
Comes	قومس ، قمص ، زعيم مسيحي
Consuegra	كنشرة
Contreras,Alonso de	الونصو دى كونتريرس
Cordova	قرطبة
Coria	قورية

Covadonga	كابدونغا (الصخرة ، صخرة بلاى)
Crete	كريت ، اقريطش
Cuenca	قونقة
Cuevas de Almanzora	المنصورة
Cutanda	قتندة ، وقعة
Denmark	الدنمارك ، الدانامرشة
Doroca	دروقة
Denia	دانية ، دانة
Diezma	دجمة
Don Juan de Austria	دون خوان النمسوى
Don Quixote	دون كيخوتي ، كيشوت
Duero	دويرة ، نهر ووادى
Ebro	ابرة ، نهر ووادى
Ecija	استجة
Egilona	ايلة ، زوجة لذريق
Elche	الش
Elio	أية
Elvira	البيرة
Escolano	ايشكولانو ، مؤرخ بلنسي
Escorial,el	الاسكوريال
Espeja,la	شيجة
Espejo (Cordoa)	شيجة قرطبة
Espinosa,	اسبينوزا ، الكردينال
Estremadura	استريمادورا ، اقليم
Evora	يابرة
Fajardo	فخاردو ، اسم اسرة قشتالة
Felipe II	فيليب الثاني.
Fernando	فرناندو (فراندة ، هراندة ، فرذلند)
Fernando I (Aragon)	فرناندو الأول
Fernando I (Castile)	فرناندو القشتالي
Fernando II (Leon)	فرناندو « البوج »
Fernando III (Castile)	فراندة ابن المنشة
Fernando IV(CAstile)	فرناندو الرابع
Fernando V(II) (el Catolico)	فرناندوالكاثوليكي
Ferrant-Martinez	فيرانت مارتينث
Fraga	افراغة ، وقعة
Franxinetium	جبل القلال

Fraxiliana	فركسالة (فرجالة) ، مدينة
Frigiliana	فرجالة (الأسم الحديث لفركسالة)
Fuengirola	سهيل ، مدينة
Fuente de Cantos	لفنت ، مدينة
Galicia	جليقية ، اقليم
Galleg	جلق ، نهر
Gaucin	غصن (غصين) مدينة قرب رندة
Gaulia (Francia)	غالة ، غاليش ، فرنسا
Generalife	جنة العريف (غرناطة)
Genil	شنيل ، نهر في الجنوب
Gerona	جرندة ، جيروندة ، مدينة
Gevaudon	جيفودون ، شاعر
Gibraleon	جبل العيون
Gibraltar	جبل طارق
Gijon	جيجون (خيخون)
Giralda	الجيرالدا ، مأذنة اشبيلية
Granada	غرناطة
Guadaira	الوادى ، مدينة قرب اشبيلية
Guadaljara	وادى الحجارة ، مدينة
Guadalete,Rio	لكه (بكه) ، نهر
Guadarrama,Sierra de	جبال الرمل (الرملة)
Guadatin	وادى الطين
Guadelquivir	نهر الوادى الكبير
Guadiana	وادى آنة
Guadix	وادى أش
Guazalete	وادى سليط
Gudiel, Alonzo Fray	فرى الفونصو وديل
Guejar	وجار ، ابشر ، مدينة
Guerrero, Pedro	بدور غيريرو
Henares	هنارس ، نهر
Hornachuelos	هرناش ، مدينة
Hrosuitha	روسفيتا ، راهب
Huelva	ولبة
Huesca	وشقة
Huete	وبذة
Iberia	ايبرية ، ابارية
Ibiza	اليابسة ، جزيرة

Inquis dor Gt	المفتش العام (حاكم التفتيش)
Isabella I	ايزابيلا (ازابل) الكاثوليكية
Isla de las Palomas	جزيرة بلومة (طريف)
Islas Baleares	الجزائر الشرقية (البليار)
Iznalloz	حصن اللوز ، مدينة جنوبية
Iznatoraf	حصن الطرف
Jaca	جاقة ، ثغر
Jaen	جيان ، مدينة
Jaime	خايمي الأول (جايمش ، جاقم اخ)
Jalon	شلون ، نهر
Janda	الخندق ، نهر وبحيرة
Jativa	شاطبة ، مدينة
Jerez de la Frontera	شريش ، مدينة
Jiemena	شمانة ، خمينة ، زوجة السيد
Jugar	شقر
Juana la Loca	خوانا المجنونة
Juderia, Barrio de la	حي اليهود
Julian	جوليان ، اليان،يليان
Lago	البحيرة
Lamax	اللاشة (الأشة) ماشة
Lanjaron	عنجر
Laroles	لورة
Lecrin	القرن ، وادى
Lemago	ليقة
Leon	ليون
Leon, Luis de	لويس الليوني
Lerida	لاردة
Lerma	ليرما ، مدينة – دوق
Lisboa	لشبونة ، اشبونة
Loja	لوشة
Lorca	لورقة
Lucena	اللسانة ، مدينة
Lugo	لك ، مدينة
Lyon	ليون (لوذون – في فرنسا)
Madrid	مدريد ، مجريط
Maimonides, Moses	موسى ابن ميمون
Malaga	مالقة

Mallorca	ميورقة
Marbella	مربلة (ماربيا)
Maracena	مرشانة
Marranos, los	اليهود « الخنازير »
Matamoros	ذباح الاندلسيين(سنتياغو)
Medina Azahara	المدينة الزهراء
Medinaceli	مدينة سالم
Medina Sidonia	مدينة شذونة
Mendoza, Don Inigo Lopez de	مندوزا
Menorca	منورقة
Merida	ماردة
Mexia, Don Augustin de	ميشيا ، الدون أوغسطين
Mino, Rio	مينية ، نهر
Mirones	ميرون ، قائد قشتالي
Mondego, Rio	منديق ، نهر
Mondejar, Marquis de	مركيز مندخار
Moreria	حي الموراكة (بلنسية)
Moriscos, los	الموراكة (الموريسكيون)
Moro	لقب عام يعني الاندلسي ، العربي
Moron	مرور (موورور) ، مدينة في الجنوب
Motril	مطريل ، متريل ، مدينة
Mozarabes, los	المستعربون
Mudejares, los	المدجنون
Murcia	مرسية
Murviedro	مربيطر
Narbona (Narbonne)	نربون ، نربونة ، اربونة
Navarre	نافار ، نبارة ، نبرة ، اقليم
Navas de Tolosa, Las	العقاب ، وقعة
Nerja	نرجة ، مدينة في الجنوب
Niebla	لبلة
Normandos, Los	النورمان (الأردمانيون المجوس)
Nuno de Lara	دننه ، ذو النونة ، ذنونة
Ocampo	اوكامبو ، مؤرخ
Ocsonoba	اكشبونة
Olivares, Conde-Duque	دوق اوليبارس
Olumundo	المند (ابن غيطشة)
Orense	اورية

Oribuela	اريولة
Orinse	اورنسة
Osma	اكشومة
Ostragoths	القوط الشرقيون
Oviedo	اوبيط
Padul (es)	بادول ، البذول ، مدينة
Palencia	بلنسية (في الشمال)
Pallares	بلد بليارش
Pamplona	بمبلونة ، بنبلونة
Pechina	بجانة
Pedro	بدور ، بطرة ، بطر اغ
Pedro I (el cruel)	بطرة بن المنشة « القاسي »
Pedroche	فحص البلوط
Pelayo (Pelagius)	بلايو ، بلاى ، بلي ، بلاغيوس
Pirineos (Pirenaica)	البيرينيه ، البرت ، البرتات
Portugal	البرتغال ، برتقال ، برطقال
Priego	باغو
Puig de Cebolla	انيشة ، انيجة ، وقعة
Pulgar, Hernando del	هرناندو ديل بلغار
Purchena	برشانة ، مدينة في الجنوب
Quesada	قيجاطة
Quixote, Don	دون كيخوتي ، كيشوت
Rahabatalcadi	رحبة القاضي (بلنسية)
Rohne	الرون (رودنة) ، نهر
Ramiro	رميرو ، ردمير اغ
Ramon Berenguer I	رامون برنجير الأول
Ramon Berenguer V	رامون برنجير الرابع
Reconquista, la	حرب الاسترجاع (الاسترداد)
Regio	رية ، اقليم ، مدينة
Reina, Casiodoro de	كاسيودورو دى رينا
Requesens	ريكويسنس ، قائد قشتالي
Ribera, Juan de	خوان دى ريبرة ، رئيس اساقفة بلنسية
Ricote, Valle de	وادى شقورة
Rodana	رودنة ، وادى
Rodrigo	رودريغو ، لذريق ، رودريق اغ
Roncesvalles	ونشفالة ، ممر
Ronda	وندة
Rueda de Jalon	روطة اليهود
Sado, Rio	شطبر ، نهر
Sagrajas	الزلاقة ، وقعة
Sagunto	سافونتة
Salado, Battalla del	طريف ، وقعة
Salamanca	شلمنقة ، شلمنتقة ، سلمنقة
Sale	سلا ، شالة
Saltex	شلطيش
Salobrena	شلوبانية
Salvatierra	شلبطرة ، قلعة
Sancho	سانشو ، شانجة اغ
Sancho I (Castile)	سانشو الأول القشتالي
Sancho II (el Fuerte)	سانشو الثاني « القوى »
Sancho IV (el valiente)	سانشو الرابع « الشجاع »
Santaver	شنتبرية
Santa Maria de Albarracin	شنتمرية الشرق
Santiago de Compoella	سنتياغو ، شنت ياقب (يعقوب)
Saragossa (Zaragoza)	سرقسطة
Sarria	شارة
Secunda	شقندة
Segovia	شقوبية
Segura	شقورة
Serin	سرية
Seron	سيرون
Sesa, Doque de	دوق سيسة
Sevilla	اشبيلية
Sierra Almaden	جبل المعدن
Sierra Morena	جبل الشارات
Sierra Nevada	جبل الثلج (شلير)
Siguenza	شفونة
Silves	شلب
Simancas	سيمانقة ، سيمانتقة
Soria	سرية ، مدينة
Tajo	تاجة ، نهر
Talamanca	طلمنكة
Talavera de la Reina	طليرة ، مدينة
Talavera, Hernando de	هرناندو طليرة
Tarifa	طريف ، طريفة ، مدينة في الجنوب
Tarragona	طركونة
Tarazona	طرسونة
Templares	فرسان المعبد (الداوية)
Tendilla	تندلة (مركيز مندخار)

Teruel	ترويل ، طرويل
Theodemir (Tudmir)	تدمير (مرسية لاحقا)
Tocina	طشانة
Toledo	طليطلة
Tolosa	طلوشة ، طلوزة
Torquemada,Tomas de	توما دى توركيمادة
Torrencilla de Cameros	ترجلة
Torrox	طرش ، مدينة في الجنوب
Tortosa	طرطوشة
Toulosa (Toulouse)	تولوز ، طولوشة
Trafalgar,Cape	طرف الغار
Tudela	تطيلة
Tuy	تودى
Ubeda	ابدة
Ubrique	ابريق ، مدينة في الجنوب الغربي
Ucles	اقليش ، اقليج ، وقعة
Ultimo Suspiro del Moro, el	بوابة ابي عبد الله ، اخر ملوك غرناطة ، جنوب المدينة .
Urraca	اوراكة
Valencia	بلنسية ، مدينة ومملكة
Vondals	بلد الوليد
Valladolid	الوندال ، الفندال ، قبائل جرمانية
Valladolid	اندلوسيا ، الاسم القديم للأندلس
Vascones	البشكنش ، البشكنس
Vascuence	البشقية ، لغة الباسك
Vega	مرج (وخاصة مرج غرناطة)
Velez Malaga	بلش مالقة
Vera,la	البيرة ، مدينة
Visigoths	القوط الغربيون
Vivar, Rodrigo Diaz de	(انظر Campeador)
Vizcya	(انظر Biscay)
Witiza	غيطشة ، الملك
Xeres	شرش
Ximenes	(انظر Cisneros)
Zagal	الزغل ، احد ملوك غرناطة
Zamora	سمورة ، مدينة
Zaragoza	(انظر Saragossa)
Zegri	الزيرى ، (الصفري)
Zocodover	سوق الدواب (طليطلة)

مصادر البحث

١

وضع هذا الموجز لتاريخ الأندلسيين الموراكة كان عملية صعبة لسببين : الأول كونه أول كتاب شامل يتناول سيرة الأندلسيين الموراكة ونضالهم بأية لغة كانت ، ولذا لم يتوفر أي مؤلف يمكن تأثره أو الأهتداء به في أغلب فصول الكتاب . أما الثاني فهو أن أفضل مراجع البحث مكتوبة بالأسبانية وهي لغة لاأتقنها مماتطلب تخصيص وقت اضافي طويل للترجمة والنسخ والتصوير، ومد فترة التردد على مكتبة مدريد الوطنية المرة تلو الأخرى . ولكن توفر بعض المصادر الخاصة بسيرة الأندلسيين الموراكة لاينهي المشكلة،لأن اغلب المراجع الأسبانية الخاصة بتلك الفترة لاتتسم بالموضوعية المطلوبة اضافة الى أنها مبتورة حينا ومجزوءة فى الأحايين الأخرى ، وبعض مؤرخي العهد القريب من سيرة الأندلسيين الموراكة اغفلوا حتى الاشارة الى الاضطهاد الذى تعرض له الأندلسيون الموراكة ولاسيما في الفترة التي نشبت فيها الثورة الأندلسية الكبرى وما تلاها .ودراسة موضوع الأندلسيين الموراكة ومحاكم التفتيش الأسبانية لاتخلو من صعوبات كثيرة مرد البعض منها عدم رغبة الأسبان في تناول هذه المسألة لأسباب معروفة ، والافتقار الى الوثائق الرسمية التي ضاعت مع مرور الزمن،أو بقيت بعيدة عن متناول الباحثين فى الكاتدرائيات والكنائس والمؤسسات الرسمية . وربما يحوز هذا الموضوع على الأهمية المطلوبة ، أو تتوفر مصادره بصورة كافية ، فان معلومات المصادر التى وصلت الينا تتطلب الحذر ، وخاصة عندما يكون المؤرخ بروتستانتيا فيسقط في المبالغة لاسباب معروفة .

ولعل أهم مشكلة تصادف الباحث في التاريخين الأندلسي والأسبانى بالاعتماد على المصادر الأجنبية ايا كانت اللغة التي كتبت بها ، تكمن في أن المنحى ، حتى منتصف القرن الحالي ، كان النهل من مراجع قديمة لم يطرأ عليها أى تغيير منذ أن وضعت في منتصف القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر ، وماتلا ذلك،مثل موسوعة ماريانا (٣٤ *) ومؤلفات اوكامبو ومندوزا وكوندى (٣٥) وغيرهم . ومع وجود بعض الاستثناءات ، فان الكتب التاريخية التي بدأت في الصدور اعتبارا من الخمسينات الماضية القت بعض الأضواء المهمة على كثير من الجوانب الغامضة في تاريخ شبه جزيرة ايبرية ، وليس من المستغرب أن يؤدى تجدد الاهتمام بشبه الجزيرة الى توفير صورة مختلفة لتاريخها عن الصورة التي وردت عبر المصادر الأجنبية . ولن يكون ذلك بالعمل الهين لأن معظم الوثائق الرسمية

* رقم الكتاب في لائحة المراجع الاجنبية .

الأندلسية ضاعت أو أتلفت ، ولأن الممالك المسيحية في شبه جزيرة ايبرية ، مثل ارغون والبرتغال وقطالونيا وتافار ، فقدت اهتمامها بتاريخها القديم فترة طويلة قبل أن يتجدد الاهتمام في العصور الحديثة . والخلاصة التالية تعطي فكرة عامة عن أهم المراجع المستفاد منها في فصول الكتاب :

الفصل الأول : مايزال المؤلف الذى وضعه دوزى (١٦) أفضل الكتب التي تناولت تاريخ الأندلس الاسلامية،رغم أن بعض المؤرخين الأسبان اعتبروه مؤيدا لوجهة النظر العربية . ويعتبر التميرا (٤٤ و ٤٥) أهم المؤرخين الأسبان في الربع الأول من القرن الحالي واعتبرت اراؤه متوازنة، واسعة الأفق . ومن أهم المؤرخين الآخرين! ليفى. بروفنسال (٥٣) وبيدال (٥٢) وبيبيس (٤٢ و ٤٣) ولاسيما في المسائل الاقتصادية والتعداد السكاني . أما المراجع الأخرى التي استخدمت في هذا الفصل فتشمل (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٤٨ ، ٥٨)، وغيرها من مصادر اخرى لم تدرج هنا .

الفصل الثاني : يعتبر البعض باروخا (٣٦) من أهم المؤرخين الذين تناولوا الغرناطيين بالدراسة . وافرد برسكوت (٦) فصلا كاملا عن الثورة الأندلسية الأولى لكنه يكتب بحرية غير مرغوبة اليوم ، وغالبا مايغفل الاشارة الى مصادره . من أهم المصادر الخاصة بهذا الفصل مؤلف لين – بول (٣) الذى يعتمد بصورة كبيرة على عمل دوزى (١٦) والمقرى وإسترلينج (٥) وارفنج (٣١) .

الفصل الثالث : من أهم الأعمال التاريخية الخاصة بالثورة الأندلسية الكبرى مؤلف كربخال (٢٠) . والمؤلف من مواليدغرناطة وحارب في حصار تونس (١٥٣٥) ووقع في أسر المغاربة مدة سبع سنوات ، وقاتل تحت راية الأمير المغربى محمد.وكان كربخال يتقن العربية وتنقل في المغرب ومصر وغرب افريقيا . وأهمية كربخال مردها اشتراكه في قمع الثورة الأندلسية الكبرى واتقانه للموضوع الذى كتب عنه،اذ كان ملما بتاريخ العرب عارفا لطباعهم . ولم يحظ كتابه،الذى صدر في مالقة للمرة الأولى سنة ١٦٠٠،بأهمية كبيرة،ولذا لم يعد طبع الكتاب حتى سنة ١٧٩٧ وصدر بمجلدين . من أهم المصادر الأخرى السيرة التي كتبها برسكوت (٧) عن فيليب الثاني ، واستخدم في معالجة الثورة الكبرى عددا من الرسائل المهمة التي لم يتح استخدامها لأحد قبله ، وكذلك مؤلف مندوزا (٢١) وسيركور (٢٢) . وتتسم مقالة الدكتور غراد غير المنشورة (٣٧) باهمية خاصة نظرا لأنها تتناول اسباب اندلاع الثورة الكبرى . من المصادر الأخرى ايضا (٣ ، ٥ ، ١٩ ، ٣٩) .

الفصل الرابع : المشكلة الرئيسية الخاصة بالفصل الرابع هي عدد الأندلسيين الموراكة الذين رحلوا في بداية القرن السابع عشر . وعلى الرغم من أن الاحصاءات التي قدمها لابير (١٧) يتوجب ألا تؤخذ على أنها الكلمة الفصل ، فان المؤلف يقدم مجموعة كبيرة من الوثائق التي تدعم حجته . ومن أهم مصادر الأقسام الأولى من الفصل (٣ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ،، ٣٩ ،)،واعتمد في القسم الخامس من هذا الفصل على مشاهدات برونل (١١) وبيرتو (١٥) وجولي (٢٤) .

الفصل الخامس : المصادر (٨ ،١٠ ، ١٤ ،٢٥ ،٣٢ ،) والملاحظات والوثائق التي وفرها الأب دون جوان ازاباردى المسؤول عن وثائق محكمة التفتيش المالطية في كنيسة المدينة في مالطة .

الفصل السادس : معظم مصادر القسم الأول من الفصل عربية (انظر المصادر العربية) ، ومن بين المصادر الأخرى المستخدمة (١ ، ٢ ، ٣ ، ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٥٩ و ٦٠) .

واخترت هنا الابتعاد عن عمل المستشرق كوندى (٣٥) المنشور في جزئه الأول سنة ١٨١٠ والثاني والثالث سنة ١٨١١ بعد وفاته . ويقول عنان (٣٥) في المصادر العربية[١] : « ينقل كوندى كثيرا من الروايات العربية دون دقة أو تمحيص أو مقارنة ، ويقع في كثير من الأخطاء التاريخية ، ولكنه يمتاز في كثير من تعليقاته وملاحظاته بالصراحة الجمة ، حتى أنه يذهب احيانا الى اصدار اشد الاحكام على امته ومواطنيه خصوصا في الحوادث التي اقترنت بسقوط غرناطة ، واضطهاد الأسبان للعرب ومطاردتهم وتنصيرهم ، ثم اخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم في غمر من الفظائع والدماء . على أن أهم ميزة لمؤلف كوندى هو انه أول مؤلف غربي يعرض للغرب قضية العرب في اسبانيا من الناحية العربية ، وفيه لأول مرة يقف الغرب على دفاع العرب ووجهات نظرهم وخواص نظمهم وسياستهم . »

« ومن ذلك الحين أخذت المصادر العربية تمثل في كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس ، حتى جاء العلامة المستشرق الهولندى رينهات دوزى فخص دراسة التاريخ الأندلسي ودراسة مصادره الغربية والعربية ، باعظم جهوده ، واخرج لنا في سنة ١٨٦١ كتابه القيم « تاريخ المسلمين في اسبانيا حتى فتح المرابطين » (١٦) في أربعة اجزاء . ويتناول دوزى تاريخ الأندلس باسلوب فلسفي نقدى قوى ، ويعني بشرح الظواهر السياسية والاجتماعية اكثر مما يعني بسرد الحوادث ، ومؤلفه بلا ريب من اجل المراجع الغربية في تاريخ الأندلس ، وان كانت تشوبه احيانا نزعات من التحامل والتعصب . ويهاجم دوزى ، كوندى ومؤلفه بشدة ، ويرميه بالادعاء والجهل حتى بمبادىء اللغة العربية ، ويقول عنه في كتابه « مباحث في تاريخ اسبانيا وآدابها في العصور الوسطي » إن كوندى : » لايعرف من العربية غير الحروف التي كتبت بها سوى القليل وأنه يستعيض عن أقل المعارف الابتدائية بخيال وافر الخصوبة ، وقحة لامثيل لها ، فيزيف مئات التواريخ ، والاف الحوادث ، ويزعم في نفس الوقت أنه ينقل النصوص العربية نقلا صادقا . » .

وفيما يلي ثبت باهم المراجع الاجنبية :

---

(١) ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

1- Spain, (The Mainland), Ian Robertson Ed., Benn, London, 1975.
2- Fisher, H.A.L. A History of Europe, Vol., 1,Fontana, Great Britain, 1979.
3- Lane-Poole, Stanléy. The Moors In Spain, (The Story of the Nations),T. Fisher Unwin, 4th Ed., London, 1890.
4- Gaztambide, José Goni. The Holy See and the Reconquest of the Kingdom of Granada, (1479-1492).
5- Maxwell, Sir W.Stirling. Don Juan of Austria, Part 1.
6- Prescott, William Hickling. History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, 10th Ed., Paris, 1842 (3 Volumes).
7- Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, Phillips, Sampson & Company, Boston, 1859 (3 Volumes).
8- Rowdon, Maurice. The Spanish Terror, Constable and Company Ltd., London, 1974.
9- Ortiz, Antonio Domingues. The Golden Age of Spain, Weidenfeld & Nicolson, London.
10- Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Golden Age, George Allen & Unwin Ltd., London, 1970.
11- Brunel, Antoine de. Voyage d'Espagne, Revue Hispanique, Vol. XXX, 1914 (PP 119-376).
12- Kinder, Herman & Hilgemann, Werner. Atlas of World History, Vol.I, London, 1980.
13- Cossio, J.M. de. Autobiografias de Saldados, Estudio Preliminar, Biblioteca de Autores Espãnoles, Vol, XC, 1956.
14- Plaidy, Jean. The Spanish Inquisition, London.
15- Bertaut, Francois. Journal Du Voyage d'Espagne, (1659), Revue Hispanique, Vol., XLVII, 1919 (PP 1-319).
16- Dozy, R.P.Histoires des Muslumans d'Espagne, (4 Volumes), Leyden, 1861. (Dozy, R.P. Spanish Islam, Translated by F.G.Stokes, 1913.)
17- Lapeyre, Henri. Geographie de l'Espagne Morisque, S.I.Paris Sevpem (Imprission Nationale), 1959.
18- Elliott, J.H. Imperial Spain (1469-1716), London, 1963.
19- Carta del Rey a Don Juan de Austria, 24 Febrero, 1570.
20- Carbajal, Luis del Marmol. Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos del Reyno de Cranada, Sancha, Madrid, 1797, (2 Volumes).
21- Mendoza, Guerra de Granada.
22- Circourt, Count Albert de, Histoire des Arabes en Espagne,(3 Volumes).
23- Hawley, Donald. The Trucial States, London, 1970.
24- Joly, Barthelemy. Voyage d'Espagne (1603-1604),Revue Hispanique, Vol, XX, 1909, (PP 460-618).
25- Adler,Elkan N. Documents sur les Marranes d'Espagne et de Portugal sous Philippe IV, «Revue des Etudes Juives», Vol. 51,1906.

26- Parry, J.H. The Spanish Seaborne Empire, London, 1971.
27- Bleye, Pedro Aguado. Manual de historia de España, Madrid, 1963.
28- Rule, William Harris. History of the Inquisition.
29- Arabia, London, 1825.
30- Asimov, Issac. A Choice of Catastrophes,1981.
31- Irving, Washington.Treasures of the Alhambra, Barcelona, 1979.
32- Jackson, Gabriel. The Making of Medieval Spain, London, 1972.
33- Plaidy, Jean. The Spanish Bridegroom, London, 1976.
34- Mariana, Juan de. Historia general de España, Toledo, 1601-Madrid, 1817-1822,(20 Volumes).
35- Condé, José. Historia de la dominacion de los arabes en España, Barcelona, 1844,(3 Volumes).
(Candé, José. Histroy of the dominion of the Arabes in Spain, Translated by J. foster, London, 1854.)
36- Baroja, Julio. Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, 1957.
37- Garrad, Dr K. The Causes of the Second Rebellion of Alpujarra. (Unpublished).
38- Donghi, Tulio Halperin. Un conflicto nacional en el siglo de oro, & Moriscos y Christianos Viejos en Valencia, Cuadernos de Historia de España, Vols., XXIII & XXIV, 1955-1957.
39- Hitos, F.M. Martires de la Alpujarra en la rebelion de los Moriscos en 1568, Madrid, 1935.
40- Bernard, Agustin. Afrique du Nord, Paris, 1925 .
41- Koenigsberger, H.G. & Mosse, George L. Europe in the Sixteenth Century, Longmans, Green & Co., Ltd., London, 1969.
42- Vives, Jaime Vicens. Historia Economica de España, 3d Ed., Barcelona, 1964.
43- Vives, Jaime Vicens. Manual de Historia economica de España, Barcelona, 1959
44- Altamira y Crevea, R.Historia de España y de la civilizacion Española, 3rd Ed., Barcelona, 1913, (4 Volumes).
45- Altamira, Rafael. A History of Spain, (D. Van Nostrand Co .,New York, 1949.
46- Vives, jaime Vicens (Ed) Historia economica de España y America, Barcelona, 1957-1959, (5 Volumes).
47- Burns, Robert. The Crusader Kingdom of Valencia, Harvard University Press, 1967, (2 Volumes).
48- Terrasse, Henri. Islam d'Espagne, Plon (Paris), 1958.
49- Mazaheri, Aly.La vie quotidienne des musulmans au moyen age, Hachette, Paris,1951.

50- Cagigas,Isidoro de las.Los mozarabes,Escelier,(2 Volumes),Madrid,1948.
51- Lacarra,J.M.(Ed.) La reconquista espeñola y la repoblacion del pais, Saragossa, 1951.
52- Pidal,G.Menendez.Los camions en la historia de España,Madrid,1951.
53- Provencal, E.Levi-. Histoire de L'Espagne Musulmane, Leyden-Paris, 1950-1953, (3 Volunes).
54- Robles,F.Guillèn.Catàlogo de los manuscritos àrabes existentes en la Biblioteca nacional de madrid,Madrid,1889.
55- Alarćon,Maximiliano & Ramón Garcia Linares.Los Documentos Arabes Diplomáticos del Archivo de la Corona de Agrgón, Madrid, 1940. (Escuela de Estudions Árabes).
56- Márquez, Antonio. Literatura e Inquisición en España (1478-1834), Taurus Ediciones, Madrid, 1980.
57- Castro, Américo. The Structure of Spanish History, «The Spaniards».
58- Watt, W. Montgomery. History of Islamic Spain.
59- Harvey, J.H. The Cathedrals of Spain.
60- Kubler, G. & M. Soria. Art and Architecture in Spain and Portugal and their Dominions, (1500-1800).
61- Irving, Washington. The Conquest of Granada.

٢ المصادر العربية

المعلومات المتوفرة عن سيرة الأندلسيين الموارِكة في المراجع العربية قليلة جدا أهمها مايرد في نفح الطيب ونبذة العصر (٨ و ١١ في المراجع العربية) . وتناول محمد عبد الله عنان موضوع الأندلسيين الموارِكة في ثلاثة من أعماله وهي : « نهاية الأندلس » (٩) في الصفحات ٢٢٤ - ٣١٤ ، وفي « مواقف حاسمة » (٣٥) ، الصفحات ٢٤٨ - ٢٥٨ ، و« ديوان التحقيق » . ومعالجته لموضوع الأندلسيين الموارِكة (ويسميهم العرب المتنصرين) عامة ، وهي تلقي كثيرا من الضياء على نضالهم والاضطهاد الذى تعرضوا له . كما ترد بعض المعلومات عن الأندلسيين الموارِكة في نهاية كتاب « التاريخ الأندلسي » (٢) مستقاة من (٨ و ٩ و ١٠ و ١١) الصفحات ٥٦٨ - ٥٧٣ . وليس هناك من حاجة هنا للتذكير باهمية المراجع الأندلسية الكلاسيكية لأى بحث عن الأندلس ولاسيما (٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ (وابن حيان يعتبر شيخ مؤرخي الأندلس) ٢٦ ، ٢٧ (ويرى الدكتور احسان عباس ان للدكتور حسين مؤنس الحجة في التاريخ الأندلسي) . ثم أخيرا مؤلفات الدكتور احسان عباس المدرجة . وفيما يلي لائحة باهم المراجع التي استعين بها لوضع هذا الكتاب .

١ - « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » . الدكتور احمد بدر .

٢ - « التاريخ الأندلسي » . الدكتور عبد الرحمن على الحجي ، ١٩٧٦ .

٣ - « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » . ابو عبد الله محمد المراكشى ابن عذارى .

٤ - « العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . ابن خلدون ، بيروت ، (الطليعة ٣) ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .

٥ - « صورة الأرض » . محمد بن على الموصلي الحوقلي البغدادي (ابن حوقل) ، بيروت .

٦ - « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر الطوائف والمرابطين) . الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧١ .

٧ – « الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية » . مجهول المؤلف .
٨ – « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » . المقرى ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .
٩ – « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » . محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
١٠ – « ازهار الرياض في أخبار عياض » . شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمساني (المقرى) ، القاهرة ، ١٩٣٩ – ١٩٤٢ .
١١ – « نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر » . مجهول المؤلف ، العرائش ، ١٩٤٠ .
١٢ – « اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ومايترتب عليه من العقوبات والزواجر » . ابو العباس احمد بن يحى بن محمد التلمساني الونشريشي ، مدريد ، ١٩٥٧ .
١٣ – « تاريخ افتتاح الأندلس ».ابو بكر محمد بن القوطية ، بيروت ، ١٩٥٧ .
١٤ – « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر سيادة قرطبة) . الدكتور احسان عباس ،
١٥ – « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » . أبو الحسن على بن بسام الشنتريني ، القاهرة ، ١٩٣٩
١٦ – « الإحاطة في أخبار غرناطة » لسان الدين بن الخطيب ، القاهرة ، ١٩٧٣ – ١٩٧٤ .
١٧ – « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » . محيي الدين عبد الواحد بن على المراكشي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
١٨ – « صفة جزيرة الأندلس » (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) ، أبو عبد الله محمد ابن عبد المنعم الصنهاجي الحميرى ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .
١٩ – « دولة الاسلام في الأندلس » . محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
٢٠ – « المقتبس في أخبار بلد الأندلس » ، ابن حيان ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٢١ – « تاريخ اوربا » (العصور الوسطى) ، فيشر ، (القسم الأول) ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ، ١٩٦٦ . (انظر المراجع الأجنبية رقم (٢)) .
٢٢ – « العرب في اسبانيا » . استانلي لين – بول ، ترجمة على الجارم ، القاهرة ، ١٩٦٠ . (انظر المراجع الأجنبية رقم ٣) .
٢٣ – « تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس » . الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ، ١٩٦٢ .
٢٤ – « الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال » . محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٦١ .
٢٥ – « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » . شكيب ارسلان ، فاس ، ١٩٣٦ .
٢٦ – « مذكرات الأمير عبد الله ، اخر ملوك بني زيرى بغرناطة » . عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيرى ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
٢٧ – « فجر الأندلس » (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الأموية (٧١١ – ٧٥٦ م) ، د . حسين مؤنس ، القاهرة . ١٩٥٩ .

٢٨ - « اثر العرب في الحضارة الأوروبية » (نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة) . جلال مظهر ، ١٩٦٧ .

٢٩ - « الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية » كريم عجيل حسين ، بيروت ، ١٩٧٦ .

٣٠ - « حضارة العرب في الأندلس » ، ا . ليفي بروفنسال ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت . أنظر المراجع الأجنبية رقم (٥٣) .

٣١ - « رحلة الأندلس » د.حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٣٢ - « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٣٣ - « بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٣٤ - « مقدمة ابن خالدون » تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٦٥ (اربعة أجزاء) .

٣٥ - « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » محمد عبد الله عنان ، القاهرة ،(الطبعة الثالثة) ، ١٩٥٢ .

٣٦ - « تاريخ مسلمي أسبانيا » ، ر . دوزى ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٣ . (انظر المراجع الأجنبية رقم ١٦) .

نشـــر للمؤلـف

□ سير ونقد :

روبرت، شومان

جوزيبي فيردى

تشارلز داروين

□ قصص قصيرة

لاتقتلوا الكنارى

العجوز والليل

الضربة الأخيرة

الخـــور

طفلتان ورجل

الأستاذ خميس فجلة

من بيروت الى بومباى

□ ترجمات :

الجميلات لايعرفن الإخلاص	(انطون تشيخوف)	مسرحية
هذه حال الدنيا	(برينتشاند)	قصــة
العالم ليس لنا	(جان وليامز)	قصــة
غرفة فوق النهر	(شون اوفالن)	قصــة
المـــور	(جوزف كونراد)	قصــة

جميع الحقوق محفوظه للمؤلف
الطبعه الأولى - القاهرة ١٩٨٣

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٥١ / ٨٣

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطابع انترناشيونال برس
فى ٢٧ يناير ١٩٨٣ م
الموافق ١٣ ربيع الثانى ١٤٠٣ هـ
القاهرة
جمهورية مصر العربية

طبع بمطابع
International Press
٥ جمال الشاعد – مدينة الصحفيين ت ٨١٤٢٥٩

HISTORY OF THE MORISCOS

A.S. BISHTAWI

تصويب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٨	٣	باقيا	باق.
١٠	الأخير	ولكن الجزية فى	ولكن الجزية لم تنجح فى
١٩	٧	ه ول	دول
٢٦	٧	وجهات المنفيين	وجهات الأندلسيين المنفيين
٢٦	٩	الأندلسيين بعد النفى	الأندلسيون بعد النفى
٢٨	٨	شخصيات ومواضع معربة	دليل الأعلام والمواضع
٤٠	الأول	دورا واستريما	واستريما دورا
٥٠	١١	سانشو الثالث فى	سانشو الثالث تكررت فى
٩٢	١٣	طلبيرة	طبيرة
١٠٢	الأول	توزع الأندلسيون	توزع الأندلسيين
١٥٨	٢٣	شقيف	شقيق
١٩٣	١٢	انسحبت أسبانيا ...	انسحبت أسبانيا من مدينة
١٩٣	١٤	وانحسر	وانحصر
٢٤٦	١٠	أم فكرة	أما فكرة
٢٥٢	٢٧	أمر	أو
٢٥٣	١٢	وبما	وربما
٢٥٦	الأخير	ص ٢٠٧	ص ٢٣٥
٢٧٠	٢	أو بشكل اغ .. مطور	أو بشكل مطور
٢٧٧	٥	ما إستفادة الأمم	ما إستفادت الأمم
٢٨٠	الأخير	ص ١٧٩	ص ١٩٤
الغلاف	٣	شبة جزيرة	شبه جزيرة
الغلاف	٦	الأذي	الذى

هذا الكتاب

استكملت الملكة ايزابيلا سنة ١٤٩٢ مابدأه بلايو قبل سبعة قرون فسددت طعنه أخيرة قاضية للأندلس راسمة باستسلام غرناطة معالم كارثة لم يعرف الوطن العربي مثيلا لها . ولكن زوال السلطة الإسلامية عن شبة جزيرة ايبرية لم يتضمن زوال الأندلسيين . وأن تمكنت قشتالة من تقويض الجسد الأندلسي فإنها لم تستطع السيطرة على الروح .

هذا الكتاب محاولة جادة لتسليط الضياء على تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، وازالة الغموض الذي لف سيرتهم ، وانصافهم من الموقع الاذي احتلوه كحاشية في مجلدات التاريخ الأندلسي . وهو أيضا محاولة جديدة لكشف خبايا التاريخ الأندلسي الموركي وسرد وقائع النضال الذي خاضه أكثر من ثلاثة ملايين أندلسي في سبيل الحفاظ على وجودهم وعروبتهم ودينهم طوال قرنين كاملين نظموا خلالهما ثورتين مشرفتين تصدوا فيهما لاعتى قوى الأرض في القرن السادس عشر .

والكتاب صفحة جديدة لوضع نضال الأندلسيين الموازكة ضمن اطارية الدولي والمحلي ، وتسجيل لوقفتهم في وجه محاولات التذويب التي نظمها كارلوس الخامس وفيليب الثاني ومحاكم التفتيش ، ولدورهم في تقويض دعائم الإمبراطورية الأسبانية ورفع أعمدة التطور الحضارى والإنساني في أوروبة .

Bibliotheca Alexandrina
0249153